المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ٧ - ٥٢

النَّباتاتُ الطِّبِّيَّةُ مُسَكِّنَةُ الْآلَامِ فِي مِصْرَ الْقَدِيمَةِ

Analgesic Medicinal Plants in Ancient Egypt

رجب عبداللطيف محمد محمد(*)

ملخص

الهدف من هذه الورقة هو دراسة مختلف أنواع النباتات الطبية مسكنة الآلام فى مصر القديمة، مع التعرف على المقصود من النباتات الطبية وأماكن نموها فى مصر وأسباب شهرتها العلاجية، وتعريف الألم وتصنيفاته المختلفة، والمقصود بالمسكنات والفرق بينها وبين التخدير، مع التعرف على دور الطبيب المعالج فى تحديد سبب الألم بطرق مختلفة ثم التوصل إلى المسكن الخاص بكل حالة، إضافة إلى ذلك سوف تلقى ورقة البحث الضوء على أنواع مسكنات الألم بداية من مسكنات الرأس والتى تحتوى على مناطق عدة من الممكن أن تكون سببا للألم مثل الأوعية الدموية والعيون والأنف والأذن والأسنان، والتعرف على مسكنات البطن والأطراف والعظام، بالإضافة إلى التعرف على مضادات الإلتهابات المختلفة كمسكنات للألم، والتعرف على مسكنات الجروح المختلفة والمستخدمة فى العمليات الجراحية وما بعدها.

الكلمات المفتاحية: النباتات الطبية – المسكنات – الألم – الطبيب – الرأس – البطن – الالتهابات – العمليات الجراحية.

(*)مدرس تاريخ مصر القديمة، كلية الآداب – جامعة بورسعيد.

Lecturer of the History of Ancient Egypt, Faculty of Arts, Port Said University

Abstract:

The aim of this paper is to study the various types of analgesic medicinal plants in ancient Egypt, with the identification of the meaning of medicinal plants, the places of their growth in Egypt and the reasons for their therapeutic fame. It also aims to define pain and its different classifications, as well as what is meant by analgesics and the difference between them and anesthesia, with the identification of the role of the treating physician in determining the cause of pain in different ways and then finding the analgesic for each case.In addition, the research paper will shed light on the types of analgesics, starting with the head analgesics, which contain several areas that can be a cause of pain such as blood vessels, eyes, nose, ear and teeth, and identify the analgesics for the abdomen, limbs and bones. Furthermore, it will identify different anti-inflammatories as analgesics, and different wound analgesics used in surgical operations and beyond.

Keywords: medicinal plants, analgesics, pain, physician, head, abdomen, infections, surgeries.

مقدمة:

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن الطب البديل أو التكميلي. وقد ظهر هذا الاهتمام في العالم الغربي منذ عدة سنوات حينما اكتشفوا أن الطب الحديث لم يساعد في علاج الكثير من الأمراض، بينما تتمتع الكثير من الدول التي تعتبر من دول العالم الثالث بصحة أفضل لاستخدامها الوصفات المحلية في التطبيب، وقد ذكر هيرودوت قديما أن المصريين القدماء هم أسعد و أصح شعوب الأرض، حيث اشتهروا بالتقدم الطبي وإنتاجهم للنباتات الطبية بين شعوب العالم القديم(١).

وقد أفادت عدة مصادر طبية مصرية مهمة أن العلاج بالأعشاب المختلفة

(١) راندا بليغ: "ارتباط الطب في مصر القديمة بما يعرف بالطب البديل أو التكميلي"، مجلة دراسات فى آثار الوطن العربى، دورية علمية محكمة تضم حصاد أعمال المؤتمر الدولى للاتحاد العام للآثاريين العرب، المجلد ٨، العدد ٨، ٢٠٠٥، ص ٦٥ – ٦٨؛ صديق رشوان صديق: "دراسة تأثير بعض النباتات الطبية على نمو بعض الفطريات الجلدية (الثوم – حبة البركة – الحنة)"، مجلة أسيوط للدراسات البيئية، العدد الثالث والعشرون (يوليو ٢٠٠٢)، ص ١١٩

– سواء أكان شرابًا يُشرب أم مأكولًا يُتناول أم موضوعًا يُضع أم متبخرًا ومستنشقًا – له دور فعال فى شفاء الكثير من الأمراض، ففي بردية إيبريس الطبية وحدها قائمة طويلة بأنواع مختلفة من النباتات واستخداماتها في الطب، وتأثيرها على أمراض بعينها أو مناطق معينة في الجسم. واشتملت على جميع أجزاء النبات كالجذور والساق والأوراق والثمار والحبوب، وحتى القشور(١).

ولم يعرف الاطباء القدامى السبب الذى يجعل نباتا ما ذا قدرة علاجية، لكنهم اهتدوا بخبرتهم إلى القيمة العملية والفعلية التى يتمتع بها نبات ما عند التداوى(٢). فلم يكن للمصريين القدماء أن يقوموا بمثل هذه الإنجازات والأعمال الشاقة وهم يشعرون بآلام مبرحة فى أجسادهم.

---

(١) راندا بليغ: "ارتباط الطب في مصر القديمة بما يعرف بالطب البديل أو التكميلي"، ص ٦٩ – ٧٠؛ ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ترجمة أحمد زهير أمين، مراجعة محمود ماهر طه، مكتبة مدبولى، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١١٧؛

PRAVEEN K. SAXENA, "Development of Plant-Based: Medicines Conservation", *Springer Science + Business Media,* Dordrecht, Germany, 2001, p 70.

(٢) عرف المصريون القدماء الكثير من الآثار العلاجية للنباتات الطبية منذ فترة العصر الحجرى القديم، وخوفا على هذه المعرفة من الضياع كان الآباء ينقلونها لأبنائهم فى المنزل، وبالتالي شكلت هذه المنازل أول صيدلية بدائية ومدارس للطب فى التاريخ. قرن بعد قرن، أصبح المصريون القدماء أكثر اهتمامًا بالعلوم الطبية، وبدأت المعابد في إنشاء مدارس طبية وصيدلانية، وتم اختيار بعض الكهنة ممن تميزوا بشخصية جيدة وصادقة مع خلفية علمية ليصبحوا معلمين وأساتذة في هذه المدارس، والتي كانت تقدم جميع الدورات العلمية فى مختلف المجالات وأطلق عليها بيوت الحياة. لمزيد من التفاصيل راجع:

ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ١١٧؛

SAMIR YAHIA El-GAMMAL, "Pharmacy and medicine education in ancient Egypt". *Bull Inst Hist Med Hyderabad*, Vol. XXIII, No.1, (1993), p 37; PATRIK E. MCGOVERNA, ARMEN MIRZOIANB, and GRETCHEN R. HALLA, "Ancient Egyptian herbal wines", *a Museum Applied Science Center for Archaeology, University of Pennsylvania Museum of Archaeology and Anthropology,* Philadelphia, Edited by Ofer Bar-Yosef, Harvard University, Cambridge, MA, and approved February 23, 2009, p7361.

فالمعروف منذ عصر ما قبل الأسرات حتى عصر الدولة القديمة ومع شدة الألم كان يمكن للمرضى تحمل الإجراءات المؤلمة بشكل استثنائى دون الحاجة إلى مهدئات أو تخدير، ولكن مع الحاجة الماسة للتداوي عرف المصريون مع عصر الدولة القديمة عدة أنواع من النباتات المسكنه كان أهمها فاكهة الماندريك، وأزهار اللوتس والقنب (الحشيش)، والخشخاش وغيرها الكثير، بالاضافة إلى معرفة خصائص كل منها وما تقوم به فى أى جزء من الجسم، حتى أضحت مدرسة المسكنات من أهم مدارس الطب فى مصر القديمة مع نهاية عصر الأسرة الثامنة عشر[(١)]. (شكل ١)

المقصود بالنباتات الطبية وأهميتها:

أثبتت التجارب العديدة أن المواد الكيميائية الدوائية الصناعية في أغلب الأحيان لديها تأثيرات جانبية ضارة بجانب الأثر العلاجي الأساسي المستخدمة من أجله كما أنها قد لا تؤدي التأثير الوظيفي نفسه للمواد الفعالة في النباتات

[(١)] الماندريك: هو أحد الأعشاب الزهرية الزرقاء الشاحبة، كما أن أوراقه مستطيلة بيضاوية ويحتوي على توت أصفر مستدير ويتميز بجذعه السميك المتشعب حيث يشبه وجه الإنسان، يبلغ طول أوراقه السفلية حوالي ٩٠ سم، بعرض ٦٠ سم، أما الأوراق العلوية فهي أصغر وعادة ما تكون الأوراق السفلية غير مسننة في نهايتها، كما تتفرع شعيرات من كلا جانبي الأوراق، بالإضافة إلى إطلاق العديد من الأسماء على هذا النبات مثل ماندريك، تفاحة الشيطان، تفاح المجانين، اللفاح، ماندراكورا، اليبروح، الشجيع، عين الديك، نبتة عين العفريت وتحتوي جذور هذا النبات على بعض المواد الكيميائية القلوية التي تشتمل على الأتروبين وسكوبولامين وهَيُوسَيامِين حيث إن هذه المواد الكيميائية هي مضادات الكولين، والمهلوسات، والمنومات. لمزيد من التفاصيل راجع:

RICHARD SULLIVAN, "Proto-Surgery in Ancient Egypt", *Department of Physiology, Faculty of Clinical Sciences,* University College London, AM,Vol. 41,(1998), p 111; https://www.alriyadh.com /1740451;

زين العابدين مبارك: الحشيش، المركز العربى للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، ١٩٨٦، ص ٢٣.

الطبية، ومن هنا تظهر أهمية النباتات الطبية في العلاج، لأن المواد الفعالة في هذه النباتات لا تنفرد بجزء على المواد الفعالة الشافية مما يجعلها مفيدة في مداواة أمراض مختلفة(١)، ويعتبر هذا النوع من النباتات من المحاصيل غير التقليدية الهامة ذات الاستخدامات المتعددة، إذ انها تحتوى على العديد من المركبات العضوية بالإضافة الى المواد الاخرى مثل الكربوهيدات والبروتينات والدهون النباتية(٢).

وُيعرّف النبات الطبي "بأنه كل شيء من أصل نباتي ويستعمل طبيا"، وُيدعى النبات نباتا طبيا إذا امتلك عضوًا أو أكثر من أعضائه على مادة كيميائية واحدة أو أكثر بتراكيز منخفضة أو مرتفعة وتكون لها القدرة الفيسيولوجية على معالجة مرض معين أو على الأقل تقلل من أعراض الاصابة بهذا المرض، إذا أعطيتها للمريض في صورتها النقية أو في صورة عشب نباتي طازج أو مستخلص جزئيا(٣).

وقد تتفاعل مكونات النباتات مع بعضها البعض، ويمكن أن يكون هذا التفاعل مفيدًا لكليهما أو ضارًا لأي منهما أو يزيل الآثار الضارة لكليهما، ويمكن للمركبات المشتقة من النباتات أن تداوي بشكل كبير الأمراض التي يصعب علاجها أو على الأقل تسكن آلامها، وتتميز مكونات النبات أيضًا بقدرتها على منع تطور بعض الأمراض المختلفة(٤).

---

(١) مجراب حمزة: النباتات الطبية والعطرية وطرق استخدامها فى التداوى، رسالة ماجستير (غير منشورة)، قسم البيولوجيا وأيكولوجيا النبات، كلية علوم الطبيعة والحياة، جامعة الأخوة منتورى قسنطينة، الجمهورية الجزائرية، ٢٠٢٠م، ص ٢٠ - ٢١

(٢) صديق رشوان صديق: دراسة تأثير بعض النباتات الطبية على نمو بعض الفطريات الجلدية، ص ١١٩؛ حسن موسى رضوان: "
دراسة اقتصادية للوضع الإنتاجي والتجارة الخارجية لأهم للنباتات الطبية والعطرية فى مصر"؛ *AJAS*, Vol. 50, No. 1, (2019), Website: www.aun.edu.eg/
p 181. .faculty_agriculture/journals_issues_form.php E-mail: ajas@aun.edu.eg

(٣) مجراب حمزة: النباتات الطبية والعطرية وطرق استخدامها فى التداوى، ص ٢٠.

(٤) FATEMEH JAMSHIDI-KIA, "Zahra Lorigooini*", HOSSEIN AMINI-KHOEI, "Medicinal plants: Past history and future perspective", *JHP, Medical Plants Research Center, Basic Health Sciences Institute, Shahrekord University of Medical Sciences*, Shahrekord, Iran,(2018), pp 1 – 2.

كانت النباتات الطبية تنمو فى وادى النيل والصحارى وحدائق المعابد والهياكل وقد عرفوا وأدركوا مزاياها وفوائدها الكثيرة منها واستخلصوا موادها الفعالة وجلبوا بعضها من البلاد المجاورة(١)، واستمدت بعض الأدوية شهرتها من حقيقة أنها عالجت شخصية مرموقة في ذلك الوقت أو أحد ملوكهم. وكانت بعض الأدوية شائعة بشكل خاص كعلاج شامل لجميع الأمراض، عرفت باسم (الأدوية الإلهية)، حيث كانوا يعتقدون أن معبود الشمس رع، الذي عانى في شيخوخته من عدة أمراض، صنعت أدوية لعلاجه وعلاج جميع الرجال(٢). (شكل٢)

المقصود بالألم ومسكنات الألم:

يمكن تعريف الألم بأنه إحساس جسدي بعدم الراحة الحاد، أو أحد أعراض بعض الأذى الجسدي أو الاضطراب، أو حتى الاضطراب العاطفي. ويعد الألم جانبًا مهمًا من آليات دفاع الجسم وهو جزء من تعليمات التحذير السريع للخلايا العصبية الحركية للجهاز العصبي المركزي لتقليل الأذى الجسدي(٣).، ويمكن تصنيف الألم إلى نوعين حسب شدة الألم:

أ) الألم الحاد: "هو تحذير الجسم من الضرر الحالي للأنسجة أو المرض. غالبًا ما يكون سريعًا وحادًا يتبعه ألم مؤلم. إنه ألم قصير الأمد لأسباب يمكن التعرف عليها بسهولة".

ب) الألم المزمن: "هو الألم الذي يستمر لفترة أطول بكثير من الألم الذي يحدث عادة مع إصابة معينة". يمكن أن يكون الألم المزمن ثابتًا أو متقطعًا وعادة ما يكون علاجه أصعب من الألم الحاد. كما يمكن أيضًا تصنيف

---

(١) N. H. ABOELSOUD, "Herbal medicine in ancient Egypt",*JMPR*, Vol. 4, No. 2, (2010), Available online at http://www.academicjournals.org/JMPR, p 85.

(٢) وليم نظير: الثروة النباتية عند قدماء المصريين، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢١٣.

(٣) MANISH KUMAR*, ABHILASHA SHETE, ZAFAR AKBAR, "A Review on Analgesic: From Natural Sources", *Institute of Biomedical Education & Research, Mangalatatan University*, Aligarh. Uttar Pradesh, India, IJPBA, (2010), Vol.1, No. 2, p 95.

الألم حسب مصدره والخلايا العصبية ذات الصلة التي تكشف عن الألم مثل الألم الجلدي، والألم الجسدي، والألم الحشوي، وآلام الأعصاب(١).

وعرف ماكدونالد المسكنات على أنها أدوية تقلل أو تخفف الإحساس بالألم دون إحداث فقدان للوعي أو اكتئاب موازٍ للحواس الأخرى. ومن وجهة نظر بديلة، يمكن تعريفها على أنها أدوية يتمثل تأثيرها الأساسي في تقليل تفاعل الجهاز العصبي المركزي للألم، والتي قد يؤدي استخدامها المتكرر إلى الإدمان(٢).

وتعتبر المسكنات عكس الأدوية المستخدمة للتخدير أثناء الجراحة، حيث لا تؤدي المسكنات إلى إيقاف الأعصاب أو تغيير القدرة على الإحساس بالمحيط الخارجى أو تغييب الوعى. كما يطلق عليها أحيانًا مسكنات الألم والالتهابات(٣)، وهناك دائما ما هو أكثر من المسكنات والتى تم التعرف على أهمية استخداماتها. حيث لا ينبغي نسيان أهمية شرح الآليات الكامنة وراء ألم المريض بعبارات بسيطة. الألم الذي لا معنى له، أو الأسوأ من ذلك، يُنظر إليه على أنه تهديد يكون دائمًا أكثر حدة من الألم الذي يمكن فهمه(٤).

دور الطبيب المعالج فى تحديد سبب الألم والعلاج المناسب:

كان المصريون القدماء متقدمين للغاية فى تشخيصهم وعلاجهم لكثير من الأمراض بالاضافة إلى قدرتهم فى كثير من الأحيان على تحديد سبب الألم(٥)، حيث

---

(١) EMANUEL LL, VON GUNTEN CF, FERRIS FD, Module Pain Management. The Education for Physicians on End-of-life Care *(EPEC) curriculum*, 1999, pp 1-3 ; Husni T, Hantash AEJ, "Evaluation of Narcotic (Opioid Like) Analgesic Activities of Medicinal Plants", *EJSR, Vol.33*, No.1, (2009), pp 179-182.

(٢) WOOLMER, RONALD. "Analgesic drugs." *British journal of anaesthesia, Vol. 27*, No.6, (1955), p 276. (276-285)

(٣) https://my.clevelandclinic.org/health/drugs/21483-analgesics.

(٤) ROBERT G. TWYCROSS, "Analgesics", *PMJ, Vol. 60*, (December 1984), p 876.

(٥) N. H. ABOELSOUD, *Herbal medicine in ancient Egypt*, p 85.

كانت للأطباء براعة وفطنة وقوة الالهام فى تشخيص الأمراض عند رؤيتهم للمريض من المرة الأولى علاوة على ما يظهر لهم من هيئته ولونه واختبار أعضاء الجسم والجلد والشعر والأظافر وتحليل البول وغيره، والتدقيق فى فحص الأجزاء المستترة بكل الوسائل حتى الحوايا والأعضاء الحيوية بداخل البطن ليس باللمس فقط بل باستعمال الطرق الفنية عند الحاجة إليها[١].

وتشير النصوص إلى أن الطبيب كان يوجه أسئلة إلى المريض يتعرف الداء. كان يسأله عن عمره وتاريخ مرضه وسيره وعن نومه وعن يقظته. كان يبحث عن أعراض الإصابة حينذاك، وكان غالبًا ما يقدم المريض نموذجًا لمنطقة الجسم التي احتوت على ألمه أو مرضه[٢]. وكان الطبيب يبدى اهتماما بحركات المريض لأن حركة المريض أبلغ من وصفه. ففى حالة عسر هضم وردت فى بردية إبريس فى الوصفه رقم ١٨٩ العبارة التالية: *"إذا فحصت انسانا مريضا بفم معدته. وكل أعضائه ثقيلة من دخول الضعف. فضع يدك على فم معدته....."* يتضح من العبارة السابقة أن الطبيب حدد منطقة المرض وذكر شعور المريض وأثر المرض على حركة الاعضاء كلها[٣]. (شكل ٣)

وكان للأطباء فى مصر القديمة طرقًا للكشف على المرضى والوصول إلى معرفة الألم فكانوا يستخدمون الجس أى تحسس مناطق الألم. أو القرع للتعرف على

---

(١) يوليوس الجيار، لويس ريتر: الطب والتحنيط فى عهد الفراعنة، تعريب: أنطون زكرى، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٥٤.

(٢) CAROLE REEVES, "Egyptian Medicine", *Shire Egyptology Series; No. 15*, United Kingdom, 1992, p 25.

(٣) حسن كمال: الطب المصرى القديم، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١١١ - ١١٢

مراكز الأعضاء مواضع المرض، ولم يخبرنا قدماء المصريين عن طريقة استعمالهم للقرع، إلا أننا حديثًا يمكننا وصفه بأن يُضغط بالأصبع الوسطى أو السبابة اليسرى على المكان المطلوب فحصه. ثم يقع بالاصبع الوسطى اليمنى على الإصبع الضاغطة فيسمع رنين نتيجة لذلك. فاذا كان ما تحت الاصبع الضاغطة أجوف كان الرنين عاليا واضحا. وإذا كان صلبا كان الرنين خافتا مليئا. بهذه الطريقة يمكنك تحديد سطح الغازات فى هذه المنطقة وبالتالى التعرف على كميتها[١].

أما ربات البيوت فاعتمدن على الخبرة والتقديرات التقريبية، وكان الطبيب إذا وصف علاجا لمريضه كان يرسل إليه العقار مصحوبا بإرشادات كتابية عن كيفية استعماله، كما يفعل صيادلة العصور الحديثة[٢].

أنواع مسكنات الآلام:

١ – مسكنات الرأس (الصداع – العيون – الأنف والأذن – الأسنان):

تشتمل رأس الإنسان على مناطق عدة من الممكن أن تكون مصدرا للألم الشديد الذى قد يؤدى إلى صرخات لا تنتهى مثل الصداع الكلى أو النصفى أو آلام العيون أو الأنف والأذن وأخيرا آلام الأسنان: ونتيجة لارتباط المصرى القديم بالطبيعة منذ القدم بدأ يهتدى إلى بعض النباتات التى تعمل كمسكن لتلك الآلام تؤخذ مع العلاج الفعلى لإتمام عملية الشفاء وحتى لا يتعطل الإنسان عن أعماله الشاقه التى كان يقوم بها.

ففى الوصفة الأولى: استخدم الخشخاش وأوراق السنط[٣] ، حيث كان

---

(١) حسن كمال: الطب المصرى القديم، ص ١١٢ – ١١٦.

(٢) ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ١١٨.

(٣) الخشخاش (الأفيون): أكدت الدراسات النباتية أن الموطن الأصلي لخشخاش الأفيون كان الساحل الجنوبي الأناضولي للبحر الأسود، وليس الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. كما قام السومريون، الذين أطلقوا عليه اسم نبات الفرح، بزراعته بحلول عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد، وربما قاموا بنقع الكبسولات في الماء أو الشراب أو النبيذ لإنتاج الشاي =

يطحن الخليط ثم يطرى بالماء ويُتناول من الفم لمدة أربعة أيام وذلك لتسكين آلام الرأس والعيون[١]، ومن الواضح أن كفاءة العقارين السابقين أساسه الخشخاش (المادة المخدرة) لا أوراق السنط، ومن المحتمل أنه كان شائع الاستخدام فى الدولة القديمة، أما كبسولات الخشخاش، فقد تم تصويرها مقترنة دائما بفن صناعة المعادن الثمينة.. مثال على ذلك زوج من الأقراط مصنوع من الذهب مع خرطوشين لسيتى الثانى، يتدلى منهما كبسولات من الخشخاش، وكانت هذه الكبسولات تستخدم كمكونات أساسية للقلائد المصنوعة من الذهب أو المصنوعة من الأحجار الصلدة، وتستخدم هذه الكبسولات لتهدئة الصرخات وتوقفها فى الحال والتى تنتج عن كثير من الأمراض أهمها الرأس[٢]. (شكل ٤)

أما الوصفة الثانية: استخدمت بذور الشبت مع عنب الحية والكسبرة وودك

= المسكن الذي أطلق عليه الإغريق القدماء ميكونيون، من الأدلة على استخدام الأفيون من قبل السومريين لوح من الوصفات الطبية التي عثر عليها في نيبور (٢١٠٠ قبل الميلاد)، وذكر بلينى خلال قدومه الى مصر أن الخشخاش معروف للمصريين. وأنه لا يزال موجودًا حول الإسكندرية، التي تزهر في مارس وأبريل من كل عام، بعد أن تم اكتشافها في أكاليل الجثث مثل تلك التي تعود للأميرة نيسي خونسو (الأسرة الثانية والعشرون). كما تم العثور على نوع الخشخاش المستخدم في الحدائق "الخشخاش الأحمر"، في إناء تم اكتشافه في مقبرة خاع في دير المدينة ١٥٠٠ق.م. تقريبا، واستخدم لتخفيف الألم فى أمراض عدة مثل الكبد والرئتين وديدان الأمعاء والخراج والحمى وغيرها. لمزيد من التفاصيل راجع:
PAULA VEIGA, "Opium: was it used as a recreational drug in ancient Egypt?". *EUT, (2017)*, pp 200 – 201.

(١) RICHARD SULLIVAN, *Proto-Surgery in Ancient Egypt*, p 111.
ولمزيد من التفاصيل عن أمراض العيون فى مصر القديمة. راجع:
S. RY ANDERSEN, "The eye and its diseases in Ancient Egypt", *History of Ophthalmolow, AOS,* Vol. 75,No. 3, (1997), pp 338 – 344.

(٢) كريستيانو داليو: الطب عند الفراعنة (أمراض– وصفات طبية– خرافات ومعتقدات)، ترجمة، إبتسام محمد عبدالمجيد، مراجعة علمية، نبيل عبيد، مراجعة أثرية، على رضوان، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٩٢– ٩٣.

الحمار، حيث كان يطحن الخليط ويصنع منه مرهمًا ويستخدم موضعيا مُسّكنًا للصداع(١)، وفى وصفة ثالثة: كان يستخدم لبان ١رو(٢)، عرعر١ رو، كمون١رو، ودك الوز١رو، تغلى ثم تدهن بها الرأس لمدة أربعة أيام لدفع الألم(٣)، أما عن ربط

---

(١) ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ١٥٤، ولمزيد من التفاصيل عن علاج الصداع عند المصريين القدماء راجع:
LUTZ POPKO, "Some Notes on Papyrus Ebers, Ancient Egyptian Treatments of Migraine, and a Crocodile on the Patient's Head", This is a preprint of an accepted article scheduled to appear in *The Bulletin Of The History Of Medicine*, Vol. 92, No. 2 (Summer 2018), pp 1 – 22.

(٢) شجرة اللادن وهى المعروفة بشجرة اللبان والتى تنتمى إلى العائلة البخورية، وهى عبارة عن شجرة مورقة يصل ارتفاعها فى بعض الأحيان إلى خمسة أمتار، وقد تكون من ساق واحدة أو عدة سيقان تنمو من قاعدة الشجرة مباشرة، وهى ذات قلف ورقى سهل التقشر، وأوراقها معنقة الشكل ومركبة بشكل تبادلى، وتتكون الوريقة من ٦ – ٨ من الأزواج من الوريقات المتبادلة، وهى مستطيلة الشكل ذات حواف متموجة ولها قمة مستديرة، وللشجرة أزهار تنمو من أطراف الفروع، وثمرتها عبارة عن علبة بيضاوية الشكل ذات لون أحمر، وتحتوى كل ثمرة على بذرة واحدة، يتم استخراجها مرتين أو ثلاث سنويا، انتشرت قديما فى شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين والحبشة وحضر موت، واستخدمت فى عديد من وصفات الطب الشعبى. لمزيد من التفاصيل راجع:
منير عبدالجليل العريقى: "النباتات المقدسة فى الحضارة اليمنية القديمة"، مجلة الإتحاد العام للآثاريين العرب، المجلد ٩، العدد ٩، (ديسمبر ٢٠٠٨)، ص ٣١٠، ص ٣٠٤– ٣٣٦؛ كريستيانو داليو: الطب عند الفراعنة، ص ١٨٥.

(٣) يمكن حساب الموازين فى مصر القديمة وما تساويه فى الوقت الحاضر من خلال الجدول التالى:

الكيل المصرى القديم	ما يساويه بالسنتيمتر المكعب
(رو) = ملء الفم	١٤ – ١٥ سم٣
٢ (رو) = ملء الحقنه	٢٨ – ٣٠ سم ٣
٤ (رو) = ملء حقنتين	٥٦ – ٦٠ سم٣
٨ (رو) = ملء ٤ حقنات	١١٢ – ١٢ سم٣
١٦ (رو)	٢٢٤ – ٢٤٠ سم٣
٣٢ (رو) ملء ابريق	٤٤٨ – ٤٨٠ سم٣
٦٤ (رو)	٨٩٦ – ٩٦٠ سم٣
١٠ هن أو هنو = ٣٢٠ رو = ١ حكات = ٤,٥ الى ٤,٨ لترا = ملء زلعة أمفورا.	

الرأس فكانت تلك العادة – ولا زالت – تُسْتَخدم عند الشعور بشدة الصداع وآلام الرأس، وإن كانت هذه العادة قد انتشرت قديمًا مع بعض الاختلاف، وقد أوضحت لنا بردية إيبريس على وصفة قديمة للصداع النصفي (نصف الصدغ) وآلام الرأس بناءً على وثائق طبية سابقة ربما لأكثر من ٢٥٠٠ ق.م....، اعتقادًا منهم أن الآلهة يمكن أن تعالج أمراضهم، تم ربط تمثال على شكل تمساح مقدس مصنوع من الطين مع بعض الأعشاب والحبوب المحشوة في فمه بقوة على رأس المريض بواسطة عدة شرائط من الكتان أو نبات البردى... ومن المسلم به أن هذه العملية ربما تكون قد خففت من الصداع عن طريق الضغط على فروة الرأس وتبريدها مما يؤدى إلى انهيار الأوعية المنتفخة التي كانت تسبب الألم(١). (شكل ٥)

كما استخدم المصرى القديم حب العزيز كعقار مقوي ومسكن ضد الصداع والأمراض المعدية والمعوية، حيث كان يُحمص ويُطحن ويجهز منه شراب مثل السوبيا، ويستخدم وقت الحاجة(٢)، ولعلاج التهاب الحلق وآلام الأسنان، استخدم الثوم والقرنفل الطازج، حيث كان يتم تقشير القرنفل الطازج وهرسه مع الثوم وتتبيله في خليط من الخل والماء، يمكن استخدام هذا في الغرغرة وشطف الفم أو تناوله داخليا(٣)، وكان الثوم عاملًا مهمًا يسُتخدم بطرق عدةٍ لشفاء العديد

= لمزيد من التفاصيل راجع:
حسن كمال: الطب المصرى القديم، ص ١٤٣؛ ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ٢٣٢.

(١) LUTZ POPKO, *Some Notes on Papyrus Ebers*, p 2.

(٢) وليم نظير: الثروة النباتية عند قدماء المصريين، ص ٢٢٨.

(٣) SAMUEL ADU-GYAMFI, "Ancient Egyptian Medicine: A Systematic Review", PSHD , *Department of History and Political Studies, Kwame Nkrumah University of Science and Technology*, Ghana, Vol. II, (2015), pp 11 – 12; N. H. Aboelsoud, *Herbal medicine in ancient Egypt*, p 83.

ولمزيد من التفاصيل عن جراحة طب الأسنان فى مصر القديمة. راجع:
R. J. FORSHAW, "The practice of dentistry in ancient Egypt", *BDJ*, Vol. 206, No. 9, (May 2009),pp 481 – 486.

من الأمراض ففضلًا عن طريقة هرسه السالفة الذكر هناك طرقًا أخرى لاستخداماته منها:

١) نقع عدة فصوص من الثوم المهروس في زيت الزيتون. يتم تطبيقه كمرهم خارجي أو يتم تناوله داخليًا وهو مفيد لشكاوى الشعب الهوائية والرئة بما في ذلك نزلات البرد.

٢) تقشير فص ثوم طازجًا ويُوضع فى شاش أو قماش قطني ومثبت في الملابس الداخلية للحماية من الأمراض المعدية مثل نزلات البرد والإنفلونزا.

والجدير بالذكر أن المصريين فى زماننا – بل وأغلبية سكان منطقة البحر المتوسط – لا زالوا يُولون الثوم أهمية كبيرة فى استخداماتهم اليومية فمنهم مَنِ يعتبره أقوى المضادات الحيوية الطبيعيةِ ويتناوله مثل الأقراص صباحًا قبل الفطور؛ للحماية من نزلات البرد والأمراض المعدية وخفض ضغط الدم والسكر فى الجسم(١).

ولقد عرفت مصر القديمة أهمية الثوم فلقد ذكر هيرودوت أن العمال الذين شيدوا الأهرام استهلكوا الثوم والبصل بكثرة فى طعامهم، ذلك لاستعمل الثوم منذ القدم دواءً للحميات ووقاءً من الأمراض التى تصيب الجسم بالهزال، كما أنه معرق ومدر للبول ومطهر للأمعاء، ويفيد فى علاج الدوستتاريا الأميبية ويوقف نمو البكتريا ويوصف كعلاج لتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم، واستخدم وقايةٌ من أمراض التيفود والدوستتاريا ومطهرًا للجروح والأسطح المتقرحة بعد مزجه بالماء والجدير بالذكر أنه أجريت أبحاثًا على الثوم فثبت أنه برؤوس الثوم مادة (الألبين) وهى مادة فعالة مقاومة للسرطان كذلك يحتوى الثوم على مواد

---

(١) N. H. ABOELSOUD, *Herbal medicine in ancient Egypt*, p 83.

مضادة للعفونة ومقاومة لضغط الدم، بالاضافة لاحتوائه على مركبات كبريتية وبروتينات وله القدرة على وقف الإسهال الميكروبى ويعتبر مطهرًا معويًا قويًا، ويُستخدم مع الخل المعقم ضد الجروح واقيًا من الطاعون وقاتلًا للجراثيم ويمنع انتقال عدوى الرشح، ومن أهم المواد الموجودة بالثوم هى مادة (الأليسين) وهى مادة زيتية تذوب فى الماء ولا لون لها وتعتبر بتركيزات بسيطة مضاد حيوى ضد البكتيريا السالبة والموجبة(١).

وبالنسبة للآلام والالتهابات الأنفية وتسكينها. استخدم خليط من الإثمد (كحل العين) والصبار والمر الجاف والعسل وكان يدهن بها الأنف لمدة أربعة أيام، ويعتقد أن هذه الوصفة من أصول آشورية، مما يؤكد على تبادل الخبرات الطبية بين الحضارات القديمة(٢).

وفى وصفة أخرى لتسكين آلام الأسنان كان يستخدم ثمار جميز مشقوقة ١رو، فول ١رو، ملكيت ١ رو، مغرة ١ رو، تسحق جميعها وتوضع على الأسنان عند الحاجة، كما استخدمت شجرة اللادن فى عمل مرهم من راتنج هذه الشجرة ويتم وضعه فى أذن المريض عن طريق قناة السمع الخارجية وقت الحاجة كمسكن للآلام العضوية الحادة الناتجة عن الإصابة بصديد فى الأذن(٣). (شكل ٦، ٧)

٢- مسكنات البطن والأطراف والعظام:

يأتي الألم الحشوي من أحشاء البطن، التي تغذيها الألياف العصبية اللاإرادية وتستجيب بشكل أساسي لإحساس الانتفاخ والتقلص العضلي، وعادة ما يكون الألم الحشوي غامضًا وباهتًا ومثيرًا للغثيان. تسبب هياكل المعى الأمامي (المعدة

---

(١) سهام السيد عبدالحميد عيسى: "المضادات الحيوية فى مصر القديمة"، مجلة دراسات فى آثار الوطن العربى، المقالة ٤١، المجلد ١٧، العدد ١٧، (٢٠١٤)، ص ١١٢١.

(٢) ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ١٥، ١٥١.

(٣) ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ٢٢٧.

والاثني عشر والكبد والبنكرياس) ألمًا في الجزء العلوي من البطن، كما تسبب هياكل المعى المتوسط (الأمعاء الدقيقة والقولون القريب والملحق) ألمًا حول السرة، وتسبب هياكل المعى الخلفي (القولون البعيد والجهاز البولي التناسلي) ألمًا في أسفل البطن(١).

قديما استخدمت عصارة الثوم لعلاج بعض الأمراض مثل آلام البطن لما له من فاعلية المضادات الحيوية فى التأثير على البكتيريا والفطريات وكذلك الطفيليات، ويحتوى الثوم على مركبات كبريتية وبروتينات وله القدرة على وقف الإسهال الميكروبى ويعتبر مطهرًا معويًا قويًا، ويستخدم مع الخل المعقم ضد الجروح وكواق من الطاعون وقاتل للجراثيم(٢).

وهناك عدة وصفات لتسكين آلام جوف البطن منها ما استخدم فيه الكمون فى وصفة تكونت من: كمون $\frac{1}{64}$، ودك الوز (دسم لحم الوز ودهنه) $\frac{1}{8}$، حليب ٢٠ رو. يغلى الخليط ويصفى ثم يتناوله المريض لمدة أربعة أيام، بينما تكونت وصفة أخرى من: لحم بقرى طازج ٥ رو، لبان $\frac{1}{64}$ رو، خس $\frac{1}{8}$ رو، عرعر حب $\frac{1}{16}$ رو، خبز طرى $\frac{1}{8}$ رو، جعة حلوة ٤٥ رو. يصفى الخليط ويشرب وتستخدم لمدة أربعة أيام أيضا للحصول على نتائج جيدة (٣).

وبجانب الوصفات السابقة، أخذت مصر من طب الأعشاب الآشورى بعض الوصفات حيث كان يصنع من بذور الخس مع الكمون مسكن لطيف

(١) PARSWA ANSARI , "Acute Abdominal Pain", *Hofstra Northwell-Lenox Hill Hospital*, https://www. msdmanuals.com/professionalgastrointestina-disorders/acute-abdomen - and -surgical –gastroenterology/acute-abdominal-pain, New York, 2021.

(٢) سهام السيد عبدالحميد عيسى: المضادات الحيوية فى مصر القديمة، ص ١١٢٢.

(٣) ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ٢٠٨ – ٢١٠، ٢٤٧ – ٢٤٨.

وكمادات للعيون وقد استخدم كمضاد حيوى، ولعلاج أمراض المعدة وآلام البطن، وكعلاج لطرد الديدان من الجوف، وكان يستخدم قديما لنمو الشعر إذ استخدم كدهان، وكان مستخلص الخس المغلى مع مكونات أخرى يستخدم كمهدئ للسعال[(١)].

ولتسكين وعلاج عفونة البطن وما يترتب عليها من آلام استخدمت القرفة فى وصفة تكونت من: كحل ١ رو، شمع ١ رو، لبان ١ رو، قرفة ١ رو، مر يابس ١ رو، ودك ثور ١ رو، زيت البان الحلو ١ رو، يستخدم ككمادة توضع على البطن لمدة أربعة أيام[(٢)]، كما استخدمت الكراوية – الشمر – الينسون – الكمون كشراب مغلى مسكن للآلام المعوية خاصة المغص وطرد غازات الأمعاء[(٣)].

ولتسكين وتهدئة القلب، وتبريد فتحة الشرج وإزالة حرارتها استخدم المصرى القديم الوصفة التالية: تمر طازج ٥ رو، شرائح فاكهة الجميز ١٦٥ رو، عمى ٨٠ رو، خروب مجفف ٥ رو، عسل ٨٠ رو، ماء، ويترك مكشوفًا للندى طوال الليل، ويستعمل لمدة أربعة أيام[(٤)].

---

(١) عادل عبدالعال: الطب القديم، خلاصة ما توصل إليه الطب المصرى القديم، الطبعة الثالثة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٢٣.

(٢) ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ١٩١.

(٣) وليم نظير: الثروة النباتية عند قدماء المصريين، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٣٠ – ٢٣٣؛
Patrick E. McGoverna,1, Armen Mirzoianb, and Gretchen R. Halla, Ancient Egyptian herbal wines, *aMuseum Applied Science Center for Archaeology*, University of Pennsylvania Museum of Archaeology and Anthropology, Philadelphia, Edited by Ofer Bar-Yosef, Harvard University, Cambridge, MA, and approved February 23, 2009 (received for review November 17, 2008), p 7365.

(٤) العمى: نبات عشبى سنوى سام، يزرع حاليا جنوب غرب فرنسا، ولمزيد من التفاصيل عن هذه الوصفه راجع:
Frans Jonkheere, La Médecine Égyptienne, VI, 13 A, No. 2, Le Papyrus Médical, Chester Beatty, Édition de la Fondation Égyptologique reine Élisabeth parce du Cinquantenaire, Bruxells, 1947, p 27.

ولعمل مسكن ومهدئ للأوعية الدموية بكل الأطراف تُؤخذ كميات متساوية من أوراق السدر والصفصاف والسنط وملح من الوجه البحرى، ثم تُخلط بثمار الكرات الرومى وأطحنها جميعا طحنا جيدا، ثم تُصنع من الطحين ضمادة للاستخدام لمدة أربعة أيام[١]، وفى وصفة أخرى لتسكين آلام الأطراف تكونت من: حنطة ١ رو، زهرة شعير ١ رو، زهرة أيمر ١ رو، آس ١ رو، عسل ١ رو، يخلط ويستعمل كمضادة وقت الحاجة[٢]. (شكل ٨)

واستخدمت أوراق السنط كمسكن لآلام العظام المكسورة حيث كانت تخلط أوراق السنط والصمغ والماء بنسب متساوية ويضمد بها الكسر لمدة أربعة أيام[٣] ، وفى وصفة أخرى استخدمت أوراق السنط، الصمغ، الماء، تخلط بنسب متساوية، وتستخدم ويضمد بها الكسر لمدة أربعة أيام أيضا[٤].

مضادات الالتهابات كمسكن للآلام:

يمكن تعريف الالتهاب بأنه ارتفاع فى درجة حرارة الدم المتدفق والمعزز للأنسجة الملتهبة عن طريق التوصيل الحراري من الدم الأكثر دفئًا إلى الأنسجة المصابة. في هذه الحالة، يمكن أن ترتفع درجة حرارة الأنسجة فقط إلى درجة

---

[١] ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ١٤٤.

[٢] آس (آسية): نبات دائم الخضرة طيب الرائحة ينتفع منه بالثمار والأوراق والأزهار، فالثمار تؤكل خضراء وجافة وهى من النوع القابض، ولقد استخدم هذا النبات ضمن دهانات لحمرة البطن وجرعة الصرع، ولحرقة أسفل البطن والمثانة، وكدهان للصداع ولتنظيم البول، وللسعال ونمو الشعر وأخيرا الشلل. لمزيد من التفاصيل راجع:
حسن كمال: الطب المصرى القديم، ص ١٥٢، عادل عبدالعال: الطب القديم، ص ١٩٦.

[٣] ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ١٣٤.

[٤] عادل عبدالعال: الطب القديم، ص ١٨٩؛
PATRIC BLOMSTEDT, "Orthopedic surgery in ancient Egypt, Department of Pharmacology and Clinical Neuroscience", Umeå University, Sweden, AO, Vol. 85, No. 6, (2014), p 671. ; 85 (6), p 671.

حرارة الدم(١)، أي إلى درجة حرارة الجسم الأساسية أو زيادة عنها بدرجتين أساسيتين، مما يسبب ارتفاع الحرارة العامة للجسم وبعض الأعراض الأخرى مثل الاحمرار مع احتقان وظيفى وأورام جلدية فى الأماكن الملتهبة مؤديا بدوره إلى الألم وفقدان وظيفة الأنسجة مع حدوث عملية تنكسية فى عمل أنسجة العديد من المناطق الملتهبة مثل المفاصل والفم وغيرها(٢).

وتعتبر مضادات الالتهاب نوع من أنواع المسكنات المستخدمة لتخفيف الألم الخفيف إلى متوسط الشدة بما في ذلك الآلام العضلية الهيكلية العابرة، ومناسبة أيضا للسيطرة على الألم في عسر الطمث وتخفيف الآلام الناجمة عن أورام العظام الثانوية، كما تستخدم مضادات الالتهاب أيضًا للتسكين بعد الجراحة كجزء من استراتيجية التسكين متعدد الوسائط. ويمكن استخدامها للمرضى المعرضين لخطر الإصابة بآثار جانبية خطيرة في الجهاز الهضمي(٣). (شكل ٩)

ولتسكين التهاب الحلق يتم تقشير الثوم والقرنفل الطازج وهرسه وتتبيله فى خليط من الخل والماء، ويمكن استخدامه فى الغرغرة وشطف الفم أو تناوله داخليا عند الحاجه(٤). ونلاحظ من خلال هذه الحالة ومما ذكر سابقا أن الثوم كان متعدد الأغراض فى مصر القديمة حيث استخدمت أيضا فصوص الثوم المهروس

---

(١) SRDAN V. STANKOV, "Definition of Inflammation, Causes of Inflammation and Possible Anti-inflammatory Strategies", Pasteur Institute Novi Sad, Hajduk Veljkova 1, 21000 Novi Sad, Serbia, OIJ, Vol. 5, (2012), pp 1-4

(٢) CHARLES A. "Dinarello, Anti-inflammatory Agents: Present and Future", *Department of Medicine, University of Colorado, Aurora, Cell. 140*, USA,19 March, (2010), p 935

(٣) MIHAI BOTEA, "Analgesics, Consensus review of optimal perioperative care in breast reconstruction", *ERAS, Society Recommendations. Plast Reconstr Surg*,Vol. 139, (2017), pp 1056 – 1057; Nunes, Clara dos Reis, et al. "Plants as sources of anti-inflammatory agents." Molecules 25.16 (2020), pp 1-2.

(٤) N. H. ABOELSOUD, *Herbal medicine in ancient Egypt*, p 83; SAMUEL ADU-GYAMFI, *Ancient Egyptian Medicine*, p 12.

فى زيت الزيتون كمرهم خارجى أو عن طريق الفم كمضاد فى شكاوى التهاب الشعب الهوائية والرئة بما فى ذلك نزلات البرد[١].

واستعمل نبات الخطمية – الحنظل فى صنع خليط تكون من: مسحوق الحنظل $\frac{1}{32}$ رو، ذيل الفأر (نبات الخطمية) $\frac{1}{32}$ رو، العسل $\frac{1}{40}$ رو، أضف للخليط زنة ٥ رو من الماء. قم بتصفية الخليط ثم استخدمه فى الشرب، اشربه لمدة أربعة أيام لتسكين التهاب فتحة الشرج[٢]. (شكل ١٠)

وتعتبر الكزبرة ذات خصائص تبريد، ومنشطة، وطاردة للريح، وتساعد على الهضم. حيث تم استخدام كل من البذور والنبات كتوابل في الطهي لمنع انتفاخ البطن والقضاء عليه؛ كما تم تناولها كمشروب مغلى للمعدة وجميع أنواع أمراض المسالك البولية بما في ذلك تسكين التهابات المثانة. عادة ما تضاف أوراق الكزبرة طازجة إلى الأطعمة الحارة لتخفيف آثارها المزعجة[٣].

واستخدم دقيق الخبز أو منقوع الحناء مع الخل كضمادة عند الحاجة لالتهاب المفاصل، والتهاب القدم، وتعددت أغراض استخدام القمح والحناء عند المصريين القدماء، فالقمح استخدم فى حالات الروماتيزم والأورام كما استخدمت الحناء فى

---

(١) N. H. ABOELSOUD, *Herbal medicine in ancient Egypt*, p 83.

(٢) الخطمية: نبات معمر قائم يبلغ ارتفاعه إلى ١,٢٥ م والساق والأوراق زغبية. ولون الأوراق أبيض وأحمر وردى ولها خمس بتلات. وتنمو الخطمية بريا فى أوربا وآسيا، ولكنها فى مصر ليست من النباتات المتوطنة بل أدخلت إليها عن طريق إليها عن طريق سوريا، ومستخلص جذور الخطمية المغلية فى الماء يصلح لعلاج الربو والالتهاب الرئوى وبحة الصوت (وذلك بمص الحلوى الشهيرة والمسماة حلوى الخطمية)، كذلك يصلح المستخلص لعلاج آثار الحروق، والتهاب الغشاء المخاطى. لمزيد من التفاصيل راجع: ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ١٥١ – ١٥٢.

(٣) وليم نظير: الثروة النباتية عند قدماء المصريين، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٢٣.
N. H. ABOELSOUD, *Op. Cit.*, p 84.

علاج أمراض الكبد والطحال وأمراض الجلد المستعصية وكمسكن فى حالات الصداع الشديد عندما يكون سببه ارتفاع ضغط الدم، وكعلاج لأمراض القلب، وفى وصفة أخرى كان يخلط مسحوق الكمون مع بعض دقيق القمح كمواد رابطة ويوضع القليل من الماء لتخفيف الآلام الناتجة عن التهاب المفاصل(١).

ويبدو أن السحجات أو المناطق الملتهبة على الجلد قد عولجت عن طريق استخدام مستحضرات مخاطية مهدئة مصنوعة من مواد نباتية صمغية مثل اللبان والسنط، والتي قد يكون لها في نفس الوقت مفعول مطهر خفيف. كما استخدم المصرى القديم عددًا كبيرًا من المواد اللطيفة والقلوية والمخاطية الخفيفة التى كان موصى بها للإعطاء عن طريق الفم لتخفيف "الألم في الجانب الأيسر" وحالات أخرى مماثلة – وهو وصف يشير إلى حالات فرط حموضة المعدة أو القرحة الهضمية، وفى وصفة أخرى استعمل الكراث البرى مغلى الأوراق مطهرا ومعقما للجروح، وكمسكن لالتهابات الجلد الناتجة عن لدغ الحشرات(٢).

ولقد استخدم المصرى القديم أوراق الأكاسيا (السنط) مع المغرة والعسل بنسب متساوية فى صنع ضمادة تستخدم عند الحاجة كمضاد لالتهابات العامة فى الجسم التى تظهر فى الشتاء(٣). وللأهمية العالية والمقدرة لأوراق الأكاسيا كمضاد

---

(١) وليم نظير: الثروة النباتية عند قدماء المصريين، ص ٢٢٣؛
N N. H. ABOELSOUD, *Herbal medicine in ancient Egypt*, p 84.

(٢) CHAUNCEY D. LEAKE, "Logan Clendening Lectures on the History and Philosophy of Medicine, Second Series", *The Old Egyptian Medical Papyri*, Univesity of Kansas Press, Lawrence, Kansas, 1952, pp 39 – 40.

(٣) ONAT KADIOGLU, ET AL. "Evaluating ancient Egyptian prescriptions today: anti-inflammatory activity of Ziziphus spina-christi." *Phytomedicine*, Vol. 23, No.3 (2016), pp 296;
سهام السيد عبدالحميد عيسى، تغريد السيد عبدالحميد عيسى: شجرة *Šndt* السنط فى مصر القديمة، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، المجلد العشرون – العدد الثانى، (٢٠١٩)، ص ٤٨١.

للالتهابات دخلت فى عدة وصفات أخرى منها: ١) كانت تُطحن ورقتين من أوراق الأكاسيا ويوضع عليها مسحوق من أوراق الصفصاف والكمون بنسب متساوية وتستخدم عند الحاجة كمضاد الالتهابات فى المناطق الرطبة الناتجة عن الجروح لتجفيفها، ٢) كما استخدمت كمسحوق ناعم مع أوراق شجرة إيبا ونبات إبسا (مشروب قليل السعرات الحرارية مثل الشاى الأخضر) كمضاد للالتهابات الناتجة عن لدغة الثعبان إن كان صغيرا، ٣) وفى وصفة أخرى كضمادة لتورمات والتهاب الساقين(١).

مسكن الجروح والعمليات الجراحية وما بعدها:

فى البداية اعتمد المصريون القدماء على التقييد الجسدى أثناء العمليات الجراحية فلم يكن الاهتمام بتسكين الجرح ولكن بالعلاج ويتضح ذلك من مواصفات الجراح، فيجب أن يكون شابا أو فى منتصف العمر، مع يد قوية وثابتة، كخبير فى استعمال اليد اليسرى أو اليمنى، مع رؤية حادة، وروح شجاعة، خالى من الشفقة، يكون كل همه علاج مريضه، ولا يتأثر بصرخاته بسرعة كبيرة وهذا يتضح من منظر الختان الموجود على جدران مقبرة عنخ ما حور، والتى يأمر فيه الطبيب مساعده بأن يمسك المريض بقوة خوفا من سقوطه لأن الألم سيكون شديدًا(٢). (شكل ١١)

ونلاحظ من خلال برديات هاريس وايبريس وبرلين أنه كان يستخدم النبيذ أو البيرة المضاف إليها اللبان أو المر كمهدئ وكوسيلة فعلية لتخدير قبل القيام

(١) ONAT KADIOGLU, ET AL. "Evaluating ancient Egyptian prescriptions today", pp 296; ATIF AL AT ALL, "Acacia nilotica: A plant of multipurpose medicinal uses", *JMPR*, Vol. 6, No. 9 , (9 March, 2012), pp 1492 – 1493.

(٢) RICHARD SULLIVAN, *Proto-Surgery in Ancient Egypt*, p 112; PATRIC BLOMSTEDT, *Orthopedic surgery in ancient Egypt*, p 674;

بول غليونجى: الطب عند قدماء المصريين – تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى، المجلد الأول، القاهرة، ٢٠١٦، ص ٥٤٥.

بعملية شق الجرح، وكانت الأدوات الجراحية وأولها السكين تدهن بطحين القنب ذو التأثير المخدر قبل استعمالها[١]، ويمكننا أن نستنتج أن المادة الفعالة لنبات الخشخاش (الأفيون) عندما أضيفت للبيرة أو النبيذ لعمل عصير استخدمت لتسكين الآلام الحادة الناتجة عن اجراء العمليات المختلفة، حيث يشمل الخشخاش طبقا للدراسات الحديثة على أكثر من ٢٠ عنصرا قلويا تستخدم فى التسكين مثل المورفين، والبابافيرين، والثيباين، والكودين، كما أن (اللاتيكس) المستخرج من الأزهار غير الناضجة ينتج عنه مادة راتنجية مسكنه ومهدئه، وفى بعض الأوقات أضيف للخشخاش عصير الخس لزيادة عمل المادة الفعالة على الجرح، وهى وصفة شائعة فى منطقة آسيا الصغرى منذ الألف الرابع ق.م. ومعروفه فى مصر منذ عصر الدولة الحديثة، ولقد استمر استخدام الخشخاش خلال العصر اليونانى والرومانى ولكنه تطور لعمل قطرات أو مراهم أو مساحيق على الجروح[٢].

ومن ثم كان التخدير يتم قبل اجراء الجراحة سواء جراحة صغرى أو كبرى، وتعالج بالأربطة أو باللحم الحى والأعشاب القابضة والشحوم الحيوانية والعسل الذى يعمل كمضاد حيوى قوى[٣]، أما الجروح فتم العثور على أول وصف فى التاريخ المكتوب للخياطة فى بردية أدوين سميث (الحالات ٦-١١) وتعود أقدم السجلات المكتوبة إلى الهند ومصر القديمة بين ١٦٠٠ – ١٠٠٠ ق.م.، حيث استخدمت خيوط من الحرير مع لفائف من الكتان المغذى بالقنب

---

(١) ALY SABER, "Ancient Egyptian Surgical Heritage", *JAS, Informa Healthcare*, USA, Vol. 23, No.6, (December 2010), pp 332 – 333.

(٢) MAHMOUD EL-MOHAMADY ABDELAHADY SALAMA, "The Habituation of the Ancient Egyptians and the Methods of Treatment." *IJTHM*, Vol. 3, Part.1, (2020), p 80; PAULA VEIGA, "*Opium: was it used as a recreational drug in ancient Egypt?.*", pp 200 – 210.

(٣) محمد بيومى مهران: الحضارة المصرية القديمة، ج ١، الأدب والعلوم، الاسكندرية، ١٩٨٩، ص ٤٣١.

لتسكين الألم، أما فى حالة وجود نزيف كان يتم تنظيف الجرح أولا بالمشرط المنحنى أو بسكين من الحديد والبرونز، يتم تسخين الشفرة حتى تتوهج باللون الأحمر ثم تستخدم لعمل شقوق حول الجرح. من شأنه أن يقطع الجرح ويغلقه للحد من النزيف، ثم يوضع دهان من نبات القنب أيضا عند لف الجرح لتخفيف حدة الألم(١). (شكل ١٢)

ومن المثير للاهتمام أن مؤلف البردية ينصح بتطبيق "أوراق الصفصاف" على جرح الثدي المصاب لعلاج الالتهاب والعدوى، وقد تم ذكر استخدام المواد المشتقة من الصفصاف، بما في ذلك أوراقها ولحاءها في بردية إيبرس، حيث ينصح بتسكين الالتهاب والألم. حمض "أسيتيل الساليسيليك"، المعروف باسم الأسبرين، موجود بتركيزات عالية بشكل طبيعي في الصفصاف. ويستخدم الأسبرين بانتظام في الطب الحديث كمسكن، وخافض للحرارة، ومن الأدوية المضادة للالتهابات ومضادات الصفيحات، والتي تقلل من لزوجة الدم وبالتالي يمكن استخدامها بعد الجراحة للوقاية من الجلطات. حيث تتمثل آلية عمل الأسبرين في تثبيط إنزيم الأكسدة الحلقية، والذي يمنع تكوين البروستانويد الذى يشارك في العمليات الالتهابية(٢)، ومن ثم، يستخدم الأسبرين لعلاج الالتهاب والألم. ومن الواضح أن

---

(١) ALY SABER, "Ancient Egyptian Surgical Heritage", *JAS, Informa Healthcare*, USA, Vol. 23, No.6, (December 2010), pp 328.

(٢) البروستاغلاندين أو البروستاغلاندينات أو البروستانويد: هي مواد دهنية مشابهة للهرمونات في عملها كرسل كيميائية، وتنشأ جميعها من مادة واحدة هي الحمض الدهني المعروف بحمض الأراكيدونيك لتشكل حمضًا كربوكسيليًا غير مشبع، يتكون من عشرين ذرة من الكربون بالإضافة إلى حلقة خماسية. تكون البروستاغلاندينات المختلفة مسؤولة عن وظائف عديدة في الجسم مثل انقباض وانبساط أو تمدد بعض العضلات والأوعية الدموية، وتنظيم عملية تجلط الدم، والتحكم بضغط الدم والتدخل بردود الفعل الالتهابية.

تم اكتشاف هذه المواد وفصلها لأول مرة من مني الإنسان في ثلاثينات القرن التاسع عشر، وهو الأمر الذي أدى إلى الاعتقاد بأن مصدرها هو غدة البروستاتا في ذلك الحين، حتى تم التأكد من إمكانية وجودها وتصنيعها في أغلب خلايا الجسم. وتختلف البروستاغلاندينات =

الملاحظات التجريبية التي قدمها المصريون القدماء حول المواد المشتقة من الصفصاف كانت مهمة بما يكفي لاستخدامها بانتظام لآلياتها المضادة للالتهابات في علاج العدوى[١].

وبالنسبة لتضميد الجروح بعد العمليات فكان العلاج بالكتان والزيت والعسل يعتبر ضمادًا قياسيًا للجروح لإصابات الأنسجة الرخوة الناتجة عن العمليات في مصر القديمة حيث يوصى به في ٣٠ من أصل ٤٨ حالة في بردية إدوين سميث. حيث تم استخدام الكتان لخصائصه الامتصاصية، وهو مفيد في سحب الرطوبة والليمفاوية بعيدًا عن الجرح؛ كان يُعتبر أنظف قطعة قماش يمكن أن يستخدموها وكان القماش المفضل لديهم في عملية التحنيط. وغالبًا ما كان الزيت يستخدم ليكون بمثابة حاجز بين الكتان والجرح له تأثير مهدئ على الجروح. أما العسل تم استخدامه على نطاق واسع في جميع أنحاء الطب المصري القديم وتم تطبيقه خارجيًا على الجروح وتم إعطاؤه داخليًا كدواء[٢].

= عن الهرمونات التي يتم إفرازها من الغدد في الجسم لتنتقل عبر الدم إلى أجزاء أخرى، حيث أنه يتم تصنيعها خلال تفاعل كيميائي في نفس الموقع الذي تكون هناك حاجة لها فيه، كتكونها في الأنسجة التي تعرضت للإصابة ونزف الدم لتساهم في عملية التجلط والالتهاب في ذلك المكان بالتحديد ولا تنتقل من مكان لآخر داخل الجسم. وتؤدي اعتلالات ومشاكل البروستاغلاندينات إلى آثار غير مرغوب بها كزيادة الالتهاب في الجسم والألم والتسبب بأمراض مزمنة. لمزيد من التفاصيل راجع:

LIHONG CHEN, GUANGRUI YANG, TILO GROSSER*, "Prostanoids and inflammatory pain", *Prostaglandins and Other Lipid Mediators*, 104 – 105, (2013,pp 58 – 60.

(١) KATE WADE, "The sword and the knife: a comparison of Ancient Egyptian treatment of sword injuries and present day knife trauma", *JRMS, Cardiff University School of Medicine*, Vol. 24 Issue 1,(2017), p 51.

(٢) أهمية العسل: تصف غالبية الجروح الموصوفة في بردية إدوين سميث تضميد الجروح بالعسل، الذى هو عبارة عن مزيج من الجلوكوز والفركتوز وله تأثير تناضحي بسبب تركيزه العالي من السكر، مما يؤدي إلى سحب الليمفاوية من الجرح وبالتالي تقليل التورم والالتهاب. كما يعبر =

= أيضًا مضاد للجراثيم ولا تزال التقنية المصرية لتطبيق العسل على الجروح تستخدم في الطب الحديث. أشارت دراسة حديثة إلى أن تطبيق العسل بأشكال مختلفة على الجروح، بما في ذلك الضمادات والمراهم المشبعة، وكان له العديد من الآثار المفيدة. لقد حسّن وقت الشفاء وأظهر نشاطًا مضادًا للميكروبات والالتهابات ومضادًا للأكسدة. ويلخص مولان ملاحظاته السريرية بعد علاج الجروح المختلفة بالعسل على النحو التالي: "يتم التخلص من العدوى بسرعة، ويتم تقليل الالتهاب والتورم والألم بسرعة، يتم تقليل الرائحة، يتم تحفيز تقشير الأنسجة الميتة، يتم تسريع عملية التحبيب والتشكل الظهاري، ويحدث الشفاء بسرعة مع الحد الأدنى من الندوب ". كما وجد أيضًا أن وضع العسل على الجرح يمنع الضمادات من الالتصاق بالجرح. لمزيد من التفاصيل راجع:

MOLAN PC. "A brief review of the use of honey as a clinical dressing", *Aust J Wound Mange*, Vol. 6, Part. 4,(1998), pp 148–58; KATE WADE,*The sword and the knife: a comparison of Ancient Egyptian treatment of sword injuries and present day knife trauma*, pp 52 – 53.

الخلاصة:

من خلال الدراسة السابقة يمكن القول أن المصريين القدماء اهتدوا إلى القيمة العملية والفعلية للعديد من النباتات أدركوا بها التأثيرات الضارة لبعضها والأثر العلاجى للبعض الآخر، عن طريق التعرف على المادة الفعالة للنبات، كما توصلوا أيضا إلى تفاعلات المواد الكيميائية لأعضاء مختلف النباتات عند خلطها للتوصل إلى وصفات طبية تخفف الآلام والأذى الجسدى الحاد لبعض الأمراض، والذى توصلوا اليه بالطرق المختلفة مثل الملاحظة والجس والتحسس والقرع وغيرها.

ونظرا لاحتواء الرأس على مناطق عدة من الممكن أن تكون سببا للألم تمثلت مسكناتها فى وصفات مختلفة من نباتات:

- **الخشخاش، أوراق السنط، بذور الشبت، عنب الحية، الكسبرة، اللبان، العرعر، الكمون، حب العزيز**: لتسكين آلام الصداع والعيون.
- **الثوم، القرنفل، الجميز**: لتسكين آلام الأسنان.
- **شجرة اللادن (اللبان)**: لتسكين آلام الأذن.

أما آلام أحشاء البطن فغالبا ما تكون غامضة وغير معروفة السبب سواء فى أعلى البطن أو فى الوسط أو الأسفل، ومن ثم توصل المصرى القديم لخلاصة بعض النباتات لتسكين الألم ومنها:

- **عصارة الثوم**: لتسكين وعلاج آلام البطن
- **بذور الخس، الكمون، اللبان، العرعر، الجعة**: لتسكين آلام جوف البطن والمعدة.
- **اللبان، القرفة، المر يابس، زيت اللبان الحلو**: كمسكن وعلاج لعفونة البطن.
- **الكراوية، الشمر، الكمون، الينسون**: كمسكن للمغص الحاد وطرد الغازات
- **التمر، الجميز، العمى، الخروب**: لتهدئة القلب وتبريد فتحة الشرج
- **أوراق السدر، السنط، الصفصاف، الحنطة، الشعير، الأيمر، الآس**: مسكن ومهدئ للأطراف والأوعية الدموية.

وتعتبر مضادات الالتهاب نوع من مسكنات الألم والذى يعرف بأنه ارتفاع فى درجة حرارة الدم المتدفق إلى الأنسجة الملتهبة والذى تنوعت طرق تسكين علاجه نتيجة لتشعب مناطق الإلتهاب فى الجسم البشرى ومنها:

- **الثوم، القرنفل:** لتسكين التهاب الحلق
- **الحنظل، الخطمية:** لتسكين التهاب فتحة الشرج
- **دقيق الخبز، الحناء:** لتسكين التهاب المفاصل (الروماتيزم) والتهاب القدم.
- **الكزبرة:** لتسكين التهابات المثانة، وأضيفت أوراقها طازجة إلى الأطعمة الحارة لتخفيف آثارها المزعجة.
- **اللبان، السنط:** مهدئ لالتهابات الجلد ولتخفيف الآلام فى الجانب الأيسر الناتجة عن حموضة المعدة أو القرحة الهضمية.
- **الكراث البرى:** مطهرا ومعقما للجروح، وكمسكن لالتهابات الجلد الناتجة عن لدغ الحشرات.
- **أوراق الأكاسيا، المغرة، الصفصاف، الكمون:** لتسكين عام للالتهبات التى تظهر فى الشتاء، لتسكين التهابات المناطق الرطبة أو التى تنتج عن الجروح.

ولم يعرف المصريون القدماء فى بادئ الأمر طريقة لتسكين الجروح أو العمليات الجراحية، واعتمدوا فى البداية على التقييد الجسدى وقوة الطبيب وقدرته على انجاز ما طلب منه دون التأثر بصرخات مريضة، ولكن بمرور الوقت ومن خلال برديتى هاريس وايبريس توصلوا إلى بعض طرق التخدير لراحة المرضى، واستخدمت فيها نباتات مثل:

- **النبيذ، اللبان، القنب، الخشخاش، الخس:** لتخدير والتسكين قبل شق الجرح، وأثناء العمليات الجراحية.

- **أوراق الصفصاف**: لتسكين جرح الثدى المصاب ولعلاج الالتهاب والعدوى.
- **الكتان:** لسحب الرطوبة وسرعة تضميد الجروح للقضاء على الألم.

وبالتالى كان لكل هذه التجارب السابقة أثر فى نفس المصرى، حيث حرص على اختيار نوعية غذاء متوازن يحفظ الصحة العامة ويقى الانسان من العديد من الأمراض أو حتى آلامها المبرحة، لكى لا يكون عرضة لألم مفاجئ يكون السبب فى توقفه عن العمل فى المشروعات المختلفة، وذلك يتضح من وصف هيرودوت للمصريين بأنهم أصح شعوب العالم.

ملحق الصور والأشكال

(شكل ١) نقش على جدار بمقبرة نب آمون ، فى الصف رقم (٢) بحجرة الدفن ، يبدو فيها بعض النساء (الثانية من اليسار) ، يقدمن ما يشبه فاكهة الماندريك إلى المرأة التى على اليمين .

١٤٠٠ ق.م.

نقلا عن :

RICHARD SULLIVAN, *Proto-Surgery in Ancient Egypt, Department of Physiology*, p 110, fig. 2.

(شكل ٢) نقش على جدار بالمقبرة رقم (١٧) بطيبة من الأسرة الثامنة عشرة، يوضح الطبيب المصرى نب آمون يناول الدواء لعميل سورى .

نقلا عن :

ليز مانكه : التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ١١٩

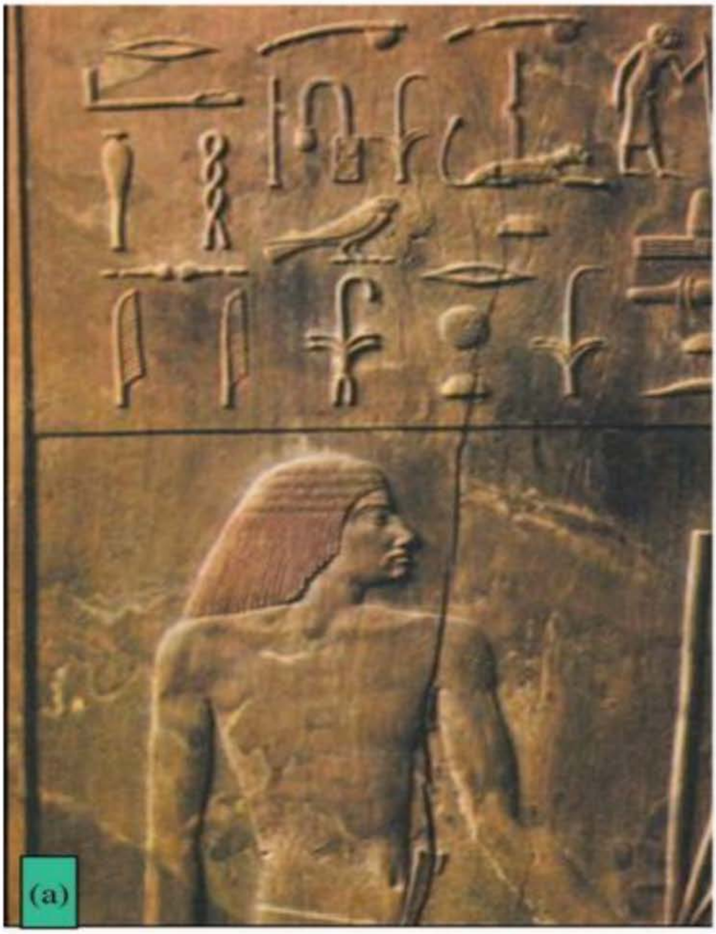

(شكل ٣) لوحة خشبية للطبيب حسى رع تعود يعود إلى الأسرة الثالثة عثر عليه في سقارة.

اللوحة الآن في المتحف المصري بالقاهرة ،

نقلا عن :

ALY SABER, *Ancient Egyptian Surgical Heritage*, fig. 2, p 330.

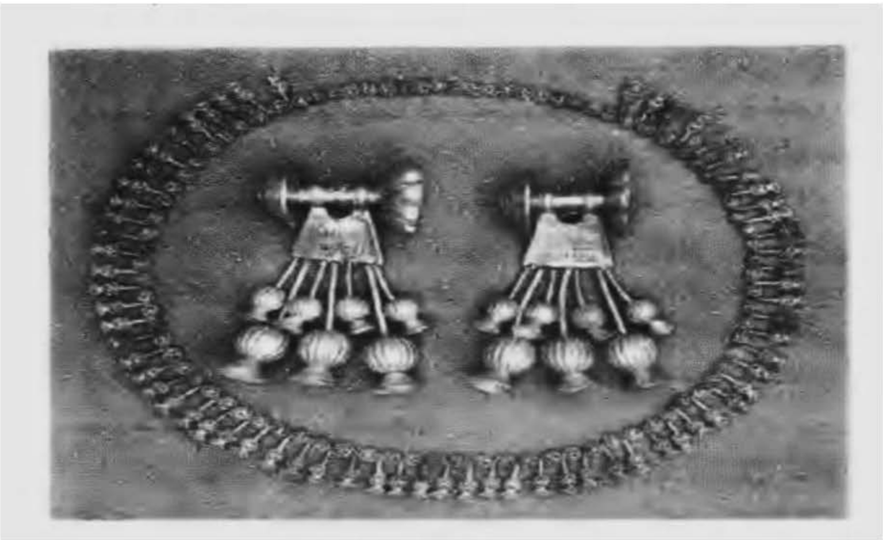

(شكل ٤) زوج من الأقراط مصنوعة من الذهب مع خرطوشين للملك سيتى الثانى (الأسرة التاسعة عشرة) ، يتدلى منهما شكلا يشبه نبات الخشخاش (المتحف المصرى بالقاهرة) ،

نقلا عن :

كريستيانو داليو : الطب عند الفراعنة ، ص ٩٢

(شكل ٥) جمع ثمار العرعر. نقش بارز فى مقبرة نى عنخ خنوم وخنوم حتب بسقارة – الدولة القديمة.

نقلا عن: ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ٢٤٦

(شكل ٦) أملود (غصن) من الجميز، عصر الرعامسة – المتحف الزراعى بالقاهرة

نقلا عن: ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ص ٢٢٧

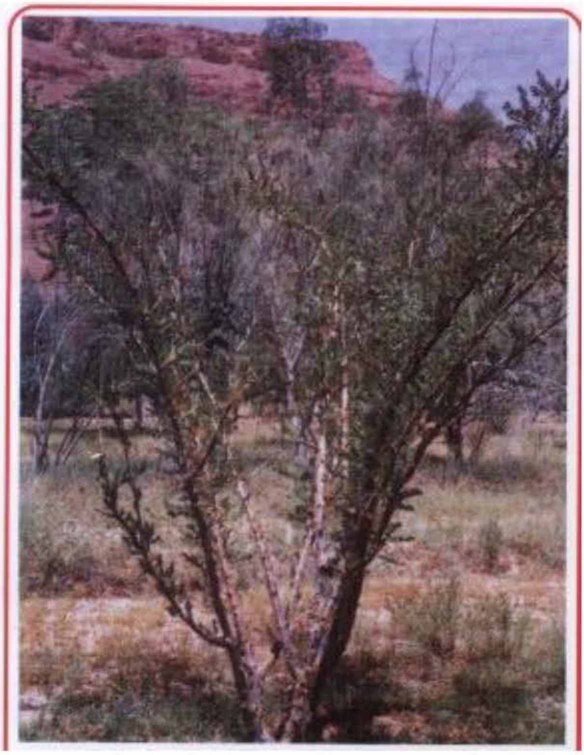

(شكل ٧) شجرة اللبان (اللادن)

منير عبدالجليل العريقى: النباتات المقدسة فى الحضارة اليمنية القديمة، شكل ٢ ب، ص ٣٣٢

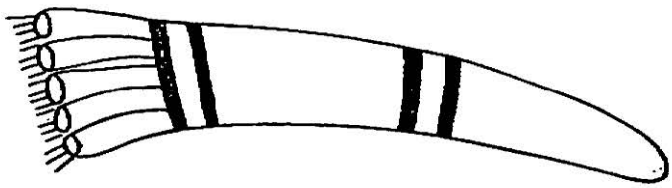

(شكل ٨) بصلات أو كرات ، صورة مرسومة على تابوت من الدولة الوسطى ،

المتحف القومى – بولونيا

نقلا عن : ليز مانكه : التداوى بالاعشاب ، ص ١٤٥

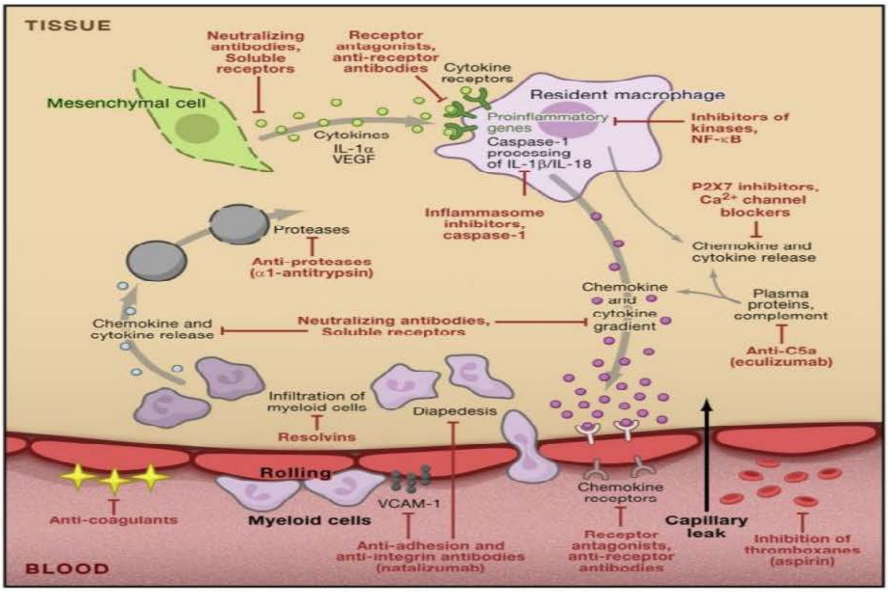

(شكل ٩) الالتهابات ونقاط التثبيط من قبل العوامل المضادة للالتهابات

نقلا عن :

CHARLES A. DINARELLO, *Anti-inflammatory Agents: Present and Future*, p 937, Figure 1.

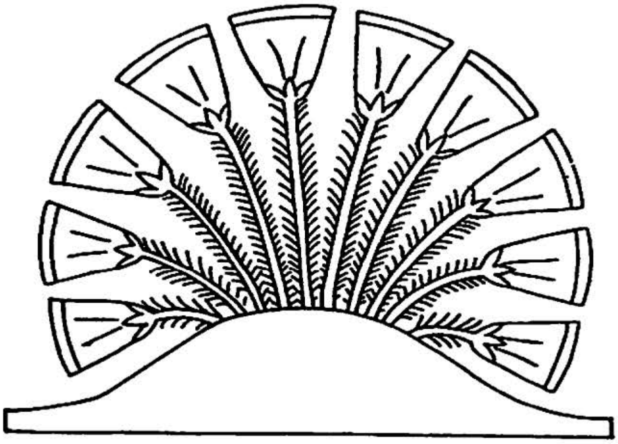

(شكل ١٠) زهور قرنفلية، ربما كانت نبات الخطمية

نقلا عن: ليز مانكة: التداوى بالأعشاب، ص ١٥٣

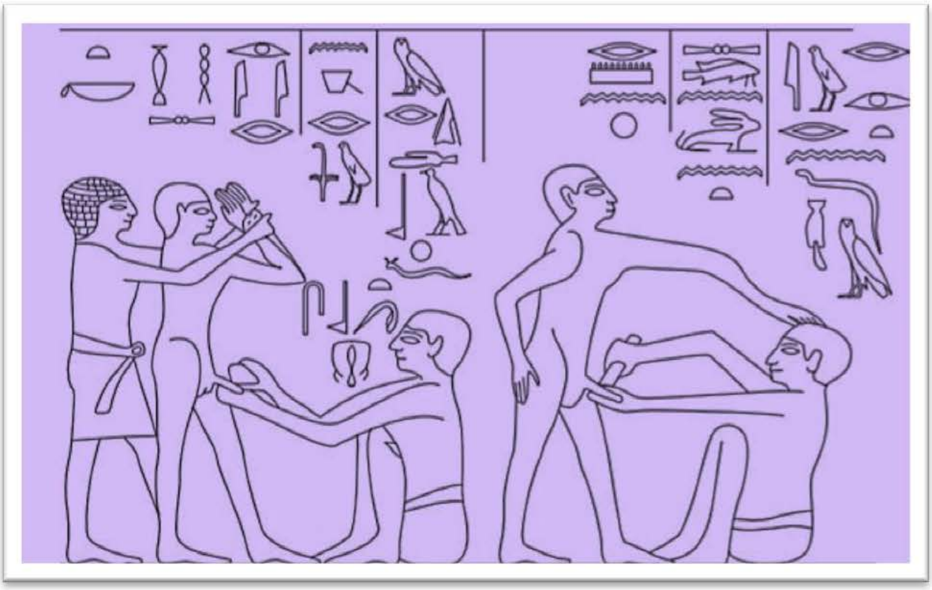

(شكل ١١) رسم توضيحى لنقش بارز من مقبرة عنخ ماع حور في سقارة

يُظهر تقنية الختان عند المصريين القدماء

نقلا عن :

A. A. SHOKEIR & M.I. HUSSIN, "Historical Review The urology of Pharaonic Egypt", *Urology and Nephrology Center*, Mansoura University, and *Department of Psychiatry*, Cairo University, Egypt, *BJU International*, vol. 84, (1999), fig. 6 , p 760.

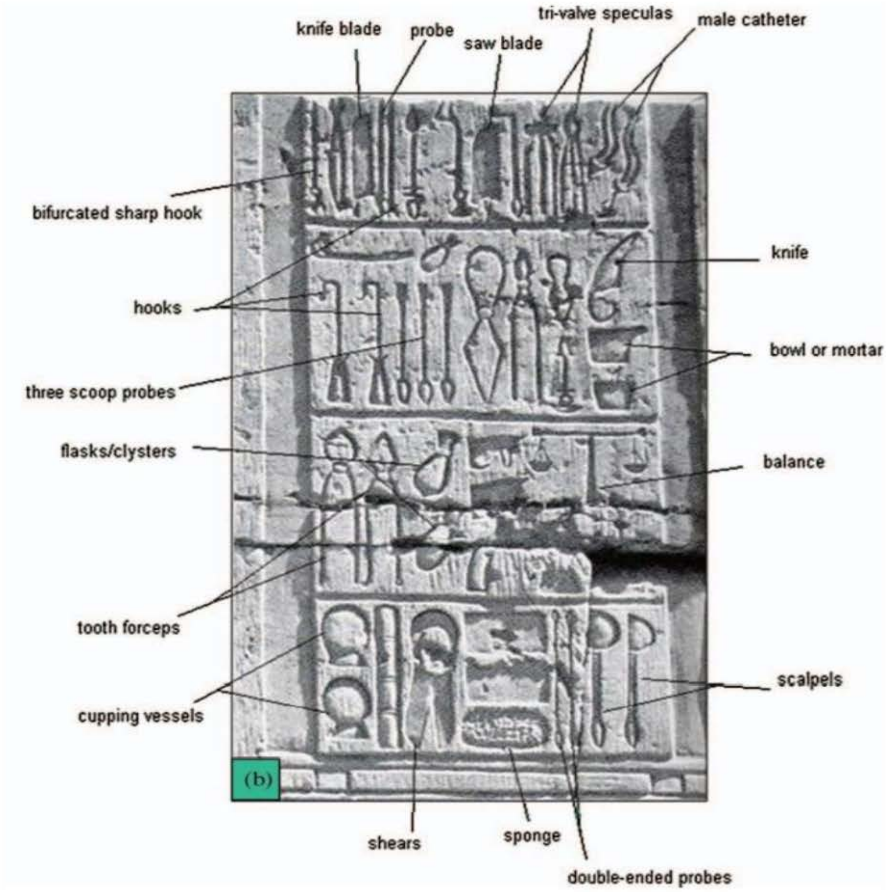

(شكل ١٢) نقش محفور على جدار بمعبد كوم أمبو، يصنف العديد من الأدوات الجراحية وفقًا للاستخدام الطبى.

نقلا عن:

ALY SABER, *Ancient Egyptian Surgical Heritage*, fig. 2, p 330.

(شكل ١٣) نقش على جدار بمقبرة سن نجم من دير المدينة رقم (TT1)

تمثل الخشخاش الأحمر.

نقلا عن :

PAULA VEIGA, *Opium: was it used as a recreational drug in ancient Egypt?.*,

figure. 1, p 204.

قائمة الاختصارات والمراجع العربية والمترجمة إلى العربية والأجنبية:

أولًا- قائمة الاختصارات:

- AM, Acta Medica
- AJAS, Assiut Journals Agriculture Sciences.
- AO Acta Orthopaedica
- AOS, Acta Ophthalmologica Scandinavica
- BDJ British Dental Journal.
- EJSR European Journal of Scientific Research
- EUT Edizioni Università di Trieste
- ERAS, Enhanced Recovery After Surgery
- JAS, Journal of Investigative Surgery
- JHP, Journal of Herbmed Pharmacology.
- JMPR Journal of Medicinal Plants Research
- JRMS, Journal of the Royal Medical Society
- IJPBA International Journal of Pharmaceutical & Biological Archives
- IJTHM, International Journal of Tourism and Hospitality Management.
- OIJ, The Open Inflammation Journal
- PMJ, Postgraduate Medical Journal.
- PSHD, Philosophy Social and Human Disciplines.

ثانيًا- المراجع العربية والمترجمة إلى العربية:

- بول غليونجى: الطب عند قدماء المصريين – تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى، المجلد الأول، القاهرة، (٢٠١٦)، ص ٥٢٣ – ٥٧٣.
- حسن كمال: الطب المصرى القديم، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٨.
- حسن موسى رضوان: "دراسة اقتصادية للوضع الإنتاجي والتجارة الخارجية لأهم للنباتات الطبية والعطرية فى مصر"،

  AJAS, Vol. 50, No. 1,(2019),Website: www.aun.edu.eg/ *faculty_agriculture/journals* _issues_form. php E-mail: ajas@aun.edu.eg. pp 181-194.
- راندا بليغ: ارتباط الطب في مصر القديمة بما يعرف بالطب البديل أو التكميلي، مجلة دراسات فى آثار الوطن العربى، دورية علمية محكمة تضم حصاد أعمال المؤتمر الدولى للاتحاد العام للآثاريين العرب، المجلد ٨، العدد ٨،(٢٠٠٥)، ص ٦٥ – ٩٤.
- زين العابدين مبارك: الحشيش، المركز العربى للدراسات الأمنية والتدريب، الرياض، ١٩٨٦.
- سهام السيد عبدالحميد عيسى: "المضادات الحيوية فى مصر القديمة"، مجلة دراسات فى آثار

الوطن العربى، المقالة ٤١، المجلد ١٧، العدد ١٧، (٢٠١٤)، الصفحة ١١١٢-١١٣٦.
- سهام السيد عبدالحميد عيسى، تغريد السيد عبدالحميد عيسى: شجرة *Šndt* السنط فى مصر القديمة، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، المجلد العشرون – العدد الثانى، (٢٠١٩)، ص ٤٧٧ – ٥١٢.
- صديق رشوان صديق: دراسة تأثير بعض النباتات الطبية على نمو بعض الفطريات الجلدية (الثوم – حبة البركة – الحنة)، مجلة أسيوط للدراسات البيئية، العدد الثالث والعشرون (يوليو ٢٠٠٢)، ص ١١٩ – ١٢١.
- عادل عبدالعال: الطب القديم، خلاصة ما توصل إليه الطب المصرى القديم، الطبعة الثالثة، القاهرة، ٢٠٠٧.
- كريستيانو داليو: الطب عند الفراعنة (أمراض– وصفات طبية– خرافات ومعتقدات)، ترجمة، إبتسام محمد عبدالمجيد، مراجعة علمية، نبيل عبيد، مراجعة أثرية، على رضوان، القاهرة، ٢٠١٣.
- ليز مانكه: التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة، ترجمة أحمد زهير أمين، مراجعة محمود ماهر طه، مكتبة مدبولى، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٨.
- مجراب حمزة: النباتات الطبية والعطرية وطرق استخدامها فى التداوى، رسالة ماجستير (غير منشورة)، قسم البيولوجيا وأيكولوجيا النبات، كلية علوم الطبيعة والحياة، جامعة الأخوة منتورى قسنطينة، الجمهورية الجزائرية، ٢٠٢٠.
- محمد بيومى مهران: الحضارة المصرية القديمة، ج ١، الأدب والعلوم، الاسكندرية، ١٩٨٩.
- يوليوس الجيار، لويس ريتر: الطب والتحنيط فى عهد الفراعنة، تعريب: أنطون زكرى، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٣.
- وليم نظير: الثروة النباتية عند قدماء المصريين، القاهرة، ١٩٧٠.

ثالثا: المراجع الأجنبية

1. A.A. SHOKEIR and M.I. HUSSIN, "Historical Review The urology of Pharaonic Egypt", *Urology and Nephrology Center, Mansoura University, and Department of Psychiatry*, Cairo University, Egypt, BJU International, vol. 84, (1999), pp 755–761.
2. ALY SABER, "Ancient Egyptian Surgical Heritage", *JAS, Informa Healthcare, USA,Vol. 23*, No.6, (December 2010), pp 327-334.
3. ATIF AL*, NAVEED AKHTAR, BARKAT ALI KHAN, MUHAMMAD SHOAIB KHAN, AKHTAR RASUL, SHAHIQ-UZ-ZAMAN, NAYAB KHALID, KHALID WASEEM, TARIQ MAHMOOD AND LIAQAT ALI, "Acacia nilotica: A plant of multipurpose medicinal uses", *JMPR, Vol. 6*, No. 9 , pp. 1492-1496, (9 March, 2012), pp 1492 – 1496.
4. CAROLE REEVES, "Egyptian Medicine", *Shire Egyptology Series; No. 15*,United Kingdom, 1992.
5. CHAUNCEY D. LEAKE, "Logan Clendening Lectures on the History and Philosophy of Medicine", *Second Series, The Old Egyptian Medical Papyri*, Univesity of Kansas Press, Lawrence, Kansas, 1952.
6. CHARLES A. "Dinarello, Anti-inflammatory Agents: Present and Future", *Department of Medicine, University of Colorado, Aurora, Cell. 140*, USA,19 March, (2010), pp 950 – 935.
7. EMANUEL LL, VON GUNTEN CF, Ferris FD, "Module Pain Management. The Education for Physicians on End-of-life Care (EPEC)" *curriculum, 1999*, pp 1-3.
8. FATEMEH JAMSHIDI-KIA, ZAHRA LORIGOOINI*, "Hossein Amini-Khoei, Medicinal plants: Past history and future perspective", JHP, *Medical Plants Research Center, Basic Health Sciences Institute*, Shahrekord University of Medical Sciences, Shahrekord, Iran,(2018), pp 1 – 7.
9. FRANS JONKHEERE, *La Médecine Égyptienne*, VI, 13 A, No. 2, "Le Papyrus Médical, Chester Beatty", *Édition de la Fondation Égyptologique reine Élisabeth parce,* du Cinquantenaire, Bruxells, 1947.
10. HUSNI T, HANTASH AEJ, "Evaluation of Narcotic (Opioid Like)" *Analgesic Activities of Medicinal Plants*, Vol.33, No.1,(2009), pp 179-182.
11. KATE WADE, "The sword and the knife: a comparison of Ancient Egyptian treatment of sword injuries and present day knife trauma", *JRMS, Cardiff University School of Medicine,* Vol. 24 Issue 1,(2017), pp 47 – 56.

12. LIHONG CHEN, Guangrui Yang, Tilo Grosser *, "Prostanoids and inflammatory pain", *Prostaglandins and Other Lipid Mediators*, 104 – 105, (2013,pp 58 – 66; https://altibbi.com.
13. LUTZ POPKO, "Some Notes on Papyrus Ebers, Ancient Egyptian Treatments of Migraine, and a Crocodile on the Patient's Head", This is a preprint of an accepted article scheduled to appear in *The Bulletin Of The History Of Medicine*, Vol. 92, No. 2 (Summer 2018), pp 1 – 22.
14. MAHMOUD EL-MOHAMADY ABDELAHADY SALAMA, "The Habituation of the Ancient Egyptians and the Methods of Treatment." *IJTHM*, Vol. 3, Part.1, (2020), pp 73-102.
15. MANISH KUMAR*, ABHILASHA SHETE, ZAFAR AKBAR, "A Review on Analgesic: From Natural Sources", *Institute of Biomedical Education & Research*, Mangalatatan University, Aligarh. Uttar Pradesh, India, IJPBA,(2010), Vol.1, No. 2, pp 95 – 100.
16. MIHAI BOTEA, "Analgesics, Consensus review of optimal perioperative care in breast reconstruction", *ERAS, Society Recommendations. Plast Reconstr Surg*,Vol. 139, (2017), pp 1056-1071.
17. MOLAN PC. "A brief review of the use of honey as a clinical dressing", *Aust J Wound Mange*, Vol. 6, Part. 4,(1998), pp 148–58.
18. N. H. ABOELSOUD, "Herbal medicine in ancient Egypt",*JMPR*,Vol. 4, No. 2, (2010), Available online at http://www.academicjournals.org/JMPR, pp 82 – 86.
19. NUNES, CLARA DOS REIS, ET AL. "Plants as sources of anti-inflammatory agents." *Molecules 25.16* (2020), pp 1-22.
20. ONAT KADIOGLU, ET AL. "Evaluating ancient Egyptian prescriptions today: anti-inflammatory activity of Ziziphus spina-christi". *Phytomedicine*, Vol. 23, No.3, (2016), pp 293-306.
21. PARSWA ANSARI , "Acute Abdominal Pain", *Hofstra Northwell-Lenox Hill Hospital*,
22. https://www.msdmanuals.com/professionalgastrointestina -disorders/acute-abdomen - and -surgical -gastroenterology/*acute-abdominal-pain*, New York, 2021.
23. PATRIC BLOMSTEDT, "Orthopedic surgery in ancient Egypt", *Department of Pharmacology and Clinical Neuroscience*, Umeå University, Sweden, AO, Vol. 85, No. 6, (2014), pp 670–676.
24. PATRICK E. MCGOVERNA, ARMEN MIRZOIANB, AND GRETCHEN R. HALLA,

"Ancient Egyptian herbal wines", *aMuseum Applied Science Center for Archaeology*, University of Pennsylvania Museum of Archaeology and Anthropology, Philadelphia, Edited by Ofer Bar-Yosef, Harvard University, Cambridge, MA, and approved February 23, 2009. received for review November 17, 2008.

25. PAULA VEIGA, "Opium: was it used as a recreational drug in ancient Egypt?." *EUT*, (2017), pp 199 - 215.
26. PRAVEEN K. SAXENA, *Development of Plant-Based: Medicines Conservation, Springer Science + Business Media Dordrecht*, Germany , 2001.
27. RICHARD SULLIVAN, "Proto-Surgery in Ancient Egypt", *Department of Physiology, Faculty of Clinical Sciences*, University College London, AM, Vol. 41,(1998), pp 99 – 120.
28. - R. J. FORSHAW, "The practice of dentistry in ancient Egypt", *BDJ*, Vol. 206, No. 9, (May 2009),pp 481 – 486.
29. ROBERT G. TWYCROSS, "Analgesics",*PMJ*,Vol. 60, (December 1984), pp 876 - 880.
30. S. RY ANDERSEN, "The eye and its diseases in Ancient Egypt", *Historv of Ophthalmolow, AOS*, Vol. 75,No. 3, (1997), pp 338 – 344.
31. SAMIR YAHIA EL-GAMMAL, "Pharmacy and medicine education in ancient Egypt." *Bull Inst Hist Med Hyderabad,* Vol. XXIII, No.1, (1993), pp 37 – 48.
32. SAMUEL ADU-GYAMFI, "Ancient Egyptian Medicine: A Systematic Review", *PSHD, Department of History and Political Studies*, Kwame Nkrumah University of Science and Technology, Ghana, Vol. II, (2015), pp 9 – 21.
33. SRDAN V. STANKOV, "Definition of Inflammation, Causes of Inflammation and Possible Anti-inflammatory Strategies", *Pasteur Institute Novi Sad*, Hajduk Veljkova 1, 21000 Novi Sad, Serbia, OIJ, Vol. 5, (2012), pp 1 – 9.

المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ٥٣ - ٨٦

نَقْلُ المَوْتَى فِي مِصْرَ خِلالَ العَصْرِ الرُّومَانِيِّ فِى ضَوْءِ الوَثَائِقِ البَرْدِيَّةِ (*)

فاتن على حسن عبد المطلب (**)

ملخص

عندما كان يتوفى شخصٌ في مصرَ خارج مدينته، خلال العصرين اليوناني الروماني كان من السائد أنْ يتم نقله ليدفن في مسقط رأسه، مع تميزه بها يشبه البطاقة (τάβλη)، التى تعرف بـ"بطاقة نقل الموتى". وهي عبارة عن قطعة خشبية صغيرة تحتوي على نصٍ يوناني أو ديموطيقي، أو كليهما، لتحديد هوية المتوفى والتَعَرُّف على جثمانه أثناء نقله من مكان إلى آخر. و يبدو أن الوظيفة الأساسية للبطاقة هنا هى

(*) كل اختصارات المجموعات البردية الواردة بالدراسة وفقاً لـ:
Editions of papyri and ostraka are abbreviated according to J. D. Sosin/R. S. Bagnall/J. Cowey/M.Depauw/T. G. Wilfong/K. A. Worp, *Checklist of Editions of Greek, Latin, Demotic, and Coptic Papyri, Ostraka and Tablets*, Online Version (2011), http://library.duke.edu/rubenstein/scriptorium/papyrus/texts/clist.html.
وكذلك كل اختصارات المجلات جاءت وفقا لـ: *L'ANNÉE PHILOLOGIQUE*:
www.annee-philologique.com/files/sigles_fr.pdf

(**) باحثة دكتوراة، جامعة الفيوم.

تحديد هوية المتوفى ووجهة جثمانه لدفنه فى موطنه خصوصا اذا كانت الوفاة قد حدثت بعيدا عن موطنه حيث إن الأهالى كانوا -ولايزالون- يفضلون دفن موتاهم فى مقابر العائلة فى مسقط رأسهم إذا كانوا يعيشون بعيدا عنها.

وقد ركزت هذه الدراسة على عملية النقل وما صاحبها من أجراءات ومشكلات، وتكاليفها ووسائلها، والمسئولين عن دفعها، وكذلك المختصين بعملية النقل، ومستلمي تلك المومياوات، ومكان الإستلام من خلال الوثائق البردية التى تبين لنا من خلالها مدى حرص الأهل على توصيل جثامين ومومياوات ذويهم إلى الجهة المحددة بإمان لأتمام مراسم الدفن.

Abstract

When a person died in Egypt outside his city, during the Greco-Roman era, it was common for him to be transported to be buried in his hometown, with what was distinguished by what looked like a card (τάβλη), which is known as the "carriage card of the dead." It is a small piece of wood containing Greek or Demotic text, or both, to identify the deceased and identify his body during its transfer from one place to another. It seems that the main function of the card here is to determine the identity of the deceased and the destination of his body for burial in his hometown, especially if the death occurred far from his hometown, as the people were - and still are - preferring to bury their dead in the family graves in their hometown if they lived far from it.

This study focused on the transfer process and its attendant procedures and problems, its costs and means, those responsible for paying it, as well as the specialists in the transfer process, the recipients of those mummies, and the place of receipt through papyrus documents that show us the extent to which the parents are keen to deliver the bodies and mummies of their relatives to the destination. Determined safely to complete the burial ceremony.

المقدمة:

تعتبر بطاقات الموتى التى عثر عليها فى مصر فى العصر الرومانى مصدرا مهما للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى، فعلى الرغم من صغر حجمها وعدد

الكلمات المحددة التى تحمله؛ إلا أنها تمدنا بمعلومات قيمة فى كثير من الاحيان عن المتوفى. وتعد مجموعة متحف اللوفر هى الأكثر عددا وانتشاراً بين الباحثين حيث يبلغ عددها حوالى ١٢٠٩ بطاقة منها ماهو مكتوب باللغة اليونانية (٦٢٢ بنسبة ٥٤,٧٥٪) أو باللغة اليونانية والخط الديموطيقى معا (٥٤٦ بنسبة ٤٥,٢٥٪)(١). كذلك هناك المئات من بطاقات الموتى المنشورة خصوصا من العصر الرومانى والموجودة فى أماكن متفرقة من العالم(٢). ومع ذلك وعلى الرغم من أهمية البطاقات وما تحتويه من معلومات فإنها ما تزال محدودة_ وتهدف هذه الدراسة إلى القاء مزيد من الضوء على عمليات نقل الموتى من خلال الأوراق البردية(٣).

(١) *T.Mom.Louvre = Catalogue des étiquettes de momies du Musée du Louvre*, ed. F. Baratte and B. Boyaval. Lille 1974—1979. Pt. 1, nos. 1—259 (*CRIPEL* 2, 1974); pt. 2, nos. 260—688 (*CRIPEL* 3, 1975); pt. 3, nos. 689—999 (*CRIPEL* 4,1976); pt.4, nos.1000—1209 and indexes (*CRIPEL* 5, 1979).

(٢) Cf., C.E˩tiq.Mom= *Corpus des étiquettes de momies grecques*, ed. By Boyaval, Bernard, Presses Univ. Septentrion, 1976; Allen, H. F. 1913." Five Greek Mummy-Labels in the Metropolitan Museum, New York", *AJPh* 34.2:194-197; Fox, W. Sherwood 1913. "Mummy-Labels in the Royal Ontario Museum" *AJPh* 34: 438-440; Fox, W. Sherwood 1914. "Mummy-Labels in the Royal Ontario Museum: Second Paper" *AJPh* 35.4: 463-466; Astrom.P.,1951." A Greek Mummy Label", *ERANOS* 49:109-116; Shelton. J.,1970. "Mummy Tags from the Ashmolean Museam" , *CdE* 45:334-352;Mueller, Dieter 1973. "Three Mummy Labels in the Swansea Wellcome Collection" *JEA* 59: 175-180; Chauveau. M., Kayser. F., 1991. "Cinq étiquettes de momies [Ét. Fouad 1-5], *BIFAO* 91:155-159; Muhs, Brian P.; Worp, Klaas A. and van der Vliet, Jacques 2006." Ostraca and Mummy Labels in Los Angeles", *BASP* 43: 9-58; Worp, K.A.2017. *Greek, Greek / Demotic and Demotic Mummy Labels:A Survey*, Death on the Nile Online Publications:http://deathonthenile.upf.edu/

(٣) *P. Bodl.* I 168 (Soknopou Nesos, 2nd Cent C.E); *P. Fay.* 103. (Theadeliphia, 3rd Cent P. *Grenf.* 2 77 = *Chrest. Wilck.* 498 = *Sel. Pap.* 1 157 (Great Oasis, 267 C.E); CE);*P. Gron.* 15 (Psonis, 2nd Cent C.E); *P. Hamb.* 74= *Sel. pap.* I 78 (Arsinoite, 173-4 C.E); *P. Köln.* 113.. (Oxyrhynchos, 3rd Cent. C.E); *P. Köln.* 374 (Herakleopolites, 2nd Cent C.E); *P. Oxy.* VII. 1068= *Sel. Pap.* I. 156,

وكانت بطاقات الموتى موضوعاً لعدد من الدراسات من أهمها دراسة باللغة الاسبانية للباحثة راكيل مارتن هرنانديز التى تحمل عنوان:

Hernández, R.M., (2011("El Transporte De Momias A Trave´s Del Nilo , Los Textos De Las Etiquteas De Momia": In Marín, J.B., Mompeán. J.C.O. eds. Esta Toledo, aquella Babilonia: convivencia e interacción en las sociedades del Oriente y del Mediterráneo antiguos 543-554.

وهى دراسة مقتضبة أنصب الأهتمام فيها على المعلومات التي تقدمها هذه البطاقات والترتيبات الخاصة بعمليات الطقوس الجنائزية فضلا عن المراسلات التى تتم بين الموظفين الجنائزيين وأقارب الشخص المتوفى.

وهناك أيضا دراسة قيمة عن بطاقات الموتى فى العصر الرومانى للدكتور حسن الابيارى بعنوان: بطاقات الموتى في مصر في العصر الروماني، مجلة مركز البردى العدد ٢٤، ٢٠٠٠, ص ٢٩٣- ٣٦٨. ركزت تلك الدراسة على محتويات بطاقات الموتى خصوصا الأسم وما يتعلق به، والموطن، و المهنة، فضلا عن بعض العبارات الدالة على الموت والتى وردت على بعض البطاقات، وكذلك التاريخ الموجود على البطاقة، وعبارات التأبين والإبتهالات والأدعية والرسوم التى وجدت على عدد من البطاقات، واختتم دراسته بالحديث عن الأعمار ودلالة هذه الأعمار.

جهة وصول الجثامين:

١) مكان الدفن (المقبرة):

كان الغرض الرئيس من نقل الجثامين من مكان لأخر هو الدفن، فكان يتم نقل الموتى من مكان الوفاة إلى مكان الدفن- الذى من السائد يكون موطنهم

(Oxyrhynchus, 3rd Cent CE); *P. Lille* 76 C, (Herkleopolis, 2nd Cent C.E); *P. Petaus*. 28 (Herakleopolites, 2nd Cent C.E); *P. Princ*. III. 166(2nd/ 3rd Cent C.E); *PSI*. VIII. 967(1st/ 2nd Cent C.E); *SPP*. XXII. 56 (Soknopou Nesos, 2nd Cent C.E); UPZ. I. 19. (Memphis, 163 B.C.E);*O. Bodle*. II. 1774.. (Thebes, 2nd Cent C.E).

الأصلي, مما يعكس رغبة العديد من الناس في دفنهم في مسقط رأسهم، وإن كان هناك رأي آخر يُرْجِع ذلك الأمر إلى القوانين التي تلزم المواطنين بالدفن في مقابر مدينتهم الأصلية(١).

تميزت بطاقات الموتى ببساطة النصوص التى تحملها, وبالتالى لا نستطيع أن نتبين منها إذا ما كانت وجهة الجثمان دائمًا إلى مسقط رأسه أم لا؛ إذ لم يرد ذلك صراحة في كثير من هذه البطاقات، ولعل السبب فى هذا يعود إلى أن كُتابَ هذا النوع من البطاقات قد اتبعوا صيغًا ثابتة، حيث إنها كانت تحتوي على اسم المتوفى، ومكان وصول الجثمان-دون ذكر ما إذا كان موطنه أم لا-(٢)، في حين كان يحتوي

---

(١) Hernández, R.M.,2011: 3

(٢) *C. Etiq. Mom.* 2055=*SB* 3 7057, (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E); *C. Etiq. Mom.* 2051=SB 1 5766 (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E);*C. Etiq. Mom.* 2052= *SB* 1 5767 (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E); *SB* 20 14363 = *BIFAO* 91 (1991), p. 156 no. 2(Harkleopolis.1st Cent C.E); *SB* 20 14365 = *BIFAO* 91 (1991), p. 157 no. 4(Panopolis1st Cent C.E); *C. Etiq Mom* 2119= *SB* 1 5203 (Panopolis,175-199 C.E); *C.Étiq. Mom.* 1668= *SB* 1 3967 (Hawara,2nd Cent C.E); *SB* 1 3965= *SB* 3 7084= *C.Etiq Mom.* 1666 (Hawara,2nd Cent C.E); *C. Etiq. Mom* 2047= *SB* 1 5211 (Panopolis 2nd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 1664=*SB* 5 8077 (Apollopolis,2nd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 2024 = *SB* 1 1206. (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 2039 = *SB* 1 3994 (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 2032 = *SB* 1 2640 (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E) ; *C.Etiq Mom* 2042=*SB* 1 4174 (Panopolis,2nd/3rd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 2034 = *SB* 1 3442 (Panopolis,2nd /3rd Cen C.E); *C.Étiq. Mom.* 2043 = *SB* 1 4219 (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E); *C. Etiq Mom.* 2044= *SB* 1 4535 (Panopolis,2nd/3rd Cent C.E); *C. Étiq. Mom.* 2049= *SB* 1 5539 (Panopolis,2nd/3rd Cent C.E); *C. Etiq Mom.* 2053=*SB* 1 5768 (Panopolis,2nd/3rd Cent C.E); *C. Étiq. Mom.* 2060 = *SB* 3 7091(Panopolis,2nd/3rd Cent C.E);*C.Étiq. Mom.* 2058 = *SB* 3 7089. (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E);*SB* 20 14362. (Theben,2nd /3rd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 1966 = *SB* 1 805. (Memphis,3rd Cent C.E);*C.Étiq. Mom.* 1667 = *SB* 1 3966 (Arsinoite, 3rd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 2030 = *SB* 1 2277. (Panopolis, 3rd Cent C.E); *C. Étiq. Mom.* 2089= *SB* 1 4386 (2nd/3rd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 2086 = *SB* 1 3579 (Theban,3rd Cent C.E);

بعضها على مكان وصول الجثمان فقط دون ذكر اسم المتوفى(١)،وتضمن البعض الآخر محل إقامة المتوفى المنقول منها بالإضافة إلى اسمه ومكان وصول الجثمان(٢). غير أنها هناك حالات قليلة ذُكر فيها بوضوح أن مكان الدفن هو مسقط رأس المتوفى حيث تسجل البطاقات عددا من الأقاليم أوالقرى التى كانت محطة وصول للجثامين، ومنها إقليم بانوبوليس الذى كان جهة وصول لكثير من الجثامين، وجاءت أغلب البطاقات الخاصة بهذا الإقليم أمَّا من أخميم(٣)؛حيث مقبرة تريفيون على الضفة الغربية؛ أو من عاصمة الإقليم حيث مقابر الهواويش والسالاموني على الضفة الشرقية(٤). ومن الحالات التى كانت بانوبوليس مقصداً لها حالة ديديموس

C.Étiq. Mom. 1661 = *SB* 12 10836 (Memphis,3rd Cent C.E); *SB* 24 16178(Panopolis,1st- 3rd Cent C.E);*C.Étiq. Mom.* 1955 = *SB* 4 7437IV. 7437. AD (Hermopolis,1st–4th Cent C.E); *C.Etiq Mom* 1957=*SB* 1 5773= *AJP* 34 (1913), p. 446-447 no. 8 (Arsinoite,275–325 C.E); *SB* 20 14341= *CdE* 78 (2003), p. 271 = *BIFAO* 90 (1990), p. 370.(Theban,2nd-3rd Cent C.E).

(١) *C. Etiq. Mom.* 2054=*SB* 1 5774, (Panopolis,2nd /3rd Cen C.E);; *C. Etiq. Mom.* 2035=*SB* 1 3447(Panopolis,2nd /3rd Cent C.E); *C. Etiq. Mom.* 1660=*SB* 12 10835 (Akanthon/Memphis, 3rd Cent C.E).

(٢) *C. Etiq. Mom.* 2107=*SB* 1 5140 (Arsinoite, 1st Cent C.E); *C. Etiq.Mom.* 2019 =*SB* 1 3539 (Theban.3rd Cent C.E). *C. Etiq. Mom.*2107= *SB*. 1. 5140 (Memphis,1st Cent C.E).

(٣) *C. Etiq. Mom.* 2052= SB 1 5767 (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E);C. Etiq. Mom. 2051=*SB* 1 5766(Panopolis,2nd /3rd Cent C.E);*SB* 20 14365 = *BIFAO* 91 (1991), p. 157 no. 4(Panopolis1st Cent C.E);*C. Etiq. Mom.* 2054=*SB* 1 5774, (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E);*C.Étiq. Mom.* 2034 = SB 1 3442 (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E);*SB*. 24. 16178 (Panopolis,1st-3rd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 2058 = *SB*. 3. 7089. (Panopolis,2nd /3rd Cen C.E); *C. Etiq Mom.* 2053=*SB* 1 5768 (Panopolis,2nd/3rd cen C.E); *C. Étiq. Mom.* 2049= *SB* 1 5539 (Panopolis,2nd/3rd Cent C.E); *C. Etiq. Mom.*2036=*SB* 13464 (Panopolis, 2nd /3rd Cent C.E).

(٤) *C.Etiq. Mom.* 2027= *SB* 1 1736 (Panopolis.1st - 3rd Cent C.E); *C.Etiq. Mom.* 2030=SB 1 2277 (Panopolis,1st - 3rd Cent C.E); *C.Etiq. Mom.* 2031=*SB* 12639 (Panopolis,1st - 3rd Cent C.E); *C. Étiq. Mom.* 341= *SB* 1 4167(2nd Cen C.E);*C. Étiq. Mom.* 2049= *SB* 1 5539. 2nd/3rd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 2043 = *SB* 1 4219

ابن تاتريفون أحد مواطنيها الذى غادرها فى وقت ما، وتوفى بعيدا عنها، ثم عادت جثته إلى هناك كى تدفن حسب نص البطاقة الوحيدة من نوعها التى تؤكد على أن النقل كان لمسقط رأس المتوفى حيث تقول: "أرسال المومياء إلى بانوبوليس لأنَّه مواطن من المدينة (وهو) ديديموس بن تاتريفون"(١). على هذا توضح البطاقة أن ديديموس كان لابد من أنْ يُنْقَل إلي بانوبوليس موطنه الأصلى ليدفن في مقابر الأجداد، لذلك تم حمل جثمانه إلى هناك(٢).

كما تسجل بطاقتان آخريان حالتين لسيدتين كانتا تعيشان فى الإسكندرية وبعد وفاتها نقلتا إلى بانوبوليس للدفن هناك. الحالة الأولى لسيدة تدعى ساتريبيس بنت بسيناجوس التى كانت تعيش فى الإسكندرية وتم نُقلها إلى بانوبوليس لتُدفن هناك حيث مسقط رأسها(٣). أما الحالة الثانية فهى للسيدة ديديمي بنت هيرون، والبطاقة الخاصة بها ثنائية اللغة فيها النص الديموطيقي يشير إلى نقل جثمان المتوفاة من الإسكندرية حيث كانت تقيم، إلى موطنها الأصلي في بانوبوليس، ففى النص اليونانى نجد(٤):

(Panopolis,2nd /3rd Cen C.E); *C.Etiq Mom* 2042=*SB* 1 4174 (Panopolis,2nd/3rd cen C.E); *C.Étiq. Mom.* 2032 = *SB*. 1. 2640 (Panopolis,2nd /3rd Cen C.E); *C.Étiq. Mom.* 2039 = *SB* 13994(Panopolis,1st - 3rd Cen C.E); *C.Étiq. Mom.* 2024 = *SB* 1 1206. (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E); *C. Etiq. Mom* 2047= *SB* 1 5211 (Panopolis, 2nd Cent C.E);*C. Etiq Mom.* 2119= *SB* 1 5203 (Panopolis,175-199 C.E).

(١) *C. Etiq. Mom.* 2055= *SB* 1 1268 (Panopolis,2nd /3rd Cent C.E): "Ἀπόδος τήν ταφήν είς Πανώπολιν ότι Δίδυμος Πανοπολίτης έστίν. Δίδυμος υιός Τατρίφουτος".

(٢) Schmidt.C., "Ein Griechisches Mumienetikett aus Achmim". *ZAS* 34, 1879, pp 79 - 81.

(٣) *C. Etiq. Mom.* 113=*SB* 1 1205 (panopolis,3rd Cent C.E): "Σατρῖπις Ψενμαγῶτος έν Ἀλεχανδρεία αναπαυσάμενος".

(٤) Boswinkel, E., et Pestman, P.W. 1978. *Textes grecs, démotiques et bilingues,P.L. Bat. XIX: 142-3 no 32*(Panopolis,2nd Cent C.E).

Διδύμη Ἡρωνο(ς) Ι η Χοιάκ η

"ديديمي بنت هيرون، العام الثامن، الثامن من كهيك"

وفى النص الديموطيقى نجد:

T3-hir.t3 sr.t Hrn3 Rmt-t R-kd

"ثاتريس ابنه هيرون، سيدة من الإسكندرية"

ويتبين لنا من خلال هذه البطاقة أنَّ النص اليوناني ليس ترجمةً حرفية للنص الديموطيقي، أو العكس، كما هو الحال في كثير من البطاقات ثنائية اللغة. وجدير بالذكر أنه نادرًا ما تحتوي البطاقات المكتوبة بالديموطيقية على أيّة معلومات خاصة بنقل المومياوات(١). فضلا عن بانوبوليس هناك حالات أخرى من منطقة طيبة التى لم يصلنا منها سوى عدد قليل من البطاقات، وقد استخدمت في أحدهم صيغة مختلفة عن الصيغة المعتادة في بطاقات النقل، مما يثير الشك حول ما إذا كانت طيبة تمثل هنا جهة وصول المومياء أم تمثل أصل أو محل إقامة المتوفى(٢). وقد ورد فى وثيقة آخرى أنه تم نقل مومياء تاسيس إلى طيبة لتدفن فى مقبرة عائلتها المجاورة لمقبرة العجل بوخيس(٣). لدينا أيضا عدد من بطاقات نقل الموتى التى جاءت من إقليم ليكوبوليس وقد ورد فى أحدهما أنه تم نقل لونجينوس سارابيوس إلى مقبرتها(٤).

---

(١) Hernández, R.M., 2011, p 3.

(٢) *C.Étiq. Mom.* 1932= *SB*. I. 2014 (1st – 3rd Cent C. E); *C. Etiq. Mom.* 2019 = *SB* 1 3539(1st -3rd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 2086 = *SB* 1 3579 (3rd Cent C.E); *SB*. XX. 14341= *CdE* 78 (2003), p. 271 = *BIFAO* 90 (1990), p. 370.(Theban,2nd-3rd Cent C.E); *SB*. XX. 14362 (Theben,2nd /3rd Cen C.E); *SB* 20 14362. (Theben,2nd /3rd Cen C.E): Πλῆνι Λαμύου Ἑρμω(ν)θ(ίτης); Chauveau. M., Kayser. F., 1991: 156.

(٣) Pestman., Textes Grecs, Demotiques et Bilingues, No 42, p. 268 = C. Etiq Mom 1936: LL. 5-7 : "Είσ το πουχῖν Ψενεουήρι παστοφόρου τοῦ θεοῦ ζωου Βουχιν".

(٤) *SB*. I. 4985 (70-110 CE); V. 7697; 7699 – 7701; 7704; 7706-9; 7711; 7713; 7716; 7719; 7729 (2nd – 3rd Cent CE); SB. V. 7708.(2nd -3rd Cent CE- Likopolis) = Kirwan L. P., some Roman Mummy Tickets, *Annales du Service des Antiquites d'Egypte* 33, (1933) : "Λονγεῖνος Σαραπίωνος είς Λύκω ταφήν ".

ومن إقليم منف وصل إلينا عدد من البطاقات التى كانت متجهة جميعها إلى قرية أكانثون(١), مقر المعبد الكبير للإله أوزوريس المشهور بنشاطاته الجنائزية؛ لذا من المرجح أن النقل إليها كان بغرض الدفن هناك بجانب المعبد, مما يعكس رغبة الكثير فى الدفن فى المقابر الكبيرة ذات القداسة الخاصة مثل أبيدوس, ميمنونيا, وممفيس وغيرهم (٢). وفى وثيقة بردية يرجع تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد وردت إشارة واضحة إلى قيام شقيق المتوفى بنقله من إقليم هيراكليوبوليس حيث مات، إلى مسقط رأسه، ليدفن في مقبرة ممفيس(٣).كذلك تشير إحدى البطاقات إلى نقل مومياء هرمياس من قرية فيلادليفيا بأقليم أرسينوي، حيث يعيش إلى كيركى بإقليم ممفيس؛ حيث مسقط رأسه ليُدْفن هناك(٤).

٢) مكان التحنيط:

تبين بعض البطاقات أن نقل الجثامين كان بغرض التحنيط وليس الدفن، ويبدو أنه كانت هناك ورش للتحنيط فى أقليم أرسينوى حيث يؤكد عدد من الشواهد على نقل جثامين غير محنطة إلى أرسينوى وذلك بغرض التحنيط, وقد ورد فى إحدى البطاقات التى عُثر عليها فى منطقة هوارة نقل جثمان شخص يدعى

(١) *C.Étiq. Mom.* 1966 = *SB* 1 805. (Memphis,3rd Cent C.E); *C. Etiq Mom.* 2107= *SB*.1 5140 (Memphis,1st Cent C.E): *C. Etiq. Mom.* 1660=*SB* 12 10835 (Akanthon/Memphis, 3rd Cent C.E).

(٢)لأبياري، حسن أحمد حسن.٢٠٠٠: ٣١١.

(٣) τῶν δέ όδελφῶν αύτοῦ "*UPZ*. I. 19. (Memphis, 163 B.C): LL. 15-16 : άναπλευσάντων καί άγαγόντων και παρακομισάντων αύτόν είσ τάς κατα Μεμφιν νεκρίας.

Rowlandson. J., Women and Society in Greek and Roman Egypt, Cambridge, 1998, p 101.

(٤) *C. Etiq Mom.* 2107= *SB* 1 5140 (Memphis,1st Cent C.E): "Ταφή Ἡρμιας άπό κώμης Φιλαδελφίας τοῦ Άρσενοίτου , έν 'ορμω Κερκή τοῦ Μεμφείτου.

أبوليناريوس إلى إقليم أرسينوى(١): "Σῶμα Ἀπολιναρίου υἱοῦ Διοκλέους ἐριεμπόρου "εἰς Ἀρσινοείτην. وهنا نلاحظ استخدام كلمة (σῶμα) التى تستخدم فى أوراق البردى للأشارة إلى الجثامين غير المحنطة. كذلك يبدو أن هذه الورشة كانت تخدم الاقاليم المحيطة بأرسينوى مثل أوكسيرينخوس حيث يشكو أحد البحاره إلى رئيسه من عدم توفر أيه قوارب في أقليم أرسينوي ليتمكن من نقل الجثمان من هناك(٢). وعلى الرغم من تغلبه هو ومساعدوه على هذه المشكلة وتوفير قارب، إلا أنهم عندما وصلوا إلى المكان المحدد اكتشفوا أنَّه لم يتم الأنتهاء بعد من تحنيط الجثمان مما أدى إلى تأخيرهم لعده أيام(٣). وهذا يدل على أن حجم العمل المنوط بهذه الورشة كان كبيرا, وبالتالى لم يتمكن عمالها من تلبية أو انجاز الأعمال المطلوبة منهم فى مواعيدها.

كذلك تم تجميع بعض الجثامين من اقليم هيراكليوبوليس وتسليمها إلى المحنط (ταριχευτης) على مايبدو فى ورشة أرسينوى كما جاء فى إحدى الوثائق(٤). كما تنص بطاقة أخرى تعود للقرن الثانى الميلادى على نقل جثمان أحد

---

(١) P. LILLE. 76/1-2 (Herkleopolis. 2nd Cent CE); *P. Bodl.* I. 168. (Soknopou Nesos. 2nd Cent CE); *SB*. I. 3965= *C. Etiq. Mom.* 1666 (Arsinoite. 2nd Cent CE).

(٢) P. *Oxy*. VII. 1068= *Sel. Pap.* I 156 (Oxyrhynchus, 3rd Cent CE): L. 3 : "μή εὐπορήσας πλοῖον ἐν Ἀρσενοείδῃ".

(٣) P. *Oxy*. VII. 1068. LL.12-15 :"ἀνελθόντες οὖν ἐν Ἀρσενοείτῃ εὕρον τό σωμάτιν μήπον δυνάμενον κηδευθῆναι , ἀλλά ἡμερῶν ἀνοχήν ἔχω".

(٤) P. LILLE C 76 (Herkleopolis,2nd Cent C.E) L. 1: "Πετεῶρ καί Παπνοῦτις ἀπό κώμης Τιβάστι τοῦ Ἡρακλεοπολίτου νομοῦ".

"بيتور وبابنوتيس من قرية تيباستيس بإقليم هيراكليوبوليس"

II: Τονλᾶσι καί πανοῦβ ὁ σύμβιος αὐτῆς ἀπό τῆς αὐτῆσ κώμης

"تونلاس وبانويب زوجها , من نفس القرية"

Boyaval, B. 1978." Deux bordereaux d'expedition de momies?" *ZPE* 31: 118-120.

الأفراد إلى سوكنوبايونيسوس بإقليم أرسينوى بغرض التحنيط(١). وفى وثيقة أخرى تعود للقرن الثالث الميلادى من إقليم أكسيرينخوس ورد فيها أمر بنقل جثمان هارساس الكاهن إلى متعهد الدفن، ولم يكن الجثمان المنقول محنط كما تشير الكلمة (σῶμα)، حسب اقتراح كونين في ترجمته لهذه الوثيقة(٢). هكذا يتبين من الوثائق أن النقل كان بغرض التحنيط أيضا, وفى هذه الحالة لابد من مراعاة أن يتم النقل فى أسرع وقت ممكن.

- **وسائل نقل الجثامين:**

١) النقل النهرى:

كان النقل النهرى هو الأكثر شيوعا خصوصا فى عملية نقل الجثامين والمومياوات إلى الضفة الغربية من النيل حيث كان النقل يتم بواسطة القوارب(٣).

---

(١) *P. Bodl.* I. 168 (Soknopou Nesos, 2nd Cent C.E): "Σοκνεπαίου Νήσου Καειηοῦ(τος) σῶμαι" "سكنوبايونيسوس جثمان كاييؤتوس"

(٢) *P. Köln*. 113 (3rd Cent. CE- Oxyrhynchos): "ἐνταφιασταῖς ἐκκομίσατε σῶμα Ἀρσᾶ ἱερέως".
Koenen,L., "Anweisung an die Totengräber (P. Colon. inv. nr. 3004)", *ZPE* 9, 1972, 20-21. Derda,T., Necropolis Workers in Graeco-Roman Egypt in the Light of the Greek Papyri, *JJP* 21, 1991, p 32.

(٣) *C. Etiq Mom.* 2110= *SB*. I. 5143 ((Arsinoite 1st Cent CE); *P. Gron.* 15 (Psonis, 2nd Cent C.E); *SPP*. XXII. 56 (Soknopou Nesos, 2nd Cent C.E); *O. Bodle*. II. 1774.. (Thebes, 2nd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 2120 = *SB* 1 52058 (2nd Cent C.E); *C.Étiq. Mom.* 381 = *SB* 1 5205 (2nd Cent C.E); *P. Oxy*. VII. 1068= *Sel. Pap*. I. 156, (Oxyrhynchus, 3rd Cent CE); *SB* 1 6011= Griffith F.Ll.1916. "A Tourist's Collection of Fifty Years Ago". *JEA* 3,197 (Theban,1st B. C.E); *C.Etiq Mom.* 1965= *SB* 1 3553(Theban, 25/24 B. C); *C. Etiq Mom.* 265=*SB* 13558(Theben 1st /3rd Cent C.E); *C. Etiq Mom.* 1936= SB 1 5538 (1st -3rd Cent C.E); *C. Etiq Mom.* 2107 =SB 1 5140 (1st Cent CE); *C. Etiq Mom.* 263=SB 1 3554 (Panopolis,1st-3rd Cent C.E); Mueller, Dieter, Three Mummy Labels in the Swansea Wellcome Collections, *JEA* 59: 1973, 175- 180.

وقد ورد في إحدى الوثائق البردية التي ترجع إلى القرن الثالث الميلادي محادثات حول إرسال قارب لأحد العمال ليتمكن من نقل أحد الجثامين من إقليم أرسينوي إلى الإسكندرية(١).

وقد ترد الإشارة الى هذا النوع من النقل فى الوثائق(٢) لتوضح أن النقل تم عن طريق أحد البحارة (ὁ ναύτης)، وهو ما يعنى ضمنا أنه تم عبر النهر. كما تشير إحدى البطاقات بشكل واضح إلى استخدام النقل النهري في نقل المومياوات، إذ ورد فيها أن ثلاثة من الأخوة أرسلوا مومياء والدتهم عن طريق النهر- حيث نقرأ "أرسل (كل من) تاسيس، ترمبموس وتيبويريس أبناء ثيجاثروس - مومياء والدتهم عن طريق النهر"(٣).

وقد كان هناك على ما يبدو في بعض الأحيان قوارب مخصصة لهذا الغرض عُرفت بالقارب الجنائزى (πλοῖον νεκρηγόν)(٤)، أو قارب الموتى (πλοῖον τῶν νεκρῶν)(٥) حيث نقرأ في إحدى الوثائق المتعلقة بنفقات دفن سيدة، أنه على ديديموس استلام الجثمان من قارب الموتى الذي كان على وشك الوصول(٦). كذلك

(١) *P. Oxy*. VII. 1068= *Sel. Pap*. I 156, (Oxyrhynchus, 3rd Cent CE): LL. 5- 6: "είνα μοι πλοῖον διαπέμψεται είνα δυνηθῶ τό σωμάττιν κατενενκεῖν έν Ἀλεξάνδριαν".

(٢) *P. Gron*. 15 (Psonis, 2nd Cent C.E); LL. 2-3 : "δια Οννόφρεως 'Ονόφρεως ναυτικοῦ τήν ταφήν τῆσ μητρός μου".

(٣) *SB*. I. 3558 = *C. Etiq Mom*. 265(Theban 1st /3rd Cent C. E): "Ταῆσις Τρμπμοού Τιπουήρ[ ]. οί υίος τῆς Θυγαθρός πεπέμφαν τήν μητέραν άτ[ῆσ] κέ άνενεγκεν αύτήν παρά ποταμόν".

(٤) *P. Hamb*. 74 = *Sel. Pap*. I. 78 (Arsinoite, 173-4 C. E).

(٥) *PSI*. VIII. 967 (1st / 2nd Cent C. E).

(٦) *PSI*. VIII. 967 (1st / 2nd Cent C. E): LL. 13-4 : "θάψε πρόσδεξε αύτήν έν τῶ ῥτι έρχομένω πλοίω τῶν νεκρῶν".

يقر قائد القارب الجنائزى فى إحدى الوثائق بأنه استلم مومياء مضمدة وملفوفة بالأكفان وأنه سوف ينقلها إلى ميناء كيركي في إقليم منف(١) .

٢) النقل البري:

أستخدم البعض دواب النقل كالحمير فى نقل الجثامين والمومياوات، فقد ورد في إحدى الوثائق ما يشير إلى نقل أحد الجثامين بواسطة الحمير، وقد قام السائق، الذي يفترض أن يكون أحد حفارى القبور بتثبيت الجثمان بقضيب على ظهر الحمار(٢) . ولدينا وثيقة أخرى من القرن الثاني الميلادي تشير إيضًا إلى أن نقل إحدى المومياوات بواسطة الحمير تكلف ٨ دراخمات(٣) . وأن كان غير واضح إذا ما كان المقصود هنا تكلفة نقل الحمار على متن القارب أم تكلفة الحمار نفسه لقيامه بعملية النقل، لعل الرأي الأول هو الأكثر ترجيحًا، خصوصًا مع العلم بأن استخدام الحمير في نقل التوابيت للقبور يعد أمرًا غير مقبول ولا يتناسب بالأحرى مع العادات الجنائزية المصرية(٤) . وتشير وثيقة أخرى تعود إلى القرن الثالث أو الرابع الميلادي إلى قيام شخص يُدعى ميلاس أحد أقارب أو جيران المتوفى- بإرسال الجثمان إلى أخوته سارابيون وسيلفانوس بواسطة أحد حفاري القبور الذي قام بنقلها برًا عبر الصحراء كما يتضح من سياق الوثيقة(٥) . بينما ورد في موضع آخر من نفس الوثيقة ما نصه: إلى

---

(١) *P. Hamb*. 74 = Sel. Pap. I. 78 (Arsinoite, 173-4 C. E): LL. 4-7 : "ὁμολογῶ παρειληφέναι παρά σοῦ σῶμα εἰλισμένου [...........ὁ]ν καί ἀποκαταστήσω [είσ ὁρμον] κερκή τοῦ Μεμφείτου νομοῦ ".

(٢) ότι είς τόν νῶτον αὐτοῦ "*P. Petaus*. 28 (Herakleopolites, 2nd Cent C.E):L. 8-10 : ."ῥάβδον καί ἐμβεβλημένοι είσίν αὐτόν ἐπί τήν όνον σου

(٣) *SPP*. XXII. 56 (Soknopou Nesos, 2nd Cent C.E): L. 28: να[υ]λο όνου (δραχμαί) η.

(٤) Winkler. A., "On the Longevity of the χοαχύται in Thebes and Elsewhere" , *JAC* .29, 2014, 57-58

(٥) *P. Grenf. 2 77 = Chrest. Wilck. 498 = Sel. Pap. 1 157 (Great Oasis, 267 CE)* LL. ἀπεστιλα ὑμίν [διά τοῦ ν]εκροτάφου τό σῶμα τοῦ [ἀδελφοῦ] "2-4 : Φιβίωνος.

حفار القبر من أجل رحلة الصحراء"[١].

وفى بعض الأحيان كانت تصاحب عملية النقل بعض المشكلات، منها: الخوف الدائم من قبل أهل وأقارب المتوفى من أي اعتداء أو تلف قد يصيب المومياء، أوالخوف من عدم وصولها إلى المكان المحدد لها. وربما لهذا السبب يصاحب المومياوات دائمًا وصف دقيق لمكان الوصول وذلك خوفًا من الفشل في توصيلها إلى وجهتها، وربما زياده في الأحتياط إذا أمكن يُرسم على حواف بعض البطاقات رسومات أخرى أكثر بروزًا بالإضافة لنص البطاقة نفسها. وإنْ كان هناك اعتقاد بأنَّ هذه الأجراءات الأحتياطية أجريت على وجه التحديد لعمال النقل الذين لا يجيدون القراءة والكتابة وذلك لتجنب التسليم الخاطئ للمومياء[٢]. وبهذا المعنى يمكننا تسليط الضوء على وثيقة بردية من القرن الثاني الميلادي وهي عبارة عن رسالة بين اثنين من حفاري القبور، أشار فيها كاتب الرسالة بابساوس إلى أنَّه بالرغم من إرساله المومياء، إلا أنها لم تصل إلى الجهة المحددة لها (مسقط رأسه) كما هو مطلوب، وبالتالي فإنَّ أسرة المتوفى تهدد باتخاذ الأجراءات القانونية اللازمة في حال عدم وصول المومياء[٣]. كما تشير الرسالة، أيضًا، إلى أن هذه ليست المرة الأولى التي يتم التعامل فيها مع هذا الوسيط (عامل النقل)[٤].

وتشير وثيقة أخرى إلى تعرض المومياوات للتهديد (ربما السرقة من قبل اللصوص) أثناء النقل، وفى هذا السياق كتب شخص يدعى ساتورنيلوس الذى كان يعمل على ما يبدو مع عدد من المساعدين في نقل الجثامين من إقليم أرسينوي إلى الإسكندرية- يطلب من رئيسه أبوللونيوس إعطاء زملائه رسالة توصية منه

---

(١) *: L. P. Grenf. 2 77 = Chrest. Wilck. 498 = Sel. Pap. 1 157 (Great Oasis, 267 CE*
"[τ]ω νεκροτάφω είς τό όρος"22 :

(٢) Kaiser, A.," Mumientäfelchen" *in* Zdiarsky, Angelika ed. *"Wage zur Unsterblichkeit: Altägyptischer Totenkult und Jenseitsglaube* ", Wien, 2013, 57-58.

(٣) *P. Petaus*. 28. LL 3-7 (Herakleopolites, 2nd Cent C.E).

(٤) Hernandez. R.M., Op. cit, p 7.

حتى لا يتعرضوا لأيَّة مضايقات على الطريق ليتمكنوا من نقل المومياء بسلام(١). وتقدم نفس الوثيقة مشكلة أخرى وهى عدم توافر قوارب للنقل وهذا ما أكد عليه ساتورنيلوس عندما شكا من عدم توفر أيه قوارب في أقليم أرسينوي ليتمكن من نقل الجثمان من هناك(٢).

- **تكاليف النقل:**

لا تحتوى كثير من بطاقات الموتى على معلومات تتعلق بتكاليف النقل بسبب المعلومات القليلة التى تحملها، غير أن هذه النوعية من المعلومات تتوافر أكثر فى النقوش والبردى، فضلا عن عدد قليل من بطاقات الموتى, ولكن لا يتضح من خلالهم الجثمان منقول من أين إلى أين, ومتى؛ لتحديد قيمة التكاليف التى تختلف وفقًا للمسافة المقطوعة. ففى أحد النقوش نجد أن تكاليف نقل الجثمان عبر النهر بلغت خمس دراخمات وثلاثة أوبولات، بالإضافة إلى أجرة قائد القارب التي بلغت أربع دراخمات(٣). كما نقرأ في إحدى بطاقات الموتى التى ترجع للقرن الثاني أو الثالث الميلادي أن ببكيس بن باخوميس من تريفون باقليم بانوبوليس– البالغ من العمر خمسة وستين عامًا دفع اثنتين وستين دراخمة نظير دفنه(٤). ولا يتضح لنا إذا ما كان هذا المبلغ قد دُفع لنقل المومياء، أم كضريبة على دفن المومياء Τελος (ταφος) لكن نص البطاقة يوحى بأن هذا الرجل قد قام بسداد المبلغ قبل وفاته،

---

(١) *P. Oxy*. VII. 1068= *Sel. Pap*. I 156, (Oxyrhynchus, 3rd Cent CE): LL. 23 -27 : "ἀξιώσω οὺν , κύρε μου , είνα δῶσ αὺτοῖσ γράμματα είνα μηδίς ἐνοχλήσι αὺτοῖσ καθ ὁδόν , εῖνα δυνηθῶ κηδεύσας τό σωμάτιν ἐλθῖν πρός σέ".

(٢) *P. Oxy*. VII. 1068= *Sel. Pap*. I 156, (Oxyrhynchus, 3rd Cent CE): L. 3 : "μή εὺπορήσας πλοῖον ἐν Ἀρσενοείδη".

(٣) *O. Bodle*. II. 1774.. (Thebes, 2nd Cent C.E). L. 2 : "ναύλ(ου) (δρσχμάς) ε (τριώβολον)" + L. 5: "κυβερν(ήτη) (δραχμαι) δ".

(٤) *T. Mom Louvre*. 227= *C.Étiq. Mom*. 2099 (2nd – 3rd Cent CE -Panopolis): "Πβῆκις Παχούμιος ἀπὸ Τριφίου ὼσ (ἐτῶν) ξε εἰς τὴν ταφὴν αὺτοῦ ἀργυρίου (δραχμαί) ξβ".

مما يترتب عليه أنه كان لايجوز دفن الشخص إلا بعد سداد ماعليه من أجر الدفن والنقل. كما جاء فى أحدى البرديات التى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي أن أجر حامل الجثمان بلغ حوالي ١٦ دراخمة و٢٠ أوبول، ولا يتضح من هذا النص أذا ما كان النقل عن طريق البر أم النهر(١). وفى وثيقة أخرى نجد أن تكلفة نقل أحد الجثامين بواسطة حفاري القبور بلغت ٣٤٠ دراخمة(٢)، وهذا المبلغ يزيد قليلا عن مبلغ جاء على أحدى البطاقات مقرونا باسم شخص، حيث جاء "بسيتاموس ٣٠٠ دراخمة" (٣). الارتفاع الملحوظ لتكاليف النقل فى أخر حالتين يوحى بأن هذه التكاليف ربما تضمنت- إلى جانب نفقات النقل- الضرائب وبعض النفقات الخاصة بعملية تحنيط وربما الدفن أيضا، وقد وردت الأشارة لمثل هذه النفقات فى عدد من البطاقات(٤). ويؤكد هذا ماجاء فى إحدى البطاقات من أن مُرسل المومياء قد قام بدفع كافة تكاليف النقل والضرائب وجميع النفقات(٥).

وعلى ما يبدو فإن دفع تكاليف النقل للقائم بها كانت ضرورية من أجل استلام الجثمان وأتمام مراسم الدفن، لذلك نجد أن هناك عدداُ من البطاقات التى لم يُحدد فيها تكاليف النقل بل تمت الاشارة الى أن التكاليف قد دفعت بالكامل، ولكن دون ذكر المبلغ المدفوع(٦)، حيث يُذكر بجانب اسم المتوفى، ومكان

---

(١) *P. Fay.* 103. (Theadeliphia, 3rd Cent C.E): LL. 3-4: "[μ]ισθός τοῖσ ἡρκάσι αὐτόν ε........ (δραμαί(?)) ις (ὀβολοί) κ".

(٢) *P.* Grenf. 2 77 (Great Oasis, 267 CE):LL. 4-8: "καί ἐπλήρωσα [αὐ]τόν [το]ύς μισθοῦσ τῆσ μαρακομιδῆσ τοῦ σώματος ὄντας ἐν δραχμαῖσ τριακοσίας τεσσαράκοντα παλαιοῦ νομίσματος".

(٣) *T M. Ashm.* 18.(Panopolis- 3rd Cent C. E): Ψεντάμ (δραχμαί) τ.

(٤) *SB* I 3554-3555 (Theban- 2nd C.E); *C. Etiq Mom.* 2120=SB 1 5208 (Theban- 2nd Cent C.E).

(٥) *C. Etiq. Mom.* 1936= *SB* 1 5538: LL. 7-10 : "πεπληρωμένος τό ναυλον καί τό <u>τέλος</u> καί πασας δαπάνης".

(٦) cf., *C.Étiq. Mom.* 381 = *SB* 1 5205 (2nd Cent C.E); *C. Étiq. Mom.* 264=*SB* 1 3555(Theban ,3rd Cent C.E) ; *C. Etiq Mom.* 2120=SB 1 5208(2nd Cent C.E); *C. Etiq. Mom.* 1936= *SB* 1 5538.

الوصول، معلومات توضح أن رسوم النقل قد دُفِعَت بالفعل، ومستلم المومياء غير مطالب بدفع أيَّة رسوم، وعليه أن يتسلم المومياء دون أية عقبات(١). ومن أطرف ما جاء فى أحدى هذه البطاقات مايفيد بأنَّ المُرسِلَ قد أرسل مومياء شقيق المستلم مع دفع المُرسِلُ لكافة الرسوم، حيث جاء فيها: "أرسلتُ إليكَ أخاكَ، أجرة القارب مدفوعة بالكامل، حتى لا تكون مقصرًا عندما تصل السفينة"(٢). والطريف فى هذه البطاقة أنها لم تكشف عن هوية المتوفى، ولا هوية مرسل المومياء ولا مدى علاقته بمستلم الرسالة، حتي يتكفل بكافة المصاريف نيابه عن شقيق المتوفى، من هنا يمكن النظر إليها كبطاقة مكملة لبطاقة أخرى حملت اسم المتوفى.

إن النص على أن رسوم النقل قد تم دفعها بالكامل يدل على أن هذه الرسوم كانت تشكل عبئا على أسرة المتوفى لأنها كانت كبيرة, وقد تفوق قدرة أسرة المتوفى أو من أرسلت إليه المومياء لدفنها، وقد يترتب على عدم القدرة على دفع هذه الرسوم أن يتهرب مستلموا المومياوات من استلامها، لذا يؤكد هنا مرسل المومياء أنَّ رسوم النقل مدفوعة بالكامل موضحًا لمستلم المومياء بألا يتقاعس عن استلامها عند وصول القارب.

ولا يتضح من خلال عرض البطاقات السابقة المسئول عن دفع تكاليف النقل، بينما هناك بطاقات أخري توضح أن المسئول قد يكون الأخ. فعلى سبيل المثال

---

(١) Kaiser, A.2013: 58.

يبدو أن هذا الامر كان موروثا من العصر البطلمى حيث ورد فى أحدى البطاقات التى تعود الى العصر البطلمى:

SB 1 3553 = *P. Par.* 1 = *C. Etiq Mom.* 1965 (Theban, 128 B. C.E): LL. 6-11 : ἔδωκα αὐτῶ τά ναῦλα πλήρης καί τάς δαπάνας , καί ὑμεῖς ουν " "καταστήσατε αὐτήν είς τούς τάφους έν Μεμνονείοις

"دفعت أجرة القارب كاملة والنفقات، ولذلك يمكنك نقلها إلى قبرها في ميمنونيا"

هكذا يتضح أنَّ مُرسل المومياء دفع أجرة قارب النقل كاملة وكافة المصاريف، وبالتالي، يمكن لمستلم المومياء نقلها إلى قبرها في ميمنونيا دون إيَّة عقبات.

(٢) *C.Étiq. Mom.* 381 = *SB* 1 5205 (2nd Cent C.E) : "πεμψά σοι τόν ἀδελφόν σου. πεπλήρωται γάρ τό ναυλον. μή οθν ἀμελήσης ἔθν τό πολοιν ἔλθη. ἔρρωσο μοι ".

ورد في إحدى البطاقات ما يشير إلى أنَّ الأخ هو المسئول عن تسديد أجرة النقل، والمصاريف المتعلقة بمومياء أخته التي كانت قد أرسلت إليه على ما يبدو من قبل المحنط المسئول عن تحنيط مومياتها, أو ربما أرسلت إليه من قبل أحد أقاربها الذي قام بتولي عملية التحنيط نيابة عن الأخ، ثم أوكل مهمة نقلها إلى أحد العمال المسئولين عن نقل الجثامين, مؤكدًا للأخ أن عليه القيام بسداد المصاريف إذ أنه على ما يبدو لم يقم بسدادها. حيث نقرأ ما نصه: "سنيريوس بن بلوسوس تحياتي: حامل جثمان سنبامونثي أختك، عليك تسديد أجره النقل والمصاريف........ "(١).

وقد يكون أحد الوالدين المسئول عن تكاليف النقل، حيث جاء في بطاقة نقل ما يفيد بأن المرسلة أرسلت جثمان ابنها بواسطة سينريوس بن بلوسوس حامل الجثمانκόμισαν τό σομάτιον ، طالبه من المستلم (على ما يبدو الوالد) بتسديد أجرة القارب والمصاريف لحامل الجثمان(٢). يبدو أن سنيريوس بن بلوسوس كان يعمل حفارا للقبور فى طيبة خلال تاريخ هاتين الوثيقتين بسبب تكرار اسمه فى أخر وثيقتين.

لدينا بطاقة أخرى يتضح من خلالها أن كلاً من والد وشقيق ثفوس ابنه باثيرموثيس كانوا مسئولين عن تسديد أجرة نقلها لقرية بسينبيلوخيس بأقليم بانوبوليس. "ثفوس ابنه باثيرموثيس، والدتها ثسينبسويس، تسديد أجرة القارب عن نقلها إلى بسينبلوخيس "(٣).

---

(١) Σενύριος Πλού[σα] "*C. Étiq. Mom.* 264=*SB* 1 3555(Theban ,3rd Cent C.E): Recto: χαίρειν. κόμ[ισον] τό σομάτιον Σενπαμώνθης τῆς ἀδελφῆς σου πεπληρωκα ."αὐτόν τόν ναῦλον καί δεπά[νας..........]

(٢) *C. Etiq Mom.* 263=*SB* 1 3554 (Panopolis,1st-3rd Cent C.E): Σενύριος Πλούσα κόμισον τό σωμάτιον τοῦ υἱοῦ μου ἔστιν δέ τό ὄνομα αὐτου τοῦ σωμάτιου Ἰσίωνος πεπλήρωκα αὐτόν τοῦ ναύλον καὶ τῶν δαπανῶν π....σῶμα...

(٣) *C. Etiq Mom.* 2120=*SB* 1 5208(2nd Cent C.E): "Θφῶς Πασερμούθιος μητρός Θσενψόιτος ἡς τό ναυλον ἀπεδόθη ὠς Ψενβελλῶχιν. Πασερμοῦθις πατήρ , Ψόιτος ἀφελφός.

- **عملية التسليم والتسلم:**

فى الحالات التى كان التسليم فيها يتم فى الجبانات فإن مستلموا المومياء كانوا من العمال الجنائزيين المختصين بعملية النقل والدفن, من الأنتافياستاى ἐνταφιαται(١), وحفارى القبور νεκροταφαι(٢)، وهذا ما تؤكده أحدى البطاقات التى جاء فيها أمر بتسليم جثمان سارابيون الشهير بفاليروس الصائغ لمتعهد الدفن(٣). وفى بطاقة أخرى تم تسليم الجثمان إلى أحد حفارى القبور الذي كان على ما يبدو مشهورًا بحيث لم يكن هناك داع لذكر اسمه على البطاقة(٤). كذلك جاء فى أحد البطاقات أرسال مومياء إلى ابن زوج المتوفاة الذي كان عليه تسليمها إلى حفار القبر الذي قام بدوره بتسليمها إلى الخوأختياي χοαχύται: " إلى هيرمونثيس: تاسيس ابنة سيثوتسيتوس، ليتمكن بيكون ابن زوجها من تسليمها إلى بسينيويريس حفار القبر وتزويدها ببطاقة: " إلى بوخيس حيث بسينيويريس

---

(١) *SB*. I. 25 (Panopolis 2nd -3rd Cent CE) ; I. 3442; 3815; 4170 (Panopolis, 3rd Cent C.E); 5144 (Arsionte, 1st Cent C.E); *P. Köln*. 113 (Oxyrhynchus. 3rd Cent CE).

(٢) *SB*. I. 761; 3447; 5538; 5766; 5767; VI. 9211 (2nd Cent CE); VI. 9126 (Philadelphia 3rd / 4th Cent CE).

(٣) *SB*. I. 5144 (Arsinoite. 1st Cent. CE): "Σαραπίωνα ἐπικαλούμενον Οὐαλέρις χρυσοχοῦς βαλεῖ αὐτόν είσ Ἀκανθῶνα ὥστε είσ Φιλαδέλφιαν τοῦ Ἀρσυνοείτου. δώσεις αὐτόν Κελεήσιτι ἐνταφιαστῆ είσ Ἀκανθῶνα".
" ينبغي توصيل (جثمان) الصائغ سارابيون الشهير بفاليريوس إلى أكانثون (ثم) إلى فيلادلفيا (بإقليم) أرسينوي، وتسليمه إلى كليسيس متعهد الدفن عقب وصوله أكانثون"
هكذا يتبين أن التسليم سيتم في أكانثون التي كانت على ما يبدو محل أقامه المتوفى، حيث كان على كليسيس متعهد الدفن استلام الجثمان من هناك ونقله إلى وجهتها النهائية في فيلادلفيا ليتم دفنها.
Kaiser, A., Mumientäfelchen, *Wage zur Unsterblichkeit* 7, 2013, 58.

(٤) *SB*. VI. 9126. 3rd / 4th Cent. CE. (Philadelphia) = Astrom,P.,"A Greek Mummy-Label" *ERANOS* 49, 1951, pp. 109-116 : “Σημασί[α] : είς ὅρμου κώμης κερκή του Ἀρσινοίτου νομοῦ σωμα γυμνόν Πλουσιανοῦ υἱοῦ Αὐρηλίου Ἀκάρ καί παραδῶναι τοῖσ ἐκεῖ νεκροτάφοις. [ἀ]πό κῶμης Φιλαδέλφου”.

باستوفوروس المعبود الحي بوخيس"[١].

عند وصول الجثمان أو المومياء إلى مكان الوصول كان لابد من تسليمها، وكانت أولوية التسليم لأهل المتوفى أى أحد أفراد أسرة المتوفى[٢]، فقد تكون الأم[٣]، أو الأبن[٤]، أو شقيقة أم المتوفى حيث نقرأ ما نصه: " إلى هرمونثيس، مومياء أبوللوس الأصغر ابن سينبيتياروپرس ابنه أمبولوس، يسلم إلى تارمفيوس، شقيقة والدته، (كاهنة الربة) ايزيس في بيلاك حيث تكون الخزانه"[٥]. غير أنه هناك بطاقات لايتضح منها صلة قرابة المستلم بالمتوفى ففى أحدى البرديات أرسل أحد الاشخاص ويدعى بيساس جثمان أبيه الى شخص يدعى أيدوس يطالبة بالحفاظ

(١) SB. I. 5538 (2nd – 3rd Cent CE): "Είσ Ἑρμῶνθιν Θαῆσι θυγάτηρ Σενθοτςύτου ίνα δοί [[ψ]] Ποεῶτος γαμβρός Ψενεουήρι νεκροτάφω καί σημῖνει είς το .βουχῖν Ψενεουήρι παστοφόρου τοῦ θεοῦ ζωου Βουωιν"

(٢) SB. XX. 14365(Panopolis. 1st Cent CE); I. 4167= *C. Etiq Mom* 2040= *T. Moller*. 140 (Panopolis. 2nd -3rd CE); *C.Étiq. Mom*. 381 = *SB* 1 5205 (2nd Cent C.E); *C. Étiq. Mom*. 264=*SB* 1 3555 (Theban ,3rd Cent C.E); *P. Princ*. II. 166(2nd/ 3rd Cent C.E); *C.Étiq. Mom*. 1630= *SB* 14 11939(3rd -1st B.C.E).

(٣) *SB*. I. 4167 = *C. Etiq Mom* 2040= *T. Moller* 140 (Panopolis, 2nd – 3rd C.E): Ἑρμήφη είς Πανῶ(ν) πολιοσ παραδώσω αύτόν Παταροῦφι καί Τανεαῦ " μητρί".

(٤) δος τοῦτο Ὠρείωνι τῶ γαμρω αὐτῶν , "*P. Köln*. 374. 2nd Cent C.E: LL. 3-4 : ; *SB*. I. 5201 (Panopolis. 2nd -3rd Cent CE)."οίκοδόμος

(٥) *SB*. I.3892 (late 3rd Cent C.E) : "Εις Ἑρμονθιν.ταφή Ἀπολλῶς νειτερος υίου Σενπετεαρουῆρι θυγατεραν πόλου , ίνα δοι Ταρέμφι ἀδελφῆ τῆς μητρός .αὐτοῦ. ἐχόμενα ίσιδήου Πιλάκ , ἁπου ὁ θησαυρός"

كانت مستلمة الجثمان هى كاهنة للربة ايزيس في جزيرة بيلاك والمقصود بها فيلة، ولعل السبب في كتابه Πιλάκ في اليونانية بدلاً من فيله يرجع على الأرجح إلى أن كُتاب هذه البطاقات كانوا يقومون بتدوين الأفكار المصرية بالحروف اليونانية بدلاً من ترجمتها إلى اللغة الرسمية للبلاد في ذلك الوقت. وكانت توجد بالجزيرة خزانه لتجميع العشور الكهنوتية τελῶναι θησαυρου ἱερῶν

Hall. H : R., Greek Mummy Labels in British Museum , *PSBA* 27 , 1905 , p. 165.

عليه حتى يعود للقيام بإتمام مراسم الدفن[١]. والواقع أن مستلم الجثمان هنا شخص غير معلوم الهوية فلم توضح البردية علاقتة بالمتوفى. وفى أحدى البطاقات يرسل أحد الاشخاص جثمان ابنه الى شخص آخر ويطلب منه حراستها: "من كاللوثوس إلى كاللیستوس: عندما تصلك مومياء ابني حافظ عليها حتى أصل"[٢].

فقد كانت الموانى الموجودة على النيل هى محطة وصول المومياوات والجثامين المنقولة عن طريق النهر، حيث كان يتم تسليمها فى الميناء، وهذا ما نستنبطه مما ورد في إحدى البطاقات حيث يخبر مرسل الجثمان أنه على مستلم الرسالة ألا يتقاعس عند وصول القارب[٣]، أي أن الإستلام سيتم في الميناء. وهذا ما يؤكده أحد الخطابات الذى أرسله شخص يدعى يوانجيلوس إلى شخص آخر يسمى ديديموس يخبره بضرورة تسلم الجثمان من قارب الموتى الذي كان على وشك الوصول من الاسكندرية الى ميناء باكخياس، ويخبره أيضا أنه سدد كل الرسوم والتكاليف[٤]. وتدل الشواهد البردية والبطاقات على أن ميناء كيركى الذى يقع على الحدود بين إقليم ممفيس, وإقليم أرسينوى كان محطة وصول الكثير من المومياوات, والجثامين[٥]. ومن هذه الشواهد ماورد في إحدى بطاقات نقل الموتى التى تشير إلى

---

(١) *P. Princ.* III. 166 (2nd – 3rd Cent CE)= Sijpesteijn, P , J., Corrections on Some Princeton Papyri , *ZPE* 68, 1987, p. 146: LL. 5-7 : κόμισον τόν πατέρα μου τόν νεκρόν καί άσφάλισον έως αν σύν θεῷ άναπλεύσω είς έκφορά[ν].

(٢) *SB*. XIV. 11939=*C.Étiq. Mom.* 1630 (30 B. C – 323 CE) D. Mueller, JEA 59, 1973, S. 177.; Burnet, L'Égypte ancienne (2003), Nr. 223): LL. 3-7 : Κολλοὺθος Καλλίστω ὁπόταν παραγένηται παρά σου ἡ ταφή τοῦ παιδίου μου , τήρησον ὡσ παραγένωμαι.

(٣) Μη ουν "*SB*. I. 5205. = *C.Étiq. Mom.* 3834(Theban, 2nd Cent. C.E): LL. 4-7: . "άμελὴσης έάν τό πλοῖον ἒλθη

(٤) *PSI.* VIII. 967. (1st – 2nd Cent C.E).

(٥) Omran,R.S. , "The Grain Transport to Kerke Harbor in Roman Egypt", *Bulletin of the Ain-Shams Center of Papyrological Studies and Inscriptions* 32, 2016, p 2.

وصول مومياء بيرسيوس في ميناء كيركي بإقليم منف(١). ولدينا بطاقة أخرى تشير ايضًا إلى أن ميناء كيركى كان جهة استلام مومياء أحد الجنود ويدعى يوليوس من ساكنى قرية فيلادلفيا بإقليم أرسينوي(٢). وإلى نفس الميناء أُرسل جثمان كلا من كاللياس الأول(٣) وجثمان بلوسيانوس بن أوريليوس(٤)، وهما من سكان قرية فيلادلفيا أيضاً(٥). تعتبر البطاقة الخاصة بنقل جثمان بلوسيانوس هى البطاقة الوحيدة التي تحتوي على توجيهات لتسليم مومياء و معنونة بـ(Σημασία) التى تعنى شحنة، إذ لدينا الكثير من البطاقات الأخرى التي تحتوي على توجيهات متعلقة بتسليم الجثامين ولكنها غير معنونة بهذه الكلمة(٦).

---

(١) *SB*. I. 2035 = *C. Etiq Mom* 2015 (1st Cent. CE-Memphis) = Harrauer, H.," Die Griechischen Mumientäfelchen des Kunsthistarischen Museums in Wien", *CdE* 56, 1981, 307: "Ταφή Περσ(έ)ως τοῦ ἐν ὅρμῳ Κερκή τοῦ Μεμφίτου νομοῦ".

(٢) *SB*. I. 2054 = *C. Etiq Mom*. 2106 (3rd Cent CE- Memphites): "Ταφή Ἰουλίου τρατιώτου ἀπό κώμης Φιλαδελφίας τοῦ Ἀρσενοίτου ἐν ὅρ(μῳ) Κερκή τοῦ Μεμφ(ί)τ(ου)".

(٣) *SB*.I. 1214 (3rd Cent CE- Memphis): "Καλλεᾶσ ὁ πράτης εἰς ἔρμον Κερκή τοῦ Μεμφίτου νομοῦ ἀπό κ[ώ]μης Φιλαδελφος τοῦ Ἀρσεν[ο]είτου νομοῦ".

(٤) *SB*. VI. 9126 (3rd / 4th Cent. CE- Philadelphia) = Astrom., A Greek Mummy Label, *ERANOS*, 49, 1951= Liewelyn. S. R., New Documents Iillustrating Early Christianity , vol, 7 , p. 30: "Σημασί[α] : εἰς ὅρμου κώμης κερκή του Ἀρσινοίτου νομοῦ σωμα γυμνόν Πλουσιανοῦ υἱοῦ Αὐρηλίου Ἀκάρ καί παραδῶναι τοῖσ ἐκεῖ νεκροτάφοις. [ἀ]πό κῶμης Φιλαδέλφου".

(٥) هناك نماذج اخرى تشير الى وصول جثامين الى ميناء كيركى راجع:
SB. I. 2035 = *C. Etiq Mom* 2015 (1st Cent. C.E- Memphis) = Harrauer. H., Die Griechischen Mumientäfelchen des Kunsthistarischen Museums in Wien, *CdE* 56, 1981, p. 307.
P. Hamb. II. 74 = *Sel. pap*. I. 78 (173-4 CE); *SB*. I. 2054 = *C. Etiq Mom*. 2106 (3rd Cent C.E- Memphites); *SB*. I. 1214 (3rd Cent C.E- Memphis).

(٦) *SB*. I. 1207; 1214; 1268; 3815; 3892.

وفي بطاقة فريدة من القرن الثالث الميلادي من إقليم منف نقرأ على وجهها: "ماروناس (من) قرية فيلادلفيا. يسلم لـ "أنثيستيس| في ميناء كيركي "(١). وأغلب الظن أن أنثيستيس كان متعهد الدفن أو كان أحد أفراد الأسرة الذي كان عليه أما الأحتفاظ بالمومياء لحين تجهيز القبر أو تسليمها لمتعهد الدفن, وإن كان من المرجح أن المستلم هنا لم يكن أحد عمال النقل، حيث لا تحمل البطاقة أيه إشارة إليهم كما ورد في غيرها من البطاقات. بينما نقرأ على الوجه الآخر للبطاقة: "............ إلي ميناء قرية إماو(٢)". وأغلب الظن أن وصول الجثمان إلى ميناء كيركى كان اولًا بغرض التحنيط، ثم نُقل إلى ميناء إماو بغرض الدفن. والدليل على ذلك ظهور ميناء قرية إماو كجهة وصول للمومياوات، فقد تم تكليف أحد الملاحين بنقل جثمان سيبثوس أيبونيخوس من قرية كيراميا إلى ميناء قرية إماو(٣).

وفى النهاية يتضح لنا من خلال الوثائق المتعلقة بنقل الموتى أن عملية النقل لم تكن تتم بشكل منفرد لكل مومياء على حده, بل كان يتم تجميع المومياوات المراد نقلها فى رحلة واحدة, وبناءً على ذلك نجد بطاقة واحدة لأكثر من مومياء قد تكون موجهة لنفس الجهة(٤), وقد تكون لأكثر من جهة كما جاء فى إحدى البطاقات التى

---

(١) *SB*. I. 2052 = *C.Étiq. Mom.* 2104 (3rd Cent C.E- Memphis): "Μαρωνᾶς κώμης Φιλαδελφίας. παράδες Ἀνθεστῖτι. βάλε είς κερκή".

(٢) *C.Étiq. Mom.* 2104 =*SB* 1 2052 (Memphis, 3rd Cent C.E): ἐκβολήν ποίσαι είς ."όρμον κώμης Ἔμμαυ

(٣) Σεβθώ Ἐπωνύχου άπό "*SB*. I 1207 (2nd -3rd Cent CE- Arsinoite): Recto: ἐκβολήν ποίησαι είς " Verso :"Κεραμέας ἐκβολήν ποίησαι <u>ναύστην</u> είς κώμη ."όρμον κώμης Ἔμμαυ

(٤) *SB*. I. 3553; SB. 5200 (2nd Cent CE); 5203; *P. Lille* C 76/1-2 (2nd Cent.C.E - Herakleopolis); *SB*. I. 5203 = *C. Etiq Mom.* 2119 (175-199 C.E); *SB*. I. 5143 (1st Πουπλιανός Φιλαδελφίτης είσ όρμου Κερκή τοῦ " Cent. CE -Arsinoite): Μεμφείτου σύν τῷ [υ]ίῷ.

التى تعود للقرن الثالث الميلادى: " ميسويريس بن سينيفوس بينسياس إلى ايسيديوس المقابلة لـ"ديوسبوليس، اريوتيس ميسويريس بسينتاتوس وأرابيون .... ميسوريس بن ثسينابينخيوس من بينسنان إلى أقليم قفط وابن كاليسيريس ...."(١). وهكذا يتبين لنا أن المومياوات الثلاثة الأولى كانت متجهة إلى طيبة أى لنفس الجهة حيث يشير التعبير **<u>είς τήν αύτήν</u>** إلي افتراض نقل المومياوات لنفس الجهة, بينما تم النقل المومياء الأخرى إلى إقليم قفط, ولكن المومياء الخامسة حذف مكانها(٢).

❋ ❋ ❋

---

(١) *SB*. I. 3556 = *C. Etiq Mom*. 2079. (Theben, 3rd Cent C.E): "Μεσοῆρις υίός Σενεφούς Πηνσεναν είς τό Ισιειν άπεναντί Διός πολις Άρηότης Μεσουῆρις Ψενταῦτος καί Άραβίου ίνα προς αδυη..ον..εν... Μεσοῆρις υῖός Θς(ε)ναπύγχιοα άπο Πηινσινόι τοῦ Κοπτείτου νομοῦ καί τόν υίόν Καλεσήρι είερονικη καί τοίς ίερι "

(٢) Bataill. A., A., "Propos d' une 'Etiquette de Momie Inedited".RA 25 , 1946, p 49.

الخاتمة:

ونخلص من هذا البحث إلى أن جهة وصول الجثامين المنقولة كانت أما إلى ورش التحنيط للقيام بمعالجتها أو إلى المقابر بغرض الدفن, وهذا ما تبين لنا من خلال دراسة عدد كبير من بطاقات نقل الموتى التى اتبعت صيغًا ثابتة فى كثير من الأحيان؛ حيث كانت تحتوى على اسم المتوفى ومكان وصول الجثمان, كما كانت تحتوى بعضها على مكان وصول الجثمان فقط دون ذكر اسم المتوفى, فى حين كانت تحتوى بعضها بالأضافة إلى اسم المتوفى ومكان الوصول, على محل أقامته المنقول منها.

وقد جاءت أغلب الوثائق الخاصة بالنقل من إقليم بانوبوليس منقول إليها من قرية تريفيون التى وصلنا منها عدد كبير من البطاقات الخشبية المكتوبة بالديموطيقية, مما يدل على أن معظم سكانها كانوا من المصريين، كما أن ربما كان مستواهم الاجتماعى والمعيشى متدنى فخرجوا للبحث عن الرزق فى مكان آخر وعادوا إليها ليدفنوا فيها. كما وصل إلينا عدد من البطاقات من طيبة, وممفيس, وأرسينوى المنقول إليهم المومياوات أما لكونهم مسقط رأسهم أو لكونهم مراكز دينية هامة لوجود المقابر الكبيرة المقدسة بها.

كان يتم نقل الجثامين والمومياوات أما نهريًا بواسطة القوارب أو بريًا بواسطة الدواب. وقد صاحب عملية النقل بعض المشكلات مثل:-

- عدم وصول الجثمان إلى المكان المحدد.
- الخوف من تلف المومياء لأيه سبب من الأسباب.
- عدم توفر وسائل النقل, وما يتبع هذا الأمر من تأخير قد يضر بالجثمان خصوصًا فى حال انتظاره للتحنيط.

لم تمكنا الوثائق من إلقاء الضوء الكافى على تكاليف النقل حيث يرد فيها المبلغ المدفوع فقط دون تحديد الجهة المنقولة منها وإليها, وفى بعض الأحيان لا تذكر المبالغ المدفوعة, ويكتفى فقط بذكر أن التكاليف قد تم تسديها بدون ذكر

ماهية هذه التكاليف التى لا يتضح فى بعض الأحيان المسئول عن دفعها, فى حين يتضح من البعض الأخر أنها ربما كانت مسئولية الأخ أو أحد الوالدين.

عندما كان يتم تسليم المومياوات فى الجبانات فأن المستلموا كانوا من العمال الجنائزيين المختصين بعمليتى النقل والدفن, أما فى حالة التسليم من مكان الوصول فقد كانت أولوية التسليم لأهل المتوفى. وأحياناً لا يتضح لنا صلة قرابة المتوفى بالمستلم الذى يمكنه الأحتفاظ بالمومياء لحين وصول أهله. وكانت الموانى محطة وصول المومياوات والجثامين المنقولة عن طريق النهر حث كان يتم التسليم هناك, ومن أشهر الموانى التى كانت محطة لوصول المومياوات ميناء كيركى الواقع على الحدود ما بين إقليمى ممفيس وأرسينوى.

* * *

ملحق الدراسة

البطاقات المستخدمة

الرقم	الوثيقة	التاريخ	جهة الوصول		المتوفى	الناقل	المستلم	تكلفة النقل	رحلة النقل	الجثمان محنط أم لا
			من	إلى						
١	SB. I. 5140	القرن الأول	قرية فيلادلفيا بإقليم أرسينوى	ممفيس	هرمياس	—		—	بحرية	محنط
٢	SB. I. 5141	القرن الأول	—	قرية فيلادلفيا بإقليم أرسينوى	استراتيون	—		—	—	محنط
٣	SB. I. 5144	القرن الأول	فيلادلفيا	أكانثون (منف)	سارابيون	—	متعهد دفن أكانثون	—	—	—
٤	SB. I. 5766	القرن الأول	—	بانوبوليس	أبولونيوس	بنخاتيس حفار القبر		—	برية	محنط
٥	SB. I. 5767	القرن الأول	—	بانوبوليس	ديوسكوروس	بنخاتيس حفار القبر		—	برية	محنط
٦	SB. XX. 14363 = Et. Fouad. 2	القرن الأول	—	كوما بإقليم هيراكليوبوليس	هراكلاس	—	—	—	—	—
٧	SB. XX. 14365 = Et. Fouad. 4 =P. Colon. 3004	القرن الأول	—	بانوبوليس	سينبليليس	—	بيتيميس	—	—	—
٨	C. Etiq Mom. 2019	القرن الأول	فيلادلفيا	—	هرمينوس	—	سابيونيس السيتولوجى	—	—	محنط

٩	SB. I. 5774	١٢٧–١١٧	—	بانوبوليس	أخت تيخوس زوجة هيراكس	—	ابن بنخاتيس حفار القبر	—	—	محنط
١٠	SB. I. 761.	القرن الثاني	—	بانوبوليس	ديوسكوروس	اثنين من حفارى القبور	—	—	—	محنط
١١	SB. I. 5203= C. Etiq. Mom. 2119	١٩٩–١٧٥	—	قرية بسينبيلوخيس بإقليم بانوبوليس	هيراكون	—	—	—	—	—
١٢	SB. I. 3967. 2nd cent AD	القرن الثاني	—	إقليم أرسينوى	بانتاجاثوس	—	—	—	—	—
١٣	SB. I. 3965 = III. 7084= C.Etiq. Mom. 1666	القرن الثاني	—	إقليم أرسينوى	أبوليناريوس	—	—	—	—	غير محنط
١٤	SB. I. 5211 = C. Etiq. Mom 2047	القرن الثاني	—	بانوبوليس	أكاريس بانجورسينوفيوس	—	—	—	—	—
١٥	SB. V. 8077	القرن الثاني	—	أبوللونوبوليس ماجنا	تاورينوس	—	—	—	—	—
١٦	T. Mom. Louvre. 236A	القرن الثاني	—	فيلادلفيا بإقليم أرسينوى	سارابياس ابنه هرون	ديمتريوس (غير معرف)	الأب الجندى هرون	—	—	غير محنط
١٧	P. Köln, 374= short texts. II. 453	القرن الثاني	—	إلى الشمال من قرية ماخور بإقليم هيراكليوبوليس	خايريمون	—	—	—	—	محنط

١٨	SB. VI. 7122= C. Etiqe Mom. 1938	القرن الثانى	بسياثون	هيرمونثيس	سينكاليس	—	—	—	—	—
١٩	T. Mom Louvre. 237	القرن الثانى– الثالث	بانوبوليس	فيلادلفيا		ديونوسارين	أموناريو (أحد أفراد الأسرة)	—	بحرية	—
٢٠	SB. I. 25	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	بانتونيميس ابنه سيراس	—	بانختيس متعهد الدفن	—	—	—
٢١	SB. I. 1206	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	ايبافريس عبد يوليوس ايسيدوروس الفليسوف	—	—	—	—	—
٢٢	SB. I. 1207	القرن الثانى– الثالث	قرية كيرامياس	قرية إماو	سيبثوس	—	—	—	بحرية	محنط
٢٣	SB. I. 1268= C. Etiq. Mom. 2055.	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	ديديموس	—	—	—	—	محنط
٢٤	SB. I. 3447	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	—	هيراكابوللون بن سيكيس حفار القبر	—	—	—	—
٢٥	SB. I. 3815	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	بيسويس		متعهد الدفن	—	—	—
٢٦	SB. I. 3994	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	تمارسيس تاتميسوتوس	—	—	—	—	—
٢٧	SB. I. 2639	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس داخل بوابة هرميس	ثاتريس		الزوج	—	—	—

٢٨	SB. I. 2640	القرن الثاني – الثالث	—	بانوليس	تاتيمجوتيس اريميفيوس	—	—	—	—	—
٢٩	SB. I. 4170.	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	إيسين	—	متعهد الدفن	—	—	—
٣٠	SB. I. 4174 = C.Etiq. Mom. 2042.	القرن الثاني – الثالث	—	يانوليس	سيرينوس	—	—	—	—	—
٣١	SB. I. 3442	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	سيلفانوس	—	بانيختيس متعهد الدفن	—	—	—
٣٢	SB. I. 3545= C. Etiq. Mom. 1933	القرن الثانى – الثالث	—	طيبة	ليبلاريس البحار	—	—	—	—	—
٣٣	SB. I. 4219	القرن الثاني – الثالث	—	بانوليس	أنوبادوس	—	—	—	—	محنط
٣٤	SB. I. 4535 = C. Etiq Mom. 2044	القرن الثاني – الثالث	—	بانوليس	بيسوس ديديموس	—	—	—	—	—
٣٥	SB. I. 5539=C. Etiq Mom. 2049	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	سينارتوس ابنه تاتيرموثيس	—	—	—	—	محنط
٣٦	T M. ROM. No 3 =SB. I. 5768	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	كوستينال	—	—	—	—	—
٣٧	SB. III. 7091 = C. Etiq Mom 2060	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	ميكالوس	—	—	—	—	محنط

٣٨	SB. V. 7708	القرن الثانى- الثالث	—	مقبرة ليكوبوليس	لونجينوس سارابينوس	—	—	—	—	—
٣٩	SB. I. 4167.	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	هرميفيس	—	—	—	—	—
٤٠	SB. III. 7089	القرن الثاني – الثالث	—	بانوبوليس	سينبيتيمينيس بيكيوس	—	—	—	—	—
٤١	SB. XX. 14362.	القرن الثاني –الثالث	—	طيبة	بلينيس لاميوس	—	—	—	—	—
٤٢	SB. I. 5538	القرن الثانى- الثالث	—	طيبة	تاسيس ابنه سيتنثوتسيتو س	بيكون ابن زوجها	بسينيوريس حفار القبر	تلكفة النقل مدفوعة لكن دون ذكر المبلغ	بحرية	محنط
٤٣	TM. Ashm. No 23	القرن الثالث	—	أكانثون بإقليم ممفيس	بطوليمايوس	—	—	—	—	غير محنط
٤٤	SB. I. 805	القرن الثالث	—	ممفيس	سارابامون أبيون	—	—	—	—	—
٤٥	SB. I. 1214	القرن الثالث	قرية فيلادلفيا بإقليم أرسينوى	ميناء كيركى بإقليم ممفيس	كالّلياس	—	—	—	—	—
٤٦	SB. 2014 = C. Etiq. Mom.1932	القرن الثالث	—	طيبة	ميلانوس ابنه اندرياتوس	—	—	—	—	—

٤٧	SB. I. 3892	القرن الثالث	—	طيبة	أبوللوس	—	تارمفيوس شقيقة والدته	—	—	محنط
٤٨	SB. I. 3966 = III. 7083	القرن الثالث	—	بوابة ثيرموثياكيس بإقليم أرسينوى	بوباستوس	—	—	—	—	—
٤٩	SB. I. 2277	القرن الثالث	—	بانوبوليس	ميكالوس	—	—	—	—	محنط
٥٠	SB. I. 4386 = C. Etiq Mom 2089	القرن الثالث	—	قرية تريكاتانيس بإقليم قفط	بسينميسيس	—	—	—	—	—
٥١	SB. I. 3579 = Brit Mus 67	القرن الثالث	ديوسبوليس	توفيوس	سينفاتريس كليوراتراس	—	—	—	—	—
٥٢	SB. I. 3539	القرن الثالث	بانداروس	ديوسبوليس	بامونيس بن تابيوميس	—	—	—	—	—
٥٣	SB. I. 3961	القرن الثالث	—	نابلاس بإقليم أرسينوى	ديوجنيس	—	—	—	—	—
٥٤	SB. XII. 10835.	القرن الثالث	—	أكانثون بإقليم ممفيس	—	—	—	—	—	—
٥٥	TM. Ashm. No 24 = SB. XII. 10836.	القرن الثالث	—	أكانثون بإقليم ممفيس	ليباريون أبوللونيوس	—	—	—	—	—
٥٦	SB. I. 2052	القرن الثالث	قرية فيلادلفيا	إلى ميناء قرية هماو بإقليم أرسينوى	أنثيستاتيس	ماروناس (ربما أحد أفراد الأسرة	—	—	بحرية	—

٥٧	SB. XXIV. 16178.	القرن الثالث	—	بانوبوليس	سارابيون كولانثوس	—	—	—	—	—
٥٨	SB. IV. 7437	القرن الأول– الرابع	—	ثونيس بإقليم هيرموبوليس	مينوثوس هابالوس	—	—	—	—	—
٥٩	SB. XX. 14410	القرن الأول– الرابع	—	قرية سمينيس بإقليم بانوبوليس	كرونيوس	بانيسنيتوس خرسيس	—	—	بحرية	—
٦٠	TM. ROM. No 2 = SB. I. 5773.	٢٧٥–٣٢٥	—	كرانيس بإقليم أرسينوي	بروتارخوس	—	—	—	—	—
٦١	SB. XX. 14341.	٣٠ق.م – ٣٢٣ م	—	طيبة (لتدفن فى وادى الملكات)	أبلونيا	—	—	—	—	محنط
٦٢	SB. VI. 9126	القرن الثالث– الرابع	فيلادلفيا	إلى ميناء قرية كيركى بإقليم أرسينوى	بلوبسياتوس بن أوريليوس	—	حفار القبر	—	بحرية	محنط

قائمة المراجع

أ. المراجع الأجنبية:

Astrom (1951), A Greek Mummy Label , *ERANOS* 49 , pp 109-116.

Bataille , A (1946), A Propos d' une 'Etiquette de Momie Inedited ; *Revue Archeologique* 25.

Boyaval.B (1978), Deux Bordereaux d' Expedition de Momies ? *ZPE* 31, pp. 118-120.

Chauveau. M ; Kqyser. F (1991), Cinq Etiquettes de Momies (Et. Fouad. 1-5), *BIFAO* 91 , p 155-159.

Derda. T (1991), Necropolis Workers in Graeco-Roman Egypt in the Light of the Greek Papyri , *JJP* 21 , pp 13-36.

Hall. H. R (1905), Greek Mummy Labels in British Museum , *PSBA* 27 , pp 162-180.

Harrauer. H (1981), Die Griechischen Mumientäfelchen des Kunsthistarischen Museums in Wien, *CdE* 56.

Hernandez ,R ,M, El Transporte de Momias a Traves del Nilo. los Textos de las Etiquetas de Momia, Unversided Complutense de Madrid.

Kaiser , A (2013), Mumientäfelchen , *Wage zur Unsterblichkeit* 7 , p 55-60.

Kirwan, L ,P (1933), Some Roman Mummy Tickets , *Annales du Service des Antiquites d' Egypte* 33.

Liewelyn , S , R, New Documents Illustrating Early Caristinity , Vol 7.

Muller, D (1973), Three Mummy Labels in the Swansea Wellcome, *JEA* 59, No 1 , pp 177-8.

Omran,R.S. (2016), "The Grain Transport to Kerke Harbor in Roman Egypt", *Bulletin of the Ain-Shams Center of Papyrological Studies and Inscriptions* 32.

Pestman (1978), Textes Grecs , Demotiques et Bilingues , Papyrologica Lugduno – *Batava* XIX.

Rowlandson, J (1998), Women and Society in Greek and Roman Egypt, Cambridge.

Schmidt, V,C, Ein Griechisches Mumienetikett aus Achmim. *ZAS* 34, p 79-81.

Shelton , J (1970), Mummy Tags from the Ashmolean Museam , *CdE* 45, pp. 334-352.

Sherwood. F (1913), Mummy labels in the Royal Ontario Museum, *AJP* 34, pp 438-440.

Siehe, L (1970), Anweisungan einene Totengraber, *ZPE* 9, pp 20-1.

Sijpesteijn, P , J (1987), Corrections on Some Princeton Papyri , *ZPE* 68 , p. 146.

Winkler, A(2014), On the Longevity of the χοαχύται in Thebes and Elsewhere, *JAC* 29, pp 50- 62.

ب. المراجع العربية:

١. أدولف إرمان(١٩٩٧), ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة، ت/ عبد المنعم أبو بكر، محمد أنور شكرى، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٧.

٢. حسن أحمد حسن الإبياري(٢٠٠٠), بطاقات الموتى في مصر في العصر الروماني، مجلة مركز البردى العدد ٢٤, ٢٩٣- ٣٦٨.

المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ٨٧ - ١٤٨

قِفطُ فِي العَصْرِ البِيزَنْطِيِّ (٢٨٤ – ٦٤١ م)

Qift in Byzantine Era (284 – 641 A.D)

محمد عبدالشافي محمد محمود المغربي(*)

ملخص

تعتبر المدينة باعتبارها ظاهرةً قديمةً أعظمَ حدثٌ حضاريٌ شيدته عقلية الإنسان، وهي تُعَبِّرُ عن الوظائف الاجتماعية لساكنيها وتجسيدًا للتحولات الاقتصادية. وتأتي هنا الورقة البحثية لرسمِ صورةٍ لمدينةِ قفط التي تقع جنوب مصر، كما كانت تحت حُكم البيزنطيين، ومدينة قفط مَثَّلَت في بواكيرها جسرًا للتواصل بين مكوناتها، مما ساعد في ازدهار الحركة التجارية والاقتصادية، وكانت قِبْلةً لكثيرٍ من البشر من مختلفِ بقاع العالم، وقد انعكس ذلك في التلاقي والتلاحم في شكل المدينة التي أخذت أيضًا تعيش محن الأعداء، كانت قفطُ كيانًا حيًا من الأحداثِ والتقاليد والأعراف والمشاعر والمواقف، وتطورت في مراحلٍ مختلفةٍ، ظهر ذلك في صورتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والأثرية، كما أنها امتلكت أسباب التطور إلى مدينةٍ تَمْلُكُ الصفات الأساسية للحاضرة، وذلك بمفعول المحيط ومفعول الوظيفة، فقد كانت

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطي المساعد، جامعة جنوب الوادي، كلية الآداب – قنا.

الوظيفة الرئيسية هي التجارة. وأخيرًا يمكن القول أن مدينة قفط كانت منتوجًا إنسانيًا تحقق فيه الكثير من أسباب الحضارة.

كلمات مفتاحية: (قفط – النشاط السياسي – الاقتصادي – الديني – الاجتماعي – الأثري)

Abstract

As an ancient phenomenon, the city is considered the greatest civilized event built by the human mind, and it expresses the social functions of its inhabitants and the embodiment of economic transformations. Here comes the research paper to draw a picture of the city of Qift, which is located in the south of Egypt, as it was under the rule of the Byzantines, and the city of Qift, which in its early days represented a bridge of communication between its components, which helped in the flourishing of the commercial and economic movement, and was a destination for many people from different parts of the world. This is in the convergence and cohesion in the form of the city, which also began to live the adversities of the enemies, it was only a living entity of events, traditions, customs, feelings and Situations, and developed in different stages, this appeared in its political, economic, social, religious and archaeological form, and it also possessed the reasons for development into a city that possesses the basic characteristics For the present, with the effect of the ocean and the effect of the function, the main function was trade. Finally, it can be said that the city of Qift was a human product in which many causes of civilization were achieved.

Keywords (Qift - political - economic - religious - social - archaeological).

مقدمة:

تُعتبر المدينةُ باعتبارها ظاهرةً قديمةً أعظمُ حدثٍ حضاريٍ شيدته عقلية الإنسان، تُعبِّرُ عن الوظائف الاجتماعية لساكنيها وتجسيدًا للتحولات الاقتصادية، وتأتي هذه الورقة البحثية لرسم صورة لمدينة قفط – التي تقع في جنوب مصر – كما كانت تحت حُكم البيزنطيين من خلال المادة العلمية المتوفرة، وهي للأسف غير

كثيرة، وهي عبارة عن إشاراتٌ مبعثرة في بعض المصادر البيزنطية، وإلماعة موجزة هنا أو هناك في بعض كتب الرحالة الأجانب، وروايات مختلفة في بعض المصادر والمخطوطات الكنسية التي سوف يأتي ذكرها في ثنايا البحث.

ولم يقتصر هاجس الباحث على جانب التوثيق فحسب، بقدر ما كان يروم إلى رسم لوحةٍ عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية تؤدي إلى معرفة تاريخ المدينة في العصر البيزنطي بصفةٍ عامة – خاصةً و أنه لا توجد دراسة مستقلة تحت هذا العنوان – وأيضًا تاريخ ما أصبحَ يُطلقُ عليه اليوم تسمية المدن العتيقة بصورةٍ خاصة.

موقع مدينة قفط:

تقع مدينة قفط في صعيد مصر جنوب محافظة قنا[١] بحوالي ٢٠ كم، عند أقرب نقطة لانحناءة النيل بالنسبة للصحراء على طول امتداد النيل، وتقع على الضفة اليسرى من النيل في اتجاه القاهرة – أسوان، وتبعد عن الأقصر بحوالي ٤٣ كم شَمالًا.[٢]

---

(١) تقع محافظة قنا فى جنوب مصر، وهى محافظة طولية الشكل، يحدها من الشمال محافظة سوهاج، وجنوبًا محافظة أسوان، وشرقًا محافظة البحر الأحمر، وغربًا محافظة الوادى الجديد، تبلغ مساحتها حسب إحصاء ١٩٩٨ (١٠٧٩٨ كم٢) وتضم إحدى عشر مركزًا إداريًا وهم من الشَمال إلى الجنوب (أبو تشت – فرشوط – نجع حمادى – الوقف – دشنا – قنا – قفط – قوص – نقادة – أرمنت – إسنا). هذا بالإضافة إلى مدينة الأقصر التابعة لمحافظة قنا والتى صدر لها قرار ١٩٩٠ بأن تكون مدينة ذات طابع خاص تتبع مجلس الوزراء مباشرة، ثم أُنشأت المحافظة بالقرار الجمهوري رقم ٣٧٨ لسنة ٢٠٠٩. انظر: ديوان عام محافظة قنا: إدارة الإحصاءات المركزية، الدليل الإحصائى، ج١، ص٢، ١٩٩٨. الأقصر، الهيئة العامة للاستعلامات، ٢٠١٧.

"Stew art", R. *Qena art*, P. 2040, *The Coptic Encyclopedia*, U. S. A., 1991.

(٢) WEIGALL, ARTHUR E.P, A *Guide To The Antiquities of Upper Egypt From Abydos To The Sudan Frontier*, Second Edition, Methuen & co. Ltd, London, pp. 30-31; HENERY GEORGE FISCHER, "Inscriptions From The Coptit nome danasties VI-XI", *pontificicium institutm Biblicum*, Roma 2-Piazza Pilotta 35, 1964, p.1.

وكانت مدينة قفط تُعرف قديمًا باسم 'مدينة الأحياء القديمة'، وكانت البوابة المؤدية إلى البحر الأحمر ومدينة القصير وطُرق الحج البرية القديمة، حيث كانت نقطة انطلاق لمرور القوافل التي تجوب الصحراء، ومن هنا جاءت أهميتها الاقتصادية والحضارية على مَرِّ العصور التاريخية القديمة.(١)

وظهر اسم قفط كثيرًا في النصوص المصرية القديمة، حيث كانت تُلَقَّب باسم 'جيبتو Gbtyw' ويعني طريق القوافل، وفي اللاتينية Coptos، وفي اليونانية Kebto.(٢)

كما عُرِفَت باسم قفط Keft، وهو الاسم الغالب عليها، ويبدو أن اسمها تغير في القرن السادس الميلادي، حيث عُرفت باسم جستينابوليس Justinanopolis نسبةً إلى الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول Justinionus I (٥٢٧ – ٥٦٥م).(٣)

---

(١) HENERY GEORGE FISCHER, "Inscriptions From The Coptit nome danasties VI-XI", *pontificicium institutm Biblicum*, Roma 2-Piazza Pilotta 35, 1964, p.1; GOYON G., "Le Papyrus De Turin, dit"Des Mines D'Or" et Le Wadi Hammamat", *Institut français d'archéologie orientale du Caire*, 1949, p. 2.

(٢) AMELINEAU, E. *La Géographie de l'Égypte à l'époque copte. Paris*, 1893, p. 12; GAUTHIER, HENRI. *Les Nomes d'Égypte depuis Hérodote jusqu'à la Conquête Arabe (avec cinq planches hors texte)*. Le Caire, 1935, p. 38; FAROUK GOMAA, "Die Besiedlung agyptens wahrend des mit- tleren reiches", *I. Ober Agypten und das Fayyum,* Wiesbaden, 1986, p. 156-157; WALLIS BUDGE, E. A. (1920). *An Egyptian hieroglyphic dictionary: with an index of English words, king list and geological list with indexes, list of hieroglyphic characters, coptic and semitic alphabets, etc*. Vol II. John Murray. p. 1044; BOWMAN A. K., *Egypt after the Pharaohs 332 BC- AD 642 from Alexander to the Arab Conquest*, (Unviersity California: 1996), p. 28.
انظر ملاحق البحث شكل (٤).

(٣) MASPERO G., *History of Egypt and Chaldia, Syria, Papillonia, and Aseria* Vol. 4, London, 1904, P. 87; WIET, G., *L'Égypte Arabe, de la conquête arabe à la conquête ottoman*, Paris 1937.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن اسم المدينة قبط أو قفط لا علاقة له بتسمية قبط، لأن كلمة قبط أو قبطي تعني مصري و القبط و الأقباط تعني المصريين جميعًا منذ فتحت الدنيا عليها عيونهم قبل فجر التاريخ وهذه الكلمة "قبط" تعود في جذورها علي أكثر الأقوال شيوعًا – إلي كلمة "أجبه" أي أرض الفيضان وهي بذلك تعود إلي أصول مصرية [١].

النشاط السياسي:

كانت مصرُ منذ عهد الفراعنة مقسمةٌ إلى قسمين، مصر العليا ومصر السفلى، وكل قسمٍ مقسمٌ إلى وحداتٍ إداريةٍ، وعندما فتح الإسكندر مصر قسَّمها إلى قسمين رئيسيين: شمالي وجنوبي (أي الوجه البحري والوجه القبلي)، وعَهِدَ بإدارة كل قسمٍ إلى حاكمين، وقد احتفظ البطالمة ومن بعدهم الرومان بهذا النظام التقليدي، وكانت مدينة قفط تقع في القسم الجنوبي تابعةً لولاية طيبة، وهناك وثائقٌ بردية تشير إليها حيث كانت تقع شرق النيل.[٢]

وفي عهد الإمبراطور دقليديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م) قُسِّمَت مصر إلى ثلاثةِ ولاياتٍ أساسية: ولاية 'مصر الجوبترية' Agyptus Javia وتشمل غرب الدلتا، وولاية 'مصر الهرقلية' Agyptus Herculia وتشمل شرق الدلتا ومصر الوسطى، ثم 'ولاية طيبة' وتشمل الصعيد جنوبي أسيوط،[٣] وكانت مدينة قفط واقعةً في ولاية

---

(١) رأفت عبدالحميد: الفكر المصري في العصر المسيحي، (القاهرة:٢٠٠٠)، ص ص ١٢–١٣.، وأنظر أيضًا عن كلمة قبط:

TIMOTHY G., *Early Greek Myth: A Guide to Literary and Artistic Sources*, Johns Hopkins University Press, 1996, p. 27; VERTEMONT, JEAN, *Dictionnaire des mythologies indo-europeenes*, 1997, p.13; MACCOULL, L. S. B.,; "Egypt", *ODB Art*, PP. 679 – 681, Oxford, 1991.

(٢) BALL, J.,: *Egypt in the classical Geographers* (Cairo: 1942), p. 113.

(٣) مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية، (الإسكندرية: ١٩٩٥)، ص ص ٢٦٦ – ٢٦٧.

طيبة، واستمر هذا النظام الإداري الذي ساد مصر حتى الفتح العربي الإسلامي، وإن كان قد جرى عليه بعض التعديلات، ولكن ليس هنا مجال دراستها.

ومن أجل تأمين الأهداف السياسية والاقتصادية في مصر، وفي هذا الإطار إهتمت الإمبراطورية الرومانية ومن بعدها البيزنطية بالسيطرة على المنطقة الواقعة في أقصى جنوب مصر حتى قرب وادي حلفا Wady Halfa – وهي المنطقة التي تقع فيها مدينة قفط من الناحية الإدارية – وذلك بنشرِ سلسلةً من القلاعِ الحربية المنيعة، حيث وُضعت بها فرقٌ عسكريةٌ من الفرسان.(١)

كما رابطت حاميةٌ عسكريةٌ في قفط نظرًا لأهميتها التجارية وأيضًا مدينة قوص(٢) أبولونويوليس Apollonopolis حيث قامت الإمبراطورية بتوفير الأسلحة وأدوات الحرب ورواتب الجند.(٣)

وفي عهد الإمبراطور الروماني دقليديانوس قام بعدةِ إجراءاتٍ أدت إلى استقرار الإمبراطورية، حيث قام بِفصل وتوسيع الخدمات المدنية والعسكرية للإمبراطورية وإعادة تنظيم أقسام المقاطعات للإمبراطورية، وفي صعيد مصر وتحديدًا قفط وطيبة كانت قد حدثت عدة ثورات وتمردٍ معادٍ للإمبراطورية الرومانية سنة ٢٧٩م، ولا يمكن استحضار أسباب هذه الانتفاضة، إلا أن البعض يُرجِعها إلى إغلاق طريق البحر الأحمر – قفط أمام التجار اليونانيين، والبعضُ

---

(١) JONES, A. H. M.,: *The Decline of the Ancient World*, (London: 1948), p. 212.

(٢) قوص كان اسمها المصرى (Hat Hor)، وذكرها أميلينو فى جغرافيته باسم Qous أو Koos أو Kos وQous Varvir، وقد عُرفت فى أواخر القرن الثالث باسم دقلديانوبوليس Diocletianopolis نسبةً إلى الإمبراطور دقلديانوس، واسمها القبطى Qous، انظر:
AMELINEAU, E.,: *La Géographie de l'Égypte à l'époque copte*. (Paris, 1895), P.248; JEAN CLAUDE, G, "Qus", *Art*, PP. 2043 – 6, *The Coptic Encyclopedia*, Vol. VII, U. S. A., 1991.
محمد رمزى: (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية) ج٤، ص ص ١٨٧، ١٨٨.

(٣) JOHNSON: "Ach. And West" *Byzantine Egypt Economic Studies*, (Princeton: 1949), p. 214.

الآخر يُرجعها إلى الأفكار المانوية والدعاية الفارسية القادمة من الشرق مع التجار، وعلى أيةِ حالٍ وبأوامرٍ من الإمبراطور دقليديانوس جرى تدمير مدينة قفط وبلدة Busiris المجاورة على يد جاليريوس Galerius شريك دقليديانوس في الحُكم، وكانت مدينة قوص نقطة ارتكازٍ للقوات الموالية للسلطة ضد الريف المتمرد في ذلك الوقت.(١)

وفي القرن الثالث الميلادي تَعَرَّضَ إقليم الصعيد كثيرًا لغاراتِ قبائل البليمين Blemmys وهم من شعوب الصحراء الشرقية الذين ظهروا في مصادر مكتوبة من القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن الثامن الميلادي، وكانوا قد نجحوا في القرن الرابع قبل الميلاد في احتلال النوبة السفلى، وأسسوا مملكة، ويظهر ذلك في النقوش الموجودة في معبد إيزيس في جزيرة فيلة Philae حيث يَعتَبِرون المعبد كعبتهم التي يحجون إليها سنويًا.(٢)

---

(١) JOHNSON, ALLEN CHESTER, *Egypt And The Roman Empire* (University of Michigan: 1951), pp. 143-144; GREGORY, T. E., *Galerius art*, p. 817, *ODB*, Oxford, 1991; BOWMAN A. K., *Egypt after the Pharaohs 332 BC- AD 642 from Alexander to the Arab Conquest*, (Unviersity California: 1996), p.44; GIAN-CLAUDE J., "Un Centre musulman de la Haute-Egypte médiévale, Qus", *Institut français d'archéologie orientale*, (Le Caire: 2005), p. 34.

(٢) VASSILIOS CHRISTIDES (1980), "Ethnic Movements in Southern Egypt and Northern Sudan: Blemmyes-Beja in Late Antique and Early Arab Egypt until 707 A. D.", *Listy filologické*, 103 (3): 129–143; DEREK WELSBY (2002), "The Medieval Kingdoms of Nubia: Pagans, Christians and Muslims Along the Middle Nile", *British Museum*, pp. 16–17; MASPERO, J.,: *Organisation Militare de L'Egypt*, paris, 1912, p.25; MILNE, J.G.,: "Greek and Roman Tourists in Egypt", *The Journal Of Egyptian Archaeology*, vil III, London, 1916, pp. 76-77.
البعض يعتبر أنه لا فرق بينهم وبين البجة أو البجاة، حيث استقروا أيضًا في الصحراء الشرقية من قَبل حتي سواحل البحر الأحمر. وذكرهم المؤرخ بليني Blini في شكلٍ أسطوري حيث كانوا أجسادًا بلا رؤوس وعيونهم وأفواههم تقع في صدورهم. أنظر: RACKHAM M.A, *Natural History* with an translation in English, Ten volumes. Book. VIII. The Loeb Classical Library edition. Harvard 1961, P. 253.

تكررت هجماتهم على جنوب مصر وكثيرًا ما أزعجوا الإمبراطورية الرومانية ونجحوا في الاستيلاء على المنطقة الواقعة ما بين النيل والبحر الأحمر جنوبي مصر وشمالي السودان، حيث سيطروا على طُرق التجارة في القرن الثالث الميلادي في الصحراء الشرقية قبل أن يقوم الإمبراطور أورليانوس Orelianus (٢٧٠ – ٢٧٥م) بإلحاق الهزيمة بهم على يد الحاكم الروماني فيرمس Firmus.(١)

واستمرت هجماتهم على حدود مصر الجنوبية حتى منطقة طيبة ومدينة قفط على عهد الإمبراطور دقلديانوس مما اضطره سنة ٢٩٧م إلى السفر جنوبًا على طول نهر النيل مرورًا بقفط، حيث عَقَدَ معهم معاهدة سلام بموجب شروطها انتقلت حدود السيادة الرومانية إلى معبد فيلة مع السماح لهم بدخول المعبد، بالإضافة إلى دفع جزيةٍ سنويةٍ لهم من الذهب.(٢)

ولاستشعار الإمبراطورية الرومانية مدى خطورة البليمين وخوفهم على طريق التجارة الهام بين قفط والبحر الأحمر، ولأسبابٍ أخرى كَلَّفَ الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني Theodosius II (٤٨٠ – ٤٥٠م) إمبراطور الشرق البيزنطي المصري أوليمبيودورس Olympidorus الطيبي الذي أصبح سفيرًا للإمبراطورية الرومانية بالعودة إلى مصر في رحلة إلى جنوب مصر في مهمةٍ استخباراتيةٍ.(٣)

---

(١) وصفهم المؤرخ إميانوس مارسلنيوس بأنهم محاربين نصف عرايا. أنظر:
AMMIANUS MARCILLENUS, RES GESTAE, *trans. by john C. Rolfe* in 3 vols. London 1935, P.27; BLOCKLEY, R. C., *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire*, Olympiodorus (153-220), p. 99; HITCHNER, R. B. & KAZHDAN, A., "Blemmyes in ODB" *Art.* (Oxford: 1991), Vol. 1. p. 296; JITSE H.F. DIJKSTRA (2013), "Blemmyes", *The Encyclopedia of Ancient History*, Wiley, pp. 1145 – 1146.

(٢) MASPERO, J., *Organisation Militaire d'l' Egypt Byzantin*, (Paris: 1912), p. 9; DIJKSTRA, J.H.F., 2005, *Religious encounters on the Southern Egyptian Fronties in Late Antiquity (AD 298-642).* [Doctoral dissertation], p. 10.

(٣) BLOCKLEY, R. C., *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire*, Olympiodorus (153-220), P. 195; AMELINEAU, E., *La Géographie de l'Égypte à l'époque copte*. (Paris, 1895), p.86.

وكانت مصر من أهم ولايات الإمبراطورية الرومانية تدور في الفُلْك البيزنطي وتكليف أوليمبيودورس بهذه المهمة جاءت في فترةٍ كانت تصاحبها ظروف فوضوية اعترت حدود الإمبراطورية الرومانية نتيجة قلق على تلك الحدود، فكان لا بد من الوقوف على تلك الأوضاع هناك من خلال شاهد عيان.(١)

وربما لجأت الإمبراطورية الرومانية في اختيارها لهذه المهمة أوليمبيودورس كَوْنَ مسقط رأسه طيبة القريبة من قفط – مركز التجارة – وبذلك تكون وظفت الأصل العرقي والجغرافي ليتناسب مع المهمة،(٢) وقد زار أوليمبيودورس البليمين وقَدَّمَ تقريره الوافي للإمبراطورية.(٣)

وفي غضون القرن الخامس الميلادي لم تَنجُ مدينة قفط من هجمات قبائل البليمين، حيث قاموا بغزو معظم مدن جنوب مصر، وهاجموا السكان وأسروا حاكم الطيباد.(٤)

وحفلت سيرة القديس شنودة Schnoudi (تـ ٤٥١ م) – التي كتبها تلميذه الأنبا ويصا – بما يفيد عن شراسة قبائل البليمين حيث راح يَحُثُّ رهبانه على تقديم يد العون للمنكوبين قائلًا: 'ألم تروا ما فعل البرابرة بالرهبان القريبين منا ليس إلا

---

(١) KIRWAN, L.P., *Nubia and Nubian Origins. Art. GJ*, vol. 140, NO. 1 (Feb., 1974), pp. 43-5., p.49.

(٢) PHILOSTORGIUS, *Church Histry*, TRANS. R. PHILIP and S. J. AMIDON, SBL 23, Brill, Leiden and Boston, 2007, PP 40-43; VASILIEV, A., *Goths in the Crimea* (Cambridge 1936). PP. 22-23; PRITSAK, O., *Samation., O.D.B.*, p. 1844.

(٣) Blockley, R. C., *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire*, Olympiodorus (153-220), p. 199; LITTMAN, E. & MEREDITH, D., "Nabatean from Egypt"., *BSOAS*, vol. 16, NO. 2(1934), pp. 211-246, p. 337; -TOROK, L., "A Contribution to Post Meroitic. Chronology: the Blemyes in Lower Nubia". *Art. R.D.S.O.*, vol. 58, Fasc 1/4 (1984) pp. 201-243 (Sapienaa University), p. 75.

(٤) PETRY, C. F., *The Cambridge History of Egypt* (Cambridge: 1998), p. 26.

التخريب والتدمير غير الذين غرقوا في النهر والذين قتلوا في الجبال والأديرة واستسلموا للأسر والعبودية'.[(١)]

وامتدت خدمات القديس ومساعدته إذ يصف ديره المعروف بالدير الأبيض كيف احتفظ لمدة ثلاثة أشهر بحوالي ألف رجل سوى النساء والصبيان، ثم انقاذهم من غزوات قبائل البليمين الجنوبية عندما قامت بالإغارة على البلاد المحيطة بالدير وأطعمهم ثمانية آلاف وخمسمائة أردب من القمح، كانت مخزنة في هذا الدير.[(٢)]

على أية حال فقد تم تنظيم جيش الأطراف على عهد الإمبراطور البيزنطي ثيودسيوس الثاني (٤٠٨ – ٤٥٠م)، وجرى تقوية سلطة حاكم طيبة بأن صار يجمع في يده السلطتين المدنية والعسكرية، ثم حلت الهزيمة بقبائل البليمين، وبانتهاء القرن السادس الميلادي لم يعد لهم ذِكرا.[(٣)]

وكانت قفط معبرًا ليس فقط للتجار، ولكن للسفراء البيزنطيين الذين كانوا يتخذون طريق الإسكندرية – نهر النيل – قفط، ثم إلى أحد موانئ البحر الأحمر، ومن هذه السفارات سفارة جوليان Julian سنة ٥٢٧م إلى الأثيوبيين والحميريين من أجل كسبهم في تحالفٍ عسكريٍ مع البيزنطيين ضد فارس،[(٤)] وكذلك سفارة

---

(١) AMELINEAU (ed), "Vie de Schnodi" (traduite de L' Arabe) In *Mémoires Publiés par les memberes de la Mission Archeologique Francaise au Caire (1885-1886).* T. 4, Paris (1888), pp. 396-97.

ليلى عبد الجواد إسماعيل: القديس شنودة الإخميمى أو الأدريبى، مقال منشور فى مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش، (العدد ٢٠، القاهرة، ٢٠٠٣)، ص ص ٤٠-٤١.

(٢) MILNE, G. M. A., *A History of Egypt Under Roman Rule*. (London: 1924), Vol. V, PP. 223-224.

(٣) HITCHNER, R. B. & KAZHDAN, A., "Art". *Blemmyes in ODB* (Oxford: 1991), pp. 296-297.

(٤) THEOPHANES., "Byzantine and Near Eastern History A.D 284-813". *Trans, With Int, and Comm*, By Cyril Mango and Roger Scott. Oxford 1997, p. 361; PROCOPIUS. "History of The Wars". book 1. *The Persian War*, The Loeb Classical Library, Cambridge, Man. 1992. p. 4-13; SHAHID, I, *Byzantium and The Arabs in The fifth Century*, Harvard, 1989, pp. 124, 145, 163, 165.

نونوسوس Nonnosus الذي مَرَّ بقفط مُرسَلًا من الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧ – ٥٩٥م) سنة ٥٣٠م إلى ملك الحبشة.(١)

وعلى عهد الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠ – ٦٤١م) قام الفُرْسُ بغزو مصر وانتزاعها من البيزنطيين ٦١٩م(٢) وتعرضت مصر لأضرارٍ جسيمةٍ أثناء غزوهم(٣)، فقد كانوا يدمرون كل شيء في طريقهم عند دخولهم البلاد، فدمروا الكنائس والأديرة وقتلوا الرهبان(٤)، وكان الفُرْسُ قد علموا وهم في طريقهم إلى الصعيد بأنه يوجد في الجبال والمغاير حوالي سبعمائة راهب يعيشون في بذخٍ وترفٍ، فأرسل إليهم القائد الفارسي جيشًا أحاط بهم.(٥)

وهذا الرعب والخوف وصل إلى مسامع بيزنتيوس Pisentius أسقف قفط، وعند اقتراب الفُرْسِ من الصعيد أزعجه ما سمع من قسوتهم، فآثر الهرب هو وتلميذه المخلص حنا، حيث ذهب إلى جبل شامة (جيمي) بالقرب من المدينة، وجاء في موعظة بعث بها إلى أبروشيته كلها: 'لقد خذلنا الله لما نقترفه من الذنوب، وسَلَّطَ علينا من الأمم من لا يرحمنا'.(٦)

---

(١) FREESE J,H,(ed.), *The Library of Photius*, Vol. III, New York, 1920, pp.17-20; "Theophanes Confessor", *Theophanis chronographia*, (ed. C. de Boor, Leipzig: Teubner, 1883), p. 244; SERGEI MARIEV, "Nonnosos", *Encyclopedia of the Medieval Chronicle*, R.G. Dunphy ed. (Brill, Leiden and Boston 2010).

(٢) MILNE, G. M. A., *A History of Egypt Under Roman Rule*. (London: 1924), Vol. V, PP. 114-115; OSTROGORSKY, G., *History of the Byzantine State* (U. S. A.: 1969), p. 95.

(٣) JALALIPOUR, SAEID (2014), "Persian Occupation of Egypt 619-629: Politics and Administration of Sasanians", *Sasanika Graduate paper* 10-2013.

(٤) RUTH ALTHEIN- STIEHL, "The Sasanians in Egypt - Some Evidence of Historical Interest", *BSAC*, 31 (1992), p. 90.

(٥) BOWMAN A. K., *Egypt after the Pharaohs 332 BC- AD 642 from Alexander to the Arab Conquest*, (University California: 1996), p.52; Bagnall, *Egypt from Alexander to the Copts*, 2004, p. 119.

(٦) AMELINEAU, E., *Etude sur le Chruistianisme en Egypt au Septieme Siecle* (Paris: 1887), p. 30; Butler (A. J): *The Arab Conquest of Egypt*, (Oxford: 1978), p. 85.

كان ذلك قبل سقوط قفط في يد الفُرْسِ، حيث بقي بيزنتيوس وتلميذه في ذلك المخبأ زمنًا طويلًا يبتهلون إلى الله ويدعونه أن ينجي قومهما من أَسْرِ تلك الأمم الظالمة، وعندما سقطت قفط وإقليم الصعيد في أيدي الفُرْسِ، هربوا إلى الصحراء موغلين بعيدًا عنهم.(١)

وكانت حالة الخوف من الفُرْسِ قد وصلت إلى أن كتبت إحدى السيدات إلى أحد شيوخ الكنيسة في دير إبيفانيس Epiphanius في طيبة تطلب منه أن يمدها بتعليماتٍ بشأن الفُرْسِ الذين يأتون إلى الجنوب.(٢)

بلغ الفُرْسُ في فتوحاتهم أقصى جنوب مصر، بعد أن وقع تحت سيطرتهم كل إقليم طيبة، وكانت هناك نبوءةٌ منسوبةٌ إلى القديس شنودة المتوفَى في القرن الخامس، والذي عاش قبيل الغزو الفارسي، وتشير هذه النبوءة إلى مصر فنراه يقول: 'سيأتي الفُرْسُ إلى مصر يسفكون فيها الدماء ويسلبون أموال المصريين، ويسبون أبناءهم، يبيعونهم بالذهب، فإنهم قومٌ ظالمون معتدون، وستنزل المصائب على أيديهم بمصر، يغصبون الكنائس ما بها من آنية مقدسة، يشربون الخمر في المحراب ولا يبالون، ويهتكون أعراض النساء على مرأى من رجالهن، وسيبلغ الشر أعظمه، والشقاء قصاراه، وسيهلك ثلث من يبقى من الناس في بؤسٍ وعذابٍ، وسيبقَى الفُرْسُ في مصرَ حينًا من الدهر، ثم يخرجون منها'.(٣)

وصل الأمرُ بالفُرسِ أنهم وضعوا قيودًا على التنقل بين الأقاليم، وجعلوه غير متاحٍ إلا بعد الحصولِ على تصريحٍ منهم، كما يتضح من وثيقةٍ صدرت من دير إبيفانيس تفيد بطلب كاتبها من أحد الأشخاص أن يحصلَ له على تصريحٍ بالسفرِ من

(١) *The Arabic life of S. Pisentius*: according to the text of the two manuscripts Paris Bib. nat., *Arabe 4785*, and *Arabe 4794* / edited with English translation by De Lacy O'Leary., Firmin-Didot, 1930, pp.379-381.

(٢) RUTH ALTHEIN- STIEHL, "The Sasanians in Egypt - Some Evidence of Historical Interest", *BSAC*, 31 (1992), p. 93.

(٣) AMÉLINEAU, E., *Monuments pour servir a l'histoire de l'Egypte chrétienne aux IVe et Ve siècles*, (Paris: 1888), p. 340.

القائد الفارسي للمعسكر،(١) وإن كانت هناك وثيقةً قبطيةً كانت عبارةً عن دعوى قضائية أحد أطرافها سيدة، تفيد بأن قيد التنقل كان فقط قاصرًا على السفن، لأن السيدة تذكر في الوثيقة أنها اضطرت أن تترك قريتها وتسافر برًا في وجود الفُرْس.(٢)

دام الحُكم الفارسي في مصر حوالي عشرةَ أعوامٍ، إلى أن نجحت بيزنطة في دخول فارس نفسها، وعادت مصر إلى السيادة البيزنطية، واستمر الوضع حتى الفتح العربي الإسلامي سنة ٦٤٢م لمصر، ولم تذكر الحوليات التاريخية أي دور لمدينة قفط، سوى أن مدينة قوص القريبة من مدينة قفط كانت ملاذًا آمنًا للبطريرك المصري بنيامين Benjamin I (٥٩٠ – ٦٦١م) أثناء هروبه في الصعيد من اضطهاد البيزنطيين،(٣) وظل مختفيًا حتى بعد الفتح العربي الإسلامي لمصر سنة ٦٤٢م، ومما يُذكر لعمرو بن العاص أنه كتب أمانًا للبطريرك بنيامين ورَدَّهُ إلى كرسيه بعد غيبة زهاء ثلاثة عشر سنة ونصف 'أينما كان بطريق القبط نعده الحماية والأمان وعهد الله، فليأتِ البطريق إلى ها هنا في أمان الله، واطمئنان ليلي أمر ديانته ويرعى أهل ملته'.(٤) ويُفهم من هذا النَّصّ أن مكان بنيامين لم يكن معروفًا لأحد، لأنه جاء على هيئة كتاب لا تخصيص فيه.

وفرح المصريون بعد أن تعهد لهم عمرو بن العاص بحرية العبادة وممارسة شعائرهم الدينية وحماية كنائسهم، وتولى رجلًا من أقباط مصر يُدعَى سانثيوس

(١) MACCOULL, L.S.B. "Coptic Egypt during the Persian Occupation - The Papyrological Evidence", *Studi Classici e Orientali*, 36 1986, pp.307-313, p.312.

(٢) MACCOULL, L.S.B. "Coptic Egypt during the Persian Occupation", p. 312; A. ARTHUR SCHILLER, "The Budge Papyrus of Columbia University", *JARCE*, 7, (1968), p.87.

(٣) BUTLER, A. J., *The Arab Conquest of Egypt*, P. 88; MULLER, G., "Benjamin I 590 - 661 Art". in *The Encyclopedia Of Coptic*, Vol. 2, (U. S. A. 1991).
والترجمة العربية بتلر (أ.ج): فتح العرب لمصر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، (القاهرة: ١٩٩٦)، ص.٤٥٥.

(٤) ابن المقفع (ساويرس): سير الآباء البطارقة: م ١، ج ١، ص ص ١٠٨ – ١٠٩؛ محمد عبدالشافي المغربي: ملامح إقليم قنا في العصر البيزنطي, بحث منشور في بحوث مؤتمر قنا عبر العصور – جامعة جنوب الوادي – كلية آداب قنا. (١٢-١٤ اكتوبر ٢٠٠٨), ص.٢٨٩.

Sansus ترتيب عودة بنيامين من الصعيد الأعلى بجوار قفط.[١]

ومع نهاية النفوذ البيزنطي في مصر تجدر الإشارة فيما يخص الفتح العربي الإسلامي لمصر أن الباحثَين كاترمير وسوفير[٢] يُذكران أن الكاتب القبطي بشندي Picendi أسقف مدينة قفط الذي عاصر الفتح العربي كَتَبَ كتابًا يقول فيه: 'إن العرب أخذوا النقود الذهبية المنقوش عليها الصليب المقدس وصورة المسيح وأزالوا الصليب وصورة السيد المسيح ونقشوا محلها اسم نبيهم محمد واسم خليفة نبيهم على النقود الذهبية'.[٣]

وعلى أية حال فقد تم العثور على رسالة المطران بشندي وهي بعنوان " الخطاب الذي ألفه Picentique أسقف قفط على فراش موته عندما أُبلِغَ بغزو العرب لمصر ". وثبت أنها ملفقة لأسبابٍ تتعلق باللغة، لأنها كُتب باللغة العربية، وأخرى تتعلق بسك العملات لأنه لم يثبت عن البيزنطيين أن سكوا عملاتٍ ذهبية في مصر باستخدام الصليب، فضلًا عن عدم دقة الحقبة فالذي كتبها كانت في سلسلة طويلة من التنبؤات و التي جمعها يوحنا تلميذه من فم الأسقف المحتضر

---

(١) ابن المقفع (ساويرس): ج ١, ص ٨٨, كتاب السنكسار: ج ١, ص ٢٥٠.

(٢) QUATREMÈRE (Et): *Mémoires Géographiques et Historiques Sur L'egypte et Sur Quelques Contrées Voisines*, (Paris: 1811), p. 343; SAUVAIRE, M. H., "Materiaux pour Servir histoire de la Numismatique et de la Metrologie Musulmanes" – Manes (Extraitdu *Journal Asiatique*, 7 eme Seriet, XIV, (Paris: 1879), pp.456 - 457.

(٣) الملاحظ هنا أن معظم العملات المكتشفة فى مصر هى عملات بيزنطية تعود إلى القرن الخامس والسادس الميلادى وكانت بعثة المجلس الأعلى للآثار قد اكتشفت بعض العملات الذهبية فى دير مارى جرجس الذى يقع فى جبل الأساس المقدس بنقادة التابعة لمحافظة قنا، وهذه العملات ترجع إلى بداية تعريب العملات سنة ٧٧ هجرية فى عهد الخليفة عبدالملك ابن مروان، (٦٨٥ – ٧٠٥م / ٦٥ – ٨٦هـ). انظر: REUTERS: "Byzantine Coins in Egypt Art", *New York Time*, 1/4/1988, P. 11.

ليتنهي الأمر برمته بوفاة الأسقف.(١)

النشاط الاقتصادي:

على الرغم من أن المجتمع في مصر كان مجتمعًا زراعيًا بالدرجة الأولى، وكانت أغلب الأُسَرِ في إقليم طيبة تعمل بالزراعة(٢)، إلا أن قفط كانت بحُكمِ موقعها لها اتجاهًا آخر وهو التجارة، وساهم في نشأة الطرق بين قفط والبحر الأحمر وجود ما يُعرف بـ'ثنية قنا' – تلك الثنية التي جعلت ساحل البحر الأحمر على مقربةٍ نسبيًا من نهر النيل –.(٣)

وشَكَّلَ النشاط التجاري جانبًا هامًا من نشاط قفط في العصر البيزنطي، إذ كانت مصر تقع على الطريق الذي يربط الشرق بالغرب، والذي تتجمع متاجر الشرق الأقصى وآسيا وأفريقيا وبلاد ما بين النهرين في طريقها إلى الغرب الأوربي، حيث كانت مصر تستقبل السفن الواردة مُحَمَّلةً بالسلع التجارية لِتَحُطّ في منطقة القصير على البحر الأحمر، ثم تحمله القوافل إلى مدينة قفط، ثم إلى النيل حيث تُشحَن في مراكبٍ إلى الإسكندرية، حيث تُفرض عليها الضرائب.(٤)

---

(١) MILLIN A. L., Magasin Encyclopedique: *Ou Journal Des Sciences. Des Lettres Et Des Arts.* Volume 2 - Primary Source Edition (French Edition: 1923), By Aubin Louis Millin, pp. 196-197.

(٢) DRAYTON, J. M., *Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Century Christian Egypt.* (Australia: 2002), pp. 14-15.

(٣) RONALD E. ZITTERKOFF AND STEVEN E. SIDEBOTHAM, "Stations and Towers on Quseir - Nile Road", in: *The Journal of Egyptian Archaeology* (J-E-A), 75, 1989, p. 156; JOHNSON., D. W.: CULTER. A., "Nile Art", PP 1486 – 1487. *ODB*, Oxford, 1991; ABDELGHANI M., "Coptos and its Role in the Eastern Trade of the Roman Empire", *L'Egitto in Italia Dall'antichità Al Medioevo Atti del III Congresso Internazionale Italo-Egiziano Roma, CNR* - Pompei, 13-19 Novembre 1995, p. 5.

(٤) BURY, J. G., *History of the Later Roman Empire*, (London: 1923), Vol. 1, p. 53; Ostrogorsky, G., *History of the Byzantine State* (U. S. A.: 1969), p. 68.

ولولا البحر الأحمر ما كانت قفط وشهرتها التجارية، فقد شكَّلَ منطقة وصل و ممر ملاحي بين قارتي أفريقيا وآسيا، وأفاض في الحديث عنه منذ القِدم الجغرافيون والمؤرخون حيث احتل مكانةً هامةً لدى الحضارات القديمة والأمم المجاورة.(١) وأطلق عليه اليونانيون والرومان البحر الأريتري Erytrean بسبب مياهه وجباله الحمراء، وكان ينقسم في الشَمال إلى خليجين هما خليج هيروبوليس Heroopolis (السويس)، وخليج آيلة Elani (العقبة).(٢)

وأشار الكثير من الكُتَّاب والمؤرخين إلى جغرافية البحر الأحمر وسواحله وموانيه وأهميتها التجارية، حيث كان أهمها بالنسبةِ لقفط ميناءي ميوس هورموس Myos Hormos (القُصير القديم)، وبرينيقي Berenike (برنيس).(٣)

فميناء ميوس هورموس كان يبعد عن مدينة قفط على النيل مسيرة سبعة أيام (أي حوالي ١٧٠كم)، وأنشأه الملك بطليموس فيلادلفيوس Ptolemy

---

(١) *Agatharchides of Cnidus On the Erythraean Sea* Translated and Edited by BURSTIEN.S.M. London 1989, p.8;
RACKHAM M.A, *Natural History with an translation in English*, Ten volumes. Book. VIII. The Loeb Classical Library edition. Harvard 1961.

(٢) RACKHAM, M.A., *Natural History with an translation in English*, vol 6, ch.28 p. 421; *The Christian Topography of Cosmas an Egyptian Monk*, Trans By MCCRINDLE J. W., (London: 1897).

(٣) MAYERSON Ph., "Egeria and Peter the Deacon on the Site of Clysma (Suez)", *Journal of the American Research Center in Egypt* Vol. 33 (1996), pp. 61-64 (4 pages), p.63; ZITTERKOPF R. E., SIDEBOTHAM S. E., "Stations and Towers on the Quseir-Nile Road", *The Journal of Egyptian Archaeology*, Vol. 75 (1989), pp.155-189; ZITTERKOPF R. E., SIDEBOTHAM S. E., "Routes Through the Eastern Desert of Egypt", *Expedition*, V.37,No.2 (1995); SIDEBOTHAM S. E., AND OTHERS, *Berenike Project. Hellenistic Fort*, ROMAN HARBOR, "Late Roman Temple, And Other Fieldwork: archaeological work in the 2012 and 2013 seasons", *Journal: Polish Archaeology in the Mediterranean* 24/1 (Research), Year: 2015, P.297-324.

سنة ٢٧٤ ق.م.، وكان ميناءً كبيرًا وطبيعيًا بحُكم تكوين ساحله، Philadelphius وبعد أعمال التنقيب تم تحديد موقعه في الموقع الحالي – القُصير القديم – على بُعد ثمانية كيلومترات شمال مدينة القصير الحديثة في مصر، وكان أحد الموانئ الرئيسية في مصر الرومانية للتجارة مع الهند وأفريقيا والصين.(١)

أما الميناء الآخر والذي يرتبط بمدينة قفط على البحر الأحمر فهو ميناء برينيقي Berenike وقد أسسه أيضًا بطليموس الثاني، وفلادلفيوس (٢٤٦ – ٢٨٥ ق.م)، والذي أطلق عليه اسم والدته برنيس الأول Berenice I ملك مصر، وكان هذا الميناء مزدهرٌ ومشهورٌ منذ العصور القديمة، ويشهد بذلك المؤرخون القدامى،(٢) تؤكد ذلك الحفريات الأثرية التي جرت على بقايا ميناء برينيقي، حيث عثرت على مستودع لتخزين البضائع في الركن الجنوبي الشرقي للميناء يرجع إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين.(٣)

ومع النشاط التجاري الضخم الذي شهده الطريق بين قفط والبحر الأحمر، ندرك أن ذلك الطريق كان به المنجم والمحجر، وأطلال الحصون والنقوش وأبراج

---

(١) WILFRED H. SCHOFF, “The Periplus of the Erythraean Sea”, *travel and trade in the Indian Ocean*, (New York: 1912), pp. 25-50; ABDELGHANI M., *Coptos and its Role in the Eastern Trade of the Roman Empire*, p.5; CUVIGNY, HÉLÈNE (ed.), DIDYMOI: “une garnison romaine dans le désert oriental d'Égypte. I - les fouilles et le materiel”, *Fouilles de l'Ifao*, 64(2011), pp.3-4.

(٢) MICHAEL PEPPARD (2009). “A letter concerning boats in Berenike and trade on the Red Sea”. *Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik*, Bd. 171, p. 196; STRABO, *Geography*, xvi.770, xvii.815; PLINY THE ELDER, *Natural History*, vi.(26).103, vi.(33).168; MAYERSON PH., “Egeria and Peter the Deacon on the Site of Clysma (Suez)”, *Journal of the American Research Center in Egypt*, Vol. 33 (1996), pp. 61-64 (4 pages), p. 63.

(٣) WENDERICH, W.Z., " The Relations between Berenike Shenshaf and The Nile valley " in *Life on The Fringe Living in The Southern Egyptian Deserts during The Roman and early Byzantine periods*, ed. by. Olaf. Kaper. E. Leiden, 1998, p. 246.

المراقبة والآبار، كما شَهِدَ نقل أنواعٍ متباينة من السلع التجارية.(١)

كانت البضائع تُنقل من وإلى مدينة قفط على النيل وميناثي ميوس هيرمس (أبو شعر قبلي) وبرينيقي على ساحل البحر الأحمر عبر الطُرق المعتادة.(٢)

والإدارة البيزنطية قامت بدورها بتعبيد الطرق، وإقامة محطات المكوس الداخلية في قفط ومدنٍ أخرى مثل أرمنت وطيبة.(٣)

والملاحظ هنا أن الإمبراطورية البيزنطيةاستخدمت شبكة الطُرق التي تم إنشاؤها من قِبَل الإمبراطورية الرومانية في الفترات السابقة وما قبل الرومانية، وكانت تمتاز بأنها حسنة التنظيم، بعد أن تم تعديلها بما يتلاءم والمتطلبات الجديدة للدولة البيزنطية،(٤) وهو نفس المنهج السابق لبطليموس فلادلفيوس حين اعتنى

(١) ZITTERKOPF R. E., SIDEBOTHAM S. E., "Stations and Towers on the Quseir-Nile Road", *The Journal of Egyptian Archaeology*, Vol. 75 (1989), pp.155-189; Zitterkopf R. E., SIDEBOTHAM S. E., *Routes Through the Eastern Desert of Egypt*, Expedition, V.37,No.2 (1995).

معظم الأبنية والإنشاءات التي جاءت في العصور اللاحقة والمتأخرة من محطاتٍ وآبارٍ وحصونٍ في طريق قفط البحر الأحمر لها أصول فرعونية، ثم جُددت أو أُعيد بناؤها وتدشينها في العصور اللاحقة، إما بالقرب من تلك البنايات الأثرية أو عليها، حيث أن هذه الدلائل قد جاءت سلفًا خلال العصور المختلفة منذ بدء التاريخ وإلى يومنا هذا. أنظر:

GOYON G., LE PAPYRUS DE TURIN, "dit "Des Mines D'Or" et Le Wadi Hammamat", *Institut français d'archéologie orientale du Caire*, 1949.

(٢) MURRAY, G., "The Roman Roads and Stations in Eastern Desert of Egypt". In *the Journal of Egyptian Archeology*, Vol. 2, (1925), pp. 139-140.

(٣) *Oxyrhunchus Papyri:* 1659.

(٤) ANGELIKI E. LAIOU, ed., *The Economic History of Byzantium from the seventh through the fifteenth century*. 3 vols. Washington DC, Dumbarton Oaks, 2002. P. 57; BOUCHIER E. S., *Syria as a Roman Province*, (oxford: 1919), p.166.

بالمحطات الموجودة بين مدينة قفط والبحر الأحمر.(١)

ولم يختلف العصر البيزنطي عن العصر الروماني في عمليات التنقل بين قفط والبحر الأحمر، فقد بقيت الدواب (الخيول والبغال والحمير) هي وسائل نقل البضائع، في حين استُخْدِمَت العربات المدولبة على بعض الطرق المرصوفة.(٢)

أما عن عمليات النقل الداخلية فأوراق البردي تؤكد أن الوسيلة الرئيسية في مصر في العصر البيزنطي لنقل البضائع كانت المراكب النيلية.(٣)

والملفت للأمر أن المؤرخين الكلاسيكيين نظرًا لانتشار الجاليات العربية والقوافل التجارية في المناطق الواقعة على الضفاف الشرقية لنهر النيل، ومن جهة مدينة قفط حتى ساحل البحر الأحمر، فقد أطلقوا على الصحراء الشرقية لفظة بلاد العرب دلالةً على توغل القبائل العربية فيها، كما أن إسترابون Strabon وصف مدنية قفط بأن نصف سكانها من العرب والنصف الآخر من المصريين، فضلًا على أن بليني Bleni يذكر أن قبائل عربية كانت تعيش في برنيقي على الساحل الغربي للبحر الأحمر.(٤)

---

(١) STRABO, *Geography, Book.* Xvii, ch. 45, p. 119.

يُذكر أن هناك عشر محطاتٍ تقريبًا بين قفط وبرنيقي علي البحر الأحمر, أنظر:

BALL, J, *Egypt in The Classical Geographers*, Cairo, 1954, pp. 122-138.

(٢) SARTRE M., *The Middle East Under Rome*, Trans By Catherine P. & Elizabeth R., USA, 2007, p.258.

(٣) P. oxy: 3395 (371 A. D), p. oxy: 3415 (376 A. D), p. oxy: 4605 (361 A. D).

(٤) STRABO, *Geography,Book.* Xvii, ch. 45, p.119; *Pliny the elder (A.D. 23–79)*, *The Natural History* (Naturalis Historia), transl. John Bostock, H.T. Riley, Red Lion Court, London 1855.

حظيت الطرق التجارية القديمة بالصحراء الشرقية بين قفط والساحل الغربي للبحر الأحمر بتنقيباتٍ أثريةٍ وبعثاتٍ كشفيةٍ أثْرَت مَعرفةُ الباحثين بالكثير، فهناك من المحطاتِ والحامياتِ =

والملاحظ أيضًا أن التاجر السكندري قوزماس Cosmas - المعروف بالملاح الهندي والراهب النسطوري – فيما بعد أشار في رحلته الطويلة من مصر إلى الهند عندما وصل إلى نهاية رحلته في جزيرة سيلان، حيث لاحظ أن هناك تجار من الحبشة يقومون ببيع الزمرد الذي جلبوه من قبائل البليمين.(١)

وكما هو معلومٌ أيضًا فقد استمرت التجارة الشرقية الواسعة النطاق لمصر في العصر القديم والعصر الروماني لتمتد إلى العصر البيزنطي، حيث كانت تُرسل الأساطيل الكبيرة إلى الهند والجزيرة العربية وأثيوبيا لنقل أثمن البضائع إلى ميناءي ميوس هيرموس وبرنيق ثم تُنقل بالجِمال إلى قفط، والصادرات من خارج مصر

= مثل حاميتي كروكوديلو Krokodilo، وهي أولى الحاميات على طريق قفط - ميوس هورموس، وكذلك ديديموي Didymoi وهي أولى الحاميات على طريق قفط - برنيقي، ثم يتفرع الطريق عند حامية فوينيكون Phoinikon (لاقيطة حاليًا)، ومحطات أخرى مثل سيميو Simou (الحمراء حاليًا)، ومحطة ماكسيميانون Maximianon (الزرقاء حاليًا)، وبئر الحمامات، ومنطقة أبوكوع، ومنطقة أفروديت أوروس Aphrodites Orous (المويح حاليًا)، ومنطقة قصور البنات، وهناك نقوش نبطية وثمودية تدل على نشاطٍ تجاري قديم. انظر:

Littmann, E., "Nabataean Inscriptions from Egypt- II", *BSOAS 16*, 1954, II,N. 56; MAXFIELD, V. A. "Ostraca and The Roman Army in The Eastern Desert", *BICS*. Supplement, No. 81, Documenting The Roman Army: *Essays in Honour of Margaret Roxan* (2003), p.157; CUVIGNY, H., Ostraca de Krokodilô. "La correspondance militaire et sa circulation". *Praesidia du désert de Bérénice II.* (Fouilles de l'Ifao 51.) pp. xii + 283, ills. Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 2005; WEIGALL, ARTHUR, E.P., *A Guide To The Antiquities of Upper Egypt From Abydos To The Sudan Frontier*, second edition, Methuen & co. Ltd, London, pp. 30-31; GOYON G., Le Papyrus De Turin, "dit "Des Mines D'Or" et Le Wadi Hammamat", *Institut français d'archéologie orientale du Caire*, 1949, pp. 1-3.

(١) *The Christian Topography of Cosmas an Egyptian Monk*, Trans By MCCRINDLE J. W., (London: 1897), p. 62.

لتكون الرحلة العكسية، أي من الإسكندرية إلى النهر ثم قفط والبحر الأحمر، وكانت الرحلة تتوقف عند نقاطٍ مختلفةٍ في طريقها لأخذ عناصر أخرى من التصدير حتى وصولها إلى وجهتها النهائية.(١)

ومن أهم السلع التي كانت تُستورَد النباتات العطرية والأحجار الكريمة، وغيرها مثل اللبان والمر Myrrh والسُّكَّر.(٢)

وكانت مصر أيضًا إبان العهد الروماني تصدر عن طريق قفط – القصير بعض السلع إلى بلاد الهند واليمن وعمان، ومن أهم تلك الصادرات الزجاج والبرونز.(٣)

وإذا أسقطنا على قفط ظاهرة التوائم الحضرية أو المدن التوأمية - كما يُطلِق عليها أهل الجغرافيا – ويُقصد بها إندماج مدينتين في مكانٍ واحد، وذلك لأن المدن التوأمية تشترك في بعض الخدمات دون أخرى، وإن كانت تميل إلى تركيز نشاطها في مكانٍ واحدٍ.

ونجد أن بعثة حفائر تابعة لجامعة ميشيغان Michigan قد عثرت على قطعٍ زجاجية عديدة في أرمنت – القريبة من قفط – ترجع صناعتها إلى القرن الرابع الميلادي، مما يشير أن بعض المدن القريبة من قفط، كانت تضم مصانع للزجاج في العصر البيزنطي.(٤)

(١) *Abdelghani M., Coptos and its Role in the Eastern Trade of the Roman Empire*, p. 5.

(٢) SIDEBOTHAM S. E., *Roman Economic policy in The Erythra Thalassa, 3O B.C-A-D 217*, Leiden E-J- Brill, 1986, PP. 13 - 14.

(٣) SIDEBOTHAM S. E., *op. cit.*, PP. 15 - 17.

(٤) JOHANSON, (A. C) WEST (L): "Byzantine Egypt", *Economic Studies*, (London: 1940), PP. 112-113.

كما وُجدت أيضًا مناجم للأحجار الكريمة كالزمرد في قوص والعقيق في أرمنت،(١) كما حظيت المنطقة الواقعة بين وادي النيل والبحر الأحمر بالصحراء الشرقية بخامات الذهب، الأمر الذي أوجد صناعة التحف الذهبية، ويحتفظ المتحف البريطاني بمجموعة من أدوات الحلي والأقراط المصنوعة من الذهب والخواتم والأساور التي تعود صناعتها إلى العصر البيزنطي في مصر لمدنٍ كثيرة اشتهرت بها مثل الإسكندرية وإخميم وقفط.(٢)

وكانت صناعة الفخار أيضًا قد انتشرت في معظم الأقاليم، وعبر وادي النيل في أماكن كثيرة مثل قنا وهيرموبوليس (الأشمونيين) والفيوم وطيبة وقفط وغيرها من الأقاليم والمدن المصرية.(٣)

وهناك ما يفيد بأن مدينة قفط مع مدنٍ مصريةٍ أخرى، كانت في العصور القديمة تُنتِجُ النبيذ(٤)، والذي صنفته أثينا من بين أفضل العلامات التجارية التي

---

(١) *Oxyrhunchus Papyru*, 1273.

أرمنت من أقدم المدن المصرية، ذكرها جوتييه فى قاموسه أن اسمها المصرى المقدس Per Montou، اسمها البيزنطى Hermmonthis، والقبطى Armeynt، ومنه اسمها العربى أرمنت. انظر:

AMELINEAU, E. *La Géographie de l'Égypte à l'époque copte*. Paris, 1893, P. 168.

محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ج١، ص١٦٠.

(٢) JOHANSON, (A. C) WEST (L): *op, cit.*, PP. 116-118.

(٣) *Oxyrhunchus Papyri*, 2058 & JOHANSON, (A. C) WEST (L): *op, cit.*, P. 116.

(٤) كلمة نبيذ عادة كلمةً تشير إلى العصير المُخَمَّر للعنب الطازج، وتُعَدُّ شجرة العنب أو الكروم من الرموز الدينية المقدسة عبر العصور التاريخية، وفي العصر القبطي كان لها أهمية ورمزية خاصة في المعتقد المسيحي، فقد رمزت إلى الأبدية وترمز أيضًا إلى السيد المسيح الذي قال: أنا هو الكرمة الحقيقية وأبي الكرام، أنظر:

ČERNY, J., *Coptic Etymological Dictionary*, London: Cambridge University Press, 1976, 34; BAGINSKI, A. & TIDHAR, A., *Texties from Egypt 4th-13th Centuries*, Los Angeles: Tavnit Press, 1980, 13; p.oxy: 5671.568.

أنتجتها مصر(١).

تلك هي ملامح النشاط التجاري الذي كان يجري في مدينة قفط، ونستبعد أن يكون قد جرى ما عُرِفَ 'بالتجارة الصامتة'(٢) في قفط، والتي أشار إليها كوزماس من أنها كانت تدور في المناطق الحبشية، وهو سلوكٌ تجاري يلجأ إليه بسبب صعوبة لغة أهل البلاد، أو صعوبة الحصول على مترجمين.

النشاط الديني:

أكد العديد من المؤرخين أن القديس مرقس الإنجيلي بَشَّرَ بالمسيحية في مصر، ووصل إليها عام ٥٨م – أي في بداية النصف الثاني من القرن الأول الميلادي – وهو أول من بَشَّرَ بالإنجيل في مصر، وأسس كنيسة الإسكندرية(٣) و إن كان البعض يري أن المسيحية وصلت إلى مصر في أواخر القرن الأول أو بداية

رأفت عبدالحميد، طارق منصور، مصر في العصر البيزنطي ٢٨٤-٦٤١ م (مصر العربية للنشر: القاهرة ٢٠٠١)، ص ص ٣٠٧-٣٠٨.

(١) STRABO, *Geography,Book*. Xviii, p. 45.

(٢) التجارة الصامتة Sindundoyechon Station وتسمى أيضًا المقايضةُ الصامتةُ، وهي طريقةٌ يستطيع بها المتداولون الذين لا يستطيعون التحدثَ بلغةِ بعضهم البعض التداول دون تحدث، وفيه تَترك المجموعة A البضائع التجارية في مكانٍ بارزٍ وتشير من خلال غونج (آلة موسيقية أو النار أو البرميل على سبيل المثال إلى أنها تركت البضائع، ثم تصل المجموعة B إلى المكان وتفحص البضائع وتودع بضائعها التجارية أو الأموال التي يريدون تبادلها وسحبها، وتعود المجموعة A بعد ذلك وتقبل التجارة عن طريق أخذ البضائع من المجموعة B أو الانسحاب مرةً أخرى تاركةً المجموعة B لتضيف إلى العناصر أو تغيرها، لإنشاءِ قيمةٍ متساويةٍ، تنتهي التجارة عندما تضع المجموعة A عرض المجموعة B وتزيل البضائع المعروضة تاركةً المجموعة B لإزالة البضائع الأصلية. أنظر:

HAMILTON GRIERSON P. J., "The Silent Trade", *a contribution to the early history of human intercourse*, Edinburgh, 1903.

(٣) CARR, AW AND OTHERS: *Mark, ODB*, pp. 1299 - 1300.

محمد عبدالشافي المغربي: ملامح إقليم قنا في العصر البيزنطي، ص٢٩١.

القرن الثاني الميلادي.(١)

تَعَرَّضَ المسيحيون في مصر والعالَم لاضطهادٍ عظيم، وشَمِلَ ذلك مدينة قفط، والذي بلغ الاضطهاد مداه في عصر الإمبراطور دقليديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م) حيث أصدر أربعة مراسيم فيما بين ٣٠٢ – ٣٠٥م تحث على اضطهاد المسيحيين، وشهدت هذه المراسيم حرق الأناجيل والكتب الدينية وهدم الكنائس ومنع المسيحيين من التجمع ومصادرة جميع أملاك الكنيسة، وسُمِيَ عصر الاضطهاد هذا في مصر باسم 'عَصْر الشهداء'.(٢)

ويذكر السنكسار(٣) أن القائد الروماني أريانوس توجه إلى قفط، وحينما وصل إلى مشارف المدينة، توجه كهنة الأوثان للقائد ورحبوا به، وأبدوا سعادتهم وافتخروا أمامه بأنه لا يوجد في مدينتهم مسيحي واحد، وهذا ما سَرَّهُ، وكان بها شابٌ مسيحيٌ يُدعَى 'إمساح Imsah' وكانت له أختٌ عذراء تُدْعَى 'ثيودورا Theodora' وكانا يقيمان ويعملان في بستانٍ جنوب المدينة، فلما عَلِمَ أريانوس

---

(١) DRAYTON, J. M., *Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Century Christian Egypt*. (Australia: 2002), pp. 27.

(٢) MILNE, G. M. A., *A History of Egypt Under Roman Rule*. Vol. V, pp. 32.
راجع رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة، (القاهرة: ١٩٨٣)، ج.٢، ص ص ١١-٣٥.

(٣) "السنكسار" Synaxare أو "السنكسارى" جمعها "السنكسارات" وهي كلمة من أصل يوناني وتعنى "جامع" أو "مجموعة". ويعد "السنكسار القبطى" أهم المصادر التاريخية القبطية، ويحوى السنكسار سير القديسين والشهداء موزعة على أيام السنة القبطية، إضافة الى بعض أقوال آباء الكنيسة، وهناك أكثر من إصدار منه للتفاصيل، أنظر:
"Le Synaxare Arabe-Jacobite", Texte Arabe, Publié, Traduit Et Annoté Par RENÉ BESSET, in *Patrologia Orientalis*, t. Vi, Paris, 1922; CHENEAU D'ORLEANS, P., *Les Saints D'egypte, Jerusalem*, P, 1923, T. II P. 268, *The Coptic Encyclopedia*, ED. ATIYA. A. S., 8 Vols, New York, 1991, See Vol. II. P. 431.Vol V, P. 1626.

بإيمانِ الشاب وثباته أمر بقتله.(١)

وشعر المسيحيون في مصر بأنهم مدعوون إلى نمطِ حياةٍ أكثر انعزالًا، مما أدى إلى ظهور الرهبنة(٢) التي تعني العزلة والانقطاع، وتدريب النفس على ترك متاع الدنيا، وتطهير الروح واحتقار الجسد، والإعراض عن شهواته، اعتقادًا بأن ذلك يُقَرِّبُ الإنسان إلى ربه، ويكفل له الخلاص والنجاة.

وعلى مقربةٍ من قفط وقبل منتصف القرن الرابع الميلادي وَضَعَ القديس باخوميوس الكبير (٢٩٠ – ٣٤٦م) ST. Pachomius نظامه الجديد في الرهبنة الذي يجمع بين الرغبة في الانقطاع للعبادة من جهة، وبين طبيعة البشر من جهةٍ أخرى، حيث أصبح في الواقع مؤسس رهبنة الشراكة أو الديرية الجماعية.(٣)

وكان القديس باخوميوس قد وُلِدَ لأبوين وثنيين بين سنتي ٢٨٥م، ٢٩٥م في إقليم طيبة، وتحديدًا في بلدة كينوبوسكيون Kenoboskion وهي بلدة القصر والصياد بمركز نجع حمادي شمال مدينة قفط، وكان قد خَدَمَ في شبابه في جيش الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦ – ٣٣٧م) ثم اعتنق المسيحية.(٤)

---

(١) SYNAXARE, *13 Hathor, 15 Kihak*; AMELINEAU, E. *La Géographie de l'Égypte à l'époque copte*. Paris, 1893, pp. 213-214.

(٢) BUTLER, E. C., *Monasticism in Cam. Med. Hist.* (Cambridge: 1911), Vol. 1, pp. 521-542; MACKEN, W.H., *Christian Monasticism in Egypt*, (London: 1920), pp. 25-65.

(٣) MUNIER: L' *Egypt Byzantine de Diocletin a la Conquete Arab* (Caire: 1932), p. 14; MALATY, T. Y., *Introduction to the Coptic Orthodox Church*, (Alexandria: 1993), pp. 60-62.

(٤) DRAYTON, J. M., *Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Century Christian Egypt.*, pp. 42-45; WILLIAM BENHAM, W., *the Dictionary of Religion*, (London: 1887), p. 774.

بعد ذلك اتصل باخوميوس بالعديد من النُسَّاك المعروفين، وقرر متابعة هذا الطريق تحت إشراف ناسكٍ يدعى بلامون Palemon حيث قرر باخوميوس أن يعتزل المجتمع، ويسير في سلك الرهبنة، وعاش لمدة سبع سنوات مع القديس بلامون مارس خلالها حياة الزهد والتقشف وكبح جماح الجسد.(١)

فَكَّرَ باخوميوس في الخروج من صومعته لتأسيس دير يجمع فيه النُسَّاك في مكانٍ واحدٍ وتقوم بينهم حياةُ نسكيةٌ جماعيةٌ، وبالفعل أسس ديرًا بالقرب من دندرة في طبانيس(٢)، وذلك بين عامي (٣١٥ – ٣٢٠م) جَمَعَ فيه النُسَّاك ووضع قانونًا يسيرون عليه.(٣)

وكان القديس باخوميوس قد وضع نظامًا دقيقًا وشروطًا صارمةً لمن يريد الالتحاق بالدير، كأن يقضي ثلاث سنوات تحت الاختبار، وكانت الأديرة مقسمةً في الداخل إلى بيوتٍ منفصلةٍ عن بعضها، وكلٌ منها يضم أربعين راهبًا تقريبًا، وقد تم تنظيم بيوت الرهبان على أساس الحرفة التي يجيدها الراهب، وكان لكل دير رئيس ووكيل، ولجميع الأديرة رئيسٌ عامٌ.(٤)

كان باخوميوس أول من وضع قواعد مكتوبةً تم تطويرها بمبادئٍ مأخوذةٍ

---

(١) BUTLER, E. C., *Monasticism in Cam. Med. Hist.* (Cambridge: 1911), Vol. 1, pp. 538; PREVITE, O.C.W., *The Shorter Cambridge Medieval History* (Cambridge: 1952), p. 73.

(٢) وردت فى السنكسار دوناسة Dounasah – والرومى دفانيس Davainise وطبانسين أول دير فى العالم يجمع بين الرهبان فى شركة مقدسة، وتعرف أيضًا طابنا Tabenna ولها معنيان باليونانية وتعنى جزيرة طبنا، والقبطى Tabennisi وتعنى مدينة (بلح إيزيس)، انظر: محمد عبدالشافي المغربي: ملامح إقليم قنا في العصر البيزنطي, ص٢٩٢.

(٣) DRAYTON, J. M., *Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Century Christian Egypt.*, PP. 47-52; PREVITE, O.C.W., *op. cit.,* p. 72; TRILLING, J. & KAZHDAN, A., *Pachomios in O.D.B.*, Vol. 3. pp. 1549-1550.

(٤) *Palladius*: *The Lausiac History of Palladius*, Trans by CLARKE, W.K.L., (New York: 1918), p. 443.

من الكتاب المقدس، وهذه القواعدُ سعت إلى تحقيق التوازن بين الصلاة والعمل والحياة الجماعية مع العزلة.(١)

لم يكتفِ باخوميوس بديره الذي أنشأه في طبانيس فبعد أن اكتظ بعدد المنضمين أنشأ عددًا من الأديرة معظمها شَمال مدينة قفط مثل دير بابو Pabou وهي فاو حاليًا بمركز دشنا، ودير شينسيت (القصر والصياد)، وأديرةً أخرى امتد بعضها إلى أخميم، وكل دير من تلك الأديرة كان يبعد عن الآخر بمسافةٍ قليلة.(٢)

وانتشرت رهبنة الشركة جنوبًا وشَمالًا بين طيبة وطبانيس حول قفط في برية الأساس المقدس،(٣) فكانت الرهبنة حيةً نشطةً، حيث يذكر السنكسار في اليوم الثالث عشر من هاتور تحت عنوان 'نياحة القديس يوساب بجبل الأساس بكرس قفط' أن القديس من أهل فاو ثم التحق بدير باخوميوس هو ورفيقٍ له يُدعى 'مداسيوس'، وسَلَكَ طريق الرهبنة، حيث تولى رعايتها روحيًا ناسكٌ يدعى 'بولس'، لكن الشهرة التي اتصف بها الصاحبان اجتذبت لهما جمعًا غفيرًا، فما كان منهما إلا أن قررا الانتقال إلى مكانٍ منعزلٍ والعيش فيه، فتركا فاو واتجها إلى جبل الأساس في مكانٍ قريبٍ من قفط، وأقاما في جبلٍ بشواو،(٤) وكان في الغرب من المكان الذي أقاما فيه معبدًا للأصنام، فأنشأ 'يوساب' كنيسة مكان المعبد، وبعد

---

(١) FRANCIS JOSEPH BACCHUS. "St. Pachomius". *Catholic Encyclopedia*. Retrieved 17 March 2018.

(٢) *Palladius: The Lausiac History of Palladius*, Trans by CLARKE, W.K.L., (New York: 1918), p. 513; MUNIER: *L'Egypt Byzantine de Diocletin a la Conquete Arab* (Caire: 1932), p. 15; DRAYTON, J. M., *Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Century Christian Egypt.*, pp. 42-46; KAZHDAN, A., *Art Pbow in ODB.*, Vol. 3, pp. 1610-1611.

(٣) AMELINEAU, E. *La Géographie de l'Égypte à l'époque copte. Paris*, 1893, pp. 62-63.

(٤) AMELINEAU, E. *op. cit.*, p. 103.

نياحته دُفِنَ بهذه الكنيسة التي أنشأها في البرية.(١)

وكان لأسقفية قفط شأنًا كبيرًا في الحركة الرهبانية، حيث كان له حق تنصيب الكهنة، فقد قام تيموثاوس (أسقف قفط) بتنصيب صموئيل الراهب رئيسًا لجماعة بِنهِدب، كما رُسِمَ قسًا(٢)، كما كان أسقف مدينة عيذاب (الأنبا نابيس) من مدينة قفط، حيث كان يسكن في كنيسة صغيرة بقفط قبل أن يتولى أسقفية عيذاب التي خدمت التجارة والتجار الذين يسافرون على طريق البحر الأحمر(٣).

وعلى أية حال يقول مؤرخ الكنيسة سوزومينوس في القرن الخامس الميلادي أن نظام الأديرة الباخومية انتشرت بشكلٍ واسعٍ بعد أن كثر أتباع باخوميوس، حتى قيل إن عددها وصل عند وفاته سنة ٣٤٦م إلى أحد عشر ديرًا، تسعة للرجال واثنان للنساء، كان أشهرها ذلك الذي أقامه في طبانيس ويضيف: 'لقد كان جميع رهبان مصر ينظرون إلى تجمع طابانا باعتباره الأم'.(٤)

ومن قرى قفط التي نشطت فيها الرهبنة قرية بِنهِدب **Benhadab** وجبلها، حيث ذكرت في السنكسار في السابع عشر من هاتور في سيرة الأنبا بولا الذي كان

---

(١) SYNAXARE, *13 Hathor, 23 Toba*; *Le Synaxare Arabe - Jacobite*, Texte Arabe, Publié, Traduit Et Annoté Par RENÉ BESSET, In *Patrologia Orientalis*, T. VI, Paris, 1922; AMELINEAU, E. *La Géographie de l'Égypte à l'époque copte*, pp. 62 - 63.

(٢) SYNAXARE, *21 Kihak*; AMELINEAU, E. *La Géographie de l'Égypte à l'époque copte*, p. 495.

(٣) SYNAXARE, 21 Kihak; AMELINEAU, E. *op. cit.*, p.185; FRANCISCUS MARIA R. P. F., "Compendium sacri Oecumenici concilii Chalcedonensis", In *quo actionis, et decreta Sanctorum Patrum circa Fidem Orthodoxam contra Eytychem*, et Diocorum, Roma: Komarek, 1694.

(٤) Sozomenos: Historia ecclesiastica: Nicene II 2, 239 - 427 (= P.G. LXVII 843 - 1630). p. 241.

يسكن جبل بنهدب.(١)

ثم انتقلت الرهبنة الديرية من مصر وتحديدًا من الأديرة الباخومية في صعيد مصر حيث زارها وعملوا على نقلها العديد من الشخصيات مثل بلاديوسPalladius أسقف هلينوبوليس Helenopolis في بيثينيا Bithynia بآسيا الصغرى، والقديس باسيل أسقف قيصرية ومؤسس الديرية اليونانية(٢)، والكاتب الكنسي يوحنا كاسيان (٣٦٠ – ٤٣٥ م) الذي قام بتأسيس عدة أديرة في مدنٍ مختلفةٍ من أوربا.

ولا يمكن أن نسقط الدور المعلوماتي الكبير الذي لعبه التجار الذين كانوا يتنقلون بين النيل وقفط والبحر الأحمر عن هذه الحركة الرهبانية. إذ تشير المعلومات التاريخية إلى وجود عددٍ كبيرٍ من اللاتين واليونان والرومان والأجانب في أديرة الطبياد.(٣)

ولم تكن قفط وكنائسها ورهبانها بعيدين عن النزاع المذهبي الذي قام بين رَجُلَي اللاهوت أريوس وأثناسيوس حول طبيعة المسيح عليه السلام(٤)، هل هو إلهٌ أم بشرٌ؟ فقد صاغ أريوس عقيدته حول تفسير طبيعة المسيح أن الابن (المسيح)

---

(١) SYNAXARE, *17 Hathor.* (بنهدب) اختفي هذا الاسم تمامًا من مصر الحديثة, أنظر: AMELINEAU, E. *op. cit.*, p. 95.

(٢) PALLADIUS: *The Lausiac History of Palladius*, Trans by CLARKE (W. K. L) (New York: 1918), p. 514; MEINARDUS, OTTO, *Christian Egypt and Modern*, (Cairo: 1977). p. 22; SEVCENKO, N.P., "Art". *Basil the Creat. In ODB.*, pp. 269 - 270; BALDWIN, B., "Art". *Polladius. In ODB*, p. 1565; MACKEN, W.H., *Christian Monasticism In Egypt, to the Close of the fourth Century*, (London: 1920). p. 113.

(٣) MACKEN, W.H., *op. cit.* pp. 106 – 110; DRAYTON, J.M., *Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Century Christian Egypt.*, pp. 157-158; ANNA WOYTEK, F., *Voices From the Monastery*, (Austin: 2003), p. 13.

(٤) GREGORY, T. E. & KAZHDAN, *Art Arios in O.D.B.*, Vol. 1, p. 172.
رأفت عبدالحميد، طارق منصور، مصر في العصر البيزنطي ٢٨٤-٦٤١ م (مصر العربية للنشر: القاهرة ٢٠٠١)، ص ص ١٠٧-١٠٨.

أقل من الأب في الجوهر، ووضعه بين بقية المخلوقات، وأن الله تعالى هو إله له وجودٌ دائمٌ ولا يمكن إدراكه، وأن الكلمة التي اتحدت بالمسيح عليه السلام ليست من نفس جوهر الإله، وعلى هذا فإن المسيح ليس مخلوقًا بشرًا لا يُشارك الإله في شيء ولا بشبهه، وأقر أريوس أن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن، والمسيحُ مولودٌ له بداية ونهاية، بيد أن أثناسيوس رفض هذا الرأي، حيث رأى أن الأب والابن من جوهرٍ واحدٍ أو من مادةٍ واحدةٍ (هوموسيوس Homoousios) أي أنه يعتبر المسيح إلهًا لا يقل شأنًا عن الإله الأب، ومن هنا رُفِعَ المسيح إلى مصاف الإله ليكونَ مساويًا له في كل شيء.(١)

واحتدم النزاع الديني حتى انتقل من مصر إلى غيرها من أقاليم الإمبراطورية البيزنطية، حتى ظهر ما يُعرف بالمذهب الأريوسي والمذهب الأثناسيوسي وكان لذلك تداعياتٌ خطيرةٌ سببت شقاقًا كبيرًا بين أتباعِ المسيحيةِ، واستدعى ذلك تدخل الأباطرة البيزنطيين، حيث عقد الإمبراطور قسطنطين مجمع نيقية سنة ٣٢٥م لحسم هذا النزاع، وكان هذا المجمع المسكوني الأول في تاريخ المسيحية، وانتهى بإدانة آريوس ونفيه وتحريم تداول آرائه، وإقرار آراء أثناسيوس.(٢)

وإن كان الإمبراطور قسطنطين (٣٣٧ – ٣٦١م) الذي خلف أباه قسطنطين الأكبر عاد واعتنق المذهب الأريوسي، وطرد أثناسيوس من كرسي بطريركية

---

(١) JONES, A.H.M., *The Decline of the Ancient World*, (London: 1975), pp. 42-43; PAINTER (S.): *A History of the Middle Ages 384, 1500,* (London: 1964). pp. 16 - 17.

محمد عبدالشافي المغربي: ملامح إقليم قنا في العصر البيزنطي، ص٢٩٥.

(٢) Israel, Y.A., *The Council of Nicea 325 A. D. An Encyclopaedia of Arts*, Vol. 10 (1): 44, (2002).

راجع تفصيلات ذلك في كتاب رأفت عبدالحميد: الدولة و الكنيسة، ج.٢.

الإسكندرية، وظل أثناسيوس مختفيًا في أديرة مصر المختلفة.(١)

وجد أثناسيوس في الإقليم الذي ضم أديرة وكنائس طبانيس وطيبة وقفط الملاذ أثناء هروبه، وكان الرهبان قد وجدوا في شخص أثناسيوس تجسيدًا عما يعتمل في نفوسهم من عداء للإمبراطورية البيزنطية بعد أن وقف عنيدًا ضد تحدياتهم.(٢) ويُذكر أن أثناسيوس كان يُستقبل بحفاوةٍ بالغةٍ في أديرة طبانيس.(٣)

وعلى الرغم من انتشار المذهب الأريوسي في صعيد مصر (وشمل ذلك طيبة وقفط حتى أسوان)، وكذلك مذهب المليتية(٤)، الذان يرفضان ألوهية المسيح واعتبروهُ مخلوقًا وليس إلهًا، إلا أن أثناسيوس كان يعمل على التقرب من رهبان الأديرة الباخومية، حيث عَمِلَ على نيل تأييدهم، ونجح في ذلك، حتى أن الرهبان الباخوميين تورطوا في النزاع الأريوسي الأثناسيوسي كمساندين لأثناسيوس والأرثوذكسية خاصةً في الفترة العصيبة التي أعقبت مجمع نيقية.(٥)

ولم يكن الصعيد الأعلى غريبًا على أثناسيوس، فكثيرًا ما عاش بين ربوعه متنقلًا بين أديرته وكنائسه، حتى أنه بعد توليه كرسي بطريركية الإسكندرية تفقد

---

(١) PIGANIOL, Andre, *L Empire Chretien*, 325-395 (Pairs, 1947). pp. 94-95; JONES, A.H.M., *The Decline of the Ancient World*, (London: 1975), p. 54; MILNE, G.M.A., *A History of Egypt Under Roman Rule*.(London: 1924), Vol. V, p.88.

(٢) KIDD, B.J., *A History of the Church to A. d. 461*. Vol. 2, (Oxford: 1922), Vol. 2, p. 195; WACE, H. & PIERCY, W., *A Dictionary of Christian Biography and Literature*, (London: 1911), p. 794.

(٣) MACKEN, W.H., *Christian Monasticism in Egypt, to the Close of the fourth Century*, (London: 1920), p. 132.

(٤) TELFER, W., "Meletius of Lycopolis and Episcopal Succession in Egypt", *The Harvard Theological Review* Vol. 48, No. 4 (Oct., 1955), pp. 227-237; *Encyclopedia Britannica (1911),* Eleventh Edition. Article on "Meletius of Lycopolis".

(٥) BROKKE, D., *Athanasius and Politics of Asceticism Clarendon Press*, (Oxford: 1995), PP. 80-141; DRAYTON, J.H., *Op. Cit.*, p. 85-89.

البِيَعَ والكنائسَ حتى وصل إلى الحد الجنوبي من مصر إلى أسوان (سين أو سينوس) سنة ٣٢٩م مارًا بمدينة قفط.(١)

برز دور قفط عند عقد مجمع إفسوس سنة ٤٣١م، حيث شارك ووَقَّعَ على قرارات المجمع أسقف قفط فويبأمون Phoibammon(٢)، وكانت قد ظهرت مسائلَ عقائديةً جديدةً خاصةً بواقعية التجسد والخلاف بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية للمسيح، وكان نسطوريوس Nastorius قد فتح باب الجدال على مصراعيه حين أَبَى أن يُطلق على العذراء مريم لقب 'والدة الإله'، وكان هذا اللقب الكتابي والمُستَعمَل حرفيًا عند أوريجنس Origenes قد دخل في العبادة الشعبية.(٣)

وشهدت قفط أيضًا عبور القديس جريجنتيوس Gregentius بعد أن صدرت له الأوامر من بطريرك الإسكندرية طيموثيؤس Timotheus (٥١٨ – ٥٣٥م) سنة ٥٢٥م وموافقة الإمبراطور جوستين الأول Justin I (٥١٨ – ٥٢٧م) بالسفر من الإسكندرية إلى الحبشة مستخدمًا طريق نهر النيل جنوبًا ثم قفط ثم إلى أحد الميناءين ميوس هيرموس أو برنيقي ثم التوجه إلى الحبشة، ومنها إلى بلاد حمير، وذلك بناءً على طلب ملك الحبشة تعيين أسقف جديد لكنيسة 'ظفار Taphar'(٤) وإن كان أحد المصادر الحبشية يشير إلى أن سبب إرسال القديس

---

(١) CHENEAU, P., *Les Saints de Egypt*, (Jerusalem: 1923), T. II., p. 98.

(٢) AMELINEAU, E., *La Géographie de l'Égypte à l'époque copte*, p.214; GROSSMANN, P., *Art Qift (Coptos), The Coptic Encyclopedia*, pp. 2038 - 2040.

(٣) "The Council of Ephesus", *The Church Quarterly Review*, Vol. 33, (Arthur Cayley Headlam, ed.), Spottiswoode, 1892, p.103; RICHARD KIECKHEFER, "Papacy". *Dictionary of the Middle Ages*, Cambridge 1989.

(٤) CHRISTIDES V., "The Himyarite-Ethiopian war and the Ethiopian occupation of South Arabia in the acts of Gregentius (ca. 530 A.D.)", *Annales d'Éthiopie*, Vol.9, 1972, pp. 115-146; BAUSI, ALESSANDRO (2008). "Review of Life and Works of Saint Gregentios, Archbishop of Taphar". *Aethiopica.* 11: 262 – 266.

جريتيوس هو إيقاف المد اليهودي.(١)

أما عن حركة الرهبنة في قفط، فتتضح بشكلٍ كبيرٍ في شخصية بيزيتيوس Pisentius (٥٦٨ – ٦٣٢م)(٢) الذي تولى أسقفية المدينة وأعمالها وهو صورة للراهب العابد المتوحد الناسك السائح.

وُلِدَ القديس بيزيتيوس (بيستاؤس كما ذُكِرَ في المخطوطة) في سنة ٥٦٨م تقريبًا، وقد ذُكِرَ في المخطوطة التي عُرِفَت باسمه 'وهذا الصبي الطفل بستاؤس الذي أنت الآن تشاهده بعينك هذا يكون أسقفًا مكرمًا ويستحقُ من الرب سبحانه مرتبة عظيمة ومنزلة رفيعة... أبواه من أهل قرية تُعرَف بشبرة من تخوم أرمنت وهو ابن سبع سنين فتعلم بنشاط عظيم جميع عِلم الكتب وحفظ في صدره اثنى عشر كتاب يتلى فيها بغير فتور'.(٣)

حيث جاء في السنكسار: 'وأقام على هذا النسك ملازمًا بلا فتور في رهبته ولما تكاملت له ثلاثين سنة وهو راهبًا دعاه الله إلى رتبة الأسقفية على مدينة قفط وأعمالها... ولما كرز أسقف أقام في أسقفيته ثلاثة وثلاثين سنة آخر أسقفًا ومعلمًا ومرشدًا وراعى صالح يرعى شعبه بتقوى الله وخشيته حافظًا لقوانين آباءنا الرسل الأطهار'.(٤)

---

(١) كبرانجشت أو جلال الملوك: النص الحبشي في تاريخ إثيوبيا القديم حتى ظهور المسيحية، ترجمة مجدى عبدالرازق سليمان، مراجعة وتقديم محمد خليفة حسن، القاهرة، ٢٠٠٣، ص.٢٣٢.

(٢) IRIS HABIB, *The Story Of The Copts The True Story Of Christianity In Egypt*, Book 1, (Without Date), p. 348.

(٣) The Arabic life of S. "Pisentius: according to the text of the two manuscripts Paris Bib. nat.", *Arabe 4785*, and *Arabe 4794* / edited with English translation by DE LACY O'LEARY., Firmin-Didot, 1930, pp.329-330,[17],[18]; Synaxare, 13 Abib.

(٤) The Arabic life of S. "Pisentius: according to the text of the two manuscripts Paris", pp.459-460,[147],[148].

كان القديس 'بيزنتيوس' قد ترهبن على يد القديس 'إيلياس' رئيس دير فيبأمون Phipamon بجبل شامة، وكان الدير يقع شرق مدينة هابو المقامة على أنقاض مدينة طيبة بالبر الغربي للأقصر.(١)

انتشرت رهبنة الشراكة جنوبًا وشمالًا خاصةً في برية وجبل الأساس المحصورة بين الجبل الغربي لطانيس (دندرة) والجبل الغربي لطيبة (جبل شامة)، وصارت مركز إشعاع روحي أَثَّرَ تأثيرًا واضحًا في حياة الكنيسة وحركتها.(٢)

سكن القديس بيزنتيوس جبل شامة ستةَ عشر عامًا بين المقابر قبل انتقاله إلى جبل الأساس، و حتي بعد أسقفيته لقفط ظل متنقلًا بين دروب جبلي شامة والأساس.(٣)

ازدهرت الرهبنة في برية الأساس، وذاع خبر وصيت هؤلاء الرهبان، وامتلأت بالرهبان، مما دعا القديس أن دعا تلميذه بالذهاب إلى جبل الأساس غير أن سيرة حياة القديس بيزنتيوس أوضحت أن القديس كان يميل ويحب أن يعيش في جبل الأساس تحديدًا قبل أن يصبح أسقفًا على مدينة قفط، ومنه أُخذ للأسقفية، كما أوضحت أنه عاش منفردًا بهذا الجبل في قلاية لثلاث سنوات، وقد نصت الأعجوبة الثالثة في حديثه مع تلميذه يوحنا على ذلك 'امضِ بنا إلى جبل الأساس وقد تجد هناك برية شبهات جديدة إذ كان رهبانها نُسَّاكًا متعبدين لله عادة ملائكية لطهارتهم، وليس يوصف نسكهم وعبادتهم وأعمالهم وليس لها حد ولا قياس، إذ هم شيوخ قديسين وملائكة متجسدين'.(٤)

مارَسَ بيزنتيوس وجميع الرهبان الجانب القاسي في حياة الرهبنة، وهي إماتة

---

(١) The Arabic life of S. "Pisentius: according to the text of the two manuscripts Paris", p.118; DEKKER, R., *Bishop Pesynthios of Koptos (Egypt)*, (Published by De Gruyter 2011), p. 56.

(٢) AMELINEAU, E. *La Géographie de l'Égypte à l'époque copte*, p.104.

(٣) PISENTIUS, *The Arabic life of S. Pisentius: according to the text of the two manuscripts,[37],[46],[50].*

(٤) PISENTIUS, *op. cit.*, p.335, [23].

الحواس وشهوات النفس، حيث لجأ رهبان وقديسو برية الأساس إلى العيش بين المقابر وسط الجثث البشرية ورائحة الموت.(١)

بلغت سمعة بيزنتيوس الآفاق، حيث كان له نصوصًا أدبيةً تمثل الرهبنة وُزعت في أنحاء مصر، خاصةً مملكة النوبة جنوب أسوان.(٢)

وعلى أية حال تولى بيزنتيوس أسقفية قفط التي لم يَسْعْ إليها، بل حاول جاهدًا الابتعاد عنها، حيث أخذه رجال الدين إلى الإسكندرية ونصبه المطران داميان 'داميانوس' (٥٦٩ – ٦٠٥م) أسقفًا على قفط.(٣)

وعُرِفَ عن بيزنتيوس في أسقفيته أنه كان جيد المنطق في وعظه، يجذب الشعب، فلا يمل أحد من سماع كلماته، (وله نبوءة عما سوف يحدث للكنيسة المصرية في نهاية الأيام).(٤) وقد خلف بيزنتيوس على كرسي الأسقفية تلميذه الذي عُرِفَ بموسى القفطي).(٥)

النشاط الاجتماعي:

لم تكن مدينة قِفط مساحةً أو حيزًا جغرافيًا يعيش فيه السكان، ولكنها صورة لبوتقة انصهرت فيها العديد من الشعوب، ويكفي وصف استرابون لها بأنها: 'مدينة مشاع بين العرب والمصريين'.(٦)

وفي محيط قفط جاء اليونان والرومان وأجانب من كافة أنحاء العالَم إلى أديرة

---

(١) PISENTIUS, *The Arabic life of S. Pisentius: according to the text of the two manuscripts,* p.338.

(٢) DEKKER R., *Bishop Pesynthios of Koptos (Egypt)*, (Published by De Gruyter 2011).

(٣) *The Arabic life of S. Pisentius: according to the text of the two manuscripts, p.345,[33].,* pp.387-388,[75]; DEKKER R., *op. cit.*.

(٤) *Synaxare, 13 Abib*, p. 445.

(٥) REVEILLOUT E., *Textes Coptes Extraits de la Correspondance de St. Pésunthius,* p. *202.*

(٦) STRABO, *Geography, Book.* Xviii.

الطبياد بأديرة باخوميوس،[١] ولم تكن هناك مشكلة في معيشتهم وسكنهم لوجود مترجمين كُثر،[٢] وانتشرت اللغات المختلفة في مجتمع قفط والصعيد الأعلى من مصر بشكلٍ عامٍ في العصر البيزنطي مثل اللاتينية واليونانية والقبطية، حيث كانت اللغة اليونانية هي لغة الصلاة والتأليف ولغة التفاهم بين الطبقات الراقية، كما كانت اللغة القبطية التي أصبحت لغة الكتابة للكتب المقدسة وسِيَر الآباء وأقوال المعلمين.[٣]

أما بالنسبة للمرأة فالواضح أن النساء انخرطن في سلك الرهبنة، خاصةً النساء اللاتي يرغبن في التعلم، وكانت هناك قواعد لأي راهبة ترغب في دخول الدير سواءً من العذارى أو الأرامل.[٤]

وفي مجال الطب والتطبيب تشير المصادر التاريخية إلى مهارة النساء والرجال على حدٍ سواءٍ في تركيب العقاقير المستخرجة من الأعشاب من واقع خبرة بفوائدها الصحية، وقد اضطلع رجال الدين بعملية صنع الأدوية وتوزيعها على المجتمع.[٥]

وكم كان ذلك مفيد إذ علمنا بانتشار الأمراض المختلفة منذ القِدَم في

---

(١) MACKEN, W.H., *Christian Monasticism in Egypt, to the Close of the fourth Century*, (London: 1920). pp. 106-110; DRAYTON, J.M., *Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Century Christian Egypt.*, pp. 157-158.

(٢) ANNA WOYTEK, F., *Voices from the Monastery*, (Austin: 2003). p. 13.

(٣) DRAYTON, J.M., *Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Century Christian Egypt.*, pp. 102-104; MACCOULL, L.S.B., *Coptic Language and Literature, art*, p. 530, ODB, Oxford, 1991.

(٤) HARDER, D., *Where Heaven is yet* Open, (Amsterdam: 1993), pp. 84–85; DRAYTON, J.M., *Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Century Christian Egypt.*, p. 180.

(٥) BENHAM, W., *Dictionary of Religion*, (London: 1887), p.774; MACKEN, W.H., W.H., *Christian Monasticism in Egypt, to the Close of the fourth Century*, (London: 1920). p. 135.

الصحراء الممتدة بين قفط والبحر الأحمر، خاصةً أمراض العين بأنواعها المختلفة والتي انتشرت بين عمال المناجم والمحاجر بسبب مناخ مصر الشرقية الحار، وشمسها المتوهجة.(١)

وقد واجه الإقليم الذي تقع فيه مدينة قفط مرض الطاعون عام ٣٤٦م، حيث مات عددٌ كبيرٌ من سكان الإقليم بهذا المرض، وامتد أثره على الرهبان والراهبات، وكان ممن فَقَدَ حياته في ذلك الوقت القديس باخوميوس. (٢)، وإن كانت سيرة القديس بيزنتيوس تشير في مواضعٍ كثيرةٍ إلى شهرته المجتمعية في علاج الأمراض.(٣)

كما تشير سيرته أيضًا إلى بعض المواقف الاجتماعية، مثل موقفه مع الشاب الزاني، وكيف نصح بيزنتيوس والده بتزويجه الفتاة بعد أن سلبها عذريتها بأسلوبٍ يملؤه الرقي والتأدب،(٤) وكذلك موقفه من المرأة الزانية التي شَكَتْ زوجها زُورًا وبهتانًا، وتبين له بعد التحقق جُرم هذه المرأة وفجورها.(٥)

كما يحفظ لنا التراث القبطي تأثيرًا كبيرًا للقديس بيزنتيوس على مجتمع قفط وما حولها، في حياته وبعد مماته، حتى انتقل إلى معظم أنحاء مصر. ذُكِرَ ذلك في الدفندار Devandar، وهو كتابٌ يحكي سيرة القديس، ولكن بصورةٍ فيها لحنٌ

---

(١) VALENTINE J. Belfiglio and Sylvia I Sullivant, *Roman Military Medicine: Survival in the Modern Wilderness*, Cambridge scholar Publishing, Cambridge (2019),p. 78.

(٢) DRAYTON, J.M., *Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Century Christian Egypt.*, pp.53-54; WACE, H. & PIERCY, W., *A Dictionary of Christian Biography and Literature*, (London: 1911), p. 795.

(٣) *The Arabic life of S. Pisentius: according to the text of the two manuscripts*, p. 360, p. 463.

(٤) *The Arabic life of S. Pisentius: op.cit.*, pp.390-394, [22].

(٥) *The Arabic life of S. Pisentius: op.cit.*, pp.436-442, [36].

وباليونانية، وهو يستخدم التقويم القبطي والشهور القبطية (١٣ شهر).[١]

كما أن للقديس نبوءة عن مجيء العرب لمصر[٢]، وله أيضًا مجموعة من الرسائل الأصلية بخط يده على البردي والشقافات.[٣] وللقديس ميامر (مدائح) باللغة القبطية وهي تشمل سيرة حياته، وتشتمل على ٣ قطع تحتوي على ٣٥ إستيخون (جزء) وهذا المخطوط في مكتبة الفاتيكان.[٤]

كما يحفظ التراث القبطي 'مديح عن الأنبا نفر السائح باللهجة الصعيدية، وهو على نفس النمط الخاص بالمدائح السابقة، ومحفوظٌ بالمتحف البريطاني.[٥]

أما عن عادات الدفن في مدينة قفط وما حولها من أقليم الصعيد، فالملاحظ أن شاغلي المقابر المسيحية قد تمت معالجتهم، إن لم يكن عن طريق التحنيط بالمعنى الدقيق للكلمة، فعلى الأقل لمنع التحلل، كما أن العادة في لف الجثة بطبقاتٍ فوق بعضها من الأكفان واللفائف قد استمرت لمدة طويلة في الدوائر المسيحية، ففي عام ٦٠٠ ميلادية، فإن الأسقف 'إبراهام Ebraham' أسقف هرمونيس Hermonis أرمنت قد ترك تعليمات ذُكرت بها الأقمشة واللفائف الخاصة بدفنه، وكما كان يحدث في مصر القديمة فقد كُتِبَت نصوصًا على تلك اللفائف بغرض حماية المتوفي، ولذلك نجد على إحدى اللفائف من أكسيرخوس Oxyrhynchus (القرن الخامس / السادس الميلادي) عبارة قالها المسيح عليه السلام وتؤكد حقيقة

---

(١) هو نفس فكرة السنكسار، ويَحكي سيرة قديس اليوم ولكن بطريقة فيها لحن (كتاب الدفنار المقدس Devanar)، تاريخ النسخة ٦/١١/٢٠٢١.

(٢) PERIER, *Revue de l'Orient Chrétien 19, 1914*. p. 79, 302, 445.

(٣) REVEILLOUT, E., "Textes Coptes Extraits de la Correspondance de St. Pésunthius". *Revue Égyptologique* 9, 1900. p. 133-179; 10, 1901, p. 34-47., 14, 1912, p. 22-32; CRUM W. E., *Short Texts from Coptic Ostraca and Papyri*. Oxford, 1921.

(٤) MALLON, A., "Grammaire copte: avec bibliographie", *chrestomathie et vocabulaire, Berouth, Imp. Catholique, 1907.*

(٥) BUDG, W., *Miscellaneous Coptic Texts in the Dialect of Upper Egypt*. London, London, 1915. p. 1206.

البعث حيث يقول: 'إن كل ما يدفن يجب أن يُبعث'.(١)

ولما اقتربت نياحة القديس بيزنتيوس أحضر شعبه ووعظهم، وثَبَّتَهم على الإيمان وأوصاهم كثيرًا بأهمية حفظ الوصايا والاستعداد الدائم للرحيل للأبدية'.(٢)

الملاحظ أنه كانت هناك عادة من عادات الدفن في المجتمع لا يوجد لدينا دليلٌ أثري يدفعنا للقول بأن ذلك كان عملًا شائعًا، حيث ينطبق ذلك على القديس بيزيتيوس الذي طلب أن يُدفَن في ثيابه الرهبانية، وعندما تنيح تم لف جسده في كفن ثم نُقَل إلى مقبرة فوق الجبل المقدس الذي يبعد كثيرًا عن الدير.(٣)

وكانت عملية دفن القديس بيزنتيوس تختلف تمامًا عن دفن القديس باخوميوس – رائد رهبنة الشراكة – حيث دُفِنَ في قبرٍ غير مميز في قلب الصحراء.(٤)

الشواهد الأثرية لقفط:

ربما كان سكان قفط وزائريها في العصر البيزنطي شهود عيان على الكثير من الآثار الفرعونية والبطلمية والرومانية التي لم يتبقَ منها إلا الأطلال.(٥)

---

(١) FRANÇOISE (DONANT) AND CHRISTIAN (KOCH): *Gods and Men in Egypt* (Cornell University Press: 2004), p. 320.
والترجمة العربية: فرانسواز (دونان) وكريستيان (كوش): الآلهة والناس فى مصر، ترجمة: فريد بورى، (القاهرة: ١٩٩٧)، ص ٣٥١.

(٢) SYNAXARE, *13 Abib*, p. 445; *The Arabic life of S. Pisentius: according to the text of the two manuscripts*, p.467,[155]., p.477,[165].

(٣) WALTERS, K.K., *Monastic archaeology in Egypt* (England: 1974), p. 306.
والترجمة العربية: والترز (ك. ك): الأديرة الأثرية فى مصر، ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم، (القاهرة: ٢٠٠١)، ص ٣٣٧.

(٤) DRAYTON, J.M., *Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Century Christian Egypt.*, p. 166.

(٥) MACCOULL, L.S.B., "Egypt", *ODB Art*, pp. 679 – 681, Oxford, 1991.

وبعد أن انتشرت المسيحية في مصر بدأ تحويل أجزاءٍ من المعابد الفرعونية إلى كنائس في أماكنٍ كثيرةٍ في مصر مثل المعابد القريبة من قفط كالكرنك بالأقصر، ومعبد حتحور بدندرة.(١) غير أنه لا توجد أديرة أو كنائس أثرية كاملة وقائمة في قفط وما حولها تعود إلى العصر البيزنطي، ويرى سومرز كلارك(٢) أن من الأسباب التي أدت إلى اختفاء آثار الأديرة أن العديد منها كان يقع في وسط الحدائق والمزروعات، ونتيجةً لذلك اختفت آثارها، ولو كان هناك نظامٌ ثابتٌ للتخطيط في صلابة المباني وطول الحوائط لبقي ذلك موجودًا.

وربما يعود تفسير ذلك إلى أن فلسفة مؤسس الرهبنة القديس باخوميوس كانت لا تبقى على المباني الجميلة من منطلق الزهد.(٣)

ومن بين المباني المسيحية في منطقة المدينة القديمة، تم العثور على آثارٍ طفيفةٍ لكنيسة، لكنها كانت عبارة عن هيكلٍ كبير الحجم على عكس التقليد العادي، كانت الكاتدرائية موجهة نحو الشَمال الغربي بدلًا من الشَمال الشرقي، وكان عرض الصحن ٣١ قدمًا (٩,٥ متر)، ويتكون الحَرَم من ثلاث غرفٍ مستطيلة على ما يبدو بسبب عدم وجود حنية، ولم يتم التعرف في البداية على المبنى على أنه كنيسة.(٤)

كانت الغرفة الرئيسية المركزية التي أخذت مكان الحنية متصلة بالغرفة

---

(١) DAUMAS, F., *Dandarah et la Temple d'Hothor* (Cairo: 1969); ENCY. BRETT., *Art. Dandarah*, Vol. 3, p. 873.

(٢) SOMERS CLARKE: *Christian antiquities in the Nile valley, a contribution towards the study of the churches* (Oxford: 1912), p.38.

والترجمة العربية: سومرز (كلارك): الآثار القبطية فى وادى النيل، ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة: جودت جبرة، القاهرة، ١٩٩٩، ص153.

(٣) SOMERS CLARKE: *op. cit.*, p.38.

والترجمة العربية: سومرز (كلارك): الآثار القبطية فى وادى النيل، ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة: جودت جبرة، القاهرة، ١٩٩٩، ص34.

(٤) GROSSMANN, P., "Art Qift (Coptos)", *The Coptic Encyclopedia*, pp. 2038 - 2040.

الجانبية الشرقية بفتحة كبيرة في الجدار، وأمام مدخل هذه الغرفة الرئيسية تم العثور على سردابٍ مبني من الطوب المحروق تحت الأرض، وتم إيواء المعمودية في ملحقٍ على الجانب الشرقي من البازيليك، وكانت تحتوي على بِركةٍ كبيرة مثمنةِ الأضلاع بشكلٍ كبيرٍ مع درجاتٍ تؤدي إلى أسفل من أربعة جوانب، وهي ميزةٌ نادرةٌ في مصر، بالإضافة إلى ذلك كانت محاطةٌ بشكلٍ ضخمٍ بمبنى السيبيريوم مدعومة على أربعةِ أعمدةٍ كبيرةٍ من الجرانيت مثمنة الأضلاع بلغ عرض محور الأعمدة ٢٣ قدمًا (٧ أمتار)، وكانت الكنيسة قد شُيِّدَت إلى حدٍ كبيرٍ من موادٍ فاسدةٍ من المعابد الوثنية المهدمة، وعلى هذا فإن تاريخ تشييد بناء المبنى يعود إلى القرن الخامس للحُكم من خلال التيجان المستخدمة Ciborium وعلى هذا فإن المعمودية تم بناؤها بالفعل في القرن السادس، وتم العثور على بقايا مبنىً صغير قديم إلى حدٍ ما تحت القسم الغربي من الكاتدرائية، وإن كان يبدو أيضًا أن هذا اتجاه الشَمال وبقيت حِنيَتها فقط.(١)

كما تشير المكتشفات الحديثة إلى أن هناك عددٌ هائلٌ من قِطَع الأوستراكا Ostraka المُكتَشَفة في الإقليم المُحيط بقفط تعود إلى القرون الثاني والثالث والرابع الميلادي، وتشمل هذه القطع تمارين مدرسية لتعليم القراءة والكتابة وتعليم الأدب. (٢)، ورسائل خاصة بالرهبان وأرشيفات مختلفة للأسقف بيزنتيوس، ونصوص طقسية وترانيم وصلوات وعددٌ من البرديات المختلفة.(٣)

والمؤكد أن الأوستراكا لم تكن المادة الوحيدة المستخدَمة في عمليات التعليم، حيث تشير المكتشفات الأثرية أيضًا أنه كان هناك لوحاتٌ خشبيةٌ مطليةٌ بالشمعِ للكتابة عليها، كما أن أوراق البردي كانت تُستعمل في شكلِ قطعٍ منفصلةٍ أو متراصةٍ.(٤)

---

(١) GROSSMANN, P., *op. cit.*, pp. 2038 - 2040.

(٢) MILNE, J.G., "Relics of Greco", *Egyptian Schools, Hs28*, (1958): p. 21.

(٣) MACCOULL, L.S.B., "Ostraka", *art, ODB*, Oxford, 1991, pp. 1540 - 1541.

(٤) LOUIS, N., *L'introduction du Papyrus Dans I Egypt Greco Romanie*, (Paris: 1934), pp. 153-156.

ومن بين المكتشفات الحديثة في مدينة قفط لوحة تسمى 'لوحة التوحيد'، اكتُشِفَت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وهي من اللوحات الاستشفائية والوقاية من السحر، ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي خلال العصر الروماني البيزنطي.(١)

ولم يكن هذا غريبًا فقد اعتقد المصريون القدماء في السحر، واستمر هذا الأمر في العصرين اليوناني والروماني بفترته البيزنطية، وفي هذا السياق يذكر الأنبا شنودة الأتريبي – الذي عاش في القرن الخامس الميلادي والذي كان رئيسًا للدير الأبيض – في إحدى عظاته الموجهة للسَّحَرَةِ قائلًا: 'أولئك الذين ينامون في القبور كي تنزل عليهم الأحلام، ومن يسألون الموتى عن الأحياء'(٢).

وعن الدير الذي ترهبن فيه القديس بيزنتيوس – أسقف قفط – فقد قامت جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٤٨ بعملياتٍ تنقيبٍ واسعةٍ اكتشف موقعه، وهو دير القديس فيبأمون (أبو فام) حيث يقع على بُعد ٨ كيلومترات غرب وادي الملكات بجبل القرنة بمدينة الأقصر، وأوضحت الحفريات أنه أقيم في القرن الرابع الميلادي، وهو مكونٌ من طابقين، ومؤسسٌ على الصخر، وبه الكثير من النقوش القبطية.(٣)

أما عن تراث المخطوطات المُكتَشَف والخاص بمدينة قفط فينحصر فيما تركه القديس بيزنتيوس، فالتراث القبطي يحفظ لنا 'مديحٌ عن الأنبا نفر السائح'

---

(١) سمير يحيى الجمال: تاريخ الطب والصيدلة المصرية، العصر اليونانى – الرومانى، (القاهرة: ١٩٩٧)، ص٥٧٥.

(٢) Shenoute of Atripe. "Those Who Work Evil" . In *Oeuvres de Schenoudi*. vol. 1. ed. Emile Amelinneau. Paris: Leroux, 1909, pp.219-220; FRANKFURTER, D., *Religion in Roman Egypt. Princeton University Press*, 1998, p. 193.

(٣) MINARDUS, O. *Christian Egypt, Ancient And Modern*, Cairo, 1965,p.428; MARWA M. KABEEL, "Who is Monk Phoibammon of al-Daīr al-Baḥri Temple?", *Art Journal of Medieval and Islamic History, Article 8*, Volume 6, Issue 1, 2009, p. 13-25.

باللهجة الصعيدية، ومحفوظٌ بالمتحف البريطاني.[١] بالإضافة إلى مجموعة رسائل أصلية بخط يده على ورق البردي والشقافات.[٢] كما أن للأسقف بيزنتيوس سيرة بالصعيدية منسوبةٌ إلى تلميذه حنا القس[٣]، وأخرى منسوبة إلى موسى من قفط[٤] الذي خلفه على الأسقفية، بالإضافة إلى النسخة العربية.[٥]

وعلى أية حال فإن هناك أكداس من المخطوطات والوثائق والبرديات القبطية التي تعود إلى العصر البيزنطي، والتي وُجِدَت في أنحاءٍ متفرقةٍ من مصر، وخرجت في غفلةٍ خارج مصر، تتوزع بين مكتبات أوربا الرئيسية.

***

(١) BUDGE, W., *Miscellaneous Coptic Texts in the Dialect of Upper Egypt*. London, 1915. p.1206.

(٢) REVEILLOUT E., "Textes Coptes Extraits de la Correspondance de St. Pésunthius". *Revue Égyptologique 9, 1900*. p. 133-179; 10, 1901, p. 34-47., 14, 1912, p. 22-32; CRUM W. E., *Short Texts from Coptic Ostraca and Papyri*. Oxford, 1921.

(٣) BUDGE W., *Coptic Apocrypha in the Dialect of Upper Egypt*. London, 1913. p. 75-127.

(٤) AMÉLINEAU E., *Étude sur le Christianisme en Egypte au Septième Siècle*. Paris, 1884. p. 73-163.

(٥) GAWDAT GABRA ABD EL SAYED, "Untersuchungen zu den Texten über Pesyntheus, Bischof von Koptos (569-632)". Bonn, Habelts Dissertationsdurke: *Reihe Ägyptologie* 4, 1984.

خاتمة:

هكذا لم تكن مدينة قفط في العصر البيزنطي مجردَ مجموعةِ أفرادٍ متناثرين فوق حيزٍ جغرافي معينٍ، وتتجاوز لتُكَوِّن كتلة بناياتٍ وشوارعٍ وأزقةٍ وطرقٍ، ولكن يمكننا القول عبر أحداث تاريخها الطويل في العصر البيزنطي، إنها كانت حالةٌ ذهنيةٌ وكيانٌ حيٌ من الأحداث والتقاليد والأعراف والمشاعر والمواقف كانت مسلسلٌ حيويٌ من الناسِ بجنسياتٍ مختلفةٍ، مَثَّلَت في بواكيرها جسرًا للتواصل بين مكوناتها، مما ساعد في ازدهار الحركة التجارية والاقتصادية، وكانت قِبْلةً لكثيرٍ من البشر من مختلفِ بقاع العالم، وقد انعكس ذلك في التلاقي والتلاحم وكان لا بد من أجل إعادة بناء الصورة وجود مادةٍ علميةٍ رصينةٍ يتم توزيعها بمقاييس تناسبية لتصبَّ في فضاءٍ مفتوحٍ من أجل أن تأخذ المدينة مكانها المناسب في الإنسان، ويأخذ الإنسانُ مكانه المناسبَ في المدينة، وقد اتضح ذلك في الحياةِ السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والأثرية، ولعل جانبًا في الصورةِ له فضاؤه الخاص، فضاءٌ سريٌ لا تفصح عنه المعلومات. وأخيرًا يمكن القول أن مدينة قفط كانت متوجًا إنسانيًا ما زال في حاجةٍ إلى الدراسة.

* * *

الملاحق

The Life of Pisentius, by John the Elder
(Brit. Mus. MS. Oriental No. 7026. Fol. 20b)

شكل (١)

صورة لمخطوطة حياة القديس بيزنتيوس

Fig. 1. Front cover (photo: A. Thommée; adapted by R. Dekker)

شكل (٢)

صورة لـ (رق) خاص بالقديس بيزنتيوس (البعثة البولندية)

DEKKER , R. , The Early Sahidic Version of the Encomium on Bishop Pesynthius of Koptos from Shaykh Abd al-Qurna: On the Progress of Its Edition , p.135.

Figure 14. The octagonal font of the baptistery.

شكل (٣)

الخط المثمن من المعمودية

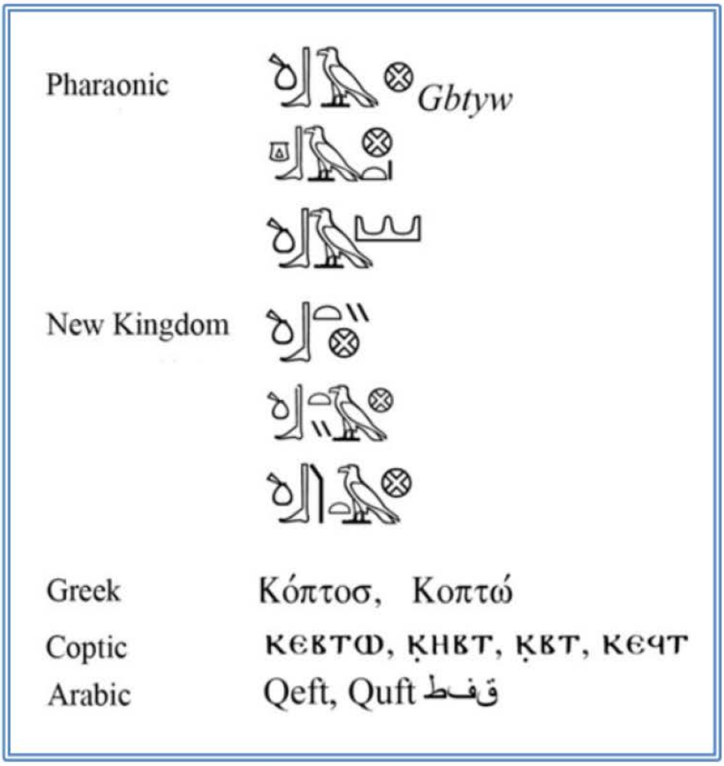

شكل (٤)

Coptps قفط

PANTALACCI , L. , *UCLA Encyclopedia of EgyptologyUCLA Encyclopedia of Egyptology* , Los Angeles , 2012 , p.9-10.

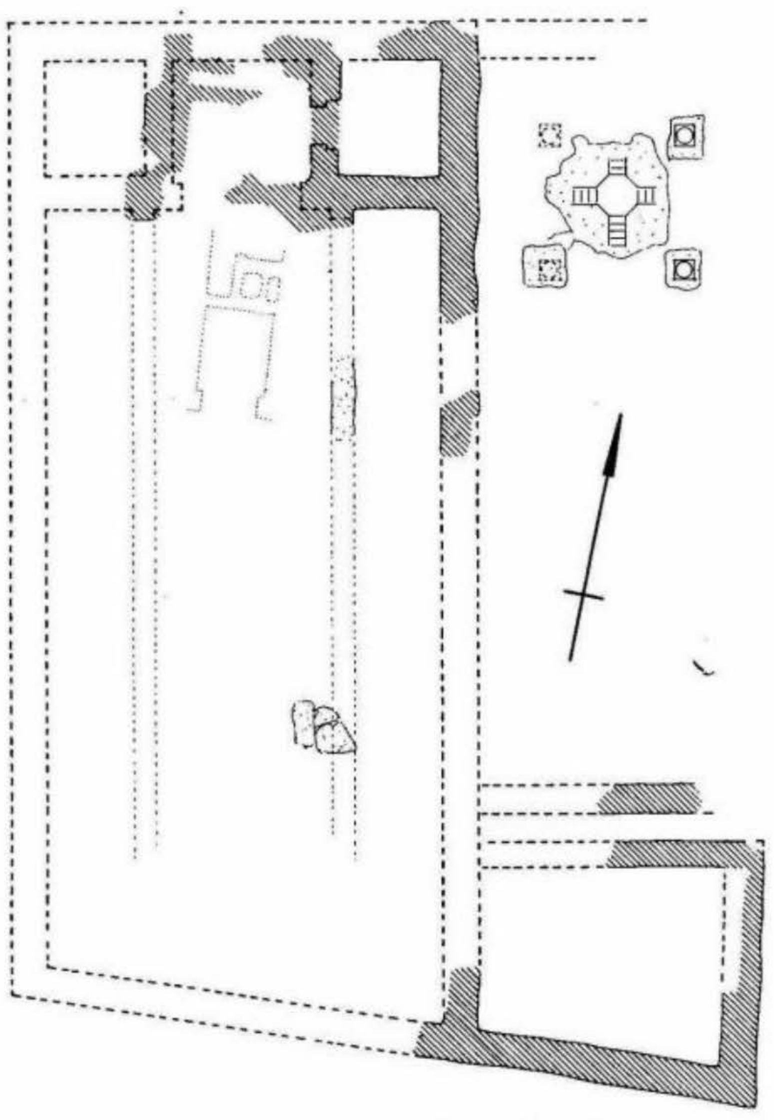

Plan of the large church of which traces are found in the old city of Qifṭ. *Courtesy Peter Grossmann.*

شكل (٥)

مخطط للكنيسة الكبيرة التي وجدت آثارها في مدينة قفط القديمة.

The Coptic Encyclopedia, Vol VII, p.2039.

أساقفة قفط في العصر البيزنطي

م	التاريخ	الاسم	المدينة
١	٣٢٥	أريانوس	كوبتوس (قفط)
٢	٣٢٥–٣٤٧	ثيودوروس	"
٣	٣٤٧	ثينوسيريس	"
٤	الرابع ج	باتاب، أبا ب	"
٥	٤٣١	فيبأمون	"
٦	٤٥١	سابينوس	"
٧	٦٣٢–٦٠٧	بيزينتيوس	"
٨	السابع ج	موسى، آبا م	"
٩	ج ٧٠٠	كوميز، آبا ك	"
١٠	؟	ميناس، آبا م	"
١١	؟	فينسيتوس	"
١٢	بيز	ثيوفيلوس	"
١٣	؟ بيز	تيموثاوس	"

شكل رقم (٦)

WORP K. A. , *A Checklist of bishops in Byzantine Egypt (A.D. 325- C. 750)*, p. 301.

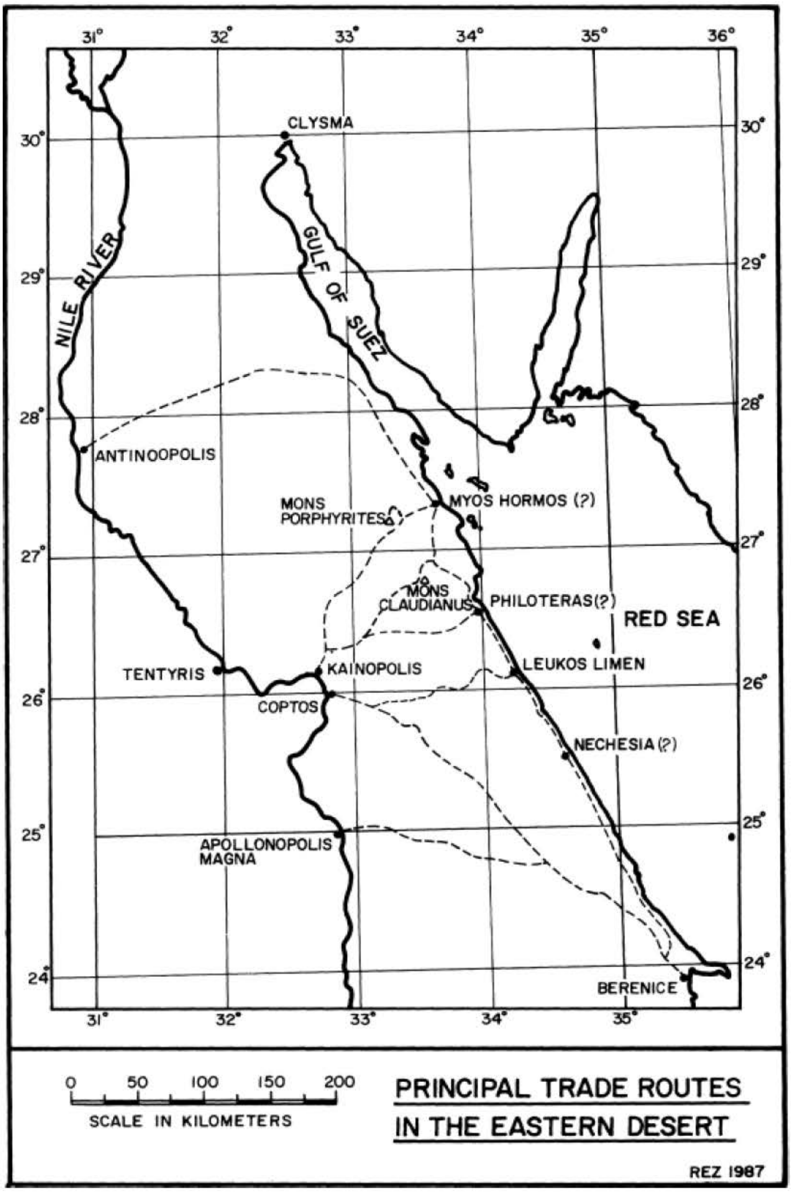

شكل (٧)

خريطة توضح الطرق التجارية الهامة بين قفط والبحر الأحمر

ZITTERKOPF R. E. , SIDEBOTHAM S. E. , *Stations and Towers on the Quseir-Nile Road* , p.158.

قائمة المختصرات

- BICS: *Bulletin of the Institute of Classical Studies*
- BSAC: Bulletin de la Société d'archéologie copte
- BSOAS: Bulletin of the School of Oriental and African Studies
- CE: The Coptic Encyclopedia
- CED: Coptic Etymological Dictionary
- CMH: Cambridge Medieval History
- CQR: The Church Quarterly Review
- DMA: Dictionary of the Middle Ages
- EAH: The Encyclopedia of Ancient History
- EMC: Encyclopedia of the Medieval Chronicle
- JARCE: Journal of the American Research Center in Egypt
- JEA: Journal of Egyptian Archeology
- JEA: The Journal of Egyptian Archaeology
- ODB: The Oxford Dictionary of Byzantum
- RE: Revue Égyptologique
- ZPE: Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع الأجنبية:

- Abdelghani M., Coptos and its Role in the Eastern Trade of the Roman Empire, L'egitto In Italia Dall'antichità Al Medioevo Atti del III Congresso Internazionale Italo-Egiziano Roma, CNR - Pompei, 13-19 Novembre 1995.
- Agatharchides of Cnidus. On the Erythraean Sea translated and edited by Burstien.S.M. London 1989.
- Amelineau , E.:
- La Géographie de l'Égypte à l'époque copte. (Paris, 1895).
- Monuments pour servir a l'histoire de l'Egypte chre□tienne aux IVe et Ve siècles, (Paris: 1888).
- Vie de Schnoudi (traduite de L' Arabe) In Mémoires Publiés par les memberes de la Mission Archeologique Francaise au Caire (1885-1886). T. 4, Paris. (1888), PP. 396-97.
- Étude sur le Christianisme en Egypte au Septième Siècle. Paris, 1884.
- Ammianus Marcillenus, Res Gestae, trans. by john C. Rolfe in 3 vols. London 1935.
- Angeliki E. Laiou, ed., The Economic History of Byzantium from the seventh through the fifteenth century. 3 vols. Washington DC, Dumbarton Oaks, 2002.
- Anna Woytek , F. , Voices from the Monastery, (Austin: 2003).
- Arthur Schiller A., " The Budge Papyrus of Columbia University ", JARCE, 7, (1968).
- ATIYA. A. S: The Coptic Encyclopedia, ED., 8 VOLS, NEW YORK, 1991.
- Baginski, A. & Tidhar, A., Texties from Egypt 4th-13th Centuries, Los Angeles: Tavnit Press, 1980.
- Bagnall, R. S., Egypt from Alexander to the Copts., British Museum Press , 2004.
- Baldwin , B. , Art. Polladius. In ODB, Vol. 3, p. 1565.
- Ball , J. , Egypt in the classical Geographers (Cairo: 1942).
- Bausi, Alessandro (2008). "Review of Life and Works of Saint Gregentios, Archbishop of Taphar". Aethiopica. 11: 262–266.
- Benham , W. , Dictionary of Religion, (London: 1887).
- Blockley , R.C. , The Fragmentary Classicising Historians of the Later

Roman Empire, Olympiodorus (153-220).

- Bouchier , E.S. , Syria as a Roman Province, (Oxford: 1919).
- Bowman A.K., Egypt after the Pharaohs 332 BC- AD 642 from Alexander to the Arab Conquest, (Unviersity California: 1996).
- Brokke , D. , Athanasius and Politics of Asceticism Clarendon Press, (Oxford: 1995).
- Budge , W. , Coptic Apocrypha in the Dialect of Upper Egypt. London, 1913.
- Bury , J.G. , History of the Later Roman Empire, (London: 1923), Vol. 1.
- Butler , A.J. , The Arab Conquest of Egypt, (Oxford: 1978).
- Butler , E.C. , Monasticism in Cam. Med. Hist. (Cambridge: 1911), Vol. 1.
- Carr , Awand others: Mark , ODB ,PP.1299-1300.
- ČERNY, J., Coptic Etymological Dictionary, London: Cambridge University Press, 1976.
- Cheneau , P. , Les Saints de Egypt, (Jrusalem: 1923), T. II.
- Christides , V. , The Himyarite-Ethiopian war and the Ethiopian occupation of South Arabia in the acts of Gregentius (ca. 530 A.D.), Annales d'Éthiopie, Vol.9, 1972.
- Cosmas, The Christian Topography of Cosmas an Egyptian Monk, Trans By Mccrindle J. W., (London: 1897).
- Crum , W.E. , Short Texts from Coptic Ostraca and Papyri. Oxford, 1921.
- Cuvigny H. Ostraca de Krokodilô. La correspondance militaire et sa circulation. Praesidia du désert de Bérénice II. (Fouilles de l'Ifao 51.) Pp. xii + 283, ills. Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 2005.
- Cuvigny, Hélène (ed.), Didymoi: une garnison romaine dans le désert oriental d'Égypte. I - les fouilles et le materiel, Fouilles de l'Ifao, 64 (2011).
- Daumas , F. , Dandarah et la Temple d'Hothor (Cairo: 1969).
- Dekker , R.:
  - Bishop Pesynthios of Koptos (Egypt), (Published by De Gruyter 2011).
  - The Early Sahidic Version of the Encomium on Bishop Pesynthius of Koptos from Shaykh Abd al-Qurna: On the Progress of Its Edition, Journal of the Italian Research Group on "Origen and the Alexandrian Tradition", pp.133-142.
- Derek Welsby (2002), The Medieval Kingdoms of Nubia: Pagans, Christians and Muslims Along the Middle Nile, British Museum.
- Dijkstra , J.H.F. , 2005, Religious encounters on the Southern Egyptian

Frontiers in Late Antiquity (AD 298-642). [Doctoral dissertation].
- Drayton , J.M. , Pachomius as Discovered in the Worlds of Fourth Contury Christian Egypt. Pachomian Literature and Pachomian Moansticism: Afrigure of History or Hagiography department of Studies in Religion University of Sydney, (Australia: 2002).
- Ency. Brett., Art. Dandarah, Vol. 3.
- Encyclopedia Britannica (1911), Eleventh Edition. Article on "Meletius of Lycopolis".
- Farouk Gomaa, Die Besiedlung agyptens wahrend des mit- tleren reiches, I. Ober Agypten und das Fayyum Wiesbaden, 1986.
- Flinders W. M., Koptos, London: 1896.
- Francis Joseph Bacchus. "St. Pachomius". Catholic Encyclopedia. Retrieved 17 March 2018.
- Franciscus Maria , R.P.F. , Compendium sacri Oecumenici concilii Chalcedonensis, In quo actionis, et decreta Sanctorum Patrum circa Fidem Orthodoxam contra Eytychem, et Diocorum , Roma: Komarek, 1694.
- Françoise (Donant) and Christian (Koch): Gods and Men in Egypt (Cornell University Press: 2004).
- Frankfurter, D. Religion in Roman Egypt. Princeton University Press, 1998.
- Freese J, H,(ed.), The Library of Photius, vol.III, New York, 1920.
- Gauthier , Henri:
  - Dictionnaire des Noms Geographiques dans les Textes Hierogliphiques. Le Caire , 1925.
  - Les Nomes d'Égypte depuis Hérodote jusqu'à la Conquête Arabe (avec cinq planches hors texte). Le Caire, 1935.
- Gawdat Gabra Abd El Sayed, Untersuchungen zu den Texten über Pesyntheus, Bischof von Koptos (569-632). Bonn, Habelts Dissertationsdurke: Reihe Ägyptologie 4, 1984.
- Gian-Claude J., Un Centre musulman de la Haute-Egypte médiévale, Qus, Institut français d'archéologie orientale, (Le Caire: 2005).
- Goyon G., Le Papyrus De Turin, dit"Des Mines D'Or" et Le Wadi Hammamat, Institut français d'archéologie orientale du Caire, 1949.
- Gregory , T.E. , & Kazhdan: Art Arios in ODB, Vol. 1, p. 172.
- Gregory, T.E., Galerius art, P. 817, ODB, Oxford, 1991.
- Grossman, P.:

- Luxor, art, P. 1257, ODB, Oxford, 1991.
- Qift., Art, PP. 2038 – 2040. The Coptic Encyclopedia, Vol. VII, U.S.A. , 1991.
- Hamilton Grierson P. J. , The Silent Trade , a contribution to the early history of human intercourse , Edinburgh , 1903.
- Harder , D. , Where Heaven is yet Open, (Amsterdam: 1993).
- Heinen, H. , Alexandria in Late Antiquity Art, The Coptic Encyclopedia, pp. 95 - 103, U.S.A., 1991.
- Henery George Fischer, Inscriptions from The Coptit nome danasties VI-XI, pontificicium institutm Biblicum, Roma 2-Piazza Pilotta 35, 1964.
- Hitchner , R.B. & Kazhdan , A. , Art. "Blemmyes in ODB (Oxford: 1991), Vol. 1. P. 296.
- Iris Habib, The story of the copts the true story of christianity in Egypt , Book 1, (Without Date).
- Israel ,Y.A. , The Council of Nicea 325 A. D. An Encyclopaedia of Arts, Vol. 10 (1): 44, (2002).
- Jalalipour, Saeid (2014), Persian Occupation of Egypt 619-629: Politics and Administration of Sasanians, Sasanika Graduate paper 10-2013.
- Jean Claude, G, Qus, Art, PP. 2043 – 6, The Coptic Encyclopedia, Vol. VII, U. S. A., 1991.
- Jitse H.F. Dijkstra (2013), "Blemmyes", The Encyclopedia of Ancient History, Wiley, pp. 1145–1146.
- Johanson , A.C. , West (L): Byzantine Egypt, Economic Studies, (London: 1940).
- Johnson, Allen Chester, Egypt And the Roman Empire (University of Michigan: 1951).
- Johnson , D.W. & Kazhdan , A. , Nubia art, P. 1500, ODB, Oxford, 1991.
- Johnson , D.W. , Culter. A., Nile Art, PP 1486 – 1487. ODB, Oxford, 1991.
- Jones , A.H.M. , The Decline of the Ancient World, (London: 1975).
- Kazhdan , A. , Art Pbow in ODB, Vol. 3, PP. 1610-1611.
- Kidd. B. J: A History of the Church to A. d. 461. 2, Vol. (Oxford: 1922), Vol. 2.
- Kirwan , L.P. , Nubia and Nubian Origins. Art. GJ, vol. 140, NO. 1 (Feb., 1974).
- Le Synaxare Arabe - Jacobite, Texte Arabe, Publié, Traduit Et Annoté Par

René Besset, In Patrologia Orientalis, t. VI, PARIS, 1922.

- Littman , E. & Meredith , D. , Nabatean from Egypt., BSOAS, vol. 16, NO. 2 (1934), PP. 211-246.
- Littmann , E. ,«Nabataean Inscriptions from Egypt- II», BSOAS 16, 1954, II, N.56.
- Louis , N. , L'introduction du Papyrus Dans I Egypt Greco Romanie, (Paris: 1934).
- Maccoull , L.S.B.:

- Coptic Language and Literature, art, P. 530, ODB, Oxford, 1991.
- Egypt, ODB Art, PP. 679 – 681, Oxford, 1991.
- " Coptic Egypt during the Persian Occupation - The Papyrological Evidence ", Studi Classici e Orientali, 36 1986), (pp.307-313).
- Ostraka Art ODB, pp. 1540-1541.

- Macken , W.H. , Christian Monasticism in Egypt, to the Close of the fourth Century, (London: 1920).
- Malaty , T.Y. , Introduction to the Coptic Orthodox Church, (Alexandria: 1993),
- Mallon A., Grammaire Copte: Avec Bibliographie, Chrestomathie Et Vocabulaire, Berouth, Imp. Catholique, 1907.
- Mango M. M., Luxor Treasure art, P. 1257, ODB, Oxford, 1991.
- Marwa M. Kabeel, Who is Monk Phoibammon of al-Daīr al-Baḥri Temple?, Journal of Medieval and Islamic History, 6, (2009), pp. 13-25.
- Maspero , J. , Organisation militaire de l' Egypt Byzantine, (Paris: 1912).
- Maspero , G., History of Egypt and Chaldia, Syria, Papillonia, and Aseria Vol. 4, London, 1904.
- Maxfield, V. A. "Ostraca and The Roman Army in The Eastern Desert", BICS. Supplement, No. 81, Documenting the Roman Army: Essays in Honour of Margaret Roxan (2003).
- Mayerson Ph., Egeria and Peter the Deacon on the Site of Clysma (Suez), Journal of the American Research Center in Egypt Vol. 33 (1996), pp. 61-64 (4 pages).
- Meinardus (Otto), Christian Egypt and Modern, (Cairo: 1977).
- Michael Peppard (2009). "A letter concerning boats in Berenike and trade on the Red Sea." Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik, Bd. 171.
- Millin. A.L., Magasin Encyclopedique: Ou Journal Des Sciences. Des Lettres

Et Des Arts. Volume 2 - Primary Source Edition (French Edition: 1923).
- Milne , G.M.A. , A History of Egypt Under Roman Rule. (London: 1924), Vol. V.
- Milne , J.G.:
- Relics of Greco, Egyptian Schools, Hs28, (1958).
- Greek and Roman Tourists in Egypt, the Journal of Egyptian Archaeology, vil III, London, 1916.
- Minardus, O. , Christian Egypt, Ancient and Modern, Cairo, 1965.
- Moore , W.G. , The Penguin Encyclopedia of Places, USA, 1978.
- Muller , G. , Benjamin I 590-661 art. In the Encyclopedia of Coptic, Vol. 2, (U.S.A 1991).
- Munier: L'Egypt byzantine de Diocletin à la conquete arab (Le Caire: 1932).
- Murray , G. , The Roman Roads and Stations in Eastern Desert of Egypt. In the Journal of Egyptian Archeology, Vol. 2, (1925).
- Ostrogorsky , G. , History of the Byzantine State (U.S.A.: 1969).
- Oxyrhnchus papyri, ed B.P. Grenfell & A.S.Hunt and others, 67 vols, 1898-2001.
- Painter , S. , A History of the Middle Ages 384, 1500, (London: 1964).
- Palladius , The Lausiac History of Palladius, Trans by Clarke (W. K. L) (New York: 1918).
- Pantalacci , L. , UCLA Encyclopedia of EgyptologyUCLA Encyclopedia of Egyptology, Los Angeles, 2012, p.9-10.
- Perier , Revue de l'Orient Chrétien 19, 1914.
- Petry , C.F. , The Cambridge History of Egypt (Cambridge: 1998).
- Philostorgius, Church History, trans. R. Philip and S. J. Amidon, SBL 23, Brill, Leiden and Boston, 2007.
- Piganiol , Andre , L Empire Chretien, 325-395 (Pairs, 1947).
- Pisentius , The Arabic life of S. Pisentius: According to the text of the two manuscripts Paris Bib. nat., Arabe 4785, and Arabe 4794 / edited with English translation by De Lacy O'Leary., Firmin-Didot, 1930.
- Pliny the elder (A.D. 23–79), The Natural History (Naturalis Historia), transl. John Bostock, H.T. Riley, Red Lion Court, London 1855.
- Previte , O.C.W. , The Shorter Cambridge Medieval History (Cambridge: 1952).
- Pritsak , O. , Samation., ODB., p. 1844.

- Procopius. History of The Wars. book 1. The Persian War, The Loeb Classical Library, Cambridge, Man. 1992. p. 4-13.
- Quatremère (Et): Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques contrées voisines, (Paris: 1811).
- Rackham M.A, Natural History with an translation in English, Ten volumes. Book. VIII. The Loeb Classical Library edition. Harvard 1961.
- Rene Georges , C. , Joseph of Tsenti art, the Coptic Encyclopedia, P. 1374, U. S. A., 1991.
- Reuters: Byzantine Coins in Egypt Art, New York Time, 1/4/1988.
- Reveillout , E. , "Textes Coptes Extraits de la Correspondance de St. Pésunthius". Revue Égyptologique 9, 1900. p. 133-179; 10, 1901.
- Richard Kieckhefer ,"Papacy". Dictionary of the Middle Ages, Cambridge 1989.
- Roger , J.D. , Histoire de la mer rouge: De Moïse à Bonaparte, Académique Perrin 1995.
- Ronald e. Zitterkoff and steven e. Sidebotham, Stations and Towers on Quseir - Nile Road, in: The Journal of Egyptian Archaeology (J-E-A), 75, 1989.
- Ruth Althein- Stiehl," The Sasanians in Egypt - Some Evidence of Historical Interest", BSAC, 31 (1992).
- Sartre , M. , The Middle East Under Rome, Trans By Catherine P. & Elizabeth R., USA,2007.
- Sauvaire , M.H. , Materiaux pour Servir histoire de la Numismatique et de la Metrologie Musulmanes – Manes (Extraitdu Journal Asiatique, 7 eme Seriet, XIV, (Paris: 1879).
- Sergei Mariev, “Nonnosos”, Encyclopedia of the Medieval Chronicle, R.G. Dunphy ed. (Brill, Leiden and Boston 2010).
- Sevcenko , N.P , Art. Basil the Creat. In ODB., Vol. 1, PP. 269-270.
- Shahid, I, Byzantium and The Arabs in the fifth Century, Harvard, 1989.
- Shenoute of Atripe. "Those Who Work Evil". In Oeuvres de Schenoudi. vol. 1. ed. Emile Amelinneau. Paris: Leroux, 1909.
- Sidebotham , S.E. , and others, Berenike Project. Hellenistic fort, Roman harbor, late Roman temple, and other fieldwork: archaeological work in the 2012 and 2013 seasons, Journal: Polish Archaeology in the Mediterranean 24/1 (Research), Year: 2015, P.297-324.

- Sidebotham , S.E. , Roman Economic policy in The Erythra Thalassa, 3O B.C-A-D 217, Leiden E-J- Brill, 1986.
- Somers Clarke: Christian antiquities in the Nile valley, a contribution towards the study of the churches (Oxford: 1912).
- Sozomenos , Historia ecclesiastica: Nicene II 2, 239 - 427 (= P.G. LXVII 843 - 1630).
- Stephen , J.D. , The Early Coptic Papacy: The Egyptian Church & Its Leadership in Late Antiquity, New York, 2009.
- Stew art , R. Qena art, P. 2040, The Coptic Encyclopedia, U. S. A., 1991.
- Strabo , Geography,Book. Xvii, ch. 45.
- Synaxare, 13 Abib , 13 Hathor , 15 Kihak , 17 Hathor.
- Telfer ,W., Meletius of Lycopolis and Episcopal Succession in Egypt, The Harvard Theological Review Vol. 48, No. 4 (Oct., 1955).
- The Council of Ephesus, The Church Quarterly Review, Vol. 33, (Arthur Cayley Headlam, ed.), Spottiswoode, 1892, p. 103.
- Theophanes. The Chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine and Near Eastern History A.D 284-813. Trans, With Int, and Comm, By Cyril Mango and Roger Scott. Oxford 1997.
- Timothy G. , Early Greek Myth: A Guide to Literary and Artistic Sources, Johns Hopkins University Press, 1996.
- Torok , L. , A Contribution to Post Meroitic. Chronology: the Blemyes in-Lower Nubia. Art. R.D.S.O., vol. 58, Fasc 1/4 (1984) pp. 201-243 (Sapienaa University).
- Trilling , J. & Kazhdan , A. , Pachomios in ODB, Vol. 3. PP. 1549 - 1550.
- Valentine J. Belfiglio and Sylvia I Sullivant, Roman Military Medicine: Survival in the Modern Wilderness,Cambridge scholar Publishing, Cambridge (2019).
- Vasiliev , A. , Goths in the Crimea (Cambridge 1936).
- Vassilios Christides (1980), "Ethnic Movements in Southern Egypt and Northern Sudan: Blemmyes-Beja in Late Antique and Early Arab Egypt until 707 A. D.", Listy filologické, 103 (3): 129–143.
- Vertemont, Jean , Dictionnaire des mythologies indo-europeenes, 1997.
- Wace , H. & Piercy , W. , A Dictionary of Christian Biography and Literature, (London: 1911).
- Wallis Budge, E. A. (1920). An Egyptian Hieroglyphic Dictionary: With an

Index of English words, King List and Geological List with Indexes, list of Hieroglyphic Characters, Coptic and Semitic Alphabets, etc. Vol II. John Murray.

- Walters , K.K. , Monastic Archaeology in Egypt (England: 1974).
- Weigall , Arthur E.P, A Guide to The Antiquities of Upper Egypt From Abydos To The Sudan Frontier, second edition, Methuen & co. Ltd, London.
- Wenderich , W.Z. , " The Relations between Berenike Shenshaf and The Nile valley " in Life on The Fringe Living in The Southern Egyptian Deserts during The Roman and early Byzantine periods, ed. by. Olaf. Kaper. E. Leiden, 1998.
- Wiet , G. , L'Égypte Arabe , de la conquête arabe à la conquête ottoman , Paris 1937.
- Wilfred H. Schoff, The Periplus of the Erythraean Sea, travel and trade in the Indian Ocean, (New York: 1912), PP. 25-50.
- William Benham , W. , the Dictionary of Religion, (London: 1887).
- Worp K. A. , A Checklist of bishops in Byzantine Egypt (A.D. 325- C. 750), aus: Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik 100 (1994) 283–318, University of Amsterdam.
- Zitterkopf R. E., Sidebotham S. E.:

- Routes Through the Eastern Desert of Egypt, Expedition, V.37,No.2 (1995).
- Stations and Towers on the Quseir-Nile Road, The Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 75 (1989), PP.155-189.

المصادر والمراجع العربية والمترجمة:

- ابن المقفع (ساويرس): سير الآباء البطارقة: م١، ج١، (القاهرة: ١٩٤٣).
- بتلر (أ.ج): فتح العرب لمصر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، (القاهرة: ١٩٩٦).
- ديوان عام محافظة قنا: إدارة الإحصاءات المركزية، الدليل الإحصائى، ج١، ص٢، ١٩٩٨.
- رأفت عبد الحميد:
  - الدولة والكنيسة، (القاهرة: ١٩٨٣).
  - الفكر المصري في العصر المسيحي، (القاهرة:٢٠٠٠).
- رأفت عبدالحميد، طارق منصور، مصر في العصر البيزنطي ٢٨٤-٦٤١ م (مصر العربية للنشر: القاهرة ٢٠٠١).
- سمير يحيى الجمال: تاريخ الطب والصيدلة المصرية، العصر اليونانى – الرومانى، (القاهرة: ١٩٩٧).
- سومرز (كلارك): الآثار القبطية فى وادى النيل، ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم، مراجعة: جودت جبرة، القاهرة، ١٩٩٩.
- فرانسواز (دونان) وكريستيان (كوش): الآلهة والناس فى مصر، ترجمة: فريد بورى، (القاهرة: ١٩٩٧).
- كبرانجشت أو جلال الملوك: النص الحبشي في تاريخ إثيوبيا القديم حتى ظهور المسيحية، ترجمة مجدى عبد الرازق سليمان، مراجعة وتقديم محمد خليفة حسن، القاهرة، ٢٠٠٣.
- كتاب السنكسار: مخطوطة السنكسار القبطي اليعقوبي، ترجمة ونشر رينيه باسيه (١٩٢٩)، جزءان في مجلد واحد.
- ليلى عبد الجواد إسماعيل: القديس شنودة الإخميمى أو الأدريبى، مقال منشور فى مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش، (العدد ٢٠، القاهرة، ٢٠٠٣).
- محمد رمزى: (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية)، (القاهرة: ١٩٩٤).
- محمد عبدالشافي المغربي: ملامح إقليم قنا في العصر البيزنطي، بحث منشور في بحوث مؤتمر قنا عبر العصور – جامعة جنوب الوادي – كلية آداب قنا، ١٢-١٤ اكتوبر ٢٠٠٨).
- مصطفى العبادى: الإمبراطورية الرومانية، (الإسكندرية: ١٩٩٥).
- والترز (ك. ك): الأديرة الأثرية فى مصر، ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم، (القاهرة: ٢٠٠١).

المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ١٤٩ - ١٨٦

كُورَةُ القَيْسِ فِي صَعِيدِ مِصْرَ

(الفَتْحُ، والِاسْمُ، وَمَظاهِرُ الحَضَارَةِ) ٢١- ٦٣٥هـ/ ٦٤٢- ١٢٣٧م

Kourat Al-Qays in Upper Egypt (Conquest, name, and civilization) 21- 635 AH- 642- 1237AD

عمر بكر محمد(*)

ملخص

يدرس هذا البحث الفتح الإسلامي لكورة القيس التي تقع في صعيد مصر، ويحاول الباحث خلال هذه الدراسة تحليل بعض الجوانب التي تتعلق بهذه المنطقة، مثل الوصف الجغرافي للقيس، ودراسة الاسم الذي أطلق عليها، والفتح الإسلامي لها ودور الفاتح المسلم قيس بن الحارث في مصر خلال فترة الفتح الإسلامي، ثم دراسة الأوضاع الحضارية التي شهدتها كورة القيس خلال العصر الإسلامي، وقد اعتمد الباحث على العديد من المصادر الجغرافية والتاريخية وكتب الحديث والتراجم وغيرها، وقد أعانت هذه المصادر الباحث فى الوصول إلى نتائج مهمة منها ما اتفق مع المادة التاريخية والجغرافية الموجودة في تلك المصادر ومنها ما اختلف – حسب وجهة نظر الباحث – اعتمادًا على دلائل تاريخية مستخدمًا في استخلاص هذه النتائج المنهج العلمي في دراسة التاريخ من سرد وتحليل ونقد هذه المصادر لمحاولة الوصول إلى النتائج المرجوة، وقد توصل الباحث إلى بعض النتائج التي يتسق

(*) مدرس بقسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة المنيا.

بعضها ما جاء في المصادر المتاحة وبعضها لا يتسق معها محاولًا الوصول إلى رأي تاريخي منطقي فيها.

الكلمات المفتاحية: فتوح الصعيد، قيس بن الحارث، قبيلة خولان، صناعة الأكسية والنسيج، البهنسا.

Abstract

This research studies the Islamic conquest of Kourat Al-Qays, which is located in Upper Egypt. Through this studying The researcher tries to analyze some aspects related to this area, such as the geographical description of al- qays, studying the name which it was called, the Islamic conquest of it and the role of the Muslim conqueror" Qays bin Al-Harith" in Egypt during the Islamic conquest , Then he studies the cultural aspects that Kourat Al-Qays witnessed during the Islamic era, The researcher depended on many geographical and historical sources, hadith books, biography books, and others. These sources helped him to achieve important results some of them agreed with the historical and geographical materials, which are found in those sources, and others differed.The researcher depended on historical evidence, using the scientific method in the study of history from narration, analysis and criticism of these sources to reach the desired results.

Key words: conquest of upper Egypt, Qays bin Al-Harith, Khawlan tribe, cladding and textile industry, Behnasa.

إن أغلب الكتابات التي شملت الفتح الإسلامي لصعيد مصر ركزت على نواحٍ معينة دون الأخرى، فكانت البهنسا(*) مثلا هي أكثر المناطق التي أخذت

(*) البَهْنسا: مدينة مشهور تتبع كورة كبيرة في الصعيد الأدنى بمصر، لا تقع على النيل وهي مدينة عامرة كثيرة الأهل يُنسب إليها مشهد يزوره الناس، اشتهرت بصناعة الستور والمضارب البهنسية والمقاطع السلطانية والثياب؛ حيث يقيم بها التجار، ويتاجرون بجميع أنواع الستور الغالية المشهود لها بالجودة والصنعة، يُنسب إليها العديد من أهل العلم منهم أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد العطار البهنسي ت ٣١٤هـ/ ٩٢٦م، للمزيد راجع: الإدريسي، المغرب وأرض السودان، صـ ٥٠، الحموي: معجم البلدان، جـ ١، صـ ٥١٦، الحميري: الروض المعطار، صـ ١١٤.

حيزًا في الدراسة مع بعض المدن الأخرى، وفي المقابل لم تأخذ بعض المناطق ككورة(*) القيس التي تقع في الطريق إلى البهنسا نفس الحيز من الاهتمام؛ ربما لقلة ذكرها في المصادر مقارنة بغيرها، أو لأنها لم تشهد في فتحها ذلك الزخم الكبير الذي شهده غيرها، وفي السطور التالية سيحاول الباحث معالجة بعض الأفكار والنقاط التي ارتبطت بكورة القيس سواء ما يتعلق بالفتح الإسلامي لها، أو مبررات تسميتها ودور فاتحها في الفتوحات الإسلامية في جنوب مصر، وبعض المظاهر الحضارية التي شهدتها القيس في عصرها الإسلامي.

أولًا: بداية التفكير في فتح جنوب مصر:

كان الفتح الإسلامي لصعيد مصر خطوة مهمة تحتاج إلى توقيت محدد حتى يستطيع فاتح مصر عمرو بن العاص أن يتحكم في أنحاء البلاد خاصة أنه لم يكن يسيطر على شمالها بشكل كامل، ورأى حينها أن السيطرة على شطر مصر الجنوبي لا يكلفه سوى بعض الحملات الخاطفة، في الوقت الذي انشغل فيه بفتوحات الشمال؛ فحققت هذه الحملات النجاح المرجو منها رغم الصعوبات التي واجهتها في هذه السبيل.

وكانت بداية هذه الحملات ضرورة لاستغلال الوقت، وخاصة عندما عجزت قوات عمرو ابن العاص عن دخول مدينة أم دنين(*)، واستبطأ عليه الفتح؛

(*) الكُورَة: هو مصطلح أطلقه العرب على أحد الوحدات الإدارية التي كانت تُعرف عند الرومان باسم Nome ومعناها القسم، وكانت الكورة تكبر وتصغر بحسب ظروف المكان والزمان وتفاوت العمران والحضارة ورغبة الحكومة القائمة أو حكام الأقاليم، فكانت مصر مقسمة إلى ٨٠ كورة حتى بداية الفترة الفاطمية التي تقلصت فيها عدد كور مصر إلى ٢٣ كورة، للمزيد: محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريون إلى سنة ١٩٤٥م، جـ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د،ط)، القاهرة، ١٩٩٤م، صـ٢٨، ٢٩.

(*) أم دُنَين: موضع بمصر ذُكر في أخبار فتوح مصر، لها العديد من الأرباض، كانت من أول المدن التي افتتحها عمرو بن العاص عند دخوله إلى مصر؛ حيث وقع بينه وبين الرومان فيها قتالٌ شديد أثر على قوات عمرو؛ فطلب عندها المعونة من الخليفة عمر بن الخطاب، يقول =

فاستعان بالخليفة عمر بن الخطاب لإمداده بالرجال والعتاد[1]، وحتى وصول هذا المدد قرر تغيير خطته للتوجه جنوبًا؛ لمحاولة فتح الفيوم(*) وكان حاكمها حينئذ قائد روماني يُدعى تيودوسيوس، وقد وكَلَ أمر الدفاع عن الإقليم إلى قائد آخر يُسمى حنا، والذي قام بدوره في وضع حراسة مشددة عند منطقة اللاهون(*)؛

= عنها المقريزي أنها كانت تُعرف من قبلها باسم " المقس" وقد سُميت بهذا الاسم نسبة إلى المكس الذي يجلس عندها لأخذ هذا النوع من الضرائب التي كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق، ويضيف رمزي أن كل من أم دنين والمقس والمكس كلها أسماء تعود إلى قرية صغيرة كانت تقع على شاطئ النيل . راجع: ابن عبد الحكم(أبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم ت ٢٥٧هـ/ ٨٧١م): فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد صبيح، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، بدون، صـ٤٩، الحموي(شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): معجم البلدان، جـ، دار صادر، ط ١، بيروت، لبنان، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، صـ ٢٥١، المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي المقريزي ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م، الخطط المقريزية، جـ٣، تحقيق: محمد زينهم(دكتور)، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي للطبع والنشر، ط١، القاهرة، ١٩٩٨م،صـ ٣٤٣، محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريون إلى سنة ١٩٤٥م، جـ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د،ط)، القاهرة، ١٩٩٤م، صـ٦٦٨.

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، صـ٤٩.

(*) الفَيوم: مدينة قديمة قدم الأزل، يُقال أن الذي بناها هو يوسف الصديق عليه السلام، وأنها سُميت بهذا الاسم نسبة إلى عدد قراها الذي وصل إلى ٣٦٠ قرية فكان يُجنى منها ألف دينار في اليوم الواحد فسميت بالفيوم، تقع في وسط مصر وبينها وبين الفسطاط أربعة أيام، يصفها الإدريسي بأنها مدينة كبيرة ذات بساتين وأشجار وبنيان عظيم، وكان بها سور كبير منيع لم يبق منه شيء، وتقع هذه المدينة في منخفض من الأرض، للمزيد راجع: الإدريسي(أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس السبتي الحسني الإدريسي ت ٥٥٩هـ/ ١١٦٦م): المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة ليدن، بريل، ١٨٦٣م، صـ ١٤٩، الحموي: معجم البلدان، جـ٤، صـ٢٨٦.

(*) اللاهون: تُنسب هذه المدينة إلى وادي كبير بناه يوسف الصديق عند الفيوم؛ لرد المياه عن المدينة، اسمها القديم هو Lehone وهي كلمة مصرية قديمة معناها الحجز، يقع هذا الوادي على نهر =

لترصد أخبار المسلمين[(١)].

ومن المؤكد أن فتح الفيوم لم يحدث خلال تلك الفترة لأن ابن عبد الحكم يشير إلى فتحها مرة أخرى بعد سيطرة عمرو بن العاص على الإسكندرية، واستطاع الجيش الإسلامي وقتها السيطرة بشكل كامل على الإقليم على يد أحد قواده وهو الصحابي الجليل عمرو بن ربيعة بن حبيش[(*)(٢)]، في حين يذكر البلاذري[(٣)] أن فتح الفيوم وما بعدها من القرى تم بيد الصحابي الجليل خارجة بن حذافة العدوي[(*)]، ومهما يكن فقد انطلقت جرائد الخيل الإسلامي للسيطرة على

= يخترق الفيوم يُسمى بنفس الاسم ويُقال أن يوسف الصديق بناه من الحجارة والكلس واللبن والصدف، وتُنسب إليه مدينة بصعيد مصر في الفيوم بنفس الاسم(اللاهون)، للمزيد راجع: الإدريسي: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، صـ ١٤٧، الحموي: معجم البلدان، جـ ٥، صـ ٩، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ ٩٧.

(١) ألفريد بتلر: فتح العرب لمصر، تعريب: محمد فريد أبو حديد، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م، صـ ٢٥٣.

(*)عمرو بن ربيعة بن حبيش: هو الصحابي الجليل عمرو بن حبيش بن عرفطة الصدفي، كان من أكبر قواد عمرو بن العاص في فتوحات مصر، ينسب إليه المؤرخون فتح الفيوم عندما سار باحثًا عن قيس بن الحارث فوجد سواداً عظيماً؛ فقام بمهاجمة أهل المنطقة فلم يجد منهم رداً وسلموا أنفسهم؛ فدخل عمرو المدينة فاتحًا، راجع: ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، صـ ١١٥، النويري(أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ ١٩، دار الكتب والوثائق القومية، ط١، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، صـ ٣٢٩.

(٢) فتوح مصر، صـ ١١٥.

(٣) البلاذري(أبو العباس أحمد بن يحيي بن جابر البلاذري ت ٢٧٩هـ، ٨٨٦م): فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للنشر، (د.ط)، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، صـ ٣٠٤.

(*) خارجة بن حذافة العدوي: هو خارجة بن حذافة بن غانم بن عبد الله بن عوف، أحد رواة الحديث عن النبي (ص) وروى عنه العديد من الأحاديث، كان ممن دخل مصر مع عمرو ابن العاص واستقر بها حتى مات، يذكر ابن حبان تاريخ وفاته بعام ٤٠هـ/ ٦٦٠م، راجع، ابن حبان(محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م): الثقات، جـ٣، دار =

القيس[1]- وستتحدث عنها بالتفصيل- في الوقت الذي يذكر فيه بتلر أن الخطوة التالية كانت فتح إقليم البهنسا والتي شهدت مرحلة كر وفر بين الجيش الإسلامي والجيش الروماني[2]؛ حتى استطاع المسلمون السيطرة عليها، وستتحدث في بعض النقاط الخاصة بها فيما يتعلق بمنطقة القيس في حينها.

ثانيًا: الوصف الجغرافي للقيس وتاريخها قبل الفتح:

القيس منطقة قديمة الوجود والعمران منذ العصور التاريخية القديمة، يذكرها الإدريسي[3] قائلًا: " **وأما مدينة القيس التي على ضفة النيل وبغربيه فهي مدينة قديمة حسنة البناء جميلة الجهات"، وبينها وبين دهروط[*] في جهة الشمال نحو ثماني عشر ميلًا، ومن مدينة القيس إلى منية ابن الخصيب[*] مقدار نصف يوم"**، وهي أقرب

= المعارف العثمانية، الهند، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م، صـ ١١، الطبراني(سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ت ٣٦٠هـ/ ٩٧١م): المعجم الكبير، جـ٤، مكتبة ابن تيمية، ط٢، القاهرة، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، صـ ٢٠٠.

(١) البلاذري(أبو العباس أحمد بن يحيي بن جابر البلاذري ت ٢٧٩هـ، ٨٨٦م): فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للنشر، (د،ط)، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٢) فتح العرب لمصر، صـ ٢٥٤.

(٣) الإدريسي المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس صـ ٤٨.

(*) دَهْروط: قرية من القرى المصرية القديمة تقع بين القيس وتونس، وهي على الشاطئ الغربي من النيل ويفصل بينها وبين القيس حوالي ٢٠ ميلًا، يعتبرها ابن مماتي من أعمال البهنسا، تُسمى حاليًا باسم دهروط البكرية وذلك من عام ١٢٧٥هـ/ ١٨٤١م، راجع: الإدريسي: المغرب وأرض السودان..، صـ ١٤٨، ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ ١٣٩، الحموي: معجم البلدان، جـ٢، صـ ٤٧٢، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ ٢٤٧.

(*) مُنْية ابن الخُصيب: مدينة كبيرة عامرة حسنة كثيرة الأهل والسكن، ذكرها الإدريسي والحموي، يصفها الإدريسي بأنها أرض جنات وأراض متصلة العمران بها قصب السكر والأعناب الكثيرة والمبان الحسان، يقول الحموي أن أبا اللمطي أحد رؤساء تلك النواحي بنى فيها مسجدًا حسنًا، بينها وبين الأشمونين مسافة نصف يوم، وهي اليوم مركز المنيا، راجع: الإدريسي: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، صـ ٤٨، الحموي: معجم البلدان، جـ ٥، صـ ٢١٨.

المواقع للبهنسا حتى اعتبرها البعض وحدة واحدة فيقول المقريزي[١]: **"اعلم أن القيس من البلاد التي تجاور مدينة البهنسا، وكان يُقال القيس والبهنسا"**، وهنا يجب أن نحدد الوصف الجغرافي الدقيق للقيس؛ هل كانت قرية أم مدينة أم كورة أم إقليم؟ لأن هذا التحديد سيساعد بشكل مهم في فهم وتحليل بعض النقاط الخاصة بالقيس، والبداية مع ابن خرداذبه ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م الذي يصف القيس قائلًا: **"ومن كور مصر كورة منف[*]، وكورة وسيم[*]، وكورة القيس،،"** [٢] ثم اليعقوبي ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م الذي نقل تقريبًا عن ابن خرداذبه ويذكرها كإحدى كور الصعيد التي تعود إلى فترة ما قبل الفتح الإسلامي أي: الفترة القبطية فيورد قائلًا: **" وكانت مملكة القبط أرض مصر من كور الصعيد: منف، ووسيم، والقيس، والبهنسا...،** [٣].

وفي منتصف القرن الـ٤هـ/ ١٠م يصف ابن الفقيه ت ٣٤٠هـ/٩٥١م القيس بأنها كورة من كور مصر الكبرى مثل نظيراتها من كور منف والبهنسا والأشمونين[*] وغيرها[٤]، ثم يأتي ابن حوقل ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م الذي يذكر

---

(١) الخطط المقريزية، جـ١، صـ٥٧٢.

(*) منف: من أقدم المدن في مصر، يُقال أن من بناها هو مصر بن بيصر بن حام بن نوح، تقع على بعد ١٢ ميل من الفسطاط في الجنوب من القرية المعروفة الآن بالبدرشين، يذكر الإدريسي أنها خُربت لفترة كبيرة، وتقع بالقرب من عين شمس حاليًا، انظر: الإدريسي: المغرب وأرض السودان، صـ١٤٥.

(*)وَسِيْم: تنطق أيضًا أوسيم، بلدة من أعمال منطقة الجيزة المعروفة الآن، تقع بالقرب من الفسطاط على الضفة الغربية من النيل، راجع: الحموي: معجم البلدان، جـ٥، صـ٣٧٧.

(٢) أَبُو القَاسِم عُبَيد الله بِن عَبد الله اِبن خُرْداذَبِه: المسالك والممالك، مطبعة ليدن، بريل، ١٨٨٩م، صـ٨١.

(٣) أحمد بن أبي يعقوب بم جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مجـ١، دار صادر، طـ٦، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، صـ١٨٩.

(*)الأشمونين: ويُقال لها أيضا أشمون، سُميت بهذا الاسم نسبة إلى عامرها وهو أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح، وهي مدينة قديمة أزلية عامرة بالسكان حتى الآن، وهي كورة كبيرة لها من النواحي الكثير وهي ضمن كور الصعيد الأدنى، لها من البساتين والنخل الكثير، يُنسب إليها جماعة من أهل العلم مثل أبى إسماعيل ضمام بن إسماعيل بن مالك الأشموني ت بالإسكندرية عام ١٨٥هـ/٨٠١م، للمزيد راجع: الحموي: معجم البلدان، جـ١، صـ٢٠٠.

(٤) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحق الهمذاني المعروف بابن الفقيه: البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب للطبع والنشر، طـ١، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، صـ١٢٧.

القيس من جملة القرى التي تقع على الجانب الغربي من النيل فيقول:" **وعلى جانب النيل المقابل: قرية، اتفو(*)، إسنا(*)،...، القيس، وسمسطا(*)...،**"، في حين يعتبر البهنسا مدينة من مدن نفس الجهات(١)، ومن بعده يصف المقدسي البشاري ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م منطقة القيس بأنها مدينة من مدن الصعيد الكبرى فيقول: " **وأما الصعيد فقصبتها أسوان(*)، ومن مدنها:**

(*) أُتْفُو: أو أُدْفو، اسم قرية بصعيد مصر الأعلى، بين أسوان وقوص، وهي كثيرة النخل، يقول عنها الحميري: " بها تمر لا يقدر أحد على أكله حتى يدقّ في الهاون كالسكّر، ويذرّ على العصائد، منها أبو بكر محمد بن علي الأدفوي، الأديب المقري صاحب النحّاس، له كتاب في تفسير القرآن المجيد في خمسة مجلدات كبار، وله غير ذلك من كتب الأدب"، راجع: معجم البلدان، جـ١، صـ١٢٦.

(*) إِسْنَا: مدينة بأقصى الصعيد، وليس وراءها إلا أدفو وأسوان ثم بلاد النوبة، وهي على شاطئ النيل من الجانب الغربي، وهي مدينة عامرة طيبة كثيرة النخل والبساتين والتجارة، وقد نسب إليها قوم مثل القاضي أبي الحسن عليّ بن النضر الاسنائي قاضي الصعيد الذي لم يُعرف أفضل منه ولا آدب منه ولا أكثر احتمالا، وكان يحفظ كتاب الله، وقرأ القراءات، وسمع الصحاح كلها، ويحفظ كتاب سيبويه، وقرأ علوم الأوائل وكتاب أوقليدس وله شعر وترسل، توفي بمصر سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م، راجع: الحموي: معجم البلدان، جـ١، صـ١٨٩.

(*) سُمُسْطَا: قرية بالصعيد الأدنى من البهنسا على غربي النيل، ينسب إليها الحزم السمسطية، ينسب إليها أبو الحسين أحمد بن سرور بن سليمان بن عليّ بن الرشيد الكاتب السّمسطاوي ت ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، وأيضًا أبو بكر عتيق بن عليّ بن مكي السمسطاوي البندي ت ٥٠٤هـ/ ١١١٠م، وصفها الإدريسي بضياع سمسطا، بها العديد من القصور بعيدة عن النيل، وهي ضياع عامرة بالناس يعملون فيها بزراعة قصب السكر ويصنع بها السكر ما يكفي أهل مصر على حد وصفه، راجع الإدريسي: المغرب وأرض السودان...، صـ ٥١، الحموي: معجم البلدان، جـ٣، صـ ٢٥٠.

(١) أبو القاسم محمد بن علي النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، (د،ط)، بيروت، لبنان، (د،ت)، صـ ١٢٧.

(*) أُسْوَانُ: وهي مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه، كثيرة الحنطة وسائر أنواع الحبوب والفواكه والدلاع وسائر البقول،وبها اللحوم الكثيرة من البقر والحملان والمعز والخرفان وغيرها من صنوف اللحوم العجيبة البالغة في الطيب والسمن وأسعارها مع الأيام رخيصة، وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة، راجع: الإدريسي: أرض المغرب والسودان...، صـ٢١، الحموي: معجم البلدان، جـ١، صـ١٩٢.

قـوص(*)، **إخـميم** (*)، **بهنسا، وقيس**"(١)، ثم يدون مؤرخ مصر الإسلامية عز الملك المُسَبِّحي ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م أن القيس في تلك الفترة التي عاصرها كانت كورة من كور الصعيد عندما تولى أبو القاسم المرتجى(*) الإشراف على كور القيس والبهنسا وأهناسيا (*)،وذلك في عام ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م وقُدر له راتب كل شهر حوالي مائتي دينار ورقًا(٢)، وبالبحث عن العلاقة بين المسبحي نفسه والقيس، وجدنا في ترجمة ابن خلكان لعز الملك المسبحي أنه تولى حكم القيس والبهنسا في

(*)قُوصُ: مدينة كبيرة عظيمة واسعة في صعيد مصر، المسافة بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوما، وأهلها أرباب ثروة واسعة، وهي محطّ التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة، وهي شديدة الحرّ؛ لقربها من البلاد الجنوبية، وهي شرقي النيل، بها منبر وأسواق جامعة وشرب أهلها من ماء النيل ولها بقول طيبة وضروب من الحبوب كثيرة ممكنة ولحوم كثيرة الدهن طيبة المأكل راجع: الإدريسي: المغرب وأرض السودان..، صـ ٤٩، الحموي: معجم البلدان، جـ ٤، صـ٤١٣.

(*)إِخْميم: بلد قديم على شاطئ النيل في صعيد مصر، يقع في غربيه جبل صغير، تتميز هذه المدينة بالكثير من عجائب البنيان والعمران ويُقال أنها بُنيت منذ قديم الأزل، ويُنسب إليها العديد من الزهاد والمتصوفة مثل: ذو النون بن إبراهيم الإخميمي المصري ت ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م، للمزيد راجع: الحموي: معجم البلدان، جـ١، صـ ١٢٤.

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المَقْدِسِيّ: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي للنشر، ط٣، القاهرة، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، صـ ١٩٥.

(*) لم نقف له على ترجمة.

(*)أَهْناس: اسم كورة في الصعيد الأدنى يقال لقصبتها أهناس المدينة، وأضيفت نواحيها إلى كورة البهنسا، وأهناس هذه قديمة أزليّة وقد خرب أكثرها، وهي على غربي النيل ليست ببعيدة عن الفسطاط، وهي مدينة متحضرة كثيرة الأهل واسعة الخيرات جامعة للبركات نامية الزراعات وكل شيء من المأكول بها كثير رخيص ومتاجرها نافقة وأسواقها مربحة حسب وصف الإدريسي، أنظر: الإدريسي المغرب وأرض السودان..، صـ ٥١، الحموي: معجم البلدان، جـ١، صـ ٢٨٤.

(٢) عزُّ الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز المُسَبِّحي: أخبار مصر في سنتين ٤١٤هـ/ ٤١٥هـ، تحقيق: وليم ج. ميلورد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م، صـ١٧٣.

عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله(٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦- ١٠٢١م) وكانت تربطه مع الحاكم بأمر الله علاقة طيبة حيث ظل في ولايته علي القيس حتى انتقل إلى وظيفة أخرى[١].

وفي بدايات القرن ٧هـ/١٣م يعتبر ابن مماتي ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م القيس من ضمن أعمال كورة البهنساوية مع نظيراتها من المدن مثل أهناسيا وأشمنت[*] والفشن[*] وغيرهما من المدن الكبرى[٢]، أما في النصف الثاني من نفس القرن يدونها الإدريسي كمدينة كما ذكرنا سابقًا[٣]، ثم يؤكد ياقوت الحموي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م على ما جاء به اليعقوبي والمسبحي وغيرهما بأن القيس كورة من كور مصر تعرضت إلى التخريب في زمانه تقع في غرب النيل بعد الجيزة جنوبًا[٤]، وفي موضع آخر يذكر الحموي عنها قائلًا: " **قيس كورة بمصر وتعطلت** "[٥]، وفي أوائل القرن الـ٩ هـ/ ١٥م يصنف ابن دقماق ت ٨٠٩هـ/١٤٠٧م كور الوجه القبلي وعددهم – حسب عصره – اثنان وعشرون كورة أولهم هي كورة أوسيم مرورًا

---

(١) ابن خلكان(أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م): وفيات الأعيان، جـ ٤، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٧١م، صـ ٣٧٧.

(*)إِشْمِنْت: قرية بالصعيد الأدنى غربي النيل، وقيل: إنها إشنمت، راجع: الحموي: معجم البلدان، جـ١، صـ٢٠٠.

(*)الفَشْنُ: قاعدة مركز الفشن، وهي من القرى القديمة، اعتبرها العديد من الجغرافيين ضمن أعمال البهنساوية، اسمها القديم فنشي بتقديم النون على الشين، والظاهر أنها حُرفت حديثًا إلى الفشن، راجع: الحموي: معجم البلدان، جـ٤، صـ٢٧٦، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق٢، ج٣، صـ١٨٨.

(٢) أبو المكارم الأسعد شهاب الدين بن زكريا بن مماتي: قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية (دكتور)، مكتبة مدبولي للنشر، ط١، القاهرة، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، صـ ١٠٤.

(٣) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، صـ ٤٨.

(٤) الحموي، معجم البلدان، جـ ٤، صـ ٤٢٢.

(٥) الحموي: المشترك وضعًا والمفترق صنعًا، عالم الكتب للطباعة، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، صـ ٣٦٥.

بكورة القيس وكورة البهنسا وآخرهم كورة أسوان[١]، وامتدادًا إلى القرن٩ هـ/ ١٥ م يذكر القلقشندي ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م أن القيس كانت مدينة في العصر القديم ثم أصبحت كورة وظلت بشكلها القائم حتى دخلت في تحت أعمال البهنسا[٢] وفي نهاية نفس القرن، يدّون الحميري ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م ترجمة مختصرة نقل أغلبها عمن سبقوه من الجغرافيين بأنها مدينة قديمة تقع في صعيد مصر على الضفة الغربية للنيل[٣]، ونختم بابن إياس ت ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م الذي يصف القيس بأنها قرية نزلها قيس بن الحارث عند دخوله للصعيد[٤].

أما حديثًا فالقيس هي قرية موجودة بنفس الاسم تابعة لمركز بني مزار في الجانب الغربي منه بمحافظة المنيا، وعلى بعد ألف وثمانمائة متر من المركز، ويفصل بينها وبين البهنسا التي تقع بالغرب منها مسافة نحو عشرة آلاف متر[٥]، وأما مساحتها فلم نعثر في المصادر المتاحة لدينا سوى تدوين يعود للقرن الـ ٩هـ/١٧م ذكره ابن دقماق ويصفها قائلًا: **"القيس وكفورها، عبرتها- أي مؤونتها- خمسة عشر ألف دينار ومائة وخمسون دينارًا، ومساحتها ألفان وثمانمائة واثنان وأربعون فدانًا"**[٦]، ومنه إلى ما دونه ابن الجيعان

---

[١] صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر بن دقماق القاهري: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق ١، المركز التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (د،ط)، بيروت، لبنان، ١٣٠٩هـ، ١٨٩٣م، صـ١٢٨.

[٢] شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ ٣، المطبعة الأميرية للطبع، (د،ط)، القاهرة، صـ ٣٨١.

[٣] محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النور، أبو عبد الله: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس(دكتور)، مكتبة لبنان للنشر،(د،ط)، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م، صـ٤٨٨.

[٤] محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١، ق١، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، صـ٢٢.

[٥] علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، جـ ١٤، مطبعة بولاق، ط١، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ١٨٨٨م، صـ١٤٢.

[٦] الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق ٢، صـ ٤.

ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م الذي زاد على مؤونتها حوالي خمسين دينارًا فأصبحت حوالي ١٥٢٠٠ دينار[١]، أما خراجها فقد بلغ في القرن ٣هـ/ ٩م حوالي خمسة عشر ألف دينار حسب ما نقله ياقوت عن المدائني[٢].

	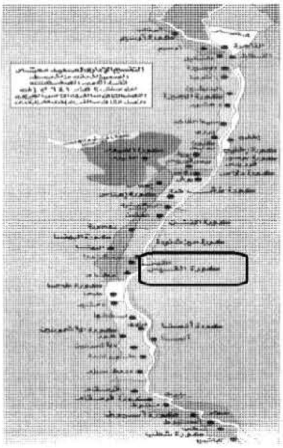	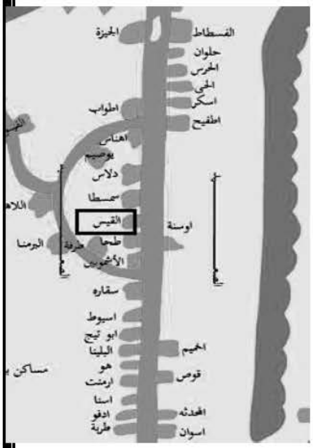
القيس في العصر اليوناني الروماني[٣]	**التقسيم الإداري لمصر عند الفتح وتظهر كورة القيس من ضمنه[٤].**	**القيس عند ابن حوقل[٥]**

---

(١) شرف الدين يحيي بن شاكر بن عبد الغني بن شاكر بن ماجد أبو زكريا: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية المسماة بتحفة الإرشاد، مطبوعات الكتبخانة الخديوية، المطبعة الأهلية، القاهرة، ١٨٩٨م، صـ١٦٢.

(٢) الحموي: معجم البلدان، جـ٤، صـ٤٢٢.

(٣) برديات قرة بن شريك العبسي ت ٩٦هـ/ ٧١٤م: تحقيق: جاسر بن خليل سالم (دكتور)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، الرياض، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، صـ٣٩٠.

(٤) المصدر نفسه، صـ٣٨٢.

(٥) إيمان عيد عبد الحميد: الكارتوجرافيا العربية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، دراسة في الجغرافيا التاريخية، مجلة المجمع العلمي المصري، مجـ٩٣، ٢٠١٨م، صـ١٤٩.

ولتوضيح المراد بهذا السرد الجغرافي وأهمية تحديد ماهية القيس يجب الاعتماد على ما قام به المقدسي البشاري من تصنيف الأشكال الجغرافية على شكل عنقودي (الإقليم- القصبة -الكورة – المدينة – القرية) (١)؛ فالإقليم هو المساحة الأكبر جغرافيا بعد الدولة والإمارة، وهو ما نستبعده -ومعه القصبة- حينما نصف القيس ولا يدلل عليهما أي مصدر جغرافي، أما الكورة المكونة مع غيرها من الكور لتكون إقليما، فمن المنطقي أن تكون القيس كورة كاملة قائمة بذاتها وهو ما دللت عليه أغلب المصادر الجغرافية والتاريخية السابقة وتعضده بعض الخرائط الخاصة بجغرافي العالم الإسلامي على مر العصور، وتأتي المدينة كاحتمال قائم وصفه بعض جغرافي العالم الإسلامي، وأخيرًا يمكن استبعاد وصف القيس بالقرية لأسباب نذكرها لاحقًا.

التقسيم الجغرافي للإقليم عند المقدسي البشاري(٢)

ولإثبات جدية هذا الوصف الدقيق للقيس؛ فإن السرد التاريخي للقيس وأحوالها قبل الفترة الإسلامية يساعد في التأكيد على هذا الوصف؛ فيعود تاريخ القيس إلى مصر القديمة حيث كانت عاصمة الإقليم السابع عشر من أقاليم مصر

---

(١) إبراهيم أحمد سعيد(دكتور): إسهامات المقدسي في الجغرافيا والدراسات الإقليمية، مجلة دراسات تاريخية، العددان ١١٧، ١١٨، ٢٠١٢م، صـ١٤٩.

(٢) المصدر نفسه.

العليا الذي كان يُعرف بإقليم ابن آوي الذي كان معبود المدينة[١]، ثم عرفت في النصوص اليونانية والرومانية باسم كينوبوليس Cynopolis [*]، وكانت مركز عبادة الإله أنوبيس بجانب عبادة أخرى عُرفت بعبادة الكلاب، وكانت على الجهة المقابلة من مدينة أوكسيرنيخوس Oxyrhynchus وهي البهنسا[٢]، أما في العصر البيزنطي فقد عرفت في جميع مصادره باسم Kaic أو Kouis أو Keis، فقد ورد في تاريخ القديس بولس أنه كان هناك أسقف للقيس بمسماها الواضح حينما قال له": **أنا إسمي بولس، من ناحية طما بناحية القيس"،** وورد في سيرة الشهيد إبيمي أن الحاكم روكليانوس صار حاكمًا لثلاث مدن: مدينة جنس (إهناسيا)، ومدينة بجيمي (البهنسا)، ومدينة القيس "[٣].

إذن نخرج من هذا السرد بنتائج هامة، أولها: أن القيس هي منطقة قديمة جدًا وليست حديثة وهو إثبات لما قالته المصادر الجغرافية العربية الإسلامية،

---

(١) عبد الحليم نور الدين(دكتور): مواقع الآثار المصرية القديمة،جـ٢، مصر العليا، الخليج العربي للطباعة والنشر، (د،ط)، القاهرة، ٢٠٠٩م، صـ ٧٠، محمد أحمد عبد اللطيف(دكتور): المدن والقرى المصرية في البرديات العربية، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ٢٠١٢م، صـ١٦٤.

(*)هناك بعض الكتابات الأخرى التي تقول أن Cynopolis كانت هي منطقة الشيخ فضل التابعة لإقليم المنيا وليست القيس وقد انتشرت بها نفس عبادة القيس وهو عبادة الكلاب، وقد وقع خلاف بسبب هذه العبادة بين أهل كينوبوليس وبين أهل اكسرنيخوس أهل البهنسا؛ بسبب تهكم أهل كينوبوليس بديانة أهل أكسرنيخوس، إلا أننا نحتمل أن كينوبوليس كانت تعني القيس نسبة لقربها إلى البهنسا عنها إلى الشيخ فضل، راجع: زبيدة عطا(دكتورة): إقليم المنيا في العصر البيزنطي في ضوء أوراق البردي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م، صـ٢٠.

(٢) سترابون: الجغرافيا في سبعة عشر كتاب، جـ٢، ترجمة: حسان ميخائيل إسحق(دكتور)، مؤسسة رسلان للنشر، ط١، سوريا، دمشق، ٢٠١٧م، صـ ٣٧٦، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق٢، ج٣، صـ٢١٤.

(٣) أميلينو: جغرافية مصر في العصر القبطي، ترجمة: ميخائيل مكسي إسكندر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢م، صـ ٢٩٥، ٢٩٦، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ٢١٤.

ثانيها: أنها كانت جزءًا من إقليم كبير عُرف في جميع مراحل التاريخ قبل الإسلامي بإقليم مصر العليا أو إقليم الصعيد، وهذا الوصف الذي عُرف فيما بعد بالكورة أي التقسيم الأول بعد الإقليم كما ذكرنا آنفًا، ثالثًها أن هذه المنطقة قد عُرفت بنفس الاسم بعد الفتح الإسلامي، وهي قضية أخرى تحتاج إلى تحليل حينما نتطرق للفتح العربي الإسلامي للمدينة والفترة التي تليها في المبحث التالي.

قيس بن الحارث والفتح العربي الإسلامي للقيس:

توقفنا عند ذكر الفتح الإسلامي للصعيد عند فتح القيس والبهنسا، وتكاد تتفق المصادر العربية الإسلامية أن فاتح القيس هو الصحابي الجليل قيس بن الحارث المرادي، فيذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص قد بعث قيسًا إلى الصعيد؛ فسار الأخير حتى وصل إلى القيس فنزل بها، وبه سُميت القيس[1]، ولنا هنا وقفة! هل سُميت القيس بالفعل نسبة إلى قيس بن الحارث؟ يميل الباحث إلى إنكار هذا الرأي رغم اتفاق أغلب المصادر الإسلامية عليه، وللرد عليها يجب التطرق إلى سيرة قيس بن الحارث نفسه فاتح كورة القيس.

هو قيس بن الحارث المرادي الكعبي، يعود نسبه إلى قيس عيلان بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان[2]، كان مستقرًا باليمن قبل أن يتنقل إلى المدينة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، درس الفقه حتى صار من فقهاء زمانه، وظل على حاله حتى صاحب عمرو بن العاص في حملته لفتح مصر[3]، وقد اتفق أغلب مؤرخي مصر الإسلامية أن قيسًا قد شهد فتح مصر، وآخرهم ابن حجر العسقلاني الذي

---

(١) فتوح مصر وأخبارها، صـ ١١٥.

(٢) السمعاني(أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م): الأنساب، مطبعة دار المعارف العثمانية، ط١، الهند، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م، صـ ٥٤١.

(٣) ابن يونس المصري(أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري ت ٣٤٨هـ/ ٩٥٨م): تاريخ ابن يونس الصدفي، ق ١، تاريخ المصريين، تحقيق: عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح(دكتور)، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، صـ ٤٠١.

يورد قائلًا: " **وقدم مع عمرو بن العاص فشهد فتح مصر**"[١]، ولكن رغم هذه الشهادة في حق قيس بن الحارث إلا أن حياته وسيرته غير معروفة بشكل كامل ولا حتى تاريخ ميلاده أو وفاته، وكل ما ارتبط به هو فتحه للقيس في صعيد مصر أثناء الفتح العربي الإسلامي لها.

أما عن تفاصيل رواية فتح القيس، فأول من يذكر هذه الرواية هو ابن عبد الحكم ويقول فيها: "**بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث إلى الصعيد، فسار حتى القيس فنزل بها، وبه سُميت القيس، فراث- وهي بمعنى أبطأ- على عمرو خبره، فقال ربيعة بن حبيش: كُفيت فركب فرسه فأجاز البحر- وكانت أنثى- فأتاه بالخبر.** "[٢]، ويزيد عنه ابن يونس فيقول: " **وهو الذي فتح القرية بصعيد مصر المعروفة بـ " القَيْس" فنسبت إليه**"[٣]، ويؤكد ياقوت ذلك فيقول: " **سُميت قيسًا لأن فتحها كان على يد قيس ابن الحارث المرادي فُسميت به** "[٤]، ويوافق هذه الرواية وينقل عنهم السمعاني[٥]، والدمشقي [٦]، والمقريزي[٧]، والسيوطي ت٩١١هـ/١٥٠٥م[٨]، وجميع هذه النصوص بالتأكيد قد نقلت عن ابن عبد الحكم، ومدلول النص يؤكد أن قيس بن الحارث كان منوطا به فتح الصعيد بشكل عام وليس القيس بشكل خاص، ولكن هل

---

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م: الإصابة في تمييز الصحابة، جـ٥، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، على ناصر معوض، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، صـ٣٩٩.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، صـ١١٥.

(٣) تاريخ ابن يونس الصدفي، صـ٤٠٢.

(٤) معجم البلدان، جـ٤، صـ٤٢٢.

(٥) الأنساب، صـ٥٤١.

(٦) شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي الدمشقي ت ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م: توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، جـ٧، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م، صـ٢٦٠.

(٧) الخطط، جـ١، صـ٥٧٢.

(٨) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جـ١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م، صـ١٤٣.

فتح قيس بن الحارث أماكن أخرى غير القيس؟، وهذا أمر يجب التطرق إليه لتحليل نقطة مهمة مرتبطة بمسمى القيس، وارتباط هذا الاسم بقيس بن الحارث.

بالبحث في كل المصادر السابقة لم نجد أية إشارة لفتوحات أخرى لقيس ابن الحارث المرادي باستثناء المخطوط المهم الذي يقع تحت عنوان " **فتوح البهنسا الغراء وما وقع فيها من العجائب والغرائب وما وقع للصحابة فيها رضوان الله عليهم أجمعين**"(*)، وُينسب هذا المخطوط إلى أكثر من مؤلف ومنهم الواقدي ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م، البكري ت ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، والمقري ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م، وقد استبعد المحقق نسبة الكتاب إلى الواقدي لاعتبارات عدة لا مجال للحديث عنها(١)، وفي هذا الكتاب نجد إشارات عدة لشخصية قيس بن الحارث المرادي في فتوحات الصعيد بشكل عام نوردها كالتالي:

أول إشارة لقيس بن الحارث تأتي في فتح المسلمين لمنطقة مرج دهشور(*) والمعركة الواقعة بين المسلمين والروم، وما لاقاه المسلمون من صعوبات عدة في هذه الحرب بقيادة عمرو بن العاص؛ حيث استطاع قيس بن الحارث ومعه غانم بن عياض(*) وخمسائة من الرجال أن يثبوا على جنود الرومان في مرج دهشور

(*) نُشر هذا المخطوط بتحقيق: عمرو منير، تحت عنوان" فتوح البهنسا الغراء، قصة البهنسا".

(١) فتوح البهنسا الغراء، قصة البهنسا، دراسة وتحقيق: عمرو عبد العزيز منير(دكتور)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، القاهرة، ٢٠١٢م، صـ(٢٧- ٤٠).

(*) دهْشُور: وهي قرية بقبلي الجيزة من مصر، المسافة بينها وبين الجيزة حوالي ٣ أميال، يذكر الإدريسي أن في دهشور سُجن النبي يوسف أثناء مُقامه في مصر، هذا ويُنسب إليها عدة أئمة منهم أبو الليث عبد الله بن محمد بن الحجاج بن عبد الله ابن مهاجر الرعينيّ الدهشورى ت ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م، راجع: الإدريسي: المغرب وأرض السودان..، صـ ١٤٦، السمعاني: الأنساب، جـ٥، صـ٤٢٣.

(*)غانم بن عياض الأشعري: الصحابي الجليل حفيد أبي موسى الأشعري، كان له جهود كبيرة في الفتوحات الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب وخاصة في مصر، فيذكر الواقدي بسالته أثناء الحرب بين المسلمين والرومان في فتوح البهنسا، راجع: الواقدي (محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي الواقدي ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م): فتوح الشام، جـ٢، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، صـ٢٣٦.

ويقتلوهم ويفنوهم عن آخرهم كما ذكر المؤلف قائلًا: " **فتواثبوا إليهم كالأسود الضارية وحملوا معه حملة واحد بنية صادقة وثبات قلب، فلما رأي الرومان ذلك ولوا منهزمين، وقتل منهم مقتلة عظيمة**" (١)، وبعد انتصار المسلمين على الرومان في معركة مرج دهشور وقبل رجوع عمرو بن العاص إلى الفسطاط استشار أصحابه إلى أي جهة يقصدون فاتفق رأيهم على المضي قدمًا نحو وسط البلاد، فأمَّرَ عليهم عمرو قائده قيس بن الحارث المرادي ومعه القعقاع بن عمرو التميمي(*) وعقبة بن عامر الجهني(*)؛فيسيرون وسط البلاد فمن أطاعهم وطلب الأمان صالحوه وأمنوه ووضعوا عليه الجزية، ومن أبى قاتلوه، ومن أسلم تركوه(٢).

---

(١) فتوح البهنسا الغراء، صـ١٩٨.

(*) القعقاع بن عمرو التميمي: هو القعقاع بن عمرو بن مالك بن سويد بن تميم، يُنسب إلى بني غطفان، كان من أشجع النَّاس، وأعظمهم بلاء، وشهد مَعَ عليّ الجمل وغيرها من حروبه، وأرسله عليّ رَضِي اللَّه عَنْهُ إِلَى طلحة والزبير؛ فكلمهما بكلام حسن تقارب النَّاس بِهِ إِلَى الصلح، وسكن الكوفة، وهو الَّذِي قَالَ فِيهِ أَبُو بَكْر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: صوت القعقاع فِي الجيش خير من ألف رَجُل، وأحد فرسان المسلمين وشعرائهم، شهد فتح دمشق، وأكثر فتوح العراق. له بلاء حسن في قتال الفرس بالقادسية، وله في ذلك أشعار مشهورة، توفي في عام ٤٠هـ/ ٦٦٠م، راجع: ابن الأثير(أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م): أسد الغابة في معرفة الصحابة، جـ٤، تحقيق: على محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، صـ ٣٩٠، العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، جـ٥، صـ٣٤٣.

(*)عقبة بن عامر بن عبس الجهني: من جهينة بن زيد بن سود بن أسلم ابن عمرو بن الحاف بن قضاعة، يكنى أبا حماد، سكن عقبة بن عامر مصر، وكان واليا عليها، وابتنى بها دارا، وتوفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان، رَوَى عَنْهُ من الصحابة جَابِر، وَابْن عباس، وأبو أمامه ومسلمة بن مخلّد، توفي ٥٨هـ/ ٦٧٨م، انظر: ابن عبد البر(أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٣، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل للنشر، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، صـ٧٣.

(٢) فتوح البهنسا الغراء، صـ٢٢١.

وحسب الرواية المدونة في قصة البهنسا، فقد وصى الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص بضرورة السيطرة على مدينتين مهمتين في الصعيد وهما أهناسيا والبهنسا حينما قال له في إحدى رسائله: **"وقد بلغني أن بمصر مدينتين إحداهما يُقال لها: أهناس، والثانية يُقال لها: البهنسا، إلا أن البهنسا أحسن وأمنع وأعظم"**(١)، وبناء على هذه النصيحة انقسمت قوات المسلمين بعد مرج دهشور إلى قسمين: أحدهما إلى أهناسيا، والأخرى إلى البهنسا، فكان قيس بن الحارث من ضمن الجيش المتوجه إلى البهنسا، وخلال الطريق إليها استطاع فتح بعض المناطق التي تقع في طريقه؛ فيذكر صاحب الكتاب أنه فتح ميدوم(*)، وجرزة(*)، وبرنشت(*) وما حولها، وصالح أهل تلك الأراضي على الصلح والجزية، وأقروا له بها(٢).

استمر قيس بن الحارث في طريقه لفتح الجنوب حتى فتح القرية المعروفة بـ "قمن"(*).

---

(١) فتوح البهنسا الغراء، صـ١٥٤.

(*) ميدوم: من القرى القديمة الأزلية، اسمها المصري Meratoum، كانت مركزًا لعبادة المعبود Sokaris، يعتبرها ابن مماتي من أعمال كورة البهنساوية، راجع/: ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ١٩١، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ١٣٣.

(*)جِرْزة: من القرى القديمة في مصر، عُرفت في القدم باسم Kerki، يذكرها الحموي باسم" زرزا" و أنها من بلاد الصعيد الأعلى يفصل بينها وبين الفسطاط يومان، وذكرها ابن مماتي ضمن أعمال الجيزية، راجع ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ١٤٤، الحموي: معجم البلدان، جـ٣، صـ١٣٦، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ٤٢.

(*) بَرْنَشْت: من القرى القديمة في مصر، يعود اسمها إلى الاسم القبطي لها Pinaraschet، ثم حرفت إلى برنشت لسهولة النطق، يعتبرها ابن مماتي ضمن أعمال كورة الجيزية، راجع: ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ١١٧، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ٤١.

(٢) فتوح البهنسا الغراء، صـ٢٣٥.

(*)قِمَن: قرية قديمة من قري صعيد مصر، اسمها القبطي Kemim، ثم حرفت إلى قمن، ومنذ عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م أضيف إليها اسم العروس، فأصبحت قمن العروس، يضمها ابن مماتي ضمن أعمال كورة البهنساوية، أكثر ما شهدته هذه القرية وقعة بين السري بن الحكم وسليمان بن غالب في سنة ٢٠١هـ/ ٨١٦م، ونسبوا إليها جماعة من أهل العلم، منهم: أبوالحسن يوسف بن عبد الأحد بن سفيان القمني ت ٣١٥/ ٩٢٧م، راجع: ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ١٧٠، الحموي: معجم البلدان، جـ ٤، صـ ٣٩٨، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ١٣٢.

ونزل بها إلى حين(١)، ثم انطلق منها لفتح ما حولها من البلاد؛ ففتح قرية بوش(*)، ثم فتح دلاص(*)، وفيها واجه قيس بن الحارث بعض الرجال الرومان، ولكنه استطاع السيطرة عليهم وهزيمتهم، ثم توجه إلى ببا الكبرى(*) ومعه غانم بن عياض، وقرر قيس أن ينتدب من أصحابه نحو خمسمائة رجل من أجل شن الغارة على دير معروف فيها باسم دير أبي جرج(*)، وقد استقر فيه بعض الرومان؛ فنجحت قواته في السيطرة عليه(٢)، ثم توجه قيس بن الحارث فدخل ببا وصالح

---

(١) فتوح البهنسا الغراء، صـ٢٣٦.

(*) بوش: قرية مصرية قديمة، عُرفت في العهد القبطي بأكثر من اسم، مثل Bus، Busim، pouschin، تقع على الجهة الغربية من النيل، في حين يعتبرها الحموي كورة ومدينة كبيرة من نواحي الصعيد الأدنى في غربي النيل بعيدة عن الشاطئ، نُسب إليها أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عبد الله البوشي، وذكرها ابن مماتي باسم بوش قرا من ضمن أعمال البهنساوية، راجع: ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ ١١٩، الحموي: معجم البلدان، جـ ١، صـ ٥٠٨، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ١٥٨.

(*) دَلاص: من القرى المصرية القديمة، اسمها القبطي هو Tylas وكانت تقع على النيل حتى سُميت في بعض الأوقات باسم Nilpolis أي مدينة النيل، ثم ابتعدت عن مجرى النيل نحو الشرق، اعتبرها ابن خرداذبه كورة مستقلة بذاتها من كور مصر، وكذلك أيضًا يعتبرها الحموي كورة بصعيد مصر على غربي النيل أخذت من البر تشتمل على قرى وولاية واسعة، يُنسب إليها أبو القاسم حسان بن غالب بن نجيح الدلاصي ت ٢٢٣هـ/ ٨٣٨م، راجع: ابن خرداذبه: المسالك والممالك، صـ ٨١، الحموي: معجم البلدان، جـ٢، صـ٤٥٩، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ١٥٩، ١٦٠.

(*) بَبَا الكبرى: قرية من القرى المصرية القديمة، وهي قاعدة مركز ببا الحالي، تقع على الغرب من النيل، يعتبرها ابن مماتي والحموي من ضمن أعمال كورة البهنسا، ظلت على اسمها القديم حتى عام ١٩٠٠م حينما تم حذف اسم الكبرى منها وظلت باسم ببا فقط، راجع: ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ ١١٩، الحموي: معجم البلدان، جـ١، صـ ٣٣٣، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤،صـ١٣٧.

(*) أبو جرج: يُنسب هذا الدير إلى قرية قديمة عُرفت بأبي جرج، اسمها القبطي هو Pegergi ومنها اشتق اللفظ العربي بوجرجا، يعتبرها ابن مماتي من ضمن كورة البهنساوية، راجع: ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ١١٩، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ٢٠٩.

(٢) فتوح البهنسا الغراء، صـ٢٣٧.

أهلها على الجزية، ثم انطلق منها إلى قرية تُعرف ببني صالح(*) وعندها وجد قيس وأصحابه جموع الرومان الكبيرة في الأفق، واشتدت الحرب بين الطرفين وعاش قيس وأصحابه أوقاتًا صعبة في تلك الموقعة استشهد فيها الكثير من رجاله حتى انتهت بانتصار المسلمين وهروب من تبقى من الرومان، وقد لحقهم المسلمون في الأرجاء المجاورة(١).

وبعد انتصاره الأخير استكمل قيس فتوحاته في الجنوب؛ فدخل مع رجاله قرية تُعرف بـ "طنبذا"(*)، ثم بلدة " أشنين"(*) التي كان يحكمها أحد البطارقة ويُدعى أولياص الذي عقد صلحًا مع قيس وتوافق على دفع الجزية لهم، وبعدها توجه قيس حتى نزل بالقيس(٢)، وهنا توجد تفاصيل أكثر مما ذكرة المؤرخون السابقون؛ فيذكر مؤلف الكتاب أن القيس كان تخضع لبطريق من بطارقة الرومان يُسمى شكر بن ميخائيل، وقد استعان الأخير في حماية القيس ببعض الجنود السودان؛ فاستصعب الأمر على قيس بن الحارث فظل محاصرًا لها حصارًا شديدًا

(*) بني صالح: قرية قديمة اسمها الأصلي هو بني مجنون، وسُميت بهذا الاسم نسبة إلى جماعة عرب من بني مجنون فخذ من بني كلاب استوطنوها فعُرفت بهم، تدخل ضمن أعمال الفيوم، ثم تغير اسمها إلى بني صالح نسبة إلى عمدتها في عام ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م علي بك صالح بعد شكوى من أهل القرية آنذاك، راجع: محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ٩٨.

(١)فتوح البهنسا الغراء، صـ(٢٣٩- ٢٤٢).

(*) طَنْبذا: من القرى المصرية القديمة في صعيد مصر، اسمها القبطي Tambet أو Tanpot، يقول عنها الحموي: " قرية من أعمال البهنسا من صعيد"، بينما يذكرها ابن مماتي باسم طمبدي ويعتبرها من ضمن أعمال كورة البهنسا، راجع: ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ ١٦٣، الحموي، معجم البلدان، جـ٤، صـ ٤٢، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ٢٤٩.

(*) إشنين: قرية بالصعيد إلى جنب طنبذى على غربي النيل، وتسمى هذه وطنبذى العروسين لحسنهما وخصبهما، وهما من كورة البهنسا، وتعرف اليوم باسم إشنين النصارى؛ لكثرتهم بها، يضمها ابن مماتي في كورة البهنساوية، راجع: ابن مماتي: قوانين الدواوين، صـ ١٠٤، الحموي: معجم البلدان، ١، صـ ٢٠٢، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، جـ٤، صـ٢٤٣.

(٢)فتوح البهنسا الغراء، صـ ٢٤٣.

حوالي شهرين[١]، وربما تباطؤ قيس بن الحارث في السيطرة على المكان هو ما دفع عمرو بن العاص لتقصي أخباره كما يذكر ابن عبد الحكم قائلًا: " **فراث على عمرو خبره**"[٢]، ويزيد صاحب كتاب الاستبصار فيقول: " **فأبطأ على عمرو خبره فقال من يأتنا بخبر قيس، فقال ربيعة بن حبيب أنا آتيك به**"[٣]، وبالمقارنة بين فتوحات قيس بن الحارث السابقة لم يُذكر أنه حاصر أي منطقة طوال هذه الفترة مثل القيس.

وبعد حصار دام شهرين، استطاع قيس بن الحارث ورجاله بحرق باب من أبواب القيس وفتحوها وكان ذلك بعد معركة عنيفة بين المسلمين والروم عُرفت بموقعة كوم الأنصار أو كوم النصارى, وانتهت بهزيمة الرومان في القيس, ومقتل البطريق شكر بن ميخائيل, والاستيلاء على كل مقدراته هو والرومان الذين معه؛وبذلك سيطر قيس على كل المناطق الواقعة من القيس إلى مطاي وسمالوط حسب قول المؤلف[٤]، أما ربيعة بن حبيب الذي أخذ على كاهله تتبع طريق قيس ابن الحارث؛ فيذكر ابن عبد الحكم أنه أتى بالخبر إلى عمرو بن العاص بأمر قيس وسيطرته على القيس ولم يفصل[٥]، ونجد هذه التفاصيل عند صاحب الاستبصار الذي يقول: " **فركب-أي ربيعة- فرسًا له أنثى فجاز بها النيل من الجهة الشرقية وكان معه عمرو بن ربيعة بن حبيب بن الصدفي -لا ندري هل هو ابنه أم لا- وأصحابهم، فمشوا فلما سلكوا في المجابة لم يروا شيئًا وهموا بالانصراف، ثم ساروا قليلًا فطلع لهم سواد الفيوم فطلبوا قيسًا فوجدوه في القيس، فأتوا عمرو بخبر**

---

(١) فتوح البهنسا الغراء، صـ٢٤٣.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، صـ١١٥.

(٣) مجهول ت ق ٦هـ/١٢م: الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد(دكتور)، دار الآفاق العربية، (د،ط)، بغداد، العراق، (د،ت)، صـ٩١.

(٤) فتوح البهنسا الغراء، صـ٢٤٤.

(٥) فتوح مصر وأخبارها، صـ١١٥.

الفيوم"[١]، ولعل الفترة التي قضاها هؤلاء لتقصي أخبار قيس كانت تزامن الفترة التي ظل قيس بن الحارث محاصرًا للقيس حتى استطاع فتحها والسيطرة عليها.

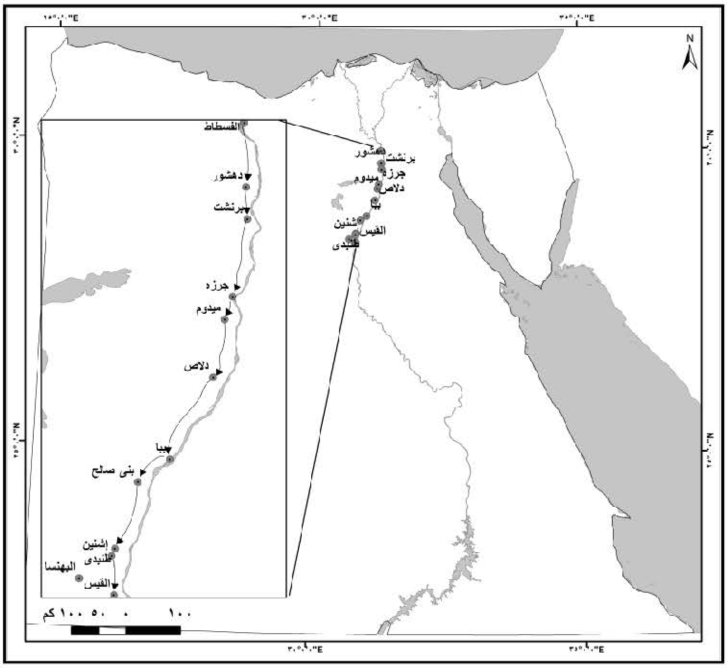

خط سير فتوحات قيس بن الحارث المرادي[٢]

ومن خلال هذا العرض التاريخي السابق يمكننا تحليل بعض النقاط التي لا يتفق رأي الباحث -في بعضها- مع ما جاءت به المصادر، **أولها**: من غير المنطقي أن يوكل لأحد الرجال أو القواد وهو متمثل هنا في قيس بن الحارث فتح منطقة واحدة كالقيس كما اقتصرت المصادر، بل بالتأكيد كان له أدوار مهمة في فتوحات أخرى كما أوردنا، وخاصة أن الطريق للقيس لم يكن في قبضة المسلمين بعد، **ثانيها**:

---

(١) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، صـ٩١.

(٢) من عمل الباحث اعتمادًا على السرد التاريخي المذكور، بمساعدة د/ صالح رجب(جغرافي).

بالتأكيد كان فتح القيس في مرحلة متأخرة من سيطرة المسلمين على شمال البلاد لذلك أولى الأمير عمرو بن العاص اهتمامه الكبير بتنظيم الجيوش المنطلقة لفتح الصعيد بشكل عام ومن ضمنه القيس، **ثالثها**: لا يمكن إهمال الدور المهم الذي قام به قيس بن الحارث في فتوحات الصعيد وهو الأمر الذي أهملته المصادر جميعها باستثناء فتحه للقيس، وهو ما يلقي الضوء على التشابه بين اسم القائد واسم المكان لذلك كانت هذه هي النقطة الوحيدة التي ذكرتها المصادر.

وبالتطرق للحديث عن اسم القيس وارتباطه بقيس بن الحارث، فبالرغم من اتفاق أغلب المصادر على هذه النقطة، فإننا نستبعد هذا الربط جملة وتفصيلًا لعدة مبررات، **أولها**: ذكرنا سابقًا أن لفظ القيس تم ذكره في المصادر القبطية السابقة التي دونت لتاريخ مصر قبل الفتح الإسلامي، وأن أصل الكلمة يعود إلى Kaisأو Keis وغيرها كما أسلفنا[١]، بل زد على ذلك أن جوتييه في قاموسه الجغرافي يذكر أن الاسم المدني للمنطقة كان Saka ثم حُرف إلى Kasa ثم إلى Kaeis ثم إلى Keis ومنه اشتق الاسم العربي" **القيس**"[٢]، ويؤكد Quatremere على هذا فيقول أنه لا حاجة لنسبة القيس إلى قيس بن الحارث كما ينسب العرب؛ لأن المنطقة كانت تُعرف قبل وقت طويل من دخول العرب بنفس اللفظ السابق Kaic, وتم ذكرها عند العديد من بطارقة مصر وخاصة بطارقة الإسكندرية في تواريخهم[٣].

ثانيها: من الوارد أن تُسمى المنطقة باسم فاتحها وقد حدث ذلك في أماكن وفتوحات أخرى, ولكن إن كان تم تسمية المكان نسبة إلى فاتحه كما تذكر المصادر

---

(١) أميلينو: جغرافية مصر في العصر القبطي، صـ ٢١٤.

(٢) محمد أحمد عبد اللطيف: المدن والقرى المصرية في البرديات العربية، صـ ١٦٤.

(٣) ET QUATREMÉRE: "Mémoires géographiques et historique sur l' Égypte, et sur quelques contrées voisines", recueillis extraitas des manuscrits coptes, arabes, , etc. , *de la Bibliothéque Impériale*, paris, 1811, p: 143, 144.

فالأولى أن تسمى به أماكن أخرى قام قيس بفتحها قبل القيس إذا ما اتفقنا أن دوره في الفتوحات كان أسبق من وصوله إلى القيس، **ثالثها**: أن التشابه بين الاسمين هو ما جعل المصادر تلصق مسمى المكان بفاتحه بعدما ذكره أول مصدر ونقل منه وتبعه غيره من الكتب الأخرى[1]، وهذا الربط هو ما جعل أغلب هذه المصادر لا تتناول فتوحات قيس بن الحارث الأخرى وكأن هذا الصحابي الجليل قد اقتصر دوره في فتوحات مصر على القيس فقط، ويؤكد صاحب الاستبصار أن المهمة الأولى التي وكلها عمرو بن العاص لقيس بن الحارث كانت منطقة الفيوم عندما قال: **"أن عمرو بن العاص لما فتح بلاد مصر أقام سنة لا يعلم أين موضع الفيوم ولا حيث مكانه حتى بعث عمرو قيس بن الحارث إلى ناحية الصعيد يبحث عن الفيوم"**[2]، ولما تباطأ قيس في العودة للأمير بدأ الأخير في تقصي أخباره في الفترة التي استطاع فيها قيس بن الحارث في المشاركة في فتوح الصعيد التي ذكرناها حتى وصل إلى القيس.

أما **رابع** هذه المبررات -ويقترحها الباحث- يُحتمل بأن قيس بن الحارث استقر بالقيس لفترة بعد السيطرة عليها، وهو ما جعل المصادر لا تتناول حياته حتى وفاته، وبسبب هذا الاستقرار ارتبط اسم المدينة به، وتأكيدًا لذلك؛ فإن الكتاب الذي تطرقنا إليه للحديث عن فتوحات قيس بن الحارث لم يذكر دورا له في باقي الفتوحات في الصعيد باستثناء دوره الصغير في قطع الطريق عن الهاربين من الرومان أثناء حصار المسلمين للبهنسا, وصراعهم مع الرومان فيها، وفيها يقول المؤلف: " **وصار كل ليلة يهرب منهم جماعة ويخرجون على وجوههم، وساروا بليل يريدون الهرب إلى الصعيد، فتلقاهم سرية من أصحاب قيس بن الحارث،...، وكانوا نحو ستمائة فارس ففروا من بين أيديهم فتبعوهم،...وأتوا بهم كذلك بين يدي قيس بن الحارث، فأمر أن يأخذ معه ثلاثمائة فرس ويمضي بهم إلى أصحاب**

(١) محمد رمزي: القاموس الجغرافي، صـ٢١٥.

(٢) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، صـ٩١.

رسول الله"[١], ويقصد هنا المحاصرين للبهنسا، وإذا ما علمنا قرب المسافة بين القيس والبهنسا- كما ذكرنا من قبل- فإن الرواية لا يمكن إنكارها، وربما فعلًا استقر قيس بن الحارث في القيس لفترة بعد فتحها، وما يعزز هذا الاحتمال هي رواية ابن عبد الحكم نفسه الذي يذكر عودة عمرو بن ربيعة إلى عمرو بن العاص يخبره بفتح القيس دون أن يشير إلى عودة قيس بن الحارث نفسه.

إذن، لم تكن الصعوبة التي واجهها قيس بن الحارث في فتح القيس توحي بأي شكل أن هذه المنطقة كانت مجرد قرية، وإلا لما ذكرتها المصادر خصيصًا واقتصرت فتوحات قيس فيها، كما أن وصف الفتح نفسه من استعانة البطريق بجنود أخرى لحمايتها, ثم طول الحصار, ثم حرق أحد أبوابها لا يعطى مدلولا بصغر هذه المنطقة، ويرى البحث أن القيس كانت كورة مهمة من كور الصعيد تتبعها العديد من المناطق التي سيطر عليها قيس بن الحارث, ولكنه وجد صعوبة في عاصمة هذه الكورة وهي القيس نفسها.

بعد الفتح الإسلامي للقيس لا نجد في المصادر المتاحة لدينا أية تفاصيل عن الحياة السياسية في القيس، ولا نجد إشارة للقيس إلا بعد الفتح بنحو سبعين عامًا؛ حينما نجد في برديات قرة بن شريك الوالي الأموي[*]على مصر رسالة إلى أهل كورة

---

(١) فتوح البهنسا الغراء، صـ ٢٧٠.

(*) قُرّة بن شُريك: هو قرة بن شريك بن مرثد بن الحارث بن حبيش بن سفيان بن عبد الله بن ناشب، من أهل الشام، ولاه الوليد بن عبد الملك مصر عام ٩٠هـ/ ٧٠٩م بعدما عزل أخاه عبد الله بن عبد الملك؛ فوصل قرة إلى مصر وأقر عماله عليها بينما خرج عبد الله منها، يذكر الكندي والمقريزي أن قرة تعرض في بداية حكمه لمحاولة اغتيال في الإسكندرية, ولكنه استطاع ضبط المتورطين والتخلص منهم، ظل قرة على ولايته لمصر يدون الدواوين ويضبط الأمور فيها حتى توفى في عام ٩٦هـ/٧١٤م, وتولى مصر بعده عبد الملك بن رفاعة بن خالد الفهمي، للمزيد يمكن الرجوع إلى الكلبي(أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م): جمهرة النسب، تحقيق: ناجي حسن (دكتور)، عالم الكتب للنشر، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨١م، صـ٤٥٢، الكندي(أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المصري ت بعد =

القيس-بنفس الاسم كما وردت - مؤرخة بعام ٩٠هـ/ ٧٠٩م ينظم بعض أمور الصناعة فيها[١]، وهو ما يدفعنا للحديث عن مظاهر الحضارة في كورة القيس المصرية.

مظاهر الحضارة في كورة القيس:

نجد في المصادر الإسلامية بعض الشواهد الحضارية التي شهدتها كورة القيس خلال عصرها الإسلامي، فعلى المستوى الاجتماعي فقد سكن كورة القيس بعد الفتح قبيلة خولان اليمنية؛ فقد دخلت عناصر من خولان إلى مصر مع الفتح العربي الإسلامي لها، واستقروا في الفسطاط، ثم توغلوا إلى مناطق الجنوب، وسكنوا كلا من القيس والبهنسا وأهناسيا، وعنهم يقول ابن عبد الحكم: " وكانت خولان تأخذ في قرى أهناس والبهنسي والقيس[٢]، أما على المستوى العمراني؛ فيذكر الإدريسي أن القيس كانت حسنة البناء جميلة الجهات[٣].

وبمناسبة الحديث عن العمران ذكر المقريزي أن بالقيس كان هناك سرب – مجرى ماء– ظهر بها على أيام السلطان الأيوبي الكامل(٦١٥- ٦٣٥هـ/ ١٢١٨-١٢٣٨م)؛ فأمر القائم على المنطقة بكشفه ومعرفة منبعه ومصبه؛ فجُمع له أهل المعرفة من الغطس والعوم فزادوا على مائتي رجل، وقاموا بعمل قارب كبير رقيق يمكنه التوغل داخل السرب، وتم شحنه بالأقوات وأدوات الوقت والشموع

= ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م): كتاب الولاة وكتاب القضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، لبنان، ١٩٠٨م، صـ(٦٣- ٦٦)، المقريزي: مذاهب أهل مصر وعقائدهم إلى أن انتشر مذهب الأشعرية، تحقيق: أيمن فؤاد سيد(دكتور)، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، القاهرة، ٢٠١٦م، صـ ٢٩، ٣٠، برديات قرة بن شريك، صـ٢٧ وما بعدها.

(١) برديات قرة بن شريك العبسي: صـ١٠٢.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، صـ ٩٩، عبد الله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د،ط)، القاهرة، ١٩٩٢م، صـ (٢٠٧، ٢٠٨).

(٣) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، صـ٤٨.

للإضاءة، وأمرهم الحاكم على المنطقة بالتوغل داخل السرب؛ فظلوا سالكيه حتى نفد ما معهم من الزاد والطعام ولم يجدوا له مسلكًا خلال ستة أيام: أربعة في الذهاب واثنان بالعودة, ولم يقفوا على نهايته، وكُتب بذلك إلى الملك الكامل الذي تعجب من هذا الأمر, وأصر على مشاهدته بعينه وهو ما حدث بعدها(١)، ولا يُعرف على وجه الدقة أصل هذا المجرى المائي، وبالربط بين ما ذكره ابن زولاق(٢) عن ذكر خلجان مصر التي تفرعت من نهر النيل، كان أقرب الخلجان للقيس هو خليج المنهى الذي حفره النبي يوسف عليه السلام، ولا يُستبعد أن يكون هذا المجرى مرتبطًا بخليج المنهى هذا.

أما من الناحية الاقتصادية؛ ففي الزراعة اشتهرت كورة القيس بزراعة الفواكه وقصب السكر والتمر وغيرها من الخيرات كما يصف الإدريسي(٣)، وعمل أغلب أهلها برعي الماعز والأغنام العسلية الذي كان يعتبر مصدرا رئيسيا في دخلهم(٤)، وقد استغل أهل القيس وفرة هذه الأنواع -الماعز والأغنام العسلية- في أكثر ما اشتهرت به الكورة من صناعة وهي صناعة الأكسية والصوف؛ فيذكر اليعقوبي أن بالقيس كانت تُعمل الثياب القيسية والأكسية الصوف الجياد(٥).

ويقول الكندي في حق هذه الصناعة: " **ولم ثياب الصوف وأكسية المرعز، وليس هي بالدنيا إلا بمصر**"(٦)، وقد شملت هذه الصناعة كل المنطقة سواء القيس

(١) المقريزي: الخطط، جـ١، صـ٥٧٣، علي مبارك: الخطط، جـ١٤، صـ١٤٣، ١٤٤.

(٢) (أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق الليثي ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م): فضائل مصر أخبارها وخواصها، تحقيق: على محمد عمر(دكتور)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، صـ٥٥.

(٣) المصدر نفسه، الحميري: الروض المعطار، صـ٤٨٨.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، صـ٢٢.

(٥) كتاب البلدان، المكتبة المرتضوية ومطبعتها الحيدرية، العراق، ١٣٣٧هـ، ١٩١٨م، صـ٩٢، الحموي: معجم البدان، صـ٤٨٨.

(٦) الكندي: فضائل مصر المحروسة، تحقيق: علي محمد عمر(دكتور)، مكتبة الخانجي، ط ١، القاهرة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، صـ١١، المقريزي: الخطط، جـ١، صـ٥٧٢.

أو البهنسا فعرفت أيضًا البهنسا بالستور البهنسية[١]، وهذا يُشير إلى تأثير كل مركز من هذين المركزين المتجاورين على الآخر في مجال الصناعة التي اشتهر بها كل منهما[٢]، وكانت هذه الأبسطة والمضارب- مضارب الخيام- القيسية تؤخذ من صوف الماعز ويصفها ابن إياس أنها كانت تُغني في الشتاء عن لبس الفراء[٣]، حتى أن بعض المؤرخين يسرد رواية تقول أن معاوية بن أبي سفيان لما كبر كان لا يدفأ؛ فاجتمعوا أنه لا يشعره بالدفء إلا الأكسية التي تعمل بمصر والقيس المصنوعة من الماعز والصوف العسلي؛ فعمل له منها عدد فما احتاج منها إلا واحدا[٤]، وتوحى تلك الرواية عن مدى جودة هذه الصناعة المنسوبة إلى كورة القيس؛ مما يدل على أن القيس كانت واحدة من أهم مراكز صناعة النسيج والصوف في مصر في العصر الإسلامي[٥].

وهناك صناعة أخرى نُسبت إلى كورة القيس لم نجد لها ذكرًا في المصادر التاريخية أو الجغرافية المتاحة، ولكن وجدناها في برديات قرة بن شريك، وهي صناعة المسامير؛ فتذكر البردية رقم ٣٩ من برديات قرة رسالة منه إلى أهل بنديدة التابعة لكورة القيس يأمرهم فيها بصناعة أوزان معينة من المسامير، وتسليمها إلى صاحب العمل عبد الأعلى ابن أبي حكيم[٦]، وقد ذكرت هذه البردية في أكثر من موضع، فذكرها Becker في كتابة عن البرديات العربية[٧]، وجاء نص البردية كالتالي:

---

(١) اليعقوبي: البلدان، صـ ١٧٠.

(٢) محمد أحمد عبد اللطيف: المدن والقرى المصرية في البرديات العربية، صـ١٦٦.

(٣) بدائع الزهور، صـ٢٢.

(٤) ابن زولاق: فضائل مصر، صـ ٩٧، المقريزي: الخطط، صـ ٥٧٢، علي مبارك: الخطط التوفيقية، جـ١٤، صـ١٤٣.

(٥) محمد أحمد عبد اللطيف: المدن والقرى المصرية في البرديات العربية، صـ١٦٦.

(٦) برديات قرة بن شريك، صـ١٠٢.

(٧) C.H.BECKER: "Papyri Schott" – *Reinhardt I*, Heidelberg, 1906, p:88.

" بسم الله الرحمن الرحيم، من قرة بن شريك إلى أهل بندة بديدة من كورة القيس، فاقبضوا من ما روت كورتكم خمسين رطل حديد مربز من حديد الإمارة، فاصنعوا منها ثلاثة وثلاثين رطل وثلث رطل مسامير، ثم ادفعوا ما صنعتم إلى عبد الأعلى بن حكيم لصنعة العين والقوادس سنة تسعين لجيش سنة إحدى وتسعين. فإن أعطيتم الأجر فأعطوا دينار وثل دينار، كُتب في شوال من سنة تسعين "(١).

ويبدو أن أهل كورة القيس كانوا يعملون بهذه الصناعة كجزية مقررة عليها يقومون بتنفيذها وإرسالها إلى الوالي عبر رجاله(٢)، وتلقي هذه الرسالة الضوء على صناعة الحديد في العصر الأموي وأهميتها في صناعة السفن لأساطيل الغزو, وتكشف هذه البردية أيضًا عن عقلية إدارية تنظيمية لقرة بن شريك؛ إذ يبين كم سيتكلف من الحديد اللازم لصناعة المسامير في القيس, ويوضح الأوزان المطلوبة بدقة المطلوب من أهل القيس صناعتها(٣).

---

(١) برديات قرة بن شريك، صـ٢٠٦.

(٢) محمد أحمد عبد اللطيف: المدن والقرى المصرية في البرديات العربية، صـ١٦٥ .

(٣) برديات قرة بن شريك، صـ٢٠٧.

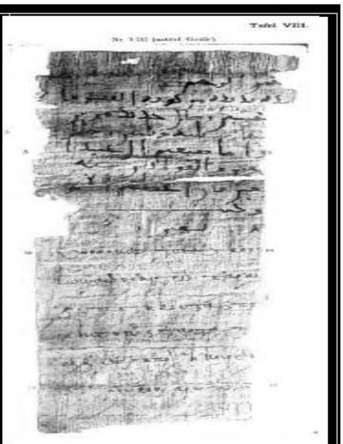

بردية القيس عند Becker[١]

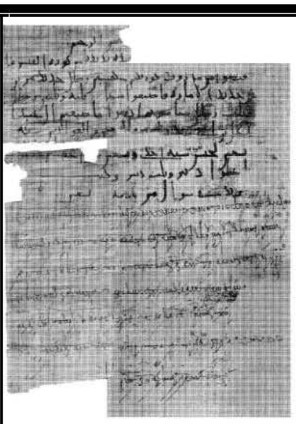

بردية القيس عند قرة[٢]

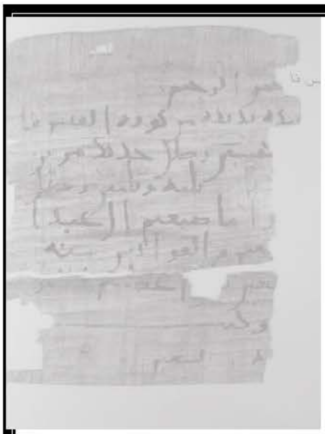

بردية القيس[٣]

أما على الصعيد العلمي والديني؛ فقد نسبت بعض المصادر بعض علماء أهل الحديث المنسوبين إلى كورة القيس، أولهم هو فاتح القيس قيس بن الحارث؛ فقد كان من أهل الفقه والحديث كما ذكرنا وقد روى قيس بن الحارث عن عمر بن الخطاب, وروى عنه سويد بن قيس وشديد بن قيس بن ثعلبة وبكر بن سوادة[٤]، ثم يذكر لنا السمعاني[٥] ومن بعده ابن الأثير[٦] محدث من أهلها يُدعى ليث القيسي, وهو مولى محمد بن عياض الزهري روى عن سالم بن عبد الله بن عمر، وروى عنه أيضًا الليث بن سعد بن طاهر[٧]، ويضيف الدمشقي مُحدث آخر من أهل كورة القيس يُدعى أبو علي الحسين بن محمد بن عيسى بن سليمان القيسي وقد نسبه صراحة إلى كورة القيس[٨].

---

(١) C. H. BECKER: "Papyri Schott" – *Reinhardt I*, Heidelberg, 1906, p:88.

(٢) برديات قرة بن شريك، صـ٣٦٧.

(٣) محمد أحمد عبد اللطيف: المدن والقرى المصرية في البرديات العربية، صـ٣٣٨.

(٤) ابن يونس المصري: تاريخ ابن يونس، صـ٤٠١.

(٥) الأنساب، صـ٥٤١.

(٦) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، جـ٣، مكتبة القدس للنشر،(د،ط)، القاهرة، ١٣٦٩هـ، ١٩٥٠، صـ١٦.

(٧) الحموي: معجم البلدان، مجـ٤، صـ٤٢٢، المشترك وضعًا، صـ٣٦٥.

(٨) توضيح المشتبه، جـ٧، صـ٢٦٠.

نتائج البحث:

من خلال الدراسة السابقة يمكن استخلاص النتائج التالية:

١- لم تكن القيس عند الفتح الإسلامي لها مجرد قرية صغيرة، بل كانت كورة منيعة من كور الصعيد الكبرى، وربما مع مرور الزمن وازدياد العمران واتساع مساحته دخلت القيس إداريًا تحت غيرها من الأقاليم.

٢- كورة القيس كورة قديمة عتيقة ذات تاريخ كبير منذ تاريخ مصر القديمة ومرورًا بالعصور اليونانية والرومانية حتى دخلت تحت مظلة الحكم الإسلامي.

٣- لا يُمكن بأي حال من الأحوال التسليم بما جاءت به أغلب المصادر التاريخية والجغرافية حول نسب اسم الكورة إلى الصحابي الجليل قيس بن الحارث المرادي لعدة مبررات ذكرناها بالتفصيل في سياق البحث، بل اسمها أقدم بكثير من الفترة الإسلامية.

٤- لم تقتصر فتوحات الصحابي الجليل قيس بن الحارث المرادي على كورة القيس فقط كما ورد في المصادر، بل كان له جهود كبيرة في فتوحات الصعيد بشكل عام والصعيد الأدنى بشكل خاص.

٥- لم يكن الفتح الإسلامي لكورة القيس يسيرًا وسهلًا كما عبرت عنه المصادر، بل عانى قيس بن الحارث في سبيل فتحها الصعوبات حتى استطاع فتحها.

٦- يعتقد الباحث أن الفاتح الإسلامي قيس بن الحارث قد استقر في كورة القيس لفترة طويلة وربما حتى وفاته؛ فلم تذكر المصادر التاريخية أو الجغرافية أي ذكر له أو حتى للقيس بعد الفتح الإسلامي ولفترة طويلة.

٧- كانت قبيلة خولان اليمنية أولى القبائل التي سكنت كورة القيس بعد الفتح الإسلامي لها.

٨- تجسدت في كورة القيس بعض المظاهر الحضارية؛ فمن حيث العمران كانت القيس مدينة حسنة البناء نُسب إليها السرب العجيب الممتد، وهو ما يدل على هندسة عمرانية جيدة.

٩- يعتبر قصب السكر والفواكه والتمور أكثر الزراعات التي انتشرت في كورة القيس، في حين تعتبر صناعة النسيج والأكسية والطرز والصوف أكبر ما تميزت به كورة القيس في صناعتها خلال العصر الإسلامي.

١٠- لم تُعدم كورة القيس بعض رجال أهل العلم؛ ففاتحها قيس بن الحارث هو أحد رجال الحديث، وأيضًا ليث القيسي، وأبو علي الحسن بن سليمان القيسي.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

- **ابن الأثير**(أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م): أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٤، تحقيق: على محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
- ـــ: اللباب في تهذيب الأنساب، ج٣، مكتبة القدس للنشر،(د،ط)، القاهرة، ١٣٦٩هـ، ١٩٥٠.
- **الإدريسي**(أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس السبتي الحسني الإدريسي ت ٥٥٩هـ/ ١١٦٦م):المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة ليدن، بريل، ١٨٦٣م.
- **ابن إياس** (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق١، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
- **ابن عبد البر**(أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٣، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل للنشر، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
- **برديات قرة بن شريك العبسي** ت ٩٦هـ/ ٧١٤م: تحقيق: جاسر بن خليل سالم (دكتور)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، الرياض، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- **البلاذري**(أبو العباس أحمد بن يحيي بن جابر البلاذري ت ٢٧٩هـ، ٨٨٦م): فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للنشر، (بدون)، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- **ابن الجيعان** (شرف الدين يحيي بن شاكر بن عبد الغني بن شاكر بن ماجد أبو زكريا ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م): التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية المسماة بتحفة الإرشاد، مطبوعات الكتبخانة الخديوية، المطبعة الأهلية، القاهرة، ١٨٩٨م.
- **ابن حبان**(محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م): الثقات، ج٣، دار المعارف العثمانية، الهند، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.
- **ابن عبد الحكم**(أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ت ٢٥٧هـ/ ٨٧١م): فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد صبيح، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، بدون.

- **الحموي**(شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): معجم البلدان، الأجزاء ٢،١، ٣، ٤، ٥، دار صادر، ط ١، بيروت، لبنان، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.
- ـــ: المشترك وضعًا والمفترق صنعًا، عالم الكتب للطباعة، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- **الحميري** (محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النور، أبو عبد الله ت ٩٠٠هـ/١٤٩٥م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس(دكتور)، مكتبة لبنان للنشر،(د،ط)، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.
- **ابن حوقل** (أبو القاسم محمد بن علي النصيبي ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، (د،ط)، بيروت، لبنان، (د،ت).
- **ابن خرداذبه** (أَبُو القَاسِمِ عُبَيد الله بِن عَبد الله اِبن خُرْداذَبِه ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م): المسالك والممالك، مطبعة ليدن، بريل، ١٨٨٩م.
- **ابن خلكان**(أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م): وفيات الأعيان، جـ ٤، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٧١م.
- **ابن دقماق**(صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر بن دقماق القاهري ت ٨٠٩هـ/١٤٠٧م): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ق ١، المركز التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (د،ط)، بيروت، لبنان، ١٣٠٩هـ، ١٨٩٣م.
- **الدمشقي** (شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي الدمشقي ت ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م): توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، جـ٧، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.
- **ابن زولاق** (أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق الليثى ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م): فضائل مصر أخبارها وخواصها، تحقيق: على محمد عمر(دكتور)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م
- **سترابون**: الجغرافيا في سبعة عشر كتاب، جـ٢، ترجمة: حسان ميخائيل إسحق(دكتور)، مؤسسة رسلان للنشر، ط١، سوريا، دمشق، ٢٠١٧م.
- **السمعاني**(أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م): الأنساب، مطبعة دار المعارف العثمانية، ط١، الهند، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.
- **السيوطي** (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١هـ/١٥٠٥م): حسن المحاضرة في

تاريخ مصر والقاهرة، جـ١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.

- **الطبراني**(سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ت ٣٦٠هـ/ ٩٧١م): المعجم الكبير، جـ٤، مكتبة ابن تيمية، ط٢، القاهرة، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
- **العسقلاني** (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): الإصابة في تمييز الصحابة، جـ٥، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي ناصر معوض، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- **فتوح البهنسا الغراء**، قصة البهنسا، دراسة وتحقيق: عمرو عبد العزيز منير(دكتور)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، القاهرة، ٢٠١٢م.
- **ابن الفقيه الهمذاني** (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحق الهمذاني المعروف بابن الفقيه ت ٣٤٠هـ/٩٥١م): البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب للطبع والنشر، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
- **القلقشندي** (شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٣، المطبعة الأميرية للطبع، (د،ط)، القاهرة،(د،ت).
- **الكلبي**(أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م): جمهرة النسب، تحقيق: ناجي حسن (دكتور)، عالم الكتب للنشر، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨١م.
- **الكندي**(أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المصري ت بعد ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م): كتاب الولاة وكتاب القضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، لبنان، ١٩٠٨م.
- ـــ: فضائل مصر المحروسة، تحقيق: علي محمد عمر(دكتور)، مكتبة الخانجي، ط ١، القاهرة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
- **مجهول** ت ق ٦هـ/١٢م: الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد(دكتور)، دار الآفاق العربية، (د،ط)، بغداد، العراق، (د،ت).
- **المسبحي** (عزُّ الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز المُسَبِّحي ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م): أخبار مصر في سنتين ٤١٤هـ/ ٤١٥هـ، تحقيق: وليم ج. ميلورد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م.
- **المقدسي البشاري** (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المَقْدِسِيّ ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي للنشر، ط٣، القاهرة، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- **المقريزي**(تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي المقريزي ت

٨٤٥هـ/ ١٤٤١م، الخطط المقريزية، جـ١ ،٣، تحقيق: محمد زينهم(دكتور)، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي للطبع والنشر، ط١، القاهرة، ١٩٩٨م.

- ـــ: مذاهب أهل مصر وعقائدهم إلى أن انتشر مذهب الأشعرية، تحقيق: أيمن فؤاد سيد(دكتور)، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، القاهرة، ٢٠١٦م.
- **ابن مماتي** (أبو المكارم الأسعد شهاب الدين بن زكريا بن مماتي ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م): قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية (دكتور)، مكتبة مدبولي للنشر، ط١، القاهرة، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- **النويري**(أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ ١٩، دار الكتب والوثائق القومية، ط١، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
- **الواقدي** (محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي الواقدي ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م): فتوح الشام، جـ٢، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
- **اليعقوبي** (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م): تاريخ اليعقوبي، مجـ١، دار صادر، ط٦، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- ـــ: كتاب البلدان، المكتبة المرتضوية ومطبعتها الحيدرية، العراق، ١٣٣٧هـ، ١٩١٨م.
- **ابن يونس المصري** (أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري ت ٣٤٨هـ/ ٩٥٨م): تاريخ ابن يونس الصدفي، ق ١، تاريخ المصريين، تحقيق: عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح(دكتور)، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

<u>ثانيًا: المراجع العربية:</u>

- إبراهيم أحمد سعيد(دكتور): إسهامات المقدسي في الجغرافيا والدراسات الإقليمية، مجلة دراسات تاريخية، العددان ١١٧، ١١٨، ٢٠١٢م.
- ألفريد بتلر: فتح العرب لمصر، تعريب: محمد فريد أبو حديد، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م.
- أميلينو: جغرافية مصر في العصر القبطي، ترجمة: ميخائيل مكسي إسكندر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢م.
- إيمان عيد عبد الحميد: الكارتوجرافيا العربية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، دراسة في الجغرافيا التاريخية، مجلة المجمع العلمي المصري، مجـ٩٣، ٢٠١٨م.
- زبيدة عطا(دكتورة): إقليم المنيا في العصر البيزنطي في ضوء أوراق البردي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.

- عبد الله خورشيد: عبد الله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د،ط)، القاهرة، ١٩٩٢م.
- عبد الحليم نور الدين (دكتور): مواقع الآثار المصرية القديمة،ج٢، مصر العليا، الخليج العربي للطباعة والنشر، (د،ط)، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ج١٤، مطبعة بولاق، ط١، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ١٨٨٨م.
- محمد أحمد عبد اللطيف(دكتور): المدن والقرى المصرية في البرديات العربية، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ٢٠١٢م.
- محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريون إلى سنة ١٩٤٥م، ج٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د،ط)، القاهرة، ١٩٩٤م.

ثالثًا: المراجع الأجنبي:

- C.H. BECKER: “Papyri Schott” – *Reinhardt I*, Heidelberg, 1906.
- ET Quatremére: “Mémoires géographiques et historique sur l'Égypte, et sur quelques contrées voisines , recueillis extraitas des manuscrits coptes, arabes, , etc.”, *de la Bibliothéque Impériale*, paris, 1811.

المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ١٨٧ - ٢٠٦

الْجُذُورُ التَّارِيخِيَّةُ لِدَوْرِ الأَتْرَاكِ فِي اضْمِحْلَالِ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ «أَشْنَاسُ أُنْموذَجًا»

محمد عثمان عبدالجليل (*)

ملخص

اعتمد العباسيون منذ قيام دولتهم على العناصر الاجنبية، وكان لذلك الأمر أثر خطير على الدولة على المدى البعيد.وكان لتواجد العنصر التركى دور مؤثر على مجرى الأحداث فى الدولة العباسية بعدما استعان بهم الخليفة العباسى المعتصم بعدما إنف الاعتماد على العنصرين العربى والفارسى، ولم يكن هذا العنصر خادم لمصالح الدولة بقدر ما كان مصدر ازعاج، فقد دأبوا على معاملة سكان بغداد بكل جفوة، مما كان سبب فى المطالبة بخروجهم منها. ويهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء حول بداية الدور التركى فى اضمحلال الدولة العباسية،حيث دأب العديد من المؤرخين على تحديد عهد الخليفة المتوكل كبداية لدور العنصر التركى فى اضمحلال الدولة العباسية، وهو عكس الحقيقة. فبداية هذا الدور كان فى عهد الخليفة المعتصم، لأنهم سعوا فى تلك الفترة فى التخلص فيما تبقى من النخبة العربية المقربة من البلاط العباسى، وعملوا على فرض سيطرتهم على مفاصل الدولة بداية من الخليفة حتى أصغر مسؤل. وقد اثبت الباحث الوسائل والعوامل التى أوصلت الترك إلى هذه المكانة، مع بعض

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى، معهد البحوث والدراسات الآسيوية – جامعة الزقازيق.

الشواهد على ذلك من التراث. كما أوضح الدور الخفى الذى لعبه القائد التركى أشناس الذى صعد نجمه من مجرد غلام مغمور إلى شخص يتقلد ويتحكم فى ما يقرب من نصف الدولة العباسية، ويتحكم ويوجه سياسة الخلفاء حسب رغبته.

Abstract

This research aims to shed light on the beginning of the Turkish role in the decline of the Abbasid state, as many historians have been defining the era of Caliph Al-Mutawakkil as the beginning of the role of the Turkish element in the decay of the Abbasid state, which is the opposite of the truth. The beginning of this role was during the era of Caliph Al-Mu'tasim, because they sought in that period to get rid of what remained of the Arab elite close to the Abbasid court, imposing their control over the joints of the state, starting from the Caliph to the smallest official. The researcher has proven the means and factors that led the Turk to this position, with some evidence of that from the heritage. He also explained the hidden role played by the Turkish leader Ashnas, whose star rose from a mere obscure boy to a person who controls and controls nearly half of the Abbasid state, and controls and directs the policy of the Caliphs according to his desire.

إن واقع مسيرة التاريخ العربى الإسلامى أفرزت العديد من الظواهر السياسية والتى لم تكن مؤلفة أو معروفة، إلا أنها كانت استجابة لظرف تاريخى فى مرحلة من مراحل تلك المسيرة.

وقد شارك العباسيون ارستقراطية الفرس فى الحكم، ولكن طموح هؤلاء ورغبة بعضهم فى إرجاع سلطان الفرس ومجدهم فى الوقت الذى كان يحرص فيه العباسيين على سلطانهم، كل ذلك أدى إلى التنكيل بزعماء الفرس ووزرائهم، كما أدى إلى سوء العلاقة بين العباسيين وبين تلك الارستقراطية الفارسية(١).

---

(١) بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، نال الفرس بعض أمنيتهم لا أمنيتهم كاملة، فأمنيتهم الكاملة أن تقوم دولة فارسية بملوكها وعمالها، ورغم اقتناع الخلفاء العباسيون أن دولتهم قامت على أكتاف الفرس، وكانوا يحفظون للفرس معونتهم؛ فلم ينسوا في نفس الوقت عروبتهم، وبمجرد شعورهم بأن الفرس يزاحمونهم في سلطانهم لم يتوانوا في التنكيل بهم كما نكل المنصور بأبي مسلم والرشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل بن سهل، انظر:

والملاحظ أنه رغم تفضيل العباسيين فى الغالب للعنصر الفارسى، فإنهم على الجانب الآخر لم ينهوا الكفة الأخرى العربية، وهذا ما أدى إلى استمرارية الصراع والتنافسية خلال هذا العصر. وأمام ذلك الوضع المشحون بالصراعات لجأ الخليفة المعتصم للاتراك(١)، فقام بوضع الخلافة تحت سيطرتهم، وكان لذلك الأمر أثره الكبيرعلى المدى الطويل على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالدولة العباسية.

إن دراسة التاريخ العباسى لا تعنى بالضرورة التفصيل فى دراسة الخلفاء بقدر التركيز على إصلاحاتهم وأعمالهم الداخلية والخارجية التى انعكست بالسلب أو الإيجاب على الدولة، ولما كان تطور المناهج التاريخية يرتبط بتعدد الرؤى

أحمد أمين: ضحى الإسلام، مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص٤٣-٤٤.

(١) عادة ما يستخدم المؤرخون العرب مصطلح ترك ليشيروا الى كل الاتراك مهما تنوعت أنماط حياتهم المعاشية، وقد شمل ذلك بطبيعة الحال الاتراك البدو. والأتراك هم الذين يسكنون البلاد الواقعة وراء الصغد وأشروسنة وفرغانة والشاش.والترك هم جيل من الناس وهو الجيل الذي يقال له الديلم والجمع أتراك واسم تركستان هو اسم جامع لجميع بلاد الترك، وإن بلادهم شديدة البرد وقد وردت كلمة ترك أول ما وردت في القرن السادس علمًا على شعب من البدو. وفي عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه تم فتح بلاد طبرستان، ثم عبر المسلمون نهر جيحون سنة ٣١هـ، ونزلوا بلاد ماوراء النهر، فدخل كثير من الترك في دين الاسلام، وأصبحوا من المدافعين عنه والمشتركين في الجهاد لنشر دعوة الله بين العالمين. وفى العصر الأموى اختلط العرب بالترك، ودخلوا في الجيش الاسلامى، حيث ذكر البلاذرى أن عبيدالله بن زياد عاد إلى البصرة بخلق كثير من بخارى، وفرض لهم العطاء واتخذ منهم ألفين في جيشه سنة ٥٤هـ، ثم زاد توجدرويدا رويدا حتى بلغوا الصورة التى ظهرت في العصر العباسى، انظر:

البلاذرى(أبى العباس أحمد بن يحى): فتوح البلدان، تحقيق عبدالله انيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٤٦٨، حازم فرج لطيف الخيلانى: حصار المدن في الدولة العربية الإسلامية ١٣٢-٦٥٦هـ، ديلى، ٢٠٠٥م، ص ٢٩، زكريا كتابجى: الترك في مؤلفات الجاحظ ومكانتهم في التاريخ الإسلامى حتى أواسط القرن الثالث الهجرى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧م، ص٢٤-٢٥.

وتجددها باستمرار، فقمنا باستعارة المنهج الميكروسطوريا بهدف دراسة حالة وصورة مصغرة من المجتمع ومدى تأثيرها المستقبلى على المجتمع ككل.

ولدراسة اشناس التركى كفصيل لتلك الجذور التاريخية التى ساعدت على انهيار الدولة اضمحلال الدولة العباسية وسوء أوضاعها يتطلب الأمر دراسة الظروف التى شكلت ودعمت ظهور تلك الحالة. فالأتراك لم ينالوا هذه الحظوة بين عشية وضحاها، ففى بعض الأحيان تكون نقاط الضعف كامنة فى الدولة تأسيسها، إلا نواحى القوة توقف تأثير تلك العوامل لبعض الوقت، وما أن تضعف هذه النواحى حتى تستفحل وتلعب دورها المنتظر.

وبالعودة إلى الوراء لفترة وجيزة من عمر الدولة العباسية نجد أن وصية الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ)لأولاده الثلاث(الأمين- المأمون- المعتصم)سنة ١٨٦هـ أسست من بعده لأوضاع مستجدة لم يضعها فى حساباته، والتى أدت بعد وفاته سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م إلى انقسام أركان الدولة وتزعزع ثوابتها، إذ فتح السبل لقوى مختلفة بالسعى للاستحواذ على السلطة والتفرد بها، فطال ذلك ما رسخه العباسيون من ثوابت، وانعكس ذلك بالتالى فيما بعد على التركيبة الاجتماعية ومنظومتها الفكرية[1].

فوصية الرشيد لم تكن بالوثيقة التى رتبت لتداول السلطة بين أولاده الثلاثة من بعده بقدر ما كانت تقسيماً لمناطق النفوذ والسلطة.فاستقرار الأمر للخليفة المأمون(١٩٨-٢١٨هـ) لم يعنى الاستقرار القادم للدولة، فظهور ما يعرف بالمتطوعة (الفقهاء والمحدثين)جذب العديد من الفئات الاجتماعية للدولة.

---

(١) علق الطبرى على حادثة ولاية العهد قائلًا" ولما قسم الأرض بين ابنائه الثلاثة، قال بعض العامة: قد أحكم أمر الملك، وقال بعضهم: بل ألقى بأسهم بينهم، وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية"، انظر:
الطبرى(أبى جعفر محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م، جـ٨، ص ٢٧٦.

ومن ثم فقد ترتب على ذلك صراع ثلاثى داخل الدولة بين سلطة الدولة ممثلة فى الخليفة المأمون والمرجعيات الدينية ممثلة فى الفقهاء والمحدثين والقوة العسكرية الممثلة للجيش الغالب عليه حينذاك العنصر الفارسى المترقب للموقف. وقد عمق هذا الانشقاق عدة أحداث كان من أهمها:

- الاقامة بمرو مما جعله فريسة سهلة لرغبات وزيره الفضل بن سهل، وكان أهمها عزل طاهر بن الحسين عن بغداد وتعين الحسن بن سهل، وإرسال هرثمة بن أعين إلى خراسان، مما أدى إلى انتشار الفوضى فى بغداد(١).
- إعلان المأمون الإمام على بن الرضا موسى الكاظم وليًا للعهد وتخليه عن السواد الشعار الرسمى للعباسيين، مما ساعد على توحيد قوى المعاضة وإعلانهم فى سابقة هى الأولى من نوعها خلع الخليفة المأمون ومبايعة ابراهيم المهدى بالخلافة.كل هذه الأمور أدت إلى توتر الخليفة المأمون، وهو ما دفعه بعد ذلك إلى التنكيل بزعماء الفرس ووزرائهم(٢).

---

(١) بعد مقتل الأمين والمناداة بالمأمون خليفة فكَّر الفضل بن سهل في نقل العاصمة إلى المشرق في خراسان، وأخذ يُعِدُّ لذلك عُدَّتَهُ، فاضطرب لهذا الأمر العراقيون عامة والهاشميون خاصة، وخافوا أن يعلن الفضل بن سهل نقل حاضرة الخلافة إلى هناك، فأخذوا يفسدون عليه خططه ويستهينون بأوامره ورسائله التي تردهم من المأمون ووزيره الفضل، فحدثت عدة فتن نذكر منها: خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن العلوي بالكوفة على الخلافة بتشجيع القائد أبي السرايا السري بن منصور الشيباني، خروج إبراهيم بن موسى بن جعفر العلوي باليمن واستيلاؤه عليه وفتكه بالناس فيه، حتى سمِّي الجزار لكثرة من قتل من الناس في سبيل الاستيلاء على اليمن حوالي سنة ١٩٩هـ، ثورة الجند ببغداد على الحسن بن سهل لقتله هرثمة بن أعين، وغيرها من الفتن والأحداث، ولمزيد من المعلومات، انظر:
ابن الطقاطقا(محمد بن على بن طباطبا): الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر بيروت، د.ت، ص٢١٧، ابن طيفور(أبو الفضل أحمد): كتاب بغداد، دار الجنان، بيروت، د.ت، ص١٠٠-١٠١، محمد سعد اطلس: عصر الازدهار، تاريخ الأمة العربية(الجزء الخامس)، مؤسسة الهنداوى للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٧م، ١٢٤-١٢٧.

(٢) يقول ابن العمرى " حين عقد المأمون البيعة بالعهد لعلى بن موسى الرضا قال له: يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لا يتم فأعفنى منه فلم يعفه" انظر:

إن الصراع بين فئتين أو شعبين لابد وأن تتوالد فى نهايته هزيمة قاسية تصيب المتخاصمين وتضعف من كيانهما ووجودهما، وهذا ما حدث للعرب والفرس،عندما تركا صراعهما يقوى ويشتد فقوى عنصر ثالث، عمل على الحد من قوة الاثنين معًا، وهو ما أفسح المجال أمام العنصر التركى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن النظم العسكرية فى العصر العباسى شهدت تطورات مهمة،منها تحول نظام الجندية من نظام " الأمة المقاتلة" الذين كان معمول به خلال القرن الأول الهجرى وجزء من القرن الثانى الهجرى، إلى الجيش النظامى الذى يتوافق مع اتساع الدولة العباسية، التطور الثانى هو تخلى الخلفاء العباسيين عن قاعدة أساسية فى تكوين الجيوش الإسلامية فى أن تقوم أساسًا على العرب،وأباحوا للعناصر غير العربية الدخول فى الجندية إلى جانب العرب مثل الخراسانية والموالى والفرس والترك[١].

وكان الجيش العباسى يتألف حتى عهد المعتصم من العناصر الفارسية بصفة أساسية، إلى جانب العناصر التى كانت أقل شأنا وعددا من الاتراك. وقد ضعفت ثقة

ابن العمرى(محم بن على بن محمد): الإنباء فى تاريخ الخلفاء، تحقيق الدكتور قاسم السامرائى، دار الافاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ٩٨.

(١) شكل العصر العباسي تحولا هاما في المؤسسة العسكرية الإسلامية، فبعدما كان الأمر في صدر الإسلام والعصر الأموي يقوم على أساس أن كل مسلم قادر مسجل في ديوان العطاء مستعدًا للقتال، وينضم للحملات العسكرية للجهاد في سبيل الله وحماية الدولة والدفاع عنها، وبانتهاء الحرب يعود المقاتلة إلى أسرهم في المدن والأمصار. ولكن الدولة العباسية منذ نشأتها بدأت خطة جديدة لبناء جيش نظامي محترف، يتكون من فرق من الجند المحترفين، ولم يكن لديهم عمل آخر غير العسكرية، حيث يتدربون في وقت السلم، ويتقاضون عطاؤهم ويقاتلون وقت الحرب، انظر:

فاروق عمر فوزى: الجيش والسياسة فى العصر الأموى ومطلع العصر العباسى (٤١هـ/٦٦١م - ٣٣٤ هـ / ٩٥٦ م) دراسة تاريخية، دار مجدلاوى للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص ٩٩-١٠٠، راجع ايضا:

المعتصم بالفرس حين رأى أن كثير من الجند قد تعصب للعباس ابن أخيه المأمون، ورغم نجاحه فى القضاء على تلك الأزمة، فإن هذه الحادثة لم تمر على الخليفة المعتصم دون أن يفكر فى تفادى وقوع مثلها، لذلك رأى الاستعانة بقوة جديدة ليس لها الطموح الفارسى، أو التعصب العربى، وهداه تفكيره فى نهاية المطاف إلى التوسع فى الاستعانة بالعنصر التركى، والاعتماد عليه بشكل كبير مستقبلًا.

وحيال ذلك الأمر نجد أنفسنا أمام أكثر من تساؤل، ما هى مكانة الاتراك ووضعهم قبل عهد الخليفة المعتصم، كيف تزايد عددهم وانتشارهم، ومدى تأثيرهم فى مجرى الأحداث تلك الفترة؟ وماذا عن مقدرة المعتصم فى التحكم فيهم وتوجهيهم؟، وهل كان المعتصم على صواب أم خطأ فى الاعتماد عليهم بهذا الشكل، ثم يبقى السؤال الأكثر أهمية حول شخصية والدور الفعال والمحورى الذى لعبه القائد التركى اشناس فى التأثير على الأوضاع السياسية للدولة العباسية.

فى بداية الأمر كان الاتراك قبل الخليفة المعتصم متواجدين على شكل فصائل وكتائب قليلة منذ عهد الخليفتين أبى جعفر المنصور وهارون الرشيد، وبمرور الأيام نالوا رتب عسكرية كبيرة بحيث بدأوا يتدخلون فى أمور خارج نطاق مسئولياتهم العسكرية[١].

والجدير بالذكر أن العنصر التركى كان حريص على التواجد والصعود فى الأماكن المرموقة والقريبة من صناع القرار فى الدولة العباسية، فمن ناحية حرصوا على تأسيس روابط عائلية مع الأسر العباسية الحاكمة والتوغل داخل تلك الأسر، حتى أن الخليفة المعتصم عهد بتربية ابنه المتوكل إلى القائد التركى "ايتاخ"، والذى كان يناديه بكلمة "أبى". ومن ناحية أخرى حرصوا على تقليد العديد من المناصب الادارية والسياسية الهامة بالاضافة إلى مسئولياتهم العسكرية، مثل الشرطة،

---

(١) PIPES, D., "Turkes in Early Muslim Service", *Journal of Turkish Studies*, vol. 2,1978, p.88.

المعونة، البريد، الحجابة، وغيرها من الوظائف المهمة، مما جعلهم على دراية بكل مفاصل الدولة العباسية، وبمرور الوقت ازداد نفوذهم بالشكل الذى يعرف حديثا بمصطلح "الدولة العميقة"[١].

والملاحظ أن الخليفة المأمون زاد من أعدادهم،وتولوا العديد من المناصب الهامة ومن جملتهم" طولون"الذى أسس ابناؤه الدولة الطولونية فى مصر، كذلك حل ببغداد ايضا فى عهد المأمون كاوس التركى ملك أشروسنة الذى أظهر اسلامه وولاه على بلاده وكان من نسله القائد التركى الأفشين الذى سيرد ذكره فى السطور القادمة. ومن الطبيعى أن يكون للاتراك دور مهم فى نصرة المأمون فى صراعه مع أخيه الأمين. ويرى الباحث أن انتصار المأمون كان بمثابة تدعيم وتشجيع لظهور الميول الاقليمية داخل الكيان العباسى[٢].

كيفما كان الأمر فبعدما شاهد المعتصم ما للفرس من جراءة وتطاول بعد قتل الأمين حتى أصبح يخافهم على نفسه، كما أنه لم لديه ثقة بالعرب بعدما ذهبت عصبيتهم وأخلدوا إلى الترف وانكسرت شوكتهم، فالرفاهية والحضارة قد أضرت بالمسلمين وأذهبت منهم قوة التغلّب والفتح، فاستقر فى النهاية بأن يستعين بالأتراك ويتقوى بهم وهم لا يزالون حتى ذلك العهد أهل بداوة وبطش مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش، فجعل يتخيّر منهم الأشداء. وبعدما زاد عددهم وتكاثروا بالشكل الذى ضاقت بغداد بهم وصاروا يؤذون العوام في

---

(١) ابن خلدون(عبدالرحمن بن خلدون): تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر، ضبط المتن الاستاذ خليل شحاته، مراجعة الدكتور سهيل ذكار، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.، ج٣، ص٣٢١-٣٢٢، فاروق عمر فوزى: الجيش والسياسة فى العصر الأموى ومطلع العصر العباسى (٤١هـ/٦٦١م-٣٣٤هـ/٩٥٦م) دراسة تاريخية، دار مجدلاوى للنشروالتوزيع، عمان، الاردن، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص١٦٨.

(٢) زكريا كتابجى: المرجع السابق، ص ١١٤-١١٥.

الأسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك أذىً كثيرًا وربما رأوا الواحد بعد الواحد قتيلًا في قارعة الطريق، أخذ فى البحث عن موضع جديد ليكون مستقر له ولجنده الترك حتى أتى سامرّاء فاتخذها معسكرًا واختط فيها الخطط وأقطع أتراكه القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم. وما زالت سامرّاء قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١هـ إلى أيام المعتمد فعاد إلى بغداد سنة ٢٧٩هـ. وهو أول من عاد إليها منذ بنيت سامراء(١).

(١) تقع سامراء على بعد حوالى ١٣٠ كم رأسا من شمال بغداد، شرقي نهر دجلة على أرض هضبية مرتفعة، وتتميز بأن موقعها يتوسط الدولة. وقد اهتم المعتصم بتخطيط المدينة تخطيطًا جيدا فجأت مبدعة من كل النواحى، بحيث قام بتقسيمها إلى خمسة شوارع رئيسة متوازية على طول المدينة، وفتحت شوارع فرعية على جانبي الشوارع الرئيسة. وبعث إليها بالمهندسين والبنّاءين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وغيرهم، وحمل إليها الأخشاب والرخام وكل ما يحتاج إليه البناء. ونظرًا لما تمتعت به المدينة الجديدة من جمال قصورها الضخمة ومبانيها الرائعة وشوارعها المتسعة، ومسجدها الجامع وغيره من المساجد، فدعيت بـ"سُرّ مَن رأى". وتنسب بعض الروايات سبب اختيار المعتصم للرقعة التي أنشأ عليها سامرّاء إلى تنبؤ راهب، فيروي اليعقوبي أن المعتصم ارتاد موقع سامرّاء «فقال له بعض الرهبان نجد في كتبنا المتقدمة أن هذا الموضع يسمى سرّ من رأى وأنه كان مدينة سام ابن نوح، وأنه سيعمّر بعد على يد ملك جليل عظيم مظفر منصور له أصحاب كأن وجوههم وجوه طير الفلاة ينزلها وينزلون فيها» «ويذكر أيضا أن الرشيد تنبأ للمعتصم ببناء المدينة». وقد اتخذها المعتصم كمقرًا له ولجنده لتجنّب الأخطار الناجمة عن أن الاحتكاك بأهل بغداد قد يؤدي إلى تهديد خلافته، فغرضه دفاعي بالدرجة الأولى. وذكرت بعض المصادر أنه قام بنقل مقر إقامته من بغداد بسبب حوادث اصطدامات متفرقة حدثت بين جنده الأتراك وأهل بغداد الذين تأذّوا منها، ولمزيد من المعلومات، انظر،

ابن الاثير(ابو الحسن على بن أبى الكرم): الكامل فى التاريخ، تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ، جـ٦، ص ٢٢، اليعقوبى(أحمد بن أبى عقوب): البلدان، تحقيق محمد أمين ضناوى، دار الكتب الجامعية، بيروت، د.ت، ٥٦، صالح أحمد العلي سامرّاء دراسة في النشاة والبنية السكانية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بغداد، ص٦١-٦٣، ابراهيم ايوب: التاريخ العباسى السياسى والحضارى، دار الكتاب العالمى، بيروت، ١٩٨٩م، ص٩٣-٩٤، راجع ايضا:

ALASTAIR NORTHEDGE & DEREK KENNET, "Archaeological Atlas of Samarra", *Samarra Studies II*, *1*, The British Institute for the Study of Iraq 2015,p.34,

وبخروج المعتصم من بغداد معقله الحصين وموطن أنصاره إلى سامراء، أصبح الترك عاملًا مؤثرًا فى زعزعة قواعد الخلافة العباسية وقد ساعدتهم الظروف على التلاعب بمقدرات الخلافة، فقد أعلى المعتصم من شأن الترك المجلوبين وآثرهم على الفرس والعرب، حتى أنه أرسل لوليه فى مصر كيدر بن نصر بن عبدالله يأمره بإسقاط العرب من ديوان الجيش. وعملا للحفاظ على مراكزهم وكذلك على ارتباطاتهم مع الفئات الموالية لهم من جند ومسئولين عسكريين ومدنيين، كان على هؤلاء القادة الاتراك أن يهيئوا موارد مالية تكفى احتياجاتهم،فكان ذلك دافع لأن يعبثوا بمقدرات الدولة ومواردها لتوفير تلك الموارد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الاتراك اشتد ساعدهم وقويت شوكتهم وغلبوا على أمور الدولة العباسية وخصصوها بعدما تمكنوا من إنقاذ الدولة من خطر بابك الخرمى(١)، وبعدما ساهموا بشكل مؤثر وفعال فى فتح عمورية، فتحول النفوذ لهم، وبعد أن كانت الدولة فى قبضة الوزراء الفرس أصبحت فى يد القواد الترك. وبعد أن كانت الأحداث فى الدولة العباسية ترتبط بأعلام الفرس كإبى مسلم الخراسانى والبرامكة وبنى سهل، ظهر تاريخ مرتبط أحداثه بأشناس التركى وايتاخ والأفشين، إذ كانوا القابضين على زمام الدولة والمتصرفين فيها.

ADAMO, N, "Sammara and its Canals", *Journal of Earth Sciences and Geotechnical Engineering*, Vol.10, No.3, 2020,pp.225-6

(١) بابك Babak أسم معرب من الفارسية Papak، وهو صاحب الثورة الكبرى (٢٠١-٢٢٢هـ)، وقد اختلف الناس حسب قول الدينورى فى نسبه ومذهبه، ويشير إلى أنه من ولد مطهر بن فاطمة بنت أبى مسلم، هذه الذى ينتسب لهم الفاطمية من الخرامية لا إلى السيدة فاطمة بنت رسول الله، وكان بابك الخرمي قد مزج بين الإسلام والمجوسية وأسس دينًا هجينًا وعمد إلى إصلاحات اقتصادية واجتماعية جذرية مما ساهم في بقائه عصيًا على الدولة العباسية عشرين عامًا إلى أن استطاع القائد التركي أفشين القضاء عليه انظر:

الدينورى (أبى حنيفة أحمد بن داود): الأخبار الطوال، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٣٠هـ، ص ٣٨١.

وفيما يتعلق بأصل اشناس ودخوله فى كنف الخليفة المعتصم بالله، فإن المصادر التى لم تشر من قريب أو بعيد عن مراحل حياته السابقه، ومعظمها اكتفى بالقول أنه لما أخذ الخليفة المعتصم فى طلب الترك بعد توليه الخلافة واشترى من كان من بغداد من رقيق الناس، وكان ممن اشترى من هؤلاء اشناس التركى، وذلك اعجابا لقدرته وشجاعته،وكان حينذاك مملوكا لنعيم بن خازم ابن أبى هارون بن نعيم[(١)]. وفيما يدور حول شخصية اشناس فيقول ابن العديم أن أشناس كان إذا سكر عربد، وكانت امرأته غالبة عليه، وكان يخافها خوفا شديدًا، فإذا بلغها عربدته شدت عليها ثيابها وأخذت قوسها وسهامها، ووقفت بإزائه تشتمه وتهدده فينام، فشق ذلك على المعتصم، فبعثني إليها أنكر عليها فعلها، وأعرفها محل أشناس وجلالته، وأن هذا يغض منه، فقالت: ما أجيبك إلا بحضرته، فلما حضر قالت له: أتكره ما أفعله أم تحبه؟ قال: بل أحبه وأسربه، فقالت: ما عندي لك جواب غير هذا، قال، فرجعت الى المعتصم، فأخبرته فأمسك عنها، وهو ما يختلف شكلًا وموضوعًا عن اشناس القائد المغوار[(٢)]، وبتحليل ما سبق والشذرات المتناثرة فى المصادر الاسلامية، نجد أن أشناس كان يعيش بشخصيتين، الأولى الذكى الخبيث والمقاتل الشجاع، والذى أقنع الخليفة المعتصم ومن خلفه أن يقنعهما ويمنحاه تلك المميزات غير العادية والتى أصابت حمق وحسد بعض أقرانه من القادة الترك وهو ما سوف يرد خلال السطور القادمة، وشخصية المغلوب على أمره أمام زوجته، وبطبيعة الحال فخضوعه بهذا الشكل تحت سيطرة زوجته له أسبابه، ولكن وللأسف فإن المصادر لم تتيح للباحث أى معلومة حول ذلك.

---

(١) يقول الطبرى أن من أطلق عليه أسم أشناس هو أبو اسحق بن الرشيد أثناء قيامه بالقضاء على تمرد مهدان بن علوان الحرورى ببزرجسابور سنة ٢٣٠هـ، انظر: الطبرى: المصدر السابق، جـ٨، ص ٥٥٨.

(٢) ابن العديم(الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد): بغية الطلب فى تاريخ حلب، تحقيق دكتور سهيل ذكار، دار الفكر، بيروت، د.ت، جـ١، ص١٩٢٠.

ومما تجدر الاشارة أن المعتصم لما انتهى من بناء سامراء وانتقل إليها سنة ٢٢١هـ، أشار اليعقوبي إلى التنظيمات الخاصة التي وضعها المعتصم للأتراك في سامرّاء فقال" إن المعتصم أفرد قطائع الأتراك عن الناس جميعا، وجعلهم معتزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولدين ولا يجاورهم إلا الفراغنة، واضاف قائلًا "وصيرت قطائع الأتراك جميعا والفراغنة العجم بعيدة عن الأسواق والزحام، في شوارع واسعة ودروب طوال، ليس معهم في قطائعهم ودروبهم أحد من الناس، لا يختلط بهم من تاجر ولا غيرهم ثم اشترى لهم الجوارة"[١]، ويؤخذ على ما قام به المعتصم من شراء الجوارى الترك ليتم التناسل من عنصر واحد، ومنعهم أن يزوجوا أو يصاهروا إلى أحد من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم إلى بعض وهو أمر يعظم من وحدة وقوة الاتراك، ويوجد عازل بينهم وبين بقية رعايا الدولة العباسية. وذكر البلاذري أن المعتصم عندما شيد سامرّاء أنزل أشناس مولاه فيمن ضم إليه من القواد كرخ فيروز[٢].ويذكر بيبز Pipes أن مقاطعة إشناس تقع شمال مدينة سامراء الحالية بمسافة ٧كم، وهذه المقاطعة ضمن منطقة كرخ سامراء، وقد أمر الخليفة المعتصم اشناس بأن يبني الدور والاسواق والمساجد ضمن مقاطعته، كما ضم اشناس عددًا من القادة الاتراك مع عوائلهم وأسكنهم في تلك المقاطعة. كما أمر الخليفة المعتصم اشناس ببناء سور محكم يحيط بمقاطعته كي لا يختلط مع أبناء العامة[٣].

---

(١) اليعقوبى: المصدر السابق، ص ٥٩، ابن الطقاطقا: المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٢) البلاذرى: المصدر السابق، ص ٤١٧.

تشير الحفريات التى تمت من خلال فريق اثرى، أن قصر اشناس كانت تبلغ مساحته ٣٧٧*٢٤٦م، تفتح من خلاله بوابة رئيسية على شارع منطقة الكرخ، وبه مجموعة من قاعات الاستقبال فى الجنوبية المطلة على نهر مرير المنطلق إلى نهر دجلة، انظر:

ALASTAIR NORTHEDGE & DEREK KENNET, *Op Cit*, p.74.

(٣) PIPES, D., *Turkes*, p.91.

وقام الخليفة المعتصم بتعين اشناس واليًا على مصر عام ٢١٩هـ، وكان أشناس قويًا ذو بأس، فقام بتولية موسى بن أبي العباس نائبًا له على مصر، فتولى موسى بن أبي العباس ولاية مصر في رمضان عام ٢١٩ هـ بعد عزل المظفر بن كيدر عنها، استمر موسى على ولاية مصر إلى أن عزله أشناس في ربيع الأول عام ٢٢٤ هـ فكانت ولايته على مصر أربع سنين وسبعة أشهر، ثم ولى بعد منه مالك بن كيدر وهو ابن نصر الملقب بكيدر الذي توفى وهو والٍ على مصر عام ٢١٩ ووليها أخوه المظفر أيضًا لأربعة أشهر فقط، ولاهُ القائد التركي أبو جعفر أشناس نائبًا له وواليًا للخلافة العباسية على مصر. ويذكر ابن تغر بردى أنه تم الدعاء لأشناس على منابر مصر، وهو حدث الأول من نوعه بما يعنى مدى ما وصل إليه الاتراك بصفة عامة واشناس بصفة خاصة في يولى من يريد نائبًا عنه، وأن يتم الدعاء له على المنابر وفى ذلك مساواة للخليفة [١].

وبمرور الوقت تمكن الاتراك من تقوية وضعهم ونفوذهم منذ عهد المعتصم، حيث كلفهم بقيادة قواته ومنحهم وظائف هامة في الدولة، ومن ثم أصبحوا أصحاب قوة ونفوذ بعد القضاء على بابك الخرامى في العاشر من شوال سنة ٢٢٢هـ، والذى لعب الدور الأول في القضاء عليه القائد التركى الأفشين بمساعدة اشناس وايتاخ. كذلك دورهم الكبير والذى لا يمكن تجاهله في واقعة عمورية سنة ٢٢٣هـ لرد الاعتبار لما حدث في زبطرة[٢].

---

(١) ابن تغري بردي(جمال الدين أبى المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، قدم وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتاب العلمية، بيروت، د، ت.، ج٢، ص ٢٨١.

(٢) استغل الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل انشغال الخليفة المعتصم في القضاء على فتنة بابك الخرمي، وقام بتجهيز جيشا ضخما بقيادته، بلغ قوامه أكثر من مائة ألف جندي، هاجم شمال الشام والجزيرة، ودخل مدينة "زِبَطْرة" التي تقع على الثغور، وكانت تخرج منها الغزوات ضد الدولة البيزنطية، وقد تمكن الجيش البيزنطى من دك حصون المدينة وقتل ما فيها من الرجال، وانتقل إلى "ملطية" المجاورة فأغار عليها، وعلى كثير من

على أية حال تجهز المعتصم جهازًا لم يتجهزه خليفة قبله من القوات والعتاد، وخرج في جيش ضخم يقدره البعض بنصف مليون جندي. وقام بتقسيم الجيش بحيث وضع أشناس على المقدمة، وأيتاخ وعلى الميمنة،و عبد الله بن دينار على الميسرة، بينما تولى هو طليعة الجيش، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٢٢٣هـ، ولما وصل إلى منطقة سروج أرسل الأفشين أمامه وسار هو إلى طرسوس، والتقى جيش الأفشين بالجيش البيزنطى، كان النصر أول الأمر للبيزنطيين ثم انتصر الأفشين وتفرق جيش ثيوفيل. أما المعتصم ومعه أشناس فإنهما سارا إلى «أنقرة» فدخلاها دون أية مقاومة، ثم انطلق بعد ذلك نحو"عمورية"، ورغم حصانتها الشديدة فقد تمكن المسلمين في النهاية من فتح المدينة وغنموا فيها مغانم كثيرة، وكان لأشناس دور هام في تلك الحرب(١).

أثار صعود الترك غضب النخب العباسية التقليدية، الذين رأوا قوتهم تتضاءل لصالح الترك،مما دعى عدد من القادة العرب للتضامن من أجل وقف هذه المهاترات، مثل عمرو الفرغاني وأحمد بن الخليل بن هشام مؤامرة للإطاحة بالمعتصم واستبداله بابن أخيه نجل المأمون العباس. تزايد الشك في سلوكهم. وقد نجح اشناس في لعب دورًا رئيسيًا في الكشف عن تلك المؤامرة بعد سقوط عمورية. فقد تشكك أشناس في تصرفاتهم مما جعله يضعهم قيد المراقبة والملاحظة اليومية. وبادر أشناس بالكشف عن المؤامرة واعتقال المتآمرين، مع زملائه الترك،

الحصون، ومثّل بمن صار في يده من المسلمين، وسَمَلَ أعينهم، وقطع آذانهم وأنوفهم، وسبى من المسلمات فيها قيل أكثر من ألف امرأة، انظر:
ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٣، ص٣٢٧-٣٢٨.

(١) الطبرى: المصدر السابق، جـ٩، ص ٧٠، ابراهيم ايوب: المرجع السابق، ص ٩٦.

إيتاخ و بغا الأكبر. وقد أدى ذلك إلى تطهير واسع للمؤسسة الفارسية التي خدمت العباسيين حتى ذلك الوقت، وإعدام ما يزيد عن سبعين من قادتهم. الهجر، وكانت الاستفادة الكبرى من كشف هذه القادة الاتراك بطبيعة الحال، وكان على رأس المستفيدين كان أشناس[(١)].

الجدير بالذكر أن أشناس كان الشخص الأكثر جنيًا للأرباح من تلك الأحداث المتلاحقه، فقد قام المعتصم بتسميته أميرًا على سامراء حين غادرها، وفي سنة ٢٢٥هـ، رفع قدره، وزاده سلطانًا حتى أجلسه في حضرته على كرسي، كما يجلس أمراء آل العباس، وتوَّجه ووشَّحه، وأشرف على زواج ابنته «أترنجة» للحسن بن الإفشين، ودعا إلى عرسه أهل سامراء، وكان الخليفة يباشر بنفسه تفقُّد الحاضرين إلى العُرس[(٢)] وفي نفس العام عُيِّن أشناس واليًا على ولاية عظمى تضم ولايات مصر والشام والجزيرة. وحين شارك أشناس في الحج في سنة ٢٢٦هـ، نال الكثير من التكريم في جميع محطة من محطات درب الحج المصري، حيث دعى له على كل المنابر التى مر بها من سامراء إلى مكة والمدينة، وسلم عليه فى هذه الكور كلها بالإمارة، يضاف إلى ذلك حدثا هام حيث استخلفه مكانه حين خرج إلى السن[(٣)].

---

(١) الطبرى: المصدر السابق، جـ٩، ص ٧٨. ابن مسكويه(أبو على أحمد بن محمد): تجارب الأمم وتعاقبهم، تحقيق سيد كسرو حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، جـ٤، ص ٥٠-٥١.

(٢) ابن الجوزى(أبى الفرج عبدالرحمن بن على): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، دار المكتبة العلمية، بيروت، ١٢١٤هـ/ ١٩٩٢م، جـ١١، ص ٢٤.

(٣) السن مدينة على شاطئ دجلة عامرة وعندها يصب نهر الذاب إلى دجلة وبينها وبين الحديثة عشرة فراسخ، انظر:
الطبرى: المصدر السابق، جـ٩، ص ١٠٣، ص ١١٤-١١٥، زكريا كتابجى: الترك، ص ١٤٧.

ولعله من المفيد أن نؤكد أن الأمور اصبحت أكثر تعقيدًا لما ناله أشناس من افضلية اشعلت نار الغيرة فى قلب الأفشين، فأخذ يدبر المكائد للتخلص من المعتصم ومن حوله. و مرجع ذلك أن أحمد بن أبي دؤاد وزير المعتصم بلغه أن الأفشين يدبر لأمر ما، فأشار على المعتصم بالله بان يناصف الجيش بين الافشين وأشناس. ففعل الخليفة ذلك، فرأى الأفشين فى قرارة نفسه أن هذا الاجراء يقلل من أهميته كقائد عام للجيش، و طال حزنه و اشتد حقده. فقال ابن ابي دؤاد للمعتصم بالله: ان أبا جعفر المنصور استشار أنصح الناس عنده في أبي مسلم فكان جوابه ان قال: يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول "لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا"[١] فقال له المنصور: حسبك، ثم قتل أبا مسلم. فقال المعتصم بالله: حسبك انت أيضا يا أبا عبد الملك، ثم وجه إلى الافشين فقتله[٢].

على أية حال لم يحد مقتل الأفشين من تسلط الاتراك وازدياد نفوذهم فى ضعف وقلة حيلة المعتصم فى الحد من نفوذهم، وإذا كان المؤرخين قد تخاذلوا أو أغفلوا الحديث عن أفعالهم،فإن الشعراء كانوا أكثر الناس تفاعلًا مع هذه القضية. ففى خضم تلك الأحداث التى ظهر فيها بوضوح قوة ونفوذ الاتراك وبطبيعة الحال اشناس كأحد هؤلاء القواد أصبح اشناس والترك محل اهتمام الشعراء والأدباء بين المدح والذم، فهذا الشاعر صردر يذكره فى قصيدة له قائلًا

---

[١] القرآن الكريم، سورة الانبياء، الآية ١١٤.

[٢] الصقت الروايات العديد من الصفات غير الحميدة بالأفشين بعد اعدامه، فهناك من قال أنه مجوسى ووجد بمنزله صنم، وهناك من قال أنه بالكشف عليه وجد أنه غير مختون، انظر: الدينورى: المصدر السابق، ص ٣٨٣

جيوش من الأقدار تفنى عداته * بلا ضرب ايتاخ ولا طعن اشناس [(١)]

كما هجاه الشاعر العربى الكبير دعبل الخزاعي فى قصيدة مطولة، تضمنت صورة لما كان يكنه الناس من تفضيل المعتصم للترك، وما ناله الناس من افعالهم المشينة:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة * ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب

كذلك اهل الكهف سبعة * خيار إذا عدوا وثامنهم كلب

وإني لأعلي كلبهم عنك رفعة * لأنك ذو ذنب وليس له ذنب

لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم * وصيف واشناس وقد عظم الكرب[(٢)]

وفى موضع آخر عبر أحد الشعراء على تغلل الأتراك وسيطرتهم على الأمور قائلًا:

أصبح الاتراك مالكى الأمر والعالم * ما بين سامع ومطيع[(٣)]

على أية حال لم تسيطر حالة الغضب على الرعية وحدهم، فانتقل هذا الأمر إلى الخليفة المعتصم نفسه، ويظهر هذا الأمر فى بوضوح فى حديثه مع والى بغداد إسحاق بن إبراهيم، حيث قال له المعتصم: يا إسحاق في قلبي شيء أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة. فقال إسحاق: قل يا سيدي فأنا عبدك وابن عبدك. قال المعتصم: نظرت

---

(١) صردر(الرئيس أبى منصور على بن الحسن): ديوان صردر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٤.

(٢) ديوان دعبل بن على الخزاعى، تحقيق الدكتور ابراهيم الأميونى، منشورات محمد على بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٣٨.

(٣) مشاعل عبيد جزاء العتيبى: تزايد نفوذ الاتراك في العصر العباسى ٢١٨-٢٣٢هـ، مجلة البحث العلمى في الآداب، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، مجلد ١٠، العدد ٢٠، ص ٥٢.

إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم! قال إسحاق: ومَن الذي اصطنعهم أخوك؟ قال: طاهر بن الحسين؛ فقد رأيتَ وسمعتَ، وعبد الله بن طاهر؛ فهو الرجل الذي لم يُر مثله، وأنت؛ فأنت والله الذي لا يعتاض السلطان منك أبدًا، وأخوك محمد بن إبراهيم؛ وأين مثل محمد؟! وأنا فاصطنعت الأفشين؛ فقد رأيتَ إلى ما صار أمره، وأشناس؛ ففشلٌ أيُّه! وإيتاخ؛ فلا شيء، ووصيف؛ فلا مغنى فيه! فقال إسحاق: أجيب يا أمير المؤمنين على أمان من غضب؟ قال: قل. قال إسحاق: يا أمير المؤمنين، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعمل أمير المؤمنين فروعًا لم تنجب، إذ لا أصول لها! قال: يا إسحاق لَمقاساة ما مرَّ بي في طول هذه المدة أسهل عليَّ من هذا الجواب. وقد سعى المعتصم أن يقضى على نفوذ تلك الفئة بفئة جديد من الجنود المغاربة، ولكن الموت لم يسعفه ليترك الاتراك يعبثون بالدولة ويشكلونها حسب رغبتهم(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن غالبية المؤرخين حملوا الخليفة المعتصم حالة الضعف والاضمحلال التى ألمت بالدولة العباسية وما حدث للخلفاء من بعده، واتهموه بقصر النظر في سياسته لاتخاذ الاتراك وتقريبهم له وكذلك أولاده من بعهده(٢)، وأنه كان كالأسير في عاصمته الجديدة، أموره بيد حراسه(٣). كذلك منهم من رأى أن المعتصم أول الخلفاء الذين يبتدئ بهم عصر الضعف في الدولة العباسية؛ فكان ذا ثقافة محدودة وفي إدارته مستسلم لوزرائه، وفي خراجه عسوف، ولولا

---

(١) الطبرى: المصدر السابق، ج٩، ص ١٢٢.

(٢) شاكر مصطفى: دولة بنى العباس، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، ايلول- سبتمبر ١٩٧٣م، ج٢، ص ٤١٦.

(٣) فيليب حتى: تاريخ العرب طول، ترجمة أدوارد جرجى، دار الكشاف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٥٣م، ص ٥٦١.

شجاعته وحزمه وحروبه ضد الدولة البيزنطية لما كان له مزية تُذكر، وهو في الحق خليفة عادي لم نرَ من يثني عليه من المؤرخين والكتَّاب إلا وزيره أحمد بن أبي دؤاد، فقد وصفه بالعقل وسعة الأخلاق ولين الجانب وجميل العشرة، إلا أن هذه الشهادة مجروحة لصلة الرجل القوية به، وإن مما يُذكر عن الرجل إكثاره من الأتراك وإفساده أمر الدولة بهم، ومات المعتصم في ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ، ودُفن بسامراء[١].

كيفما كان الأمر فقد توفى الخليفة المعتصم سنة ٢٢٧هـ، وخلفه الواثق(٢٢٧-٢٣٢هـ) وقد شهد عهد اتساع أكثر لنفوذ القادة الاتراك، حيث نالوا امتيازات كبيرة لم تكن في الحسبان.فقد فتح لهم بابًا جديدًا في مجال السياسة العامة، ولم يعد دورهم يقتصر على الجانب العسكري بل أصبحوا يتدخلون في إدارة الدولة، ففي سنة ٢٢٨هـ/٨٤٢م عقد الواثق لقائده. أشناس التركي وولاه جميع الولايات الواقعة إلى الغرب من سامراء وتوجه وألبسه وشاحين من ذهب،وولّى إيتاخ الجانب الشرقي من الدولة،ويعلق السيوطى على هذا الحدث قائلًا" وفي سنة ثمانٍ وعشرين استخلف على السلطنة أشناس التركي، وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجًا مجوهرًا، وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطانًا"[٢]. لقد ثبت الاتراك في عهد الواثق أقدامهم في الحكم، وحصل رؤساؤهم على نفوذ كبير، فبعد أن اضطر الخليفة أن يخلع على أشناس لقب السلطان معترفا له بحقوق تتجاوز نطاق المهام العسكرية فكان بذلك أول خليفة استخلف سلطانا،أسند إليه أعمال الجزيرة وبلاد الشام ومصر كما عهد إلى إيتاخ بولاية خراسان والسند وكور دجلة. ودليل أن الواثق كان يعتمد على أشناس اعتمادًا كليًا في تصريف كثير من الأمور العسكرية

---

[١] خليل ابراهيم السامرائى: تاريخ الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي ١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م، جامعة الموصل، ١٩٨٨م، ص ١١٧، أمينة بيطار: تاريخ العصر العباسى، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧م، ص ٢٢٧.

[٢] السيوطى: المصدر السابق، ص ٢٤٨.

والمدنية أنه منحه ما يقرب من أربعين ألف درهم لسد نفقات تلك الخدمات[١]، وظل أشناس على ذلك حتى وافته المنية سنة ٢٣٠هـ ليسدل الستار على دور هذا الرجل الذى نجح في الصعود من مملوكا لنعيم بن خازم ابن أبى هارون إلى قائد جيش ثم سلطان يحكم ما يقرب من نصف الدولة العباسية أو أقل من ذلك،وقد تمكن هو واقرانه من فرض سيطرته المعنوية وأحيانا المادية على الخليفة، ونجاحه فى أن يدفع الخليفة المعتصم للقضاء على النخب العباسية التقليدية لصالحه ولصالح بنى جلدته، كما تمكنوا من السيطرة على مفاصل الدولة من السيطرة على الوظائف الحساسة بالدولة وبخاصة منصب الحاجب الذى يمكنهم من رصد كل شئ بالبلاط. كذلك على الرغم من أنه لم يكن الوالي الفعلي لمصر وبلاد الشام فكان يقوم بتعين نوابًا للحكم بدلًا منه. في عهد المعتصم وكذلك الواثق، امتدت سلطاته إلى الولاية العامة على جميع الولايات الغربية للدولة العباسية.

ومن ثم فليس من المبالغة القول أن الخليفة المعتصم كان أول من ساهم فى اضمحلال الدولة العباسية وضعفها على يد الاتراك الذين وصلوا للتحكم بعد ذلك فى خلع وتعين الخلفاء، حتى وصل الأمر فى بعض الحالات لسفك دمائهم.

***

(١) ابن العديم: المصدر السابق، ص ١٩١٩-١٩٢٠، ضيف الله يحى الزهرانى: النفقات وادارتها في الدولة العباسية، مكتبة الطالب الجامعى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٣٣١، محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة العباسية، دار النفائس، بيروت، الطبعة السابعة، ١٣٤٠هـ/٢٠٠٩م، ص١٦١.

المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ٢٤٥ - ٢٩٨

دَوْرُ الجَيشِ فِي الأَعْمَالِ المَدَنِيَّةِ فِي مِصْرَ زَمَنَ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بن قَلَاوُونَ (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م)

The Role of the Army in Civil Works in Egypt During Al-Nasir Muhammad Ibin Qalawun era (709-741 H/1309-1340 AD)

محمد فوزي مصري رحيل (*)

ملخص

تهتم هذه الدراسة بإلقاء أضواء كاشفة على دور الجيش في الأعمال المدنية في مصر زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وذلك في فترة سلطنته الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م)، تلك الفترة التي سعى خلالها لتدعيم وجود دولة سلاطين المماليك بدعامة العمران، ومن هنا اتجه لاستغلال كل طاقات الدولة لإنجاز هذه المهمة التي تعد دعامة جديدة لشرعية السلطنة المملوكية. حددت

(*)مدرس التاريخ الإسلامي، كلية التربية – جامعة مطروح.

Lecturer of Islamic History, Faculty of Education - Matrouh University

الدراسة مفهوم الأعمال المدنية – الغير عسكرية أو الدينية– التي عاد مردودها على كل فئات الشعب بلا تمييز، كما نقبت الدراسة عن الظروف التي ساعدت على الاستعانة بالجيش في الأعمال المدنية، والتي كان من أبرزها: شغف الناصر محمد بالعمران، و تراجع حدة الغزوات الخارجية، واستقرار الأحوال الأمنية الداخلية، بجانب وفرة التمويل من مصادر عديدة، ولا نغفل أهمية وفرة الأيدي العاملة والخبرات الفنية. وقد تنوع دور الجيش في الأعمال المدنية من خلال الإشراف أو التمويل أو المشاركة في التنفيذ. ولم يتوقف دور الجيش في الأعمال المدنية عند المشاركة في المشروعات الكبرى مثل: حفر خليج الإسكندرية، وخليج سرياقوس، وبناء الكثير من الجسور، وتخطيط الميادين، لكن تعداه للمشاركة في إطفاء الحرائق والتصدي للأزمات الاقتصادية. وقد أثمرت مشاركة الجيش في الأعمال المدنية ثمارًا طيبة بدت في: التوسع العمراني الكبير، وزيادة الرقعة الزراعية، بجانب الحد من الآثار السلبية للأزمات الاقتصادية، وتقليل خسائر الحرائق التي تكررت خلال عصر الناصر، تلك الثمار التي أجمعت عليها المصادر التاريخية.

الكلمات المفتاحية: مصر – الجيش – المماليك – الناصر محمد بن قلاوون – الأعمال المدنية

Abstract

This study is interested in highlighting the role of the army in civil works in the era of Sultan Al-Nasir Muhammad bin Qalawun, during his third sultanate (709-741 AH/1309-1340 AD), During that period, he sought to consolidate the existence of the state of the Mamluk with the pillar of development, Hence, he proceeded to exploit all the capabilities of the state to accomplish this task, which is a new pillar of the legitimacy of the Mamluk Sultanate. The study defined the concept of civil works, that is, non-military or religious works, which benefited all people without discrimination. The study drilled the conditions that helped the Sultan to use the army in the civil works, the most

prominent of which were: Al-Nasir Muhammad's passion of development, the decrease in the number of invasions, the stability of internal security, the abundance of funding from many sources, the affluence of the manpower and the technical expertise. The role of the army in civilian works has diversified through: supervision, financing, or participation in implementation. The role of the army in civil works was not limited to participating in major projects such as: excavating the Gulf of Alexandria, and the Gulf of Syracuse, building many bridges, and planning squares, but went even further to participate in fires fighting and encountering the economy crises. The participation of the army in the civil works has yielded good results that appeared in: the great urban expansion, increasing the agricultural area, in addition to limiting the negative effects of economic crises, and reducing the losses of fires that were repeated during the Nasser era, those fruits unanimously agreed upon by historical sources.

key words: Egypt - the army - the Mamluks - al-Nasir Muhammad ibn Qalawun - civil works.

لم يتخلف جيش مصر في أي من مراحل تاريخها عن نداء الواجب، وقد يظن ظان أن الواجب الذي أداه جيش مصر عبر العصور مجرد القيام بوظيفته الطبيعية المتمثلة في الدفاع عن حدودها ورد كيد أعدائها، لكن الأمر تعدى ذلك في فترات عديدة استقرت فيها أحوال البلاد فشارك خلالها الجيش في أعمال البناء والتعمير كما سيتضح من ثنايا هذه الدراسة. وهنا يكمن سر أهمية هذا البحث الذي يهدف إلى تسليط الضوء على دور – لم يستوف نصيبه من الدراسة – من أدوار الجيش المصري في خدمة هذه الأمة، ألا وهو المساهمة في المشروعات والأعمال المدنية.

وتسعى هذه الدراسة للإجابة عن تساؤلات عديدة منها:

- ما المقصود بالأعمال المدنية وما طبيعة أدوار الجيش فيها؟

- ما العوامل التي ساعدت على مشاركة الجيش في الأعمال المدنية؟
- ما أنواع الأعمال المدنية التي شارك فيها الجيش؟
- ما الآثار المترتبة على مشاركة الجيش في الأعمال المدنية؟

وفيما يتعلق بالدراسات السابقة حول هذا الموضوع فعلى حد علمي لم يقم باحث بدراسة هذا الموضوع في فترة الدراسة هذه، ولم يرد أي ذكر لهذه الجهود إلا بشكل عابر في الدراسات التي اهتمت بعصر السلطان الناصر محمد ابن قلاوون[1]، دون توضيح لدور الجيش في إنجاز هذه المشروعات ولا ظروف مشاركته فيها.

وعماد المنهج المتبع في هذا الموضوع المنهج التاريخي بأدواته المختلفة من تحليل واستقراء واستنباط وسرد، وكل ما يتناسب من أدوات لعلاج عناصر الدراسة على النحو الأمثل.

ولم يكن الموضوع سهلًا معبدًا بل كان صعبًا شائكًا في ظل قلة الإشارات المصدرية عنه على أهميته، مما تطلب البحث في عدد كبير من المصادر أملًا في الوصول إلى أكبر قدر من المادة العلمية التي تسمح بتمام الدراسة كما خُطط لها.

---

(١) من الدراسات العربية التي اهتمت بعصر الناصر محمد بن قلاوون: علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، (القاهرة – مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٤م)؛ حصة ناصر المبارك، الناصر محمد بن قلاوون والحياة الاقتصادية في عصره، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٨٧؛ أسامة حسن: الناصر محمد بن قلاوون، (القاهرة – دار الأمل، ١٩٩٧م) ؛ لامية وادي: دولة المماليك في عصر الناصر محمد ابن قلاوون، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر ٢، ٢٠١١م؛ أيمن فؤاد سيد: دولة سلاطين المماليك، (القاهرة – الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٩م)، ٦٢-٦٥.

ومن الدراسات الأجنبية انظر: LEVANONI, A., *A Turning Point in Mamluk History The Third Reign of al-Nasir Mohamed Ibn Qalawun (1310-1341)*, Brill, Leiden, 1995; Holt, P.M., “al-Nāṣir”, in: EI., Vol VII, Ed. By C. E. Bosworth & others, Brill, 1993, p. 991-992

وقد قسمت الدراسة إلى عدد من العناصر: مقدمة تشمل أهمية الدراسة، والدراسات السابقة والظروف التي ساعدت على القيام بهذه المشروعات، ثم انتقلت الدراسة إلى الحديث عن المشروعات التي قام بها الجيش المملوكي ومنها مشروعات تتعلق بحفر القنوات والمجاري المائية وبناء الجسور[1] للحد من أخطار الفيضان، ومشروعات للتوسع الزراعي، وهناك أيضًا جهود تتعلق بالدفاع المدني وبخاصة إطفاء الحرائق، كما شارك الجيش في الحد من الأزمات الاقتصادية وبخاصة نقص الغذاء للحد من الآثار الكارثية لهذه المصيبة، ثم عرضت الدراسة لنوع من المشروعات حالت الظروف دون تنفيذها وأسباب ذلك الأمر، وآخر النقاط التي تعرضت لها الدراسة مردود أو ثمار مشاركة الجيش في الأعمال المدنية، وجاءت الخاتمة مجملة نتائج الدراسة وتوصياتها.

وقبل الغوص في غمار الدراسة يجب توضيح أمر لا بد منه وهو مفهوم الأعمال المدنية. تعرف كلمة مدني بأنها اسم منسوب للمدينة، يخص جموع المواطنين عكس العسكري[2]، ومن هنا يمكن القول: بأن الأعمال المدنية تلك الجهود المبذولة للتنمية والتعمير وإدارة الأزمات التي ينتفع بثمرتها كل فئات الشعب، خلافًا

(١) أنواع الجسور: قسمت الجسور المصرية في عصر المماليك إلى نوعين: النوع الأول الجسور السلطانية، وهي جسور عامة تخص كل إقليم من أقاليم مصر، لها مخصصات مالية سنوية لصيانتها وتدعيمها، وعلى الدوام هي موضع عناية ومتابعة السلطان ضمانًا لاستمرار الإنتاج وتوفير حاجيات الشعب، وضمانًا لتدفق الأموال على الخزانة السلطانية. أما النوع الثاني الجسور البلدية التي تخص ناحية أو منطقة دون باقي المناطق، والنفقة عليها يتحملها أصحاب الإقطاعات والفلاحون فيما بينهم. انظر: ابن مماتي (الأسعد بن مماتي المتوفى ٦٠٦هـ/١٢٠٩م): قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، (القاهرة - مكتبة مدبولي، ١٩٩١م)، ٢٣٢؛ محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، (القاهرة - دار الفكر العربي ١٩٧٤م)، ٢٨٨.

(٢) أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، (بيروت - عالم الكتب، ٢٠٠٨)، ٤: ٢٠٧٩.

للأشغال العسكرية المرتبطة بالدفاع وحماية حدود الدولة وسيادتها، وكذلك العمائر الدينية التي تخص دينًا بعينه دون باقي الأديان. ومن هنا شمل نطاق البحث المشروعات أو الأعمال المدنية التي أُنجزت وانتفع بثمرتها كل فئات الشعب، والتي نُفذت بأيدي العسكريين أو بتمويلهم أو بإشرافهم كليًّا أو جزئيًّا إبان عصر الناصر محمد بن قلاوون.

الولايةُ الثالثةُ للناصرِ محمدِ بنِ قلاوونَ:

يعد الناصر محمد بن قلاوون المدعم الفاعل لدولة سلاطين المماليك[١]، ولم يتأت ذلك إلا في زمن سلطنته الثالثة، فمن المعلوم أنه تولى الملك صغيرًا في التاسعة من عمره عام (٦٩٣هـ/١٢٩٣م) عقب اغتيال أخيه الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣ هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م)، لكن الأمير كتبغا ما لبث أن تعلل بصغر سن الناصر محمد وعدم قدرته على تسيير دفة الأمور فعزله وتولى السلطنة بدله عام (٦٩٤هـ/١٢٩٤م)، ولقب نفسه بالملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري[٢].

---

(١) ابن العسال (مفضل بن أبي الفضائل، كان حيًّا في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي): النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ بن العميد، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين على السيد، (دمشق- دار سعد الدين، ٢٠١٦م)، مقدمة التحقيق، ١: ١٢.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول ولاية الناصر الأولى وسلطنة العادل كتبغا انظر: ابن العسال: النهج السديد، ١: ٣١٩-٣٢٥؛ ابن شاكر الكتبي (صلاح الدين محمد بن شاكر المتوفى ٧٦٤هـ/١٣٦٢م): عيون التواريخ، ج٣، تحقيق أحمد عبدالستار، (القاهرة - دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٦م)، ٣: ١٨١؛ ابن حبيب (الحسن ابن عمر بن الحسن المتوفى ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م): درة الأسلاك في دولة الأتراك، ج١، مخطوط رقم ٨٤٩ بالمكتبة السليمانية، استنبول، ورقة ١٠٢- ١٠٥؛ وأيضًا: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، (القاهرة - دار الكتب المصرية، ١٩٧٦م)، ١: ١٦٩-١٧٥؛ ابن تغري بردي (جمال الدين بن يوسف، المتوفى ٨٧١هـ/ ١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة - الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٨م)، ٨: ٤١-٥٠؛ السخاوي (شمس الدين محمد السخاوي، المتوفى ٨٦٨هـ/١٤٦٧م): الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، تحقيق =

لكن كتبغا لم يمكث طويلًا حتى أجبر على التنازل عن العرش للمنصور حسام الدين لاجين عام (٦٩٦هـ/١٢٩٦م)[(١)]، وهو الآخر لم يطل به المقام حتى قتل عام (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) ليتولى الناصر محمد بن قلاوون ولايته الثانية التي امتدت حتى (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، وخلال هذه الفترة كان الناصر لا يملك من أمره شيئًا إذ استبد كبار الأمراء بإدارة الدولة وفي مقدمتهم الأميران سلار[(٢)] وبيبرس الجاشنكير؛ اللذان

= أشرف محمد أنس، (القاهرة – دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٩م)، ١: ٢٣٣، ٢٣٤؛ ابن إياس (أبو البركات محمد بن محمد، المتوفى ٩٣٠م/ ١٥٢٣م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، (القاهرة – الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٨م)، ١: ٣٧٨–٣٨٦. أيضا انظر: وليم موير: دولة المماليك في مصر، ترجمة محمد عابدين وسليم حسن، (القاهرة – مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م)، ٧١؛ سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، (القاهرة – دار النهضة العربية، ١٩٩٦م)، ٢٣٥–٢٣٦.

AL-HARITHY, H., "The Patronage of al-Nasir Muhammad ibn Qalawun, 1310-1341", in MSR, Vol IV, 2000, p. 220.

(١) لمزيد من التفاصيل حول سلطنة الحسام الدين لاجين انظر: ابن العسال: النهج السديد، ١: ٣٣١– ٣٤١؛ ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، ٣: ٢٦٨ – ٣٢٤؛ ابن حبيب: درة الأسلاك (مخطوط)، ورقة ١١٣– ١١٩، تذكرة النبيه، ١: ١٩٤–٢١٣؛ السحماوي: الثغر الباسم، ١: ٢٣٤– ٢٣٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ١: ٣٩٤– ٤٠١.
أيضًا انظر: موير: تاريخ دولة المماليك، ٧١؛ سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ٣٣٩–٣٤١.
AL-HARITHY , H. , *op. cit.,* p. 220

(٢) الأمير سلار: هو سيف الدين سلار التتري الصالحي المنصوري، كان من مماليك الأمير الصالح علاء الدين على بن المنصور قلاوون، ولما مات علاء الدين صار من خواص السلطان المنصور قلاوون، ثم الأشرف خليل، وكان ذا حظوة لديه، تميز بالعقل وترك الشر والتمسك بأهداب الدين مع خبرة واسعة ودهاء، خدم المنصور لاجين وتولى له نيابة السلطنة حتى (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، ولما تراجع أمره مال للناصر محمد، وذهب للكرك وصحبه في دخول مصر، ومنحه الناصر محمد حكم الشوبك ثم عزل عنها، ثم ساءت علاقته مع السلطان فقبض عليه ومات في السجن ليلة (٢٤ من جمادى الأولى عام ٧١٠هـ/ ١٨ أكتوبر ١٣١٠م) تاركًا ثروة هائلة كثر فيها القول من مال ومتاع وجوار وعبيد وعقارات وضياع. لمزيد من التفاصيل عنه انظر: ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، (بيروت –دار صادر، ١٩٧٣م)، ٢: ٨٦– ٨٩؛ المقريزي (أحمد بن علي، المتوفى ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، (القاهرة – دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة،٢٠٠٧م)، ٢/ ١: ٩٧– ٩٩.

منعاه من الاتصال بالناس أو حتى التصرف فيما يملك من مال، مما أدى لذهاب السلطان إلى قلعة الكرك، وهناك تنازل عن منصبه[١]، فقفز على العرش السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير عام (٧٠٨هـ/١٣٠٨م). وما كان تنازل السلطان محمد بن قلاوون إلا مناورة تكتيكية، وترتيبًا للخروج من قبضة المماليك في القاهرة ليستقوي بأمراء الشام، الذين راسلهم ورتب معهم أمور مساندته في وقت اضطربت فيه أمور مصر، ففر كثير من الأمراء إلى الشام للانضمام للناصر محمد، ومن دمشق تقدم إلى القاهرة عام (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، ليتولى استرداد عرش أسرة قلاوون، وهذه المرة لم يكن ذلك الطفل الصغير، لكنه كان شابًا أصقلته الشدائد، وأتقن فن إدارة الدولة، والتعامل مع المماليك[٢]، كل ذلك مكنه من الاستقرار في العرش لمدة اثنين وثلاثين عامًا متصلة، أنجز خلالها كثيرًا من الإنجازات التي دعمت دولة سلاطين المماليك، ومن هذه الإنجازات كثير من المشروعات العمرانية والأعمال المدنية التي ضرب فيها الجيش بسهم وافر وهي موضوع هذا البحث.

وفي تقدير الباحث أن المشاركة العسكرية في هذه الأعمال كانت جانبًا من جوانب الإحساس بأزمة الشرعية، التي مثلت تحديًا استجاب له سلاطين المماليك

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية انظر: ابن العسال: النهج السديد، ١: ٣٤٦- ٤٧٤؛ ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، ٣: ٣٢٥- ٦٠٥؛ ابن حبيب: درة الأسلاك (مخطوط)، ورقة ١١٩، تذكرة النبيه، ١: ٢١٣- ٢٨٦؛ السحماوي: الثغر الباسم، ١: ٢٣٧ - ٢٣٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ١: ٤٠١-٤٢٣.

أيضا انظر: موير: تاريخ دولة المماليك، ٧٦؛ سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ٢٤١-٢٤٣

(٢) حول ظروف تولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنته الثالثة انظر: ابن العسال: النهج السديد، ١: ٤٧٩-٤٨٦؛ ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، ٣: ٦٢٨؛ ابن حبيب: درة الأسلاك (مخطوط)، ورقة ١٥٣، تذكرة النبيه، ٢: ١٩ و٢٢؛ السحماوي: الثغر الباسم، ١: ٢٣٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ١: ٤٣١.

انظر أيضًا: موير: تاريخ دولة المماليك، ٨٧؛ سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ٢٤٦-٢٤٧؛ موضى بنت سرحان: نشأة الناصر محمد وأثرها النفسي على علاقته بالأمراء، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، العدد ٨٨، ٢٠١٧م، ١٧٦.

LEVANONI, A, *op. cit.*, p.28-30; AL-HARITHY, H ,*op.cit.*, p. 220.

الأُوَل بأشكال متعددة منها: ظهور دولتهم بمظهر الدرع والسند حين تصدت دولتهم في مهدها للغزو المغولي(١)، ثم تصفية بقايا الوجود الصليبي في الساحل الشامي(٢)، وعضدت تلك الشرعية بإحياء الخلافة العباسية (٣)، وما إن وصلنا إلى

---

(١) كان الغزو المغولي للعالم الإسلامي من أخطر التحديات التي واجهت المسلمين في ظل عنف المغول ودمويتهم وتفكك العالم الإسلامي، ومن هنا اكتسب المماليك شرعية وجودهم - بالرغم من أصولهم غير الحرة- من خلال الانتصارات العديدة في عين جالوت (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، ومعارك حمص الثلاث (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) و (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)، و شقحب (مرج الصفر) (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م)، وكانت الأخيرة آخر المواجهات الكبيرة وبعدها لم تحدث مواجهات كبيرة حتى توفي الناصر محمد عام (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م). حول هذه المعارك انظر: بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ٤٣-١٦٣؛ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س ريتشاردز، (بيروت - المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، ١٩٩٨)، ٤٨- ٣٧٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ٤: ٣٥٨- ٣٦٥؛ انظر أيضًا: السيد الباز العريني: المغول، (القاهرة - دار النهضة العربية، ١٩٨١م)، ٢٥٣ - ٣٢٠؛ صبحي عبدالمنعم: سياسة المغول الإلخانيين تجاه المماليك في مصر والشام ٧١٦-٧٣٦م، (القاهرة - العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م)؛ حجازي عبدالمنعم: معارك حمص الثلاث بين المماليك والمغول، ضمن كتب الحروب الصليبية حركة الاستعمار الأوربي في العصور الوسطى، تحرير محمد مؤنس عوض، (القاهرة - دار الافاق العربية، ٢٠١٤م)، ٣٤٤-٣٨٤.

BROADBRIDGE, A. F., *Mamluk Ideological and Diplomatic Relations with Mongols and Turkic Rulers of near east and central Asia (658-807/ 1260-1405)*, Phd. theses, The University of Chicago,2001, p. 1-190.؛

(٢) حول دور سلاطين المماليك في تصفية معاقل الصليبيين انظر:

The Templar of Tyre, Part III of the Deeds of Cypriots, Translated by, Paul Crawford, England, 2003, p.40-129.

(٣) حول جهود الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة انظر: ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، (الرياض، ١٩٧٦م)، ٩٩-١١٢؛ شافع ابن علي الكاتب (شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل، المتوفى ٧٣٠هـ/١٣٣٠م): كتاب حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، (الرياض، ١٩٧٦م)، ٣٧-٥٥؛ المقريزي، السلوك، ٢/ ١، ٤٤٨-٤٥٩؛ العيني (بدر الدين محمود العيني، المتوفى =

الناصر محمد حتى أراد أن يدعم هذه الشرعية بدعامة جديدة ألا وهي التنمية الاقتصادية والعمران، وكأنه يكافئ جموع الشعب الذي خرج في أعداد ضخمة تجوب القاهرة منادية بعودته؛ تمسكًا بأهداب أسرة قلاوون، في وجه أمراء المماليك الطامعين في الملك، ذلك الطمع الذي جلب لهم المصائب وسوء الأحوال(١).

العواملُ التي ساعدتْ على مشاركةِ الجيشِ في الأعمالِ المدنيةِ:

يجدر بالباحث قبل الخوض في غمار الأعمال المدنية التي شارك الجيش في إنجازها إبان عصر الناصر أن يكشف اللثام عن العوامل التي ساعدت على ذلك، كما يلي:

أولًا- شغف السلطان بالعمارة:

يعد هذا العامل في مقدمة العوامل التي أسهمت في مشاركة الجيش المملوكي في مشروعات الدولة المدنية، فمنذ بداية ولاية الناصر الثالثة والسلطان في عمارة مستمرة غير منقطعة، حتى زاد عمران السلطنة بمقدار النصف خلال عهده وحده، وفي تقدير كل من ابن تغري بردي وابن إياس(٢) أن عمارة مصر والشام زادت في عصره

= ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،، تحقيق محمد محمد أمين، (القاهرة - دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٠م)، ١: ٢٩٣-٣١٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧: ١٠٩-١١٣. راجع أيضا، سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ٢٠٤-٢٠٩؛ أيمن فؤاد سيد: دولة سلاطين المماليك، ٤٧-٤٨.

AYALON, D., "Studies On the Transfer of the Abbasid Caliphate From Bagdad To Cairo", in *Arabica*, Vol VII, 1960, p. 41-59.

(١) حول المطالبات الشعبية بعودة الناصر محمد انظر: المقريزي: السلوك،٢/ ١: ٥٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٨: ٢٤٤؛ إبراهيم أبو سعيد: "ثورات المصريين في عهد الناصر محمد ابن قلاوون"، مجلة كلية الآداب – جامعة الفيوم، المجلد ٩، ٢٠١٤م، ٢٩٩.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ١٨٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ١: ٤٨١.

بمقدار النصف ممثلة في جوامع وخوانق[١] وقناطر وجسور وخلجان، كما يؤكد ذلك قول الطولوني[٢] "كان مغرمًا بحب العمارة وإذ بلغه أن أحدًا أنشأ عمارة شكره بين الناس"، كما وصفه علي مبارك[٣] بأنه كان شغوفًا بالعمارة. وقد انعكس شغف السلطان على عامة الرعية الذين حذوا حذو سلطانهم، حتى "امتدت أيدي الناس إلى العمارة وكأنما نودي في الناس ألا يبقى أحد حتى يعمر وذلك أن الناس على دين ملكهم"، كما ذكر المقريزي[٤].

ثانيًا- الاستقرارُ السياسيُّ:

شهدت ولاية الناصر محمد بن قلاوون الثالثة استقرارًا سياسيًّا كبيرًا، إذ تمكن من القضاء على المنافسين له من المماليك، واستبد بالحكم بلا منازع مدة اثنين وثلاثين عامًا متصلة، وهي أطول مدة ملك فيها أحد سلاطين دولة المماليك، وصف الناصر خلالها بأنه كان مهابًا عاقلًا حسن السياسة، في ظل الظروف القاسية التي مر بها في ولايتيه الأولى والثانية مما أكسبه خبرات عظيمة مكنته من إدارة الحكم باقتدار[٥]، فصارت دولة سلاطين المماليك بالفعل دولة عظمى يخطب ودها، باعتبارها أقوى

---

(١) الخوانك: جمع خانكاه، وأصل الكلمة فارسي، وتعني بيت الصوفية، ومع انتشار استخدام الكلمة قلبت ك إلى ق فصارت خانقاه. انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، (لندن- مؤسسة الفرقان، ٢٠٠٤م)، ٤: ٧٢٤.

(٢) (حسن بن حسين الطولوني المعمار) المتوفى ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م: نزهة الأبصار في أخبار الأخيار (مخطوط)، مكتبة حكيم أوغلي – استنبول، ورقة ٤٦٧ ب.

(٣) الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، (القاهرة – المطبعة الأميرية ببولاق، ١٨٨٦م)، ١: ٣٢.

(٤) السلوك، ٢/ ١: ١٣٠؛ محمد مصطفى زيادة: "حركة البناء والتعمير في عصر الناصر محمد ابن قلاوون"، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١٠، ١٩٦٢م، ٢٤١.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ١٦٥-١٦٦.

FLINTERMAN, W. and STEENBEREN J., "Al-Nasir Muhammad and Formation of the Qalawunid State", in: *Pearls on a string: art in the age of great Islamic Empires*, ed. By Amy Landau, University of Washington, 2015, p. 95, 96.

دولة إسلامية في هذه الفترة بدليل ما ذكره المقريزي[١] في أحداث عام (٧٢٥هـ/١٣٢٤م) من وصول عدد كبير من السفراء لم يعرف مثله في عام واحد ومنهم: رسل ملك اليمن، ورسل الامبراطور البيزنطي، ورسل ملك أرمينيا، ورسل ماردين، ورسل ملك النوبة، وكلهم يطلبون رضا سلطان مصر، وكذلك وصل في عام (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) رسل حاكم الدولة الإلخانية المغولية القآن أبي سعيد (٧١٦-٧٣٥هـ/١٣١٦- ١٣٣٥م)[٢].

ثالثًا- ترقيةُ المخلصين وإطلاقُ المحبوسين والخلاصُ من المعاندين[٣]:

بمجرد استقرار السلطان في ولايته الثالثة عام (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) حتى أسرع بمكافأة الأمراء الذين ساندوه في محنته وصبروا معه على الشدائد وخاصة مماليكه المقربين، فمنهم من رقي لأمير طبلخانة[٤] ومنهم

(١) السلوك ١/٢: ٢٥٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ٧٨.

(٢) المقريزي السلوك، ١/٢: ٢٩٢.

(٣) لخص الشجاعي في سيرة الملك الناصر سياسة السلطان في التعامل مع المماليك في سلطنته الثالثة قائلًا: "وأفنا كثير من الأمراء مماليك والده، ومماليكه الذي أقامهم وأمرهم تقدير مايتي أمير، وكان من خلته أن إذا كبر أميرًا في خدمته أذهبه وأخذ ساير موجوده، وأقام غيره صغيرًا يكبره ويعطيه ويقيمه الى أن يصير أكبر من الذي أذهبه." الشجاعي (شمس الدين المتوفى ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م): تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تحقيق برباره شيفر، (القاهرة - المعهد الألماني للآثار الشرقية، ١٩٧٧م)، ١١٣.
FLINTERMAN, W. and STEENBEREN J., "Al-Nasir Muhammad and Formation of the Qalawunid State", p 87.

(٤) أمير طبلخانة: لقب عسكري مملوكي يتكون من الكلمة العربية أمير، ومن الكلمة الفارسية طبلخاناه أي بيت الطبل، وهو أمير من الطبقة الثانية، يدق على بابه الطبول ويحمل قضيب من الفضة في المواكب العامة، وتحت قيادته من أربعين إلى سبعين فارسًا وربما ثمانين، ويأتي بعد مقدم الألف في الرتبة، يقوم السلطان باختيار من يراه منهم صالحًا لحكم الأقاليم. القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي، المتوفى ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (القاهرة - الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤م)، 3: ٤٨٠، حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار الإسلامية، (القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٦٥م)، ١: ٢٣١؛ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، (دمشق - دار الفكر، ١٩٩٠م)، ٢٢؛ محمد عبد الله العمايرة، المعجم العسكري المملوكي، (عمان الأردن - دار كنوز، ٢٠١١م)، ٤٦.

من رقي لأمير عشرة(١)، وبلغ عـددهم اثنين وثلاثين أميرًا(٢) دفعة واحدة منهم تنكز الحسامي(٣) وطغاي(٤)، وفي عام (٧١٢هـ/١٤١٢م) ذكر ابن

(١) أمير عشرة: أمير من الطبقة الثالثة تحت إمرته عشرة فرسان أو عشرين فارسًا، يختار من بينهم صغار الولاة. حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ١: ٢٣٨؛ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ٢٢.

(٢) الطولوني: نزهة الأبصار (مخطوط)، ورقة ٤٦١ أ.

(٣) الأمير تنكز: هو الأمير الكبير المهاب سيف لدين أبو سعيد، كان من مماليك السلطان لاجين، فلما قتل ضمه السلطان الناصر لخاصته وقربه، كان متمسكا بأهداب الدين مقبلًا على العلم، سمع صحيح البخاري أكثر من مرة وسمع كتاب الآثار للطحاوي، كما كان حريصا على أداء الزكاة في موعدها، ألزمه الناصر في سلطنته الثالثة ملازمة الأمير أرغون مدة عام؛ ليتعلم منه أصول النيابة وإدارة الحكم، فلما تمكن من ذلك جعله نائبًا للشام في ربيع الآخر عام (٧١٢هـ/ مايو ١٣١٢م)، نشر الأمن في ربوع الشام وأمن حدود الدولة المملوكية الشرقية، وافتتح ملطية، كان عفيف اليد لا يقبل الرشى، معظما عند الناصر محمد لا يرد له طلب، ولا ينقض قرارًا اتخذه، قام ببناء كثير من العمائر ما بين مساجد وخوانق وبيمارستانات في القدس ودمشق وصفد، تزوج أبنائه من بنات السلطان الناصر محمد، ولما بلغ نفوذه الذروة قرر السلطان الناصر الخلاص منه فقبض عليه وسجنه في الإسكندرية حيث مات مخنوقًا بأمر السلطان عام (٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م). عنه انظر الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك، المتوفى ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م): الوافي بالوفيات، ج ١٠، تحقيق جاكلين سوبله وعلي عمارة، (شتوتجارت- النشرات الإسلامية، ١٩٩١م)، ١٠: ٤٢٠- ٤٣٥؛ المقريزي: كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، (بيروت - دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١م)، ٢: ٦٠٧-٦٢١.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ١٣.

ASHTOR, E., “Tankiz”, in: EI, Vol X, p 185.

الأمير طغاي: سيف الدين الناصري، كان من مماليك المنصور لاجين، لما تسلطن الناصر محمد أمره ورفع قدره، وتولى عدد من الوظائف الكبرى منها نيابة صفد، شعر منه السلطان الناصر سموا للملك حين ألم به المرض، فقبض عليه عام (٧١٨م/ ١٣١٨م) وسجن بالإسكندرية حيث مات بعد قليل. عنه انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦: ٤٤٤-٤٤٦.

حبيب(١) أن السلطان أمر بترقية ستة وأربعين أميرًا، ومنهم من خصص له إقطاعات(٢) كثيرة الريع(٣)، كما استجلب رضا المماليك بالإفراج عن جماعة من الأمراء المسجونين أيام زين الدين كتبغا، ويبدو أنهم كانوا من ذوي المكانة، ومن ثم احتفل بيبرس المنصوري بالأمر وأثنى على السلطان(٤)، كما أكثر الناصر من إرسال الهدايا والجوائز لكبار الأمراء، وفي ذلك يقول بيبرس المنصوري(٥): "ولم يبق أحدٌ ممن له تعلق بالخدمة من أرباب السيف والقلم حتى شمله الإحسان وبرز الناس كأزهار البستان".

ومثلما أهتم السلطان بمكافأة المخلصين جد أيضًا في تتبع الأمراء الذين يخشى تهديدهم، وبدأ بثلاثين أميرًا كبيرًا عام (٧٠٩ هـ/١٣٠٩م) فقبض عليهم وأودعهم

---

(١) درة الأسلاك (مخطوط)، ورقة ١٦٤.

(٢) الإقطاعات العسكرية: مفردها إقطاع، ونظام الإقطاع يقوم على توزيع أرض مصر الزراعية أقسامًا أو إقطاعات، يخص السلطان قسم والأمراء قسم والجنود قسم.، وغرض الإقطاع العسكري تمويل جهود الجنود النظاميين في الجيش لضمان قيامهم بدورهم الطبيعي، ومنذ أن عرفت مصر الإقطاع العسكري في العصر الأيوبي وهي مقسمة أربعة وعشرين قيراطًا، أربعة للسلطان وعشرة للأمراء وعشرة للجنود، فلما جاء الناصر محمد اختص نفسه بعشرة قراريط ومنح الأمراء والجنود أربعة عشر قيراطًا فيما عرف بالروك الناصري. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ٣: ٤٣٦؛ السيد الباز العريني: المماليك، (القاهرة - دار النهضة العربية، ١٩٦٧م)، ١٥٩؛ محمود رزق سليم: موسوعة عصر سلاطين المماليك، (القاهرة- مكتبة الآداب ١٩٦٢م)، ٢: ٢٧٤؛ حصة المبارك: الناصر محمد بن قلاوون، ٥٥.

(٣) بيبرس المنصوري (الأمير بيبرس نائب السلطنة المتوفى ٧٢٥هـ/١٣٢٤ م): التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧م)، ٢١٠؛ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب المتوفى ٧٣٣هـ/ ١٤٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق إبراهيم شمس لدين، (بيروت – دار الكتب العلمية ٢٠٠٤م)، ٣٢: ١٥٠-١٥١؛ موضى بنت سرحان: "نشأة الناصر محمد"، ١٧٧.

LEVANONI, A., *op. cit.,* p. 29.

(٤) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ٢١٠.

(٥) المصدر نفسه ٢١٣.

السجن بسبب سوء فعالهم في الماضي[١]، كما كان لكل أمير قدر معين عند السلطان من النفوذ والسلطة وارتفاع الكلمة فمن وصل إلى الحد الأقصى في تقدير السلطان تخلص منه؛ حتى تنكز أقرب المقربين من السلطان لم ينج من ذلك[٢]، فتوطدت سلطة الناصر ولم يعد ينازعه أحد في الملك ولا تصبو إليه نفسه[٣].

ولا شك أن كل ذلك ساعد على تماسك الجيش وزيادة ارتباطه بالسلطان، وهو ما انعكس بالإيجاب على تنفيذ مختلف المخططات التي أعدها، ومن أبرزها المشروعات التنموية والعمرانية.

رابعًا- تراجعُ الغزواتِ الخارجيةِ والحركاتُ الاستباقيةُ:

يظهر ذلك في ظل القضاء على الصليبيين وطردهم من الساحل الشامي عام (٦٩٠هـ/١٢٩١م) على يد الأشرف خليل بن قلاوون أخي السلطان محمد[٤]، وتراجع الضغوط المغولية بعد تلقيهم هزائم متتالية على يد دولة سلاطين المماليك[٥]، بالإضافة إلى سرعة استجابة السلطان الناصر محمد لأي تحركات عسكرية مغولية، مما

---

(١) الدوداري: كنز الدرر، ٩: ١٩٦.

MAZOR, A., The "Manṣūrīyah Legacy: The Manṣūrī Amirs,Their Mamluks, and Their Descendants during al-Nāṣir Muḥammad's Third Reign and After The Mansuriyah," In: MSR, Vol 18, 2014, p. 3.

(٢) الصفدي: الوافي، ٤: ٣٧٠؛ موضى بنت سرحان، ١٨٢-١٨٣.

(٣) المصدر نفسه ٤: ٣٧٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩: ١٧٤؛ إبراهيم أبو سعيد: "ثورات المصريين في عهد الناصر محمد بن قلاوون"، ٣١١.

(٤) *The Templar of Tyre*, p.40-129.

محمد فوزي رحيل: نهاية الصليبيين، ٢٨٦-٣٤٠.

(٥) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ٤٣-١٦٣؛ زبد الفكرة، ٤٨- ٣٧٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ٤: ٣٥٨-٣٦٥؛ السيد الباز العريني: المغول، ١٩٨١م، ٢٥٣ - ٣٢٠؛ صبحي عبدالمنعم: سياسة المغول الإلخانيين، حجازي عبدالمنعم: معارك حمص الثلاث، ٣٤٤-٣٨٤.

BROADBRIDGE, A. F., *Mamluk Ideological and Diplomatic Relations with Mongols and Turkic Rulers of near east and central Asia* (658-807/ 1260-1405), Phd. theses, The University of Chicago,2001, p. 1-190.

أدى لإجهاض هذه التحركات في مهدها كما حدث عام (٧١١هـ/١٣١١م)[١] بجانب تفشي الصراعات داخل البيت المغولي[٢]، وأخيرًا الحملات العسكرية الوقائية المتتابعة على بلاد الأرمن لضمان بقائها في طاعة الناصر واستمرارها في دفع الجزية[٣].

خامسًا- استقرارُ الأمنِ الداخليِّ:

حدث استقرار واضح في الأمن الداخلي بفضل جهود الأمراء الذين فوض إليهم السلطان أمر الأعمال الشرطية، وخير نموذج على ذلك الأمير قدادار[٤] الذي منح سلطات شرطية واسعة للضرب على أيدي العابثين بأمن العاصمة، فصنع أبوابًا للحارات، وجعل على كل حارة خفراء يضربون الطبول ليلًا، وأمر ألا يخرج أحُد ليلًا، ومن قبض عليه مخمورًا أو مرتكب لجرم عُوقب بشدة[٥].

سادسًا- توافرُ التمويلِ:

تسبب الازدهار الذي صاحب الاستقرار السياسي وخفة حدة الغزوات

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ١: ٤٢٢.

(٢) حول الصراعات الداخلية في البيت المغولي: عبدالسلام عبدالعزيز فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، (القاهرة - دار المعارف، ١٩٨١م)، 189-153

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ١: ٤٤٦.

(٤) الأمير قدادار: كان إداريًّا ماهرًا بجانب كونه من الفرسان المشهورين ولاه الناصر محمد ولاية الغربية، ثم نقل للقاهرة بعد اضطراب أحوالها فضبطها بحزم وضرب على يد العابثين، وذلك في رمضان ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م، بقي في منصبه حتى كثرة الشكوى من حزمه فعزله السلطان وولى بدلًا منه الأمير ناصر الدين محمد المحسني، فذهب قدادار للحج وعاد مريضًا فلزم الفراش حتى توفي في ١٦ صفر عام ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م. عنه انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ٢٤: ٢٠٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ٢٨٣.

(٥) المقريزي: السلوك، ١/٢: ٣٠١؛ إبراهيم أبو سعيد: "ثورات المصريين في عهد الناصر محمد ابن قلاوون"، ٣٢١.

الخارجية في تزايد الأموال في الخزائن السلطانية في القاهرة وخزائن نواب الشام، إذ تنوعت موارد الخزانة المملوكية المالية بين موارد شرعية مثل: الخراج، الزكاة، المواريث، الجمارك، وكذلك موارد غير شرعية ومنها: المصادرات وبيع أملاك بيت المال[١]، وحل الأوقاف[٢]، والرماية على التجار بطرح البضائع جبرًا من قبل الدولة بأعلى من سعرها[٣].

ومن أمثلة التدفقات النقدية على الخزانة السلطانية وصول أربعين ألف درهم من صفد وحدها عام (٧٢٨ هـ/١٣٢٧م)[٤]، وساعد على توافر التمويل للمشروعات العمرانية كثرة مصادرات أمراء المماليك[٥]، وعلى سبيل المثال لا الحصر: مصادرة أملاك الأمير سلار بعد موته في السجن عام (٧١٠هـ/١٣١٠م)، فقد أخذ مما خلفه مالًا جزيلًا من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية وصناديق الجواهر، بالإضافة إلى أعداد غفيرة من الجواري والغلمان، ناهيك عن الضياع والمعاصر والشون وكميات

---

(١) البيومي إسماعيل الشربيني: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، (القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م)، ١٥٣-٢٠٧.

(٢) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية ٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م، (القاهرة - دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٤م)، ٣٢٦.

(٣) الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ٩.

(٤) المقريزي: السلوك، ٢/ ١: ٣٠١.

(٥) حول المصادرات في عصر سلاطين المماليك انظر: البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك، جزءان، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م).

ضخمة من الغلال[١]، أيضًا صودرت أموال الأمير بكتوت الخازندار[٢] الذي مات مقبوضًا عليه عام (٧١١هـ/١٣١١م)، ووصف المقريزي[٣] ما صودر من تركته بالمال العظيم لأنه فاق الوصف، كما جبيت مبالغ كبير من الجزية المفروضة على البلاد المحيطة بالسلطنة ومنها مملكة أرمينيا[٤] الصغرى التي فرض عليها أربعمائة ألف درهم كل عام[٥].

ومن دلائل توافر الأموال في خزائن الناصر ما ذكره المقريزي في أحداث عام (٧١٣هـ/١٣١٣م) أن معدل الإنفاق اليومي على العمائر من الخزانة السلطانية بلغ اثنى عشر ألف درهم[٦]، وأكد ذلك أيضًا التزام الناصر محمد بدفع تعويضات الأراضي

---

(١) للتعرف على مزيد من التفاصيل حول تركة الأمير سلار انظر: بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ٢١٤؛ السخاوي: الثغر الباسم، ١: ٢٣٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ١٧-١٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ١: ٤٣٧-٤٣٩؛ إبراهيم أبو سعيد: "ثورات المصريين في عهد الناصر محمد بن قلاوون"، ٣١٨.

(٢) الأمير بكتوت الخازندار: كان مملوكًا لأمير شكار بيليك الخازنداري -نائب السلطنة زمن الظاهر بيبرس- ورقي لرتبة أمير شكار، ولما تسلطن العادل كتبغا رقاه لرتبة أمير شكار، ثم نقل لنيابة الإسكندرية استمر في المنصب نفسه حتى تولى الناصر محمد سلطنته الثالثة حتى غضب عليه فعزله ونقل ليقضي أجله بطالًا في (١٨ رجب عام ٧١١هـ/ ٢٩ نوفمبر ١٣١١م). عنه انظر: ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي، المتوفى ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، (بيروت - دار الجيل،١٩٩٣م)، ١: ٤٨٩؛ المقريزي: السلوك، ٢/١: ١١١؛ المقفى الكبير، ٢: ٤٧٩- ٤٨١.

(٣) السلوك ١/٢: 113؛ كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، (بيروت - دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١م)، ١: ٤٧٩.

(٤) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ٢١٧.

(٥) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، ٩: ١٧٢.

(٦) المقريزي: السلوك ١/ ٢: ١٣٠.

التي تم نزع ملكيتها لصالح مشروع حفر خليج سرياقوس[١]، وعلى الرغم من طابع المبالغة الذي اعترى تلك الأرقام التي ورد ذكرها في المصادر، إلا أنها غير مستبعدة في ظل كثرة المشروعات التي لم تكن لتتم لولا وجود تمويل ضخم.

ومن مصادر التمويل ما عثر عليه أثناء تنفيذ المشروعات العمرانية من معدن الرصاص - الذي كان مستخدمًا في المشروعات العمرانية في العصر الروماني- مثلما اكتشف الأمير بدر الدين بكتوت الخازندار كمية كبيرة من هذا المعدن في أساس بعض القناطر القديمة المتهالكة عند حفر خليج الإسكندرية، بجانب كشف نفق طويل يصل بين أحد أطلال القصور القديمة والبحر المتوسط، قرب نهاية خليج الإسكندرية فتم استخلاص الرصاص من هذا النفق وباعه الأمير بمبلغ عظيم استخدم بعضه في تعمير المناطق المحيطة بالخليج الجديد[٢]، وأخيرًا جاءت الاحتكارات التي فرضتها الدولة على بعض المعادن سببًا في تدفقات نقدية ضخمة على الخزانة المملوكية ومن أهمها النطرون[٣].

ومما ساعد على زيادة توافر التمويل للمشروعات العمرانية في دولة الملك الناصر محمد عملية مسح أرض مصر الزراعية المشهورة بالروك الناصري[٤]، فنتيجة لهذا الروك

---

[١] المقريزي: السلوك ١/ ٢: ٢٦١.

[٢] المقريزي: السلوك ١/ ٢: ١١٢.

[٣] إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، (القاهرة – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨م)، ٧٧؛ البيومي الشربيني: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، (القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨)، ١٧٥-١٧٦.

[٤] الروك: كلمة قبطية أصلها روش أي قياس الأرض بالحبل ولها جذور مصرية قديمة من اللفظ الديموطيقي روخ بمعنى تقسيم الأرض، ويقصد بالروك إصطلاحًا عملية مسح الأرض الصالحة للزراعة وتقويم الاملاك والعقارات وهو ما يعرف حاليًا مصطلح فك الزمام. عنه انظر: المقريزي: السلوك، ١/ ٢: ١٤٦ حاشية ١؛ محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون، ٢٨٩ حاشية ٣؛ إبراهيم دسوقي: "عمل الأخميمية في الروك الناصري٧١٥هـ-١٣١٥م"، مجلة كلية الآداب بقنا، عدد ١٩، ٢٠٠٦م، ٢٤٢- ٢٤٣.

زاد نصيب السلطان من أرض مصر المزروعة، من أربعة قراريط إلى عشرة، وهو ما عالج مشكلة تأخر كثير من الأمراء والجند عن دفع حقوق الخزانة السلطانية عليهم[١].

سابعًا- توافرُ الخبراتِ الفنيةِ:

توافرت كثير من الايدي العاملة الخبيرة في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، سواء من أهالي القطرين أو من المهاجرين إلى السلطنة فرارًا من الإسبان في الغرب أو المغول في الشرق[٢]، وقبل ذلك كله كان السلطان الناصر على دراية واسعة بالهندسة[٣]، وحين قرر إنشاء الحدائق والبساتين على نحو بديع مع التفنن في تطعيم مختلف أنواع الأشجار لإنتاج فواكه متنوعة، استقدم للقاهرة عددًا من الشوام المهرة في هذه الحرفة، فأخذ عنهم أهل جزيرة الفيل صنعتهم، التي عادت عليهم بخير وفير[٤]، كما توافر المهندسون المتخصصون في أمر تشييد الجسور، منهم من شارك في إنجاز جسور وقناطر الجيزة[٥]، وحفر وبناء قناطر خليج سرياقوس[٦]، كما تم استدعاء العتالين الشوام إلى مصر للمشاركة في المشروعات العمرانية[٧]، أيضا أورد ابن تغري

(١) حول الروك الناصري انظر: الدوداري: كنز الدرر، ٩: ٢٨٦-٢٨٧؛المقريزي: السلوك ١/ ٢: ١٤٦؛ علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ٣٤٤-٣٤٥؛ جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون،٢٨٩-٢٩٠؛إبراهيم دسوقي: "عمل الأخميمية"، ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، (القاهرة - دار عين للبحوث والدراسات، ١٩٩٨م)، ٢١٩-٢٢٠؛ محمد فوزي رحيل: "الأندلسيون ودورهم في الحياة العلمية في عصر سلاطين المماليك"، مجلة قنديل، المجلد ٩، العدد ٢، مدريد، ٢٠٠٩؛ ٤٣٤.

(٣) الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ٤٧.

(٤) المقريزي: السلوك ١/ ٢: ١٣٠.

(٥) المصدر نفسه ١/ ٢: ١٣٠.

(٦)المقريزي: السلوك ١/ ٢: ٢٦١-٢٦٢

(٧)المقريزي: السلوك ١/ ٢: ١٣٠.

بردي[١] خبر استدعاء الصناع الخبراء في بناء القصور من دمشق إلى لقاهرة للمشاركة في بناء القصر الأبلق بالقلعة على نسق قصر الظاهر بيبرس في دمشق.

ثامنًا- توافرُ الأيديِ العاملةِ:

سعى الناصر محمد لاستغلال كل طاقات البشر في سلطنته من أجل إنجاز مشروعاته العمرانية ومنهم: العساكر وجنود الأمراء الذين تم توظيفهم حال وجودهم بلا مهام عسكرية، ففي مشروع حفر خليج الإسكندرية عمل حوالي أربعين ألف من مختلف الفئات من بينهم العسكريين[٢]،أيضًا استعان عام (٧١٣هـ/١٣١٣م) بالعساكر والأمراء لتعمير جسور وقناطر الجيزة[٣]، كذلك في حفر خليج سرياقوس استعان بعدد ضخم من الأيدي العاملة منهم جماعات من الجنود بإشراف الفخر ناظر الجيش[٤]. كما كان الأسرى جزءًا لا يمكن إغفاله في

(١) النجوم الزاهرة، ٩: ٣٧.

(٢) المقريزي: السلوك، ١/ ٢: ١١٢.

(٣) الدوداري: كنز الدرر، ٩: ٢٦٦؛ المقريزي: السلوك، ١/ ٢: ١٣٠؛ حصة المبارك، الناصر محمد ابن قلاوون، ٣٥؛ محمد جمال الشوربجي: أعمال الجيزية في العصر المملوكي، (القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٩م)، ٧٩.

(٤) المقريزي: السلوك ١/ ٢: ٢٦١-٢٦٢.

الفخر ناظر الجيش: هو محمد بن فضل الله بن خروف المصري، ولد ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، كان من أسرة مسيحية ثم اعتنق الإسلام في مطلع شبابه، وترقى في أعمال الديوان، حتى تولى منصب ناظر الجيش عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م وظل في المنصب حتى توفي عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م: عنه انظر: الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ج٥، تحقيق على أبو زيد وآخرون، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٥٣-٥٨؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص٢٢٧؛ المقريزي: المقفى الكبير، ٩: ٥١٦-٥٢٠؛ مسعد كتبي: "الفخر ناظر الجيش المملوكي ودوره في تعطيل نيابة السلطنة"، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، العدد ٣٦، ٢٠١٦م، ٧٤١- ٨١٣. =

الحديث عن الأيدي العاملة، فقد تم تسخيرهم واستخدامهم في الأعمال الشاقة ومنها حفر الترع والخلجان وبناء الجسور[(١)].

تاسعًا- وفرةُ الخاماتِ اللازمةِ لهذه المشروعاتِ:

ما كانت هذه المشروعات العمرانية تتم لولا وفرة مواد البناء اللازمة التي استمدت من عدد من المصادر من بينها: القصور القديمة، ومنها قصر خارج الإسكندرية هدمه الأمير بكتوت الخازندار، واستخدم حجارته في تعمير الجسور والدور على خليج الإسكندرية عام (٧١١هـ/١٣١١م)[(٢)]، كما هدمت بعض الأهرام الصغيرة وبعض القناطر القديمة لاستخدام حجارتها في تشييد جسور الجيزة عام (٧١٣هـ/١٣١٣م)[(٣)]، واستمد القائمون على مشروع إنشاء

= ناظر الجيش: هذه الوظيفة من الوظائف الديوانية عالية القدر في عصر دولة سلاطين المماليك، وهو رئيس ديوان الجيش وقمة الجهاز الإداري في هذا الديوان، ومن مهامه التدبير أمر الْطاعات في مصر والشام ومشاورة السلطان في أمرها، ومن مهامه أخذ توقيع السلطان بالموافقة على المراسيم المرتبطة بالجند وتجهيزيهم للغزو. انظر مادة ناظر الجيش في: السبكي (تاج الدين عبدالوهاب، المتوفى ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م): معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار و أبو زيد شلبي و محمد أبو العيون، (القاهرة - جماعة الأزهر للنشر والتأليف بدون تاريخ)، ٣٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٥: ٤٦٥؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ٣: ١١٩٣؛ محمد عبد الله العمايرة، المعجم العسكري المملوكي، ٣٤٧.

(١) ابن ايبك، كنز الدرر،٩: ٣١٣؛ سماح عبدالمنعم السلاوي: الجاليات الأجنبية في مصر في العصر المملوكي، (القاهرة - دار الافاق العربية، ٢٠١٣م)، ١١٨

(٢) المقريزي: السلوك ١/ ٢: ١١٢.

(٣) المقريزي: المصدر السابق ١/ ٢: ١٣٠.

زربية[١] الناصر على النيل الطين المطلوب من مناطق بستان الزهري التي عرفت بجودة طينها منذ زمن بعيد[٢].

عاشرًا – السوابقُ التاريخيةُ:

حين اتجه الناصر محمد لاستخدام الجند في تنفيذ المشروعات أو الإشراف عليها، أو اقتطاع النفقة من أموال الإقطاعات العسكرية، لم يكن الأمر جديدًا، بل كان مألوفًا معتادًا، ولدينا عدد من الأمثلة التاريخية الدالة على مشاركة الجند في تنفيذ المشروعات الكبرى في وقت قصير، مثال ذلك حفر الظاهر بيبرس البندقداري خليج

---

(١) زربية: هي رصيف أو مصد للأمواج يتم بنائه على دعائم بغرض تدعيم شواطئ النيل لحمايتها من نحر مياه النهر. هناك وصف تفصيلي لكيفية بناء هذه الزرابي قدمه عبداللطيف البغدادي: ملخصه أن يحدد المكان المراد تدعيمه أو حمايته، ثم يصنع وعاء مستدير يشبه البرميل من خشب الجميز، ثم يحفر بئر يوضع فيه وعاء الجميز المستدير ويبنى فوقه الطوب الأحمر والجبس، ثم ينزل فنيون متخصصون سماهم البغدادي بالغواصين، هؤلاء الغواصون يقومون بنزح الطين الموجود في قلب الوعاء ثم أسفله بشكل تدريجي فيبدأ الوعاء في الهبوط لأسفل فيبنى فوقه مزيد من الطوب الأحمر والجبس، حتى يهبط الوعاء بشكل تدريجي حتى عمق معين، حين ذاك يخرج العمال وتملأ البئر بالطين، مما ينتج عنها عمود صلب جدًا، وعلى بعد أربعة أزرع يتم إن شاء عمود آخر في سائر المسافة المحددة، وعلى هذه الأعمدة يتم بنا الرصيف وتغطيته بكميات مناسبة من طمي النيل فتصير رصيف قوي يحمي الشاطئ من حركة الأمواج. انظر: عبداللطيف البغدادي (أبو محمد عبداللطيف بن يوسف المعروف بابن اللباد، المتوفى ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م): كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، (القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م) ١١٤؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٤٣٥ هامش ٢.

GARCIN, J. CL, "Toponymie et topographie Toponymie et Topographie urbaines médiévales à Fustat et au Caire" , JESHO , *1984*, Vol. 27, No. 2 (1984), p 133, n. 81.

(٢) المقريزي، السلوك، ١/ ٢: ٢١٧؛ المواعظ والاعتبار، ٣: ٤٣٦؛ LEVANONI, A., *op. cit.*, p.161.

الإسكندرية مستعينًا بالجنود بعد أن ردمته الرمال عام (٦٦٤هـ/١٢٦٥م)[١].

الأعمال المدنية ودور الجيش في إنجازها:

تنوعت الأعمال المدنية التي شارك فيها الجيش في عصر الناصر، كما يلي:

أولًا- حفر الخلجان والبرك:

١- حفرُ خليجِ الإسكندريةِ (الخليجِ الناصريِّ) (٧١٠هـ/١٣١٠م)[٢]:

يعد حفر خليج الإسكندرية عام (٧١٠هـ/١٣١٠م) في طليعة المشروعات المدنية التي شارك فيها الجيش المملوكي. وخليج الإسكندرية عبارة عن قناة مائية تصل ماء النيل إلى الإسكندرية. وكان يبدأ من فرع رشيد عند منطقة العطف[٣] ويمتد لمنطقة الكريون[٤]، وعندها يصب في خليج

(١) ابن عبدالظاهر (محي الدين المتوفى ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م): الروض الزاهر، ص ٢٤٧؛ العيني: عقد الجمان، ج ٥، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٤٢٨؛ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٢٩.

(٢) AL-HARITHY , H. , *op. cit.*, 1310-1341, p. 224.

(٣) العطف: قرية قديمة كانت تتبع مركز تتبع مركز المحمودية في محافظة البحيرة بمصر. ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، المتوفى ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم البلدان، ج ٣، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٢٦٨؛ ابن الجيعان (شرف الدين يحي بن المقر، المتوفى ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م): التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٤م، ص ١٣٧.
انظر أيضًا: العطف: الموسوعة الحرة ويكيبيديا. مطالعة ٢ أغسطس ٢٠٢٢
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B7%D9%81_(%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AD%D9%85%D9%88%D8%AF%D9%8A%D8%A)

(٤) الكريون: قرية من القرى القديمة ذكرها إميلينيو في جغرافيته، وذكر ياقوت الحموي نقلًا عن ابن السكيت أنها نهر يأخذ من النيل يمر به تجارة رائجة تحملها السفن، وربما تكون نسبت إليه القرية، وهي الآن قرية تتبع مركز كفر الدوار في محافظة البحيرة بمصر. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج ٤، ص ٤٨٥؛ ابن الجيعان: التحفة، ١٢١.
انظر أيضًا: الكريون: الموسوعة الحرة ويكيبيديا. مطالعة ٢ أغسطس ٢٠٢٢
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%B1%D9%8A%D9%88%D9%86

الإسكندرية القديم[١] الواصل إلى الإسكندرية[٢].

وسبب حفر هذا الخليج طبقًا لما ذكره المقريزي[٣] أن حاكم الإسكندرية الأمير بدر الدين بكتوت الخازندار زار السلطان الناصر في القاهرة عقب عودته إلى منصبه في المرة الثالثة، وخلال الزيارة طرح بكتوت فكرة حفر الخليج على السلطان، وحسَّن له حفره ليجري الماء فيه طوال العام؛ مما يضمن دوام الملاحة وتنشيط التجارة، بجانب زراعة الأرض على جانبيه. كل ذلك أقنع السلطان بجدوى المشروع فكلف الأمير بدر الدين محمد كيدغدي[٤] بالمشاركة مع بكتوت في الإشراف على تنفيذ المشروع[٥].

---

(١) خليج الإسكندرية القديم: هو قناة مائية حفرت بأمر الإسكندر الأكبر عام ٣٣٠ ق.م لتوفير الماء العذب للمدينة، لكن هذه القناة أهملت بعد الفتح العربي لمصر عام ٢٠ هـ حتى طمرت، وجرى حفرها مرارًا ومن أشهر مرات الحفر ما قام به الناصر محمد بن قلاوون حتى سميت بالخليج الناصري. انظر: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٣: ١٨٩؛ عمر طوسون: خليج الإسكندرية القديم، (القاهرة - مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢م)، ١-٢٣؛ حصة المبارك: الناصر محمد بن قلاوون، ٤٠.

(٢) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية ٢١٨؛ عمر طوسون: خليج الإسكندرية القديم، ٢١-٢٣.

(٣) السلوك، ١/ ٢: ١١١؛ المواعظ والاعتبار، ١: ١٨٩-١٩٠.

(٤) الأمير محمد بن كيدغدي: كان مقربًا من السلطان الناصر في بداية عهده، شارك في حملة عسكرية على رأس كتيبة من الجنود عام (٧١٤هـ/ ١٣١٤م) لغزو سيس عاصمة بلاد الأرمن، لكن الحملة لم تتجاوز دمشق وعادت للقاهرة، ثم غضب عليه السلطان محمد وأخرجه إلى دمشق عام (٧١٥هـ/ ١٣١٥م) غير مهان وفرض له خمس ملطية، ويقدر بخمسين ألف دينار سنويًا، وتوفي بها (٧١٦هـ/ ١٣١٦م). انظر: المقريزي، السلوك، ١/ ٢: ١٣٩، ١٤٤، ١٦٩.

(٥) المقريزي: السلوك، ١/ ٢: ١١١؛ حصة المبارك: الناصر محمد بن قلاوون، ٤٠.

وقد اضطلع الأميران - بكتوت الخزنداري وكيدغدي - بهذه المهمة خير قيام تدعمهما الأوامر السلطانية للأمراء بالمعاونة بما يملكون من الأبقار والرجال[١]. وقد بدأ المشروع بقياس أقسام الخليج، وكلف بها جهات مختلفة حسب قدرتها المالية، وقدم لنا المقريزي وصفًا حيًّا لطريقة العمل في هذه القناة المائية، حيث فرض السلطان على الأمراء المشاركة في العمل فخرج كل أمير ومعه استاداره[٢] ورجاله، وولاة الأقاليم ورجالهم، وكلف كل أمير بقسم خاص به، وقد بلغ عدد من عمل بهذا المشروع أربعين ألف رجل، حفروا مسافة ستة عشر ألف قصبة حاكمية[٣] من مخرج

---

(١) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ٢١٨.

(٢) الاستادار: كلمة ذات أصل فارسي وتعنى المتولي للأخذ، أما من حيث المصطلح فتعنى المسئول عن إدارة القصور السلطانية من مطعم ومشرب وجواري وغلمان، ثم اتسعت مهامه ليقوم بالإشراف على ديوان المفرد المسئول عن النفقة على المماليك السلطانية، وكان يتولاها أمير مائة يساعده ثلاثة من أمراء الطبلخانة. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ٥: ٤٥٧؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ١:٨٥؛محمد العمايرة: المعجم العسكري المملوكي، ٢٤.
استادار الأمير: فهو من يوكله الأمير لإدارة إقطاعه والتعامل مع الفلاحين والمشرفين على العمل في الإقطاع الذين سماهم السبكي الدوادارية، وقد أوصاهم بالحفاظ على حقوق صاحب الاقطاع والرفق بالفلاحين وعدم تحميلهم ما لا طاقة لهم به. انظر: السبكي (تاج الدين عبدالوهاب، المتوفى ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م): معيد النعم، ٢٦؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ١:٨٥.

(٣) القصبة الحاكمية: يرجح القلقشندي أن هذه القصبة عرفت منذ عصر الحاكم بأمر الله الفاطمي، وطولها ستة أذرع بالهاشمي وخمسة أذرع بالنجاري، وذراع اليد يعادل ٢٤ أصبع [صبح الأعشي ٣: ٤٤٦] وقدرت حصة المبارك الذراع ٧٥ سنتيمتر[الناصر محمد بن قلاوون ٣٧]، ويرى الأمير عمر طوسون أن القصبة الحاكمية تعادل ٣,٨م انظر [خليج الإسكندرية ٢١] في حين حدد يعقوب أرتين القصبة لحاكمية ٣,٨٥متر [الأحكام المرعية في شأن الأراضي المصرية، (القاهرة - مطبعة بولاق، ١٩٠٦م)، ١٨٩] وقد فصلت موسوعة وحدات القياس العربية أمر الخلاف حول تقدير القصبة الحاكمية تفصيلًا مبسوطًا، وخلصت إلى أن التقدير الأدق هو ٣,٩ متر [محمود فاخوري و صلاح الدين خوام: موسوعة وحدات القياس العربية، (بيروت - مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠٠٢م)، ٤٠٨-٤٠٩.

القناة من النيل حتى الإسكندرية، وبلغ عرض الخليج ثماني قصبات وعمقه ست قصبات[١]، أما عن مدة إنجاز المشروع فقد ذكر المقريزي[٢] أن العمل بدأ فيه في (رجب سنة ٧١٠ هـ/ ديسمبر ١٣١٠م) ويتفق معه بيبرس المنصوري[٣] في العام لكنه لم يحدد الشهر، وعلى الرغم من أن المصادر لم تحدد تاريخًا لنهاية المشروع، إلا أنه في ضوء رواية المقريزي[٤] لنكبة بكتوت في (١٨ رجب عام ٧١١هـ/٢٩ نوفمبر ١٣١١م)، وما جاء لدى الطولوني[٥] فإن مدة انجاز المشروع لم تتجاوز الأربعين يومًا، و رواية الطولوني راجحه؛ ذلك أن جده كان من مهندسي الناصر محمد بن قلاوون ومشاركته في هذه الأعمال من المفاخر التي تتناقلها أجيال الأسرة.

٢- حفرُ خليجِ الذكرِ[٦]:

تسببت كثرة الرواسب في عجز هذا الخليج عن ري الأرض الواقعة عليه، مما تطلب إعادة حفره عام (٧٢٤هـ/١٣٢٤م)، فقرر السلطان تطهيره وتعميقه حتى يصل للخليج الكبير المعروف قديما بخليج أمير المؤمنين، وكلف الأمراء وجنودهم

---

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٢: ١١٢؛حصة المبارك: الناصر محمد بن قلاوون، ٤٠.

(٢) المقريزي: السلوك، ١/ ٢: ١١١.

(٣) التحفة الملوكية، ٢١٨.

(٤) المقريزي السلوك، ١/٢: ١١٣.

(٥) نزهة الأبصار (مخطوط)، ورقة ٤٦٢ أ.

(٦) كان الخليج معروفًا في عصر الأيوبيين بخليج المقسي ثم نُسب إلى أحد أمراء الظاهر بيبرس يدعي شمس الدين الذكر الكركي، وكانت بداية خليج الذكر حين كان النيل يجري في موضع شارع عماد الدين حاليًا، وعند نقطة التقاء شارع عماد الدين بشارع قنطرة الدكة يخرج خليج الذكر ويسير شرقًا حتى شارع القبيلة فشارع الجامع الأحمر ثم شارع الشيخ حمادة وحارة الدرب الأحمر حتى يصب في الخليج المصري موضع شارع بور سعيد حاليًا قبالة مدرسة القديس يوسف عند رأس شارع الخرنفش. انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٤٨٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ١٢٤-١٢٥ هامش ٣.

بحفره، فامتثلوا للأمر السلطاني في جمادى الأولى وعملوا بكل جد حتى تم الأمر، فلما فتح الخليج اندفع الماء بشدة حتى كادت القاهرة أن تغرق، فرأى السلطان خطورة الموقف فقرر حفر الخليج الناصري[١].

٣- حفرُ الخليجِ الناصريِّ (خليجُ سرياقوسَ)[٢]:

كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون محبًّا للصوفية ومن هنا قرر بناء خانقاه كبيرة لهم في سرياقوس، وبجوارها جامع ومكان للضيافة وقصور له ولكبار الأمراء، ولتسهيل الاتصال بين القاهرة وموقع الخانقاه الجديدة رأى السلطان أن يحفر قناة واسعة تصل النيل بسرياقوس بحيث توفر كمية كبيرة من مياه الري، وأيضا تصلح الملاحة فيها فيكون الوصول إلى سرياقوس أسهل[٣]، بجانب حل مشكلة خليج الذكر. ومن هنا سخَّر السلطان كل إمكانات الدولة لهذا الغرض وشارك فيها الجيش مشاركة فعالة، دليل ذلك ما أورده ابن شاكر الكتبي[٤] من صدور مرسوم سلطاني للأمراء والمقدمين والأجناد بمصر بحفر الخليج من فم الخور حتى سرياقوس.

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٤٨٠؛ حصة المبارك: الناصر محمد بن قلاوون، ٤٠؛ LEVANONI, A., *op. cit.*, p. 163-4.

(٢) سرياقوس: إحدى قرى مركز الخانكة بالقليوبية، وهي من القرى القديمة التي ذكرها إملينيو في جغرافيته، وذكر ياقوت إنها بليدة من نواحي القاهرة. عنها انظر: ياقوت: معجم البلدان، ٣: ٢١٨؛ ابن دقماق: (إبراهيم بن محمد بن أيدمر، المتوفى ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد (الإسكندرية- مكتبة الإسكندرية، ٢٠٢١م) ٢: ١٢٥؛ محمد رمزي: المعجم الجغرافي، ٢: ٣٩.
ومادة سرياقوس على الموسوعة الحرة ويكيبيديا، مطالعة ٨ أغسطس ٢٠٢٢.
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D8%B1%D9%8A%D8%A7%D9%82%D9%88%D8%B3

(٣) ابن حبيب: درة الأسلاك (مخطوط)، ورقة ١١٩؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٤٨١؛ حصة المبارك: الناصر محمد بن قلاوون، ٤١؛ LEVANONI, A., op. cit., p. 160.

(٤) عيون التواريخ، 4: ٣٧٧؛ أسامة حسن: الناصر محمد بن قلاوون، ٤٧.

وقد بدأ المشروع بوضع مخططه العام من قبل لجنة ترأسها الأمير سيف الدين أرغون[١] يعاونه عدد من المهندسين وأهل الخبرة في حفر الترع، وبعد بحث ودراسة رأت اللجنة أن أصلح المواقع فمًا للخليج منطقة موردة البلاط[٢]، وبعدها يخترق عدة بقاع منها الميدان الظاهري ثم خط بركة قرموط ثم ظاهر باب البحر حتى يلتقي بالخليج الكبير، وما أن رفع التقرير للسلطان حتى كلف للأمراء بتوفير الرجال اللازمين للحفر، فاستدعى كل أمير عددًا من فلاحي إقطاعه، وحدد لكل أمير عدد من الأقصاب التزم بحفرها[٣].

وكان المشرف العام على تنفيذ هذا المشروع الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي[٤]، واختيار مغلطاي لهذه المهمة كان بسبب أدرك السلطان لقدرات مغلطاي الإدارية العالية، ومن ثم رقاه لمناصب الإمارة والاستدارية، ثم الوزارة في فترة بالغة القصر[٥].

---

(١) الأمير سيف الدين أرغون: هو الأمير سيف الدين الدودار الناصري، كان مملوكًا اشتراه المنصور قلاوون لابنه الناصر محمد، فتربيا معًا ولم يفارقه في أفراحه وأحزانه حتى ولي سلطنته الثالثة فعينه دودارًا، ثم كلفه نائبًا لمصر عام (٧١٢هـ/ ١٣١٢م)، كان ملمًا بالفقه محبًا للعلماء جامعًا للكتب، توفي عام (٧٣١هـ/ ١٣٣٠م). عنه انظر: الصفدي: أعوان النصر، ١: ٤٥٥؛ المقريزي: المقفى الكبير، ٢: ١٩- ٢٣؛ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ٢: ٣٠٦.

(٢) مكان يقع الآن بين شارعي حوض اللبن ودار الشفاء بجاردن سيتي بالقاهرة. انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٤٨٢، حاشية ١.

(٣) المصدر نفسه، ٣: ٤٨٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ٨١؛ محمد الششتاوي: متنزهات القاهرة، ٢١٣.

(٤) ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، ٤: ٣٧٧؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ٢: ١٤٥.
الأمير علاء الدين مغلطاي: هو الأمير علاء الدين مغلطاي بن عبد الله الجمالي، كان مقربًا من الناصر محمد بن قلاوون، ترقى في الإدارة العسكرية المملوكية فحصل على رتبة مقدم ألف وتولى منصب مقدم المماليك، واستادار كما تولى منصب الوزير سبع سنين، وفي أواخر حياته تعكر صفو العلاقة بينه وبين الناصر فاستأذن وذهب للحج ومات في طريق العودة عام (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م). انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ١: ٢٥٧.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ٢٩١.

أما ميزانية الحفر فقد وزعت بين السلطان والأمراء والمقدمين، ويبدو أن النفقة كانت ضخمة بشكل جعل ابن شاكر الكتبي[١] وابن حبيب[٢] يصفاها بأنها أموال لا تحصى. وفيما يتعلق بفترة إنجاز المشروع فمن خلال رواية ابن شاكر الكتبي[٣]، ندرك سرعة إنجازه في مدة قصيرة، ومن خلال تلك الرواية يمكن الوصول لتقدير هذه المدة القريبة التي بدأت يوم (٢٥ من جمادى الآخرة ٧٢٤هـ /١٨ يونيو ١٣٢٤م)، وتم الحفر قبل وفاء النيل بيومين، ووفاء النيل يبدأ يوم ١٥ أغسطس، إذن نهاية المشروع كانت في (١٢ أغسطس ١٣٢٤م / ٢١ شعبان ٧٢٤هـ)، أي أن العمل تم في مدة قصيرة جدًّا لم تتجاوز الشهرين كما أشار ابن إياس[٤].

ونظرًا لأن مسار الخليج امتد من فم الخليج في جنوب القاهرة حتى سرياقوس فقد فصل بين القاهرة وشاطئ النيل، ومن هنا قرر السلطان بناء سلسلة من القناطر عليها[٥]، فكلف كل أمير ببناء قنطرة منها فنسبت إليه، فقد صدر تكليف للفخر ناظر الجيش ببناء قنطرة عند فم الخليج اشتهرت بقنطرة الفخر[٦]، وكلف الأمير قدادار[٧] ببناء قنطرة عند البستان بباب اللوق الذي كان ميدانًا للظاهر بيبرس من قبل[٨]، كما أمر

(١) عيون التواريخ، ٤ : ٣٧٧.

(٢) درة الأسلاك (مخطوط)، ورقة ١١٩ .

(٣) عيون التواريخ، ٤ : ٣٧٧.

(٤) بدائع الزهور، ١ : ٤٥٥؛ حصة المبارك: الناصر محمد بن قلاوون، ٤١ .

(٥) الطولوني: نزهو الأبصار (مخطوط)، ورقة ٤٦٢ أ.

(٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢: ٤٩٨-٤٩٩ .

موضع قنطرة الفخر حاليا تقاطع شارع دار الشفا مع شارع عائشة التيمورية بجاردن ستي بالقاهرة انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ٨٢، حاشية ٤.

(٧) المصدر نفسه، ٢: ٥٠١-٥٠٢

(٨) المقريزي: السلوك ١/ ٢: ٢٦١-٢٦٢.

السلطان ببناء قنطرة عند باب البحر(١) وقام الأمير بقطمر الحاجب ببناء قنطرة الحاجب(٢)، وأخيرًا أمر السلطان ببناء قنطرة عند زقاق الكحل(٣)، وقد أنجزت هذه القناطر عام (٧٢٨هـ/١٣٢٨م) كما حدد ابن إياس(٤) ونسبها جميعًا إلى السلطان الناصر بحكم أنه الآمر ببنائها.

وإنجاز هذا المشروع في وقت قياسي يقودنا للعديد من الدلالات منها: قوة الدولة القاهرة التي فرضت على كل القطاعات للمشاركة في المشروع، وتوافر التمويل بشكل يوضح الرخاء الذي ساد خلال هذه الفترة، واختيار شخصية عسكرية ذات قدرات قيادية مناسبة تمثلت في الأمير علاء الدين مغلطاي مديرًا للمشروع يوضح حسن اختيار السلطان للرجال، وأيضًا الرقابة والمتابعة المستمرة من قبل السلطان للمشروعات الكبرى مما ضمن تنفيذها في مدة قصيرة.

---

(١) قنطرة باب البحر: هي قنطرة بنيت على الخليج الناصري ليمر عليها الناس من باب البحر إلى بولاق، وتظهر قنطرة باب البحر في خرائط الحملة الفرنسية باسم قنطرة الليمون، وإليها نسب كوبري الليمون وموضعه اليوم مبنى هيئة الأنفاق بميدان رمسيس بالقاهرة. انظر: ابن تغري بردي: النجوم، ١: ١٨٢-١٨٣ حاشية ٥.

(٢) قنطرة الحاجب: هي قنطرة بناها الأمير بكتمر الحاجب عام ٧٢٦هـ ١٣٢٦م بأمر سلطاني ليمر الناس عليها من أرض الطبالة نحو منية السيرج. انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٥٠٦.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ١: ٤٥٩.

قنطرة زقاق الكحل: هي قنطرة بنيت في عصر الناصر محمد بن قلاوون تصل بين أرض الطبالة وزقاق الكحل الموصل إلى منطقة جامع الظاهر، وردت لدى المقريزي باسم القنطرة الجديدة، وموقعها الحالي عند نقطة تلاقي شارع بورسعيد بشارع الظاهر بمدينة القاهرة. حسن قاسم: المزارات الإسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية، (الإسكندرية - مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٧م)، ٢: ١٠٠.

(٤) بدائع الزهور، ١: ٤٥٩؛ AL-HARITHY, H., *op. cit.*, P. 226.

٤- حفرُ البركةِ الناصريةِ:

من جملة المشروعات التي حفرها أمراء الجيش المملوكي بتكليف من الناصر محمد بن قلاوون البركة الناصرية[١]، وذلك عام (٧٢١هـ/١٣٢١م)، وسبب حفر البركة رغبة السلطان في بناء زربية لحماية شاطئ النيل بالمنطقة الواقعة بجوار جامع الطيبرسي، وتطلب الأمر الحصول على كمية كبيرة من الطين فاختير مكان البركة لقطع الطين منه[٢]، ويبدو أن السلطان المولع بالعمارة وإنشاء الحدائق والمتنزهات أبى أن يكون موضع حفر البركة خرابًا وعنوانًا للقبح، ومن هنا قرر ملء المنخفض الناتج عن الحفر بالماء وتعمير ما حوله ليصير متنفسًا للسلطان وعامة الرعية.

ولإنجاز المشروع استدعى السلطان الفخر ناظر الجيش وأمره بتوزيع العمل على الأمراء[٣] فنفذ الأمر طبقًا لمراتبهم، ثم قسم الأمراء العمل بين جنودهم، وكل جندي وزع العمل على غلمانه، وصار كل أمير يرفع صنجقه ويضرب طبلخانه[٤]، ليظهر للسلطان طاعته وقدراته العالية في خدمة الدولة، وكلف السلطان الأمير بيبرس الحاجب[٥] بالإشراف على عمل المهندسين لدراسة

---

(١) اجتهد محقق النجوم الزاهرة في تحديد موقع البركة الناصرية وأوضح أن البحث قد أسفر عن أن موقع البركة الناصرية هو نفسه موقع بركة ستي نصرة التي رسمت على خرائط الحملة الفرنسية عام ١٨٠٠، ويخترق موقعها شارع ستي نصرة ويوجد شرقها شارع عماد الدين وغربها شارع مصطفى كامل وجنوبها شارع الإسماعيلية. انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ١٩٤، حاشية ٢.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٥٤٩؛ الشتشاوي، متنزهات القاهرة، ١٣٦.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٥٥٠.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ٣٣: ٧-٨.

(٥) الأمير بيبرس الحاجب: قبل سلطنة الناصر الثالثة كان آمير آخور، يرجح ابن تغري بردي أنه كان من مماليك المنصور قلاوون، ولما عاد الناصر لمصر قام بعزله، ثم ولاه وظيفة الحاجب، =

المشروع ومراحله[١]، وبالفعل قاموا بالقياسات المطلوبة ووزعوا العمل على الأمراء وبدأ حفر البركة حسب تحديد المقريزي[٢] يوم الثلاثاء ٢٩ ربيع الأول سنة ٧٢١ هـ/٢٧ ابريل عام ١٣٢١م.

الغريب أن ابن إياس[٣] حدد تاريخ حفر البركة بعام (٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، وقد اجتهد محمد الششتاوي[٤] لحل لغز هذا التضارب، فرأى أن حفر البركة قد تم في ٧٢١هـ ، أما ٧٢٩هـ فهو على الأرجح تاريخ إعادة حفر لها، بعد تمام بناء قصر السلطان بجوار البركة وتوصيلها مباشرة بالنيل من خلال قناة خاصة، وهذا الترجيح لا يخلو من وجاهة بسبب ارتباط حفر الترعة بإنشاء الزربية، ولما كانت قد بنيت عام (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) فلا يستبعد حفر البركة وتجميلها في توقيت متزامن وإن تأخر قليلًا، ومهما يكن من أمر فبعد تمام الحفر بلغ اتساع البركة سبعة أفدنة [٥]، وجاء إنشاء هذه البركة سببًا في توسع

= وظل بها حتى أرسله السلطان في حملة الى اليمن ولما عاد غضب عليه السلطان فسجنه عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م، بقي بالسجن حتى عفى عنه السلطان عام ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م، ولاه إمارة حلب ثم نائبًا لغيبة تنكز عام ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م حين استدعاه السلطان لمصر، وتوفي عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢. عنه انظر: الصفدي: أعوان النصر، ٢: ٧٨-٧٩؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ٣: ٤٧٤-٤٧٥.

(١) النويري: نهاية الأرب، ٣٣: ٨؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٥٤٩-٥٥٠.

(٢) المواعظ والاعتبار، ٣: ٥٤٩-٥٥٠

(٣) بدائع الزهور، ١: ٤٦٠.

(٤) متنزهات القاهرة، ١٣٦.

(٥) المواعظ والاعتبار، ٣: ٥٥٠

الفدان: يقدر بثلاثمائة وثلاثة وثلاثين قصبة مربعة، وهو ما يعادل ٧٤٦٦ ذراعًا معماريًّا مربعًا، أو ٤٢٠٠ مترًا. انظر: عبد الله فكري: الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية، (القاهرة - المطبعة الأميرية، ١٨٩٣م)، ١٤.

عمراني كبير حيث اتجه مياسير الناس لبناء الدور العظيمة عليها[١].

ثانيًا- بناءُ الجسورِ والقناطر:

اهتم السلطان الناصر محمد في عام (٧١٣هـ/١٣١٣م) ببناء عدد من الجسور لحماية الأرض الزراعية من فيضان النيل في منطقة الجيزة، واختار لإدارة هذه المهمة الأمير بدر الدين التركماني[٢]، وفي سبيل إنجاز هذا العمل استعان الأمير بعدد من المهندسين، أما الأيدي العاملة فقد توفرت بناء على أمر سلطاني للعساكر وللأمراء وتابعيهم، وحرصًا منه على سرعة تنفيذ العمل على نحو متقن تابعه بنفسه، حتى تم بناء جسر قوي متقن التصميم. ثم توجهت عناية السلطان لأعمال الجيزة فأمر ببناء جسرًا قبالة كل منها، مستفيدًا من كميات كبيرة من الحجارة حصل عليها من تفكيك هرم صغير[٣].

ويبدو أن عمارة جسور الجيزة كان بداية لتنفيذ خطة شاملة لبناء جسور في مختلف الأقاليم المصرية لحمايتها من خطر الفيضان، فأصدر السلطان أوامره لعدد من أمراء المماليك عام (٧١٤ هـ/١٣١٤م) لصيانة وبناء جسور في مناطق مختلفة

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٥٥٠.

(٢) الأمير بدر الدين التركماني: هو الأمير بدر الدين محمد التركماني بن الأمير فخر الدين عيسى التركماني، بدأ حياته كان شادًّا أو مشرفًا، ثم تغير حاله حين عينه السلطان الناصر واليًا للجيزة، وبسبب تبوغه ولاه السلطان الناصر كريم الدين الصغير أخرجه السلطان من مصر وعينه شادًّا للدواوين بطرابلس وبقي بها مدة سنتين حتى عفى عنه السلطان بشفاعة الأمير تنكز نائب الشام وولاه كشف الوجه البحريّ ثم رقي لرتبة أمير طبلخاناه وبقي مهابًا صاحب حرمة حتى توفي بالمقس في ربيع الأوّل ٧٣٨هـ. عنه انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٤: ٢٥٦.

(٣) المقريزي السلوك ١/ ٢: ١٣٠؛ المقفى الكبير، ٦: ٤٧٥؛ حصة المبارك: الناصر محمد بن قلاوون، ٣٥.

منها: تكليف الأمير عز الدين أيدمر الخطيري(١) بأمر الشرقية(٢)، والأمير علاء الدين أيدغدي شقير(٣).

---

(١) الأمير عز الدين أيدمر الخطيري: هو الأمير عز الدين مملوك شرف الدين أوحد بن الخطيري الأمير مسعود بن خطير، انتقل إلى ملك الملك الناصر محمد بن قلاوون، فترقى به الحال حتى صار أمير ألف، وكان منوّر الشيبة كريمًا كثير الزواج، وكان لا يلبس قباء مطرّزًا ولا مصقولًا ولا يدع أحدًا عنده يلبس ذلك وكان يخرج الزكاة بنى مسجد الخطيري وأنشأ بجانب هذا الجامع ربعًا كبيرًا تنافس الناس في سكناه ولم يزل على حاله حتى مات يوم الثلاثاء أول شهر رجب سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٤: ٢٥٣؛ المقفى الكبير، ٢: ٣٦٥- ٣٦٨.

(٢) الشرقية: إقليم حدده القلقشندي في العصر المملوكي بأنه شمال القليوبية شرقي فرع النيل الشرقي، وأنه إقليم واسع لكنه قليل البساتين بسبب اقترابه من المناطق المالحة بجانب غلبة الطابع البدوي على معظم سكانها، وأخر المزروع فيها منطقة الصالحية وقاعدتها بلبيس ومن أشهر مدنها، ذكر ابن الجيعان أن عوائدها السنوية تصل لمليون وأربعمائة وأحد عشر ألف دينار وتتكون من ثمانين ناحية. ابن الجيعان: التحفة السنية، ١ ابن دقماق: الانتصار ٢: ١٣١-١٨٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٣: ٤٠٤-٤٠٥.

(٣) الأمير علاء الدين أيدغدي شقير: كان من مماليك جمال الدين أقوش الأفرم المقربين، ويمكن تتبع عدد من أخباره ففي عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م خرج مع الأمير كجكن لمطارة أحد الأمراء الفارين من السلطنة المملوكية نحو المغول وهو الأمير قبجق لكنهم عادوا حين علموا بمقتل السلطان المنصور لاجين، وقبيل ولاية الناصر محمد الثالثة، تقرب منه سرًا حتى صار من أقرب المقربين غليه، وعمل في الظاهر في خدمة السلطان بيبرس الجاشنكير وكلف بمهمة استطلاع أخبار حركة الناصر للعودة للسلطنة والتي ذاع خبرها، وذلك في شعبان ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م وعاد لبيبرس مدعيًا أن الناصر في رحلة صيد لا مطالب بالملك، وبعد تمكن الناصر من استعادة الناصر ملكه صار أحد ثلاثة معهم سر السلطان، وكلف عام ٧٠٩هـ بالخروج في حملة عسكرية نحو بلاد الشام كنوع من أنواع التعبئة الوقائية لتامين حدود السلطنة الشرقية؛ حتى لا يداهمهم المغول والسلطان لم يستقر له الحال بعد، وفي عام ٧١٠هـ/ ١٣١٠م شارك شقير في وأد فتنة الأمير مظفر الدين موسى بن علي بن المنصور قلاوون الذي خطط =

كلف بأمر البهنساوية[١] والأمير شرف الدين حسين ابن حيدر[٢] توجه إلى

= لعزل السلطان الناصر محمد، وكان قد ترقى حتى صار من مقدمي الألوف، لكن ساءت علاقته بالسلطان بسبب تطلعاته، فقبض عليه وقتله في ربيع الأول سنة ٧١٥ هـ/ ١٣١٥م بسبب اتهامه بالتآمر على حياة السلطان. انظر: النويري: نهاية الأرب، ٣٢: ١٩٦؛ الصفدي: أعوان النصر، ١: ٦٥٠؛ المقريزي: االمقفى الكبير، ٢: ٣٤٢- ٣٤٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهر، ٨: ٢٦٠، ٩: ١٢، ٢٦، ٤١.

(١) البهنساوية: هي إقليم من أقاليم مصر، تم تحديده في العصر الفاطمي ليضم كور البهنسا، والقيس القديمة، وإهناس، وضم اليه بعض قرى البوصيرية، وبقى هذا الإقليم موجودًا حتى نهاية دولة المماليك، وعوائدها المالية حسب تقدير ابن الجيعان مليون وثلاثمائة وستين ألف دينار وعدد البلدان التابعة لها مئتان وستة وخمسين ناحية. عنها انظر: ابن الجيعان: التحفة السنية، ٥، ابن دقماق: الانتصار ٢: ٣-٣٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٣: ٣٨١. انظر أيضًا: مادة البهنساوية على الموسوعة الحرة ويكيبيديا مطالعة ٨ أغسطس ٢٠٢٢.

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%87%D9%86%D8%B3%D8%A7%D9%88%D9%8A%D8%A9_(%D8%B9%D9%85%D9%84)#cite_note-3

(٢) الأمير شرف الدين حسين بن جندر بك: أصله رومي جاء إلى الشام لاجئًا مع أبيه وأخيه عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م، في الشام شب حسين واشتهر بمهارته في الصيد فقربه حسام الدين لاجين حين كان نائبًا في الشام، وفي عهد السلطان حسام الدين لاجين منحه إمرة عشرة، ثم رقي لأمير طبلخانة، وكان من المقربين من الأفرم نائب الشام حتى فر من السلطنة المملوكية نحو التتار، ولما تسلطن الناصر محمد نقله معه إلى مصر ورقاه لرتبة أمير شكار بسبب براعته في الصيد، ثم رقي لرتبة مقدم ألف، وعده النويري من الأمراء الكبار، وبسبب سعة أمواله بني جامعًا وقنطرة على الخليج الناصري في القاهرة من ماله الخاص، وظل في عز ومنعه وقرب من السلطان حتى وافاه الأجل عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م ودفن في تربة ملاصقة لجامعه خارج القاهرة. عنه انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٢: ١٥٢- ١٥٦؛ النويري: نهاية الأرب، ٣٣: ٢١٩؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، (القاهرة -الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨)؛ ٥: ١٥٢-١٥٦؛ النجوم الزاهرة، ٩: ٢٧٦.

أسيوط[١] ومعها منفلوط[٢] وكذلك أرسل الأمير سيف الدين آقول الحاجب[٣] إلى إقليم الغربية [٤]، أما الأمير سيف الدين قلي[٥] أمير سلاح فوكل ببلاد

---

(١) أسيوط: قسم إداري قديم من أقسام مصر العليا عرف منذ الفتح العربي بالأعمال الأسيوطية، كانت عوائدها المالية تصل ثلاثمائة وتسعمائة وعشرين ألف دينار. حاليا تعد مدينة أسيوط عاصمة لمحافظة أسيوط، ويحدها من جهة الشرق نهر النيل ومركزا الفتح وأبنوب، ومن جهة الغرب جبل أسيوط الغربي ومن جهة الشمال مركز منفلوط، ومن جهة الجنوب مركز أبوتيج. انظر: ابن الجيعان: التحفة السنية، ٥؛ ابن دقماق: الانتصار ٢: ٦٠-٦٦؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ٥: ٧.

موقع محافظة أسيوط، مطالعة ٨ أغسطس ٢٠٢٢ http://assiut.gov.eg/AssiutGov.aspx

(٢) منفلوط: ذكر ابن الجيعان أنها تشمل منفلوط وكفورها، وحاليًا تقع منفلوط في وسط محافظة أسيوط، يحدها ومن جهة الجنوب أسيوط من الشمال مركز القوصية، ومن جهة الشرق مدينة أبنوب، وأخيرًا من ناحية الغرب الصحراء الغربية.ابن الجيعان: التحفة السنية، ١٨٤؛ موقع محافظة أسيوط زيارة ٨ أغسطس ٢٠٢٢ .http://assiut.gov.eg/ManfaloutGov.aspx

(٣) الأمير سيف الدين أقول المحمدي الحاجب: هو سيف الدين آقول بن عبد الله المنصوري المحمدي، كان من حجاب الناصر محمد، كلفه السلطان باستقبال رسل الخان المغولي طقطاي عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م، كما شارك في بيناء جسر الغربية لحمايتها من الفيضان عام ٧١٤هـ/ ١٣١٤م بأمر سلطاني، توفي عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، عنه انظر: الدوداري: كنز الدرر، ٩: ٢٨٠؛ المقريزي: السلوك، ٢/ ٢: ٤٥٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ٣١٧.

(٤) الغربية: إقليم يقع بين فرعي دلتا النيل، سميت بالغربية لأنها تقع غرب فرع النيل الشرقي، يحدها جنوبًا المنوفية وتمتد حتى تصل للبحر المالح (المتوسط)، نشأت في العصر الفاطمي باسم الغربية وبقيت بهذا الاسم حتى الروك الناصري عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م حيث جاءت فيه باسم الأعمال الغربية، و ومقر هذا الإقليم في العصر المملوكي هو المحلة وهي مدينة كبيرة بها الجوامع والمدارس والأسواق والحمامات. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ٣: ٤١٠؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ٣: ٨.

(٥) الأمير سيف الدين قلي: كان من أمراء الناصر محمد المقربين، منحه رتبة سلاح دار ووصفه ابن تغري بردي أنه كان من أعيان الدولة المصرية، توفي عام (٧١٧هـ/ ١٣١٧م). عنه انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ٢٤١.

الأشمونين[(١)]، وكلف الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا[(٢)] بأمر القليوبية[(٣)]، في حين

---

(١) الأشمونين: هي مدينة كبيرة قديمة ترجع لعصر المصريين القدماء، وصفها ياقوت إنها قرية من قرى الصعيد الأدنى تقع غربي النيل، كثيرة الزروع والثمار، وحاليًا هي قرية من قرى مركز ملوي بمحافظة المنيا. ياقوت: معجم البلدان، ١: ٢٠٠؛ ابن دقماق: الانتصار ٢: ٣٨-٣٩.
مادة الأشمونين: دائرة المعارف الحرة ويكيبيديا، زيارة ٨ أغسطس ٢٠٢٢م.
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B4%D9%85%D9%88%D9%86%D9%8A%D9%86

(٢) الأمير جنكلي بن البابا: هو جنكلي بن محمد بن البابا بن جنكلي بن خليل بن عبد الله العجلي، كان مقيمًا قرب آمد، تابعا لغازان سلطان المغول في العراق. توسم فيه الأشرف خليل بن قلاوون الخير فدعاه للعمل معه لكنه لم يستجب، فلما مات غازان دخل في خدمة الناصر محمد في سلطنته الثانية عام ٧٠٤هـ فمنحه رتبة أمير، كما وصل لرتبة أتابك العسكر بمصر، ووصل لمكانة علية في مجلس السلطان حتى صار جليس الميمنة، كان متمسكًا بأهداب الدين ملمًا بالفقه عارفًا الفروق بين المذاهب السنية الأربعة المشهورة، يميل لمجالسة الصالحين ومساندتهم، رزق بولدين وصلا لرتبة الإمارة هما: الأمير شهاب الدين أحمد والأمير ناصر الدين محمد، بقي محفوظ الجانب حتى توفي بالقاهرة ١٧ ذي الحجة عام ٧٤٦هـ/ ٩ أبريل ١٣٤٦م. عنه انظر: الصفدي: الوافي، ١١: ٢٠٠؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ١: ٥٣٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ١٠: ١١٦.
انظر أيضا: إبراهيم رجب محمود: " الدور السياسي والحضاري للأمير جنكلي بن البابا في مصر خلال العصر المملوكي (٦٧٥- ٧٤٦هـ/ ١٢٧٦- ١٣٤٥م)"، مجلة كلية اللغة العربية جامعة أسيوط، العدد ٣٩، ٢٠٢٠م، ٧١٥- ٧٤٦.

(٣) القليوبية: هي إقليم يقع شمال القاهرة، تم استحداثه في عصر الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م، وقبل ذلك كانت بلاده تابعة لإقليم الشرقية، وكانت تشمل عدد من المدن وتوابعها ومنها: قليوب وبنها وأجهور الكبرى وأجهور الصغرى والخاقانية والخزان والسنطة والصالحية وسرياقوس وشبين القصر (شبين القناطر حاليًا). ابن الجيعان، التحفة السنية، ٨-١١؛ رمزي: القاموس الجغرافي، ٢ :١٩.

توجه الأمير سيف الدين بهادر المعزي[١] إلى إخميم[٢] وأخيرًا الأمير بهاء الدين أصلم[٣] كانت مهمته قوص[٤].

---

(١) الأمير سيف الدين بهادر المعزي: هو بهادر بن عبد الله التركماني السيفي المعزي، كان من مماليك المنصور لاجين، وحين جلس لاجين على عرش السلطنه رقاه لرتبة أمير ودخل في خدمة الناصر محمد حتى قبض عليه عام (٧١٥ هـ/١٣١٥م) وظل في الاعتقال حتى (٧٣٠هـ/١٣٣٠م) حين أطلق سراحه حين قبل السلطان شفاعة تنكز فيه، ورفع شأنه الناصر محمد وجعله من خواصه ورقاه لرتبة أمير مائة مقدم الف، حتى توفي عام (٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) تاركًا ثروة كبيرة. عنه انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة،١: ٤٩٦؛ المقريزي: المقفى الكبير، ٣: ٧٥- ٧٧؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ٣: ٤٣٠؛ النجوم الزاهرة، ٩: ٣١٨.

(٢) أخميم: عرفه ياقوت بأنه بلد بصعيد مصر شرقي النيل، وحدد الإدريسي المسافة بين النيل وأخميم بميلين، اشتهرت بين العرب بكثرة ما بها من الاثار القديمة أو البرابي. وحاليًا هي إحدى مدن محافظة سوهاج وعاصمة مركز إخميم. الإدريسي (الشريف محمد بن محمد، المتوفى ٥٥٩هـ/١١٦٦م): صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، (ليدن، ١٨٩٢م)، ٢٩؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١: ١٢٤. انظر أيضًا مادة أخميم على الموسوعة الحرة ويكيبيديا، مطالعة ٩ أغسطس ٢٠٢٢م.
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%AE%D9%85%D9%8A%D9%85#cite_note-4

(٣) الأمير بهاء الدين أصلم: هو الأمير بهاء الدين السلاح دار أصلم بن عبد الله الناصري، كان من أصل قفجاقي فاشتراه المنصور قلاوون، وتنقل بين أمراء المماليك، حتى بشر الناصر محمد عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م بفرار بيبرس الجاشنكير فمنحه رتبة أمير عشرة، وترقي حتى وصل لرتبة مقدم ألف، وشارك في حملة عسكرية على اليمن وحين عاد نقل عنه ما أغضب عليه الناصر فسجنه سبع سنين ثم عفى عنه ومنحه رتبة أمير مائة وتقدمة ألف بمدينة القاهرة، ثم صار نائبًا بصفد وبعد وفاة الناصر عام ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠م دخل في خدمة ابنه السلطان أحمد وبقي أمير مائة مقدم ألف حتى توفي في شعبان ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م. عنه انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ١: ٣٨٩؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٤: ٢٣٤؛و المقفى الكبير، ٢: ٢١٨- ٢١٩؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ١: ٤٦٠-٤٦١؛ النجوم الزاهرة، ١٠: ١٧٥-١٧٦.

(٤) المقريزي: السلوك، ٢/١: ١٣٧-١٣٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ٣٨؛ نعيمة عبدالسلام أبو شاقور: "سياسة الناصر محمد في معالجة بعض المشاكل الاقتصادية"، مجلة العلوم الإنسانية – جامعة المرقب، العدد ٢٢، ٢٠٢١م، ٧٠٢. =

ومن مشرعات القناطر التي شارك فيها الجيش المملوكي مشروع بناء قناطر منطقة شبين القصر[١] على بحر أبي المنجا[٢] عام (٧٣٥هـ/١٣٣٤م) وبلغ عدد هذه القناطر تسع قناطر، وصدرت أوامر من السلطان للأمراء للمشاركة في حمل الأحجار ليكونوا قدوة لجنودهم مما عجل بتمام تنفيذ المشروع في مدة وجيزة[٣].

ثالثًا- مقاومةُ توابعِ الفيضاناتِ العاليةِ:

لم تتوقف مشاركة الجيش في الأعمال المدنية عند الأعمال الإنشائية لكنها تجاوزتها إلى مجالات أخرى منها مقاومة خطر فيضانات النيل العالية، مثلما حدث في (رابع رجب عام ٧١٧هـ/الحادي عشر من سبتمبر ١٣١٧م) حين انهارت جسور

= قوص: من المدن القديمة وصفها ياقوت بأنها قصبة صعيد مصر، المسافة بينها وبين الفسطاط تقطع في اثنى عشر يوما، تعتبر مدينة تجارية من الطراز الأول. وحاليًا تعد من مدن محافظة قنا كما أنها عاصمة مركز قوص. عنها انظر: ياقوت: معجم البلدان، ٤: ٤١٣؛ ابن دقماق: الانتصار٢:٧٤- ٩٣. عنها انظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ١٤: ١٢٨. مادة قوص على الموسوعة الحرة ويكيبيديا، مطالعة ٩ أغسطس ٢٠٢٢م.

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D9%88%D8%B5

(١) شبين القصر: هي مدينة شبين القناطر حاليًا. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩: ١١٤، حاشية ١٥.

(٢) بحر أبي المنجا: هو قناة مائية حفرت في العصر الفاطمي بغرض ري أراضي الشرقية، التي كانت تعاني من قلة الماء الواصل إليها، وذلك عام (٥٠٦هـ/ ١١١٢م) بأمر من الأمير الأفضل الجمالي، ونسب البحر للمباشر القبطي المشرف عليها المسمى بأبي المنجا، بني عليها في عصر المنصور قلاوون بلدة شبين القصر أو شبين القناطر كما تعرف حاليا. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢: ٥٨٤.

(٣) المقريزي السلوك ٢/٢: ٣٨٧؛ المواعظ والاعتبار، ١: ٢٠١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩: ١١٤.

منطقة منية الشيرج(١) وقليوب(٢) مما أدى لغرق هاتين المنطقتين و إسراع السكان بالفرار بعد أن خسروا كثير من أموالهم، كما تلفت كثير من الغلال المخزنة، وفي هذا الحدث الجلل شارك جنود الجيش في عملية تدعيم ما بقي من الجسور يقودهم والي القاهرة وجميع القادرين على العمل خشية غرق مزيد من البقاع مما يزيد الفاجعة(٣).

وتكرر الأمر عام (٧٢٣هـ/١٣٢٣م) حين زاد فيضان النيل ودمر الجسر عند بستان الخشاب(٤)، فاندفع الماء نحو منطقة بولاق أو منطقة الترعة البولاقية بالقاهرة

---

(١) منية الشيرج: وتعرف أيضا بمنية الأمراء، سميت بهذا الاسم بسبب كثرة معاصر السمسم بها لإنتاج زيت الشيرج المسمى بالسيرج والذي غلب على اسم المنطقة حاليًا، وصفها ياقوت الحموي أنها بلدة تقع شمال القاهرة بمقدار فرسخ على الطريق المؤدي إلى الإسكندرية، كما أثنى عليها السخاوي ووصفها بأنها عامرة كثيرة السكان، ومساكنها كذلك، يقصد الناس أسواقها للتنزه، يعقد بها كل أحد سوق رائج للأغنام والبقر. حاليًا هي إحدي شياخات حي الساحل، بمحافظة القاهرة. عنها انظر: ياقوت: معجم البلدان، ٥: ٢١٨؛ السخاوي (شمس الدين محمد بن عبدالرحمن، المتوفى ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٦م): البلدانيات، تحقيق حسام بن محمد القطان، (الرياض- دار العطاء، ٢٠٠١م)، ٢٧٩؛ ابن دقماق الانتصار، ٢: ١١٨؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ٢: ١٤، ١٥.
منية الشيرج، موقع المعرفة، زيارة ٦ أغسطس ٢٠٢٢م.
https://www.marefa.org/%D9%85%D9%86%D9%8A%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%B1%D8%AC%D8%8C_%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A7%D9%87%D8%B1%D8%A9

(٢) قليوب: من القرى القديمة جاء ذكرها في قوانين الدواوين لابن مماتي، حتى عام (٧١٥هـ/ ١٣١٥م) كانت قليوب من أقاليم الشرقية كما جاء عند ابن مماتي، فلما تم الروك الناصري في هذا العام تم انشاء إقليم القليوبية وقاعدته مدينة قليوب. عنها انظر: ابن مماتي: قوانين الدواوين، ١٦٧؛ ابن دقماق: الانتصار ٢: ١٢١-١٣٠؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي: ٧٥.

(٣) المقريزي السلوك، ١/٢: ١٧٣.
LEVANONI, A., "A Turning Point in Mamluk History", p. 164

(٤) بستان الخشاب: بذل الأستاذ محمد رمزي جهدًا كبيرًا في تحديد الموقع الدقيق لبستان الخشاب في استدراك على تحقيق الجزء السابع من النجوم الزاهرة، وخلص بعد بحث إلى أن بستان الخشاب كان يقع في منطقة يحدها اليوم من الشمال شوارع البرجاي ومضرب النشاب وشارع المبتديان، ومن الغرب من النيل لشارع إبراهيم باشا، ومن الجنوب شارع بستان الفاضل وامتداده =

كما تسمى حاليًا، ووصل الماء إلى منطقة باب اللوق[(١)] حتى باب البحر[(٢)] -من أبواب القاهرة- وكذا إلى بستان الخور[(٣)]، وترتب على ذلك انهيار كثير من المنازل المطلة على النيل، حتى منطقة منية الشيرج، فأسرع الفخر ناظر الجيش بتقييم الموقف ورفع تقريرًا للسلطان بضرورة اتخاذ إجراء لمواجهة ارتفاع الفيضان حتى لا تغرق مساكن القاهرة، وبسبب وقع التقرير المفجع أسرع السلطان ليشاهد الموقف عن قرب، حينها قرر بناء جسر بعد انخفاض مستوى الفيضان؛ حتى لا يتكرر الأمر في السنوات التالية، ونودي على كل أصحاب الأملاك بإلقاء التراب ناحية بولاق؛ للحد من تدفق الماء مبدئيًّا، وتم استدعاء المهندسين فدرسوا أمر بناء الجسر يعاونهم الخولة أو رؤساء العمال، وحين بدأ العمل كلف كل أمير بمسافة معينة يقيم فيها الجسر بالاستعانة بفلاحي البلاد التابعة له، ووقف كل أمير بنفسه لمباشرة العمل حتى تم الجسر في عشرين يومًا ممتدًا من

= ومستشفى القصر العيني، ومن الناحية الشرقية يحد بشارع سعد الدينو الخليج المصري (بور سعيد حاليًا). ابن دقماق: الانتصار ١: ٣١٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧: ٣٨٨.

(١) باب اللوق: منطقة باب اللوق يقصد بها المنطقة الممتدة من ميدان عابدين حاليًا حتى ساحل النيل، ومن المنيرة في الجنوب حتى شارع ٢٦ يوليو بقلب مدينة القاهرة وكان هذا الموضع ميدانًا أنشأه الصالح أيوب عام (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م) لتدريب المماليك على المبارزة وبنى حول الميدان سور له باب عرف بباب اللوق، وظل الميدان موجود حتى عصر الظاهر بيبرس الذي هجر ميدان الصالح وأنشأ ميدانًا آخر إلى الغرب منه في موضع ميدان التحرير وشمال حي جاردن سيتي حاليًا بالقاهرة، ولما تولى الناصر محمد بن قلاوون قام بتخريب ما بقي من الميدان وحوله لبستان تزرع فيه أنواع الفواكه المختلفة. لمزيد من التفاصيل انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٦٢٦-٦٢٧؛ علي مبارك: المواعظ والاعتبار التوفيقية،٣: ٥٨؛عباس طرابيلي: شوارع لها تاريخ سياحة في عقل الأمة، (القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م)، ٨١-٨٤.

(٢) باب البحر: هو باب من أبواب القاهرة، بناه الحاكم بأمر الله وهدم في عصر الظاهر بيبرس. عنه انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢: ٤٢٥- ٤٢٧.

(٣) بستان الخور: يقصد بها الأرض الممتدة من الخليج الناصري وخليج فم الخور والمنطقة كلها كانت قديمًا تعرف ببستان ابن ثعلب. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٣٩٥؛ علي مبارك، المواعظ والاعتبار التوفيقية، ٣: ١٠٤.

بولاق إلى منية السيرج[(١)].

ومع تجدد تهديد الفيضان لساحل النيل الشرقي مما يلي القاهرة عام (٧٣٩هـ/١٣٣٨م) اتخذ السلطان الناصر قرارًا بتغيير مجري النيل نحو الغرب، فشق قناة في جزيرة الروضة، ومع اندفاع ماء الفيضان طغى على الساحل الغربي (بر انبابة وبر بولاق التكرور) وانتهى تهديد النيل الدائم للساحل الشرقي، وانجز المشروع بإشراف الأميرين أقبغا عبدالواحد[(٢)] وبرسبغا الحاجب[(٣)]، ومتابعة من السلطان بصورة يومية حتى تم الأمر[(٤)].

---

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٢: ٢٥٠؛ حصة المبارك: الناصر محمد بن قلاوون، ٣٧.

LEVANONI, A., *op. cit.*, p. 164

(٢) أقبغا عبدالواحد: الأمير علاء الدين الاستادار، المشهور بأقبغا الناصري، اشتراه الناصر محمد، ورباه في مماليكه فظهرت نجابته، ولاه السلطان محمد وظيفة الإشراف على العمائر السلطانية فقام بعمله خير قيام، فجمع له السلطان عدد من الوظائف عام (٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م) منها: الاستادار، شاد العمائر، مقدم المماليك، وأمير منزل، وأمير مائة مقدم ألف، ارتفعت مكانته في دولة الناصر بحكم أنه صهر السلطان فقد تزوج الناصر من أخته خوند طغاي، مات مقتولًا بأمر السلطان الصالح بن الناصر محمد في سجن الإسكندرية عام (٧٤٤هـ/١٣٤م). انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص ٣٠٥-٣٠٦؛ المقريزي: المقفى الكبير، ٢: ١٩٠؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ٢: ٤٩٧- ٤٩٩.

(٣) برسبغا الحاجب: كان حاجب الناصر محمد وترقي عنده حتى توفي، فلما مات الناصر قبض عليه الأشرف كجك بن الناصر محمد وسجنه في الإسكندرية حيث ومات مقتولًا في سجن الإسكندرية في ولاية الناصر أحمد سنة (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م). الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٠: ١١٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ١: ٤٧٤؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ٣: ٢٨٢-٢٨٣؛ وأيضا:الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق محمد فهيم شلتوت، (القاهرة - دار الكتب والوثائق القومية، ١٩٩٨م)، ١٨٧.

(٤) المقريزي: السلوك، ٢/ ٢: ٤٥٠-٤٥١؛ حصة المبارك: الناصر محمد بن قلاوون، ٣٧.

LEVANONI, A.,*op. cit.,* p. 164.

كما اهتم الناصر محمد بحماية شاطيء النيل عند القاهرة من نحر الفيضان فاتجه لإنشاء رصيف أو زربية عام (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) بجوار جامع الطيبرسي[١] الواقع على نهر النيل، ولإنشاء هذه الزربية احتاج المشروع لكمية كبيرة من الطين، وتقرر بعد دراسة نقل الطين من بستان الزهري القريب من ميدان المهارة، ولنقل كمية كبيرة من الطين في أسرع وقت أصدر السلطان الناصر قرارًا شمل عددًا من الأمراء ليقوموا بالمهمة تحت إشراف عدد من المهندسين وعلى رأس الجميع الأمير بيبرس الحاجب، ويسبب متابعة السلطان للأمر نشط الأمراء في حفر الأرض ونقل الطين مستخدمين بغالهم ودوابهم حتى انجز الأمر في وقت قصير[٢]، ونتج عن بناء هذه الزربية توسع عمراني كبير سوف يتضح بعد قليل.

رابعًا: إنشاءُ الميادينِ العامةِ:

ومن المشروعات العمرانية التي عاون الجيش في إنشائها في عصر الناصر محمد ابن قلاوون في عام (٧١٣هـ/١٣١٣م) مشروع **إعادة تخطيط ميدان أسفل القلعة** الذي امتد من باب الأسطبل حتى القرافة[٣]، وفي سبيل إنجاز المشروع على وجه السرعة قسم السلطان العمل بين الأمراء، حيث نقل الطين إلى الميدان على الجمال، وغرس فيه مختلف أنواع الأشجار والنخيل كما حفر فيه عددًا من الآبار ركبت عليها سواقي للري، وحفاظًا على عمارة الميدان أحيط بسور حجري، ورغبة في ثواب الله قام السلطان بإنشاء سبيل خارجه لتوفير ماء الشرب للعامة والسابلة،

---

(١) جامع الطيبرسي: هو مسجد جامع بناه الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش على شاطئ النيل في أرض بستان الخشاب، وبنى بجواره خانقاه في عام ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٤: ٢٠٥.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢/ ٢: ٢١٦- ٢١٧؛ المواعظ والاعتبار، ٣: ٤٣٦.

LEVANONI, A., *op. cit.*, p. 161.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ٣٢: ١٥٦.

وبعد تمام العمل لعب فيه السلطان بالكرة وأجزل ثواب المشاركين في العمل(١).

ومن الميادين التي عمرها السلطان الناصر **ميدان المهارة** المقابل لقناطر السباع وذلك عام (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) حسبما ذكر المقريزي(٢) في حين أدرج ابن إياس(٣) المشروع في أحداث سنة (٧٢١هـ/ ١٣٢١م) والأرجح لدي قول المقريزي بسبب قربه الزماني واهتمامه الكبير بخطط القاهرة، وكُلف بإنجاز المهمة أمير آخور(٤) الكبير وباقي الأمراء الآخورية، وبسبب تضافر الجهود من هؤلاء الأمراء تم إنجاز المشروع في وقت قصير، وذلك أن السلطان هو من اختار موقع الميدان وتابع المشروع في كل مراحله من نقل للطين وزراعة الأشجار والنخيل(٥)، ولعل تكليف أمير آخور ومن تبعه من الأمراء الآخورية يرجع لتخصيص هذا الميدان لتربية إناث الخيول الصغيرة أو المهرة وتدريبها.

خامسًا: تعميرُ القرى:

كما شارك أمراء الجيش المملوكي في تعمير القرى، ومما رصدته المصادر في هذا المضمار قيام الأمير سنقر السعدي نقيب الجيوش بتعمير قرية النحريرية عام (٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، وموضع القرية كان أرضًا زراعية في إقطاعه فبنى بها مسجدًا وطاحونًا وخانًا ومعصرة، ومنح الفلاحين الحق في البناء بجوار هذه المنشآت فاتسع عمران القرية وزاد خراجها حتى وصلت شهرتها للسلطان وكثرة ما تغله الذي قدر بنحو خمسة عشر ألف دينار، فقرر السلطان ضمها للأملاك السلطانية(٦).

---

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٢: ١٢٣؛ ابن تغري بردي، ٩: ٣٧.

(٢) المواعظ والاعتبار، ٣: ٦٣٠؛ وأيضًا: السخاوي: الثغر الباسم، ١: ٢٤٤.

(٣) بدائع الزهور، ١: ٤٥٣.

(٤) أمير آخور: هو لقب مركب من كلمة أمير العربية وكلمة آخور الفارسية بمعنى المعلف، وكان هذا اللقب يطلق على الأمير المشرف على اسطبل وخيول السلطان. انظر: القلقشندي: صبح الأعشي، ج٥، ص ٤٦١؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار الإسلامية، (القاهرة – دار النهضة العربية ١٩٦٥م)، ص ١٧٤؛ أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ٢٠.

(٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٣: ٦٣٠-٦٣١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ١: ٤٥٣؛ انظر أيضًا: علي مبارك: الخطط التوفيقية، ١: ٣٤، ٨٣؛ أسامة حسن: الناصر محمد بن قلاوون، ٤٦.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ١: ٤٥٨.

سادسًا- مواجهةُ ارتفاعِ أسعارِ الغذاءِ:

ولمواجهة ارتفاع أسعار أهم السلع على الإطلاق لدى المصريين وهو الخبز تدخل أمراء المماليك في عام (٧٢٤ هـ/١٣٢٤م)، حين عم الجفاف في بلاد المشرق الإسلامي فهاجرت جماعات من الناس إلى الشام في وقت أتلف الجراد فيه كثيرًا من الزروع حتى بلغت غرارة القمح مائتي درهم فأسرع الأمراء في مصر - بناء على أمر سلطاني - بتجهيز القمح ونقلوه عن طريق البحر إلى بيروت وطرابلس، وبلغ إجمالي ما نقلوه نحو عشرين ألف أردب[١] وعاونهم السلطان في ذلك، مما أدى لتراجع الأسعار على نحو كبير[٢]، ووصف ابن شاكر الكتبي[٣] الكمية التي نقلها الأمراء المصريون بالشيء الكثير.

وفي عام (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) حين ارتفعت أسعار القمح ووصل سعر الإردب إلى أربعين درهمًا، قرر السلطان أن يفتح الأمراء مخازن غلالهم ويعرضوا القمح بسعر ثلاثين درهمًا فقط تخفيفًا لحدة الأزمة[٤] التي ضج منها الناس بالشكوى، فحرص السلطان على التخفيف عن رعيته فأصدر هذا القرار، مما ترتب عليه عرض القمح بهذا السعر في شون الأمراء، لكن الأزمة لم تنته تمامًا لأن المصدر نفسه ذكر أن القمح كان يباع في الخفاء بستين درهمًا ولم تخف الأزمة إلا في شعبان حيث بيعت عشرة أرطال[٥] من الخبز بدرهم دلالة على عودة أسعار القمح لطبيعتها[٦].

---

(١) الإردب: مكيال كبير استخدمه المصريون يتكون من ٢٤ صاع بصاع النبي صلى الله عليه وسلم، والإردب يختلف باختلاف أنواع الحبوب ولا يهمنا هنا إلا إردب القمح وهو يعادل ١٥٠كجم. علي جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، (القاهرة - القدس للإعلان والنشر، ٢٠٠١م)، ٣٩,٨.

(٢) المقريزي: السلوك ١/ ٢: ٢٥٤.

(٣) عيون التواريخ، ٤: ٣٧٧.

(٤) ابن العسال: النهج السديد، ٢: ٧١٦.

(٥) الرطل: يتكون من اثنى عشر أوقية أما الأوقية فتتكون من اثنى عشر درهمًا، بينما الدرهم يتكون من اثنى عشر قيراط والقيراط أربع حبات، والرطل المصري كما حدد الشيخ علي جمعة ٤٤٩,٢٨ جرام. أحمد فكري: الفوائد الفكرية، ١٦؛ علي جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، ٣٠.

(٦) ابن العسال: النهج السديد، ٢: ٧١٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ١: ٤٧٢؛ مصطفى وجيه: الغذاء في مصر عصر سلاطين المماليك، (القاهرة - عين للبحوث والدراسات، ٢٠١٦م)، ٣١٩.

سابعًا- إطفاءُ الحرائقِ:

كما لم يتأخر الجنود عن المشاركة في إطفاء حرائق القاهرة، ففي عام (٧٢١هـ/١٣٢١م) حصلت صدامات ذات أبعاد طائفية في القاهرة أدت لاشتعال عدد من الحرائق التي أخذت في الاتساع حتى أحرقت النخيل والمراكب، وظن الناس أن السيطرة على الحريق من المحال، لكن تعاون كل الناس في القاهرة بما فيهم جنود الجيش لكبح جماح النار المهلكة، مما ساعد على السيطرة على الحريق، ولم يشارك صغار الجند فقط في مواجهة هذه الأزمة، بل شارك أمراء الطبلخاناه بأنفسهم ومعهم أمراء العشرات للتصدي لهذه الكارثة، واتخذت مجموعة من التدابير ساعدت على السيطرة على النيران منها: استخدام جمال الأمراء في حمل الماء، ومنع خروج السقائين من القاهرة للمشاركة في الأمر حتى أطفئ الحريق، وفي هذه الحادثة شاهد عامة الناس كبار الأمراء وهم يحملون الماء معهم[١]، كل ذلك تحت إشراف نائب السلطنة والحجاب وأمير جاندار[٢].

مشروعاتٌ فاقتْ طاقةَ الجيشِ:

على الرغم من الدور الفاعل للجيش المملوكي في المشروعات المدنية إلا أن هناك بعض المشروعات لم يتمكن من الإقدام على تنفيذها بالرغم من رغبة السلطان في ذلك لأنها فاقت قدرات الجيش آنذاك، مثال ذلك، حين قرر السلطان عام (٧٢٨هـ/١٣٢٧م) أن يحفر قناة تبدأ من النيل عند حلوان وتمتد حتى القلعة، وبالفعل كلف الخبراء وشاد العمائر بدراسة المشروع، فقاموا بالقياسات اللازمة وتقرر حفر ما يقارب اثنين وأربعين ألف قصبة حتى يستمر جريان في القناة صيفًا وشتاء، وأعجبت الفكرة السلطان أيما إعجاب، ومع ذلك لم ينفرد بالرأي بل شاور الأمراء الذين خافوا من معارضة الناصر

---

(١) ابن العسال: النهج السديد، ٢: ٦٠٢-٦٠٣؛ المقريزي: السلوك ١/ ٢: ٢٢٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٩: ٦٣- ٦٨؛ نعيمة عبدالسلام أبو شاقور: "سياسة الناصر محمد في معالجة بعض المشاكل الاقتصادية"، ٧٠٢.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ٣٣: ٩.

فلم يعترض منهم أحد إلا الفخر ناظر الجيش الذي أوضح للسلطان أن المشروع غير قابل للتنفيذ؛ لأنه يحتاج لقوة الجيش كاملة ومثله معه، ويستغرق سنين طوال ويتكلف مالًا جزيلًا، وفوق ذلك يكلف الرعية فوق طاقتهم فتدعو على السلطان، وأكثر من سوق الحجج والأدلة حتى عاد السلطان عن المشروع(١)، ولم يكن اقتناع السلطان برأي ناظر الجيش نابعًا من فراغ، لكنه جاء بسبب إدراك السلطان لخبرة الفخر الواسعة في إدارة شئون الجيش، ومعرفته التامة بمراتب الأمراء والجنود، وما في أيديهم من اقطاعات وما يعتريها من متغيرات بحكم منصبه ناظراً للجيش(٢).

مردودُ الأعمالِ المدنيةِ التي شاركَ فيها الجيشُ على عامةِ الناسِ:

يمكن رصد بعض عوائد المشروعات التي شارك الجيش في إنجازها على عامة شعب السلطنة ومن بينها:

مشروع حفر خليج الإسكندرية عام (٧١١هـ/١٣١١م) الذي جنت منه السلطنة كثيرًا من الفوائد التي عددها المقريزي(٣) ويمكن إجمالها في النقاط التالية:

- اتساع رقعة الأرض الزراعية حيث بلغ مجموع ما زُرع من أرض مائة ألف فدان، منها مساحات كبيرة كانت سبخًا في الماضي فلما أنشئ الخليج صلحت وجاد فيها الزرع، كما تم تعمير ألف حقل على الخليج، وإنشاء ستمائة ساقية لري الأراضي؛ الأمر الذى أدى إلى ازدهار الزراعات وأبرزها زراعات القلقاس والسمسم.
- نشأة عدد من القرى الجديدة بلغ عددها أربعين قرية، بجانب تعمير عدة بلاد لم يذكر المقريزي عددها.
- تجدد حركة الملاحة في الخليج بين فرع رشيد والإسكندرية بصورة مباشرة حيث أبحرت فيه السفن الكبار صيفًا وشتاء.

---

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٢: ٣٠٢؛ ابن تغري بردي، ٩: ٩١.

(٢) حسن الباشا: الفنون الإسلامية، ٣: ١١٩٤.

(٣) المقريزي السلوك، ١/ ٢: ١١٢؛ المواعظ والاعتبار، ١: ٤٧٦؛ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع، ٣٤،أسامة حسن: الناصر محمد بن قلاوون، ٤٧.

- توافر مياه الشرب العذبة لمدينة الإسكندرية بصورة أغنت سكانها عن تخزين مياه المطر في الصهاريج.
- أنشأ الأمير بكتوت والي الإسكندرية جسرًا استغرق بناؤه ثلاثة أشهر حتى تم رصيفًا واحدًا أنشأ عليه نحو الثلاثين قنطرة، بناها بالحجارة والكلس، وعمل أساسه رصاصًا، وبجوار الجسر أنشأ خانًا وحانوتًا.

كما أحدث حفر الخليج الناصري من القاهرة إلى سرياقوس عام (٧٢٤هـ/١٣٢٤م) حركة رواج اقتصادي عظيم من مظاهرها إنشاء عدة أسواق على طول الخليج، كما سهلت حركة نقل الغلال من المزارع على طول الخليج حتى القاهرة مما أسعد السلطان، كما أقبل الناس على شراء الأراضي على جانبي الخليج لزراعتها بمختلف أنواع الأشجار، كما اتسعت ونمت حركة البناء والتعمير على جانبي الخليج حتى عمر ما بين المقس وبولاق ومن مردة البلاط حيث فم الخليج حتى أرض الطبالة، وتنافس عامة الناس في بناء الحمامات والمساجد والأسواق، وتفرع من الخليج عدة خلجان ساعدت على اتساع الرقعة الزراعية بصورة كبيرة[(١)].

وترتب على حفر البركة الناصرية عام (٧٢١هـ/١٣٢١م) حركة عمرانية نشطة على أطرافها، حيث بنى الناصر محمد قصرًا للتنزه تم عام (٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، أما عامة الناس فقد اتجهت للتحكير[(٢)] وبناء الدور التي وصفها المقريزي بالعظيمة، وهذا الوصف يوحي بأن من أنشأوها كانوا من مياسير الناس[(٣)].

كما أدى بناء الزربية بجوار المسجد الطيبرسي لحركة عمرانية كبيرة في هذه المنطقة؛

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٤٨٤؛ حصة المبارك: الناصر محمد بن قلاوون، ٤٢؛ أسامة حسن: الناصر محمد بن قلاوون، ٤٧؛ الششتاوي: متنزهات القاهرة، ٢١٤.
LEVANONI, A. *op. cit.*, p. 160.

(٢) الحكر: يقصد بالتحكير المنع، وفي عرف المصريين منع الغير من البناء على أرض بعينها. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٣٧٨.

(٣) المواعظ والاعتبار، ٣ :٥٥٠.

لأن السلطان لم يكتف ببناء الزربية لكنه بنى فوقها وكالة وربعين كبيرين، أوقف أحدهما على خانقاه سرياقوس ومنح الربع الثاني للأمير بكتمر الساقي[١] الذي بنى بجواره حمامين، فاقتدى الناس بالسلطان والأمير وتوسعوا في العمران بجوار هذه الزربية حتى صار هناك شوارع ودروب ومساكن بحري الزربية، وتنافس الناس في شراء الأرض وتعميرها حتى امتدت العمارة من الميدان السلطاني حتى قناطر السباع، أما جنوبي الزربية فقد توسع الأعيان والكتاب في البناء فيها فعرفة منشأة الكتاب، وتوسعت العمائر والمتنزهات حتى وصلت لمنشأة المهراني[٢].

وصار ميدان المهارة من أهم متنزهات القاهرة بحكم أن الأهالي كانوا يخرجون للفرجة على عروض تدريبات الخيل السلطاني[٣]، وجاء تعمير القرى سببًا في تزايد التجمعات السكانية القروية حول منشآت أمراء السلطنة مثل قرية النحريرية[٤].

***

(١) الأمير بكتمر الساقي: هو الأمير سيف الدين المظفري، كان من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكير، ضمه السلطان الناصر إليه عام (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) فاعتقه وجعله ساقيًا وأمره، وعظم عن السلطان وصار من كبار الأمراء، حتى أرسل للمغول طالبًا أمه وأخوته فكان له ما أراد، وظل في عز ومنعه وقرب من السلطان حتى شك السلطان في رغبته في الخروج عليه، فاصطحبه معه للحج عام (٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) وفي طريق العودة مات بكتمر وابنه عام (٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) فاتهم السلطان بدس السم له. عنه انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٠: ١٩٣؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٢: ٢٣٥؛ المقريزي: المقفى الكبير، ٢: ٤٦٦ - ٤٧٤؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ٣: ٣٩٠-٣٩٦.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٣: ٤٣٦.

LEVANONI, A.,*op. cit.*, p. 161.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ١: ٤٦٠؛ محمد الششتاوي: ميادين القاهرة، ٨٦.

(٤) المصدر نفسه ١: ٤٥٨.

الخاتمةُ:

بعد هذه الدراسة لدور الجيش في الأعمال المدنية في عصر دولة الناصر محمد ابن قلاوون الثالثة نخلص إلى عدة نتائج منها:

- أولًا- تنوعت المجالات التي شارك فيها الجيش في الأعمال المدنية عصر الناصر محمد بن قلاوون، والرابط بينها ضخامة المشروع وسرعة الإنجاز وعظم العوائد.
- ثانيًا- بدا واضحًا ارتفاع مكانة دولة سلاطين المماليك في ظل كثرة المشروعات المدنية الدالة على قوة الدولة واستقرارها.
- ثالثًا- تجلى الدور المشرف للجيش في سرعة التصدي لكثير من الأزمات الخانقة بعضها يتعلق بتوفير الماء، وبعضها يتعلق بتوفير الغذاء في فترات المجاعة، وغيرها يتعلق بالحد من الخسائر حين شارك في إطفاء الحرائق.
- رابعًا- استغلال طاقة الجنود في غير أوقات الحرب وبالتالي صاروا قوة مضافة لقاطرة التنمية التي قادها الناصر محمد بن قلاوون بدلًا من أن يبقوا قوة معطلة غير مستغلة ربما تسبب له مختلف المشاكل.
- خامسًا- تأكد لنا استفادة عامة سكان السلطنة من مشاركة الجيش في الأعمال المدنية، التي سمحت لهم بالتوسع العمراني في ظل سياسيات السلطنة الساعية لهذا الأمر، كما بدا من التوسع العمراني في محيط البركة الناصرية على سبيل المثال لا الحصر.

وفي نهاية الدراسة يُوصي بإجراء مزيد من الدراسات حول دور الجيش في المشروعات المدنية في مصر عبر عصور التاريخ حتى مطلع العصور الحديثة؛ لكشف صفحات مجهولة من تاريخ جيش مصر العظيم.

قائمة المختصرات

EI = Encyclopedia of Islam

JESHO= *Journal of the Economic and Social History of the Orient*

MSR= Mamluk Studies Review

خريطة (١)

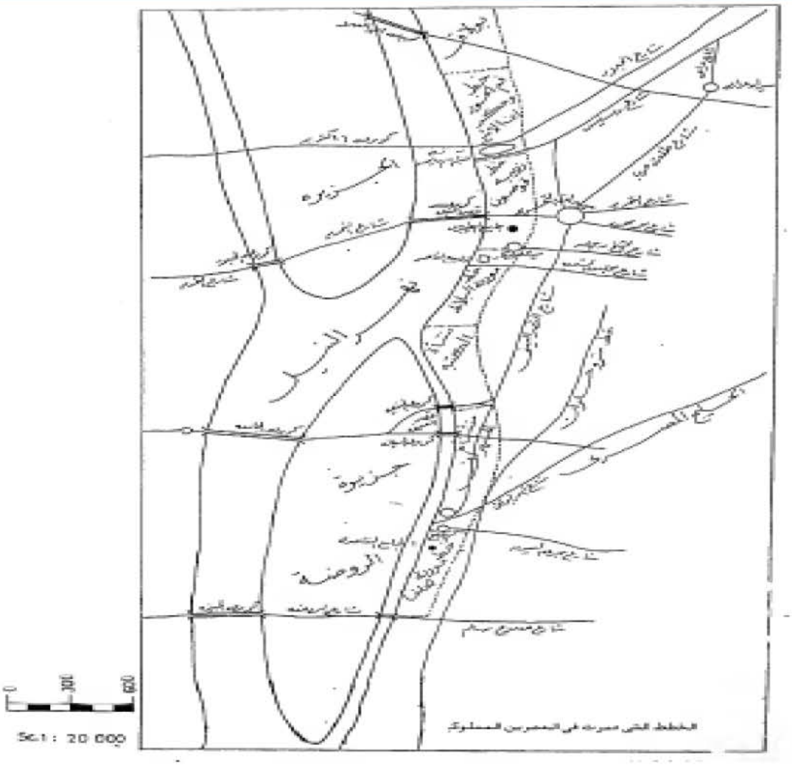

الخطط التى عمرت في العصر المملوكي على أرض طرح النيل

[عن: محمد الششتاوي: متنزهات القاهرة، ص ٣٧٩]

خريطة (٢)

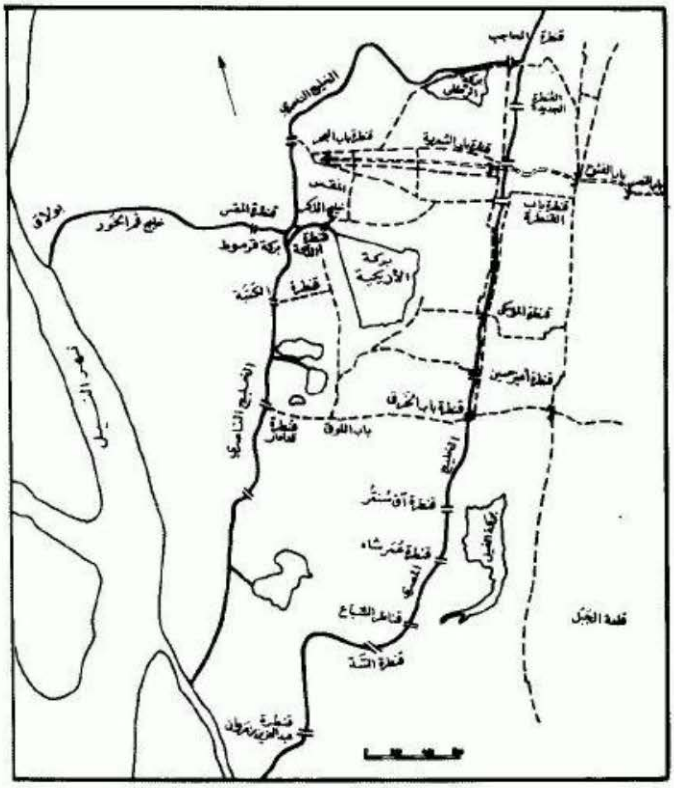

القناطر التي أنشأت على الخليج المصري

[عن: المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٤٩٩]

خريطة (٣)

خليج الإسكندرية (الخليج الناصري) من عمل الباحث

المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ٢٩٩ - ٣٥٦

بَعْضُ جَوانِبِ الحَياةِ الاِجْتِماعيَّةِ والاِقْتِصاديَّةِ فِي الأَنْدَلُسِ مِنْ خِلالِ كِتابِ الرَّوْضِ المِعْطارِ لِلْحِميَرِيِّ (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م)

محمود كامل محمد السيد عبد الكافي(*)

ملخص

تعد الكتابة في المعاجم الجغرافية من مظاهر الحضارة الإسلامية، لاسيما في الحياة الفكرية؛ فالمظاهر الجغرافية مرآة لتاريخ الأمم ونهضتها،والتاريخ الجغرافي يمثل جانبًا مهمًا من جوانب المعرفة التاريخية، عني به الرحالة الجغرافيون قديمًا وحديثًا، وأفردوا له مصنفات تناولت جوانبها المختلفة، رسمت صورة للعصور التاريخية التي كتبوا فيها،والتي سبقتها. ولكتب المعاجم بالذات أهمية خاصة؛ لأنها موضوعية بعيدة عن الغرض والهوى.ويهدف هذا البحث إلى إبراز بعض جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس من خلال كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري الذي تحدث فيه عن بعض مظاهر العمران الاجتماعي والاستقرار البشري في مختلف جهات الأندلس، كالدور والحمامات والفنادق والأرحاء المائية، كما أولى الحميري اهتمامه بمراكز استقرار بعض القبائل العربية والبربرية في الأندلس وبعض المدن التي سكنها اليهود والنصارى والمجوس. وتكلم عن الطبائع والعادات والتقاليد التي اختص بها سكان بعض المدن والبوادي الأندلسية. كما تستهدف

(*) مدرس التاريخ الإسلامي، كلية التربية – جامعة مطروح .

الدراسة أيضًا تناول الجوانب الاقتصادية، ومنها الري والزراعة، والتربة، والمحاصيل الزراعية في الأندلس علاوة على الضياع والبساتين، وتربية الحيوانات وصيد الأسماك. ولم يغفل الحميري الحديث عن الثروة الغابية والمعدنية والصناعات المتنوعة التي حظيت بها بعض المناطق الأندلسية، كما تحدث عن ازدهار التجارة في الأندلس، سواء على المستوى الداخلي في المدن أم على مستوى التجارة بين تلك المدن فأوضح وفرة الأسواق والفنادق وتعدد الطرق التجارية وكثرة مراسي السفن البحرية والنهرية التي استخدمت، سواء في التجارة الداخلية أم الخارجية وأخيرًا ألمح الحميري إلى بعض العلاقات التجارية، سواء بين المدن الأندلسية وبعضها البعض، أو بين الأندلس وبلدان حوض البحر المتوسط والمشرق الإسلامي.

Abstract

Writing in geographical dictionaries is one of the manifestations of Islamic civilization, especially in the intellectual life. which they wrote, and which preceded it. Dictionary books in particular are of particular importance. Because it is objective and far from purpose and whim. This research aims to highlight some aspects of social and economic life in Andalusia through the book Al-Rawd Al-Maattar in the news of the countries of Al-Hamiri, in which he talked about some aspects of social construction and human stability in the various regions of Andalusia ,Such as houses, baths, hotels, and watery quarters. Al-Himyari also paid attention to the settlement centers of some Arab and Berber tribes in Andalusia and some of the cities inhabited by Jews, Christians and Magi. He spoke about the natures, customs and traditions of the inhabitants of some Andalusian cities and deserts. The study also aims to address the economic aspects, including irrigation, agriculture, soil, and agricultural crops in Andalusia, as well as farmland and orchards, animal husbandry and fishing. Al-Humairi did not neglect to talk about the forest and mineral wealth and the various industries that some Andalusian regions enjoyed, He also spoke about the flourishing of trade in Andalusia, whether at the internal level in the cities or at the level of trade between those cities. He explained the abundance of markets and hotels, the multiplicity of trade routes, and the abundance of sea and river anchorages that were used, whether in internal or external trade. Finally, Al-Hamiri alluded to some trade relations, Whether between Andalusian cities and each other, or between Andalusia and the countries of the Mediterranean Basin and the Islamic East.

مقدمة:

شهدت الحضارة الإسلامية حركة تأليف زاخرة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وظهر عدد كبير من الأدباء والمفكرين والجغرافيين بينهم الحميري. وانطلاقًا من أهمية الحياة الاجتماعية والاقتصادية في تشكيل حركة التاريخ، وقع الاختيار على هذا الموضوع وكتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار" للحميري المتوفي سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، الذي يعتبر مسرحًا للأوضاع السياسية والاقتصادية في عالم العصور الوسطى آنذاك.

تناولت بعض الدراسات الأكاديمية محمد بن عبد المنعم الحميري في جوانب مختلفة من معجمه الجغرافي المعروف بالروض المعطار في خبر الأقطار، وعلى الرغم من الاهتمام الكبير الذي أبداه الباحثون المحدثون بالحميري وكتابه،إلا أنه لم ينل حقه من الدراسة،خاصة فيما يتعلق بما يقدمه من معلومات قيمة عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس،فكان هذا من الدوافع لهذا البحث، ناهيك عن أن الدراسات السابقة لم تسد هذه النقطة بما يكفي،وتتمثل الدراسات السابقة في ما قدمه الباحث بارق سعدون عزيز بعنوان"الجوانب التاريخية لمدن المشرق الإسلامي من خلال كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري"(١) ، وهناك دراسة أخرى قدمتها الباحثة افراح نازك عبد الرحمن حفيظة بعنوان " الحميري،محمد بن عبد المنعم وكتابه " الروض المعطار في خبر الاقطار دراسة تاريخية للاوضاع الاقتصادية(٢)، والتي لم تتطرق للجوانب الاجتماعية بأي شكل من الأشكال واختصرت في معالجة الجزء الخاص بالاندلس، حيث ذكرت الباحثة الاحوال الاقتصادية منذ دولة الرسول والصحابة ثم انتقلت

---

(١) اطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات الماجستير في التاريخ الإسلامي كلية التربية – جامعة ديالي-٢٠١٣م

(٢) اطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات الماجستير في التاريخ بكلية الدراسات العليا –جامعة النجاح الوطنية نابلس، فلسطين ٢٠١٣م

الي بلاد العراق وفارس والشام وخراسان ومصر والمغرب والسودان واخيرا الأندلس، فكيف عالجت الباحثة مثل هذا الموضوع في هذا العدد الضئيل جدا من صفحات الرسالة، فقد همشت بالفعل الدور الحقيقي والاقتصادي لبلاد الأندلس، وكان السبب في ذلك عدم الحديث عن محور بعينها من كتاب الحميري، فقد ذكرت جميع بلدان المشرق والمغرب بشكل مختصر جدا - كما يتضح من عنوان بحثها-

ولا ريب أن مثل هذه الموضوعات لا تخلو من صعوبات،سعينا للتغلب عليها،تتمثل في كثرة المصادر التي وجب علينا الرجوع اليها للتوضيح والمقارنة بين ما ورد فيها وما ورد عند الحميري،كما لم يخلُ وصف الحميري للأندلس من كثير من المصطلحات الأندلسية التي حتمت علينا الرجوع لكتب متخصصة في علم اللغة والاجتماع والاقتصاد للكشف عن كنه هذه المصطلحات.

وفيما يتعلق بالمنهج الذي اتبعناه،فقد سرنا على منهج البحث التاريخي بمختلف أدواته من وصف،وتحليل،واستقراء،واستنباط،ومقارنة؛آملين أن نعطي كتاب "الروض المعطار" حقه الذي أغفل عنه الباحثون العرب والمسلمين.

وقسمت الدراسة إلى مقدمة،وتمهيد،ومبحثين.وتضمنت المقدمة موضوع الدراسة، وأهميتها ومنهج الدراسة والدراسات السابقة.وخصصت التمهيد للتعريف بالحميري وكتابه الروض المعطار في خبر الأقطار.وأفردت المبحث الأول لإلقاء الضوء على بعض الجوانب الاجتماعية في الأندلس، وخصصت المبحث الثاني في الحديث عن بعض الجوانب الاقتصادية في الأندلس. وختمت الدراسة بخاتمة تُجمل اغراضها واستنتاجاتها، ثم أوردت بعض الخرائط التي تشمل بعض مدن موضوع الدراسة موضحًا بها بعض المراكز الصناعية وأماكن توزيع المعادن والطرق التجارية بين مدن الأندلس.

تمهيد:

الحميري وكتابه الروض المعطار في خبر الأقطار:

يعد كتاب الروض المعطار من أهم المعاجم الجغرافية؛ فقد وصف فيه

الحميري أصقاع الأرض، ومدن المشرق والمغرب الإسلاميين وأقاليمهما، ورتب كتابه على حروف الهجاء ترتيبًا محكمًا؛ تيسيرًا على طلاب العلم،ومن أراد التعرف على الأعلام الجغرافية دون عناء. وقد ألمح الحميري في مقدمة كتابه إلى أن الهدف من تأليفه هو ذكر المدن والمواضع الجغرافية المشهورة عند الناس،والتي ارتبطت بها قصة أو واقعة تاريخية أو أخبار طريفة، وكان في ذكرها فائدة موضحًا اهتمامه بذكر خصائص البلدان والمدن وأخبار الأمم وأحداثها، ويضيف أنه حرص على الإيجاز قدر طاقته [١]

والحميري هو محمد بن عبد المنعم الصنهاجي، ويكنى بأبي عبد الله بن عبدالمنعم السبتي [٢]، ولد في مدينة سبتة [٣]، واختلف الباحثون حول العصر الذي عاش فيه، فرأى بعضهم أنه من أهل القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي[٤] بينما يذكر آخرون أنه عاش في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، وعاصر

---

(١) الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٤م، مقدمة المؤلف، PONS BOIGES: *Historiadores geografos arabigo –espanoles* ,Madrid,1898,P,175 والجدير بالذكر هنا أن المحقق إحسان عباس قد أخرج كمًا هائلًا من النصوص التراثية في شتى مجالات التدوين الثقافي العربي القديم، ما ترك إحسان عباس مجالا صَغُرأو كبر واتسع إلا و أصدر في نطاقه نصوصا.حول هذا راجع، رضوان السيد، في الذاكرة إحسان عباس والتراث العربي، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ١٤، العدد٥٦، ٢٠٠٣م، ص٦٦.

(٢) ابن حجرالعسقلاني ت (٨٥٢هـ) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار احياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج٤، ص٣٢-٣٣

(٣) كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلا ح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٧ م، ج١، ص٤٤٧

(٤) آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، دت، ص٣١٢، عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت ، ص١٩٧

دولتي بني مرين في المغرب وبني الأحمر سلاطين مملكة غرناطة[١]

وحول إشكالية وفاة الحميري فقد ذُكر في مقدمة كتابه الروض المعطار أن الحميري انتهى من تأليف كتابه سنة ٨٦٦هـ،[٢] وهذا ما رجحه بعض الدارسين أمثال الدكتور حسين مؤنس، أي أن وفاته جاءت بعد هذا التاريخ[٣] وجاءت بعض المصادر الأخرى لتؤكد لنا ذلك فتذكرأن الحميري توفي سنة ٩٠٠هـ[٤] على الرغم من وجود رواية لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) تفيد بأن الحميري توفي في ذي القعدة عام ٧٢٧هـ[٥]

ومع هذا الكم من الدراسات لكنها لم تحسم التاريخ الحقيقي الذي توفي فيه مؤلفنا المذكور،والتي ظلت هكذا بين الباحثين كلما تطرقوا إلى ذكر الحميري وكتابه في رسائلهم وأطروحاتهم،والتي غالبا ما تكون مدعومة بتواريخ مختلفة،ولكننا نستبعد انتهاء الحميري من تاليف كتابه سنة ٨٦٦هـ ونستبعد أيضًا وفاة الحميري في سنة ٩٠٠هـ فكيف يمكن أن تتأخر وفاة الحميري إلى هذا التاريخ، ونحن نجد أن القلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى المتوفي سنة(٨٢١هـ)والذي انتهى من تأليف كتابه سنة (٨١٤هـ) يعتمد الروض المعطار واحدًا من مصادره الجغرافية في

(١) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٥٣٠-٥٣١

(٢) الحميري، الروض المعطار، مقدمة المؤلف

(٣) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص ٥٣١-٥٣٢

(٤) حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ) كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٠٠م، ج١، ص٩٢٠، الزركلي، الإعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، ج٧، ص٥٣، جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص٣١٢، عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م،ج٦، ص٦٥٢

(٥) الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٣

أكثر من موضع[١]، في حين ذكر لسان الدين ابن الخطيب المتوفي سنة (٧٧٦هـ) أن الحميري قدم غرناطة مع الوفد من أهل بلده ليعترف بتبعية سبتة لبني نصر[٢] حيث كان انتهاء سبتة إلى حكم بني نصر أواخر سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م أي في عهد ملك غرناطة أبي عبد الله محمد الثالث الملقب بالمخلوع(٧٠١هـ-١٣٠١م/ ٧٠٨هـ - ١٣٠٨م)[٣] وعودتها إلى المرينيين سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩أي في عهد ملك غرناطة أبي الجيوش نصر(٧٠٨هـ-١٣٠٨م/٧١٣هـ- ١٣١٣م)[٤] ويدعم هذا الرأي ايضًا ما قاله ابن الخطيب فقد ذكر أن من بين أبناء الوفد شيخين للحميري[٥]وهما محمد ابن علي بن هانئ اللخمي السبتي(ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) وقاسم بن عبد الله بن محمد الشاط الأنصاري(ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م) فضلا عن شخصيات أخرى رافقت الوفد،، وعلى هذا تكون الوفاة قد حدثت في غرناطة عام (٧٢٧هـ/١٣٢٦م) كما حدد ابن حجر العسقلاني ويتفق الباحث مع هذا التحديد فهو الأقرب للدقة.

وكان الحميري رجلا حاذقًا،طيب اللهجة، سليم الصدر، تام الرجولة، صالحًا

---

(١) الحميري، الروض المعطار، مقدمة المؤلف، راجع القلقشندي (ت٨٢١هـ)، صبح الأعشي في صناعة الإنشا، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٥م

(٢) ابن الخطيب، (ت ٧٧٦ هـ) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣ م ج٣، ص١٠٢

(٣) أبو المطرف المخزومي (ت٦٥٨هـ) بغية المستطرف وغنية التطرف رسائل ابن عميرة تحقيق محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١م، ص١٧-١٨، ابن هانئ السبتي (ت٧٣٣هـ) إيضاح المسالك في شرح تسهيل ابن مالك، تحقيق مهدي بن حسين بن علي ذيب مباركي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج١، ص١٩

(٤) ابن أبي زرع (ت٧٤١هـ) الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، دار المنصور للوراقة والطباعة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٣٩٣

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص١٠٢، صباح خابط عزيز سعيد، إشكالية وفاة محمد بن عبد المنعم الحميري، حوليات آداب عين شمس، المجلد٤٦، عدد أكتوبر- ديسمبر،٢٠١٨م ص٢٩٥

عابدًا، كثير القربات، وكان من صدر الحفاظ،لم يستظهر أحد في زمانه من اللغة ما استظهره،حتى إنه كان يستظهر كتاب التاج للجوهري وقائمًا على كتاب سيبويه يسرده بلفظه، ثم إنه كان مشاركًا في الأصول آخذًا في العلوم العقلية مع الملازمة للسنة (١)

أما أهم المصادر التي استعان بها الحميري في وصف المعالم الجغرافية الأندلسية والمغربية،فمنها ترصيع الأخبار للعذري المتوفي سنة ٤٧٨هـ، والمسالك والممالك للبكري المتوفي سنة ٤٨٧هـ، ونزهة المشتاق للإدريسي المتوفي سنة ٥٦٠هـ، والاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول من أهل القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي. غير أن الملاحظ إغفاله ذكر تلك المصادر في أغلب الأحيان، على الرغم من أن كثيرًا من مادته الجغرافية عن الأندلس- بمدنها وقراها وحصونها- نقله عن الإدريسي بصفة خاصة (٢)

ومما لا شك فيه أن القسم الأندلسي(٣) من كتاب الروض المعطار يشتمل على معلومات جغرافية وحضارية ثرية، تختص بمصادر الثروة الاقتصادية-من زراعة وصناعة وتجارة -وإشارات قيمة عن المدن والقرى والحصون،علاوة على بعض مظاهر العمران الاجتماعي في المدن الأندلسية (٤)

---

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٣، ص ١٠٢، الحميري، نفسه، مقدمة المؤلف

(٢) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص٥٣٤

(٣) والقسم الخاص بالأندلس نشره المستشرق الفرنسي" ليفي بروفنسال تحت مسمى "صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار" ويعد المستشرق ليفي برفنسال واحدًا ممن ذاع صيته في مدرسة الاستشراق الفرنسي فقد أمضى من عمره سنوات طوال منكبًا على دراسة التراث الإسلامي بالمغرب والاندلس، حيث أسهم في الكشف عن المخطوطات، وصيانتها، وتحقيقها ونشرها، ومن أهم جهوده في خدمة التراث بالغرب الإسلامي تحقيقه ونشره كتاب صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، تحقيق ونشر ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١: ١٠

(٤) مؤنس، المرجع السابق، ص٥٤٧-٥٤٩، كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصري دولتي المرابطين والموحدين، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٦م، ص ٢٨

أولًا: الجوانب الاجتماعية في الأندلس من خلال كتاب الروض المعطار:

اهتم الحميري كثيرًا - في وصفه الجغرافي لبلاد الأندلس- بمظاهر العمران الاجتماعي والاستقرار البشري في مختلف جهات تلك البلاد، فتعرض للدور لا في الحواضر وحسب، بل في البوادي والقرى أيضًا، ومن أمثلة ذلك وصفه لمدينة إشبيلية وجبالها، وقوله إنها مدينة خلقها كثير، وفيها ثمانية آلاف قرية عامرة وديارها حسنة[١] وطليطلة عظيمة القطر كثيرة البشر، قلما يُرى مثلها إتقانًا وشماخة بنيان [٢] وأوضح أن هناك مدنًا وقرى عامرة القطر، وبها عمارات متصلة، وأنها واسعة الشوارع حسنة الديار والمساكن، مثل سرقسطة التي سميت بالمدينة البيضاء لكثرة جصها وجيرها، وبلنسية[٣]، وبسطة[٤]، وطلبيرة[٥]،

---

[١] الحميري، الروض المعطار، ص٥٩- ٣٣٩-٣٤٠

[٢] الحميري، المصدر السابق، ص٣٩٣

[٣] بلنسية Valencia مدينة بشرق الأندلس، بينها وبين قرطبة على طريق بجانة ١٦ يوما، وتقع بالقرب من البحر، ولها أقاليم كثيرة، الزهري (ت٥٤١)، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، ص١٠٢، ابن غالب من أهل القرن السادس الهجري ، نص أندلسي جديد، قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، ١٩٥٥م، ص٢٨٥، الحميري، المصدر السابق، ص٤٧

[٤] بسطة Baza مدينة من كور جيان وتقع بالقرب من وادي آش، وبينها وبين جيان ثلاث مراحل، ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٨٤، الحميري، نفسه، ص١١٣

[٥] طلبيرة Talavera أقصى ثغور المسلمين وتقع غرب طليطلة، على نهر التاجه في جنوبي غرب مجريط، ولها قلعة حصينة بينها وبين طليطلة سبعون ميلا، والميل يساوي أربعمائة ذراع، أي حوالي ٢كم، فالمسافة بين طلبيرة وطليطلة تقدر بحوالي ١٤٠كم، وطلبيرة باب من الأبواب التي يدخل منها الى أرض النصارى الإسبان في الشمال.الإدريسي (ت ٥٦٠هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص٥٦٥، الحميري، المصدر السابق، ص 395، محمد الفاسي، الأعلام الجغرافية الأندلسية، مجلة البينة، السنة الأولي، العدد الثالث، المغرب ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، ص ٢٨، فالتر هنتيس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمه عن الألمانية، الدكتور كامل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص٩٥

ويبورة [١]. ويستمر الحميري في وصفه لمظاهر العمران الاجتماعي، فيصف بعض المدن بأنها حسنة الهيئة،بديعة البناء وبها أحسن المنازل، مثل مدينة وشقة[٢] وقريـة قوريـة[٣] قـرب ماردة [٤]، والفهمين[٥]،وشلب [٦] ومدينـة إفراغـة[٧]

---

(١) يبورة Evora في غرب الأندلس بينها وبين بطليوس مرحلتان، والمرحلة هي المسافة التي يقطعها المسافر على الدابة في يوم واحد، وتقدر بأربعة وعشرون ميلا أي حوالي ٤٥كم فالمسافة بين ويبورة وبين بطليوس تقدر بحوالي تسعين كيلومترًا، الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٩٧-٣٩٣-٣٩٥، الحميري، نفسه، ص٦١٦، نسيبة الحريري، المقاييس والمقادير عند العرب، دار الفضيلة للنشر، القاهرة، د.ت، ص٦٥

(٢) وشقة Huesca مدينة حصينة بالثغر الأعلى بالأندلس لها سوران من حجر، بينها وبين سرقسطة ١٠٠كم٢، العذري (ت٤٧٨هـ)، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان و المسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبدالعزيز الأهواني، مدريد، ١٩٦٥، ص٥٥، الزهري، المصدر السابق، ص٨٢، الحميري، الروض المعطار، ص٦١٢

(٣) قورية Coria :هي قلعة منيعة تقع على مقربة من ضفة التاجه اليمني في شمال غرب طليطلة، في غرب الأندلس، قريبة من ماردة، ولها سور منيع. الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٥٥٧، الحميري، الروض المعطار، ص ٤٨٥.

(٤) ماردة Mérida مدينة بغرب الأندلس شمال غرب قرطبة قرب بطليوس، وكان ينزلها الملوك الأوائل من الرومان فكثرت بها آثارهم.الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٤٥، ابن غالب، فرحة الأنفس، ص٢٩٠، الحميري، الروض المعطار، ص٥١٨-٥١٩

(٥) الفهمين تعرف باسم Alamin أو Alfahmin من قري طليطلة، وتقع في شمالها. الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٤٥٥، الحميري، نفسه، ص١٤٥؛ MARTIN TARDIO, JUAN JESUS, *Los Señorios de Mocejon Toledo* , 1997, p. 39.

(٦) شلب Silves مدينة بغرب الأندلس، وهي قاعدة كورة أكشونبة، وتقع في جنوب مدينة باجة.الإدريسي، نفسه، ص٥٤٣، الحميري، نفسه، ص٣٤٢

(٧) إفراغة Fraga مدينة حصينة خسنة البناء، تقع على نهر الزيتون غرب لاردة، ولها حصون كثيرة، وكان لأهلها دور عظيم في التصدي لهجمات العدو، ابن غالب، المصدر السابق، ص ٢٨٦، الحميري، نفسه، ص ٤٨

في غرب لاردة[١]

وفيما يختص بالعمران البشري القروي، زودنا بإشارات مهمة في هذا الصـدد، ومن أمثلة ذلك ذكره العديد من أسماء القرى والحصون، مثل شقوبية[٢]، وهي قرى متجاورة ومتقاربة متلاصقة متداخلة العمارات،كثيرة السكان وأهلها يتصفون بالشجاعة والجلد [٣] وحصن غافق[٤]، وهو جليل ومعقل حصين، وفي أهله نجده وحزم وجلادة وعزم[٥] وقرى قرمونة[٦]

---

[١] الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٢٤، الحميري، نفسه، ص٤٨-٣١٧- ٣٤٢-٤٤٣-٤٨٥-٦١٢، أحمد الطاهري، الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤، ص ١٤٥-١٤٩

[٢] شقوبية: مدينة من مدن مملكة قشتالة، تقع على سفح وادي الرملة بينها وبين طليطلة ١٩٨ كم.الإدريسي، نفسه، ص٣٦٥ الحميري، نفسه، ص ٣٥٠؛

[٣] الحميري، نفسه، ص٣٥٠

[٤] غافق Gafic يقع غرب حصن بطروش وهو حصن حصين وفي أهله نجدة وكثيرا ما تسري إليهم سرايا الروم فيخرجونهم عن أرضهم وينقذوا أغنامهم منهم، وكان الروم يعرفون جيدا قوتهم وبأسهم، الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٨٠، الحميري، نفسه، ص٤٢٦

[٥] الحميري، نفسه، ص٤٢٦ -٤٢٧

[٦] قرمونة Carmona تقع في سفح جبل، بين قرطبة وإشبيلية، على الضفة اليمني لنهر الوادي الكبير، إلى الشرق من إشبيلية، بينهما عشرون ميلا، أي حوالي أربعين كيلو مترًا، وبينها وبين إستجه خمسة وأربعين ميلًا، أي حوالي ٩٠ كم، ومن اشهر مدنها مرشانة، الإدريسي، نفسه، ص٥٧٢، ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٩٢، الحميرى، نفسه، ص٤٦١

وبزليانة[١] وببشتر[٢]، وشنتمريه[٣] وقرباكة قرب قرمونة [٤]، وحصن ببشتر كثير الديارات والكنائس والدواميس[٥]. وأشار الحميري إلى حصن الحمة[٦]، وأنه لا نظير له في معمور الأرض وإتقان البناء[٧]، وقلعة رباح [٨] التي أمر الأمير محمد في سنة ٢٤١هـ بتحصينها،والتوسع في مبانيها،ونقل الناس إليها وإلى مدينة طلبيرة [٩] .

ومن مظاهر العمران الاجتماعي هناك، الحمامات التي أسهمت بدور كبير في الحياة الاجتماعية باعتبارها من المواضع التي يجتمع فيها الناس للنظافة والطهارة والسمر والأنس فوصف مدينة وشقة على نهر يشقها ويجري في حمامين

---

(١) بزليانة Mesmiliana قرية تقع على ساحل البحر بالقرب من مالقة، وتشتهر بكثرة الرمال وشباك الصيد، الأدريسي، المصدر السابق، ص٥٦٥، الحميري، نفسه، ص٩٢

(٢) ببشتر Bobastro قلعة منيعة، على قمة جبل من سلسلة الجبال الواقعة بين رندة ومالقة، بالقرب من مالقة، جنوبي الأندلس، وهي من أعمال رية بالأندلس، وبينها وبين قرطبة ثمانون ميلًا، ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٩٥، الحميري، الروض المعطار، ص٧٩

(٣) شنتمريه Santa Maria وهي من مدن كورأكشونبة بغرب الأندلس، وتقع على نهر أرغون وبينها وبين شلب حوالي ٦٠كم، الإدريسي، نفسه، ص٥٦٦، الحميري، نفسه، ص٣٤٧

(٤)الحميرى، الروض المعطار، ص٧٩-٨٢-٣٤٧-٤٦١

(٥) الداموس:والجمع دواميس، وهو مكمن الصائد، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط٤، مكتبة الشروق الدولية القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٢٩٦.

(٦) حصن الحمة Alhama يقع بالقرب من المرية، الذي كان في رأس جبل، ويذكر المتجولون في أقطار الأرض أنه ما مثل تلك الحمة في المعمور من الأرض، ولا أتقن منها بناء، ولا أسخن منها ماء.الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٦٧، الحميري، نفسه، ص٨٠

(٧) الحميري، المصدر السابق، ص ٨٠

(٨) قلعة رباح Calatrava: مدينة من عمل جيان، تقع بين قرطبة وطليطلة، وهي غربى طليطلة، ولها حصون على نهر آنة. ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٨٩؛ الحميرى، المصدر السابق، ص٤٦٩

(٩) الحميري، نفسه، ص ٤٦٩

من حماماتها[١] وأشار الحميري لكثرة الحمامات في بعض الحواضر، مثل قرطبة وإشبيلية وإقليش[٢] وبزليانة وبيانة وطريف[٣] وقرمونة[٤]

كما تحدث عن منشآت ذات طابع اجتماعي، علاوة على دورها التجاري، منها الفنادق التي ذكر كثرتها في بعض الحواضر مثل قرطبة، والمرية[٥] التي بلغ عدد فنادقها خلال عصر المرابطين (٤٨٤هـ-١٠٩١م/ ٥٤١هـ-١١٤٦م) ٩٧٠ فندقًا، وأشار إلى وجود فنادق في مدن أخرى مثل مالقة وإستجة[٦] وطريف وقيشاطة[٧] وبزليانة وشاطبة[٨]

---

[١] الحميري، المصدر السابق، ص٦١٢

[٢] إقليش Ucles تقع في الثغر الأوسط إلى الشمال الشرقي الأندلسي، وهي قاعدة كورة شنتبرية، وهي من المدن المستحدثة بناها الفتح بن موسى ذي النون وفيها كانت ثورته وبدايته سنة ١٦٠هـ ثم اختار إقليش دارًا له وقرارًا، الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٦٠، الحميري، نفسه، ص٥١-٥٢

[٣] طريف Tarifa مدينة صغيرة في بحر الزقاق مضيق جبل طارق قرب الجزيرة الخضراء وتنسب إلى القائد طريف بن مالك الذي نزل بها قبل حملة طارق لفتح الأندلس، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٤١٢، الحميري، المصدر السابق، ص ٣٩٢

[٤] الحميري، نفسه، ص٥١-٥٢-٥٩-٨٢-١١٩-٣٩٢-٤٥٧-٤٦١

[٥] نفسه، ص٤٥٦-٤٥٧

[٦] إستجة Ecija تقع جنوب غرب قرطبة على بعد خمسين كيلو مترا منها، وتطل على وادي شنيل، وهي مدينة قديمة.ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٩٥، الحميري، نفسه، ص٥٣، ابراهيم عبد المنعم سلامة، التاريخ السياسي لمدينة استجة الأندلسية، مجلة المؤرخ العربي، ٢٠٠٠م، ص٣٩٧-٣٩٨

[٧] قيشاطة حصن منيع كالمدينة، بينه وبين شوذر ٢٤كم وعليه جبل يقطع به الخشب الذي تخرط بها القصاع والاطباق مما يعم الأندلس وبلاد المغرب، وهذا الجبل يتصل بمدينة بسطة، الحميري، الروض المعطار، ص٤٨٨، العمري (٧٤٩هـ) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص٦٧

[٨] شاطبة Jativa مدينة قديمة داخلية غير ساحلية، وتقع إلى الجنوب من مدينة بلنسية وهي في حمى جبل ومنها يتجهز التجار بالأمتعة إلى غانة وبلاد السودان والمغرب، العذري، المصدر =

ومن المنشآت الاجتماعية أيضًا الأرحاء المائية التي على الأنهار بمدن الأندلس؛ إذ كانت أماكن يجتمع فيها الناس للقيام بعمل مشترك، هو طحن الحبوب[1] وأشار الحميري إلى وجود عدد من الأرحاء المائية الأندلسية الشهيرة، منها ما كان في مدن صدينة[2] وقلمرية[3] وطركونة[4] وطلبيرة[5]

وقد أمدنا الحميري بالعديد من النصوص على جانب كبير من الأهمية، تكشف النقاب عن عناصر المجتمع الأندلسي، ومراكز استقرارهم في الأندلس منذ

= السابق، ص١٨-١٩، الحميري، نفسه، ص٥٩-٨٢-٣٣٧ - ٣٩٢-٤٨٨، سحر السيد عبد العزيز سالم، شاطبة الحصن الأمامي لشرق الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٥م، ص٢-٣

(١) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣م، ص.٢٣٣

(٢) صدينة مدينة قديمة من كور شذونة، تُطحن على جداولها الأرحاء، وهي حصينة جدا لا يستطيع دخولها أي عدو، الحميري، نفسه، ص٣٥٦

(٣) قلمرية Coimbra مدينة حصينة تقع بالقرب من قورية وهي على جبل مستدير وتطل على نهر منديق ولها أرحاء كثيرة، الإدريسي، الحميري، المصدر السابق، ص ٥٤٧، الحميري، نفسه، ص٤٧١

(٤) طركونة Tarragona هي من المدن الساحلية، وكانت الحد الفاصل بين المسلمين والروم، وبينها وبين مدينة لاردة حوالي ١٠٠كم، ابن غالب، فرحة الأنفس، ص٢٨٦، الحميري، الروض المعطار، ص٣٩٢

(٥) الحميري، الروض المعطار، ص٣٥٦-٣٩٢-٣٩٥-٤٧١

بدايات فتحه، فيذكر أن بعض القبائل العربية استقرت في مواضع سميت بالكور[١] أو المدن المجندة، وأن تلك المدن نسبت إليها مثل مدينة إشبيلية التي نزلها جند حمص، وكان لواؤهم في الميمنة بعد لواء جند دمشق[٢] ومدينة إلبيرة نزلها جند دمشق من العرب وكثير من موالي الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) [٣] ومدينة شذونة أيضًا من الكور المجندة نزلها جند فلسطين من العرب [٤] ومدينة باجة [٥] نزلها جند مصر، وكان لواؤهم في الميسرة بعد جند فلسطين[٦]، وكورة رية

---

[١] الكور اسم فارسي الأصل، وقد استعارته العرب من الاستان كما استعارت الإقليم من اليونانيين، وهو كل صُقع يشتمل على عدة قرى، ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها، وعرف الأندلس الإسلامي نظام الأجناد أو الكور المجندة، وأخذه العرب عن البيزنطيين، ويقصد به ولايات عسكريةينزلها الجند، وقد عرفت بلاد الشام نظام الأجناد كجند فلسطين والأردن ودمشق ومنها انتقل إلى الأندلس على أيام أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي سنة ١٢٥هـ/٧٣٤م مع اختلاف بسيط حيث ان الجند في الشام كان يضم كورا كثيرة، أما في البلاد الأندلسية فكان يقابل كورة واحدة، ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج١، ص٣٦-٣٧، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ط٢، دار المناهل، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٥٩٠-٥٩١

[٢] الحميري، الروض المعطار، ص٢٩

[٣] الحميري، المصدر السابق، ص٢٨

[٤] الحميري، المصدر نفسه، ص٣٣٩

[٥] باجة Beja تقع غرب قرطبة وهي من اقدم مدن الاندلس وموقعها بالتحديد جنوب البرتغال في منتصف الطريق بين يابرة Evora والفارو Faro وتسمى هذه المدينة بباجة الاندلس وباجة الزيت تميزا لها عن باجة افريقية وتونس التي تسمى ايضا بباجة القمح، الحميري، الروض المعطار، ص٧٥، ابن الشباط، وصف الأندلس، قطعة من كتاب صلة السمط وسمة المرط، تقديم أحمد مختار العبادي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ج٤، ١٩٦٧، ١٩٦٨، ص ١١٨، محمد الفاسي، الأعلام الجغرافية الأندلسية، السنة الأولي، العدد الثالث، ص٢١

[٦] الحميري، المصدر السابق، ص٧٥

بالقرب من قرطبة سكنها جند الأردن[١] ومن الملاحظ أن الحميري أغفل ذكر بعض القبائل العربية التي استقرت في مواضع نسبت إليها، وقد ذكرها الإدريسي لزيارته مدن الأندلس مثل قبيلة غافق (من العرب العدنانية) ينسب إليهم حصن غافق[٢] (شمال قرطبة، وقبيلة مراد(من العرب اليمنية) التي استقرت في حصن مراد[٣] قرب حصن المدور بين إشبيلية وقرطبة).

وخصصت مدن ليسكنها الولاة والقادة والقائمون على شئون الدولة، ومن أمثلة ذلك مدينة أرشذونة[٤] قاعدة كورة رية (مالقة)، ومدينة قلب قاعدة مورور، ومدينة قلشانة[٥]،ومدينة مرسية[٦] التي بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم [٧]

---

(١) الحميري، نفسه، ص٢٧٩-٢٨٠، وعلى هذا حدد الحميري العناصر العربية التي شاركت في فتح الأندلس والمناطق التي وفدوا منها

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٣٨، ٥٨٥، ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)، جمهرة أنساب العرب، ط٥، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٣٢٨-٣٢٩

(٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٧٣-٥٧٤

(٤) ارشذونة Archidona وهي قاعدة كورة ريّه، ومنزل الولاة والعمال، ومن مدنها مالقة وبينهما ٥٤كم٢ تفريبا، الحميري، المصدر السابق، ص٢٥

(٥) قلشانة Calsena مدينة من كورة شذونة، وهي سهلية تقع على وادي لكه، وايضًا على مقربة من نهر بوطة، ويسكن بها قواد وعمال مدينة شذونة، الحميري، نفسه، ص٤٦٦

(٦) مرسية Murcia مدينة قديمة أزلية حسنة المنظر، أحدقت بها الأشجار والبساتين من كل ناحية، وبها جامع عظيم متسع عجيب البناء، بناه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين.العذري، المصدر السابق، ص٦، الزهري، المصدر السابق، ص١٠٠-١٠١، ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٨٥

(٧) العذري، المصدر السابق، ص٦، الحميري، نفسه، ص٢٥- ٤٦٦-٤٦٩- ٥٣٩

وكذلك مدينة المرية التي أمر ببنائها الخليفة الأموي الناصر سنة (٣٤٤هـ / ٩٥٥م)، واتخذها العرب اليمنية رباطًا، وبنيت بها محارس كان الناس يتتجعوها ويرابطون فيها [١]. وهناك جزر وحصون ورباطات كانت مأوى للصالحين ورباطًا لخيار المسلمين، منها حصن روطة[٢] وجزيرة التوبة [٣]،كما نزلت جماعات من العرب القضاعيين (اليمنية)–وعلى رأسهم بنو أسود – بساحل بجانة [٤] لحراسته،وتنسب إليهم رابطة القبطة أو قابطة بني أسود[٥]، كذلك كان سكان مدينة شلب وقراها من اليمنية [٦].

---

[١] الحميري، الروض المعطار ، ص٥٣٧

[٢] روطة Rueda أحد المعاقل الحصينة لمدينة سرقسطة، يقع غربى سرقسطة، على الضفة اليسرى لنهر شلون Jalon أحد فروع نهر إبره الجنوبية، ويسميها ابن الأبار: روطة اليهود. الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٤٠، ابن الأبار ت ٦٥٨ ، الحلة السيراء، ط١، حققه د. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، ج٢، ص ٢٤٨، ٢٤٦، وعن الربط في الأندلس راجع التفاصيل في سعيد بنحماده، الماء والإنسان في الأندلس، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٧م، ص ٢٦٨-٢٧١

[٣] جزيرة التوبة تقع على البحر المحيط، وكانت مأوى للصالحين ورباط لخيار المسلمين، وبها آبار عذبة يعتمد عليها في ري البقول، الحميري، نفسه، ص١٤٥-٣٤٠

[٤] بَجانة Pechina كانت أشرف قرى أرش اليمن، أي أملاك أهل اليمن وأعطياتهم وتقع قرب المرية وكانت بجانة مقصد رحلات أهل المرية في فصل الربيع، العذري، المصدر السابق، ص٨٧، الحميري، الروض المعطار، ص٧٩-٨٠، عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ١٩٨٤، ص٢١

[٥] الحميري، الروض المعطار ، ص٧٨-٧٩؛ ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص٤٦١، عبدالعزيز سالم، تاريخ مدينة المرية، ص٢١-٢٢

[٦] الحميري، المصدر السابق، ص٣٤٢

ويضيف الحميري أن بعض القبائل البربرية استقرت في مواضع بأعينها، خاصة في مدينة أوريولة[١] التي كانت قاعدة للقوط الغربيين وموضعًا لأمرائهم [٢] ويلاحظ أن الحميري لم يحدثنا عن باقي مواضع استقرار بعض القبائل البربرية التي استقرت في مواضع معينة سواء في جنوب الأندلس أو في الثغور، كما في قرمونة التي كان معظم أهلها من البربر، واستقل بها بنو برزال(من بطو ن زناتة) وأقاموا إمارة بربرية أوائل عصر دويلات الطوائف (القرن ٥هـ / ١١م) [٣]، وكذلك شنت فيله (من أعمال كورة إشبيلية) التي يصفها بأنها "معقل البربر" من قديم الزمان[٤]، وفي مناطق الثغور حيث استقر بنو سالم (من بربر مصمودة) في الموضع الذي عرف بهم (مدينة سالم) وبنو رزين(من بربر هواره) أصحاب شنتمرية الشرق أو السهلة، التي نسبت إليهم (سهلة بني رزين)، وبنو دانس (من بربر مصمودة) الذين نزلوا بموضع عرف باسمهم وهو قصر أبي دانس بغرب الأندلس[٥].

---

(١) أوريولة Orihuela كانت قاعدة كورة تدمير قبل أن تختط مرسية سنة ٢١٦هـ/٨٣١م ، ولما شيدت هذه المدينة نقلت القاعدة إليها، وأصبحت الكورة كلها تسمى مرسية، وهي على ضفة النهر الأبيض وهي قرب مرسية، العذري، المصدر السابق، ص١٠، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٨٣

(٢)الحميري، الروض المعطار ، ص٦٧

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٥٣٨، ٥٤٤.

(٤) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٥٧٣؛ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، نشر وتصحيح ليفي بروفنسال، الرباط، ١٩٣٤م، ص ٤٥.

(٥) الإدريسي، نفسه، ص ٥٣٨، ٥٥٣؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص ٤٩٩، ٥٥٥؛ عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس"دول الطوائف" ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ١٤٧، ١٥١؛ كمال أبو مصطفى، بنو رزين ودورهم السياسي والحضاري في شنتمرية الشرق، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية- العددالخامس والثلاثون لسنة ١٩٨٧م، ص٢١٢

وألمح الحميري أيضًا إلى بعض المدن التي سكنها اليهود والنصارى الإسبان والنورمانديون، فأشار إلى أنه في فترة ما قبل الفتح الإسلامي كان في مدينة برشلونة اليهود يعدلون النصارى[١]،ومدينة ماردة كانت بها سكنى النصارى[٢] ومدينة شلطيش التي تغلَّب عليها المجوس(النورمانديون) مرات عدة،ثم سكنتها بعد ذلك جماعة من النصارى الإسبان [٣]

وجدير بالملاحظة أن الحميري أمدنا بإشارات قيمة- قلما نجدها في المصادر الأخرى- عن طبائع سكان بعض المدن والقرى والحصون، ومن ذلك قوله إن سكان بلنسية لهم زي حسن وكرم طباع، وأن الغالب عليهم طيب النفوس والميل إلى الراحات[٤] وبقرطبة أعلام البلاد وأعيان الناس،وهم يتميزون بحسن الزي وعلو الهمة وجميل الأخلاق[٥] وعند الحديث عن مدينة تطيلة[٦]- بالقرب من وشقة بالثغر الأعلى- ذكر أن أهلها لا يغلقون أبواب مدينتهم ليلًا ولا نهارًا، وانفردوا بذلك عن باقي سكان البلاد، وهذا يدل على أنهم كانوا يعيشون في أمن وأمان [٧] كما ذكر الحميري أن مدينة شلب أهلها عرب من أهل اليمن، يتكلمون

---

(١)الحميري، الروض المعطار ، ص٨٦-٨٧

(٢)الحميري، المصدر السابق، ص٥١٩

(٣)الحميري، المصدر نفسه، ص٣٤٣-٣٤٤

(٤) الحميري، نفسه، ص٩٧

(٥) نفسه، ص٤٥٦

(٦) تطيلة Tudela مدينة تقع شمالي وشقة، وشمال شرق مدينة سرقسطة، ويحيط بها نهر كالش، وهي من أكرم الثغور تربة ومناخًا، ومن أهم مدنها طرسونة. وقد اختطت في عهد الأمير الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الملقب بالربضي سنة ١٨٠- ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ - ٨٢٢، البكري (ت٤٨٧هـ) ، ط١، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٣٩٥، الحميري، نفسه، ص ١٣٣

(٧)الحميري، المصدر السابق ، ص١٣٣

العربية الفصحى، ويتقنون الشعر، ويتصفون بالنبل، ويمتازون بالكرم الذي لا يجاريهم فيه أحد [١]

وفيما يتعلق بطبائع الناس وأخلاقهم السيئة الذميمة، أبدى الحميري سخطه على بعض أهل المدن والقرى، فذكر مثلًا أن رجال مدينة ترجالة [٢]الغالب عليهم التلصص والخداع [٣] ويحدثنا الحميري بأخبار طريفة عن جماعة من أهل إشبونة[٤] يدعون بالمغررين ركبوا البحر في رحلة بحرية استكشافية طويلة، حتى وصلوا إلى جزيرة في عمق البحر، فوجدوا بها رجالًا شقرًا زعرًا، شعورهم سبطة[٥](سهلة وكثيفة)، وهم طوال القامة، ويضيف أن نساء تلك الجزيرة يتميزن بالجمال الفائق[٦]

ولم يغفل الحميري الإشارة إلى شجاعة سكان بعض المناطق وفروسيتهم، ومن ذلك سكان مدينة ترجالة،ومعظمهم من الفرسان والرجالة الذين يقضون جل حياتهم في الجهاد والإغارة على النصارى الإسبان المتاخمين لأراضيهم [٧] وكذلك سكان

---

(١) الحميري، الروض المعطار ، ص٤٣٢

(٢) ترجالة Trujillo مدينة كالحصن المنيع، في منطقة غرب الأندلس، ويسميها ابن غالب ترجيله، الإدريسي، المصدرالسابق، ص٥٣٩، ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٩٠، الحميري، الروض المعطار، ص١٣٣

(٣) الحميري، المصدر السابق، ص١٣٣

(٤) إشبونة Lisbona تقع على الضفة الشمالية لنهر تاجه عند مصبه في البحر المحيط، بغرب الأندلس، تتصل بكورة باجة في جنوبها الشرقي، وبشنترين في شمالها الشرقي.الإدريسي، المصدر السابق، ص١٨٣ .

(٥) السبطة أي الشعر المسترسل الغير مجعد، المعجم الوسيط، ص٤١٤

(٦) الحميري، نفسه، ص٦١

(٧) نفسه ، ص١٣٣

بياسة[١]، فعندما التجأ إليها صاحب جيان[٢] عبد الله بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن الموحدي مخافة صاحب إشبيلية عبد الله العادل بن المنصور الموحدي، وطلب المساعدة من أهلها وأن يؤمنوه، ساعدوه ومنعوه من صاحب إشبيلية [٣]

وقد أمدنا الحميري بمعلومات مهمة عن عادات وتقاليد اختص بها سكان بعض المدن والمواضع الأندلسية ومن أمثلة ذلك أن عادة أهل المرية في فصل الربيع الرحيل بصحبة نسائهم وأولادهم إلي بعض المتنزهات،مثل حمة بجاية التي تتميز بمائها العذب والساخن الصالح للاستشفاء؛ ولذلك قصدها أهل الأسقام والعاهات من جميع النواحي، وكان هذا اليوم بالنسبة لهم يوم احتفال، يتمتعون فيه بجمال الطبيعة،ويتوسعون في المأكل والمشرب والإنفاق، ويقول الحميري إنهم كانوا يستأجرون للمبيت أماكن بأسعار مرتفعة في الفنادق [٤] وساعدهم على ذلك - بطبيعة الحال - ما تمتعوا به من ثراء ورخاء؛إذ كان معظم أهل المرية من كبار التجار الذين حازوا الثروات الطائلة [٥].

---

[١] بياسة Baeza قريبة جدًا من مدينة جيان، وكل واحدة منهما تظهر من الأخرى، وبياسة تقع على أرض ترابية مرتفعة، تطل علي النهر الكبير المنحدر الى قرطبة، وهى مدينة تزدهر بالانشطة الاقتصادية. الحميرى، نفسه، ص١٢١

[٢] جيان Jaen مدينة مشهورة تقع على سفح جبل عال جدا، بالقرب من نهر بلون، وبينها وبين بياسة عشرون ميلًا، واشتهرت بالقرى المربية لدود الحرير، ابن غالب، فرحة الأنفس، ص٢٨٤، الحميري، نفسه، ص١٨٣

[٣] الحميري، الروض المعطار، ص١٢١

[٤] الحميري، المصدر السابق، ص٧٩-٨٠

[٥] الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٦٢

ثانيًا: الجوانب الاقتصادية في الأندلس من خلال كتاب الروض المعطار:

قدم الحميري معلومات مهمة وثرية عن الحياة الاقتصادية في الأندلس، فعرض للأنشطة الزراعية والرعوية والصناعية والتجارية

١- الزراعة:

اعتمد سكان الأندلس على المياه الناتجة عن تساقط الأمطار، وكذلك على مياه الأودية والأنهار والعيون والآبار في شربهم ونظافتهم، وفي تزويد الأراضي الزراعية بما تحتاج إليه من مياه. وتفيدنا المصادر بأن تحقيق هذا الهدف الأخير كان يتم بواسطة وسائل تقنية متنوعة، شملت الآبار والسدود والصهاريج، والقنوات أو السواقي والنواعير[١] والسواني وغيرها. وأفاد العرب كثيرًا في مجال الري من التقنيات الرومانية التي وجدوها في ذلك المكان عند الفتح، وأضافوا إليها كثيرًا، ونتجت عن هذا الانصهار منظومة تقنية

---

(١) الناعورة La Noria جمعها نواعير، كانت معروفة بالأسم العربي "ناعورة"وايضا بالأسم العجمى "دُولاب"وهى آلة لرفع الماء قوامها دولاب كبير من خشب يقام في مجرى ماء، ويصدر دورانه صوتا مميزا، يثبت محوره على جدار عال من حجر وتوزع على دائرته الخارجية دلاء تغرف المياه في أثناء دورانه، لتصب عندما ترتفع في قناة تجري في أعلى الجدران، لتوزع منها على البساتين والمنازل والمساجد والحمامات وأحياء المدينة، وتسمى النواعير التي تديرها الحيوانات سوانٍ، جمع سانية، انظر: الفارابي (ت٣٥٠هـ) ، معجم ديوان الأدب، تحقيق أحمد مختار عمر، إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٤م، ج١، ص٣٧٢، عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية في الأندلس، دار النهضة، ١٩٧٢، ج٢، ص٢٠٣، عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة والفنون الاسلامية، ط١، جروس برس، بيروت ١٩٨٨، ص ٤٢٨، منير البعلبكى، موسوعة المورد، ط٢، دار العلم للملايين، ج٧، ص ١٣٩، شريف عبد الرحمن جاه، لغز الماء في الأندلس، ط١، ترجمة د.زينب بنياية، مراجعة أحمد إيبش، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٤م، ص١٦٣

رفيعة المستوى، لازالت إلى اليوم محط إعجاب المؤرخين والباحثين الأثريين.

وأشار الحميري إلى أن البلاد الأندلسية كانت تذخر بشتى الأشجار المثمرة، والحبوب، والرياحين، علاوة على القطن والكتان؛ وذلك لاشتمالها على أراض واسعة تلائم شتى أصناف المزروعات؛ ولوفرة المياه التي تحملها الأنهار الكثيرة دائمة الجريان، فضلًا عن توفر مصادر أخرى متنوعة للمياه، كالآبار والعيون،كما كان لتميز البلاد الأندلسية بأنماط مناخية وتضاريسية متنوعة دور كبير في زيادة الإنتاج الزراعي وتنوعه.

ويتضح لنا مما أورده الحميري أن مياه الري في الأندلس كانت تعتمد أساسًا على مياه الأنهار(الأودية) والآبار والعيون، في حين كانت مياه الأمطار قليلة وموسمية في معظم مناطق الأندلس.

ووصف الحميري كثيرًا من المدن والقرى والحصون قائلًا إن مياهها متدفقة وفيرة، وتعتمد الزراعة فيها على مياه الأنهار، ومن ذلك مدينتا شنترين[١] و مرسية، اللتان بهما نهر كبير يسقي نواحيهما جميعًا كما يفعل نيل مصرفي مدنها وقراها[٢]. ومدينة طليطلة والقصر[٣] على ضفة النهر الكبير(وادي تاجه)،وبطليطلة أنهار مخترقة [٤]

---

[١] شنترين Santarem من كور باجة وهى مدينة عظيمة على جبل عال جدًا ولها الكثير من القرى يشرب أهلها من نهر آنة ولها اسوار عظيمة وأبراج منيعة لا تدرك بقتال. الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٥٥٠، الحميرى، الروض المعطار، ص٣٤٦، مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوبايه، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م، ص٩٩-١٠٠

[٢] الحميري، الروض المعطار ، ص ٣٤٦- ٥٣٩

[٣] القصر، ويقصد بها مدينة قصر أبي دانس Alcocer do Sal ، وتقع قرب شلب بغرب الأندلس، على ضفة النهر المسمى شطويرة، وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية، وتشتهر بكثرت أشجار الصنوبر. وبين القصر والبحر عشرون ميلا، وبينها وبين شلب أربع مراحل. الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٤٤؛ حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٢٦٠.

[٤] الحميري، المصدر السابق، ص٣٩٤-٤٧٦

وكذلك مدينة طريف يشقها نهر صغير[١] وشنترة من مدائن الإشبونة بغرب الأندلس، ولها نهر ماؤه يصب في البحر ومنه شرب جناتهم،[٢] ثم مدينة شلب شرب أهلها من واديها الجاري إليها وكانت عليه أرحاء البلد [٣]،واعتمدت مدينة بلنسية كذلك على نهر جار(أي الوادي الأبيض أو نهر طورية) يتفع به ويسقي المزارع [٤]

وبالإضافة الى الأنهار، ذكر الحميري اعتماد أهالي بعض المدن والبوادي في ريهم على العيون والآبار، كشنترين من كور باجة التي مشرب أهلها من العيون[٥] وبمدينة لبلة[٦] ثلاثة عيون إحداها عين تهشر[٧] وهي أغزرها والثانية تنبت بالشب[٨]،والثالثة عين تنبعث بالزاج[٩] وكذلك مدينة أرشذونة، كورة رية، ومدينة

(١)الحميري، الروض المعطار ، ص٣٩٢

(٢)الحميري، المصدر السابق ، ص، ٣٤٧

(٣)الحميري، نفسه ، ص، ٣٤٢

(٤) نفسه، ص٩٧

(٥) نفسه، ص٣٤٦

(٦) لبلة Niebla:مدينة قديمة في غرب الأندلس ومن مدنها مدينة جبل العيون، وبينها وبين البحر المحيط حوالي ١٢كم، وكانت مدينة جامعة لفوائد الكور حتى قيل إن جباية كورة لبلة في أيام الأمير الحكم بن هشام كانت خمسة عشر ألفا وستمائة، وكانت تعرف بالحمراء. العذري، المصدرالسابق، ص١١٠، ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٩١الحميري، الروض المعطار، ص٥٠٧-٥٠٨.

(٧) تهشر: هو اسم نهر بالأندلس، ذكره الحميري بهذا الأسم، بينما ورد عند العذري باسم لَهَشَر، العذري المصدر السابق، ص١١٠، الحميري، نفسه، ص٥٠٨

(٨) الشب:هو الملح الحجري يعرف علميا بكبريتات البوتاسيوم والألمنيوم، اسماعيل سامعي، تاريخ الاندلس الاقتصادي والاجتماعي، مركز الكتاب الأكاديمي، ٢٠١٨م، ص١٣٨

(٩) الزاج ملح يُصبغ به وهو حامض كبريتي من كبريتات النحاس، كان الأندلسيون يستخدمونه في الطب والصناعة، القزويني (ت ٦٨٢هـ) ، عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ١٨٩، الحميري، نفسه، ص٥٠٨:

مالقة، وقرى قرمونة بها عيون غزار وأنهار كبار وشرب أهلها من الآبار[١].وبناحية شنتمرية أعجوبة شاهدها كل من دخل تلك الناحية من المسلمين،وذلك عين تتفجر بماء كثير يبصر ذلك الناس عيانًا، فإذا قربوا منها ووقفوا عليها انقطع جريانها، فلا تبض بقطرة، فإذا تباعد الناس عنها عادت إلى حالها [٢]

وعُنى أهل الأندلس بتنظيم وسائل الري، وذلك بإنشاء الجسور والقناطر والسدود، وحفر الترع والقنوات(السواقي) التي لا حصر لها في مختلف الأنحاء؛ لكثرة أنهار تلك البلاد.وقد أشار الحميري إلى عدد من وسائل الري التي استخدمها الفلاحون هناك،ومنها آلات رفع المياه لري الأرض الزراعية على ضفاف الأنهار أو عند الآبار والعيون، مثل النواعيروالدواليب،وما يسمى بالدواميس[٣] التي اشتهرت بها مدينة ماردة، وهي عبارة عن أحواض ضخمة لحفظ المياه مشابهة للصهاريج،وبداخل الداموس قناة أو ساقية تحمل الماء إلى أنحاء المدينة. ويصفها الإدريسي بأنها متقنة البناء حسنة الصنعة [٤].

أما التربة – وهي من العوامل المهمة في قيام النشاط الفلاحي وازدهاره، فقد امتدح خصوبة تربة الأندلس في كثير من المناطق، وعلى رأسها تطيلة (بالثغر الأعلى)التي قال إنها أكرم تلك الثغور تربة، يجود زرعها،وتطيب ثمرتها،ويكثر بها

---

(١) الحميري، الروض المعطار ، ٢٥ص-٤٦١-٥١٧

(٢) الحميري، المصدر السابق ، ص٣٤٧

(٣) الدواميس هنا بمعنى أحواض المياه الواسعة أو ما يشبه "الهواويس" الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٤٥، المقري (ت١٠٤١هـ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ج١، ص١٦٨، الحميري، نفسه، ص٧٩، سعيد بنحماده، الماء والإنسان في الأندلس، ص٦٥-٦٣

(٤) الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٤٥، الحميري، نفسه ص٥١٨-٥١٩

تربية الماشية، وتكثر بركتها [١]وبيانة من أعمال قرطبة خصبة التربة وفيرة المياه [٢] وقرية مغام القريبة من طليطلة في جبالها وترابها الطين[٣] ومجريط[٤] فيها تربة تصنع منها البرام التي تستعمل على النار عشرين سنة لا تنكسر، وما طبخ فيها لا يكاد يتغير في حر الهواء ولا برده [٥] وذكر جبل الشرف[٦]وأنه خصب التربة دائم الخضرة[٧]، وغرناطة أطيب وأكرم الأرضين تربة، لا يفوق به مكان غير غوطة دمشق وساحة الفيوم، ولا يعلم شجرة تستعمل وتستغل إلا وهي أنجب شيء في هذا الفحص[٨] وكل ما زرع في أرض إشبيلية أوغرس فيها نما وزكا وجلَّ [٩] وغرناطة لا يعلم شجرة تستعمل وتستغل

---

(١)الحميري، الروض المعطار ، ص١٣٣

(٢)الحميري، المصدر السابق، ص١٩٩

(٣)الحميري، نفسه ، ص٣٩٣

(٤) مجريط Madrid تقع بالقرب من طليطلة، وهي مدينة صغيرة وقلعة حصينة، وكان لها في الإسلام مسجد جامع، بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٥٢، الحميري، الروض المعطار، ص٥٢٣

(٥) الحميري، نفسه، ص٥٢١

(٦) الشرفُ El Ajaraf جبل ترابه أحمر دائم الخضرة يقع غربي إشبيلية، بينهما ثلاثة أميال، وسمي بذلك لأنه مشرف على ناحية إشبيلية، ممتد من الجنوب إلى الشمال، وهذا الشرف يمتد مسافة أربعين ميلًا كلها في ظل شجر الزيتون والتين، العذري، المصدر السابق، ص٩٥-٩٦، الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٤١؛ الحميري، الروض المعطار، ص٣٣٩-٣٤٠

(٧) الحميري، المصدر السابق، ص٥٩٥

(٨) الفحص هو المناطق الزراعية الخصبة، وقد كثر استعمال هذا المصطلح في بلاد المغرب والأندلس حيث عرفه ياقوت الحموي بقوله " وسألت بعض أهل الأندلس ما تقصدون به قالوا كل موضع يُسكن – سهلا كان أو جبلا، بشرط أن يُزرع نسميه فحصا " ثم صار علما لعدة مواضع مثل فحص طليطلة وفحص اشبيلية وفحص البلوط شمال قرطبة.ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٣٦، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٦٠٥

(٩) الحميري، المصدر السابق، ص٧٩

إلا وهي أنجب شيء في هذا الفحص [١] وبسطة وقادس[٢] أرضها كثيرة الانتاج [٣]

- المحاصيل الزراعية:

نشط الأندلسيون في زراعة الأشجار المثمرة والفواكه، إضافة إلى الغلال، والاعشاب العطرية والطبية والرياحين،وقد أوضح الحميري كثيرًا من المحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها مدن الأندلس وقراها ومن أهمها القمح أو الحنطة الذي اشتهرت به فحص بلاطة قرب إشبونة بغرب الأندلس،ويضيف نقلًا عن ذوي الخبرة من أهل إشبونة وأهل الأندلس عامة، أن الحنطة تزرع في هذا الفحص فتقيم في الأرض أربعين يوما فتُحصد، وأن الكيل منها يُعْطِي مائة كيل "؛ وذلك لخصوبة التربة [٤] ويبدو أن ما ذكره الحميري نقلا عن الإدريسي يتسم بالمبالغة،وهناك مناطق أخرى اشتهرت بوفرة الحنطة، مثل شريش [٥] ويبورة التي لها ما لا يوجد لغيرها من كثرة الحنطة [٦]

---

(١) الحميري، الروض المعطار ، ص٤٦

(٢) قادسCadiz ، جزيرة تقع غرب الأندلس، من مدن إشبيلية، طولها اثنا عشر ميلًا، قريبة من البر، بينها وبين البحر الأعظم خليج صغير قد حازها إلى البحر عن البر. وكانت تعرف زمن الفينيقيين باسم كاديرأو جادير Gadirومنها اشتق الأسم اليوناني الذي حرفه الرومان إلى جادس Gades ثم تحول إلى قادس. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٢٩٠-٢٩١، الحميري، نفسه، ص٤٤٨، سحر السيد عبد العزيز سالم، مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري، موسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ١٩٩٠م، ص١٣

(٣) الحميري، المصدر السابق، ص٤٤٨

(٤) الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٣٢، الحميري، نفسه، ص ١٠٣

(٥) شريش Jerez :مدينة كبيرة من كور شذونة بالأندلس، وهي على مقربة من البحر. الحميري، نفسه، ص٣٤٠، وبين شريش وإشبيلية ٩٧ كيلومترًا. محمد الفاسي، الأعلام الجغرافية، ص ٣٤

(٦) الحميري، المصدر السابق، ٦١٦

وأولى الحميري محصول الزيتون اهتمامًا كبيرًا؛ لما له من أهمية في مجال التجارة الخارجية واقتصاد حوض البحر المتوسط؛لأنه من المحاصيل النقدية في الأندلس،وتركزت مناطق زراعته في إقليم الشرف من سواد إشبيلية، الذي لا تكاد الشمس تصل إلى أرضه؛ لالتفاف زيتونه واشتباك غصونه،ويضيف الإدريسي أن أشجار الزيتون تمتد بالشرف حتى لبة [١] وكذلك في شريش[٢] وحصن بيانة[٣]، ويمتاز زيتون مدينة إشبيلية عن غيره بجودته وغناه بالزيت فضلًا عن مذاقه الذي لا يتغير بسبب تخزينه لفترة طويلة [٤] واشتهرت مناطق أخرى به مثل أركش[٥] وببشتر، وبسطة وغيرها [٦]

ويضيف الحميري أن غراسة أشجار التين عمت جهات عدة في الأندلس، مثل إقليم الشرف، وأن المسافة التي بينه وبين إشبيلية كلها تقع تحت ظل شجر التين [٧] وكذلك الأمر في ببشتر وشريش، وقورية، ومرسية، ولقنت [٨] ومالقة،وما

---

(١) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٥٤١؛ العذري، المصدر السابق، ص ٦٩، ابن غالب، المصدر السابق، ص ٢٩٢، الطاهري، الفلاحة والعمران، ص ٢٢٧

(٢) الإدريسي، نفسه، ص ٥٧٢ -٥٧٣

(٣) نفسه، ص٥٧١

(٤) الحميري، المصدر السابق، ص٥٩-٣٣٩-٣٤٠

(٥) أركش Arcos مدينة قديمة حصينة من أعمال شريش تقع على نهر وادي لكه، القلقشندي ، صبح الأعشي في صناعة الإنشا، ج٥، ص٢٢٥، الحميري، نفسه، ص٢٧-٢٨

(٦) الحميري، نفسه، ص٢٨-٧٩-١١٣-١١٩-٣٤٠-٤٥٥-٤٦٩-٥١١

(٧) نفسه، ص٥٩

(٨) لقنت Alicante من مدن شرق الأندلس من أعمال كورة مرسية ، وهي مدينة صغيرة عامرة، تقع على مسافة تبعد عن دانية بنحو سبعين ميلا وخليجها يطل على ساحل البحر المتوسط، واشتهرت لقنت في العصر الإسلامي بازدهارها الاقتصادي، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٥٥٨، الحميري، نفسه، ص٣٤٠-٤٨٥-٥٣٩-٥١١، محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، القاهرة القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٥٦م، ١٢٠-١٢٢

حولها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها، وتينها أحسن التين طيبًا وعذوبة[١]

أما الكروم فقد غرست أشجاره بكثافة في بساتين ببشتر وبجاية، وبيانة، والجزيرة الخضراء[٢] وغيرها [٣]

وحول زراعة التفاح في الأندلس، أشار الحميري[٤] إلى أنها كانت تنتشر في سرقسطة وأشكوني[٥] وخص الحميري مدينة شلب بشهرتها بالتفاح العجيب[٦] بينما اقتصرت غراسة أشجار الكمثرى- وفق ما أورده الحميري-على بشنترة ووشقة [٧]،كما تميزت مدينة طليطلة بفواكهها الكثيرة التي لا يوجد مثلها في بلاد الأندلس[٨] وتحدث الحميري أيضًا عن زراعات أخرى اشتهرت بها الأندلس، مثل اللوز وقصب السكر بغرناطة وإشبيلية [٩]

---

(١) الحميري، الروض المعطار ، ص٥١٧

(٢) الجزيرة الخضراء Algeciras مدينة تقع جنوبي الأندلس قرب جبل طارق، وهي منيعة حصينة على ربوة مشرفة على المضيق، وتسمى أيضًا بجزيرة أم حكيم، وهي جارية طارق بن زياد، حملها معه فتخلفها بهذه الجزيرة فنسبت إليها، ابن غالب، الفرحة الأنفس، ص٢٩٤، الحميري، الروض المعطار، ص٢٢٣

(٣) الحميري، المصدر نفسه، ص٧٩-٨٠-١١٩-٢٢٤-٣٤٠-٣٤٧-٤٤٠-٤٨٥-٥٣٩-٥١١

(٤) نفسه ، ص٦٠-٦١-٣١٧

(٥) أشكلونة Escalona ، تقع في شمال طليطلة، على ضفاف نهر البرتش Alberche، أحد روافد نهر التاجه، الى الشمال من طلبيرة Capitulo VIII, RECUERO ASTRAY, MANUEL, *Extremum la Frontera*, Edicios do Castro, Narrativa A 006;

(٦) الحميري، المصدر السابق، ص٣٤٢

(٧) الحميري، نفسه، ص٣٤-٦١٢، الطاهري، المرجع السابق، ص ٢٣٨

(٨) نفسه، ص ٣٩٣

(٩) نفسه، ص٤٦-٧٩

ومن ناحية أخرى شاعت في الأندلس زراعة الزعفران[١]، وكانت من أبرز مراكز إنتاجه، واكتسب أهمية كبيرة في التجارة العالمية؛لاستخداماته الكثيرة، في الصباغة والطيب والعقاقير الطبية[٢] واقتصرت زراعته على مدينة بياسة [٣] ومن الملاحظ أن الحميري أغفل ذكر المناطق التي عرفت الزعفران في بعض الحواضر الكبرى، مثل طليطلة، فكان زعفرانها يعم البلاد، وهو المتناهي في الفضل، تفوق جودته كل زعفران[٤] كما كان ينبت الزعفران أيضًا ببلنسية، ويجود بها [٥]وبوادي الحجارة[٦] وأبدة[٧]

أما أصناف البقول فقد كثرت في جزيرة التوبة ويبورة [٨].كما اهتم الأندلسيون بزراعة النباتات النسيجية(ذات الألياف) فقد أشارالحميري إلى انتشار زراعة الكتان بمنطقة جبل شلير(بغرناطة) الذي يفضل كتان الفيوم وهو في غاية

---

(١) الزعفران:اسم عجمي يقع على نبات الكركم، وهو نوع من أنواع نبات البصل، أبي الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، ط١، تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥م، ج١، ص٢٧٦

(٢) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٢٩، كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصري دولتي المرابطين والموحدين، ص١٢٨

(٣) الحميري، الروض المعطار، ص٨٧

(٤) البكري، المسالك والممالك، ج٢، ص٣٩٤، ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٨٨

(٥) العذري، المصدر السابق، ص١٧، ابن غالب، ص٢٨٣-٢٨٤، القزويني (ت ٦٨٢هـ) ، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠ م، ، ص٥١٣

(٦) وادي الحجارة Guadalajara مدينة تعرف بالفرج بالأندلس، وهي بين الجوف والشرق من قرطبة، وبينها وبين طليطلة ١٣٠كم، الإدريسي، نفسه، ص٥٥٣، الحميري، المصدر السابق، ص٦٠٦

(٧) أبدة Ubedaهي مدينة صغيرة من أعمال كورة جيان على مقربة من النهر الكبير وبينها وبين بياسة سبعة أميال، الإدريسي، نفسه، ص٢٩٦

(٨) الحميري، نفسه، ص ١٤٥-٦١٦

الجودة [١]،وشقورة[٢] ينبت بها الورد الزكي والعطر والسنبل الرومي الطيب[٣] وأشجار القسطل[٤] بفريش[٥] كما اشتهرت القصر وشلطيش وقادس بشجرالصنوبر[٦] والبنطية بجزيرة قادس نبات يسكر لبن الماعز[٧]ومن النباتات التي انتشرت في بلاد الأندلس أيضًا العصفر[٨] والقرمز[٩]، وأهم مناطق زراعته في

---

(١)الحميري، الروض المعطار ، ص٣٤٣

(٢) شقورة Segura من أعمال جيان حصن كالمدينة عامر بأهله، وهو في رأس جبل عظيم متصل حصين الجهة، الزهري، المصدر السابق، ص٩٨، الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٠-٥٦١

(٣) السنبل نبات رائحته طيبة، ويسمى بالأقليطي والمنجوشة، ويوجد منه ثلاثة انواع هندي ورومي وجبلي وينبت ببلاد الأندلس و له العديد من الاستخدمات فيصلح لغسيل اليد ومفيد جدًا لأمراض الكبد والمعدة وأيضًا يدر البول ويخفف الغثيان والخفقان ابن البيطار ضياء الدين أبي محمد عبد الله المالقي الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٣، ص٤٩-٥٠، الحميري، نفسه، ص٣٤٩

(٤) القسطل شجر من فصيلة شجر البلوط، له ثمر كثير النشاء يؤكل مشويا، ويعرف في مصر ب أبي فروة المعجم الوسيط، ص١٣٤

(٥) فريش Fresh تقع غرب قرطبة، فتحها المسلمون بعد قرطبة وذلك في أواخر سنة ٩٢هـ/٧١٠م، واشتهرت بكثرة الأشجار وبها مقاطع الرخام الناصع البياض، وفيها عيون تتدفق بالمياه وتطحن بها الأرحى، ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٨٩-٢٩٠، الحميري، نفسه، ص٣٤٤

(٦) الحميري، المصدر السابق، ص٣٤٣-٣٤٤-٤٤٨-٤٧٦

(٧)الحميري، نفسه، ص٤٤٨

(٨) عرفت الأندلس نوعين من العصفر:المشوك وغير المشوك، وكان هذا الأخير أكثر جودة من الأول، يستخدم في عملية الصباغة ليعطي اللون الأصفر، وكان في كل من إشبيلية ولبلة؛إذ منهما كان يجلب العصفر الجيد ذا النوعية الرفيعة، العذري، ص٩٦-١١١، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٥٥، ابن الشباط، وصف الأندلس، قطعة من كتاب صلة السمط وسمة المرط، ص١١٧

(٩) القِرمز نوع من نبات البلوط يثمر بلوطًا مرًا لا يحلو البتة، ويستعمل في صبغ الصوف والحرير فقط ولا يَصلُح في صباغة الكتان والقطن، ابن البيطار، المصدر السابق، ج٤، ص٢٥٦

مدينة لبلة[١]

كما أشار الحميري إلى جبل شنترة وأنه ينبت به البنفسج بطبعه، وذكر جبل شلب فقال: يتضوع منه روائح العود إذا أرسلت فيه النار[٢] كما يخرج من شنترة وشذونة عنبر جيد [٣] وكانت السواحل الأندلسية الغربية المطلة على المحيط الأطلسي غنية به، وبخاصة ساحل شذونة حيث أطيب أنواع العنبر العربي[٤] المستخدم في صناعة العطور والطيب [٥]

- البساتين الأندلسية:

ألمح الحميري إلى شهرة الأندلس بالضياع، والبساتين، التي عمت معظم أنحائها خاصة في البوادي أو القرى حيث برع الفلاحون الأندلسيون في غرس تلك البساتين، وتنسيقها،والعناية بأشجارها المثمرة، علاوة على زراعة الرياحين والأعشاب العطرية والطبية، كما كانت موضعا لمجالس الأندلس والطرب والشراب.

ومن ذلك إشارته إلى أن إشبيلية لها بساتين تُعرف بجنات المصلى[٦]، وأوريولة لها بساتين وجنات وضياع كثيرة وفيها فواكه[٧]،وكذلك إفراغة لها بساتين

---

(١) الحميري، الروض المعطار ، ص٥١١

(٢) الحميري، المصدر السابق، ص ٣٤٢

(٣) الحميري، نفسه ، ص٣٤٧

(٤) نفسه، ص٣٣٩

(٥) وتعددت الروايات فيما يتعلق بأصل العنبر، فقيل: نبات في قعر البحر، وقيل: من روث حيوان بحري، بينما يذكر البعض أنه مادة صمغية تستقر في قاع أشجار البحر، وبعد نزولها في المياه تنحجر وتحملها الأمواج إلى الشاطئ، الزهري، المصدر السابق، ص١٦، كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص٢٣

(٦) الحميري، المصدر السابق، ص٥٩

(٧) الحميري، نفسه، ص٦٧

كثيرة لا نظيرلها [١]وطليطلة لها بساتين محدقة [٢]ووشقة يشق مدينتها نهر تسقى بفضلة مائه بساتين، وقورية لها بوادٍ شريفة خصبة وضياع طيبة [٣] كما انتشرت البساتين والضياع في كثير من قرى أو بوادي الأندلس،كما في بجانة وبلنسية، والمرية، وقلعة أيوب[٤] وغيرها كثير[٥]

ولعل انتشار تلك البساتين وكثرة ما تحويه من الفاكهة والأشجار المثمرة كان له أثره الواضح في رخص أسعارها بالأسواق، وهو ما تكلم عنه الحميري في مواضع عدة،في سياق وصفه للمدن والقرى والحصون، ومن أمثلة ذلك عنده،أن دروقة [٦]بها كثير من البساتين، وكل شيء بها كثير ورخيص[٧]وسرقسطة لها بساتين ممتلئة بالفواكه التي لا يقوم ثمنها بمئونة نقلها لرخصها فيتخذونها سرجينًا

---

(١)الحميري، الروض المعطار ، ص٤٨

(٢)الحميري، المصدر السابق ، ص٣٩٤

(٣)الحميري، نفسه ، ص٤٨٥

(٤) قلعة أيوب Calatayud هي مدينة حصينة في ولاية سرقسطة، كثيرة الخصب، تقع بالقرب من مدينة دروقة، كان اسمها القديم لبلة، ثم أعاد بناءها والي الاندلس التابعي العربي أيوب بن حبيب اللخمي ٩٧هـ فسميت باسمه، ثم أمر ببنائها بعد ذلك الأمير محمد بن عبد الرحمن لمواجهة تمرد بني قسي في سرقسطة.الحميدي (ت ٤٨٨هـ) ، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩، م١، ص٤١ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٦٩، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ١٩٧١م، ص١١١

(٥) الحميري، نفسه، ص٧٨-٧٩-١١٩-٢٢٤-٣٤٦-٤٦٩-٥٣٧

(٦) دَرُوقة Daroca تقع عند سفح جبل وعلى مقربة من قلعة أيوب، وبينهما حوالي ٣٦ كم، وبينها وبين سرقسطة حوالي ١٠٠كم، الإدريسي، نفسه، ص٥٥٤، الحميري، نفسه، ص٢٣٥

(٧) الحميري نفسه، ص٢٣٥

يسمدون به أرضهم [١]،وبلنسية رخيصة الأسعار[٢] ومدينة المرية كانت بواديها كثيرة الفواكه الرخيصة [٣]

٢- الرعي وتربية النحل وصيد الأسماك:

أكد الحميري وفرة المراعي في مناطق عدة،مما ساعد على اشتغال بعض سكان البوادي بحرفة الرعي وتربية الحيوان، فيذكر أن القصر(قصر أبي دانس) كثيرة الألبان والسمن واللحم [٤] لكثرة مراعيها وثروتها الحيوانية ويصف يبورة بأنها كثيرة اللحم[٥]، وشلطيش بها مراعٍ خصبة دائمة الخضرة لا تجف،ويضيف أن جبل الشارات بطليطلة فيه من الغنم والبقر الشيء الكثير،والذي تشتهر أغنامه بأنها في غاية السمن [٦] ويصف الحميري كثرة أغنام حصن غافق شمال قرطبة فيشير إلى أن كثيرًا ما تسري إلى هذا الحصن سرايا النصارى الإسبان فينجون أنفسهم بإعطائهم الأغنام ويخرجونهم من أراضيهم [٧] ويذكر أن قادس من أعمال كورة إشبيلية أكثر مواشيها الماعز والأغنام، ترعى في خروب ذلك المكان أي الأراضي المهجورة وتتغذى على نبات اسمه النبطة إذا رعته المعز أسكر لبنها [٨].علاوة على ذلك اهتم سكان بعض المناطق الثغرية الواقعة على مقربة من أراضي الممالك الإسبانية المسيحية بتربية الخيول لأهميتها في الحروب والتنقل بين الحواضر والقرى، ومن أبرز المدن الثغرية في هذا المجال مدينة ترجالة وحصن مدلين

---

(١)الحميري، الروض المعطار ، ص ٣١٧

(٢)الحميري، المصدر السابق ، ص ٩٧

(٣)الحميري، نفسه ، ص ٥٣٧

(٤) نفسه، ص٤٧٦

(٥) نفسه، ص٦١٦

(٦) نفسه، ص٣٩٣

(٧) نفسه، ص٤٢٦-٤٢٧

(٨) نفسه، ص ٤٤٨

ومدينة بنبلونة، وخيلهم كانت أصلب الدواب حافرًا لخشونة بلادهم، ويسكنون علي البحر المحيط في الجوف (١)

كما ألمح الحميري إلى تربية النحل، خاصة في البوادي، حيث تكثر البساتين والمزارع، والأشجار والرياحين التي يتغذى النحل على رحيقها، فيذكر أن مدينة القصر تشتهر بكثرة العسل وكذلك مدينة قرمونة (٢)

ومن ناحية أخرى أشار الحميري باختصار إلى تربية الدجاج، في سياق حديثه عن مدينة ريمية التي تأوي إليها عِقبان(٣) كثيرة، ولا تؤذيهم في شيء من دجاجهم (٤) كما حدثنا عن صيد فراخ الطيور بمدينة قرمونة (٥) ويتكلم عمن احترف صيد السمك والحيتان، فيشير إلى أن ساحل شذونة به الحوت الذي لا يوجد في مكان بالساحل غيره، فيظهر أول شهر مايو من كل سنة حين يخرج من البحر المحيط إلى البحر المتوسط فيصطاده الناس مدة ظهوره التي تقدر بأربعين يومًا من كل سنة (٦) وكذلك قرية بزليانة القريبة من مالقة يُصطاد بها كثير من

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٥٥٥ -٥٥١، الحميري، نفسه، ص١٠٤، كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عهد دولتي المرابطين والموحدين، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٦م، ص ١٨٤ – ١٨٥.

(٢)الحميري، الروض المعطار ، ص ٤٦١-٤٧٦

(٣) العُقاب:طائر من فصيلة الكواسر والجمع عِقبان، يتميز بكبر الحجم وضخامة المنقار وعرض الجناحين والشراسة وقوة البصر، وقال عنه ابن الأعرابي عتاق الطير العقبان أي سباع الطير التي تصيد، وهو من الطيور التي تعيش بالقرب من المياه، ابن منظور محمد بن مكرم بن على (ت٧١١هـ) ، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص٣٠٢٨-٣٠٢٩، ابن الوردي (ت٨٦١هـ)، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ط١، تحقيق أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٣٦٠

(٤) الحميري، المصدر السابق، ص ٢٨٠

(٥) الحميري، نفسه، ص ٤٦١

(٦) نفسه، ص ٣٣٩

الحوت [١]، ومدينة المنكب[٢] كثيرة مصائد الأسماك [٣]

٣- الثروة الغابية:

لم يغفل الحميري الحديث عن الثروة الغابية التي حظيت بها بعض المناطق الأندلسية، خاصة الجبلية منها، فيذكر أن جبل مدينة قيشاطة يقطع به من الخشب الذي تصنع منه أدوات الطهي والطعام [٤] أما مدينة القصر فكلها أشجار الصنوبر[٥] كذلك مدينة طرطوشة[٦] وشنتمرية وقصر أبي دانس[٧] ينبت بهم شجر الصنوبر[٨] الذي يتميز بعدم وجود نظير له في الطول والغلظ، وهو يتصف بالحمرة صافي اللون لا يتغير لونه ولا يؤثر فيه السوس[٩] ويضيف الإدريسي بأن جبل حصن قيشاطة (قرب بسطة وجيان) تكثر به أشجار الغابات [١٠]، كما إن حصن قمصة (قرب قونكة) تتصل به جبال يكثر بها شجر الصنوبر، وتقطع بها الأخشاب التي تحمل إلى دانية وبلنسية وغيرها من مدن شرق الأندلس [١١]

---

(١) الحميري، الروض المعطار ، ص ٨٢

(٢) المنكب Almuñécar مدينة تقع على بعد ثمانين كيلومترًا من مدينة غرناطة، ولها مرسى يسمى باسمها، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٦٤، الحميري، المصدر السابق، ص٥٤٨-٥٤٩

(٣) الحميري، المصدر السابق ، ص٥٤٨-٥٤٩

(٤) الحميري، نفسه ، ص ٤٨٨

(٥) نفسه، ص٤٧٦-٤٧٧

(٦) طرطوشة Tortosa تقع شمالي بلنسية وجنوبي طركونة، وهي على ضفة النهر المعروف بوادي أبره، الزهري، المصدر السابق، ص١٠٣، الحميري، نفسه، ص٣٩١

(٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٤٤

(٨) الحميري، المصدر السابق، ص٣٤٧

(٩) الحميري، نفسه، ص٣٩١

(١٠) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٥٦٩، ٥٧٤ .

(١١) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٥ .

وقد تعرض الحميري أيضًا لنبات الحلفاء الذي ينمو عادة قرب المستنقعات والمجاري المائية، فيذكر أن مدينة لقنت اشتهرت بذلك، ومنها يتجيز بالحلفاء إلى جميع بلدان البحر المتوسط(١)، كما لم يحدثنا الحميري عن حصن بطروش بمنطقة فحص البلوط (شمالي قرطبة(الذي يتميز بوفرة شجر البلوط، وكان لسكانه اهتمام بحفظه و خدمته، وعرفت ثماره بطعمها الفائق، وكانت غياثًا لأهل قرطبة خلال سنوات القحط والمجاعة (٢)

٤- المعادن والصناعات:

اشتهرت الأندلس بوفرة ثرواتها المعدنية التي تزخر بها جبالها، كمعادن الذهب والفضة،والنحاس والرصاص،والحديد والزئبق، واللازورد(٣)،والشب، والتوتيا(٤)، والزاج، والطفل(٥) وقد أمدنا الحميري بإشارات قيمة عدة عن تلك المعادن ومناطق استخراجها، ومن أهمها الحديد، الذي تركزت مناجمه في مدينة شاطبة (٦)

---

(١)الحميري، الروض المعطار ، ص٥١١

(٢) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٥٨٥؛ ابن غالب، المصدر السابق، ص ٢٨٩؛ عز الدين على موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادي الهجري، ط١، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١٩٦-١٩٧

(٣) اللازورد:هو حجر أزرق من الأحجار الكريمة ويستخدم في اكتحال العين، ابن الوردي، المصدر السابق، ص٣٠١

(٤) التوتيا: هو حجر منه أخضر ومنه أصفر ومنه أبيض وهو بارد يابس، وتستخدم التوتيا في صبغ النحاس الأحمر فيصير أصفر، المركشي (ت٦٤٧هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط١، المطبعة الجمالية بحارةالروم، مصر، ١٩١٤م، ص٢٠٤، اسماعيل سامعي، تاريخ الأندلس الاقتصادي والاجتماعي، ص١٣٦

(٥) الحميري، المصدر السابق، ص ٣٢

(٦) وفي شاطبة يقول الشاعر يذمها:
شاطبة الشرق شر دار ليس لسكانها فلاحْ الكسب من شأنهم ولكن أكثر مكسوبهم سُلاح، الحميري، المصدر السابق، ص٣٣٧

ووُجدت مناجم الحديد في البيرة وفريش[١]،وكذلك بجبال طليطلة المعروف بالشارات حيث توفرت بها معادن الحديد والنحاس [٢]

وكثرت معادن الذهب والفضة بموضع يعرف بالمرج من أعمال مدينة فرنجولش [٣]،وخص الحميري معدن الفضة بمدينة مرسية بقوله إنه من المعادن الغزيرة متصلة المادة [٤]،وحظيت مدينة سرقسطة بمعدن الملح الدراني[٥] الذي لا يوجد مثله في مكان ولا يعدل به [٦] ويضيف الزهري أن هذا الملح يجلب إلى بلاد المغرب الأقصى[٧] كما وجد كذلك بمدينة دلاية (من أعمال المرية)[٨]

وألمح الحميري أيضًا إلى توفر مقاطع للرخام بحصن فريش (غرب قرطبة) الذي يشتمل على مقطع للرخام الرفيع الجليل الخطير المنسوب إليه فيعرف بالرخام الفريشي [٩]

ومن ناحية أخرى تحدث الحميري عن مناجم للتربة الصفراء والمغرة [١٠] (وهو تراب حديدي أحمر اللون يستخدم في الصباغة) وكذلك نوع من الطين أو الطفل بجبال قرية مغام (قرب طليطلة) وسهولها يصفه بأنه نهاية في لذة المأكل وفي

---

(١)الحميري، الروض المعطار ، ص ٢٨-٤٤٠

(٢)الحميري، المصدر السابق ، ص ٣٩٣

(٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٧٤، الحميري، نفسه، ص ٤٤١

(٤) نفسه، ص ٥٣٩

(٥) الملح الدراني هو الملح الشديد البياض، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٢٦

(٦) الحميري، نفسه، ص ٣١٧

(٧) الزهري، المصدر السابق، ص١٢٨

(٨) ابن الخطيب، الاحاطة، ص٩٩

(٩) الحميري، نفسه، ص ٤٤٠، وانظر ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٩٠

(١٠) نفسه، ص٣٩٤

نظافة غسل الشعر...." [١]

وهناك أيضًا مواد البناء، مثل الجير (أو الكلس) والجص (الجبس) اشتهرت بذلك مدينة سرقسطة التي عرفت بكثرة الجص [٢]

وعلاوة على ما سبق تميزت الأندلس بكثرة الحمامات، أي العيون المعدنية الساخنة، التي ينتفع بها في الاستشفاء من بعض الأمراض، ومن أهمها حمة بالقرب من بجانة (قرب المرية) تسمى بحمة حصن الحمة، كان يستشفى بها أهل المرية والمناطق المجاورة خاصة في فصل الربيع [٣]

وهناك ثلاثة عيون بمدينة لبلة إحداها عين تهشر، وهي أغزرها والثانية عين تنبعث بالشب، والثالثة عين تنبعث بالزاج [٤] كما كانت على مسافة أربعين ميلًا من مرسية عين عذب ويقصدها من علق العَلَقُ[٥] بحلقه فيفتح فمه، فيسقط العلق لحينه، وذلك بإقليم إلش[٦] وكثيرًا ما يطب به الأطباء، فيستغنون عن شجر

---

(١) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤

(٢) الحميري، المصدر السابق، ص ٣١٧

(٣) الحميري، نفسه، ص ٨٠

(٤) نفسه، ص ٥٠٨

(٥) العلق:هو دود أسود يمتص الدم يكون في الماء الآسن، إذا شربته الدابة عَلِقَ بحلقيها، المعجم الوسيط، ص٦٢٢

(٦) إلش Elche تقع إلى الجنوب الغربي من لقنت على بعد نحو عشرين كيلومترًا، وهي مدينة قديمة وكانت في العصر الإسلامي مركزًا من مراكز العلم في شرق الأندلس، الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٥٨، الحميري، نفسه، ص٣٠، محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص١١٥

أناغاليس[١]المستخدم من قبل، الذي من شأنه قتل العلق، وعن نبات العَكُوب[٢] والخل، ومثل تلك الأشياء[٣]

أما فيما يختص بالصناعات، فقد ساعد توافر المواد الخام- من معدنية وزراعية وحيوانية- على قيام صناعات عدة في الأندلس،ومن أهمها -حسبما أشار الحميري- صناعة المنسوجات التي أفرد لها نصًا مطولًا،وخاصة في مدينة المرية موضحًا ازدهار تلك الصناعة فيها وتعدد أنواع المنسوجات،فيذكر أن بها من طُرز الحرير ثمانمائة طراز، و يعمل بها الحلل والديباج(نوع من الحرير من المنسوجات الحريرية)،والسقلاطون (يتتج من الحرير المطرز المذهب) والأصبهاني والجرجاني، ويبدو من تسميتهما أنهما كانا ينسبان إلى هذين البلدين، والعتابي والمعاجر(نسيج شفاف تستخدمه النساء لتغطية وجوههن) وصنوف أنواع الحرير...[٤] كذلك كانت البُسط الرفيعة الشريفة،تصنع في مدينة مرسية،وكان لأهلها حذق بصنعتها

---

[١] أناغاليس:هو نبات ذو صنفين مختلفين في زهرهما الاول زهرة لازوردي الأزرق ويقال له الأنثى والآخر أحمر ويقال له الذكر وهما شجيرتان منبسطتان على الأرض ولهما ورق صغير، واذا سقي أحد من عصارته مع الحاشا المسحوق والخردل الحريف أخرج العلق المعلق بالحلق، واذا تغرغر بعصارة النوع الأنثى قتل العلق، وسمي أيضًا بحشيشة العلق في بلاد المغرب لأن عصارتها تقتل العلق سريعا متى قطرت عليها أو تغرغر بها مع الخل، ابن البيطار، المصدر السابق، ج١، ص٨٦

[٢] العَكُوب:نبات من البقوليات يسمى الكنكر أو الحرشف منه بستاني وبري، وهو من الفصيلة المركبة، أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، ج٢، ص٤٣٠، المعجم الوسيط، ص٦١٨

[٣] الحميري، المصدر السابق، ص ٥٣٩

[٤] الزهري، المصدر السابق، ص١٠١-١٠٢، الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٦٢، ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٨٣-٢٨٤، الحميري، نفسه، ص ٥٣٨

وتجويدها لا يبلغه غيرهم [١] بينما اشتهرت جنجالة [٢]بصناعة وطاء الصوف وإليها ينسب عمله[٣] كما برزت بمدينة بسطة في نسج طرز الوطاء البسطي من الديباج الذي لا يعلم له نظير[٤] و اشتهرت مدينة قلشانة بثياب عرفت بالقلشانية، وهي – على حد وصفه – مخترعة الصنعة غريبة العمل [٥]

واشتهرت الأندلس بصناعة السفن لوفرة الأخشاب من أشجار الغابات، وتركزت تلك الصناعة في المدن الساحلية مثل الجزيرة الخضراء التي احتوت على دار صناعة، ومدن شلب والقصر وطرطوشة التي كانت بها دور لصناعة المراكب[٦]، وفي مدينة لقنت التي كانت تُصنع المراكب السفرية والحراريق [٧]

كما عرفت الأندلس الصناعات الخشبية صناعة القصاع والأطباق، وغيرها من المستلزمات المنزلية في حصن قيشاطة[٨] وكذلك صناعة الأثاث والأبواب وأسقف الدور والمساجد والمنابر؛ إذ استخدم خشب الصنوبر الطرطوشي في بناء جامع قرطبة، بينما صنع المنبر من خشب الأبنوس[٩]

ومن الصناعات الغذائية صناعة طحن الحبوب، وقد ألمح الحميري إلى

---

(١)الحميري، الروض المعطار ، ص ٥٣٩

(٢) جنجالة Chinchilla حصن بشمال مرسية تبعد المسافة بينهما نحو خمسين ميلا، الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٦٠، الحميري، الروض المعطار، ص١٧٤-١٧٥

(٣) الحميري، المصدر السابق، ص ٣٤٧

(٤)الحميري، نفسه، ص ١١٣

(٥) نفسه، ص ٤٦٦

(٦) نفسه، ص٣٩١، السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩، ص٥٧-٥٨

(٧) الحميري، نفسه، ص ٥١١

(٨) نفسه، ص ٤٨٨

(٩) نفسه، ص ٤٥٦، ابن غالب، المصدر السابق، ص٢٩٨

الأرحية المائية في أغلب مدن وبوادي الأندلس، وهي تقنية ابتكرها الإنسان لاستغلال الطاقة المائية؛ إذ تدور تلك الرحى بالماء وتكون على جانب النهر، وتدور بفعل قوة تيار المياه،وتطحن الحبوب ومواد أخري[١] لكن الحميري لم يتكلم عن تفاصيل مكونات تلك الأرحاء والطواحين، كما فعل الحسن الوزان الذي وصفها بقوله: "الطاحونة بمثابة أبنية مشتملة على أرحاء يمكن أن يبلغ عددها ألف رحى،إذ تتكون كل طاحونة من قاعة كبيرة ذات أعمدة، كانت تضم أحيانًا أربع أرحاء أو خمس أو ست[٢]، وقد أمدنا الحميري بقدر لا بأس به من المعلومات حول تلك الأرحية المائية الأندلسية، ولعل أهما ما يخص مدينة طركونة بالثغر الأعلى التي يقول إن من غرائبها أرحاء نصبها الأُوَل تطحن عند هبوب الريح وتسكن بسكونها [٣] ومدينة صدينة التي تطحن على جداولها الأرحاء[٤]،كما أشار الحميري إلى أرحاء كثيرة على الأنهار في طلبيرة على نهر تاجة [٥] و رحى قلمرية بغرب الأندلس [٦]

واشتهرت شاطبة بصناعة الكاغد (الورق) من معجون الكتان، وكان من أجود أنواع الورق، لا نظير له بمعمور الأرض[٧] واختصت قلعة أيوب بصناعة الغضار المذهب أي الخزف [٨]،بينما تركزت الصناعات الحديدية في شلطيش،التي

---

(١) الفارابي، معجم ديوان العرب، ج ١، ص. ٣٧٣

(٢) وصف أفريقيا، ص.٢٣٣

(٣)الحميري، الروض المعطار ، ص ٣٩٢

(٤)الحميري، المصدر السابق ، ص ٣٥٦

(٥)الحميري، نفسه ، ص ٣٩٥

(٦) نفسه، ص ٤٧١

(٧) نفسه، ص ٣٣٧

(٨) نفسه ، ص ٤٦٩

"بها صناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه وصنعة المراسي التي تُرسى بها السفن..." (١) وهناك أيضًا الآلات الحديدية والنحاسية في مدينة المرية (٢)

٥- التجارة:

نستنتج مما أورده الحميري أن هناك عوامل عدة ساعدت على ازدهار التجارة في الأندلس، سواء على المستوى الداخلي للمدن أو على مستوى التجارة بين تلك المدن وبعضها البعض،ومن أهم تلك العوامل ما يأتي:

أ- الأسواق والفنادق:

كانت التجارة بالأندلس تتركز في الأماكن التي يكثر فيها السكان، سواء من التجار أم أصحاب الحرف أو المستهلكين، واشتهرت مدن الأندلس وبواديها بكثرة الأسواق وتنوعها، التي أشار الحميري إلى كثير منها،وقسمها إلى نوعين؛ فهناك أسواق ثابتة و دائمة في الحواضر سواء بداخلها أم في الأرباض خارج السور، ومن أمثلة ذلك أسواق بقرطبة، وإشبيلية، التي يصفها بأنها مدينة كبيرة وسوقها عامرة، كثيرة السكان وأهلها من ذوي الثراء. وأسواق مالقة، وهي جامعة، أي يجتمع فيها الناس سواء من أهلها أم من بواديها أوقراها وأسواق أخرى عامرة بإستجة وبجانة وطرطوشة،ولورقة(٣) التي يقع سوقها في الربض جنوبي المدينة، وغير ذلك كثير(٤)

---

(١) الحميري، الروض المعطار ، ص ٣٤٣-٣٤٤

(٢) الحميري، المصدر نفسه ، ص ٥٣٨

(٣) لُورَقة Lorca معناها باللطيني: الدرع الحصين، وهي مدبنة من بلاد تدمير، وتقع على ظهر جبل، وبينها وبين مرسية حوالي ثمانين كيلومترًا، الإدريسي، نفسه، ص٥٦١، الحميري، الروض المعطار، ص٥١٢

(٤) الحميري، نفسه، ص ٥٣-٥٩-٣٩١-٥١٢-٥١٨

أما النوع الثاني من الأسواق فهو الذي يطلق عليه الأسواق الأسبوعية، وكانت تقام في البوادي القريبة من الحاضرة في يوم معين من الأسبوع. ومن ذلك ما أورده الحميري من أن طرطوشة بها سوق جامعة يوم الخميس،وفي شوذر [١](من أعمال كورة جيان) سوق حافلة يوم الثلاثاء، ومدينة جيان لها سوق أسبوعية تزخر بالناس والمتاجر والبضائع[٢]

أما الفنادق فأشار الحميري- بإيجاز شديد- إلى وجودها في كثير من المدن الأندلسية، مثل الحاضرة قرطبة وإستجة والمرية وجزيرة شقر، وحصن قيشاطة (بكورة جيان)، وقرية بزليانة (قرب مالقة)،وغيرها [٣]

ومن المعروف أن الفنادق كانت تكثر في وسط المدينة قرب المسجد الجامع، مثل فندق طليطلة، حيث عرف أحد شوارعها بشارع الفندق بعد سقوطها في أيدي النصارى القشتاليين Calle de Alfondiga،وكذلك كان في غرناطة خلال[٤] عصر بني الأحمر، فندق يسمى بفندق الجنوية (الذي خصص لتجار جنوة) وغيرها كثير.

ومن الملاحظ أن الحميري أغفل ذكر الأسواق والفنادق في بعض الحواضر

---

(١) شوذر بالأندلس من كور جيان، وهي قرية تعرف بغدير الزيت لكثرة زيوتها، الحميري، الروض، ص١١٧

(٢) الحميري، الروض المعطار، ص ١٨٣-٣٥١-٤٦١-، وراجع التفاصيل في كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص ٣٠٢ PEDRO CHALMETA, *El senor del zoco en Espana*, Madrid,1973,pp.88-89

(٣) الحميري، المصدر السابق، ص٥٣-٩٢-٣٤٩-٤٥٦-٤٨٨-٥١٨، ابراهيم عبد المنعم سلامة، التاريخ السياسي لمدينة استجة، ص٣٩٧-٣٩٨

(٤) ليوبولدو توريس بالباس؛المدن الإسبانية الاسلامية، ترجمه من الإسبانية اليو دورو دي لابنيا؛راجعه نادية محمد جمال الدين، عبد الله بن ابراهيم العمير، مركزالملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، ٢٠٠٣ م، ص ٢٦٨، عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس العمارة المدنية ، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٥، ص ٢١٨-٢١٩

الكبرى، مثل سرقسطة،على الرغم من أن المصادر الجغرافية الأندلسية الأخرى أشارت إلى شهرة تلك الحواضر بأسواقها وفنادقها،ونشاط الحركة التجارية فيها كذلك لم يذكر لنا أية معلومات عن القيساريات(١) التي حظيت بشهرة كبيرة،مثل قيساريات قرطبة والمرية وبلنسية وغرناطة (٢)

ب- طرق التجار:

انتشرت في الأندلس مجموعة من الطرق والمسالك، سهلت عملية التواصل التجاري بين مختلف مناطقه، وربطت القاصي منه بالداني، وكان من هذه الطرق ما أورده الحميري في عدة مواضع، بما يكفي للتدليل على تعدد الطرق التجارية، سواء أكانت برية أم نهرية أو بحرية

ويؤكد الزهري وغيره من الجغرافيين الأندلسيين: "أن بلاد الأندلس بها ثمانية مدن من الحواضر الكبار، علاوة على العديد من المدن المتوسطة والصغيرة، لا يجد المسافر ثلاث أو أربع مدن قريبة بعضها من بعض إلا في الأندلس(٣)، ومن بركة

---

(١) القيسارية تقع في الجانب الغربي من المدينة، وإلى الجنوب الشرقي من المسجد الجامع، وكانت تعرف القيسارية زمن الخلافة باسم السوق العظمى، وهي بناء مؤلف من شبكة من الطرقات الضيقة المسقوفة، أو ممرات تدور حول بهو فسيح تنفتح عليها الحوانيت، وتعتبر القيسارية المركز الرئيسي للتجارة في المدينة، وتجرى كل أمور التجارة فيها، العذري، المصدر السابق، ص١٨-٨٦، أحمد محمد الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، د.ت، ص٢٧٨، كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص٣٠٤

(٢) تقع في الجانب الغربي من المدينة، شرق المسجد الجامع، وكانت تعرف زمن الخلافة باسم السوق العظمى، الإدريسي، المصدر السابق، ص ٥٦٤-٥٦٦-٥٦٧-العذري، المصدر السابق، ص١٨-٨٦-ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، ١٩٦٤م، ص ٤٨٥-٤٨٦

(٣) الزهري، المصدر السابق، ص٨٠

الأندلس وسهولة المواصلات بها على التجار أنه لا يمشي المرء فيها فرسخين [١] دون ماء،ولا يمشي ثلاثة فراسخ، إلا فيها الحوانيت لبيع الخبز والفواكه، والجبن واللحم والحوت (أي الأسماك)، وغير ذلك من ضروب الأطعمة مهما طال سفره[٢]

ومن ناحية أخرى كان لكثرة الأودية والأنهار بالأندلس أثر ملموس في نشاط حركة التجارة الداخلية، فقد أسهمت تلك المجاري المائية في إنعاش التجارة بتسهيل المواصلات،ونقل مختلف السلع والمتاجر، سواء الصادرة أم الواردة،ومن الطرق النهرية التي أشار إليه الحميري طريق بجانة من جهة المغرب، المعروف بطريق المضيق، وهو على ضفة النهر المسمى بالوادي الكبير [٣]،وطريق آخر في ببشتر، يصفه الحميري بأنه طريق عند الطلوع والهبوط على النهر[٤]

ويلاحظ أن الحميري لم يحدثنا عن باقي الطرق النهرية في حين يذكر الإدريسي العديد منها فألمح إلى بلدة القليعة(من أعمال كورة اشبيلية) على ضفة النهر الكبير، ويجاز إليها في المراكب،ويضيف أنه من شاء أن يجوز من إشبيلية إلى قرطبة ركب المراكب وسار صاعدًا في النهر[٥]ويقول ابن مفلح إن إشبيلية بها النهر الكبير، الذي يضاهي دجلة والفرات والنيل، وتسير القوارب فيه للنزهة والصيد[٦]

---

(١) الفرسخ يساوي ثلاثة أميال، وهو يساوي٥٥٤٤مترتقريبا، أي أن الفرسخ يساوي حوالي ستة كيلومترات، فالترهنتيس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٩٤، محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار الأنصار، القاهرة، ص٣٠١

(٢) الزهري، المصدر السابق، ص٨٠، IMAMUDDIN, *The Economic history of Spain under the ummaydes*, Dacca, 1963, P.263، كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص ٢٨٥.

(٣) الحميري، المصدر السابق، ص ٧٨

(٤) الحميري، نفسه ، ص ٧٩

(٥) الإدريسي، المصدر السابق ص ٢٨٠، العذري، المصدر السابق، ص٩٨-٩٩

(٦) المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٠٨

كما كان لنهر شطويرة (غرب الأندلس) أهمية اقتصادية كبيرة، إذ كان ينقل عبره المسافرون فيقول الإدريسي إنه نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية كثيرًا[١]

ج- مراسي السفن أوالموانئ:

وساعد الموقع الجغرافي سكان الأندلس على الاتجاه نحو البحر، كما أن سواحلها المتعرجة وكثرة خلجانها أسفرت عن تعدد مراسيها التي كانت تصلح للسفن وإيوائها بعيدًا عن تيارات البحر العنيفة [٢]

وقد تحدث الحميري عن كثير من مراسي السفن البحرية والنهرية التي استخدمت، سواء للتجارة الداخلية أو الخارجية ومن أمثلة ذلك إشارته إلى أن مدينة بلنسية تدخل السفن نهرها و بها كثير من تجاراتٍ وحطٍ وإقلاع..." [٣] وبمدينة بجانة مرسى عظيم تحط فيه السفن من كل جهة [٤]وبساحل إقليم إلش(من كورة تدمير) مرسى يعرف بشنت بول [٥].ويصف الحميري[٦] حصن بنشكلة(قرب طركونة) بأن مرساها تقابله من بر العدوة جزائر بني مزغناي[٧]

---

(١) الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٤٥

(٢) السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص٥٢

(٣) الحميري، المصدر السابق، ص ٩٧

(٤) الحميري، نفسه، ص ٧٨

(٥) نفسه، ص ٣٠

(٦) نفسه، ص ١١٧

(٧) جزائر بني مزغناي مدينة قديمة تقع على البحر، ويتصل بها فحص متيجة، ويطل عليها من الشرق إلى الغرب جزيرة سطفلة، وكانت بها كنيسة عظيمة فيها عجائب من البنيان، ومرساها مأمون شتوي وفيه عين عذبة يقصدها أصحاب السفن. البكري، المسالك والممالك، ص٢٦٨، مؤلف مجهول كان حيًا في القرن السادس الهجري/١٢م ، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ص١٣٢

ويشير إلى أن مدينة شلب البحر منها في الغرب على بعد ثلاثة أميال وأن لها مرسى في الوادي[١] وأفادنا الحميري بوجود مراسٍ صيفية فقط، منها مرسى المرية المحيط بها من الشرق والغرب[٢] ومرسى المنكب، ويقع شرقها ويضيف الحميري أنه من هذا المرسى خرج الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس في سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م،وأشار إلى أن مرسى شلوبينية يقع بجوار مرسى المنكب من ناحية الشرق [٣] ويضيف أن مدينة ميرتلة شرق مدينة باجة، والقريبة من البحر لها مرسى يسمى هاشم [٤] ومدينة القصر تقع على ضفة النهر الكبير وهو نهر تصعد منه السفن،وشلطيش مرفأ للسفن وركاب البحر، ومرساها هاديء ومأمون يكن من كل ريح، وهي كثيرة السفن. وشنتمرية الغرب بها المراكب واردة وصادرة [٥]

د- مظاهر العلاقات التجارية الداخلية والخارجية:

شعر المسلمون في الأندلس أن لديهم جميع ما يحتاجون إليه من مقومات التجارة الداخلية والخارجية، ولذا فتحوا الباب واسعًا لتصدير وجلب السلع والمواد الأولية المهمة اللازمة لبناء اقتصاد قوي يقوم على إمكاناتهم البحرية [٦]

---

(١) الحميري، الروض المعطار ، ص ٣٤٢

(٢) الحميري، المصدر السابق ، ص ٥٣٧

(٣) الحميري، نفسه، ص ٥٤٨

(٤) نفسه، ص ٥٦٩

(٥) نفسه، ص ٣٤٤-٣٤٧-٤٧٦

(٦) أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص٢٤٩، أوليفيا ريمي كونستابل، التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط٢، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص١٠٦٧

وألمح الحميري إلى بعض العلاقات التجارية، سواء بين بعض المدن الأندلسية وبعضها،أم بين بلدان الأندلس وبلدان البحر المتوسط والمشرق، ومن ذلك إشارته إلى مدينة ليون وأن بها معاملات وتجارات ومكاسب ولأهلها همة ونفاسة [(١)] ومدينة ويبورة وأن التجارات إليها داخلة وخارجة[(٢)]،ومدينة قلب قاعدة مورور،التي بها سوق يرده الناس بضروب المتاجر[(٣)]،وبجانة التي كانت الميرة تجلب إليها من العدوة المغربية وضروب المرافق و التجارات، التي من أهمها طرز الحرير، وبها متاجر أخرى رائجة[(٤)]،وبياسة مدينة ذات أسواق ومتاجر[(٥)] والزاهرة قامت فيها الأسواق وكثرت الأرزاق[(٦)] وطليطلة آهله بالأسواق والباعة[(٧)]

أما بالنسبة للتجارة الخارجية فتأتي على رأسها تجارة زيت الزيتون الإشبيلي الشهير، وهو من أطيب الزيوت كثير الزيادة عند العصر لا يتغير على طول الدهر، ومن إشبيلية يتجهز به إلى أقصى المشارق والمغارب برًا وبحرًا، ويحصلون عليه خاصة من إقليم الشرف، ومن المرجح أن تلك التجارة كانت سببًا رئيسًا للثراء الذي تمتع به تجار الزيت بإشبيلية [(٨)]

---

(١)الحميري، الروض المعطار ، ص ٥١٤

(٢)الحميري، المصدر السابق ، ص ٦١٦

(٣) الحميري، نفسه، ص ٤٦٩، إبراهيم عبد المنعم سلامة، التاريخ السياسي والحضاري لكورة موروروالأندلسية منذ الفتح حتى نهاية عصر الدولة الأموية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١٣م، ص١٣٠-١٣٦

(٤) نفسه، ص ٧٨-٧٩

(٥) نفسه، ص ١٢١

(٦) نفسه، ص ٢٨٣

(٧) نفسه، ص ٣٩٥

(٨) نفسه، ص ٥٩ – ٣٣٩ ٣٤٠، PEDRO MARTINEZ, *Islam Y Cristianidad en la economia mediterranea*, Moscu, 1970, P.10

ومن الصادرات الأندلسية أيضًا التين المالقي الذي ذاع صيته في المشرق والمغرب على السواء؛ إذ كان يجفف، ويحمل إلى مصر والشام والعراق[١]وكذلك حرير كورة إلبيرة(غرناطة) وكتانها الذي انتشر في جميع البلدان، والقطن الذي يتجهز به التجار إلى إفريقية وسجلماسة وماوالاها، وكذلك العصفر[٢].كذلك كانت المرية مدينة تجارية مزدهرة تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام، والتي لم يكن بالأندلس أكثر منها مالًا [٣].أما الغضار المذهب (الخزف) فكان يتجهز به من قلعة أيوب إلى كل الجهات كلها[٤] ونوع من الطفل أو التراب المأكول – كما يسميه الحميري – كان يصدر من قرية مغام إلى مصر والشام والعراق[٥]علاوة على ورق شاطبة المعروف بالكاغد الذي يعم المشارق والمغارب [٦]،والحلفاء الذي يستخدم في صناعة الحصرمن لقنت،تصدره إلى بلدان البحر المتوسط جميعًا [٧] ومعادن لورقة التي تحمل إلي كثير من الأقطار[٨]

---

(١)الحميري، الروض المعطار ، ص ٥١٧

(٢)الحميري، المصدر السابق ، ص ٥٩

(٣)الحميري، المصدر نفسه، ص ٥٣٧

(٤) نفسه، ص ٤٦٩

(٥) نفسه، ص ٣٩٣

(٦) نفسه، ص ٣٣٧

(٧) نفسه، ص ٥١١

(٨) نفسه، ص ٥١٢

الخاتمة وأهم النتائج:

١- اهتم المسلمون في الأندلس مثل المشرق الإسلامي بجميع أنواع العلوم، ومنها علم الجغرافية، فظهر فيهم العديد من الجغرافيين والرحالة، الذين كتبوا في وصف البلدان والأقاليم والجزر التي في جميع أرجاء المعمورة.

٢- تعددت الآراء حول سنة وفاة الحميري وتوصل الباحث أن الوفاة حدثت سنة ٧٢٧هـ

٣- يعد كتاب الروض المعطار للحميري من أهم المعاجم الجغرافية العربية التراثية وهو يماثل كتاب معجم البلدان في المشرق لياقوت الحموي.

٤- تبين من خلال هذا البحث أن ثقافة الحميري وبراعته في كتابة-أو نقل- الأحداث التاريخية المختلفة، أنه ضليعًا في الحديث واللغة.

٥- اتضحت كذلك أهمية المعاجم الجغرافية ليس في المعلومات الجغرافية فحسب بل أيضًا في ذكر بعض الأحداث التاريخية المتعلقة بالمواضع والمدن والبلدان.

٦- ومن خلال البحث تبين لنا تنوع مصادر كتاب الروض المعطار؛فالحميري من جغرافي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وهو ينقل عن مصادر تاريخية وجغرفية وأدبية متنوعة.

٧- عندما يتناول الحميري الأحداث التاريخية، لا يعدو تناوله أن يكون تكرارًا لما عند كثير من المؤرخين السابقين، سواءً الذين عاصروا تلك الاحداث التاريخية أم الذين نقلوا عن آخرين.

٨- قسم الأندلس من كتاب الروض المعطار للحميري زاخر بمعلومات حضارية قيمة، وثيقة الصلة بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والعمران، وقد صنع الحميري نادرة جغرافية رائعة تمتاز بالوضوح والسلاسة وسهولة اللغة، والتي تمكن الباحث من أن يتبين آثار الاقتصاد في الجوانب الاجتماعية والعكس.

٩- التزم الحميري فيما أورده بالدقة العلمية، وتجنب المبالغات والأساطير، وبرع في رصد الصفات الأخلاقية المميزة لأهالي المدن والقرى الأندلسية، سواء من الخاصة و العوام، حتى إن الباحث يستطيع القول إن عناية الحميري بهذا الجانب تعدل عنايته بالمنشآت الحضارية المادية.

الخرائط

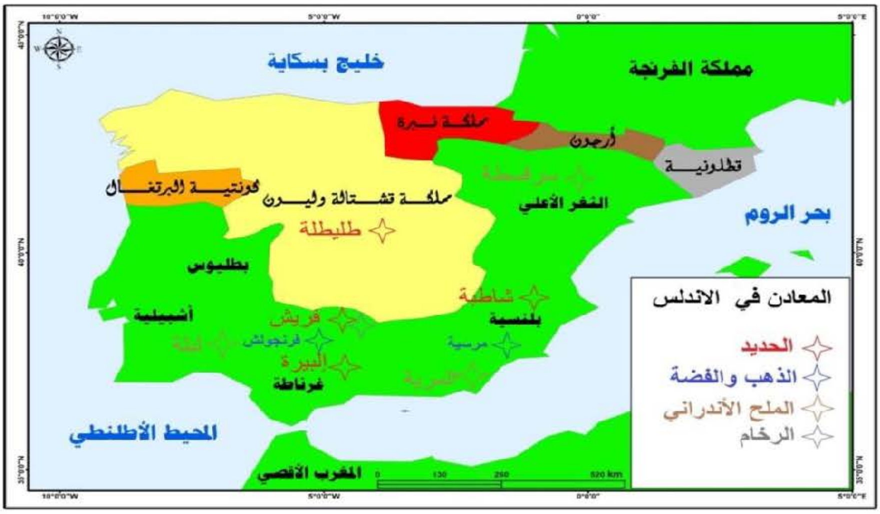

خريطة (١)عن المعادن في الاندلس (من عمل الباحث اعتمادا على ما ورد في كتاب الروض المعطار للحميري)

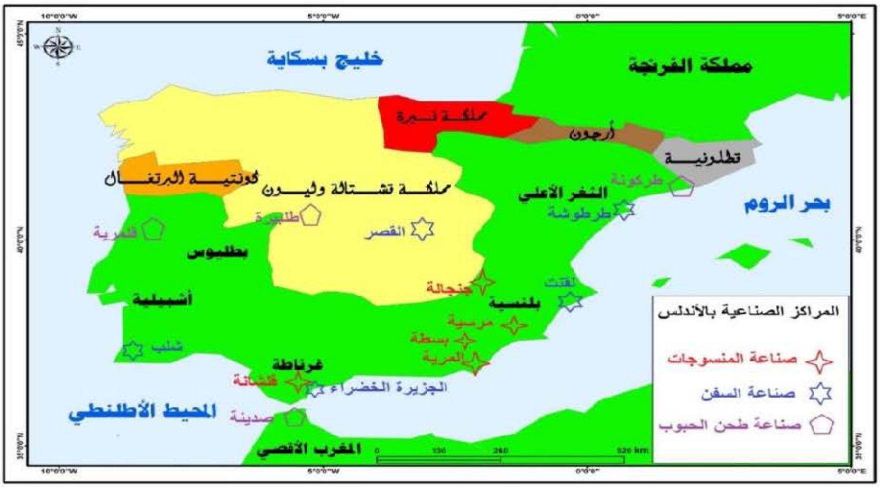

خريطة (٢)عن المراكز الصناعية في الأندلس (من عمل الباحث اعتمادا على ما ورد في كتاب الروض المعطار للحميري)

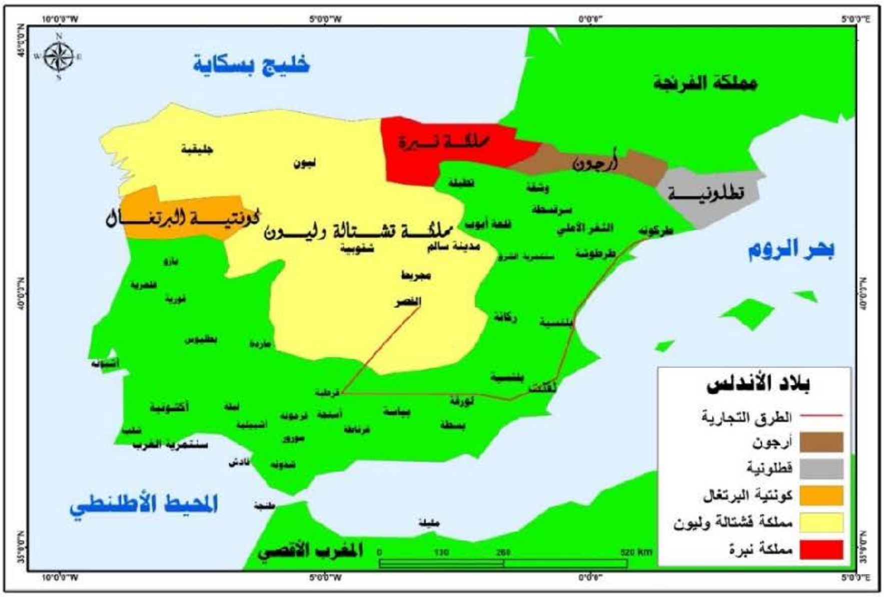

خريطة (٣)عن الطرق التجارية في الاندلس (من عمل الباحث اعتمادا على ما ورد في كتاب الروض المعطار للحميري)

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن الأبار(ت ٦٥٨)،الحلة السيراء، ط١،حققه د. حسين مؤنس، القاهرة،١٩٦٣م.

٢- البكري(ت٤٨٧هـ)،ط١، تحقيق د.جمال طلبة،دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.

٣- ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية،ط١،دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٩٢م.

٤- حاجي خليفة(ت١٠٦٧هـ) كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، منشورات مكتبة المثنى،بغداد،١٩٠٠م.

٥- ابن حجرالعسقلاني(ت ٨٥٢هـ) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار احياء التراث العربي، بيروت،د.ت.

٦- ابن حزم(ت ٤٥٦هـ)، جمهرة أنساب العرب،ط٥، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٢م.

٧- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣.

٨- الحميدي(ت ٤٨٨هـ)،جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت،١٩٨٩

٩- الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٤

١٠- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار،ط٢، تحقيق ونشر ليفي بروفنسال،دار الجيل، بيروت،١٩٨٨م.

١١- ابن الخطيب،(ت ٧٧٦ هـ)الإحاطة في أخبار غرناطة , تحقيق: يوسف علي طويل،دار الكتب العلمية،بيروت،٢٠٠٣ م.

١٢- أبي الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، ط١،تحقيق محمد العربي الخطابي،دار الغرب الإسلامي،١٩٩٥م.

١٣- الإدريسي(ت ٥٦٠هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،د.ت.

١٤- ابن أبي زرع(ت٧٤١هـ)الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب ومدينة فاس،دار المنصور للوراقة والطباعة، الرباط،١٩٧٢م.

١٥- الزركلي،الإعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين،ط٣،دار العلم للملايين،بيروت،١٩٨٤م.

١٦- الزهري(ت٥٤١هـ)،كتاب الجغرافية،تحقيق محمد حاج صادق،مكتبة الثقافة الدينية،د.ت.

١٧- ابن الشباط، وصف الأندلس،قطعة من كتاب صلة السمط وسمة المرط، تقديم أحمد مختار العبادي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية،مدريد،ج٤، ١٩٦٨،١٩٦٧م.

١٨- العذري(ت٤٧٨هـ)،نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار

والبستان في غرائب البلدان و المسالك إلى جميع الممالك، تحقيق د. عبد العزيز الأهواني، مدريد، ١٩٦٥م.

١٩- العمري (ت٧٤٩هـ) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،دار الكتب العلمية،بيروت،د.ت.

٢٠- ابن غالب(من أهل القرن السادس)، نص أندلسي جديد، قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، تحقيق لطفي عبد البديع،مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول،١٩٥٥م.

٢١- الفارابي(ت٣٥٠هـ)،معجم ديوان الأدب، تحقيق د.أحمد مختار عمر،د.ابراهيم أنيس،مؤسسة دار الشعب،القاهرة،١٩٧٤م.

٢٢- القزويني(ت٦٨٢هـ)،عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، ط١،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،بيروت،٢٠٠٠م.

٢٣- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠ م.

٢٤- القلقشندي(ت٨٢١هـ) القلقشندي(ت٨٢١هـ)، صبح الأعشي في صناعة الإنشا،دار الكتب الخديوية، القاهرة،١٩١٥م.

٢٥- ابن الكردبوس،تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية في مدريد،١٩٧١م.

٢٦- المركشي(ت٦٤٧هـ)،المعجب في تلخيص أخبار المغرب،ط١،المطبعة الجمالية بحارةالروم،مصر،١٩١٤م.

٢٧- أبو المطرف المخزومي(ت٦٥٨هـ) بغية المستطرف وغنية التطرف (رسائل ابن عميرة) تحقيق محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١م.

٢٨- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،ط٤، مكتبة الشروق الدولية القاهرة،٢٠٠٤م.

٢٩- المقري(ت١٠٤١هـ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس،دار صادر، بيروت،١٩٨٨م.

٣٠- مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوبايه، دار الكتب العلمية،٢٠٠٩م.

٣١- مؤلف مجهول(كان حيًا في القرن السادس الهجري/١٢م)، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء،١٩٨٥م.

٣٢- مؤلف مجهول، مفاخر البربر، نشر وتصحيح ليفي بروفنسال، الرباط،١٩٣٤م.

٣٣- ابن منظور(محمد بن مكرم بن علي(ت٧١١هـ)،لسان العرب،دار المعارف،القاهرة،د.ت.

٣٤- ابن هانئ السبتي(ت٧٣٣هـ)إيضاح المسالك في شرح تسهيل ابن مالك،تحقيق مهدي بن حسين بن علي ذيب مباركي،دار الكتب العلمية،بيروت،د.ت.

٣٥- ابن الوردي(ت٨٦١هـ)،خريدة العجائب وفريدة الغرائب،ط١،تحقيق أنور محمود

زناتي،مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،٢٠٠٨م.
٣٦- ياقوت الحموي(ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان،دار صادر،بيروت،١٩٧٧م.

المراجع العربية:

٣٧- إبراهيم عبد المنعم سلامة، التاريخ السياسي لمدينة استجة الأندلسية، مجلة المؤرخ العربي،٢٠٠٠م.
٣٨- إبراهيم عبد المنعم سلامة،التاريخ السياسي والحضاري لكورة موروراالأندلسية منذ الفتح حتى نهاية عصر الدولة الأموية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،٢٠١٣م.
٣٩- أحمد الطاهري، الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد، مركز الإسكندرية للكتاب،٢٠٠٤م.
٤٠- أحمد محمد الطوخي،مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر،مؤسسة شباب الجامعة،الأسكندرية،د.ت.
٤١- اسماعيل سامعي،تاريخ الاندلس الاقتصادي والاجتماعي، مركز الكتاب الأكاديمى،٢٠١٨م.
٤٢- السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية في الأندلس، دار النهضة، ١٩٧٢م.
٤٣- السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.
٤٤- السيد عبد العزيز سالم،تاريخ مدينة المرية الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية،١٩٨٤م.
٤٥- السيد عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس(العمارة المدنية)،مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٥م.
٤٦- السيد عبد العزيز سالم،أحمد مختار العبادي،تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس،دار النهضة العربية،بيروت، ١٩٦٩م.
٤٧- حسين مؤنس، فجر الأندلس،ط٢،دار المناهل، بيروت،٢٠٠٢م.
٤٨- حسين مؤنس،تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس،ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٦م.
٤٩- رضوان السيد،في الذاكرة إحسان عباس والتراث العربي، مجلة الدراسات الفلسطينية،المجلد ١٤،العدد٢٠٠٣م.
٥٠- سحر السيد عبد العزيز سالم،شاطبة الحصن الأمامي لشرق الأندلس في العصر الإسلامي،مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية،١٩٩٥م.
٥١- سحر السيد عبد العزيز سالم، مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري،موسسة شباب الجامعة،الأسكندرية،١٩٩٠م.

٥٢- سعيد بنحماده، الماء والإنسان فى الأندلس، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٧م.
٥٣- شريف عبد الرحمن جاه، لغز الماء فى الأندلس،ط١،ترجمة د.زينب بنياية،مراجعة د.أحمد إيبش،هيئة أبو ظبى للسياحة والثقافة،٢٠١٤م.
٥٤- عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة والفنون الاسلامية، ط١، جروس برس، بيروت ١٩٨٨م.
٥٥- عبد لله عنان، دولة الإسلام في الأندلس"دول الطوائف" ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة،١٩٩٧م.
٥٦- عز الدين على موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادي الهجري،ط١،دار الشروق،بيروت، القاهرة،١٩٨٣م.
٥٧- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي،ط٤، دار العلم للملايين،بيروت،١٩٨١م.
٥٨- كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصري دولتي المرابطين والموحدين،مركز الإسكندرية للكتاب،١٩٩٦م.
٥٩- كمال أبو مصطفى، بنو رزين ودورهم السياسي والحضاري في شنتمرية الشرق، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية- العددالخامس والثلاثون لسنة ١٩٨٧م.
٦٠- محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار الأنصار،القاهرة،د.ت.
٦١- محمد عبد الله عنان،الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال،القاهرة، مطبعة مصر،١٩٥٦م.
٦٢- محمد الفاسي، الأعلام الجغرافية الأندلسية،مجلة البينة،السنة الأولي،العدد الثالث،المغرب ١٩٦٢م.
٦٣- منير البعلبكي، موسوعة المورد،ط٢، دار العلم للملايين،بيروت،د.ت.
٦٤- نسيبة الحريري،المقاييس والمقادير عند العرب،دار الفضيلة للنشر،القاهرة،د.ت.

المراجع المعربة:

٦٥- أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط،ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة.
٦٦- انخل جنثالث بالنثيا،تاريخ الفكر الأندلسي،ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية،دت.
٦٧- أوليفيا ريمي كونستابل،التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط٢،تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،

٦٨- فالتر هنتيس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمه عن الألمانية، الدكتور كامل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية،عمان،١٩٧٠م.
٦٩- كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلا ح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة، مصر، ١٩٥٧ م.
٧٠- ليوبولدو توريس بالباس؛المدن الإسبانية الاسلامية،ترجمه من الإسبانية اليو دورو دي لابنيا؛راجعه نادية محمد جمال الدين، عبد الله بن ابراهيم العمير،مركزالملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية،٢٠٠٣م.

الرسائل العلمية:

٧١- افراح نازك عبد الرحمن، اطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات الماجستير في التاريخ بكلية الدراسات العليا –جامعة النجاح الوطنية نابلس،فلسطين ٢٠١٣م.
٧٢- بارق سعدون عزيز، اطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات الماجستير في التاريخ الإسلامي كلية التربية – جامعة ديالي-٢٠١٣م.
٧٣- صباح خابط عزيز سعيد، إشكالية وفاة محمد بن عبد المنعم الحميري،حوليات آداب عين شمس، المجلد٤٦، عدد أكتوبر- ديسمبر،٢٠١٨م.

المراجع الأجنبية:

74- Capitulo VIII, RECUERO ASTRAY, MANUEL, *Extremum la Frontera*, Edicios do Castro, Narrativa
75- IMAMUDDIN, *The Economic history of Spain under the ummaydes*, Dacca, 1963
76- MARTIN TARDIO, *Juan Jesus, Los Señorios de Mocejon* (Toledo), 1997
77- PEDRO CHALMETA, *El senor del zoco en Espana*,Madrid,1973
78- PONS BOIGES: *Historiadores geografos arabigo –espanoles*, Madrid,1898
79- PEDRO MARTINEZ, *Islam Y Cristianidad en la economia mediterranea*, Moscu, 1970

المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ٣٥٧ - ٤١١

مُؤَسَّسَاتُ ضَبْطِ الحُدُودِ القشْتاليَّةِ مَعَ غَرْناطَةَ فِي القَرْنَيْنِ الثَّامِنِ والتَّاسِعِ الهِجْرِيَّيْنَ / الرَّابع عَشَرَ والخَامِس عَشَرَ الميلَادِيَّيْنِ

أميرة الطواب أحمد سفين(*)

ملخص

يتناول هذا البحث المؤسسات الحدودية بين مملكة قشتالة ومملكة غرناطة والمنوط بها حفظ الأمن والسلام على الحدود المشتركة بين الجانبين في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ودور المملكتين في تفعيل هذه المؤسسات وتفصيل مهامها في اتفاقيات السلام المبرمة بينهما، وفرض العقوبات على اللصوص والمغاورين والمنتهكين لشروط الهدنة، كما يوضح طريقة عمل قضاة الحدود بين المسلمين والمسيحيين كأهم مؤسسة حدودية بين الجانبين، ودورها في حل المشكلات، والمحافظة على استمرارية السلام بين المملكتين.

يتطرق البحث أيضًا إلى دور جهاز شرطة الحدود في تتبع المجرمين وتسليمهم لقضاة الحدود لتوقيع العقوبات عليهم، ودور القضاة المسؤولين عن ضبط عمليات التهريب وقمعها، كتهريب المنتجات المحظور تصديرها من قشتالة إلى غرناطة وعلى رأسها الخيول والماشية والقمح، وأنواع العقوبات المفروضة على هؤلاء المهربين، وأخيرًا يعرض البحث لوظيفة الفَكَّاك ودوره على الحدود بين الجانبين في عمليات افتداء الأسرى خلال فترات السلم، ومدى

(*) مدرس بكلية الآداب – جامعة الزقازيق.

كفاءة هذه المؤسسات في الحفاظ على أمن وسلامة الحدود بين قشتالة وغرناطة.

الكلمات المفتاحية: غرناطة- قشتالة- قاضي الحدود- العمدة- شرطة الحدود- التهريب- الفَكَّاك

Abstract

This research deals with the border institutions between the Kingdom of Castile and the Kingdom of Granada, which are entrusted with maintaining security and peace on the common borders between the two sides in the eighth and ninth centuries AH, the fourteenth and fifteenth centuries AD, and the role of the two kingdoms in activating these institutions and detailing their tasks in the peace agreements concluded between them, and imposing penalties on thieves And the border guards and violators of the terms of the armistice, as well as the way border judges work between Muslims and Christians as the most important border institution between the two sides, and its role in resolving problems and maintaining the continuity of peace between the two kingdoms.

The research also deals with the role of the border police in tracking criminals and handing them over to border judges to impose penalties on them, and the role of judges responsible for controlling and suppressing smuggling operations, such as smuggling prohibited products from Castile to Granada, especially horses, cattle and wheat, and the types of penalties imposed on these smugglers, and finally presents The search for the function of al-Fakkak and his role on the borders between the two sides in the operations of ransoming prisoners during periods of peace, and the extent of the efficiency of these institutions in maintaining the security and safety of the borders between Castile and Granada.

Keywords: Granada - Castile - border judge - mayor - border police - smuggling - loose

المقدمة:

عُرفت المناطق الحدودية الفاصلة بين أراضي المسلمين وأراضي العدو في الأندلس بـ"الثغور"، وهو ما يلي دار الحرب من المدن والحصون، ووجدت في الأندلس ثلاثة ثغور أندلسية، تقع على حدودها مع الممالك المسيحية، هما الثغر الأعلى(١)، والثغر الأوسط(٢)، والثغر الأدنى(٣)، واختلفت قواعد هذه الثغور بين مد وجزر من وقت لأخر حسب الصراع الإسلامي المسيحي؛ واهتم الحكام الأندلسيون بهذه المناطق اهتمامًا كبيرًا، فحرصوا على اختيار ولاة للمناطق الثغرية عرفوا بـ "عمال الثغور"، ثم تطور الأمر في عصر الخلافة الأموية فأصبح للثغور وزيرًا في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) يعرف بـ "وزير الثغور"، كذلك اعتمدت الدولة الأموية على سياسة تولية الأسر المشهورة والمعروفة بولائها لهم في إدارتها، وعقدت لهم السجلات بولاية الحصون والقرى،

---

(١) الثغر الأعلى (الثغر الأقصى) وعاصمته مدينة سرقسطة Zaragoza، ويواجه مملكة نبرة (نافار) Navarra، المقري (أحمد بن محمد المقري التلمساني ت ١٠٤١هـ / ١٦٣٣م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بين الخطيب، المجلد الأول، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٦٨م، ص١٦١؛ عبدالرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ/٧١١-١٤٩٢م، دار القلم دمشق، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٤م، ص٣٨.

(٢) الثغر الأوسط: عاصمته مدينة سالم Medinaceli، ثم حلت محلها مدينة طليطلة Toledo، ويواجه مملكتي قشتالةCastella وليون Leon، المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٦١، عبدالرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي، ص٣٨.

(٣) الثغر الأدنى: ويقع بين نهري دويره وتاجه، كانت عاصمته أولًا طليطلة، ثم حلت محلها مدينة قورية Coria، المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٦١؛ عبدالرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي، ص٣٨.

مما أدى إلى استقرار المناطق الحدودية بين الأندلس والممالك المسيحية.[(١)]

حظيت الحدود بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس باهتمام كبير من كلا الجانبين الإسلامي والمسيحي، وظل الحال كذلك حتى بعد أن أصبحت مملكة غرناطة هي آخر ما تبقى للمسلمين في الأندلس، وكانت الحدود الفاصلة بين غرناطة وقشتالة عبارة عن مساحة جغرافية واسعة يصعب تحديدها بشكل دقيق، هذه المنطقة الواسعة كانت شبه خالية من السكان؛ وعلى المستويات المحلية، كانت كل بلدة أو قلعة أو قرية تعرف تمامًا أين تنتهي ولاية أراضيها وأين تبدأ ولاية أقرب جار على الجانب الآخر من الحدود، كذلك ساهمت الأنهار، والجبال، والوديان في وجود حدود طبيعية بين المملكتين[(٢)]، والراجح أن هذه المنطقة الحدودية الفاصلة بين المملكتين امتدت من مدينة لورقة Lorca [(٣)] إلى مدينة

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الثغور الأندلسية انظر: ابن عذاري المراكشي(أبو العباس أحمد بن محمد ت ٧١٢هـ/١٣١٢م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الثاني، تحقيق ج.س كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٧٩؛ حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م؛ هبة محمد عبدالموجود محمد: الثغور الأندلسية منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس (٩٢-٤٢٢هـ/٧١١-١٠٣١م)، صفحات للدراسات والنشر والتوزيع؛ أميرة بنت أحمد الجعفري: سياسة الدولة الأموية في إدارة الثغور الأندلسية (١٢٨-٤٢٢هـ/٧٥٦-١٠٣١) مجلة المؤرخ العربي، المجلد ١٤، العدد ١٤، ٢٠٠٦.

(٢) MANUEL GARCIA FERNANDEZ; "La Frontera de Granada A Mediados del Siglo XIV", *Revista de Estudios Andaluces*, n. 9 ,1987, p. 70.

(٣) لورقة: إحدى مدن كورة تدمير، بينها وبين مرسية نحو ستين كيلوا مترا، وتقع على جبل مرتفع، ولذا كانت تعتبر قلعة مدينة مرسية في الحروب التي تنشب بين المسلمين والمسيحيين، وقد سقطت في يد الإسبان عقب سقوط مرسية في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، أنظر: الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبدالمنعم الحميري ت أواخر القرن ٩هـ/١٥م): الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، =

طريف Tarifa؛ وكان على طول هذا الخط الحدودي مجموعة من المدن والحصون والقلاع والأبراج والتي وضعها كلا الجانبين لتأمين هذه المناطق من اعتداءات الطرف الآخر، أهم هذه المدن الحدودية قادس Cádiz، وإشبيلية Sevilla، وقرطبة Córdoba وجيان Jaén، ومرسية Murcia، ولكن برغم الأوضاع الحدودية السيئة في كثير من الأحيان، إلا أنه كان هناك نوع من أنواع التعايش والسلام بين الجانبين، ولكن كان من المستحيل استمرار هذا التعايش؛ بسبب أيديولوجية الاسترداد التي عبأ بها النصارى لقرون طويلة، فمن وجهة النظر القشتالية، لم تكن حدود غرناطة شبيهة بالحدود التي تفصلهم عن أي مملكة مسيحية أخرى، باعتبارها حدود مؤقتة غير قانونية، ويمكن تغييرها في أي وقت، لذلك كانت الحدود الفاصلة بين المملكتين مختلفة من حين لآخر، بسبب السقوط المتتالي للمدن والحصون الغرناطية في أيدي قشتالة.(١)

وقد انفردت المدرسة الإسبانية بالعديد من الدراسات التي اهتمت بدراسة

= بيروت، ١٩٧٥م، ص٥١٢؛ ابن الخطيب: معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، ضمن مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٣م ص٨٦.

(١) JOSE RODRIGUEZ MOLINA; "Relaciones Pacificas en la Frontera con El Reino de Granada", Universidad de Granada, , *Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos, n.º 46*, 1997, p.258-259; MANUEL GONZÁLEZ Jiménez; "La frontera de Granada", *Tres siglos de paz y de guerra, Murgetana*, Nº. 130, 2014, p. 19-20.

ولمزيد من التفاصيل عن شكل الحدود الفاصلة بين قشتالة وغرناطة أنظر:

DIEGO MELO CARRASCO; "Un modelo para la resolución de conflictos elaboración y estudio de un corpus internacionales entre islam y cristiandad". documental de los tratados de paz y tregua entre Al-andalus y los reinos cristianos (*Reino Nazarí de Granada con Castilla y Aragón, siglos XIII-XV*) Salamanca, 2012., P. 235-239.

الحدود بين مملكتي غرناطة وقشتالة، والتي أفادت البحث كثيرًا، نظرًا لعدم وجود مصادر أو دراسات عربية تتناول هذا الجانب، أهم هذه الدراسات، دراسة المؤرخ لويس سيكو دي لوثينا Luis Seco de Lucena عن "قاضي الحدود"(١)، ودراسة المؤرخ خوان توريس فونتس Juan Torres Fontes عن " القاضي بين المسلمين والمسيحيين في مدينة مرسية" (٢) وهما من أهم الدراسات التي تتناول منصب قاضي الحدود؛ وأما دراسات مانويل جارثيا فرنانديز Manuel Garcia Fernandez (٣) عن حدود مملكة غرناطة فتعرفت منها على عدد من الهجمات التي قام بها المغاورين على الحدود بين قشتالة وغرناطة؛ وأما دراسة ماريا خيسوس فيغيرا Maria Jesus Viguera عن " الحرب والسلام على حدود مملكة بني نصر من خلال المصادر العربية"(٤) فهي من الدراسات الهامة التي عرضت لمنصب القاضي بين الحدود من خلال ممارسة ابن مرزوق وزير السلطان أبو الحسن المريني هذا المنصب كقاضي للحدود في المنطقة الأندلسية التي يسيطر عليها بنو مرين عام ١٣٤٨/٧٤٩م.

---

(١) LUIS SECO DE LUCENA PAREDES; "El juez de frontera y los fieles del rastro", *en esta Miscelánea, vol. VII* (1958).

(٢) JUAN TORRES FONTES: "El Alcalde entre moros y cristianos del reino de Murcia", *Consejo Superior* de *Investigaciones Científicas*,Instituto, *Jerónimo Zurita*, de Hispania, 1960, número LXXVIII.

(٣) MANUEL GARCIA FERNANDEZ; "La Frontera de Granada A Mediados del Siglo XIV", *Revista de Estudios Andaluces*, n. 9 ,1987; "Sobre la alteridad en la frontera de Granada. Una aproximacion al analisis de la guerra y la paz, siglos XIII-XV", *Revista da Faculdade de Letras HIST0RIA Porto*, III Serie, vol. 6, 2005.

(٤) MARIA JESUS VIGUERA MOLINS; "Guerra y la Paz en la Frontera Nazari desde las Fuentes Árabes", *Actas del Congreso la Frontera Oriental Nazarí como Sujeto Histórico (S.XIII-XVI): Lorca-Vera, 22 a 24 de noviembre de 1994*, coord. por PEDRO SEGURA ARTERO, 1997

أما المؤرخ كراسكو Diego Melo Carrasco فأفادت دراساته للمعاهدات المبرمة بين غرناطة وقشتالة البحث، خاصة دراسته عن "معاهدات السلام بين الأندلس والممالك المسيحية قشتالة وأراغون"(١)، ودراسة أخرى عن "المعاهدات بين غرناطة وقشتالة من القرن ١٣- ١٥م"(٢)، ودراسته الأخرى عن "سلطنة غرناطة والحدود من القرن ١٣-١٥م"(٣)، حيث تناول كراسكو في هذه الدراسات شكل الحدود الفاصلة بين غرناطة وقشتالة وتطور شكل ومفهوم الحدود، من استخدام كلمة "ثغر" في البداية للتعبير عن الحدود الفاصلة بين أراضي المسلمين والمسحيين، ثم التطور في استخدام لفظ "الفرنتيرة" للإشارة أيضًا للحدود الفاصلة بين غرناطة وقشتالة، والمشتقة من الكلمة الإسبانية frontera بمعنى الحدود، وعرض كراسكو من خلال هذه المعاهدات لبعض البنود الخاصة بالمنطقة الحدودية بين المملكتين.

من هذه المعلومات الهامة والقيمة التي قدمتها هذه الدراسات جاءت فكرة البحث عن " مؤسسات ضبط الحدود القشتالية مع غرناطة في القرنين الثامن والتاسع الهجرين، الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين"، والتي سأعرض فيها لأهم هذه المؤسسات الحدودية وأهم من تقلد هذه المناصب على الجانبين، ودور هذه المؤسسات في حفظ السلام بين المملكتين، من خلال عرض بعض الحوادث والمشكلات الحدودية وكيف عملت هذه المؤسسات على حلها، وأهم المهام التي كُلفت بها.

أما الفترة الزمنية للبحث فكانت" القرنين الثامن والتاسع الهجريين، الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين"، وهي الفترة التي شهدت ميلاد بعض هذه المؤسسات وظهورها لأول مرة كما سيتضح من خلال البحث؛ حيث تباينت العلاقات بين مملكة غرناطة ومملكة قشتالة خلال تلك الفترة الزمنية ما بين فترات

---

(١) DIEGO MELO CARRASCO; "Un modelo para la resolución de conflictos internacionales entre islam y cristiandad". elaboración y estudio de un corpus.

(٢) "Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV", *Revista de Estudios Histórico-Jurídicos, Sección Historia del Derecho Español, XXXIV* Valparaíso, Chile, 2012.

(٣) "El sultanato Nazarí de Granada y la frontera (S. XIII-XV)", *Revista ncrucijada Americana,* Año 11 N°2, 2019.

حرب وعداء، وفترات سلم واتفاق، تنظم شكل العلاقات بين الجانبين، وقد شملت المعاهدات المبرمة بين الجانبين، وقف وتعليق الأعمال العدائية، لإتاحة الفرصة لاستتباب الأمن الداخلي، والقضاء على بعض المشكلات أو الثورات الداخلية لدى الجانبين، أو حتى لالتقاط الأنفاس وتعبئة القوة العسكرية، وكان من نتائج هذه المعاهدات المحافظة على فترات الهدنة، وإقامة روابط حدودية بين الجانبين، وتنظيم الحياة اليومية على الحدود؛ كما أتاحت ممارسة الأنشطة الاقتصادية، والتفاعل الاجتماعي على طول الحدود، فكانت الهدنة دائمًا أكثر من مجرد إعلان رسمي بوقف الأعمال العدائية، بل كانت فرصة لإعادة التواصل بين الجانبين، لأنه بمجرد عقد الهدنة تعود الأوضاع على الحدود إلى طبيعتها، وعلى الرغم من كثرة المعاهدات وفترات السلم التي تمت بين مملكة غرناطة ومملكة قشتالة، فإن المحافظة على تحقيق هذا السلم واستمراره كان أمرًا صعبًا في أحيان كثيرة،؛ لأن المناطق الحدودية بين المملكتين كانت دائمًا مناطق ملتهبة، شاعت فيها عمليات السطو والنهب والتخريب، ووفقًا لوصف مانويل غارسيا فرنانديز فإن الهدنة بين غرناطة وقشتالة " لا يمكن أن تكون سلامًا مطلقًا على حدود كان من المقرر أن تختفي في أي لحظة"[١]، لذلك كانت المناطق الحدودية مكانًا خصبًا لقيام اللصوص والمغاورين (Almogávares)[٢] بالعديد من الهجمات المتكررة، بهدف

---

(١) MANUEL GARCIA FERNANDEZ; *La Frontera de Granada A Mediados del Siglo XIV*, p.78.

(٢) المغاورون Almogávares: من الكلمة العربية المغاورون، وانتقلت كلمة المغاور بلفظها ومعناها إلى اللغة الإسبانية باسم Almogávar، وكانت تطلق على وحدات خفيفة من المشاة تشن الغارة على حدود العدو، وتطلق كذلك على قرصان البحر، وقد انتقل نظام المغاورة بلفظه ومعناه إلى طائفة من الجيوش القطلانية والأراغونية في شمال شرق إسبانيا، حيث شاع هذا المصطلح في مملكة أرغون على عهد الملك جيمس الأول (ت١٢٧٦م)، وهم فئة من الجنود النظاميين الذين يعيشون على المغانم وتأليف عصابات قطاعي طرق تخطف المسلمين، وقد بلغ عددهم في لقنت أكثر من ثمانية آلاف شخص مهمتهم الإغارة على المدن والقرى الإسلامية القريبة فينهبون البيوت دون رادع؛ وانتشر نظام المغاورة أيضًا في فرنسا ونال شهرة شعبية واسعة في أوربا نافس بها نظام الفرسان والفروسية الإقطاعية التي كانت عماد الجيوش في ذلك الوقت؛ أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، الطبعة الأولى ١٩٦٨م، ص٣٧١؛ أحمد مختار العبادي: صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، ص٢٥٥.

السرقة والخطف، وترصد الأحداث هجماتهم وما قاموا به من أعمال عنف، ترتب عليها كم هائل من الشكاوى نتيجة كسر الهدنة بين الجانبين.

وكانت الحوادث الأكثر تكرارًا على الحدود هي الغارات الليلية بهدف السرقة والأسر والعودة بسرعة إلى أماكنهم مع المسروقات التي تم الاستيلاء عليها، حدث هذا في معظم المدن الحدودية، حيث تمتلئ سجلات هذه المدن بأخبار من هذا النوع، عن حوادث مسلحة بين المسيحيين والمسلمين؛ والتي لا بد أنها أثارت حالة من انعدام الأمن والتوتر شبه الدائم على الحدود، ففي خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي شهدت حدود مدينة غرناطة مع مدينة مرسية على وجه التحديد، العديد من حوادث الاختراق سواء من قبل قوات مرسية القشتالية أو قوات غرناطة، بحثًا عن المسروقات أو للحصول على بعض الأسرى؛ هذا على الرغم من معاهدة السلام بين المملكتين والتي وقعها الملك القشتالي إنريكي الثاني Enrique II (١٣٦٩-١٣٧٩م)، مع السلطان محمد الخامس الغني بالله أثناء ولايته الثانية[1] في عام٧٧٢هـ/١٣٧٠م

---

[1] تولى أبو عبد الله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر، المعروف بالغني بالله، الخلافة مرتين، الأولى بعد وفاة والده وعمره ستة عشر عامًا، فسيطر على شؤون دولته وزير أبيه الحاجب أبو النعيم رضوان، مع الوزير لسان الدين بن الخطيب، فاستقرت أمور دولته لمدة خمس سنوات، بعدها حدثت ثورة فقد فيها الغني بالله ملكه، ثم نجح بمساعدة ملك قشتالة بيدرو الأول(١٣٥٠-١٣٦٩م) باستعادة ملكه مره أخرى لتبدأ ولايته الثانية)٧٦٣- ٧٩٣هـ/١٣٦١-١٣٩٢م)، أنظر: ابن الخطيب (أبو عبد الله محمد بن عبد الله التلمساني ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م): الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٢، تحقيق محمد عبدالله عنان، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ، ص٢٦-٢٩؛ اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تصحيح ونشر محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٧هـ، ص١٢٠-١٢١؛ ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٤، ضبط خليل شحادة، ومراجعه سهير زكار، نشر دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٢٢٣-٢٢٤، ج٧، ص٤٠٥-٤٠٦؛
AHMAD MUJTAR Al-ABBADI: *El-Reino de Granada en la Épóca de Muhamad V*- Madrid, 1973,p. 28-32; RACHEL ARIÉ; *El Reino Nasri de Granada (1232-1492*) Madrid, 1992, P. 47.

لمدة ثماني سنوات، وبعد ذلك تم تجديدها لمدة عامين آخرين، والتي التزمت فيها غرناطة بدفع ٥٠٠٠ دوبلة[١] Doblas ذهب سنويًا[٢]؛ وقد أدان الملوك مثل هذه الاعتداءات، حيث لم يتردد محمد الخامس في إدانة الغرناطيين الذين قاموا باعتداءات أو هجمات حدودية ضد المسيحيين في أوقات السلم، كذلك أدان

---

(١) دوبلة Dobla: عملة موحدية سُكت في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور وهي الدينار الوافي (٢٤قيراطًا) ويسمى في الاصطلاح الإسباني دوبلة Dobla، نظرًا لأنه ضعف الدينار الموحدي، أنظر: دانيال أوسطاش: تاريخ النقود الإسلامية وموازينها في المشرق وبلاد المغرب، من البدايات الأولى إلى الآن، ترجمة محمد معتصم، نشر عمر أفا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم ١٤، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص٧٥؛ ودفع السلطان محمد الخامس هذه الأموال(٥٠٠٠ دوبلة) كجزية لقشتالة، والتي كانت أمرًا شائعًا منذ عهد السلطان محمد بن يوسف بن نصر الذي أراد عند تأسيس سلطنة غرناطة وضع حد للهجمات الإسبانية والاجتياح المسيحي لمدن الأندلس، فلم يجد سبيلًا إلا الاتفاق مع الملك القشتالي فرناندو الثالث Fernando III فعقد معه معاهدة جيان عام ٦٤٣هـ/١٢٤٦م التي بموجبها اعترف ابن الأحمر بتبعيته لملك قشتالة، فضلًا عن دفع الجزية المالية، من أجل أن تنعم غرناطة بالهدوء والاستقرار والعيش بسلام مع جيرانها؛ ويؤكد لنا ذلك ابن الخطيب بقوله " وفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة صالح طاغية الروم وعقد معه السلم الممتدة الأمد"؛ أنظر: ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٣٦؛ محمد بشير حسن العامري: تاريخ بلد الأندلس في العصر الإسلامي، ص٢٢٦؛ وأصبحت معظم الهدنات المشتقة من تبعية غرناطة لقشتالة طبقًا لاتفاقية جيان عام ١٢٤٦م، يفهمها المسيحيون على أنها علامة على خضوع غرناطة لقشتالة، والتي بناء عليها قاموا بدفع الجزية، في حين كان الأمر بالنسبة لمملكة غرناطة النصرية، لم يكن إلا علامة على حسن النية والتفاهم السلمي، أنظر:
MANUEL GARCIA FERNANDEZ; *Sobre la alteridad en la frontera de Granada*, p. 229-230; DIEGO MELO CARRASCO; *El sultanato Nazarí de Granada y la frontera* (S. XIII-XV), p. 14.

(٢) ISABEL MONTES ROMERO –CAMACHO; “Sevilla Y la Frontera de Granada durante el reinado de Enrique IV(1454 – 1474)”, *Relaciones exteriores del Reino de Granada: IV del Coloquio de Historia Medieval Andaluza / coord. por* CRISTINA SEGURA GRAIÑO, 1988, p. 138.

إنريكي الثاني Enrique II (١٣٦٩-١٣٧٩م) في مجموعة رسائل موجهة إلى مجلس مدينة قرطبة عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م نشاط المغاورين وهجمات الفرسان على حدود مدينة غرناطة، وتمت إدانتهم كمجرمين، لأنهم غالبًا ما يعرضون العلاقات السلمية مع غرناطة للخطر خلال أوقات الهدنة (١).

وفي سجلات مدينة جيان Jaén في عهد الملك إنريكي الرابع Enrique IV (١٤٥٤-١٤٧٤م)، كما في العديد من المدن الأندلسية الأخرى، هناك شواهد على وجود أفراد ومغامرين قاموا بالعديد من الأعمال العدائية ضد مسلمي غرناطة بهدف النهب وسرقة الماشية والحصول على الأسرى.(٢)

كما أدى طول الحدود بين مملكة غرناطة، ومملكة قشتالة إلى قلة عدد السكان على طول المناطق الحدودية، بل أصبح العديد من المناطق المجاورة لمملكة غرناطة شبه خال من السكان؛ حيث كانت الحصون والقلاع والأبراج الحدودية مناطق معرضة للهجمات في أي وقت، لذلك انتقل بعض سكان هذه المناطق من أماكنهم للعيش في أماكن أقل خطورة.(٣)

اقتضت الضرورة وجود آليات لمنع حدوث انتهاكات، وللحفاظ على السلم بين الجانبين، ممثلة في إنشاء سلسلة من المؤسسات الحدودية، كان منوطا بها حفظ الأمن والسلام بين قشتالة وغرناطة خلال فترات الهدنة؛ وكلما كان الوضع على الحدود معقدًا، بسبب تزايد أعمال العنف، كان لهذه المؤسسات حضور أوسع على الحدود، وسيكون لها وجود في نصوص المعاهدات بين الجانبين، مع وصف مفصل لمهامها؛ ومن أهم هذه المؤسسات الحدودية ما يلي:

---

(١) MANUEL GARCIA FERNANDEZ; *Sobre la alteridad en la frontera de Granada*, p. 227-228.

(٢) MANUEL GARCIA FERNANDEZ; *op.cit*, p. 227-228.

(٣) CARMEN PEREA CARPIO; "La frontera concejo de Jaén-Reino de Granada en 1476", *Cuadernos de Estudio Medievales*, Granada X-XI , 1983, p.232.

والخامس عشر الميلاديين، وظهرت في الاتفاقيات الثنائية بين الجانبين الإسلامي والمسيحي.(١)

ضمت المدن الحدودية بين الجانبين قضاة من الطرفين القشتالي والغرناطي؛ وتتحدث الوثائق عن وجود أربعة عمد أو قضاة قشتاليين على طول المدن الحدودية مع غرناطة، في قادس Cádiz، وإشبيلية Sevilla، وقرطبة Córdoba وجيان Jaén، ومرسية Murcia، وكذلك على الجانب الغرناطي(٢)؛ وساعد هؤلاء القضاة في تنفيذ أحكامهم شرطة خاصة بالحدود Fieles del rastro.(٣)

ومن الجدير بالذكر أن تعيين قضاة الحدود أو العُمد على الحدود لم يكن أمرًا خاصًا بين قشتالة وغرناطة فقط، بل كان على قضاة الحدود حفظ السلام بين مملكة قشتالة وغرناطة، وأراغون وغرناطة، وتم أيضًا استخدامه لحفظ الأمن والسلام بين الممالك المسيحية نفسها.(٤)

يمثل قاضي الحدود بين الجانبين المسيحي والإسلامي أعلى سلطة قانونية على الحدود، والذي يسعى للحفاظ على العلاقات السلمية بين سكان قشتالة

---

(١) LUIS SECO DE LUCENA PAREDES; "El juez de frontera y los fieles del rastro", *en esta Miscelánea*, vol. VII (1958), p. 137.

(٢) ISABEL MONTES ROMERO –CAMACHO; *Sevilla Y la Frontera de Granada durante el reinado de Enrique* IV, p. 138; JOSE RODRIGUEZ MOLINA; *Relaciones Pacificas en la Frontera con El Reino de Granada*, p. 285; DIEGO MELO CARRASCO; "Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV", *Revista de Estudios Histórico-Jurídicos, Sección Historia del Derecho Español,* XXXIV (Valparaíso, Chile, 2012, p.262-263.

(٣) DIEGO MELO CARRASCO; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos* XIII a XV, p.260.

(٤) JUAN TORRES FONTES; *El Alcalde entre moros y cristianos del reino de Murcia* , p.21.

وغرناطة، فضلًا عن منع المحاولات التي قد تؤدي لكسر الهدنة والسلام بين الجانبين؛ فكان قاضي الحدود الغرناطي مختصًا بالفصل في الشكاوى التي يرفعها رعايا قشتالة بخصوص الأعمال العدائية التي قام بها المسلمون على الحدود المشتركة، والعكس صحيح حيث يفصل قاضي الحدود القشتالي في الشكاوى التي يرفعها رعايا غرناطة الذين تعرضوا لمشكلات على الحدود من جانب القشتاليين، وظل العمل بالتوازي على هذا المنوال(١)، مما يطرح علامة استفهام حول قضية العدالة بين الجانبين، حيث أقر الملوك النصريون عقوبة الإعدام على المجرمين في مملكة غرناطة، لاختراقهم أراضي قشتالة، خلال فترات السلم؛ لكن ما يمكن التعويل عليه في موضوع العدالة هو الوعي الشعبي الذي انتاب سكان الحدود؛ فمن أجل الدفاع عن حالة الهدوء التي يوفرها السلام والهدنة، فرض السكان عقوبات نموذجية على أفراد من مجتمعاتهم أو مناطقهم التي تنتهكها، حتى أنهم في بعض الأحيان لا ينتظرون تقديم المهاجمين للعدالة، فقد نفذ سكان رندة المسلمون حكم الإعدام شنقًا دون محاكمة على واحد منهم من سييرا دي فيلالوينجا Sierra de Villaluenga لأنه جاء للسرقة داخل بلدة الصخرة Zahara (al-sajra) المسيحية ولم يحافظ على السلام(٢)؛ بل وتعرض المغاورون الذين تم القبض عليهم داخل مملكة قشتالة أيضًا للقتل، في حالة تم القبض عليهم، فتعرضوا للرماح بلا رحمة، وتم قطع رؤوسهم على الفور، وكان تقديم رؤوس هؤلاء المجرمين مشهدًا يشهده الناس يوميًا.(٣)

---

(١) Luis Seco de Lucena Paredes; El *juez de frontera y los fieles del rastro*, p. 139.

(٢) JOSE RODRIGUEZ MOLINA: "Convivencia de cristianos Y Musulmanes en la Frotera de Granada", Universidad de Granada, *Historia de la paz*, 2000, p.211; DIEGO MELO CARRASCO; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos* XIII a XV, p. 240.

(٣) JUAN TORRES FONTES ; *Notas Sobre los fieles del rastro Y Alfaqueques murcianos*, P. 94.

تمت الإشارة إلى هذه المؤسسة في نصوص المعاهدات بين غرناطة وقشتالة، مثل نص هدنة عام ١٣١٠م بين فرناندو الرابع Ferdenand IV ملك قشتالة (١٢٩٥-١٣١٢م)، وأبي الجيوش نصر بن محمد سلطان غرناطة (٧٠٨-٧١٣هـ/ ١٣٠٩-١٣١٤م)، حيث نصت المعاهدة على تعيين رجال صالحين تتمثل مهمتهم في الحفاظ على السلام مع غرناطة، فتم تعيين قاضي الحدود أو العمدة على الجانبين من قبل كلتا السلطتين، ويتبع القاضي مباشرة رأس الدولة[1]، وظهر هؤلاء العُمد مرة أخرى في اتفاقية عام ١٣١١م؛ وهدنة عام ٧٣٤هـ/١٣٣٤م عندما تمكن أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣-٧٥٥هـ/١٣٣٣ -١٣٥٤م(سلطان غرناطة من عقد اتفاق سلام مع ألفونسو الحادي عشر Alfonso XI(١٣١٢-١٣٥٠م) ملك قشتالة والسلطان المريني أبو الحسن علي (٧٣٢-٧٤٩هـ/١٣٣١-١٣٤٨م) مدته أربع سنوات[2]، نصت الهدنة على تحرك العمدة على الحدود للفصل في الشكاوى

---

(١) JUAN TORRES FONTES : *El Alcalde entre moros y cristianos del reino de Murcia*, p. 9. MARIA JESUS VIGUERA MOLINS; *Guerra y la Paz en la Frontera Nazari desde las Fuentes Árabes*, p. 85.

(٢) M. A. ALARCLON Y R. GARCIA DE LINARES: *Los Documentos Árabes Corona de Aragón- Madrid y Granada, la Diplomáticos Del Archivo de 1940*, p. 61-62.

استطاع أبو الحجاج يوسف الأول في تلك المعاهدة أن يعقد السلم مع قشتالة بدون دفع الجزية السنوية وكان ذلك على حد قول لسان الدين ابن الخطيب " من نادر الواقعات... "، لكن هذا الاتفاق سرعان ما تحطم وبدأ الصراع بين غرناطة والمغرب من ناحية وقشتالة تساندها أراغون والبرتغال من ناحية أخرى حول السيطرة على جبل طارق، وبدأت المعارك في عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م، حيث تحرك أسطول مؤلف من قشتالة وأراغون والبرتغال لملاقاة المسلمين، ونشبت بين الفريقين معركة دموية هزم فيها المسلمون هزيمة شديدة. أنظر: ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٩٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٦٠؛ السلاوي الناصري (الشيخ أبو العباس احمد بن خالد الناصري ١٣١٥هـ/١٨٩٧م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – تحقيق ولدى المؤلف جعفر ومحمد الناصري، ج٣، نشر دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥م، ص١٣٤؛ محمد عبد الله عنان: دولة =

وحلها وفقًا للقانون [١]، كما نصت على أن كل من تعرض للسرقة أو الخطف أو الأسر، يمكنهم اللجوء إلى شرطة الحدود الخاصة Fieles del rastro، والتقاضي عند قضاة الحدود بين المسلمين والمسيحيين.[٢]

وبالتالي فإن وظيفة قاضي الحدود أو العمدة هي منع الأعمال العدائية على الحدود، كالسرقة، والخطف والأسر، وغيرها من الحوادث المتكررة، فضلًا عن الاستماع للتظلمات والشكاوي بين المسلمين والمسيحيين على الحدود، والفصل فيها وفقًا للقانون، وتنفيذ الأحكام بمساعدة القوات النظامية (شرطة الحدود)، وكان على قاضي الحدود القشتالي الذهاب للقاء قضاة غرناطة للفصل في بعض المظالم إذا تطلب الأمر ذلك[٣].

نشط دور قضاة الحدود في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، بسبب زيادة المشكلات الحدودية بين قشتالة وغرناطة برغم معاهدات السلام المتكررة بين الجانبين؛ حيث قام الملك خوان الأول Juan I (١٣٧٩-١٣٩٠م) بتجديد السلام

= الإسلام في الأندلس، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م، ص١٢٧؛ محمد كمال شبانة: يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة (٧٣٣-٧٥٥هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٤م، ص١٣٥.

(١) JUAN TORRES FONTES: *El Alcalde entre moros y cristianos del reino de Murcia*, p. 9; MARIA JESUS VIGUERA MOLINS; *Guerra y la Paz en la Frontera Nazari desde las Fuentes Árabes*, p. 85; ISABEL MONTES ROMERO –CAMACHO; *Sevilla Y la Frontera de Granada durante el reinado de Enrique* IV, p. 138.

(٢) DIEGO MELO CARRASCO; Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV, p.260.

(٣) ISABEL MONTES ROMERO –CAMACHO; *Sevilla Y la Frontera de Granada durante el reinado de Enrique IV*, p.139.

مع غرناطة ثلاث مرات، أعوام (٧٨١هـ-١٣٧٩م)، (٧٨٤هـ-١٣٨٢م)، (٧٩٢هـ-١٣٩٠م)، ومع ذلك فإن معاهدات السلام والهدنات هذه لم تضمن على الإطلاق الهدوء على الأراضي الحدودية، فعلى الرغم من أنها منعت نشوب حروب واسعة النطاق، إلا أنها لم تتمكن من منع توغلات المغاورين واللصوص[(١)]، لذلك نشطت المؤسسات الحدودية وعلى رأسها قضاة الحدود، ففي عهد الملك إنريكي الثالث Enrique III (١٣٩٠-١٤٠٦)، تم توثيق نشاط العمدة على الحدود بين المسلمين والمسيحيين، وهو دون ألفونسو فرنانديز دي أغيلار Alfonso Fernandez de Aguilar؛ بعدها ظهر نشاط هذا المنصب بشكل واضح عامي (٨٠٨-٨٠٩هـ/ ١٤٠٥-١٤٠٦م)؛ وأشار توريس فونتس إلى الدور الذي لعبه العُمد بين المسلمين والمسيحيين في حفظ السلام في مملكة مرسية، خاصة في منتصف القرن الرابع عشر، عندما تم تعيين ألفونسو يانيز فاخاردو Alfonso Yanez Fajardo عمدة بين المسلمين والمسيحيين في مملكة مرسية، وكان اهتمامه الأول هو الالتزام الصارم بالهدنة على الحدود القشتالية-الغرناطية، ويشير توريس فونتس إلى وجود العمد بين المسلمين والمسيحيين في مختلف قطاعات حدود مملكة غرناطة[(٢)]؛ واستمرت هذه المؤسسة في العمل على طول الحدود بين قشتالة

---

(١) ISABEL GARCÍA DÍAZ; *La frontera murciano-granadina a fines del siglo XIV*, Murgetana, 79, 1989, p. 24.

(٢) JUAN TORRES FONTES; *El Alcalde entre moros y cristianos del reino de Murcia* , p. 9; JUAN TORRES FONTES; “ Los Fajardo en los siglos XIV y XV”, *Miscelánea Medieval Murciana,* Núm. 4 (1978), p. 125.

ومن الجدير بالذكر أن سلالة عائلة فاخاردو ظلت تؤدى دورًا كبيرًا فى الحياة السياسية فى قشتالة خاصة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، وأثناء استيلاء الملكين

وغرناطة، كما يظهر في الهدنات التي عقدها خوان الثاني Juan II (١٤٠٦م-١٤٥٤م) مع مملكة غرناطة أعوام (٨١٦هـ-١٤١٣م)، (٨٢٧هـ-١٤٢٤م)، (٨٤٣هـ- ١٤٣٩م)، والشيء نفسه حدث مع إنريكي الرابع Enrique IV (١٤٥٤-١٤٧٤م)، في علاقته السياسية بمملكة غرناطة(١).

تقلد هذا المنصب أشخاص ذوو خلفية عسكرية على الجانبين، وكانوا على علاقات قوية بحكوماتهم؛ وخدموا في مناطق الحدود لفترات طويلة مما أكسبهم خبرة في مجال عملهم، وتمتعوا بالحصانة لاتصالهم الوثيق بالسلطة السياسية، بل كان البعض منهم من أفراد البلاط(٢)؛ لذلك أوكل سلاطين غرناطة القضاء الحدودي إلى شخصيات بارزة وخبراء في شؤون السياسة والحرب مثل علي بن سعيد الأمين الذي كان هو وأسلافه مشهورين على الجانب الآخر من الحدود؛ لأنهم كانوا لسنوات عديدة القائمين بالمفاوضات الخارجية لمملكة غرناطة مع

الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا على مدينة رندة عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م، وغيرها من المدن الهامة، لذا منحهم الملوك العديد من الامتيازات والإقطاعات تقديرًا لجهودهم؛ لمزيد من التفاصيل عن عائلة فاخاردو وشجرة نسبهم ودورهم في مملكة قشتالة، أنظر:
SERAFIN BECERRA MARTIN, DAVID CUEVAS GONGORA; *Frontera y propiedad a finales del siglo XV*. ALONSO YAÑEZ FAJARDO, "señor de las Cuevas del *reso internacional de historia de la Serranía de* Becerro": *Actas del II cong Ronda: Entre al-Ándalus y los inicios de la Edad Moderna. Siglos VIII-XVI* ,n.º 2, 2019, pp. 547-561. .

(١) JUAN TORRES FONTES ; *El Alcalde entre moros y cristianos del reino de Murcia,* p. 11; ISABEL MONTES ROMERO – CAMACHO; *Sevilla Y la Frontera de Granada durante el reinado de Enrique* IV, p. 138-139.

(٢) MARIA JESUS VIGUERA MOLINS; *Guerra y la Paz en la Frontera Nazari*, p. 85; MANUEL GONZALEZ JIMENEZ; *La frontera castellano-granadina en la Baja Edad Media y sus estudios: estado de la cuestion*, sevilla, 2009-2010, p.139

القشتاليين[١]؛ وعلى الجانب القشتالي تقلد هذه الوظيفة بعض الأمراء الذين استمرت خدمة أحدهم لأكثر من أربعين سنة، ففي قرطبة وجيان شغل ألفونسو فرنانديز دي كوردوبا، المنصب لأكثر من أربعين عامًا، بين عامي ١٣٨٣ و١٤٢٤م، وفي مرسية، شغل ألفونسو يانيز فاخاردو المنصب منذ عام ١٣٧٨م، والذي استمر في أداء عمله كعمدة على الحدود بين المسلمين والمسيحيين حتى بعد عام ١٣٨٤م، وذلك من واقع بعض الحوادث الحدودية التي ساهم في حلها.[٢]

حملت وظيفة القاضي في إشبيلية مسمى Adelantado Mayor de la Frontera أي المفوض الرسمي للحدود، الذي كان يحتفظ به أشخاص من عائلة ريبيرا الإشبيلية، حيث ظهر هذا المنصب في إشبيلية عام ١٢٤٠م عندما عين فرناندو الثالث ألفار بيريز دي كاسترو Alvar Pérez de Castro مفوضًا رسميًا لحكم الحدود بين إشبيلية وغرناطة، وكان للمنصب ظهور واضح خلال حكم ألفونسو العاشر Alfonso X El sabio (١٢٥٢-١٢٨٤م) أيضًا؛ ومن عهد الملك إنريكي الثاني Enrique II (١٣٦٩-١٣٧٩م) أصبح هذا المنصب حكرًا على عائلة ريبيرا الإشبيلية، فمن عام ١٣٩٦م، تم تعيين بير أفان دي ريبيرا Per Afán de Ribera مفوضًا لحكم الحدود والذي شغل المنصب حتى وفاته، وبعدها أصبح المنصب وراثيًا في عائلته؛ وكان مهمته الفصل في الشكاوى بين المسلمين والمسيحيين على الحدود، ومعاقبة المجرمين، والحفاظ مع نظرائه من غرناطة على النظام والعلاقات السلمية الطيبة، باستخدام سلطاته، وتنفيذ الأحكام إذا لزم الأمر بموجب derecho a la represalia أي الحق في التعويض أو فرض العقوبة،

---

(١) LUIS SECO DE LUCENA PAREDES; *El juez de frontera y los fieles del rastro*, p. 140.

(٢) JUAN TORRES FONTES ; *El Alcalde entre moros y cristianos del reino de Murcia*, pp. 11-14; Manuel Garcia Fernandez; *Sobre la alteridad en la frontera de Granada*, p. 230.

وهو آلية ضمن آليات ضبط الحدود بين الجانبين(١).

تعددت مهام هؤلاء القضاة أو العُمد، فشملت سلطة إصدار الأوامر التي تتعلق بأمن الحدود، مثل أمن القلاع والحصون الحدودية، وقمع أعمال الشغب، وتيسير عملية التجارة الداخلية والخارجية، والمساعدة في تحصيل الضرائب، وعلى المستوى الدبلوماسي، توقيع المعاهدات والتحالفات وإرسال سفارات، وينص قرار تعيينهم على التزام جميع السكان بتقديم المساعدة لهم، وتنفيذ أوامرهم في سياق ممارسة وظائفهم(٢).

استمر العمل بهذا النظام حتى وقت متأخر من عمر مملكة غرناطة، يظهر ذلك من خلال عقد السلطان الغرناطي أبو الحسن علي(٣) معاهدة سلام مع قشتالة

---

(١) ISABEL MONTES ROMERO -CAMACHO; *Sevilla Y la Frontera de Granada durante el reinado de Enrique IV (1454 – 1474)*, p. 135; MANUEL GARCIA FERNANDEZ; *Sobre la alteridad en la frontera de Granada*, p. 231.

(٢) ISABEL MONTES ROMERO -CAMACHO; *Sevilla Y la Frontera de Granada durante el reinado de Enrique IV*, p. 136; JOSE RODRIGUEZ MOLINA; *Relaciones Pacificas en la Frontera con El Reino de Granada*, p. 285; DIEGO MELO CARRASCO; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV*, p.262-263.

(٣) تولى السلطان أبو الحسن علي بن سعد بن محمد بن يوسف، الحكم مرتين، الأولى عام (٨٦٩هـ/١٤٦٥م) وكانت البلاد مضطربة بسبب كثرة الطامعين في العرش والحروب الأهلية الداخلية بين أمراء الأسرة المالكة، والتي فقد أبو الحسن في إحدى هذه الثورات ملكة واعتلى عرش غرناطة ابنه أبو عبدالله محمد، ثم نجح السلطان أبو الحسن في انتزاع السلطة مرة أخرى عام (٨٨٨هـ/١٤٨٣م)، أنظر: المقري: نفح الطيب، المجلد الرابع، ص٥١٥؛ السلاوي: الاستقصا، ج٤، ص١٠٢؛ محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص٢٠٣-٢٠٤؛ يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر،، دراسة حضارية، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٥٠.

RACHEL ARIÉ: *L`Espagne Muslmane au temps de Nasride (1232-1492)* Paris,1973 , p.138; *El Reino Nasri*, p.68.

لمدة ست سنوات من عام (٨٦٩هـ-١٤٦٤م) حتى (٨٧٤هـ-١٤٦٩م) [١]؛ وفي هدنة عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، حيث نصت بنود الاتفاق على تعيين قضاة الشكاوى بين قشتالة وغرناطة، للحكم في الشكاوى والخلافات التي تحدث خلال فترة السلم:

"Que se pongan jueces, en ambas partes, para que juzguen las querellas que sucedieran durante este tiempo de paz"[٢]

أطلق على قاضي الحدود الغرناطي اسم " القاضي بين الملوك" Juez entre los Reyes، (al-qadi bayna l-muluk) ويبدو أن هذا المسمى الذي أطلق من الجانب الغرناطي على أحد أفراد البلاط، وهو علي بن سعيد الأمين كان من قبيل التفخيم والتبجيل، حيث كان يشغل أيضًا وظيفة المترجم والمرافق الخاص بالسلطان أبي الحسن علي، ولا علاقة لهذا القاضي بالفصل بين الملوك كما يفهم من المسمى، والدليل على ذلك أن القاضي المشار إليه عمل قاضيًا للحدود القشتالية الغرناطية سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م، فضلًا عن أن صلاحياته هي نفسها التي أشرت إليها سابقًا، من الفصل في شكاوى القشتاليين ضد الغرناطيين، وكان علي بن سعيد الأمين هو وأسلافه مشهورين على الجانب الآخر من الحدود؛ لأنهم كانوا لسنوات عديدة القائمين بالمفاوضات الخارجية لمملكة غرناطة مع القشتاليين.[٣]

---

(١) JUAN TORRES FONTES: "Las Treguas Con Granada de 1469 y 1472", *Cuadernos de estudios medievales y ciencias y técnicas historiográficas*, Nº. 4-5, 1979, p. 212.

(٢) CARMEN PEREA CARPIO; *La frontera concejo de Jaén-Reino de Granada en 1476*, p.235-236; JOSE RODRIGUEZ MOLINA; *Relaciones Pacificas en la Frontera con El Reino de Granada*, p. 286; DIEGO MELO CARRASCO; Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV, p.263-264.

(٣) LUIS SECO DE LUCENA PAREDES; *El juez de frontera y los fieles del rastro*, p.140; DIEGO MELO Carrasco; *Un modelo para la resolución de conflictos internacionales entre islam y cristiandad.* P. 350

ومن الصلاحيات التي تمتع بها هذا القاضي؛ اختصاص الفصل في الشكاوى التي يرفعها المسيحيون ضد سكان غرناطة بسبب مخالفاتهم على الحدود أثناء سريان الهدنة بين الطرفين، فلدينا شهادة ابن مرزوق قاضي الحدود في المنطقة الأندلسية التي يسيطر عليها بنو مرين عام ٧٤٩/١٣٤٨م أو بمعنى أدق كان مبعوثًا من قبل المرينيين للوقوف على مشاكل الحدود ومحاولة حلها؛ ففي عهد السلطان أبي الحسن المريني المعروف بأعماله الحربية الكثيرة وجهاده المستمر ضد الممالك المسيحية، وخاصة مملكة قشتالة، يذكر ابن مرزوق عن ذلك " كانت أزمانه وبلاده معمورة بالاستعداد والجهاد (نفعه الله بذلك)، هذا ومدينة رندة والبلاد الدائرة بها الراجعة إليها وإلى جبل الفتح حماهما الله تعالى، جار عليهما المرتبات الوافرة، وقد باشرت العطاء فيه سنة، وتطوفت عليها، وكان ذلك شأن مولانا رضي الله عنه في كل سنة يوجه من يتطوف عليها شكايات أهلها، وينظر فيما يعوزهم، فحملت من مال الزكاة المجتمع في تلك السنة مائة ألف دينار من الذهب أوصلتها إلى سبتة، وتوجهت رسولًا إلى غرناطة، وفي عودي من غرناطة توجهت للتطواف على البلاد الأندلسية وكتبت جميع ما أمرت به، وتوجه معي كتاب الجبل ورندة، فقضينا العجب من كثرة ما يخرج عنه فيها في كل سنة، ووصلت إلى الصخرة وحصن أريولة وما دار بها، ووقفت على الحدود بين المسلمين والنصارى، وسمعت شكايات أهل الملتين، وقبض أهل كل موضع ما يخصهم، وشمل أهل ذلك الإقليم كله إحسانه وإنعامه" (١)، أي أن هذا المنصب كان جديرا بالاهتمام والرعاية من قبل كلا الجانبين لدرجة أنهم كانوا يعهدون إلى وزرائهم وخاصتهم بتقلد هذا المنصب.

---

(١) ابن مرزوق (محمد بن مرزوق التلمساني): المسند الصحيح الحسن في محاسن ومآثر مولانا أبو الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمد بو عياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٣٩٢-٣٩٣.
MARIA JESUS VIGUERA MOLINS; *Guerra y la Paz en la Frontera Nazari*, p. 84-85.

وتشير أحد وثائق الفكاكة إلى حادثة من حوادث اختراق الحدود من جانب المسلمين في عام ١٣٧٨م، حيث دخلت مجموعة من المسلمين من بلش Vélez أراضي مرسية وأسروا ستة من الرعاة وخمسة آلاف خروف وكبش وستين حيوانًا آخر وأشياء أخرى تخص فرانسيسكو فرنانديز Francisco Fernández، وتم التقاضي عن هذه السرقة أمام ألفونسو يانيز فاخاردو، بصفته العمدة على الحدود بين المسلمين والمسيحيين، والذي طلب من نظيره الغرناطي ضرورة إعادة هذه المسروقات؛ ولكن بعد عدم حصوله على تلك المسروقات، عرض الأمر على الملك إنريكي الثاني Enrique II (١٣٦٩-١٣٧٩م)، والذي أمره بالتحقيق في الأمر، فتوغلت قوات مرسية في بلدية بلش، واستطاعوا خلالها الحصول على بعض الأسرى، ومن بينهم شخص يدعى أحمد بن هاجر Ahmed Abenhaçar، والذي تم إرساله وتسليمه مع بعض الأسرى المسلمين الآخرين من بلش إلى فرانسيسكو فرنانديز، لحين الإفصاح عن مكان الرعاة الستة وباقي المسروقات.(١)

ولعل أهم وظائف القضاة ليست فقط التحقيق والفصل في قضايا السلب والنهب وإنما مراقبة الهدنة بين الطرفين وإخماد نار الحرب في بداياتها، ففي عام ٧٨٦هـ/١٣٨٤م في عهد الملك خوان الأول Juan I (١٣٧٩-١٣٩٠م) دخلت مجموعة كبيرة من سكان غرناطة إلى مرسية في طريقهم إلى أراضي مملكة أراغون(٢)،

---

(١) JUAN TORRES FONTES; "Notas Sobre los fieles del rastro Y Alfaqueques murcianos", *Miscelánea de estudios árabes y hebraicos. Sección Arabe-Islam*, Vol. 10, 1961, P.100; ISABEL GARCIA DIAZ; *La frontera murciano-granadina a fines del siglo XIV*, p. 26.

(٢) انعدمت الحدود البرية بين مملكة أراغون ومملكة غرناطة بداية من عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م، وأصبحت مدينة مرسية القشتالية حائلًا بين مملكة أراغون ومملكة غرناطة؛ إلا أن هذا لم =

مما تسبب في أضرار جسيمة أثناء المرور، فأراد أهل مرسية المتضررون من هذا التوغل القصاص من مملكة غرناطة، لكن قاضي الحدود ألفونسو يانيز فاخاردو منع أهل مرسية من القيام بذلك، وفقًا لمعاهدة السلام الموقعة بين قشتالة وغرناطة، ولكن الأخير طلب من ملك غرناطة التعويض عن الأضرار التي لحقت بأهل مرسية؛ وبالفعل وعده ملك غرناطة بدفع هذه التعويضات، وقد أبلغ ألفونسو يانيز فاخاردو الملك خوان الأول Juan I (١٣٧٩-١٣٩٠م) بما فعله تجاه هذا الحادث، فأرسل له الملك خطابا شكره فيه على إدارته لمثل هذه الحوادث.(١)

وأثناء سريان الهدنة بين قشتالة وغرناطة، وقع حادث على حدود مدينة جيان بين بعض مسلمي غرناطة وبعض القشتاليين في عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م، فأمر السلطان يوسف الثالث (٨١٠-٨٢٠هـ/١٤٠٨-١٤١٧م)، قضاة الحدود بالتحكيم في هذا الخلاف، فعقد دون دييغو فرنانديز دي كوردوبا قاضي الحدود لمدينة قرطبة وجيان، مع محمد حمدون، الفكاك الكبير لغرناطة، عدة جلسات تبين فيها أن مسلمي غرناطة هم المذنبون؛ ومن أجل تجنب المزيد من التجاوزات الحدودية، قرروا أنه لابد من وجود منطقة فراغ محايدة بين حدود غرناطة وقشتالة لا يجوز لكلا الطرفين

= يوقف تمامًا الغارات الحدودية بين الجانبين، فعندما تكون الدولتان في حالة حرب، كانت الحشود العسكرية تعبر ذهابًا وإيابًا عبر مرسية، أحيانًا بموافقة ملك قشتالة وأحيانًا دون موافقته، هذه الغزوات كانت نادرة إلا أنها كانت مدمرة، أنظر:

JARBEL RODRIGUEZ: *Captives and their saviors in the medieval crown of Aragon*, p. 7.

أميرة الطواب أحمد سفين: أسرى الصراع الإسلامي المسيحي في الأندلس من عصر المرابطين حتى سقوط غرناطة، (٤٨٣-٨٩٧هـ/١٠٩٠-١٤٩٢م)، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، سوريا، ٢٠٢٢م، ص٦٨.

(١) JUAN TORRES FONTES; El Alcalde entre moros y cristianos del reino de Murcia , p.14.

الرعي فيها أو قيادة ماشيتهم(١)؛ يبدو أن هذا الحل كان على قدر كبير من الأهمية لأنه تم تضمينه في بعض بنود المعاهدات الأخرى، والتي تنص على ضرورة إعادة بناء القلاع الحدودية المجاورة، سواء من قبل قشتالة أو من قبل غرناطة، والتي ظلت مدمرة بسبب الحرب، وكان الغرض من ذلك هو وجود أرض قاحلة غير مأهولة، وحدود جغرافية حقيقية، من شأنها أن تكشف بسهولة محاولات اختراق العدو لأراضي الطرف الآخر ومنع تقدمه نحو الداخل(٢)، ومع ذلك لم تمنع هذه الأعمال الاحترازية من اختراق الحدود، فبعد ثلاث سنوات من حادثة جيان عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م، وأيضًا في وقت السلم، وقع حادث جديد على الحدود، ولكن استطاع القاضيان السابقان محمد حمدون ودييجو فرنانديز دي كوردوبا أن يوقفا هذه الأعمال العدائية، وأعادا العلاقات المقطوعة بين المدينتين.(٣)

رصد أرشيف مدينة جيان لسنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م، العديد من الاختراقات اليومية وما يتبعها من مفاوضات وحلول اشترك فيها الجانبان القشتالي والغرناطي للحفاظ على سريان الهدنة الموقعة بينهما، وكانت مهمة العُمد الحفاظ على سريان الهدنة، وحل المشكلات والنظر في الشكاوى التي قد تنشأ على الجانبين، وكان يمكن لهؤلاء القضاة أو العُمد أن ينفذوا الأحكام إذا لزم الأمر من خلال سلطاتهم القضائية والتنفيذية.(٤)

وصل الأمر بقضاة الحدود إلى تجديد معاهدات السلام في حالة انتهائها،

---

(١) LUIS SECO DE LUCENA PAREDES; *El juez de frontera y los fieles del rastro*, p. 138.

(٢) DIEGO MELO CARRASCO; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV*, p.260.

(٣) LUIS SECO DE LUCENA PAREDES, *El juez de frontera y los fieles del rastro*, p. 138.

(٤) MANUEL GONZALEZ JIMENEZ; *La frontera castellano-granadina en la Baja Edad Media*, p. 192.

عند رغبة كلا الطرفين استمرار حالة السلم والهدنة بين الجانبين، فعلى سبيل المثال انتهت المفاوضات التي أجراها قادة سانتياغو مع عمدة الحدود في برشانة Purchena[(١)]، الذين مثلوا بدورهم ملكهم، بما يرضي الطرفين بالاتفاق على استمرار الهدنة لمدة ثلاث سنوات لتبدأ في محرم ٨٧٤هـ/ ٢٩ يوليو ١٤٦٩م، وتوضح الوثائق أن المحادثات بين المفاوضين كانت سريعة، حيث لم تكن هناك أية صعوبة فيما يتعلق بالحفاظ على الشروط التقليدية المعمول بها في الاتفاقات الموقعة سابقًا بين قشتالة وغرناطة.[(٢)]

تحرَّى الجانبان القشتالي والغرناطي الدقة في اختيار القاضي، مع تأمين احتياجاته براتب شهري كبير، وصل في بعض الأحيان ما بين ٥٠٠٠ و ١٠٠٠٠ مرابطي[(٣)]، وهو بلا شك مبلغ هائل في ذلك الوقت، مما جعل هذا المنصب امتيازًا

---

(١) برشانة Purchena: حصن هام في ولاية المرية وهي حصن على مجتمع نهرين وهو من أمنع الحصون مكانًا وأوثقها بنيانًا وأكثرها عمارة. الحميري: الروض المعطار، ص٨٨؛ ابن الخطيب: خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، ضمن مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٣، ص٣٦.

(٢) JUAN TORRES FONTES: *Las Treguas Con Granada de 1469 y 1472*, p. 221-222.

(٣) الدينار المرابطي Maravedisويعرف أيضًا بالمثقال المرابطي، ويوصف في كتب النوازل بالذهب الوازنة، حيث حافظ الدينار المرابطي على قوته وارتفاع عياره، حيث بلغت نسبة الذهب فيه ٩٦٪، ولجودته اكتسب الدينار المرابطي شهرة واسعة في أوربا في العصور الوسطى، واشتهر العصر المرابطي بانتشار دور السكة خاصة بعدما أصبحت الأندلس تحت حكم المرابطين، لذلك حافظ الدينار المرابطي على قوته وجودته واتسم ببقائه واستمراره لفترة زمنية طويلة، وكان الدينار المرابطي ذا شكل مستدير، وتراوح وزنه بين ٣,٩٠ لـ ٤,٢٣ جم، حسب طريقة السك، انظر: صالح بن قربة: المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، رسالة دكتوراه بجامعة الجزائر، ١٩٨٢-١٩٨٣م، ص٤٣٦-٤٦٣؛. أنظر: كمال أبو مصطفى: دراسات أندلسية في التاريخ والحضارة، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٧م، ص٣٢.

يطمح إليه الكثيرون(١)، ومع ذلك لجأ البعض منهم إلى تحقيق أغراض شخصية، وقبول الرشوة مما أثر على فاعلية القاضي وصلاحياته وفقدان الثقة في قراراته، والتي يبدو أنها حالات متشابهة حدثت لكلا الجانبين القشتالي والغرناطي، مما دفع الجانبين في بعض الحالات إلى الاتفاق على الاستغناء عن خدمات القاضيين وتعيين آخرين موثوق بهما، كما حدث في عام ٨٨٢هـ/ ١٧ يناير عام ١٤٧٨م، عندما تم تعيين فارسين، أحدهما قشتالي والأخر مسلم، للبحث عن الحوادث التي وقعت أثناء الهدنة وتحديدها وإصلاحها.(٢)

وعلى الرغم من الصلاحيات التي كانت لقضاة الحدود أو العُمد على الحدود، فيبدو أن أيًا من هؤلاء القضاة أو العُمد، لا مسلمين ولا مسيحيين، كان له سلطة قضائية في الفصل في التجاوزات التي حدثت في البحر والتي قد تؤدي إلى كسر الهدنة(٣)؛ لأن هناك بعض الإشارات الدالة على وجود عمدة أو قاضي للنهر مهمته الفصل في التجاوزات التي تحدث في البحر، ففي قرطبة كان هناك "عمدة للنهر" alcalde del río عينته البلدية، كان مرد ذلك إلى أن العديد من المدن الأندلسية كانت تستفيد من نهر الوادي الكبير Guadalquivir (٤)، الصالح

(١) DIEGO MELO CARRASCO; *Un modelo para la resolución de conflictos internacionales entre islam y cristiandad*, P. 352; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV*, p.264

(٢) JOSE RODRIGUEZ MOLINA; *Relaciones Pacificas en la Frontera con El Reino de Granada*, p. 288.

(٣) ISABEL MONTES ROMERO –CAMACHO; *Sevilla Y la Frontera de Granada durante el reinado de Enrique IV*, p. 139; DIEGO MELO CARRASCO; *Un modelo para la resolución de conflictos internacionales entre islam y cristiandad*, P. 351.

(٤) نهر الوادي الكبير: أشهر أنهار شبه جزيرة أيبيريا وعليه نشأت أشهر المراكز الحضارية في الأندلس خاصة غرناطة الواقعة على أحد روافده وهو نهر شنيل، وينبع الوادي الكبير من سفوح جبال سيرامورينا ويصب في المحيط الأطلسي، أنظر الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، المجلد الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤م-١٤١٤هـ، ص٥٦١.

للملاحة بواسطة السفن، وغيرها[١]؛ ويعني ذلك كثرة الشكاوى والحوادث التي حدثت في هذه المدن التي تطل على النهر.

خلاصة القول أن الأعمال الانتقامية والحوادث التي وقعت على الحدود بين قشتالة وغرناطة، كانت حوادث فردية، تمت دون مراعاة لاتفاقيات السلام بين المملكتين، ولكن مع ذلك كان هناك تعايش وحتى صداقة وتعاون عبر الحدود بين النبلاء من كلا المملكتين، ولعب قضاة الحدود أو العمد بين المسلمين والمسيحيين دورًا هامًا وواضحًا في إصلاح الأضرار التي نتجت عن هذه المشكلات والحوادث الحدودية، بل وتقليل فرص وقوعها، وإخماد نار الحرب في مهدها والمحافظة على عمليات السلام بين قشتالة وغرناطة، لكن في نهاية المطاف، كان النظام الملكي القشتالي ومسؤولوه دائمًا الداعمين الرئيسيين لعمليات حفظ السلام على الحدود، ومعاقبة انتهاكات الهدنة المتفق عليها مع غرناطة.

ثانيًا: جهاز شرطة الحدود Fieles del rastro

جهاز شرطة الحدود Fieles del rastro، هي مؤسسة كانت تعمل في خدمة قاضي الحدود، وملحقة به، كما في اتفاقية الهدنة في عام ٨٢٧هـ/ ٥ يوليو ١٤٢٤م بين السلطان محمد التاسع المعروف بالأيسر El Zurdo[٢]، والملك القشتالي خوان

---

(١) MIGUEL-ANGEL LADERO QUESADA; "Las ciudades de Andalucía occidental en la Baja Edad Media: sociedad", morfología y funciones urbanas, *La Ciudad Hispánica siglos XIII al XVI*, Universidad Complutense, Madrid 1987, p. 83.

(٢) تولي الأيسر الحكم أكثر من مرة، الأولى بعد أن قاد انقلاب في عام ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م، وشهد عهده العديد من الفتن والاضطرابات، لصرامته وتعاليه على أهل دولته، وفي عهده استبد بنو السراج بأمر غرناطة وكانوا أندادًا السلاطين، وفي خلال فترة حكمه كان النصارى يتحينون الفرص لغزو مملكة غرناطة، مما جعل الأمور في غرناطة تزداد اضطرابًا وازداد الشعب على الأيسر سخطًا، وسرعان ما انفجر بركان الثورة، وزحف الثوار على الحمراء، ونادوا بولاية =

الثاني Juan II (١٤٠٦م-١٤٥٤م)(١)؛ للتعويض عن الضرر الناجم عن العنف في المناطق الحدودية أثناء فترات السلم؛ ظهرت هذه المؤسسة منذ القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، ويمكن تعريبها إلى "قوات تأمين الطريق" أو "المتعقبين للصوص"، مهمتهم تلقي الشكاوى من المتضررين، وتتبع ومعرفة المعتدين وأماكنهم، ومعرفة من يمارس العنف على الشريط الحدودي بين المسلمين والمسيحيين والإبلاغ عنهم، وتقديمهم للعدالة أمام قضاة الحدود.(٢)

يشترط في أفراد شرطة الحدود أن يكونوا على دراية تامة بالطرق والأماكن المختلفة على جانبي الحدود، حتى يمكنهم الوصول بسرعة لمكان الحدث، والقبض على المجرمين واللصوص، والمثول بهم أمام قاضي الحدود، أو أمام أحد

= محمد بن محمد بن يوسف الثالث وهو ابن أخو الأيسر، وهرب الأيسر وأهله وبعض خاصته إلى تونس عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م وأقام في كنف السلطان أبي فارس عبدالعزيز الحفصي، حيث استطاع بمساعدة ملك تونس، وملك قشتالة خوان الثانيJuan II (١٤٠٦م-١٤٥٤م) وعائلة بني السراج أن يسترد عرشه وذلك بعد سنتين من خلعه عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، انظر: السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، الجزء العاشر، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص٦٨؛ ابن عاصم: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، مج٢، تحقيق صلاح جرار، درا البشير عمان ١٩٨٩م، ص١٥، محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص١٥٦؛ يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، ص٤٤؛ LUIS SECO DE LUCENA PARDES: *Muhammad IX Sultan de Granada - Granada*, 1978, p. 10-12; RACHEL ARIÉ; *El Reino Nasri de Granada*, p. 62, p. 64.

(١) LUIS SECO DE LUCENA PARDES; *El juez de frontera y los fieles del rastro*, p. 138.

(٢) RACHEL ARIÉ; *El Reino Nasri de Granada* , p 142; JUAN FRANCISCO JIMENEZ ALCAZAR ; "Relaciones interterritoriales en el sureste del la peninsula Iberica durante la baja edad media:Cartas", *mensaderos Y Ciudades en la Frontera de Granada*, AEM 40/2 Julio-diciembre de 2010, P. 594 ; JOSE RODRIGUEZ MOLINA: *Convivencia de cristianos Y Musulmanes en la Frontera de Granada*, p. 227; MANUEL GARCIA FERNANDEZ; *Sobre la alteridad en la frontera de Granada*, p. 231.

سبيل المثال، منح الملك خوان الأول Juan I (١٣٧٩-١٣٩٠م) هؤلاء المتعقبين في مدينة مرسية سلسلة من المزايا الاقتصادية تعويضًا عن تفانيهم في المحافظة على الأمن والسلام على الحدود، مثل الإعفاء من دفع الضرائب، باستثناء ضريبة الكابالا ALcabala[(١)] -والتي يبدو أن الإعفاء منها كان يسبب حرجًا للحكومة القشتالية لاحتمالية مطالبة فئات أخرى بنفس الإعفاء، والذي قد يؤدي بالتالي إلى نقص في الدخل القومي للمملكة-، وبصرف النظر عن الامتيازات، يحصل هؤلاء المتعقبون على مبلغ معين مقابل كل مهمة يقومون فيها بتتبع اللصوص أو المجرمين؛ ولدينا مثال من جيان، كان المبلغ الذي حصل عليه كل فرد ٢٠٠ مرابطي.[(٢)]

ثالثًا: القاضي المسؤول عن محاربة التهريب alcaldes de sacas

alcaldes de sacas هم القضاة المكلفون بالرقابة على الجمارك الحدودية القشتالية، والإشراف على شرعية الصادرات، لمنع خروج البضائع المحظورة من

---

(١) الكابالا ALcabala: ضريبة بنسبة ١٠٪ على قيمة المبيعات والتبادلات التي تتم في مملكة قشتالة، ويتم تقدير قيمة الضريبة من قبل نائب رئيس البلدية أو القاضي الذي كان مسؤولًا عن تسوية النزاعات المالية، وتم تعريفها على أنها ضريبة على حجم المبيعات؛ ولم تكن الضريبة ثابتة بنسبة ١٠٪، ولكن أحيانًا اقتصرت قيمتها على ٥ ٪ فقط؛ أنظر:
MIGUEL ANGEL LADERO QUESADA; *La Hacienda Real de Castilla en el siglo XV*, P.64-65.

(٢) JUAN TORRES FONTES; *Notas Sobre los fieles del rastro Y Alfaqueques murcianos*, P. 90; ISABEL GARCIA DIAZ; *La frontera murciano-granadina a fines del siglo XIV*, p. 29-30, RACHEL ARIÈ; El Reino Nasri de Granada , p. 142; DIEGO MELO CARRASCO; *Un modelo para la resolución de conflictos internacionales entre islam y cristiandad*, P. 354.

التصدير خارج قشتالة، وضبط عمليات التهريب، والتي كانت أمر شائع الحدوث في معظم المدن الحدودية القشتالية؛ حيث أثرت التجاوزات والغارات الحدودية بشكل ملحوظ على التطور الاقتصادى للمناطق القريبة من الحدود؛ فأثرت على التوسع الزراعي في هذه المناطق؛ لذلك كان يتم استغلال هذه المناطق فقط كمراعي، وعلى فترات متقطعة؛ بالإضافة إلى ذلك، أثرت التجاوزات الحدودية على الحالة الاقتصادية للأسر القريبة من الحدود؛ مما تسبب لها في خسائر كبيرة، نتيجة الغارات المتكررة وما ينتج عنها من عمليات سلب ونهب، ولكن لم يعدم سكان الحدود الوسيلة الوحيدة في تعويض هذه الخسائر بممارسة أعمال التهريب للسلع والمنتجات المحظورة من التصدير بين الجانبين القشتالي والغرناطي، حيث نشطت عمليات التهريب بين سكان الحدود، لا سيما في أوقات الأزمات(١)؛ بل أصبح تهريب البضائع المحظورة عملًا مربحًا لدرجة أن العديد من المُهربين تصرفوا بشكل منظم تمامًا، وشكلوا عصابات للتهرب من الحراس وبالتالي تجنب القبض عليهم(٢)، فكان المهربون يعبرون الحدود بصحبة التجار المسيحيين ويبيعون حيواناتهم للمسلمين، ويعبرون مرة أخرى من مكان أخر كأنهم تجار، وهذا ما يفسر لنا لماذا أمر الملك خوان الأول Juan I (١٣٧٩-١٣٩٠م) عام ١٣٨٢م قضاة الجمارك إجبار التجار على الدخول والخروج من نفس المنفذ أو المكان.(٣)

---

(١) ISABEL GARCIA DIAZ; *La frontera murciano-granadina a fines del siglo XIV*, p.30.

(٢) MIGUEL PINO ABAD; "La saca de cosas vedadas en el derecho territorial castellano", *Anuario de historia del derecho español*, Nº 70, 2000, p. 211.

(٣) DIEGO MELO CARRASCO; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV*,p.255.

وقد فرضت الحكومة القشتالية حظرًا شديدًا على تصدير الخيول والسلاح، لخوف حكام قشتالة من وقوع السلع الحربية في أيدي أعدائهم سواء المسلمين أو المسيحيين، ولكن وفقًا لأوليفيا ريمي كونستبل كان الخرق والتجاوز أمرين مألوفين(١)؛ مما دفع البابوية أحيانًا إلى تقنين وتوضيح هذه الأمور، فبخصوص هذا الشأن أصدر البابا جريجوري التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١م) في ٢٤ يوليو ١٢٣٤م مرسومًا موجهًا إلى رئيس أساقفة طليطلة، يأذن له بالسماح لسكان قيجاطة Quesada والقلاع المجاورة إقامة علاقات تجارية مع مسلمي غرناطة الأقرب إليهم، وتبادل كل الأشياء الضرورية، باستثناء الأسلحة والخيول(٢)، ومن أجل منع خروج الخيول والبغال عبر الحدود بين مدينة مرسية وغرناطة، أو لعدم التهرب من دفع الرسوم المفروضة، أمر الملك خوان الأول Juan I (١٣٧٩-١٣٩٠م) في عام ١٣٨٠م بتسجيل أوصاف جميع الحيوانات الموجودة في مدينة مرسية من كلا النوعين، كالعمر والطول واللون؛ بسبب زيادة حالات الاتجار غير المشروع بالماشية عندما حددت السلطات القشتالية عدد الرؤوس التي يمكن نقلها إلى أراضي غرناطة، بناءً على ما تم الاتفاق عليه في بعض الهدنات.(٣)

امتد الحظر في بعض الأحيان إلى سلع أخرى لكثرة استهلاكها، أو لقلة إنتاجها أو لندرتها، ففرض حظر على تصدير الخبز والنبيذ والمعادن الثمينة كالذهب

---

(١) أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، تعريب د. فيصل عبد الله، نشر مكتبة العبيكان ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٣٤٦-٣٤٧.

(٢) JOSE RODRIGUEZ MOLINA; *Relaciones Pacificas en la Frontera con El Reino de Granada*, p. 264.

(٣) JOSE ENRIQUE LOPEZ DE COCA CASTAÑER; "La Frontera de Granada Acerca del territorio y la linea divisoria (Siglos XIV y XV)", *Historia. Instituciones. Documentos*, Nº 45, 2018, p. 198.

والفضة، والصوف والبغال والثيران والأبقار وأشياء أخرى..."[١]، ولكن هذا الحظر أدى إلى نشاط عمليات التهريب أو ما يمكن تسميته بالتجارة السرية في الأشياء المحظورة رسميًا كالحبوب والخيول وغيرها، ولم تفلح كل الاحتياطات الملكية القشتالية لمنع عمليات التهريب التي تمت في المدن والأماكن الحدودية، مثل إشبيلية وقادس Cádiz وشريش Jerez وغيرها، والتي جرت فيهم عمليات التهريب عن طريق البحر أو البر؛ وشملت السلع المهربة في هذه المدن الخبز والقمح والذهب والفضة والعملات المعدنية والخيول والأسلحة والأشياء الأخرى التي تحظرها القوانين القشتالية[٢]، كذلك قام العديد من سكان لورقة Lorca في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي بممارسة التجارة غير المشروعة في البضائع المحظورة بانتظام،[٣] كذلك تمت عمليات التهريب من قشتالة إلى غرناطة عبر ميناء قيجاطة Quesada، حيث تمت العديد من عمليات التهريب ونقل البضائع الممنوعة إلى مملكة غرناطة، من خلال ميناء هذه المدينة الحدودية، في عهد الملك الغرناطي أبي عبد الله محمد "بو عبدل"[٤]، عمليات التهريب هذه ستظل متكررة الحدوث في مختلف الموانئ على طول الحدود بين

---

(١) MIGUEL ANGEL LADERO QUESADA; *La Hacienda Real de Castilla en el siglo XV, Universidad de la Laguna,1973*, p. 96; MIGUEL PINO ABAD; *La saca de cosas vedadas en el derecho territorial castellano*, p. 201-202.

(٢) ISABEL MONTES ROMERO –CAMACHO; “Las Instituciones de la "SACA" en la Sevilla del Siglo XV”, *Aproximacion AL Estudio de la Organizacion Institucional del Comercio Exterior de la Corona de Castilla AL final de la Edad Media*, Nº 31, 2004, p.419.

(٣) MANUEL GONZALEZ JIMENEZ; *La frontera castellano-granadina en la Baja Edad Media*, p. 202-203.

(٤) JOSE RODRIGUEZ MOLINA; *Relaciones Pacificas en la Frontera con El Reino de Granada*, p. 271.

غرناطة وقشتالة(١)، يدل ذلك على الفرق الشاسع بين العلاقات الرسمية بين غرناطة وقشتالة، وبين الممارسات الحدودية الحقيقية.

لذلك اقتضت الرغبة في وقف عمليات التهريب بين قشتالة وغرناطة إقامة مؤسسة تقوم على ضبط وإيقاف هذه العمليات من جانب المتضرر وهو الجانب القشتالي، وتباشر أعمالها من أماكن العبور المأهولة، وعليه ظهر منصب القاضي أو المفتش المسؤول عن ضبط عمليات التهريب، يرأس هذه المؤسسة قاضٍ يساعده عدد من المساعدين المنتشرين في المدن الحدودية، ويشرف القاضي أيضًا على القوات المنوط بها حراسة الحدود، ولا يمكن تحديد تاريخ معين لتدشين هذه المؤسسة الحدودية، فالبعض يشير إلى وجود هؤلاء القضاة المسؤولين عن ضبط عمليات التهريب في بعض الموانئ الحدودية الهامة، كموانئ قيجاطة Quesad، وأويلما Huelma، وكمبيل Campil، وجيان Jaén، والكالا لا ريال Alcalá La Real إلى عهد ألفونسو العاشر Alfonso X El sabio (١٢٥٢-١٢٨٤م) وأنه هو أول من حدد المناطق الحدودية التي يجب أن يتصرف فيها هؤلاء القضاة.(٢)

ترجح بعض الدراسات الأخرى أن ظهور هذه المؤسسة ظهر في عهد خلفاء ألفونسو العاشر تحديدًا على عهد ألفونسو الحادي عشر Alfonso XI (١٣١٢-١٣٥٠م) بين عامي ١٣٢٢م و ١٣٢٩م، وتم تأكيد الاختصاص القضائي لـ alcaldes de sacas في مجلس بلدية بلد الوليد Valladolid عام

---

(١) DIEGO MELO CARRASCO; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV*, p. 254-255.

(٢) JOSE RODRIGUEZ MOLINA; *Relaciones Pacificas en la Frontera con El Reino de Granada*, p. 265; ISABEL MONTES ROMERO –CAMACHO; *Las Instituciones de la "SACA" en la Sevilla del Siglo XV*, p. 434.

١٣٥١م، عندما أشار الملك بيدرو الأول (١٣٥٠-١٣٦٩م)، بعد تقسيم حدود المملكة إلى مقاطعات لضمان مراقبة أفضل، إلى المسؤولين بتعيين هؤلاء القضاة لإقامة العدل سواء على حدود مملكتي نافار وأراغون، وعلى حدود غرناطة والبرتغال، وفوضهم الملك أن يضعوا نيابة عنهم، حراسًا في مختلف الأماكن؛ واجب هؤلاء الحراس هو تسليم الأشخاص المحتجزين إلى قاضي أقرب مكان، في خلال أربع وعشرون ساعة، لبدء إجراءات التقاضي، والتي يتم فيها إدانة هؤلاء الأفراد أو براءتهم.(١)

تكشف الإجراءات المتبعة من الجانب القشتالي عن استمرار عمليات التهريب إلى مملكة غرناطة على الرغم من تشديد الحراسة على الحدود، حتى ضج سكان الحدود القشتاليين من عمليات التهريب المستمرة إلى مملكة غرناطة، مما دعى الحكام إلى فرض عقوبات شديدة على المتسببين في ذلك، وكذلك منح مكافآت لمن يدلي بمعلومات تكشف عن عمليات التهريب، خاصة القمح الذي ارتفع سعره بشكل مبالغ فيه بسبب هذه التجاوزات، حيث شهدت الحدود بين غرناطة وإشبيلية وقادس وقرطبة أكبر عمليات تهريب للقمح إلى مملكة غرناطة، ويبدو أن جني الأرباح من عمليات تهريب القمح صم آذان المهربين لدرجة أن بعض سكان تلك المناطق هجروها لنقص القمح وارتفاع سعره بشكل كبير؛ كما أجرى بعض الحكام تعديلات الغرض منها مساعدة القاضي في عمله، فعلى سبيل المثال عين الملك فرناندو الرابع سنة ١٣٠١م حُرَّاسًا في موانئ المدن الحدودية تابعين مباشرة لقاضي التهريب بخلاف شرطة الحدود التي أشرت لها سابقًا، مهمتهم مراقبة

---

(١) MIGUEL PINO ABAD; *La saca de cosas vedadas en el derecho territorial castellano*, p.208-209.

عمليات التهريب فقط، وتم تعيينهم من أبناء سكان الحدود، ومن عائلات ميسورة الحال حتى لا يقعوا فريسة للرشوة والفساد.(١)

ونظرًا لأهمية الدور الذي يقوم به هذا القاضي المسؤول عن وقف وضبط عمليات التهريب، تم إسناد هذا المنصب لأشخاص على علاقة وثيقة بالتاج القشتالي مثل دييجو لوبيز دي أيالا Diego López de Ayala(٢)، وبيدرو دي بينوس Pedro de Pinos الذي مارس المنصب في عام ١٤٧٦م على حدود مدينة شريش Jerez، ومارس المنصب أيضًا بعض أفراد من عائلة سافيدرا القريبة من التاج القشتالي، حتى وصل المنصب إلى ألفونسو دي أفيلا Alfonso de Avila السكرتير الخاص بالملكة إيزابيلا الأولى Isabel I (١٤٧٤-١٥٠٤).(٣)

وكان على القاضي أداء اليمين القانونية قبل بداية عمله، وتقتضي وظيفته عدم التربح منها، وكذلك يتوجب عليه الإقامة الدائمة في مناطق عمله الحدودية(٤)، وكان له الحق في تلقي المساعدة من حراس القلاع للبحث فيها عن المهربين، ويمكن للقضاة دخول القلعة لتفتيشها، وفي بعض الأحيان حقق القضاة بأثر رجعي في عمليات التهريب التي تمت بناء على أوامر من الملك، مثلما حدث

---

(١) ISABEL MONTES ROMERO –CAMACHO; *Las Instituciones de la "SACA" en la Sevilla del Siglo XV* , p. 419; MIGUEL PINO ABAD ; *La saca de cosas vedadas en el derecho territorial castellano*, p.205-206.

(٢) DIEGO MELO CARRASCO; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV*. P. 254.

(٣) ISABEL MONTES ROMERO –CAMACHO; *op.cit.*, p. 431, p. 434.

(٤) ANDRES CORNEJO; *Diccionario historico, y forense del Derecho Real de España,* p. 32-33.

سنة ١٣٧٥م عندما أمر الملك القشتالي إنريكي الثاني Enrique II (١٣٦٩-١٣٧٩م) قضاة منع التهريب بالبحث والتحقيق مع من قاموا بعمليات التهريب في السنوات السابقة؛ فانتشر التحذير في بلدة لورقة Lorca عن أنباء هذا التحقيق، مما دفع مجلس بلدية لورقة إلى إرسال رسالة إلى مجلس مدينة مرسية يطلب المساعدة في منع إجراء هذا التحقيق، لأنه أدى إلى انتقال الكثيرين من لورقة إلى مناطق أخرى خوفًا من هذا التحقيق(١)؛ وإن دل هذا على شئ فإنه يدل على كثرة عمليات التهريب التي تمت في هذه البلدة الحدودية على وجه التحديد لدرجة هروبهم من أماكنهم خوفًا من التحقيق الذي قد يؤدي إلى إدانتهم، وتوقيع العقوبات عليهم.

تفاوتت عقوبة التهريب حسب السلعة المهربة، فجاء تهريب الخيول والحيوانات على قمة جدول العقوبات، حيث تصل العقوبة في هذه الجريمة إلى الإعدام والمصادرة، ففي ١٠ ديسمبر ١٤٧٨م، سمحت الملكة إليزابيث لأي شخص اكتشف المهربين بالقبض عليهم والاحتفاظ بثلث البضائع والحيوانات التي جلبوها معهم، ملزمة بإعلانها أمام السلطات القضائية في المكان الذي ارتكبت فيه الجريمة، وسيتم حجز ثلث آخر من البضائع للسلطات التي تتعامل مع القضية، ويأتي تغليظ العقوبة في هذه الحالة في إطار منع تسليح مملكة غرناطة، وأما عقوبة بقية السلع الأخرى مثل المعادن والعملات والصوف والخبز والخضروات، فلم تتعد المصادرة والغرامات المالية، أما في حالة عدم الامتثال

---

(١) ISABEL GARCIA DIAZ; *La frontera murciano-granadina a fines del siglo XIV*, p. 30-31.

للأمر فإن المهرب يتعرض للعقوبات الجنائية(١)، وعلى الرغم من الأحكام والتدابير المتخذة، فإن عمليات التهريب في النهاية لن تكون سوى مجرد مشكلة حدودية، ولكن من الصعب السيطرة عليها برغم جهود الملوك وبنود الهدنات، لا سيما فيما يتعلق بتنظيم المرور إلى الموانئ أو طريقة التبادل الحدودي، وهي كلها محاولات للقضاء على عمليات التهريب.(٢)

رابعًا: الفَكَّاك Alfaqueque

أفرز الصراع العسكري بين الجانبين الإسلامي والمسيحي في الأندلس وظيفة الفَكَّاك الذي يتوسط بين الجانبين لفك الأسرى، وتطورت هذه الوظيفة وعملت بشكل مؤسسي على الحدود التي تمثل مناطق التماس التي تشهد عمليات الكر والفر، وعندما تضع الحرب أوزارها يبدأ الفَكَّاك عمله على الجانبين.(٣)

ظهر مصطلح الفكاك في العديد من النصوص القشتالية، وهي مشتقة من الكلمة العربية الفكاك، أي فادي الأسير، وهو من يتولى خطة فك أسرى الحرب سواء البري أو البحري؛ وأطلق مصطلح الفكاك منذ نهاية القرن الثاني عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الميلادي على كل من مارس هذه الخطة سواء

---

(١) JOSE LUIS BERMEJO CABRERO; "Dos Ordenamientos de Enrique II sobre sacas", *Cuadernos de historia del derecho*, Nº 5, 1998, p.274; DIEGO MELO CARRASCO; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV*,p.255.

(٢) JOSE LUIS BERMEJO CABRERO; *op. cit.*, p.274; DIEGO MELO CARRASCO; *op. cit.*, p.256.

(٣) MANUEL GONZALEZ JIMENEZ; *La frontera castellano-granadina en la Baja Edad*, p.194.

كان مسلمًا أو مسيحيًا[١]؛ وظهر مصطلح الفكاك لأول مرة في التشريع المحلي لمدينة شلمنقة Salamanca، ومن أهم الشروط التي يجب توافرها في الفكاك طبقًا لمجموعة قوانين ألفونسو العاشر Las Siete Partidas[٢]، الإخلاص، الشجاعة، الأمانة، وأن يكون الفكاك محبًا لعمل الخير، وأن يكون على معرفة جيدة بلغات متعددة، والمثابرة والمهارة في عملية التفاوض، وأن يكون مطلعا على عادات وتقاليد أطراف الصراع، وكان من الضروري أن يتمتع بوضع اقتصادي جيد ليكون بمنأى عن أي شبهة فساد[٣].

---

(١) الحسين اليعقوبي: في الفكاكة والفكاكين، مجلة دراسات أندلسية، تونس، العدد ٧، ١٩٩٢م، ص٦١-٦٢؛

ICIAR ALONSO, GERTRUDIAS PAYAS: *Sobre Alfaqueques Y Nahuatlatos: nuevas aportaciones a la historia de la interpretacion*, Universidad de Alcala 2008. P, 5.

(٢) las Siete Partidas: مجموعة قوانين ألفونسو العاشر "العالم" Alfonso X El sabio (١٢٥٢-١٢٨٤م) ملك قشتالة وليون، والذى أمر بصياغة هذه القوانين والتى أضيفت لها بعض التعديلات بعد ذلك، وتتكون هذه القوانين من سبعة أبواب على النحو التالى: الباب الأول يتحدث عن جوهر القانون؛ بينما يدور الباب الثانى حول الحكومة والعلاقات القانونية بين السادة والتابعين؛ ويتناول الباب الثالث القانون الإجرائى والقانون المدنى؛ ويشتمل الباب الرابع على قانون الزواج وقانون العائلات والأنساب والأحوال المدنية؛ ويشرح الباب الخامس القانون التجاري؛ ويتناول الباب السادس قانون الوصايا والميراث؛ وأخيرًا الباب السابع الذي يتناول القانون الجنائى، أنظر: أميرة الطواب: أسرى الصراع الإسلامى المسيحى في الأندلس، ص١٢٤.

أنظر أيضًا https://ar.wikipedia.org/wiki

(١) RACHEL ARIÉ ; *El Reino Nasri de Granada*, p. 139-140 ; JOSE ENRIQUE LOPEZ DE COCA CASTANER ; *La liberacion de cautivos en la Frontera de Granada (siglos XIII-XV). En la Espana medieval*, 2013, Vol 36, p. 98; Mª ANGELES JORDANO BARBUDO: "La capilla funeraria del alfaqueque judeoconverso don Diego Fernandez abencacin", *anuario de historia de la Iglesia*, vol 24, 2015, P.333.

تطلق وثائق الفكاكة القشتالية على صاحب هذه الوظيفة اسم الفكاك الأكبر للحدود Alfaqueques Mayores de la Frontera وتؤكد على طاعة المسؤولين في مدن الحدود له والامتثال لأوامره، وتنفيذها في كل ما يتعلق بفك الأسرى والالتزام بالهدنة، إذ أنه المخول من جانب السلطات بتوقيع اتفاقيات الهدنة والإشراف على تنفيذها، وتشير الأحداث إلى قيام دييجو فرنانديز دي قرطبة فكاك قرطبة الأكبر بعقد اتفاق هدنة سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م مع سعيد الأمين فكاك غرناطة بعد أن وضعت الحرب أوزارها بين الطرفين في منطقة أنتقيرة.(١)

خلف دييجو بعد وفاته عام ١٤٣٨م في منصب الفكاك الأكبر في قرطبة جيرونيمو لوبيز دي سالدانا Jerónimo López de Saldaña؛ وفي قشتالة اعتلى خوان دي سافيدرا Juan de Saavedra رئيس بلدية قشتالة منصب الفكاك الأكبر على الحدود بين لورقة وجزيرة طريف عام ١٤٣٩م بمباركة من الملك خوان الثاني (١٤٠٦-١٤٥٤م) والذي نال إعجاب البلاط القشتالي (٢)؛ ويدلل ذلك على اختيار أفضل العناصر لهذا المنصب ممن لهم خبرة إدارية، وظل هذا المنصب بعد ذلك حكرًا على عائلة سافيدرا على الحدود بين جزيرة طريف ولورقة، إذ منح الملك إنريكي الرابع المنصب إلى ابن خوان دي سافيدرا القاصر (خوان) وسمح لوالدته خوانا دي أفيلانيدا Juana de Avellaneda، بتعيين أشخاص موثوق بهم، لشغل المنصب حتى يبلغ ابنها سن الرشد، وظل المنصب في عائلة سافيدرا

---

(١) JUAN TORRES FONTES ; *Notas Sobre los fieles del rastro Y Alfaqueques murc ianos*, P.104-105.

(٢) RACHEL ARIĖ ; *El Reino Nasri de Granada*, p. 140.

حتى الإلغاء النهائي للمنصب في عهد الملك فيليب الثالث في بداية القرن السابع عشر، أما عن الجانب الآخر فإن المصادر لم تسعفنا عن حالات مماثلة إلا في حالة الفكاك سعيد الأمين فكاك غرناطة الذي شغل المنصب لسنوات عديدة وذاعت شهرته على الجانب القشتالي كشريك في عمليات الفك والاتفاق على الهدنة.(١)

يتضح من الوثائق التنظيم الهرمي لمؤسسة الفكاكة على الجانبين القشتالي والغرناطي، إذ يرأس الفكاك الأكبر Alfaqueques Mayores de la Frontera عددًا من الفكاكين الصغار alfaqueques menores، يساعدونه في عمليات البحث والتحري وتقديم المعلومات عن الأسرى والمساعدة في عمليات الفداء على طول الحدود، وبسبب التحام الفكاكين الصغار بالمجتمعات الحدودية فقد عملوا كذلك في التجارة بجانب عملهم الأصلي في الفكاكة(٢)، وكونوا ثروات كبيرة يرجع بعضها في بعض الحالات إلى عمليات التجسس لصالح الخصم، مثلما حدث من بيدرو غراس Pedro Gras الفكاك المسيحي لمنطقة لورقة الذي اتهم بالتجسس لصالح غرناطة، وعليه أمر الملك ألفونسو الحادي عشر باعتقاله سنة

---

(١) MANUEL GARCIA FERNANDEZ; *Sobre la alteridad en la frontera de Granada*, p.231; ISABEL MONTES ROMERO – CAMACHO; *Sevilla Y la Frontera de Granada durante el reinado de Enrique IV*, p. 140, DIEGO MELO CARRASCO; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV*,p.270.

(٢) JAMES W. BRODMAN; "Ransoming captives in crusader spain": *the order of merced on the Christian-Islamic frontier*, university of Pennsylvania 1986, p.8 ; DIEGO MELO CARRASCO ; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV*, p.269-270

.

١٣٣٠م والحجر عليه في التعاملات المالية مع سكان لورقة.(١)

ارتبطت عملية فك الأسرى أو فدائهم على أسس تنظيمية معينة، من ناحية تسليم وتسلم الأموال، لذلك تطلب عمل الفُكَّاك ظروفًا خاصة، لأنهم في بعض الأوقات وعلى الرغم من وسائل التأمين التي حملوها إلا أن هناك العديد من المشكلات التي واجهتهم أثناء أداء مهامهم، حيث تعرضوا لمخاطر السرقة والاعتقال والسجن وأحيانًا القتل، دون احترام للضمانات المقدمة، فتعرضوا أحيانًا لسرقة متعلقاتهم، وأحيان أخرى السجن(٢)؛ وبسبب هذه المخاطر المحتمل حدوثها، كان يحق للفكاك الحصول على نسبة من قيمة الفدية، وأحيانًا لم يكن هناك أجر ثابت لهؤلاء الفكاكين، ففي حال كانت الصفقة عبارة عن مبادلة أسير بآخر، اقتصرت الأرباح على تلقي الأموال اللازمة لنفقة هذا الأسير طوال مدة الرحلة؛ وقد حصل هؤلاء الفكاكون على أرباح طائلة تصل إلى ١٠: ١٢٪ من قيمة الفدية، وفي نهاية القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي وفي المنطقة المتمركزة في جبل طارق وأنتيقرة حصلوا على ٧,٥ دوبلة لكل أسير تم افتكاكه مسلم أو مسيحي.(٣)

---

(١) ALEJANDRA RECUERO LISTA; “El reinado de Alfonso XI de Castilla (1312-1350)”, *tesis doctoorales en la Universidad Autónoma de Madrid*, Facultad de filosofia y letras (España) 2016, P. 1087, P. 1100.

(٢) JUAN TORRES FONTES ; *Notas Sobre los fieles del rastro Y Alfaqueques murcianos*, P.104; DIEGO MELO CARRASCO; *Un modelo para la resolución de conflictos internacionales entre islam y cristiandad*, P. 358.

(٣) JOSE ENRIQUE LOPEZ DE COCA CASTANER: *La liberacion de cautivos en la Frontera de Granada (siglos XIII-XV)*, p. 98; DIEGO MELO CARRASCO; *op. cit.*, P. 357; *Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV*, p. 267-268.

ظهر الفكاك في بعض الأحيان أيضًا كقاضٍ للحدود، أو ما يسمى بـ" القاضي بين الملوك" في اتفاقية السلام بين قشتالة وغرناطة عام ٧١٠هـ/١٣١٠م، وكان مسؤولًا عن الفصل في المنازعات الحدودية التي تنشأ في وقت الهدنة بين مسلمي غرناطة والمسيحيين في المناطق المجاورة، كالسرقة وغيرها، فكان عليهم القبض على من يرتكب هذه التجاوزات من كلا الطرفين، وفي القرن الخامس عشر وفي عهد الملك القشتالي إنريكي الرابع Enrique IV (١٤٥٤- ١٤٧٤م) تم تدعيم هذه الوظيفة، ولعب القائد Alfonso Fernandez de Cordoba دورًا هامًا في ضبط الأمن على الحدود[1].

تكررت عمليات افتداء الأسرى على حدود مدينة مرسية، على الحدود بين مدينة لورقة Lorca المسيحية، وبيرة[2] Vera الغرناطية في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وعبر الفكاكون الحدود بحرية والتقوا مع

---

(١) RACHEL ARIÉ; *El Reino Nasri de Granada*, p 142; FRANCISCO VIDAL CASTRO: "Le Rachat de captives musulmans en AL-Andalus (VIIIE-XVE siècle)", "Théorie et pratique du droit et des institutions islamiques", *Publications de la Sorbonne| Hypothèses*, 2006 1, P.318-319; JOSE RODRIGUEZ MOLINA: *Convivencia de cristianos Y Musulmanes en la Frotera de Granada*, p. 196.

(٢) بيرة Vera: بلدة حصينة مرتفعة، تطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط عند الحدود الشمالية الشرقية لمملكة غرناطة، ومن المراسلات المتبادلة بين بعض ملوك غرناطة وملوك الدول المجاورة، نفهم أن مدينة بيرة كانت تعتبر أقصى حدود المسلمين في تلك المنطقة، أنظر: ابن الخطيب: خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، ضمن مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، ص٤٠.

سلطات لورقة وبيرة بعد حصولهم على رخصة عبور على الجانبين[١]، وفي العديد من المناسبات، كان منصب الفكاك يمارسه أشخاص على علاقات جيدة بكلتا المملكتين، كما كان حال العديد من اليهود، الذين كانوا على دراية باللغة العربية، ولديهم القدرة على الاطلاع على كل الأخبار التي يمكن أن تكون مفيدة لزعماء الحدود، عملوا أيضًا بالتجارة والترجمة، وحازوا قبولًا على الجانبين، على أية حال كان وجود مثل هؤلاء الفكاكين على جانبي الحدود بين قشتالة وغرناطة أمرًا هامًا لحفظ الأمن والاستقرار.[٢]

* * *

---

(١) JUAN FRANCISCO JIMENEZ ALCAZAR ; *Relaciones interterritoriales en el sureste del la peninsula Iberica durante la baja edad media*, p. 584.

(٢) DIEGO MELO CARRASCO; Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV, p. 261, p. 268

الخاتمة:

عرفت إسبانيا في العصور الوسطى المتأخرة نظام التخصص في المجالات القضائية والعقابية؛ فالقضايا الجنائية يحكم فيها قاضي الحدود، والقضايا الاقتصادية يفصل فيها القاضي المسؤول عن عمليات التهريب، أما قضايا الأسرى فمنوط بها متخصصون في عمليات الفك، وإن كان ثمة نجاح لهذه المؤسسات فهو لارتباطها المباشر بالحكام على الجانبين بعيدًا عن البيروقراطية المحلية وتعقيداتها، وارتباطها الوثيق بالناحية الاقتصادية، كانت مملكة قشتالة، وخاصة في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي أكثر نشاطًا وتنظيمًا من مملكة غرناطة في التنظيم الداخلي وتنظيم الحدود، يتضح ذلك من كثرة المؤسسات والمناصب الإدارية الحدودية التي أنشأتها قشتالة للحفاظ على حدودها، ومنع عمليات التهريب.

لم تعبر الحوادث الحدودية بين غرناطة وقشتالة عن العلاقات الرسمية بين المملكتين، لأنها كانت حوادث فردية هدفها السرقة والخطف والأسر، وحاولت تلك المؤسسات حل مثل هذه المشكلات الحدودية، إلا أنها لم تمنع اندلاع الحروب الكبرى بين البلدين، ولكن اقتصر دورها على معالجة الحوادث الفردية التي تقع على الحدود خلال فترات السلم.

* * *

ملحق (١)

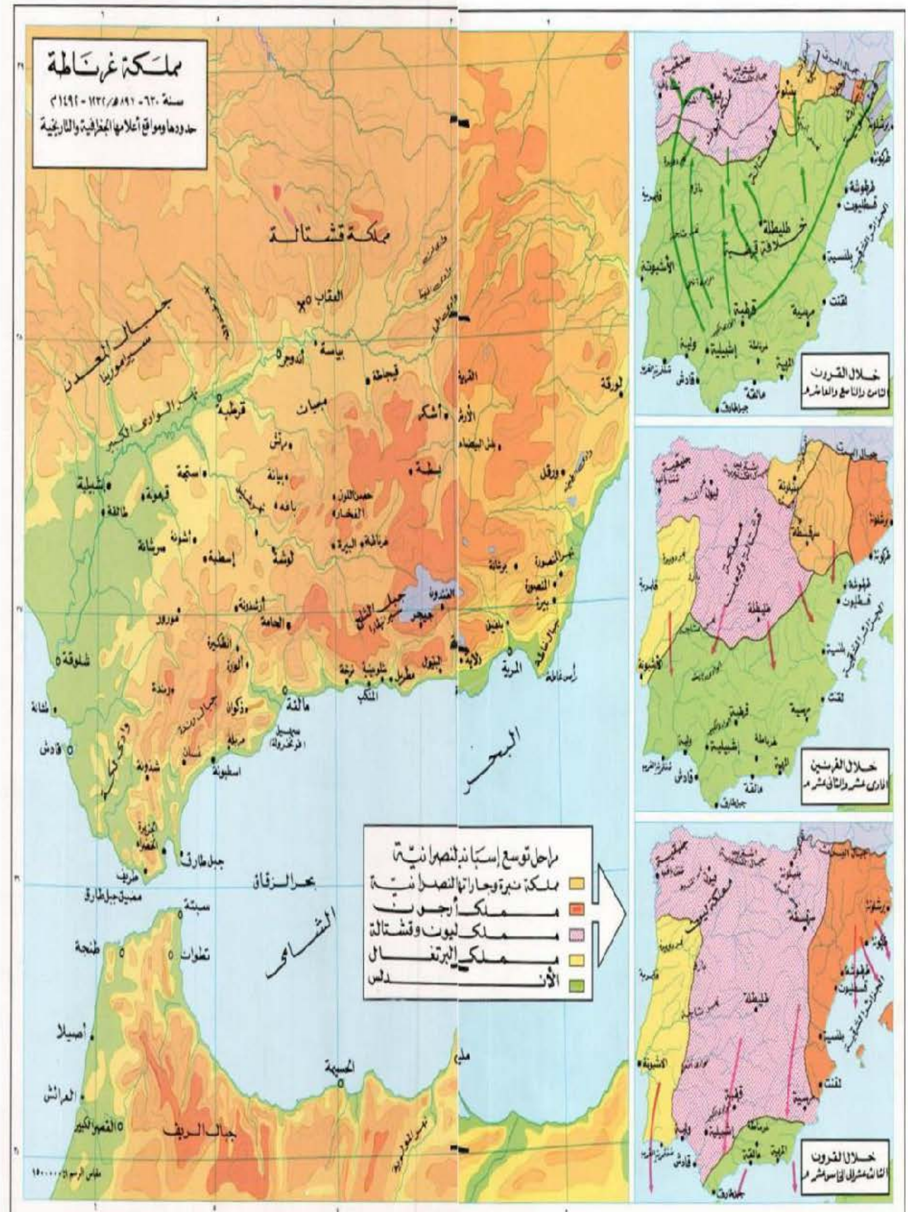

حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ص١٧٦-١٧٧.

ملحق (٢)

إخطار بتعيين ألفونسو يانيز فاخاردو عمدة بين المسلمين والمسيحيين

من إنريكي الثاني لجميع مجالس مملكة مرسية

قرطبة ٢٦ أغسطس ١٣٧٨م.

من إنريكي،..... إلى جميع المجالس، ورؤساء البلديات، والمحلفين، والقضاة، والرؤساء، والقادة، والقلاع والمنازل الحصينة، وجميع المسؤولين الآخرين في جميع مدن وبلدات وأماكن مدينة مرسية، أن هذه هي رسالتنا....... أعلم أنه بسبب تقديم العديد من الشكاوى إلينا عن العديد من المشكلات والأضرار التي تلقاها مسيحيو منطقة مرسية المذكورة من مسلمي غرناطة المتواجدين في تلك المنطقة،...... مما يترتب عليه إضرار بنا وبأرضنا،...... لذا نعتبر أنه من الجيد أن يكون ألفونسو يانيز فاخاردو، تابعنا في تلك المملكة المذكورة، عمدة بين المسيحيين والمسلمين حتى يسمع ويقضي في كل شكاوى المسلمين والمسيحيين في مملكة مرسية المذكورة، للفصل في الخلافات والنزاعات التي تنشب بين مسيحيي مملكة مرسية ومسلمي مملكة غرناطة .... بالإضافة إلى ذلك، نأمر بأنه إذا قام بعض المغاورين أو المخترقين الذين يسرقون أو يتسببون في أي ضرر في مملكة غرناطة في انتهاك السلام القائم بيننا وبين ملك غرناطة، فإنهم يلجؤون إلى تلك المدن والبلدات والأماكن والقلاع الحدودية، لتحقيق العدل والحق وفقًا لشروط السلام التي بيننا وبين ملك غرناطة، بالإضافة إلى ذلك، إذا كان يريد أن يفعل أشياء مع المسلمين المذكورين للتراجع عن المظالم التي ارتكبها بعضهم، وإذا كان يريد القيام بأشياء على أرضه أو إذا كان بحاجة إلى المساعدة،......... ومن خلال رسالتنا هذه، نمنحك رعايتنا الكاملة حتى تتمكن من استخدام منصبك في تلك المملكة المذكورة بشكل جيد وكامل بين المسيحيين والمسلمين على تلك الحدود، في الوفاء بالوعود وفي تنفيذ الأحكام والقيام بمسؤوليات المنصب لخدمة وحماية بلدنا، وفقًا لما هو أفضل وأشمل ما يتم فعله ويستخدمه قضاة الحدود الآخرون الذين هم من المسيحيين والمسلمين على تلك الحدود، ولهذا نأمر بإعطاء ألفونسو يانيز رسالتنا المختومة هذه. كتبت في مدينة قرطبة، في ٢٦ أغسطس ١٣٧٨م. نحن الملك.

JUAN TORRES FONTES; *El Alcalde entre moros y cristianos del reino de Murcia*, p. 21-23.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر العربية

الإدريسي (محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م):

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الثاني، مكتبة الثقافة الدينية ١٩٩٤م-١٤١٤ه.

الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري ت أواخر القرن ٩هـ/١٥م):

- الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م.

ابن الخطيب (أبو عبد الله محمد بن عبد الله التلمساني ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م):

- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، القسم الثاني في أخبار الجزيرة الأندلسية – تحقيق ليفي بروفنسال، المطبعة الجديدة، رباط الفتح ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.
- معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، ضمن مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٣م.
- كناسة الدكان بعد انتقال السكان، حول العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في القرن الثامن الهجري، تحقيق محمد كمال شبانة، مراجعة حسن محمود، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تصحيح ونشر محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٧هـ.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ت٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م)

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط خليل شحادة، ومراجعه سهير زكار، نشر دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

السلاوي الناصري (الشيخ أبو العباس احمد بن خالد الناصري ١٣١٥هـ/١٨٩٧م)

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – تحقيق ولدى المؤلف جعفر ومحمد الناصري، نشر دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥م.

ابن عاصم (أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي ت٨٢٩ه)

- جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، مج٢، تحقيق صلاح جرار، درا البشير عمان ١٩٨٩م.

ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد ت ٧١٢ه/١٣١٢م)

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الثاني، تحقيق ج.س كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٠ه/١٩٨٠م.

ابن مرزوق (محمد بن مرزوق التلمساني):

- المسند الصحيح الحسن في محاسن ومآثر مولانا أبو الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمد بو عياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١ه/١٩٨١م.

المقري (أحمد بن محمد المقري التلمسانى ت ١٠٤١ه / ١٦٣٣م):

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بين الخطيب، المجلد الرابع، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٦٨م،

مؤلف مجهول:

- ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة لويس مولينا، الجزء الأول، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ١٩٨٣م.

ثانيًا: المراجع العربية

أحمد مختار العبادي:

- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، الطبعة الأولى ١٩٦٨م.
- صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

أميرة الطواب أحمد سفين:

- أسرى الصراع الإسلامي المسيحي في الأندلس من عصر المرابطين حتى سقوط غرناطة (٤٨٣-٨٩٧ه/١٠٩٠-١٤٩٢م)، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، سوريا، ٢٠٢٢م.

أوليفيا ريمي كونستبل:

- التجارة والتجار في الأندلس، تعريب د. فيصل عبد الله، نشر مكتبة العبيكان ١٤٢٣ه/٢٠٠٢م.

حسين مؤنس:

- أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

دانيال أوسطاش:

- تاريخ النقود الإسلامية وموازينها في المشرق وبلاد المغرب، من البدايات الأولى إلى الآن، ترجمة محمد معتصم، نشر عمر أفا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم ١٤، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

عبد الرحمن علي الحجي:

- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ/٧١١-١٤٩٢م، دار القلم دمشق، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٤م.

كمال أبو مصطفى:

- دراسات أندلسية في التاريخ والحضارة، مركز الإسكندرية للكتاب، ١٩٩٧م.

محمد بشير حسن العامري:

- تاريخ بلد الأندلس في العصر الإسلامي، دار الكتب العلمية، ٢٠١٤م.

محمد عبد الله عنان:

- دولة الإسلام في الأندلس، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م.

محمد كمال شبانة:

- يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة (٧٣٣-٧٥٥هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٤م.

يوسف شكري فرحات:

- غرناطة في ظل بنو الأحمر، دراسة حضارية، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

ثالثًا: الرسائل العلمية

صالح بن قربة:

- المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، رسالة دكتوراة بجامعة الجزائر، ١٩٨٢-١٩٨٣م.

رابعًا: المجلات والدوريات

الحسين اليعقوبي:

- في الفكاكة والفكاكين، مجلة دراسات أندلسية، تونس، العدد ٧، ١٩٩٢م.

خامسًا: المصادر الأجنبية

ANDRÉS CORNEJO;

- Diccionario historico, y forense del Derecho Real de España, por Joachin Ibarra, Madrid, 1779.

M. A. ALARCON Y. R. GARCIA DE LINARES:

- Los Documentos Árabes Diplomáticos Del Archivo de la Corona de Aragón-Madrid y Granada, 1940.

سادسًا: المراجع الأجنبية

AHMAD MUJTAR AL-ABBADI;

- El-Reino de Granada en la Ėpóca de Muhamad V- Madrid, 1973.

ALEJANDRA RECUERO LISTA;

- "El reinado de Alfonso XI de Castilla (1312-1350)", tesis doctoorales en la Universidad Autónoma de Madrid, Facultad de filosofia y letras (España) 2016.

CARMEN PEREA CARPIO;

- La frontera concejo de Jaén-Reino de Granada en 1476, Cuadernos de Estudio Medievales, Granada X-XI , 1983.

DIEGO MELO CARRASCO;

- Un modelo para la resolución de conflictos internacionales entre islam y cristiandad. elaboración y estudio de un corpus documental de los tratados de paz y tregua entre Al-andalus y los reinos cristianos (Reino Nazarí de Granada con Castilla y Aragón, siglos XIII-XV) Salamanca, 2012.
- Las treguas entre Granada y Castilla durante los siglos XIII a XV, Revista de Estudios Histórico-Jurídicos, Sección Historia del Derecho Español, XXXIV Valparaíso, Chile, 2012.
- El sultanato Nazarí de Granada y la frontera (S. XIII-XV), Revista Encrucijada Americana, Año 11 N°2, 2019.

FRANCISCO VIDAL CASTRO ;

- Le Rachat de captives musulmans en AL-Andalus (VIIIE-XVE siècle), Théorie et pratique du droit et des institutions islamiques, Publications de la Sorbonne, Hypothèses, 2006.

ICIAR ALONSO, GERTRUDIAS PAYAS:

- Sobre Alfaqueques Y Nahuatlatos: nuevas aportaciones a la historia de la interpretacion, Universidad de Alcala 2008.

ISABEL GARCÍA DÍAZ;

- La frontera murciano-granadina a fines del siglo XIV, Murgetana, 79, 1989.

ISABEL MONTES ROMERO –CAMACHO;

- Sevilla Y la Frontera de Granada durante el reinado de Enrique IV (1454 – 1474), Relaciones exteriores del Reino de Granada: IV del Coloquio de Historia Medieval Andaluza / coord. por Cristina Segura Graíño, 1988.
- Las Instituciones de la "SACA" en la Sevilla del Siglo XV. Aproximacion AL Estudio de la Organizacion Institucional del Comercio Exterior de la Corona de Castilla AL final de la Edad Media, N° 31, 2004.

JAMES W. BRODMAN:

- Ransoming captives in crusader spain: the order of merced on the Christian-Islamic frontier, university of Pennsylvania 1986.

JARBEL RODRIGUEZ:

- Captives and their saviors in the medieval crown of Aragon, the catholic university of America, washington, 2007.

JOSÉ ENRIQUE LOPEZ DE COCA CASTANER:

- La liberacion de cautivos en la Frontera de Granada (siglos XIII-XV). En la Espana medieval, 2013, Vol 36.
- La Frontera de Granada Acerca del territorio y la linea divisoria (Siglos XIV y XV), Historia. Instituciones. Documentos, N° 45, 2018.

JOSÉ LUIS BERMEJO CABRERO;

- Dos Ordenamientos de Enrique II sobre sacas, Cuadernos de historia del derecho, N° 5, 1998.

JOSÉ RODRIGUEZ MOLINA ;

- Convivencia de cristianos Y Musulmanes en la Frontera de Granada, Universidad de Granada, Historia de la paz, 2000.
- Relaciones Pacificas en la Frontera con El Reino de Granada, Universidad de Granada, Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos, n.° 46, 1997.

JUAN FRANCISCO JIMENEZ ALCAZAR ;

- Relaciones interterritoriales en el sureste del la peninsula Iberica durante la baja edad media:Cartas, mensaderos Y Ciudades en la Frontera de Granada, AEM 40/2 Julio-diciembre de 2010.

JUAN TORRES FONTES ;

- El Alcalde entre moros y cristianos del reino de Murcia, Consejo

Superior de Investigaciones Científicas,Instituto, Jerónimo Zurita , de Hispania, número LXXVIII, 1960.
- Notas Sobre los fieles del rastro Y Alfaqueques murcianos, Miscelánea de estudios árabes y hebraicos. Sección Arabe-Islam, Vol. 10, 1961.
- Los Fajardo en los siglos XIV y XV, Miscelánea Medieval Murciana, Núm. 4 ,1978.
- Las Treguas Con Granada de 1469 y 1472, Cuadernos de estudios medievales y ciencias y técnicas historiográficas, Nº. 4-5, 1979.

LUIS SECO DE LUCENA PAREDES;
- El juez de frontera y los fieles del rastro, en esta Miscelánea, vol. VII ,1958.
- Muhammad IX Sultan de Granada - Granada, 1978.

Mª ANGELES JORDANO BARBUDO:
- La capilla funeraria del alfaqueque judeoconverso don Diego Fernandez abencacin, anuario de historia de la Iglesia, vol 24, 2015.

MANUEL GARCIA FERNANDEZ;
- La Frontera de Granada A Mediados del Siglo XIV, Revista de Estudios Andaluces, n. 9 ,1987.
- Sobre la alteridad en la frontera de Granada. (Una aproximacion al analisis de la guerra y la paz, siglos XIII-XV, Revista da Faculdade de Letras HIST0RIA Porto, III Serie, vol. 6, 2005.

MANUEL GONZALEZ JIMENEZ;
- La frontera castellano-granadina en la Baja Edad Media y sus estudios: estado de la cuestion ,sevilla, 2009-2010.
- La frontera de Granada, Tres siglos de paz y de guerra, Murgetana, Nº. 130, 2014.

MARIA JESUS VIGUERA MOLINS;
- Guerra y la Paz en la Frontera Nazari desde las Fuentes Árabes, Actas del Congreso la Frontera Oriental Nazarí como Sujeto Histórico (S.XIII-XVI): Lorca-Vera, 22 a 24 de noviembre de 1994, coord. por Pedro Segura Artero, 1997.

MIGUEL ANGEL LADERO QUESADA;
- La Hacienda Real de Castilla en el siglo XV, Universidad de la Laguna,1973.
- Las ciudades de Andalucía occidental en la Baja Edad Media: sociedad, morfología y funciones urbanas, La Ciudad Hispánica siglos XIII al XVI,

Universidad Complutense, Madrid 1987.

MIGUEL PINO ABAD ;

- La saca de cosas vedadas en el derecho territorial castellano, Anuario de historia del derecho español, Nº 70, 2000.

RACHEL ARIÉ;

- Rachel Arié: L`Espagne Muslmane au temps de Nasride (1232-1492) Paris,1973.
- El Reino Nasri de Granada (1232-1492) Madrid, 1992.

SERAFÍN BECERRA MARTÍN, DAVID CUEVAS GÓNGORA;

- Frontera y propiedad a finales del siglo XV. Alonso Yáñez Fajardo, señor de las Cuevas del Becerro: Actas del II congreso internacional de historia de la Serranía de Ronda: Entre al-Ándalus y los inicios de la Edad Moderna. Siglos VIII-XVI ,n.º 2, 2019.

المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ٤١٣ – ٤٢٨

دَوْرُ الوَقْفِ فِي نُشُوءِ بَعْضِ المُدُنِ فِي المَنَاطِقِ الأَلْبانيَّةِ خِلالَ الحُكْمِ العُثْمانِيِّ

The Role Of The Waqf's In Establishing New Citie In Albanian Lands During The Ottoman Period

محمد موفق الأرناؤوط(*)

ملخص

يتميّز البلقان بوجود العديد من المدن التي يدخل الوقف في تركيب اسمها (اسكندر وقف Skender Vakuf وغورني وقفGornji Vakuf الخ)، مما يشير إلى أن تأسيسها ارتبط بوقف ما أو بنواة عمرانية موقوفة لغرض خيري، كما لدينا مدن أخرى نشأت من نواة عمرانية مشابهة (جامع ومدرسة وحمام وخان وسوق الخ) أوقفها أحد أبناء المنطقة وتحوّلت بعضها إلى عواصم للدول الحالية مثل سراييفو(البوسنة والهرسك) و تيرانا (ألبانيا). ويسعى هذا البحث إلى توضيح هذه الخصوصية لدور الوقف في البلقان خلال الحكم العثماني للمنطقة من خلال ست نماذج متجاورة تتوزّع الآن بين ألبانيا وكوسوفا.

كلمات مفتاحية: الوقف في الإسلام، الوقف والعمران، الوقف وانتشار الإسلام في البلقان.

(*) رئيس تحرير مجلة دراسات شرقية، التي تصدر عن معهد الدراسات الشرقية في بريشتينا، جمهورية كوسوفو.

Abstract

In the Balkans there are several cities connected in names with the *waqf* like Skender Vakuf anf Gornji Vakuf etc, which means that their establishing connected with creating a new urban core (Mosqe,medresa,hammam,han etc) by *waqf*, and so other cities which are connected with a such urban core created by one of the native *waqifs* , becoming later capitals of states such as Sarajevo (Bosna & Hercegovina) and Tirana(Albania).In this context, the article aims to present the role of the *waqf* in establishing 6 new cites in Albania and Kosovo during the Ottoman period.

Key words: Waqf in Islam,Waqf and urbanization,waqf and islamization.

مقدمة:

تزامن تغلغل العثمانيين في شبه جزيرة البلقان ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري/ القرن الرابع عشر الميلادي مع تصدّع الإمبراطورية الصربية التي كانت تسيطر على وسط وغرب البلقان، وبروز كيانات متنافسة كانت تستدعي أحيانا القوات العثمانية في حروبها الداخلية. وهكذا فقد دعا الأمير الألباني كارل ثوبيا K.Thopia الذي كان يحكم ألبانيا الوسطى الحالية القوات العثمانية الموجودة في مكدونيا المجاورة لمساعدته في القتال ضد الأمير بالشا الثاني Balsha II الذي كان يحكم الجبل الأسود وألبانيا الشمالية الحالية، وهو ماساعده على دحر عدوه في معركة فيوسا Vjosaعام ١٣٨٥م التي تُعتبر بداية الوجود العثماني في غرب البلقان. فقد أقرّ الأمراء الألبان بعدها بالخضوع للسلطان العثماني ودفع خراج سنوي إلى أن تحوّل الوجود العثماني بعد نصف قرن إلى حكم مباشر مع تأسيس كيان إداري يحمل اسم الألبان (سنجق الألبان) يضم ألبانيا الوسطى والجنوبية. وقد توسّع هذا الكيان خلال ١٤٦٦-١٤٧٩مع تشكيل أربعة سناجق جديدة

باسم المدن (الباصان وأوخري واولونيه واسكندريه) أصبحت تضمّ ما أطلق عليه العثمانيون "ارنوُدلق" أي "بلاد الأرنؤود" أو بلاد الألبان(١).

وقد تزامن وصول العثمانيين إلى البلقان مع وجود النظام الإقطاعي في أوربا الشرقية الذي تميّز بكثرة القلاع، مع أحياء سكنية داخلها وبعض الضواحي السكنية حولها، وقلّة المدن والسكان بسبب الأوبئة (الطاعون)، وهو ما جعل الحكم العثماني يرتبط بطفرة عمرانية في المنطقة نتيجة للدور الجديد للوقف في هذه المنطقة. ففي السناجق الأربعة المذكورة يشير خليل اينالجيك في مقالته في "الموسوعة الإسلامية" إلى أنها كانت تضم ١٩ "مدينة" كانت أقرب إلى القرى الكبيرة لأن عدد سكانها كان يتراوح بين ألف وأربعة آلاف نسمة، على حين أن "مدن الوقف" التي ظهرت لاحقا كانت مدنا بمعنى الكلمة بفضل المنشآت التي ارتبطت بالأوقاف الجديدة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الإمبراطورية الصربية ورثت تقاليد الوقف البيزنطي وقام ملوك صربيا بوقف الكثير من الأراضي على الأديرة والكنائس التي بنوها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، كما أن الدولة العثمانية التي توسّعت على حساب بيزنطة تأثرت أيضا بتقاليد الوقف البيزنطي في هذا المجال، نجد أنّ "الوقف الإسلامي" قام بدور مميز في نشوء الحواضر السكنية الجديدة التي تحوّلت بسرعة إلى مدن، بل أن اثنتين منها تحولتا إلى عاصمتين: سراييفو في البوسنة وتيرانا في ألبانيا. ومن هنا يهدف هذا البحث إلى توضيح هذا الدور للوقف الإسلامي في نشوء ستّ مدن (كورتشا وكاتشانيك وكافايا وجاكوفا وتيرانا وبتشيتيني) تتوزّع الآن مابين ألبانيا وكوسوفا. وقد كان

---

(١) للمزيد حول ذاك انظر مقالة خليل اينالجيك في "الموسوعة الإسلامية":
HALIL INALCIK, "Arnawutluk",*The Encyclopaedia of Islam,new edition, Vol. 1*, Leiden-London 1960,pp.650-658.

وللمزيد حول "بلاد الألبان" وحالتها خلال الحكم العثماني انظر: سياحتنامه أوليا جلبي– مختارات عن بلاد الألبان، ترجمة ودراسة محمد م. الأرناؤوط، عمّان (الآن ناشرون) ٢٠٢١.

أستاذنا الدكتور حسن كلشي Hasan Kaleshi (١٩٢٢-١٩٧٦)، الذي انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٧، من أوائل من نبّه إلى دور الوقف في هذا التطور العمراني الجديد في البلقان[١].

يختلف الباحثون منذ منتصف القرن العشرين في بدايات الوقف بأشكاله المختلفة في الحضارات القديمة، حيث يميل الباحثون الأتراك القوميون إلى ربط بداياته بالحضارة الايغورية أو الحثيّة، على حين يسلّم الباحثون الآخرون بتأثير التراث البيزنطي على الدولة العثمانية في هذا المجال، بينما يميل الباحثون المصريون إلى ربطه بالحضارة المصرية القديمة[٢]. وفي مثل هذه البدايات نرى نوعا من الارتباط بين الوقف والعمران، وخاصة لدى الأنباط، حيث أن الحالات الأولى التي لدينا تفيد بقيام الحكام ببناء معابد لآلهة يتقرّبون بها إليهم ويطلبون منها المدد والنصر[٣].

ولكن مع مرسوم ميلانو عام ٣١٣م الذي اعترف بالمسيحية وبروز الدولة البيزنطية (٣٩٥م) التي أصبحت فيها المسيحية ديانة رسمية للدولة وتلعب دورا متزايدا في المجتمع، أخذ الوقف البيزنطي يكتسب معنى الوقف الخيري Piae causae ببناء منشآت تقدم الخدمات للمحتاجين (الطعام والمبيت والعلاج)

---

(١) DR. HASAN KALEŠI, *Najstariji vakufski dokumenti u Jugoslaviji na arapskom jeziku*, Priština 1972,pp.20-21.

(٢) AHMET SHERIF, *Vakfët në Maqedoni në periudhën osmane*,Shkup(NUN) 2006,p.8; FUAD KOPURLU, *Some Observation on the Influence of Byzantine Institutions on Ottoman Institutions*, translated and edited by Gary Leiser, Ankara (TTKB)1979.

محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٩١٧، القاهرة ١٩٨٠، ص١٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٠; سلطان المعاني، الهوية الحضارية في النقوش العربية القديمة، عمّان (وزارة الثقافة)، ص٧٣-٨٠.

وخاصة على طريق الحج المسيحي إلى فلسطين الذي انتعش منذ القرن الخامس[١]. ومع هذا التطور، الذي أصبح فيه الوقف جزءا من الثقافة البيزنطية، كان لانتشار المسيحية البيزنطية في البلقان ونشوء الدول الجديدة التي تأثرت بالثقافة البيزنطية أثر واضح في بروز دور أكبر للوقف في مجال العمران، كما هو في حالة صربيا منذ برزها كإمارة وحتى تحوّلها إلى إمبراطورية (١٣٣٢-١٣٥٥). ففي هذه الدولة، التي كانت نسخة عن بيزنطة في علاقة الدين بالدولة، قام الحكام ببناء الأديرة والكنائس ووقف الأراضي عليها حتى تستفيد من عائداتها. ويبدو هذا مع الأمير المؤسّس نيمانيا Nemanja (١١٦٨-١١٩٦م) الذي بنى دير ستودنيتسا Studenicaوأوقف عليه الأراضي، والملك ميلوتين Milutin(١٢٨٢-١٣٢١م) الذي بنى عدة أديرة كنائس وأوقف عليها الكثير من الأراضي والامبراطور دوشان Dušan (١٣٣١-١٣٥٥م) الذي بني دير القديسين قرب بريزرن Prizren وأوقف عليه الأراضي. وكان هؤلاء يُصدرون مراسيم يوضّحون فيها الأراضي الموقوفة وما تضمّ، التي هي تماثل كتب الوقف أو الوقفيات بالنسبة للوقف الإسلامي[٢]. ولم تقتصر هذه الأوقاف على صربيا بل أن الحكام الصرب أنشأوا أوقافا في فلسطين لتخدم الحجاج الصرب هناك، وخاصة في القدس التي سُمّي أحد أبوابها بـ"باب دير الصرب" قبل الفتح العثماني لفلسطين[٣].

---

(١) N.J.COULSON, *A History of Islamic Law*, Edinburg (Edinburg University Press) 1964, p.52.

(٢) ومن ذلك لدينا المجلد الذي صدر مؤخرا عن مراسيم أو وقفيات الملك الصربي ميلوتين: *Povelje kralja Milutina*, Beograd(Muzej u Pristini-Centar za ocuvanje nasledje Kosova i Metohije) 2011.

(٣) للمزيد عن ذلك انظر فصل "معطيات عن أديرة الصرب في فلسطين في القرن الأول للحكم العثماني ١٥١٦-١٦١٦" في كتابنا: مداخلات عربية بلقانية، دمشق (اتحاد الكتاب العرب) ٢٠٠٠م، ص١٩-٢٤.

ومع هذا يمكن القول إن الوقف الإسلامي الذي انتشر مع العثمانيين في البلقان كان له دور أكبر في العمران، بالمقارنة مع الوقف البيزنطي كما تمثل مع صربيا، وذلك لسببين رئيسيين. أما السبب الأول فيكمن في أنّ الوقف البيزنطي كما تطور في صربيا كان مرتبطا بالأساس بالحكام واقتصر غالبا على بناء الأديرة والكنائس، بينما كان الوقف الإسلامي يقوم على الحكام والنخبة الجديدة(الصدور العظام والوزراء والولاة وغيرهم) من أبناء البلقان الذي أخذ فيه الجامع والتكية مكان الكنيسة والدير.وأما السبب الثاني فيعود إلى طبيعة الوقف الإسلامي الذي لم يكن يقتصر على بناء الجوامع والتكايا بل امتدت شبكته لتشمل المنشآت التعليمية (مدارس ومكتبات) والصحية (مستشفيات) والاجتماعية (مراكز للأيتام ومراكز للأرامل الخ) والاقتصادية (خانات وحمامات وأسواق الخ) لتمويل نفقات الأولى.

وفي الحقيقة إن مردّ هذا الفرق الكبير بين الوقف البيزنطي والوقف الإسلامي يعود إلى التطور الفقهي الذي لحق بالوقف الإسلامي في القرنين الأوليين للهجرة وانتهى إلى تكريس التأبيد كشرط من شروط صحة الوقف. فخلال القرن الأول كان هناك اختلاف بين الصحابة والتابعين حول مشروعية الوقف ولزومه، على حين أنه مع الفقهاء الثلاث الكبار (أبو يوسف ومحمد بن الحسن والخصّاف) في القرن الثاني تبلورت أحكام الوقف وصولا الى كتاب "أحكام "الاوقاف" للخصّاف الذي أصبح المرجع في هذا المجال[١]. وعلى حين أن المالكية[٢]والشيعة الإمامية[١]

[١]أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني المعروف بالخصّاف (توفي ٢٦١هـ)، كتاب أحكام الأوقاف،القاهرة (ديوان عموم الاوقاف المصرية) ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م.

[٢] في مذهب الإمام مالك (رضي الله عنه) الوقف المؤقت جائز قولا واحدا بلا خلاف سواء حدّد بوقت أو قُيّد بشخص معين موقوف عليه، ويرجع الموقوف بعد انقضاء الوقت أو وفاة الشخص ملكا لصاحبه، استنادا إلى أن ما ورد عن أوقاف الصحابة والتابعين "إنما هو حكاية وقائع ولم ترد في معرض بيان أن التأبيد أمر لازم في مفهوم الوقف". ولذلك يرى أستاذنا مصطفى الزرقا أن اجتهاد المالكية "أقوى دليلا وأرجح معقولا وأكثر تسهيلا": =

أخذت بالوقف المؤقت إلى جانب الوقف الدائم الذي يقوم على التأبيد، فإن اشتراط التأبيد عند الجمهور كشرط لصحة الوقف كان له تأثيره الكبير في الدور العمراني المتزايد للوقف. وهكذا لم يعد يكفي الواقف المسلم بناء جامع أو مدرسة أو بيمارستان وغيرها لينتفع منها المسلمون بل أصبح لكي يضمن استمرارها "صدقة جارية" أن يبني عدة منشآت أخرى (خانات وحمامات ومطاحن وأسواق الخ) تدرّ الدخل وتغطى بذلك نفقات المنشآت الأولى.

وقد اتّضح هذا الدور العمراني للوقف في البلقان بعد الفتح العثماني بشكل واضح نتيجة للنظام الإقطاعي الموجود الذي كان يتسم بكثرة القلاع والضواحي السكنية حولها وقلّة المدن. ويبدو أن مصلحة الدولة العثمانية كانت تتطلب ذلك لأن اجتذاب السكان الألبان من المرتفعات إلى المراكز الحضرية الجديدة كان له بُعده الاقتصادي (الانخراط في المهن ودفع الضرائب) وبُعده الاستراتيجي (توطين المزيد من الألبان في هذه المنطقة الحدودية المهددة دائما من الغرب الكاثوليكي) وبعده الثقافي (استمالة الألبان إلى الإسلام من خلال الخدمات المجانية التي كانت تقدمها المنشآت الوقفية (الوجبات الغذائية للمحتاجين والعابرين والطلاب، والتعليم والرعاية الصحية). وهكذا فقد تطورت بسرعة هذه الضواحي السكنية حول القلاع بفضل الوقف لتتحول إلى مدن كبيرة كبلغراد وبريزرن Prizren وغيرها[٢]، ونشأت مراكز حضرية جديدة حول أوقاف جديدة تحولت بسرعة الى

= الشيخ مصطفى أحمد الزرقا، أحكام الأوقاف، ط٢، عمان (دار البيادق-دار عمان) ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٤٩-٥٠.

[١] لدى الشيعة الإمامية أصبح هناك تمييز بين "الحبس" (الوقف المؤقت) وبين "الوقف"، حيث إذا شرط الواقف عودة الوقف إليه "صحّ الشرط وصار حبسا وبطل وقفا، بل يرجع إليه مع الحاجة ويورّث" بتعبير الشيخ علي الكركي (توفي ٩٤٠هـ):
الوقف بآراء فقهاء الإمامية وفق المذهب الجعفري، الكويت (إدارة الوقف الجعفري-الأمانة العامة للأوقاف) ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٦٨.

[٢] للمزيد حول دور الوقف في تحول بلغراد من قلعة حدودية إلى مدينة كبيرة انظر:
محمد موفاكو، تاريخ بلغراد الاسلامية، الكويت (دار العروبة) ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٢٣-٣٥.

مدن وعواصم مثل سراييفو وتيرانا وغيرها[١]. ويبدو من خصوصية هذا الدور للوقف في البلقان انه أصبح لدينا عدة مدن يدخل الوقف في تركيب اسمها مثل اسكندر وقف Skender vakuf وغورني وقف Gornji vakuf ودونيي وقف Donji vakuf الخ[٢]. وفيما يتعلق بالبلقان يلاحظ أن هذا الدور المميز للوقف بدأ مع الجيل الأول من أبناء المنطقة الذين اعتنقوا الإسلام وارتقوا في الهرمية الإدارية- العسكرية العثمانية، ومنحوا في نهاية خدمتهم ملكيات كبيرة كانت أساسا لأوقافهم الجديدة التي ساعدت في تطوير مناطقهم التي وُلدوا فيها. ومن الواضح هنا انه في غياب مؤسسة رسمية في الدولة العثمانية تتولى نشر الإسلام كان لمثل هذه الأوقاف دورها في جذب السكان الجدد ونشر الإسلام في تلك المناطق[٣].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن النظام الإداري العثماني كان يشترط للاعتراف بتحوّل أية قرية إلى "قصبة" أو بلدة أن يكون فيها الحدّ الأدنى من البنية التحتية العمرانية التي كان يوفرها الوقف (جامع ومدرسة وحمام ودكاكين أو سوق الخ). وفي هذه الحالة كان يمكن لـ"القصبة" أن تنمو بسرعة وتتحول إلى "مدينة" (شهر) إذا تحولت إلى مركز إداري لناحية أو قضاء[٤].

وفيما يتعلق بالمناطق الألبانية التي دخلت تحت الحكم العثماني المباشر منذ ١٤٣١م نلاحظ أن هذا الدور المميز للوقف برز بعد نصف قرن فقط في جنوب

---

(١) للمزيد حول حالة سراييفو انظر: محمد م.الأرناؤوط، " دور الوقف في نشوء المدن الجديدة في البوسنة: سراييفو نموذجا"، مجلة "أوقاف" عدد٨، الكويت ٢٠٠٥م، ص٤٧-٥٧.

(٢) للمزيد حول ذلك انظر: محمد م.الأرناؤوط، الوقف في العالم الإسلامي بين الماضي والحاضر، بيروت (دار جداول) ٢٠١١م، ص٨٢-٨٥.

(٣) KALEŠI, *Najstariji vakufski dokumenti u Jugoslaviji na arapskom jeziku*, pp.20-21; HASAN KALESHI, “Oriental Cultural in Yugoslav Conntries from the 15th Century ubtill the End of the 17th Century” in *Ottoman Rule in the Middle Europe an Balkan in the 16th and 17th*,ed.Jaroslav Cesar, Prague (Oriental Institute) 1978,pp.359-361.

(٤) ADEM HANDŽIĆ, *O formiranju nekih gradskih naselja u Bosni u XVI stoljeću*, POF 25,Sarajevo 1975,p.135.

ألبانيا الحالية وأدى إلى نشوء مدينة كورتشا Korça. وبالإضافة إلى هذه المدينة اخترنا هنا خمسة نماذج أخرى (كاتشانيك وكافايا وجاكوفا وتيرانا وبتشيني) دون أن يعني هذا اقتصار هذا الدور للوقف عليها.

كورتشا Korça:

يرتبط هذه المدينة المعروفة الآن بجنوب ألبانيا باسم الياس بك ميراخور، المولود في قرية باناريت Panarit القريبة منها. وكان الياس بك بعد إسلامه قد ارتقى في الهرمية الإدارية العثمانية حتى أصبح مربّيا للأمير بيازيد بن السلطان محمد الثاني (١٤٥١-١٤٨١م). ومن هنا عندما تولى الأمير بيازيد عرش السلطنة (١٤٨١-١٥١٢م) عيّنه على رأس سنجق يانينا، وفي عام ١٤٨٤-١٤٨٥م منحه عدة قرى قرب مسقط رأسه ومنها القرية التي ولد فيها. وفي ٩١٠هـ/١٥٠٤-١٥٠٥م قام الياس بك بوقف معظم هذه الأراضي، ولذلك اشتهرت تلك المنطقة باسم "الوقف" عند سكان المنطقة[١].

وقد اختار الياس بك قرية بيسكوبيه Piskopije الصغيرة بالقرب من غوريتسه Gorice (التي اشتق منها اسم كورتشا) ليقيم فيها وقفه الكبير ابتداء من سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥-١٤٩٦ م حيث بنى في تلك السنة جامعا ثم مدرسة وعمارة لتقديم الوجبات المجانية. ولتغطية نفقات هذه المنشآت الخيرية بنى حماما وسوقا هناك بالإضافة إلى حمام آخر ومطحنة في مدينة يانينا[٢]. وقد انتهى بناء هذه المنشآت حتى عام ٩١٠هـ/١٥٠٤-١٥٠٥م الذي دُوّنت وصُدّقت فيه الوقفية الخاصة بهذا الوقف في اللغة العربية بخط الواقف نفسه، وهي تُعتبر أقدم وقفية في

(١) AKADEMIA E SHKENCAVE, *Fjalori enciklopedik shqiptar,vol.3*, Tiranë 2008, pp.1732-1734.

(٢) MACHIEL KIEL, *Arkitektura osmane në Shqiperi 1385-1912*, Istanbull (IRCICA) 2012, p.230; DR.NEHAT KRASNIQI, *Kontribute albanologjike*, Prishtinë (Instituti albanologjik) 2011, pp.156-157.

ألبانيا حافظ عليها أحفاده كجزء من تراثهم(١). وبعد ست سنوات توفي الواقف في ١٥١١م ودُفن في جوار الجامع الذي يُعتبر أقدم جامع في ألبانيا يمثل العمارة العثمانية الكلاسيكية(٢).

ومع هذه المنشآت تحولت هذه القرية إلى "قصبة" بالمفهوم الإداري العثماني وتطورت بسرعة مستفيدة من موقعها كعقدة وصل بين مدن ألبانيا الجنوبية ومدن مكدونيا المجاورة. وقد تطورت أكثر بعد أن أصبحت مركزا إداريا للناحية التي أصبحت تحمل اسمها حتى أصبحت مدينة تضم ١٣٠٠ أسرة أو "خانه"، وتحولت إلى مركز حرفي وثقافي في القرن الثامن عشر، بينما ضُمّت كورتشا في ١٨٦٠ الى ولاية مناستير الجديدة لتتطور أكثر نظرا لأنّ عاصمة الولاية (مناستير) ارتبطت بسكة الحديد الجديدة مع مدن البلقان إلى أن دخلت ضمن حدود ألبانيا الحالية في ١٩١٣(٣).

كاتشانيك Kaçanik:

نشأت هذه المدينة التي تقع الآن في جنوب كوسوفا بموضع حساس، وبالتحديد في المضيق الذي يربط سهل كوسوفا بسهل نهر فاردار Vardar في

---

(١) P.PEPO, "Dy dokumente mesjetare mbi Shqiperinë – Berati i sultan Bejazitit II dhe vakufnamja e Mirahor Iljaz Beut", *Buletin për shkencat shoqerore 3*, Tiranë 1956,p.289; A. MEKSI "Ndërtimet e kultit musliman në Shqipëri", *Studime historike 1*, Tiranë 1980,p.196.

(٢) بقيت العائلة تحتفظ بهذه الوقفية النادرة وغيرها من الحجج حتى وصول الحزب الشيوعي للحكم في ١٩٤٥. وكما يذكر ابن المتولي الأخير للوقف فقد زارهم في البيت زعيم الحزب الشيوعي أنور خوجا مع رئيس البلدية وأثنى على احتفاظهم بهذه الوثائق، بينما ضغطت زوجته نجمية خوجا على العائلة لتسليم هذه الوقفية والحجج الأخرى للدولة لاطلاع المؤرخين عليها وإعادتها لهم. وبعد تسليمهم ذلك نشر المؤرخ بتراتش بيبو P.Pepo دراسة للوقفية مع ترجمة لها في "مجلة العلوم الاجتماعية" وأرسل نسخة منها هدية للعائلة في مطلع ١٩٥٧، ولكن الوقفية لم تعد لهم أبدا:
Vepror HASANI, *Korça pa makijazh*,Tiranë (IETT)2020, pp.180-181.

(٣) *Fjalori enciklopedik shqiptar,vol.1*,pp.1280-1281.

مكدونيا المجاورة الذي يصبّ في ميناء سالونيك على بحر ايجه. إلا أن العبور في هذا المضيق المهم كان عسيرا بسبب قطّاع الطرق الذين كانوا يبتزون العابرين ويهاجمون القوافل التجارية في بداية الحكم العثماني، كما يشهد على ذلك رحالة فرنسي تمكّن من عبور هذا المضيق في ١٥٧٩م(١). ومع تقديره لأهمية هذا الموقع بادر الصدر الأعظم آنذاك سنان باشا، المولود في قرية توبويان Topojan الألبانية القريبة(٢)، إلى بناء حصن في مدخل المضيق وأنشأ نواة عمرانية هناك ضمن وقفه الذي ضمّ جامعا ومدرسة وعمارة لتقديم الوجبات المجانية وحماما وخانين. وقد ضمّ كل هذه في وقفية كُتبت باللغة العربية وتمّت المصادقة عليها في ١٦ رجب ٩٩٤هـ/٢٣ تموز ١٥٨٦م(٣).

وحسب هذه الوقفية يتضّح أن عدد العاملين في هذه المنشآت يصل إلى أربعين شخصا (من الإمام والخطيب والمؤذن والمدرس والى الخباز والفرّاش الخ)،

---

(١) "Kosova dikur e sot Beograd", (*Ekonomska politika*) 1973,p.271.

(٢) ولد سنان باشا في قرية توبويان حوالي سنة ١٥١٦م وترقى بسرعة في الهرمية الإدارية- العسكرية بفضل أخيه أياس باشا الذي كان واليا لبغداد وأرضروم وغيرها. وقد أصبح سنان باشا بدوره واليا في الشام ومصر وغيرها واشتهر كقائد عسكري في اليمن وتونس التي أخرج منها الإسبان نهائيا بعد انتصاره في معركة حلق الوادي ١٥٧١م، وحقّق ثروة كبيرة خصّص قسما منها على الأوقاف التي بناها في البلقان والأناضول وبلاد الشام ومصر وغيرها. للمزيد عنه انظر:

محمد م.الأرناؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر-وقفية سنان باشا، دمشق (دار الحصاد) ١٩٩٣، ص١٣-٢٢.

(٣) نشر د.حسن كلشي هذه الوقفية مع ترجمة صربوكرواتية إليها في كتابه "أقدم الوثائق المكتوبة باللغة العربية في يوغسلافيا" الذي صدر في بريشتينا عام ١٩٧٢م:

DR HASAN KALEŠI, *Najstariji vakufski dokumenti u Jugoslaviji na arapskom jeziku*, Priština 1972,pp.336-373.

وللمزيد حول هذا الوقف والوقفية انظر: محمد م.الأرناؤوط، كوسوفا: تجليات ثقافية بين الشرق والغرب، بيروت (الدار العربية للعلوم) ٢٠٠٩م، ص١٣-١٧.

ولذلك كان لا بدّ لسنان باشا أن يبني منشآت تدرّ الدخل حتى تغطي رواتبهم المحددة بدقة في الوقفية(١). وهكذا مع هذه النواة العمرانية التي أصبحت حاضرة سكنية مع استقرار هؤلاء العاملين وأسرهم، بالإضافة إلى الجنود في الحصن المجاور، أخذت كاتشانيك تتطور بسرعة مستفيدة من الموقع المهم الذي بُنيت فيه. ففي ١٦٠٨ م ورد ذكر كاتشانيك كحاضرة سكنية في وقفية محمد باشا ابن سنان باشا، على حين أن الرحالة أوليا جلبي حين زارها في ١٦٦٠م وصفها بأنها ضاحية سكنية للحصن تضم مئة بيت "كلها مغطاة بالقرميد مع حدائق لها" بالإضافة إلى ٤٠-٥٠ بيتا داخل الحصن(٢). وفيما بعد استفادت كاتشانيك من مدّ سكة الحديد التي توصل البوسنة بمكدونيا، حيث أقيمت فيها محطة للقطار في ١٨٧٩م. ومع ذلك لم يحصل سنان باشا على لقب "مؤسّس كاتشانيك" في الدراسات العلمية إلا بعد ١٩٦٦م(٣).

كافايا Kavaja:

ورد ذكر كافايا(قوايه) لأول مرة في الدفاتر العثمانية في سنة ١٤٣١ كقرية صغيرة تضم ٢٦ أسرة وأرملتين، بينما تحوّلت إلى قصبة بعد أن قام ابن المنطقة علي حيدر بك بإنشاء وقفه فيها عام ٩٦٩هـ/١٥٦١-١٥٦٢م، الذي ضمّ جامعا ومدرسة وسوقا وغيرها التي تعتبر "النواة التقليدية للمراكز الحضرية العثمانية"(٤).

---

(١) محمد م.الأرناؤوط، كوسوفا: تجليات ثقافية بين الشرق والغرب، بيروت (الدار العربية للعلوم) ٢٠٠٩م، ص١٥-١٦.

(٢) EVLIJA ÇELEBIU NË SHQIPËRI dhe në viset fqinje: *Kosove, Maliizi, Oher, përgatitur* nga Rober Elsie, përkthyer nga Abdurrahman Myftiu, Tiranë (Shtëpia botuese 55) 2008, pp.19-20

(٣) *Kosova Dikur E Sot*, p.271; KRASNIQI, *Kontribute albanologjike*, p.157.

(٤) KIEL, *Arkitektura osmane*, p.220

ومع هذا التطور ورد ذكر كافايا في دفتر تحرير سنجق الباسان لعام ٩٧٧ هـ/١٥٦٩-١٥٧٠م كمركز حضري يضم ١٥٠ أسرة (١٢١ مسيحية و٢٥ مسلمة و٣٠ عازبا). وقد استمرت كافايا في نموها الحضري الى أن زارها الرحالة أوليا جلبي في ١٦٧٠ فوجد فيها ٤٠٠ بيت وبيوتا كبيرة جميلة (سرايات) وخانين للتجار و٢٠٠ دكان، مما يدل على ازدهارها التجاري[١].

وحوالي سنة ١٨٠٠ كانت كافايا قد تحولت إلى مدينة تضم حوالي ٢٠٠٠ بيت، وبقيت حتى منتصف القرن العشرين محافظة على الصورة التي وردت عند الرحالة أوليا جلبي. ولكن إعصار "الثورة الثقافية" خلال الحكم الشيوعي خلال ١٩٧٠-١٩٧١ أدى إلى هدم النواة العمرانية المؤسّسة لهذه المدينة دونما أدنى اعتبار لقيمتها التاريخية[٢].

جاكوفا Gjakova:

ورد اسم جاكوفا(ياقوه) في دفتر تحرير سنجق اشقودرة (شكودرا) لعام ١٤٨٥ كقرية صغيرة تضم ٢٠ أسرة[٣]، بينما ورد ذكرها في دفتر تحرير عام ١٥٧١م مع ضعف العدد (٤٤ أسرة)، وورد ذكرها أخيرا كقرية في دفتر تحرير ٩٩٩هـ/١٥٩٠-١٥٩١م تضمّ ٦٨ أسرة (٥٥ مسيحية و١٣ مسلمة)[٤].

وفي ذلك الوقت بالذات عاد إلى هناك أحد أبناء المنطقة سليمان افندي (من قرية غوسكي القريبة منها) بعد أن خدم فترة في البلاط السلطاني، مع ما توفّر له من

---

(١) سياحتنامه أوليا جلبي، ص١٣٧-١٣٨.

(٢) KIEL, *Arkitekturaosmane*,p.

(٣) SELAMI PULAHA, *Defteri i regjistrimit të Sanxhakut të Shkodrës i vitit 1485,Tiranë* (Instituti i histories) 1974,pp.210-211.

(٤) SKENDER RIZAJ, "Kosova gjatë shkejve XV, XVI dhe XVII": *administrimi, ekonomia, shoqëria dhe levizja popullore,* Prishtinë (Rilindja) 1982, p.206.

ثروة خلال عمله هناك. وقد اختار جاكوفا المناسبة في موقعها لينشأ هناك في ١٥٩٥ م وقفه الذي ضمّ جامعا ومدرسة وحماما وسوقا وجسرا[١]. وبهذه النواة العمرانية تحوّلت جاكوفا إلى قصبة وتطورت بسرعة الى حد أن الجغرافي العثماني حاجي خليفة يذكرها في ١٦٥٠ م ضمن مدن كوسوفا المعروفة كبريزرن وفوشترن وبريشتينا[٢]، وبقيت كذلك إلى يومنا هذا.

تيرانا Tirana:

في القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي كان اسم تيرانا Tirana يطلق على السهل الذي تمتد فيه المدينة الحالية، بينما في عام ١٥٨٣ ورد اسمها (تيرانه) لأول مرة في الدفاتر العثمانية كقرية صغيرة تضم ٨ أسر فقط (٧ اسر مسلمة وواحدة مسيحية)[٣].

ولكن هذه القرية دخلت في منعطف تاريخي في ١٦١٤م حين جاءها سليمان باشا بارجييني، نسبة إلى قرية بارجيني Pargjini المجاورة التي أصبحت لاحقا جزءا من تيرانا، وأقام في وسط السهل الكبير وقفه الذي تضمن النواة العمرانية التقليدية (جامع ومدرسة وخان ودكاكين). ويبدو أن موقع تيرانا المناسب كعقدة اتصالات مع المدن الألبانية المجاورة كان له أثره في أن تتطور بسرعة كمركز حضري[٤]. ففي ١٦٦٢م زارها الرحالة أوليا جلبي ووصفها كمدينة تضم عدة جوامع وحمامات وخانات وأسواق[٥]، بينما تظهر عام ١٦٨٩ في خريطة ايطالية

---

(١) *Kosova dikur e sot*, p.473; Zija Shkodra, *Qyteti shqiptar i Rilindjes kombëtare,* Tirane 1984, pp.480-481.

(٢) *Rizaj, Kosova*, p.208.

(٣) *Fjalori Enciklopedik shqiptar*, vol.3, pp.2703-2704.

(٤) *Ibid.*

(٥) سياحتنامه أوليا جلبي، ص ٣٧.

لألبانيا بشكل Terrana مع المدن الرئيسية في ألبانيا مثل دورس وكرويا وغيرها(١). ولم تأت سنة ١٧٠٧ إلا وأصبحت تيرانا تضم ٤٠٠ بيت وتُذكر مع المدن المهمّة لألبانيا(٢).

وقد استمرت تيرانا مركزا لأسرة بارجيني إلى مطلع القرن التاسع عشر، حين قام أدهم بك ببناء مركز عمراني آخر حول جامعه، الذي يعتبر من أجمل الجوامع في ألبانيا، إلى جانب برج الساعة والسوق القديم(٣). وفي ١٨١٦، خلال النزاع بين الأُسر الألبانية القوية، قام قبلان باشا بالسيطرة على تيرانا في ١٨١٦ لتتحول إلى مركز لأسرة توبتاني Toptani وتستمر في تطورها إلى مطلع القرن العشرين (١٩٢٠) حين تم اختيارها عاصمة لألبانيا التي استقرت بحدودها الجديدة، وهو ما تكرّس في دستور ١٩٢٥(٤).

وحتى ١٩٤٤ بقيت النواة العمرانية القديمة المؤسّسة لتيرانا قائمة، حيث تعرّض جامع سليمان باشا المذكور إلى أضرار خلال المعارك حول تيرانا بين قوات ألمانيا النازية وقوات الأنصار/ البارتيزان التابعة للحزب الشيوعي. ولكن السلطة الجديدة بادرت إلى هدمه دونما أي اعتبار لقيمته التاريخية في ١٩٤٦ ولم تترك من القبور الموجودة حوله سوى ضريح قبلان باشا الذي لا يزال قائما، كما أزيل لاحقا السوق القديم في جواره لتبنى مكانه المكتبة الوطنية(٥).

---

(١) KRISTO FRASHERI, “Fillimet e histories së Tiranes”, *Bultetin për shkencat shoqërore 2*, Tiranë 1955, p.143.

(٢) *Fjalori enciklopedik shqiptar*, vol.3, p.2704.

(٣) A. MEKSI, *Ndërtimet e kultit musliman*, p.205; *Fjalori enciklopedik shqiptar*, *vol.3*, p.2704.

(٤) GENC HAJDARI, ”Restaurimi i tyrbes se Kapllan pashes”, *Monumentet 2*, Tiranë 1989,p.103.

(٥) KIEL, *Arkitektura osmane*, p.389.

بتشيني Peqini:

تمثل بتشيني حالة خاصة لكونها انبعثت من جديد بعد حوالي ألف عام في موقع كلوديانا Koldiana الذي كان يحرس الطريق المعروف فيا أغناتيا Via Agnatia، الذي يمتد من ميناء دورس القريب إلى القسطنطينية. وفي الواقع لقد وردت لأول مرة في الدفاتر العثمانية عام ١٤٣١ م باسم بلكنت باعتبارها قرية صغيرة تضمّ ٩ أُسر فقط ودون ذكر لقلعة في جوارها. أما في الدفتر العثماني لعام ١٥٢٨ فقد ورد ذكرها باسم بكلين باعتبارها قرية صغيرة تضم ٣٤ أسرة دونما ذكر قلعة بجوارها، على حين انه في ١٥٦٩-١٥٧٠م ورد ذكرها كضاحية سكنية لقلعة بكلين تضم ١٤٠ أسرة مسلمة و١٥ أسرة مسيحية و٦٢ عازبا(١).

وخلال النصف الثاني للقرن السابع عشر الميلادي تغيّر مظهر بتشيني عندما قام ابنها عبد الرحمن باشا، الذي ترقي في الهرمية العثمانية حتى أصبح واليا لبغداد ثم مصر(٢)، ببناء وقف له ضمّ نواة عمرانية تشمل جامعا ومدرسة وتكية وحماما وسوقا. وقد وثق هذا التطور الجديد للقصبة الرحالة أوليا جلبي الذي زارها في ١٦٧٠ م، الذي تحدث عنها كمدينة تضم ٤٠٠ "بيت جميل كلها بطابقين كأنها سرايات" وتتألف من أربعة أحياء وسوق مجاور للجامع الذي بناه عبد الرحمن باشا(٣).

وقد استمرت بتشيني، كما يقول م.كييل الباحث الهولندي المتخصص في العمارة العثمانية، حسب ما وصفها الرحالة أوليا جلبي إلى سنة ١٩٦٧ التي شهدت فيها ألبانيا إعصار "الثورة الثقافية" على النمط الصيني، مع مضمون معاد للدين أكثر بعدما تمّ إعلان ألبانيا "أول دولة إلحادية في التاريخ"، حيث تمّ حينها تدمير النواة العمرانية القديمة المؤسّسة للمدينة على الرغم من قيمتها التاريخية(٤).

---

(١) Kiel, *Arkitektura osmane*, p.294.

(٢) يفيد المؤرخ المعاصر ابن عبد الغني بأن عبد الرحمن باشا بقي أربع سنوات واليا على مصر، حيث جاءها في ربيع الثاني ١٠٨٧ هـ/١٦٧٦ م وبقي فيها الى شعبان ١٠٩١هـ/١٦٨٠م: أحمد جلبي عبد الغني، أوضح الإشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق فؤاد محمد الماوي، القاهرة (دار الأنصار) ١٩٧٧، ص٢٠١-٢٠٢.

(٣) سياحتنامه أوليا جلبي، ص ١٣٨-١٤٠.

(٤) Kiel, *Op. Cit.*, p.296.

المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ٤٢٩ - ٤٧٨

مَوْقِفُ مِصْرَ مِنْ مَطالِبِ اسْتِقْلَالِ السُّودَانِ فَى الفَتْرَةِ مِنْ ١٩٤٢ - ١٩٥٦

أحمد عبدالدايم محمد حسين(*)

ملخص

لازال موقف مصر من مطالب استقلال السودان، وقبول هذا الاستقلال من قبل الرئيس جمال عبدالناصر فى الاول من يناير ١٩٥٦, يلقى بظلاله على طبيعة الاتهامات التى توجه للرجل والمجموعة التى أمسكت بالملف حتى الآن. باعتبارهم قد فرطوا فى السودان وتسببوا فى ضياعه للأبد. خاصة وأن بريطانيا قد وضعت عقبة السودان فى كل المفاوضات التى جرت بينها وبين مصر، ولم تفرط فى السودان قيد انملة. حيث وصلت الأمور بقبول مصر بحق تقرير المصير، والاختيار ما بين الاستقلال أو الاتحاد مع مصر. وفى هذا السياق بذلت الإدارة المصرية كل ما فى استطاعتها لضمان قبول السودانيين بالاتحاد مع مصر منذ طرح مؤتمر الخريجين السودانى لفكرة تقرير المصير فى ابريل ١٩٤٢. معولة على الروابط التاريخية والدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية بين البلدين من ناحية، وحفاظا على رغبة قطاع كبير من السودانيين فى الاتحاد مع مصر من الناحية الأخرى. غير أن اختيار السودانيين للاستقلال لم يجعل الإدارة المصرية تتنكب لتلك الروابط أو تتنصل منها، وانما بادرت وقبلت بالاستقلال على الفور فى يناير ١٩٥٦، واعلنته للجميع، بل وقدمت التهانى

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الدراسات الأفريقية العليا - جامعة القاهرة.

للشعب السودانى. وهى تدرك بأن احترامها لتلك الرغبة سيجعل السودان يقدر هذا الموقف، ويكون سندا قويا لمصر والعروبة وعونا لها، وهو ما حدث بالفعل

Abstract

Egypt's position on the demands of Sudan's independence, and the acceptance of this independence by President Gamal Abdel Nasser on January 1, 1956, still casts a shadow over the nature of the accusations leveled at the man and the group that held the file so far. As they have neglected the Sudan and caused its loss forever. Especially since Britain has placed an obstacle for Sudan in all the negotiations that took place between it and Egypt, and it did not neglect Sudan by an inch. Where matters reached Egypt's acceptance of the right to self-determination, and the choice between independence or union with Egypt. In this context, the Egyptian administration has done everything in its power to ensure that the Sudanese accept the union with Egypt since the Sudanese Graduate Conference put forward the idea of self-determination in April 1942. Relying on the historical, religious, cultural, social and political ties between the two countries on the one hand, and to preserve the desire of a large segment of Sudanese to unite with Egypt on the other hand. However, the Sudanese choice of independence did not make the Egyptian administration succumb to these ties or disavow them. Rather, it took the initiative and accepted independence immediately in January 1956, announcing it to everyone, and even offering congratulations to the Sudanese people. And it realizes that its respect for that desire will make Sudan appreciate this position, and will be a strong supporter of Egypt and Arabism and aid to it, which is what actually happened.

ظل السودان تابعا لمصر منذ قيام محمد على بضمه لها عام ١٨٢١، تارة بشكل كامل وتارة أخرى فى اطار الحكم الثنائى المصرى البريطانى حتى استقل عام ١٩٥٦. لكن لازال موقف مصر من مطالب استقلال السودان، وقبول هذا

الاستقلال من قبل الرئيس جمال عبدالناصر فى الاول من يناير ١٩٥٦, يلقى بظلاله على طبيعة الاتهامات التى توجه للرجل والمجموعة التى أمسكت بالملف حتى الآن. باعتبارهم قد فرطوا فى السودان وتسببوا فى ضياعه للأبد. خاصة وأن بريطانيا قد وضعت عقبة السودان فى كل المفاوضات التى جرت بينها وبين مصر، ولم تفرط فى السودان قيد انملة. حيث وصلت الأمور بقبول مصر بحق تقرير المصير، والاختيار ما بين الاستقلال أو الاتحاد مع مصر. وفى هذا السياق بذلت الإدارة المصرية كل ما فى استطاعتها لضمان قبول السودانيين بالاتحاد مع مصر منذ طرح مؤتمر الخريجين السودانى لفكرة تقرير المصير فى ابريل ١٩٤٢. معولة على الروابط التاريخية والدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية بين البلدين من ناحية، وحفاظا على رغبة قطاع كبير من السودانيين فى الاتحاد مع مصر من الناحية الأخرى. غير أن اختيار السودانيين للاستقلال لم يجعل الإدارة المصرية تتنكب لتلك الروابط أو تتنصل منها، وانما بادرت وقبلت بالاستقلال على الفور فى يناير ١٩٥٦، واعلنته للجميع، بل وقدمت التهانى للشعب السودانى. وهى تدرك بأن احترامها لتلك الرغبة سيجعل السودان يقدر هذا الموقف، ويكون سندا قويا لمصر والعروبة وعونا لها، وهو ما حدث بالفعل. لذا جاءت دراستنا "موقف مصر من مطالب استقلال السودان فى الفترة من ١٩٤٢ -١٩٥٦ " لتشتبك مع تلك الفترة، وتبحث فى الموقف المصرى من رغبة السودانيين فى الاستقلال، وهل اختلف موقف قيادات ثورة ٢٣ يوليو عن موقف قيادات الفترة الملكية فى تلك المسألة؟ أم ان قيادات يوليو لم يكونوا منشغلين بملف السودان من الاساس، وعدوه حملا ثقيلا يضيف اعباء جديدة على كواهلهم؟

والدراسة تعتمد بشكل رئيسى على وثائق الارشيف المصرى والبريطاني فى رصد هذا الموقف وتطوراته. مستهدفة أمرين: اولهما، النظر فى محددات الموقف المصرى من السودان. ثانيهما، رصد متغيرات الموقف المصرى من السودان ونطوراته. وفى هذا فى الإطار قمت بتقسيم الدراسة إلى خمسة محاور رئيسية:

الاول- موقف مصر من مطالب الاستقلال **فى الفترة من ١٩٤٢-١٩٥٢.**

الثانى- موقف مصر من مطالب الاستقلال بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى بداية الفترة الانتقالية.

الثالث- موقف مصر من مطالب الاستقلال خلال الفترة الانتقالية ١٩٥٣-١٩٥٥.

الرابع- موقف مصر من استقلال السودان يناير ١٩٥٦.

الخامس- اثر القبول المصرى باستقلال السودان على علاقات مصر والسودان بعد عام ١٩٥٦.

الأول- موقف مصر من مطالب الاستقلال فى الفترة من ١٩٤٢-١٩٥٢:

تعد الروابط المصرية السودانية طيلة فترات التاريخ المختلفة، روابط من نوعية خاصة. لكن فى فترة التاريخ الحديث والمعاصر استطاع محمد على أن يلحق السودان بمصر منذ عام ١٨٢١، وتوسعت أسرته فى ضم عدة اقاليم اليه، حتى صار السودان بالمفهوم السياسى المعروف للجميع فى عهد الخديو اسماعيل. وبخروج الجيش المصرى من السودان اثر قيام الثورة المهدية سنة ١٨٨٥ ثم قيام مصر بمشاركة بريطانيا باستعادته سنة ١٨٩٨، وانشاء ما يسمى بالحكم الثنائى المصرى البريطانى فى السودان سنة ١٨٩٩، ظلت الادارة المصرية قائمة هناك حتى سنة ١٩٢٤، تلك السنة التى خرج فيها الجيش المصرى للمرة الثانية من السودان، وظلت كذلك حتى عادت اليه وفقا لمعاهد عام ١٩٣٦. لكن ربما يكون عام ١٩٤٢ هو عام فارق فى تاريخ علاقات مصر بالسودان، حيث تعالت صيحات الاستقلال فى السودان بقيام مؤتمر الخريجين برفع رغبة السودانيين فى تقرير المصير الى دولتى الحكم الثنائى. والمدقق فى الارشيف المصرى يرصد تغيرا فى لغة الخطاب السياسى المصرى بخصوص السودان منذ تلك السنة، لكن السؤال الذى يطرح نفسه هل يمكن القول بأن مصر ثورة يوليو ١٩٥٢ قد فرطت فى السودان فيما بعد؟ ام انها تسلمت ملفا ملزمة بتنفيذه بعد نجاح الثورة؟ وللإجابة على هذا السؤال

نجد انفسنا مضطرين للعودة لبداية عودة مصر للسودان بعد معاهدة ١٩٣٦ وانها كانت تعمل طيلة هذه الفترة على فكرة الاتحاد بين مصر والسودان تحت التاج المصرى. وأن بواعث كثيرة لهذا الاهتمام منها معركة منصب قاضى القضاة المصرى ونجت بريطانيا فى التخلص من اخر قاضى قضاة مصرى سنة ١٩٤٧، وايضا معركة محاربة اساليب المبشرين وفضحهم، وكذلك مطالب السودانيين باهتمام مصر بالشئون الدينية، وفى هذا الاطار وظفت كل اوراقها لدعم الفكرة الاتحادية، وراحت تحافظ على اللغة العربية، واهتمت بالتعليم المصرى فى السودان، وفتحت مساحات عريضة من التوافقات مع السودانيين[١].

صحيح ان مفهوم السيادة المصرية على السودان قد ظل سائدا بين الاحزاب المصرية الحاكمة، سواء كانت اغلبية او اقلية، كالوفد والاحرار الدستوريين والسعديين، وبين احزاب المعارضة كالإخوان المسلمين ومصر الفتاة، إلا أن الحزب الشيوعى المصرى والحركة اليسارية المصرية كانوا هم الوحيدين المتماهين مع حق تقرير المصير الذى طرحه مؤتمر الخريجيين السودانى منذ بداية أربعينيات القرن العشرين. مما جعل بريطانيا ترفض هذا الطرح وتعمل على خلق تنافر داخل هذا المؤتمر، فانقسم الى تيارين رئيسيين: هما تيار الاتحاديين وعلى رأسهم حزب الاشقاء والحزب الاتحادى، ويعمل على الاتحاد مع مصر، وتيار الاستقلاليين وعلى رأسه حزب الامة ويعمل على الاستقلال بالتنسيق مع بريطانيا. وهو ما جعل موقف الاتحاديين معاديا للجمعية التشريعية التى أتاحتها بريطانيا منذ سنة ١٩٤٨ باعتبارها اداة استعمارية تؤدى للاحتقان السياسى[٢]. وفى حين ارتبطت الاحزاب الاتحادية بالطائفة الميرغنية بقيادة على الميرغنى، راحت الاحزاب الاستقلالية ترتبط بطائفة

(١) أحمد عبدالدايم محمد حسين:- مصر والاسلام فى السودان.. دراسة وثائقية للفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٥٦، اعمال المؤتمر الدولى الاسلام فى افريقيا ٢٦-٢٧ نوفمبر ٢٠٠٦، جامعة افريقيا العالمية بالتعاون مع جمعية الدعوة الاسلامية العالمية ووزارة الارشاد والاوقاف السودانية، اكتاب السابع، الخرطوم ٢٠٠٦، متفرقات..

(٢) أمانى محمد كمال الدين أحمد الطويل:- العلاقات المصرية السودانية ١٩٥٣-١٩٦٩، رسالة دكتوراه بكلية البنات جامعة عين شمس، ص ص ٨-١٤.

الانصار بقيادة عبدالرحمن المهدى، والحزب الوطنى بزعامة الشريف الهندى، والحزب الجمهورى برئاسة محمود محمد طه، والحزب الجمهورى الاشتراكى برئاسة ابراهيم بشرى، وتكونت الجبهة الاستقلالية تحت سيطرة حزب الامة[١].

ومثلت زيارة رئيس الوزراء المصرى على ماهر للسودان ركيزة اساسية فى التعرف على المشكلات التى تعوق الاتحاد، لكن اعقبها الطلب الذى قدمته اللجنة التنفيذية لمؤتمر الخريجين فى ابريل ١٩٤٢ بضرورة قيام دولتى الحكم الثنائى باصدار تصريح يمنح السودان حق تقرير المصرى[٢]. وراحت الادارة المصرية تواجه تلك المطالب عبر مذكرة وزارة المعارف فى ٢٤ يونية ١٩٤٢، حيث ركزت على ان المؤسسات التعليمية تشكل مجالا مهما من مجالات نشر الثقافة المصرية وفى الترويج للأفكار الاتحادية، واداة من ادوات التواصل الثقافى[٣]. مقابل الدور الذى لعبته كلية غردون التذكارية لتصبح على شاكلة جامعة ماكريرى بأوغندا[٤]. فتم التوسع فى البعثات السودانية الى انجلترا[٥]. وتبرز اهمية انشاء المدرسة المصرية فى هذا الشكل فى تركيز تلك الاصلاحات على التعليم العالى وتركيزها على المناطق التى شهدت منافسة المصريين، دون ان تشهد المناطق الاخرى – لاسيما الجنوبية –

---

(١) مصطفى كمال عبدالعزيز محمد:- الاحزاب السودانية وموقفها من قضية السودان من ١٩٤٥ الى ١٩٥٦، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الدراسات الافريقية العليا، جامعة القاهرة، ١٩٩٣، ص ٣٤.

(٢) حنان الشيخ محمد على:- العلاقات السودانية – المصرية: ١٩٨٥ -١٩٥٦دراسة تاريخية، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة الخرطوم، ٢٠٠٦، ص ٢٤.

(٣) وزارة المعارف العمومية، مسائل متنوعة عن السودان تحضير الدكتور حامد سلطان، دوسية ٢، ج ثان ابحاث وتقارير مقدمة من هيئة المستشارين عن السودان، رياسة مجلس الوزراء، محفظة ٣ / هـ، ارشيف مجلس الوزراء ما بعد ١٩٢٣.

(٤) CORBYN E.N.: "The Administration of The Sudan in 1937", *Journal of the Royal African Society*, Vol.38,No.151, (Apr.1939) PP. 287.

(٥) مجلس السودان الاستشارى: السودانيون فى وظائف حكومتهم، ملف ٢ / ٣ / شئون العمال، وزارة الحربية والبحرية، محفظة ٣٠٩ سرى قديم، ارشيف الخارجية.

تطويرا مماثلا، فلقد ترك الجنوب برمته للبعثات التبشيرية [١]. وكان انقسام جماعة المتعلمين على اثر تأسيس المجلس الاستشارى لشمال السودان سنة ١٩٤٤ الى فريقين، قد أتاح الفرصة لفريق الاتحاديين لاكتساب مزيد من الثقة، وبالتالى مزيد من الترحيب بالتعليم المصرى [٢]. وكانت مصر قد رفضت هذا المجلس الاستشارى لشمال السودان وطالبت بحقوقها فى السودان واعتباره مصر والسودان قطرا واحدا[٣].وحدث مزيد من الدعم المصرى لمطالب فريق الاتحاديين حتى سنة ١٩٥٢ [٤]. أما فريق الاستقلاليين بزعامة حزب الامة (تشكل سنة ١٩٤٥) فقد راحوا يشوهون أهداف التعليم المصرى من خلال محاصرة فكرة الاتحاد، لهذا شهدت الفترة منذ سنة ١٩٤٦ بروزا لهذا التيار حتى أنهم اعتبروا ان الاستقلال عن مصر يعد جهادا[٥]. وراحت الادارة البريطانية تستقطب هذا التيار الرافض للتعليم المصرى بوسائل عدة منها؛ تيسير التعليم لأبناء الاسر الموالية لبريطانيا وتعسيره على ابناء الاسر التى تعاديهم، وتضيق الخناق على الافراد والجمعيات اذا ما رغبوا فى انشاء مدارس حرة، وحرضت صحف الاستقلاليين للترويج بأن التعليم المصرى بالسودان لا يقصد به سوى الدعاية لوحدة الوادى

(١) BURTON , JOHN W.: "Christians ,Colonists , and Conversion: A view from the Nilotic Sudan" , *Journal of Modern African Studies* ,Vol.23,No.2,June. 1985 ,PP.361,362.

(٢) محمد عمر بشير:- تطور التعليم في السودان: ١٨٩٨-١٩٥٦، ترجمة هنري رياض وآخرون، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠ ص ص ٣٠١، ٣٠٥.

(٣) حنان الشيخ محمد على:- المرجع السابق، ص ٢٧.

(٤) فى مارس١٩٥٢على سبيل المثال تمت مناقشة زيادة أعداد السودانيين الذين يطلبون العلم فى الازهر، انظر، شيخ الازهر يدعو احزاب السودان الى الاتحاد ونسيان المصالح الشخصية، الاهرام، ٣١ / ٣ / ١٩٥٢.

(٥) WARBURG GABRIEL R.: "The Condominium Revisited:The Anglo- Egyptian Sudan 1934 -1956: A Review Article" , *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* , University of London , Vol.56 ,No.1,1993.PP.3, 4.

(1).ولعبت الصحافة الحزبية السودانية دورا مهما فى بلورة مسألة الرغبة أو الرفض للتعليم المصرى فى السودان الذى يرسخ للأفكار الاتحادية، فالاتجاه الاستقلالى الذى تمثله جريدة حضارة السودان والنيل(*) والسودان الجديد كان يرفض هذا التعليم ولا يرفض الدعم التعليمى، فى حين كان الاتجاه الوحدوى الذى تمثله جريدة صوت السودان يدعم الرغبة فى تأسيس هذا التعليم. لهذا كان على دولتى الحكم الثنائى أن تكون لهما وسيلة لدعم الاتجاهات الموالية لهما، فراحت مصر عبر مدارسها تحرض على الوحدة وترغب فى التعليم المصرى، فى حين راحت قوى الاحتلال البريطانى _ عبر وزارة المعارف السودانية – تؤازر دعاوى الاستقلال.

وعملت الادارة المصرية على تحقيق وحدة وادى النيل تحت الحكم المصرى فى مواجهة الافكار الاستقلالية الناشئة فى بداية اربعينيات القرن العشرين؛ فتقارير عبد القوى احمد بك (باشا) الخبير الاقتصادى لمصر فى السودان، تشير بوضوح الى أن فكرة الاتحاد قد حاولت تنفيذها عبر أداتين تعليميتين، التعليم المصرى العام والتعليم الدينى، فتحت عنوان الثقافة نصح الخبير الاقتصادى بضرورة أن تبذل مصر كل جهد لافتتاح مدارس مصرية فى السودان لخدمة الفكرة الاتحادية(2).ومن ثم فإن قضية الوحدة كانت فى صلب السياسة التعليمية وجزءا مهما فى المقرر الدراسى، وأن صياغة قضية الوحدة بهذا الوضوح ربما يشير الى تقدير مصرى للموقف فى ظل انشغال بريطانيا بنتائج وتطورات الحرب الثانية، هذا بالإضافة الى ما لعبته مدرسة فاروق الثانوية والمراقبة العامة للتعليم المصرى – نشأت فى

(١) محاضرة محمود محمود المراقب العام للتعليم المصرى بالسودان القيت بالنادى المصرى بام درمان:- المرجع السابق ص ص ٣، ١٠.

(*) جريد يومية سودانية وهى لسان حال الاستقلاليين، وكان يرأس تحريرها احمد يوسف هاشم.

(٢) تقرير الخبيرالاقتصادى لمصرفى السودان يوليو ١٩٤٣:- التقرير السابق، ص ص، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٣٧.

الخرطوم سنة ١٩٤٦ - فى الدعاية المصرية لقضية الاتحاد، وفى جذب المزيد من الانصار لتلك القضية، من خلال الدور الذى انيط بهما فى لجنة الانتقاء التى شكلت سنة ١٩٤٧ [١].

ومع ارتباط التيارات الوطنية بمصر ولجوء بريطانيا الى زرع الفتن بين المطالبين بالوحدة والاستقلالين، كان لابد ان يلقى هذا رد فعل من الحكومة المصرية، فعملت على زيادة أعداد المنح للدراسة فى الازهر منذ بداية الاربعينيات لهذا تأثر الطلاب بتيار الصحوة الاسلامية الممثل فى حركة الاخوان المسلمين، ناهيك عن تاثير الشيوعيين الكبير بينهم، وبالتالى كان لابد للحكومة المصرية من اعادة ترتيب اوراقها [٢]. فبعد عودة الصراع السياسى على اشدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، راحت بريطانيا من جانبها تدعو الى عقد المؤتمر الادارى فى سنة ١٩٤٦، والذى قضى بضرورة اشراك السودانيين بشكل يؤدى الى انشاء جمعية تشريعية تشتراك مع مجلس تنفيذى يحل محل مجلس الحاكم العام[٣]. وبالنسبة لمصر فقد كان السنهورى باشا (وزير المعارف فى حكومة اسماعيل صدقى) قد عاد من رحلته للسودان فى يناير ١٩٤٦ وانتهى الى تأليف لجنة الشئون الثقافية للسودان،

---

(١) تتكون من مراقب التعليم المصرى رئيسا وناظر مدرسة فاروق الثانوية وعضوا من مؤتمر الخريجين، كانت وظيفتها الاعلان عن شروط البعثات وعددها ونوعها وتلقى الطلبات وفحصها ثم ارسال مقترحاتها الى لجنة الانتقاء بالقاهرة لتنظر فيها، ثم تقدم اختيارها النهائى الى لجنة الشئون الثقافية، للمزيد انظر، لجنة العلاقات الثقافية بين مصروالسودان ١٨ يناير ١٩٤٧، الجلسة الرابعة، ملف القرارالوزارى بإنشاء مكتب دائم للجنة العلاقات الثقافية بين مصر والسودان، محفظة ٣ / د، محفوظات مجلس الوزراء ما بعد،١٩٢٣، ص ٢.

(٢) NURI EL-AMIN MOHAMMED: "The Role of Egyptian Communists in Introducing The Sudanese to Communism in The 1940s", *International Journal of Middle East Studies* , Vol.19,No.4,1987.PP.433,438,440.

(٣) مذكرة عن الوضع الادارى فى السودان " مؤتمر السودنة "، طه السيد نصر، دوسية خاص، محفظة ٣ / و، محفوظات مجلس الوزراء ما بعد ١٩٢٣..

واسس مكتب دائم لهذه اللجنة بوزارة المعارف [١]. واصدرت حكومة النقراشى فى اكتوبر ١٩٤٧ مرسوم بتعيين وكالة الوزارة لشئون السودان وبدأت عملها فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧، ولكن اقتصر على تعيين وكيل وزارة لشئون السودان دون انشاء وكالة فعلية[٢]. وشاء الله أن يكون هذا الحراك السياسى والاستجابة المصرية له، مقدمة للاهتمام بالتعليم الاسلامى ونشر الاسلام واللغة العربية فى شتى ارجاء السودان وعلى رأسها الجنوب، عبر وكالة شئون السودان التى اصبحت فيما بعد تنسق بين كل الجهات التى تهتم بشئون الاسلام والمسلمين.

وظهر بوضوح تحت عنوان استخدام المسائل الدينية لخدمة الفكرة الاتحادية نشاطات كثيرة قامت بها الادارة المصرية لخدمة هذا الافكار. ويمكن القول بأن الخبير الاقتصادى لمصر فى السودان هو اول من روج لهذه الفكرة، فنراه مثلا فى مسألة اصلاح المعهد الدينى سنة ١٩٤٣ يرى ان حكومة مصر تستطيع ان تكسب كسبا جديدا عن طريق نشر الثقافة الاسلامية. فيما راح تقرير الشيخ محمد نور الحسن يشير الى انه حينما كان الطلبة السودانيون يشتركون فى جميع الحركات الوطنية فى الاربعينيات اغلقت حكومة السودان دور التعليم فى وجوههم فانطلقوا يهاجرون الى مصر وجلهم فى الازهر، ويشير الى ان بعض رجالات الاحزاب الاتحادية سابقا حاولو أن يربطوا الطلاب بعجلتهم جريا وراء الكسب الحزبى، فقد كانوا يجمعون ما شاءوا من جماهير ويسمونها بعثة مقرونة باسمائهم مثل بعثة نورالدين او بعثة باسماء هيئاتهم كبعثة المؤتمر ثم يلقون بها فى الازهر، ثم لا شئ بعد ذلك. لهذا دخل الازهر الكثير من عابرى الطرق وارباب المهن الذين لا تتوافر فيهم صلاحية العلم والدراسة.

ويمكن القول بأنه خلال الفترة من ١٩٣٠ -١٩٤٦ قد صاغت بريطانيا

---

(١) محمد سليمان: – دور الازهر فى السودان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص ١١٤.

(٢) خطاب من الدكتور عبدالعزيز عبدالمجيد لحضرة صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا، ١٠ مارس١٩٤٧، ملف القرار الوزارى بانشاء مكتب دائم للجنة العلاقات الثقافية بين مصر والسودان، محفظة ٣ / د، محفوظات مجلس الوزراء ما بعد ١٩٢٣ ...

سياسة ادارية لعزل التأثير العربى عن الجنوب وشجعت الافريقية مقابل الثقافة العربية الاسلامية[١]. وبالمقابل كان لمصر دور كبير فى الحفاظ على اللغة العربية عبر مدرسيها الذين انتشروا بعد معاهدة ١٩٣٦ فى مدارس السودان، واعترافا بدور المعلمين المصريين واثرهم كتبت اشعار تخلد ذكرهم وتسجل فضلهم فى الحفاظ على اللغة العربية. وجاءت الوثائق البريطانية لتؤكد على ان بريطانيا كان لها الدور الأكبر فى توجيه فكرة الاستقلال كحائط صد لمواجهة فكرة الاتحاد. ورسالة كامبل الى السيد بيفن فى ١٥ مارس ١٩٤٧ بخصوص إصدار قانون لتعريف الجنسية السودانية، تؤكد على حق الحاكم العام فى التشريع دون استشارة مسبقة، الأمر الذى جعل حكومة النقراشي باشا تثير المسألة مع الحاكم العام وتعترض عليها. وأن تعريف السودانيين المواطنة قد يعيق الحكومة المصرية في أي نزاع ترغب في طرحه داخل الأمم المتحدة بشكل منظم بين المصريين والسودانيين بعيدا عن مفاهيم الانفصال، وبرؤية موحدة تخضع لـ "تاج مصر المشترك"، وأن ما صدر عن الحاكم العام دون موافقتهم المسبقة يعد خرقا. لكن نظرا لعدم كفاءة البيروقراطية المصرية، وعدم قدرة الحكومة المصرية فى النظر في أي مسألة تتعلق بالسودان[٢]، لم يتطور الأمر أكثر من هذا الاحتجاج.. ومع ذلك فإن رسالة كامبل لبيفن فى ١٧ أبريل ١٩٤٧ تشير بأن الحكومة المصرية قد حاولت الاستفادة من الفرصة التي أتاحها حكم قضائى سابق منذ عام ١٩٣٧ يقضى بضرورة التشاور المسبق بين الطرفين، وأن من حق مصر نقض التشريعات، خصوصا تلك التى تصدر دون

---

(١) SANDERSON, PASSMOR, LILIAN: "Education in the Southern Sudan: The Impact of Government –Missionary-Southern Sudanese Relationships Upon the Development of Education during the Condominium Period ,1898-1956", *African Affairs*, Vol.79,No.315,April 1980 ,PP.166,167.

(٢) F.O.407-226: *Further Correspondence Respecting Egypt And The Sudan , Part3 January To December 1949*, No.12 SIR R. CAMPBELL , 15 March 1947.P.45.

التعبير عن وجهات نظرها لحكومة السودان[١]. وقاد التشدد فى ضرورة حمل الجنسية السودانية للذين يرغبون فى التعليم فى مصر منذ سنة ١٩٥٢[٢]، الى نتيجتين متناقضتين: اولهما تصاعد موقف الاستقلاليين، ثانيهما ارتفاع معدل الاقبال على المدارس المصرية فى السودان بعد صدور قانون الجنسية سنة ١٩٥٠، فإغلاق باب التعليم فى مصر أدى الى زيادة الاقبال عليه فى السودان، وهذا يفسر حسن قراءة الحكومة المصرية للموقف حينما اصرت على زيادة مدارسها هناك بعدما كثر الحديث عن السودنة والجنسية.

ولعل مفاوضات وزير الخارجية محمد صلاح الدين مع ارنست بيفن وزير خارجية بريطانيا والتى تحطمت فى اكتوبر ١٩٥٠ على صخرة السودان، هى التى دفعت رئيس الوزراء المصرى مصطفى النحاس لأن يرفع الى الحاكم العام فى ١٣ ديسمبر ١٩٥٠ بأن مصر الحريصة على تمتع السودانيين بالحكم الذاتى فى نطاق وحدة مع مصر تحت التاج المصرى، ترفض مناقشة الحكم الذاتى فى وقت تجرى فيه مفاوضات بهذا الشأن فى لندن. وتصاعد الأمر أكثر حينما أجازت الجمعية التشريعية عن طريق رئيسها محمد صالح الشنقيطى قرارًا بشأن الحكم الذاتى فى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٠ قدمته الى الحاكم العام البريطانى روبرت هاو، ليرفعه الى دولتى الحكم الثنائى. مما جعل حكومة الوفد تقوم بإلغاء اتفاقية ١٨٩٩ ومعاهدة ١٩٣٦، ثم تقوم بتغير لقب الملك فاروق ليكون ملكا لمصر والسودان بموجب القانون رقم ١٧٦ فى اكتوبر ١٩٥١. وهو الأمر الذى جعل وزير المعارف طه حسين يوجه الاتهام لمحمد صلاح الدين بسبب قبوله بطرح فكرة تقرير المصير للسودانيين امام

---

(١) .O.407-226: “Further Correspondence Respecting Egypt And The Sudan”, .Part 3 January To December 1949, *Sir R. Campbell* ,17 April 1947.P.94

(٢) خطاب من الاتحاد السودانى المصرى لوحدة وادى النيل الى وكيل الوزارة لشئون السودان ٣٠ / ١١ / ١٩٥٠، ما هى الجنسية السودانية، محفظة ٣ / د، محفوظات مجلس الوزراء ما بعد ١٩٢٣.

اجتماع الامم المتحدة المنعقد فى باريس فى نوفمبر ١٩٥١. وعلى هذا استطاعت الجمعية التشريعية السودانية تمرير هذا القرار بايحاء من بريطانيا ودون التشاور مع الادارة المصرية. وبالتوازي رفعت الاحزاب السودانية الى الامين العام للامم المتحدة مذكرة فى يناير ١٩٥٢ تتضمن الاجراءات العملية التى تقترحها لتنفيذ استفتاء حر يكفل مصالح السودانيين فى حق تقرير مصيرهم. وبالمقابل اعلنت بريطانيا قبولها بإعلان الملك فاروق ملكا لمصر والسودان، بشرط ممارسة السودانيين لحقهم فى تقرير مصيرهم وتحديد موقفهم من قبول التاج المصرى. وهو الأمر الذى جعل الجانب المصرى يتخوف من تلك الصياغة البريطانية [١]. وعلى هذا فإن معركة تقرير المصير قد حسمت لصالح بريطانيا وفريق الاستقلاليين قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

الثانى- موقف مصر من مطالب الاستقلال بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى بداية الفترة الانتقالية:-

كان بدء سريان دستور الحكم الذاتى السودانى، والذى قدم لدولتى الحكم الثنائى فى ٨ مايو ١٩٥٢، اى قبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، فى٨ نوفمبر ١٩٥٢ دون اقدام مصر على النظر فيه [٢]، قد أورث قيادات الثورة وضعا سياسيا ومعطيات غير مستعدين للتعامل معها نتيجة أمرين: اولهما، تخوف رجالات الثورة من المشكلات الداخلية التى تواجههم، وبالتالى هم غير مستعدين لفتح كافة الجبهات عليهم دفعة واحدة. ثانيهما، أن خبرتهم السياسية بمسألة السودان كانت قليلة جدا مما انعكس على التعامل مع ملفها. وتقدم لنا مذكرات صلاح سالم(*) صورة بالغة الأهمية عن مصر وعلاقتها بالقوى السياسية المختلفة داخل السودان وكيفية التعامل معها

---

(١) أمانى محمد كمال الدين احمد الطويل:- المرجع السابق، ص ص ١٤-٢٢.

(٢) نفسه، ص ص ١٧-٢٢.

(*) تلك المذكرات التى نشرها فى جريدة الشعب المصرية بداية من ٤ يونيو ١٩٥٦.

والاخطاء التي ارتكبت في هذه التعاملات. وذكر حسين ذو الفقار صبري أنه شعر بعدم أهمية السودان للقادة الجدد الذين انصرفوا نحو تأمين أوضاعهم الداخلية، ولكن أعاود الاتصال بصلاح سالم في إلحاح، وفي ذهني أن قيام الثورة في مصر يتيح لنا فرصة إعادة النظر في علاقتنا السياسية بأحزاب السودان، حيث أبلغ حسين صبري صلاح سالم بخطورة الموقف في السودان، وأن ٨ فبراير هو أخر موعد لإبلاغ الحاكم العام رأي مصر في دستور الحكم الذاتي في السودان، ودار حوار طريف بين الأثنين، قال فيه صلاح سالم لا نجد وقتًا لنستحم، فرد عليه حسين صبري قائلًا: دع القيادة تتخذ إجراء فالمسألة خطيرة وضياع السودان يعني ضياع ماء النيل"، ويبدو أن صلاح سالم أراد التخلص من إلحاح حسين ذو الفقار ففوضه في الاتصال بالأحزاب والشخصيات السودانية[1].

وربما كان تكليف عبدالفتاح حسن بوظيفة الياور العام فى الخرطوم واتصاله بصلاح سالم هو الذى جعله فى موقف المسئول عن ملف السودان، فاين هى خبرته فى ملف السودان اللّهم الا مولده فى سنكات السودان. ولهذا قيل بأن عبداللطيف البغدادى حينما اتصل به حسين ذوالفقار صبرى فى مطلع نوفمبر ١٩٥٢ هو الذى أمره بالتواصل مع صلاح سالم، فى حين طالب عبدالناصر بفصل ملف السودان عن مصر، وامر ببدء مفاوضات بشأن السودان على نحو عاجل. ومع ذلك كان للاتحاديين دور فى تلك المسألة حينما أرسلوا لقيادات الثورة باقتراح اجراء استفتاء تقرير المصير، وان تتولى حكومة سودانية مؤقتة تحت اشراف لجنة دولية ادارة الفترة الانتقالية. ويمكن القول بأن تقرير حسين ذوالفقار صبرى هو الذى قاد رجالات الثورة المصرية بقبول الاجراءات التى ورثوها منذ فترة ما قبل الثورة. فقد ارسل صبرى تقريره لمجلس قيادة الثورة فى اغسطس ١٩٥٢ بأن اجراء انتخابات سيتم سنة ١٩٥٣ ولابد من موقف تجاهها، والخشية من فوز فريق

---

(١) محمد عبدالرحمن عريف: خطايا يوليو وصلاح سالم في حق السودان، ١٧ اغسطس ٢٠٢٠، https://www.raialyoum.com/index.

الانصار بقيادة عبدالرحمن المهدى، وان يصبح ملكا على السودان. وبالتالى اختارت مصر المزايدة على لندن بالموافقة على حق تقرير المصير باشراف هيئة دولية. وكان من نتائج مذكرة عبدالفتاح حسن الاعتراف المصرى بحق تقرير المصير، والاسهام فى تعديل الدستور لضمان سودنة الوظائف وخروج الانجليز عن مصر[١].

وراح محمد نجيب وصلاح سالم ورجالات الثورة يعملون بعد ذلك على توحيد الاحزاب السودانية الاتحادية حتى تجتمع كلمتهم على راي واحد. وانتهى الامر بتشكيل الحزب الوطنى الاتحادى، واجتمع نجيب بقادة تلك الاحزاب فى مصر وطالبهم بتصحيح الاخطاء، مناشدا اياهم بتهدئة الاحوال فى السودان، واختير اسماعيل الازهرى لرئاسة هذا الحزب الجديد[٢]. واتفاق الجنتلمان الذى وقع بين عبدالرحمن المهدى ونجيب فى اكتوبر ١٩٥٢ يشير الى أن رأس قيادات الاستقلاليين كانت تعنيها المجالات الثقافية التى تشارك فيها مصر كشريان للعروبة[٣]. ورغم ان وكالة الوزارة لشئون السودان اصبحت بعد ثورة يوليو هى التى تنسق العمل بين الوزارت المختلفة الا انها لم تقدم الكثير فى هذا الاطار. فبعد أن ذهبت بعض الاحزاب الاستقلالية الى لندن، اجتمعت الاحزاب جميعا فى القاهرة، وحدث اتفاق نجيب المهدى فى اكتوبر ١٩٥٢، بخصوص ملامح المرحلة الانتقالية. وهذا ما جعل السنهورى باشا يرفض منح السودانيين الحكم الذاتى الفورى، فاستبعد من وفد التفاوض. وكان تحويل تقرير المصير لصالح الوحدة الطوعية عبارة عن مراهنة تقترب من حد المغامرة، الامر الذى جعل الادارة المصرية تسعى لتهيئة الرأي العام المصرى بالقبول بالموقف الجديد، وشرح هذا

---

(١) أمانى محمد كمال الدين أحمد الطويل:- المرجع السابق، ص ص ٢٤-٣١

(٢) مصطفى كمال عبدالعزيز محمد:- المرجع السابق، ص ص ١١٣-١١٩.

(٣) فرنسيس دينق:- صراع الرؤى نزاع الهويات فى السودان، ترجمة د. عوض حسن، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، ٢٠٠١، ص ص ٤٤، ٣٢٨..

الامر عبر الصحافة المصرية[١]. وتم الاتفاق فى ١٠ يناير ١٩٥٣ على كل قواعد الفترة الانتقالية والحكم الذاتى، غير أن عدم وضوح الطرق التى لجا لها صلاح سالم لاتمام الوحدة الطوعية بين مصر والسودان جعل هناك شكوك كثيرة حولها، لكن المحصلة هو اتمام الاتفاق النهائى فى فبراير ١٩٥٣[٢]. وهو ما اسس لشرعية جديد بعيدة عن التمسك بمسألة السيادة على السودان. واعتبر محمد نجيب وصلاح سالم ان نجاح الحزب الوطنى الاتحادى فى انتخابات ١٩٥٣، انما هو مراهنة على قضية الوحدة بين مصر والسودان، مع ان صلاح سالم كشف بأن اسماعيل الازهرى قد امتطى جواد وحدة وادى النيل للوصول لأهدافه السياسية[٣]. وبدت المسائل الدينية والثقافية تشغل اهتمام وكالة الوزارة لشئون السودان الى جانب اهتماماتها الاخرى منذ سنة ١٩٥٣ وغادر مصر الى السودان الدرديرى احمد اسماعيل وكيل الوزارة الدائم لشئون السودان ومحمد ابونار مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان لدراسة بعض المسائل الدينية والثقافية فى المدارس والمساجد المنشأة فى جهات السودان المختلفة لدعم الوحدة الطوعية[٤]. لكن دون جدوى. حيث بدت معركة المرحلة الانتقالية مختلفة عن سابقتها، وتلاقت مصالح قوى داخلية مع مصالح قوى خارجية لتقود فى النهاية الى انحياز قطاع كبير من فلايق الاتحاديين الى الاستقلال.

الثالث- موقف مصر من مطالب الاستقلال خلال الفترة الانتقالية ١٩٥٣-١٩٥٥:

حينما فاز الحزب الوطنى الاتحادى بانتخابات عام ١٩٥٣ وسيطر على البرلمان السودانى والحكومة الانتقالية، راحت الادارة المصرية تركز على المسائل الامنية والاستراتيجية والثقافية فى غياب مشروع سياسى واضح لوحدة وادى

---

(١) أمانى محمد كمال الدين أحمد الطويل:- المرجع السابق، ص ص٣٣-٣٦.

(٢) مصطفى كمال عبدالعزيز محمد:- المرجع السابق، ص ص١٢٦-١٢٩.

(٣) أمانى محمد كمال الدين أحمد الطويل المرجع السابق، ص ص٨٤-٩١

(٤) مبعوثان الى السودان لدراسة مسائل اقتصادية ومالية، الاهرام، ١٢/١٠/١٩٥٣.

النيل. مما جعلها تعمل على المراهنة على الحزب الوطنى الاتحادى فقط، وتقوم بتمويل دعاياته الانتخابية ورشوة اعضائه. وراح صلاح سالم يسعى لاختراق الحزب الاتحادى نفسه، ويعمل على اختراق قوة دفاع السودان وتشكيل تنظيم ضباط احرار داخلها عام ١٩٥٤. وهو ما انعكس أثره على أول حكومة انتقالية سودانية بقيادة اسماعيل الأزهري. وكان من المفترض ان تكون مدتها ثلاث سنوات ينحصر هدفها فى تحقيق السودنة وجلاء القوات البريطانية والمصرية عن السودان، وتوفير المناخ الحر لاستفتاء تقرير المصير وانتخاب لجنة تأسيسية لعمل الدستور. غير أن تعارض مصالح اسماعيل الازهرى وعلى الميرغنى، ورفض عدد من الوزراء السودانيين لأن تحكم مصر، جعل الأزهري يتفاهم مع حزب الامة، متعاطفا مع فكرة الاستقلال منذ مارس ١٩٥٥. وربما كانت الاموال التى قدمتها بريطانيا لحزب الامة، والتى فاقت ال ٥ مليون جنية استرلينى قد هيأ حزب الامة لتشوية العمد والنظار فى جنوب السودان وغربه. ولعل ما حدث لمحمد نجيب والوفد المصرى عند افتتاح البرلمانى السودانى فى مارس ١٩٥٤ من قتل ٧١ شخصا وجرح اكثر من ١٠٧ فردا ليشى برغبة هذا الفريق فى ايصال فكرة الاستقلال بشكل واضح للإدارة المصرية(١). واعتقد ان انحياز الادارة المصرية لفريق الاتحاديين على حساب الاستقلاليين كان بديهيا، ولا يمكن تقدميه على أنه خطأ ارتكبته الادارة المصرية. حيث كان من الطبيعى ان تقف الادارة المصرية مع الفريق الذى يؤيد توجهاتها الاتحادية لمواجهة الفريق الذى تدعمه بريطانيا داخل السودان ويرفع راية الاستقلال.

والسؤال الذى يطرح نفسه كيف تنامت رغبة الاستقلاليين داخل السودان بعد نجاح الفريق الاتحادى الذى تدعمه مصر فى انتخابات ١٩٥٣. فقد كان الطلبة السودانيون فى جامعة الازهر عرضة لكافة التيارات الفكرية والسياسية سواء اطروحات الصحوة الاسلامية عبر الاخوان المسلمين، او الماركسية عبر

(١) أمانى محمد كمال الدين أحمد الطويل:- المرجع السابق، ص ص ٩٤-٩٧، ١٤٢-١٥١.

التنظيمات الشيوعية المصرية، او الدعاية المصرية الرسمية لوحدة وادى النيل. وتشير التقارير الى انهم كانوا هدفا للاستقلاليين السودانيين باعتبار ان لهم ميزة انهم تعلموا وعاشوا فى مصر وفى الازهر ومع ذلك يرغبون فى الاستقلال، وكان حزب الامة من خلال جمعية البر والاحسان بشارع قصر النيل يركز على ترحيل طلاب الازهر السودانيين الى السودان للدعاية الانتخابية[1]. هذا من ناحية، لكن الناحية الأخرى فى كيفية تنامى رغبة الاستقلال بين السودانيين تشرحها لنا الوثائق البريطانية. حيث تشير رسالة آدامز للسير أنتوني إيدن فى ٧ يناير ١٩٥٥ بأن عام ١٩٥٤ شهد أولى الخطوات المهمة نحو ظهور السودان كدولة مستقلة. مركزا على واقعة افتتاح أول برلمان سوداني بشكل رسمي في اليوم الأول من عام ١٩٥٤، وكذا انتخاب اسماعيل الازهري رئيسا لمجلس الوزراء يوم ٩ يناير، وأنه في سياق الاثني عشر شهرًا التالية غادر جميع المسؤولين الأجانب إدارة دفاع السودان القوة والشرطة؛ واكتملت الخطط تقريبًا لاستبدال غالبية الوافدين في الأقسام الحكومية الأخرى. وتمت السودنة، حيث أصبح رحيل البريطانيين محسوسًا رغم الثقة الكبيرة بين المسؤولين السودانيين والبريطانيين. شارحا الانتخابات التي أجريت في جميع أنحاء الدولة في نهاية عام ١٩٥٣، ورغم انها وضعت السلطة فى يد الحزب الوطني الاتحادى المتحالف مع مصر، خشية حكم عائلة المهدي وضمان إنهاء الحكم البريطاني، وبتأثير المال المصري، إلا أنه حالما اتضح بأن حكومة صاحبة الجلالة قد قبلت بأحكام السودنة في اتفاق ١٢ فبراير ١٩٥٣، وتم مغادرة المسؤولين البريطانيين من حكومة السودان، فقدت مصر محفزها الرئيسي. خاصة وان المصريين، حسب الوثيقة، يعتقدون بأن أفضل طريقة لممارسة نفوذهم هناك هو الحفاظ على وحدة العناصر المناهضة لبريطانيا. وفى هذا الاطار قاموا بحملة دعائية مكثفة لإظهار البريطانيين كمستعمرين، وانهم يتامرون على تقويض سلطة

---

[1] تقرير عن جمعية البر والاحسان الكائنة بشارع قصر النيل، ملف ١٠/٧ سرى ج٤ لعام ١٩٥٣، تقارير المخابرات الجوية، محفظة ٣٠٩، سرى قديم، ارشيف الخارجية.

السودان. لكن بالمقابل تنتهى الوثيقة بأن المعارضة السودانية لنتائج الانتخابات البرلمانية قد صممت على ايصال رسالة لمصر بانها اذا أرادات أن تقول بانها حامى الحمى فى السودان، فإن رغبة الشعب تتمثل فى الاستقلال، وان حوادث البرلمان فى مارس ١٩٥٤ كانت تدور حول هذه الرسالة وتصب فيها [١]. ونخلص مما سبق بأن التحريض البريطانى ضد مصر كان يجرى على قدم وساق، وأن النجاح الذى كسبته مصر فى الانتخابات البريلمانية لعام ١٩٥٣ راح يتلاشى باظهار الادارة المصرية وكأنها تتحكم فى مستقبل السودان وتتلاعب بالسودانيين وتديرهم.

وبالمقابل لم تيأس الادارة المصرية من مواجهة الحملات المضادة التى تتعرض لها فى السودان. وهناك تقرير مرفوع الى وكالة الوزارة لشئون السودان عام ١٩٥٤ يعبر عن الطرق العملية لتحسين العلاقات واشاعة روح الاخاء بين السودانيين فى الجنوب واخوانهم المصريين فى الشمال، منها ارسال بعثة دينية قوامها ستة اشخاص منهم ثلاث مصريين وثلاث سودانيين، وايضا فتح اندية ثقافية تسمى بالصداقة المصرية السودانية فى كل ركن من اركان الجنوب، وارسال الطلبة المصريين لعمل دراسات فى الظاهر، وفى الباطن ربط اواصر الصداقة واشاعة روح المحبة، واستبدال امام جامع جوبا بامام اخر متصوف، وبناء جوامع فى كل من بانتيو ومريدى وبمبيو وواو وبروك ورمبيك والتونج، ويشترط فى المهندسين الذين سيوكل لهم امر العمل فى ملكال وجوبا وواو ان يكونوا دينيين بكل ما تحمله هذه الكلمة[٢]. وهذا يفسر ما ورد فى تقرير الشيخ محمد نور الحسن الى طلب

---

(١) F.O.407-234: "Further Correspondence Respecting Egypt And The Sudan", Part 9 January To December 1955, No. 1 Sudan*: Annual Review For 1954 .Mr. Adams To Sir Anthony Eden. Khartoum,January* 7,1955..Pp.2,3.

(٢) جنوب السودان، ملف ٣ / ٤ النواحى الدينية بالسودان وكيفية استغلالها فى نشر الفكرة الاتحادية، وزارة الارشاد القومى، الطرق الصوفية، محفظة ٣٠٨، سرى قديم، ارشيف الخارجية

رجال الحكومة الوطنية ان تكون اعانة الحكومة المصرية للمدارس والمعاهد الدينية والمساجد والمستشفيات عن طريق الحكومة الوطنية السودانية، والا تقوم الحكومة المصرية بعمل اية دعاية لمصر فى فترة الانتقال، وانهم من خلال الشيخ على عبد الرحمن وزير العدل تكلموا فى هذا الموضوع من قبل مع الدرديرى احمد اسماعيل وكيل الوزارة لشئون السودان ووافق على ذلك(١).

وراح فريق الاستقلاليين عبر مبعوثى حزب الأمة إلى لندن يعبرون للحكومة البريطانية عن احتجاجاتهم حول حجم التدخل المصري، طالبين منها الضغط علنا عليها، والعمل النشط لكبح جماح ذلك. وفي سلسلة من الاجتماعات في وزارة الخارجية البريطانية تم إخبار المبعوثين بأن حكومة جلالة الملكة تعمل على الوقوف إلى جانب أحكام الاتفاقية الأنجلو مصرية وتشجيعها على التركيز على الوسائل الدستورية لتعزيز طموحاتهم الخاصة عن طريق مهاجمة خصومهم السياسيين في الصحافة والبرلمان. ولهذا أرسل المصريون الرائد صلاح سالم للسودان لمحاولة تأليف الخلافات الوزارية داخل الحكومة السودانية. وفي المدى القصير كانت المهمة ناجحة للرجل، لكن البريطانيين ومؤيديهم قدموها على أنها دلالة فاضحة على التدخل المصري في الشؤون السياسية للسودان على نطاق واسع، الأمر الذى قوبل باستياء علنى. ورغم ان زيارة صلاح سالم فى ظاهرها احباط لمؤيدى الاستقلال بقيادة حزب الأمة، إلا أن الواقع السياسى لها يشى بأن الحزب الوطنى الاتحادى هو الذى خسر فى الشارع، حيث ظهرت حملات الصحافة السودانية ضد الفريق الموالى لمصر، رافعة من راية الاستقلال(٢). وتقطع احدى

---

(١) تقرير مقدم من السيد محمد نور الحسن الى السيد وزير الارشاد القومى ووزير الدولة لشئون السودان عن رحلته لزيارة المعاهد والمؤسسات الدينية والعلمية،ملف ١/٦/٣/أ المذكرات المقدمة من فضيلة الشيخ محمد نور الحسن، وكالة الوزارة لشئون السودان، محفظة ١٦، سرى جديد، ارشيف الخارجية

(٢) F.O.407-234: "Further Correspondence Respecting Egypt And The Sudan", Part 9 January To December 1955, No. 1 Sudan: *Annual Review For 1954* .*Mr. Adams To Sir Anthony Eden. Khartoum*,January 7,1955..P1

الوثائق البريطانية بأن المعارضة السودانية قد انطلقت تدعو الى الاستقلال التام للسودان. ورغم انه تم التصويت على الحكومة الانتقالية لتولي السلطة بهدف الوحدة مع مصر، إلا أنه أثناء الأربعة عشر شهرا مرت على حكمها، تم توحيد الرأي العام فيها لصالح الاستقلال. ومع ذلك، كانت المعارضة قادرة على تعزيز مكانتها في البرلمان بما يكفي لتشكيل حكومة بديلة لحكومة الازهرى، وان جولة احد المسؤولين البريطانيين فى مقاطعات الغرب تشى بأن تلك الدوائر تنحو بقوة مؤيدة للاستقلال(١).

ويتضح الأمر اكثر فى تنامى رغبة السودانيين فى الاستقلال داخل الوثائق البريطانية، فتحت عنوان سياسة الحزب الاتحادي الوطني راحت احدى الوثائق البريطانية بتاريخ ١٥ ابريل ١٩٥٥ تقطع بتحولات الاتحاديين نحو الاستقلال. حيث تشير بأن الحزب ظل يعانى من ضغوط داخلية منذ فترة طويلة، وخاصة منذ النصف الثاني من عام ١٩٥٤ لاعلان موقفه بشكل واضح. وكان لا يمكن لقادته أن يتجاهلوا الرأي العام، الذي يسير بقوة لصالح الاستقلال والسيادة الكاملة للسودان. وتشرح الوثيقة بأنه كان من الصعب عليهم أن يتحولوا عن مساندة أصدقائهم المصريين الذين قدموا لهم الدعم المعنوي والمالي لسنوات عديدة قبل وصولهم إلى السلطة، وأنهم ما زالوا يرون صداقتهم أفضل تأكيد على أن البريطانيين سوف يفون بوعدهم ويسلمون زمام الأمور للحكومة السودانية. لكن عندما تم سحب الموظفين البريطانيين، راحت المشاعر المؤيدة للاستقلال تتنامى داخل الحزب وتتسارع وتيرتها بفعل محاولات مصر الشديدة فى السيطرة على أمور السودان. وراح غالبيتهم يتبنى سودانا مستقلا وذو سيادة جمهورية، وله علاقات وثيقة مع مصر. وأن الصرخة المصرية القديمة المطلبة بوحدة وادي النيل، بمعنى كيان سياسي واحد، لم يعد لها أي صدى داخل الحزب. وبتشجيع من عناصر

---

(١) F.o.407-234: No. 3 "SUDAN: POLITICAL SITUATION", *Mr. Adams to Sir Anthony Eden, Khartoum*, March 11, 1955..p12.

الحزب المعتدلة الممثلة بمبارك زروق، يتحول اهتمامه الآن إلى صياغة سياسة محلية تقوم على مبدأ "الديمقراطية الاشتراكية "وإدراج أحكام تتعلق بالتشاور مع مصر في بعض النقاط المحددة، على غرار تلك التي أوصت بها اللجنة الخاصة المعينة لهذا الغرض. ولهذا سارعت "جبهة الاستقلال" إلى الترحيب رسميًا بإعلان الحزب بأنه مع الاستقلال التام. وفى نفس السياق قدم محمد أحمد محجوب، احد ابرز زعماء المعارضة، اقتراحًا بأن تكون الخطوة التالية هو توافق الجانبين في البرلمان على ميثاق وطني لضمان الاستقلال الكامل والسيادة الكاملة للسودان، للعمل من خلال الوسائل الدستورية، ومن خلال البرلمان للقضاء على تقرير المصير. وتوافقت هذه الرغبة مع رغبة مبارك زروق ومع حزب الاستقلال الجمهوري بزعامة سيد ميرغني حمزة(١). وعلى هذا كانت الادارة البريطانية تعرف ما لم تدركه القيادات المصرية الممسكة بملف السودان.

وتضيف الوثيقة السابقة بأن شعور معاداة المصريين قد تصاعد داخل الحزب بصورة كبيرة، ظهر هذا عبر الإجراء المتخذ ضد جريدة التلغراف التي ترعاها مصر، وعبر الترتيب للرقابة على المسرحيات والاسكتشات المصرية. بل راحت أي إشارة للمصري تعنى ضرورة انتزاع الرأي ضدهم، وبرز ايضا من خلال قطع المحادثات المصرية السودانية الجارية بالقاهر حول مياه النيل، وبسبب الإهانات التي وجهت لرئيس الوزراء السودانى تتطور المسائل أكثر فاكثر. حيث كانت هناك شائعات مستمرة بأن المصريين لا يزالون يحاولون إطلاق حزب جديد موالٍ للوحدة، وإشارات بأنهم يحاولون تأجيج الرأي العام الجنوبي من خلال نشر حكايات المؤامرات البريطانية. ونشر بوث ديو وجنوبيون آخرون من المعارضة بيانًا طالبوا فيه برباط دستوري مع مصر، يأملون فيه بتمويل المصريين لتنمية الجنوب. لكن أكبر نكسة للمصريين في السودان تمثلت فى تنحية الجنرال محمد نجيب عن السلطة. فمع

---

(١) F.o.407-234:- No. 5 "SUDAN: NATIONAL UNIONIST PARTY POLICY" *Mr. Adams to Mr. Macmillan. Khartoum*, April 15, 1955..p15

قبول فكرة أن هذه التنحية قد جاءت لأسباب مصرية داخلية بالكامل، لكن معظم السودانيين غيروا موقفهم تجاه النظام المصرى الحاكم. وأصبح اسماعيل الأزهري وغالبية اعضاء الحزب الوطنى الاتحادى ملتزمون علنًا بخط مؤيد للاستقلال، وأصبت هناك صعوبات كبيرة تواجه المصريين لتغيير هذا الموقف(١).

ومع ذلك مضت مصر فى محاولة لاستقطاب شيوخ الطرق الصوفية، ولهذا نادى بعضهم بالاتحاد المتكافئ مع مصر لجمع الكلمة، ووقع منهم محمد احمد محمد على (نائب الطريقة العزمية بالسودان) واخرين وقعوا نيابة عن الطريقة الاحمدية والقادرية والشاذلية والبرهامية والسمانية، وكان مكتب الاتصال المصرى بالخرطوم على اتصال بهذه الطرق. فكان مدير المخابرات المصرية فى السودان على اتصال بشيخ الطريقة الشاذلية مجذوب جلال الدين فى مارس ١٩٥٥، وبشيخ الطريقة العزمية المصرية الاستاذ اسماعيل العزام. وظلت الحكومة المصرية تعمل على تقديم الاعانات المالية للخلاوى والمساجد(٢). واقترح اليوزباشى محمد ابونار مدير ادارة شئون السودان بالإسراع فى انشاء مراقبة دينية تشرف على التوجيه والارشاد الدينى وتقوم بالاتصال بالمعاهد الدينية وخلفاء ومشايخ الطرق والمبادرة بارسال بعثة الوعظ(٣). وبدا الاهتمام على اشدة سنة ١٩٥٥ لقرب موعد تقرير المصير، ويتضح هذا من خطاب الاميرلاى عبد الفتاح حسن الى شيخ الازهر، بانه جريا على عادة الازهر ارسال وعاظ فى شهر رمضان يرجوه ان يزيد العدد هذا العام، وان يكون منهم الشيخ عبدالمعز عبد الستار والشيخ على جعفر والشيخ محمد الاباصيرى

---

(١) F.o.407-234: No. 5 "SUDAN: NATIONAL UNIONIST PARTY POLICY" *Mr. Adams to Mr. Macmillan. Khartoum*, April 15, 1955..p16.

(٢) مكتب الاتصال المصرى بالخرطوم، ملف ٣ / ٤ النواحى الدينية بالسودان وكيفية استغلالها فى نشر الفكرة الاتحادية، وزارة الارشاد القومى، الطرق الصوفية، محفظة ٣٠٨، سرى قديم، ارشيف الخارجية.

(٣) ملف ٣ / ٤ النواحى الدينية بالسودان وكيفية استغلالها فى نشر الفكرة الاتحادية، وزارة الارشاد القومى، الطرق الصوفية، محفظة ٣٠٨، سرى قديم، ارشيف الخارجية.

والشيخ زكريا الزوكة والشيخ اسماعيل حمدى والشيخ محمد النجار. وفى خطاب اخر بتاريخ ٣ /٤ /١٩٥٥ طلب عشرة من العلماء منهم الشيخ محمد الغزالى والشيخ سيد سابق والشيخ ابراهيم دسوقى والشيخ رضوان والشيخ عبد الحميد طه والشيخ صادق ابوالفضل والشيخ محمد ابراهيم همام والشيخ راضى حسن عبد الفتاح والشيخ احمد عيسى عاشور والشيخ عبد المطلب صلاح على ان يسافروا فى منتصف شعبان[(١)]. وكان الغرض حشد اكبر عدد ممكن من الجمهور السودانى لدعم الفكرة الاتحادية داخل السودان، أما فى مصر فلقيت الدعاية الاتحادية استجابة من الطلاب السودانيين، فحسب اشارة الاهرام فى مايو ١٩٥٥ ذهب اكثر من الفى طالب جنوبى ليرفعوا الى الصاغ صلاح سالم تهانيهم بمناسبة عيد الفطر المبارك ويعلنو تمسكهم بالاتحاد مع مصر[(٢)].

ويبدو ان الادارة المصرية لم تدرك الواقع السياسى السودانى والتحولات التى حدثت فى موقف اسماعيل الازهرى نفسه. ففي سياق خطابه أمام الجمهور قال رئيس مجلس الوزراء السودانى في اجتماع بمنطقة رفاعة بمحافظة النيل الأزرق، بأنه يعرف رغبة السودانيين مع الاستقلال الكامل للسودان، فتعهد بأنهم سيفعلوا كل ما في وسعهم حتى يحصل السودان على سيادته الكاملة. وقال أنه مضى القول بأن السودان سيرحب بعلاقات الصداقة الصادقة بين شعبى البلدين، السوداني والمصري؛ وأنه سيكون لشعب السودان الجمهورية والرئيس والجيش والعلم والتمثيل الخارجي[(٣)]. وعلى هذا كانت كل المؤشرات داخل الحزب

---

(١) ملف ٣ / ٤ النواحى الدينية بالسودان وكيفية استغلالها فى نشر الفكرة الاتحادية، وزارة الارشاد القومى، الطرق الصوفية، محفظة ٣٠٨، سرى قديم، ارشيف الخارجية.

(٢) ازهريين للسودان، ملف ٣ / ١ /٥ بشأن انتداب موظفين للعمل بالحكومة السودانية من وزارة الاوقاف والازهر الشريف، محفظة ٥١، سرى جديد، ارشيف الخارجية.

(٣) F.o.407-234: No. 7 “SUDAN: DISMISSAL OF MINISTERS” *Mr. Adams to Mr. Macmillan. Khartoum*, June 24, 195,.p20,21.

الاتحادى تقضى بتغير رغبته نحو الاستقلال، وأن الادارة البريطانية تدرك ذلك وتتعامل معه. وفي الثاني من أغسطس عام ١٩٥٥ قامت لجنة السودنة، التي كانت أنشئت وفقًا للمادة ٨ من الاتفاقية الإنجليزية المصرية، بإبلاغ مجلس الوزراء السوداني بأن مهمتها قد اكتملت. وهذا ما فتح الطريق أمام تقديم اقتراح إلى البرلمان في ١٦ أغسطس لأن يطلب من الحاكم العام دعوة دولتى الحكم الثنائى إلى اتخاذ الترتيبات اللازمة لما تبقى من عمليات تقرير المصير (١). وفى ١٩ أغسطس ١٩٥٥ عبرت احدى البرقيات البريطانية بأن البرلمان السوداني قد اجتمع فى ١٦ اغسطس خصيصا لهذا الغرض. وأنه أصدر بالإجماع قرارًا بالشروط التالية: نحن أعضاء مجلس النواب المجتمعين، نعرب عن رغبتنا في وضع ترتيبات لتقرير المصير على الفور، ونطلب من سعادتكم إخطار حكومات الطرفين المتعاقدين بهذا القرار وفقا للمادة ٩ من الاتفاقية بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٥٣. وأن هذا القرار جاء بعد عودة الأزهري من رحلة علاج فى مصر، وتعرض الوفد السوداني الرسمي للترهيب والتأثير فى معنوياتهم. فبعد عودة رئيس الوزراء إلى الخرطوم، تبين أنه معركة دعائية وجهت فيها اذاعة القاهرة إلى السودان هجومها على الأزهري ونظامه؛ ومددت ساعات البث الخاصة بهم لإخماد المحادثات من قبل الشخصيات البارزة المؤيدة للحكومة السودانية بسبب الاستقلال. حيث استخدموا صحيفة الحزب الوطنى الاتحادى فى شن هجوم مضاد على صلاح سالم وأتباعه. وفي ١٦ أغسطس اجتمع البرلمان بمجلسيه في الساعة ١٠ صباحًا، وكانت المنطقة المحيطة بالمباني مليئة بالحشود السودانية فرحا بالتعاون بين جميع الأطراف حول قضية الإخلاء كخطوة نحو السيادة الكاملة والاستقلال. فطرح رئيس مجلس النواب اقتراحا بالاستقلال على مجلس النواب للتصويت عليه بالتزكية، وحصل على التصويت بنعم بـ ٩١ عضوًا من أصل ٩٧،

---

(١) F.o.407-234: "No. 11 THE COMPLETION OF SUDANISATION" *Mr. Adams to Mr Macmillan. Khartoum*, August 18, 1955..p52,53.

وحدث اقتراح مصري مفاجئ بإحالة مسألة اللجنة الدولية إلى برلمانهم؛ بما يدل على استمرار قوة الدعاية المصرية بلا هوادة. حيث استمر نور الدين وأتباعه في الادعاء بأنهم القادة الشرعيون للحزب الوطنى الاتحادى الذي انحرف به الأزهري وأتباعه؛ وأن معظم السياسيين ينجذبون الى الاستفتاء كوسيلة لتقرير المصير. وكان لابد من تدخل الزعيمين الروحيين للتصويت بنفس المعنى، حتى لا يسمح للمصريين باختراق الصفوف. وتنتهى الوثيقة بالقول بأن الدعاية المصري ضد ازهرى هى التى جعلته بطلا للاستقلال وقائدا لشعبه، حيث راح الرجل يختبر قدرته فيما اذا كان قادرًا على التغلب على العقبات التي ما زالت قائمة في بلده[١].

ورغم كل ما سبق الا ان مصر لم تفقد الامل، حيث صدر قرار وزارى فى اكتوبر١٩٥٥ باعادة تنظيم العمل بوكالة الوزارة لشئون السودان لمواجهة كافة الاحتمالات فى الحاضر والمستقبل، وان تختص المراقبة العامة للشئون الثقافية والاجتماعية بشئون تعليم الازهر[٢].

وظلت الادارة المصرية تمسك ببعض الخيوط على ارض الواقع. ولعل الرسالة المؤرخة بـ١٨ نوفمبر ١٩٥٥ والمتعلقة باستقالة حكومة إسماعيل الأزهري بعد هزيمته في مجلس النواب في القراءة الثانية للموازنة تشى بذلك وتقول به. حيث تقول بأنه تم تعديل الميزانية، فأعيد انتخابه من جديد فى منصب رئيس الوزراء في ١٥ نوفمبر ١٩٥٥. وتزيد القول بأنه رغم انتصاره فى معركة ١٦ اغسطس إلا أن هزيمته في العاشر من نوفمبر كانت غير متوقعة بشكل عام، فكانت اعادته لحاجة فى نفس يعقوب. حيث كانت جماعات المعارضة تستعد لطلب توجيه اللوم على تصريف الحكومة للشؤون التي تنطوي على قضيتين رئيسيتين: البرنامج الدستوري ومعالجة الاضطرابات في الجنوب. وفيما يتعلق بالقضية الاولى، دعا

---

(١) F.o.407-234:- No. 12 "SUDAN: SELF-DETERMINATION" *Sir Knox Helm to Mr. Macmillan.Khartoum*, August 19, 1955.,.p55,56.

(٢) قرار وزارى بتنظيم العمل بوكالة الوزارة لشئون السودان اكتوبر ١٩٥٥، ملف ١ / ٦ /٢ /ج٣ التنظيم المقترح لوكالة الوزارة لشئون السودان، محفظة ١٦، سرى جديد، ارشيف الخارجية.

الأزهري إلى اختصار طريق تقرير المصير بتكليف البرلمان القائم بالمهام التي وضعتها الاتفاقية الأنجلو المصرية عام ١٩٥٣ بعمل جمعية تأسيسية منتخبة. ورغم ان المعارضة لا تقل حرصًا عن اهتمام الحكومة بمباشرة أعمال تقرير المصير، إلا أنها كانت مترددة في الوثوق ببرلمان كانوا أقلية فيه لهذه المهمة، وغير راغبة في أن يتولى الحزب الوطني الاتحادي برئاسة الأزهري، بأن يكتسب الفضل في الإخلاء وتقرير المصير. لذلك جذبتهم إمكانية إسقاط حكومة الأزهري قبل الرابع عشر من نوفمبر،والذي كان قد حدد للاحتفال بإخلاء القوات الأجنبية. ووصلت تقارير تفيد بأن السيد علي ميرغني قرر سحب دعمه للأزهري، ربما لأنه شعر أنه في الأساس "علماني"، وربما لأنه كان خائفا من نتيجة أي "طريق مختصر" لتقرير المصير، أو ربما نتيجة للضغط المصري قد أعطاهم التشجيع الذي يحتاجونه. وتشير الوثيقة بأنه لا أحد يشك فى أن الحكومة المصرية قررت أن الأزهري يجب أن يسقط بأي ثمن؛ واشتدت الدعاية المصرية بهذا المعنى خلال الأسابيع القليلة التي سبقت التصويت على الثقة. واتضح للمصريين بأن جماعات المعارضة غير متوافقه، وانهم يفتقرون إلى التماسك بحيث يوحي للمصريين بأنهم قد يكونون قادرين على السيطرة عليهم أو على الأقل السماح بانهيارهم عند رغبتهم فى ذلك. وتدهشنا الوثيقة بتحليلها بتوافق حزب الأمة وشركاؤه مع الموالين لمصر لأنهم أرادوا أيضًا إفشال ادعاء الأزهري بأنه البطل القومي والزعيم الشعبي للاستقلال. وعلى هذا ظهر أعضاء مجلس النواب عدا الجنوبيين، في أماكنهم صباح يوم ١٠ نوفمبر لانتخاب رئيس وزراء جديد. وظهرت أسماء مرشحين هما أزهري وميرغني حمزة فى ١٥ نوفمبر، فحصل الازهرى على ٤٩ صوتاً مقابل ٤٥ صوتاً للميرغني حمزة وهذا التصويت تلقاه اسماعيل الازهرى كرسالة هامة بشان تقرير المصير، واستخدمتها المعارضة كوسيلة لهزيمته وكضربة خطيرة للمصريين. وبالتالى اصبح كلا الجانبين فى البرلمان ملتزما علانية بسياسة الاستقلال الكامل السودان(١).

(١) F.o.407-234: No. 20 “SUDAN: POLITICAL SITUATION” *Mr. Adams to Mr. Macmillan.Khartoum*,November 18.1955, p74,75.

الرابع– موقف مصر من استقلال السودان يناير ١٩٥٦:

رغم المحاولات التى بذلتها الادارة المصرية فى جذب السودانيين لخيار الوحدة مع مصر، الا ان ما سبق ذكره يشى بأن هناك توافقا بين النخب السودانية حول الاستقلال. لكن الأمر الأخطر هو وجود دعم خارجى للاستقلال. ففى خطاب مكتب الاتصال المصرى بالخرطوم إلى السيد مدير المخابرات العامة حول تعاون الأنصار مع الإسرائيليين، يشير إلى أنه فى مساء ١٩/٥/١٩٥٥ اجتمع بدار حزب الاستقلال الجمهورى كل من الصديق المهدى وعبدالله خليل وخلف الله خالد وميرغنى حمزة، وأربعة من الاسرائيليين هم، أدمون ملكة، مهران داود، موسى كحلة وابراهيم عبود، وجميعهم متجنسين بالجنسية السودانية ودائمى السفر إلى اسرئيل، ومعهم بعض زعماء شباب الانصار فى الاقاليم(*). وأشار الخطاب إلى أن الصديق المهدى تحدث فى المجتمعين " عن وجوب التعاون فى نصرة الدعوة الاستقلالية " وأضاف " بأنه اتفق مع هؤلاء الضيوف الأغراب، يقصد الاسرائلين، على مساندة دعوة الاستقلال وانهم سيقومون بتقديم كل المعاونة "، وتتضح هذه المعاونة فى إشارة الخطاب إلى تدريب شباب الأنصار والحصول على السلاح [1]. ويتضح دورهم أكثر فى إشارة الوثائق سنة ١٩٥٥ لمحاولة سحب السودان بعيداً عن مصر لتكوين كتلة سودانية حبشية لتكوين حزام افريقى يخدم اسرائيل، حيث تستطيع أن تحارب مصر من غير أن تشهر سيفاً، بسبب تحكم الدولتان، السودان واثيوبيا، فى مياة النيل لأنهما سيعملان بوحى من الاستعمار

(*) هم الشيخ عثمان يس وكيل السيد عبدالرحمن فى عطبرة والشيخ جعفر عبدالحميد رئيس شباب الانصار فى ام درمان وكل من الشيخ أحمد الامام وأحمد مضوى حاج الامين والبدرى محيى الدين واسحق عمر الامين من رؤساء شباب الانصار فى منطقة الحلاويين.

(١) خطاب من الصاغ عبدالمنعم عبدالحى مدير مكتب الاتصال المصرى بالخرطوم الى السيد مدير المخابرات العامة حول تعاون الانصار مع الاسرائيليين، ٢١/٥/١٩٥٥، محفظة ٧٠ ، ١٥، ملف ٤/٤/٢ج٤، ارشيف سرى جديد خارجية.

البريطانى الذى يقف الآن خلف اسرائيل[١]. ناهيك عن أن الأموال التى تنفقها اثيوبيا لدعم الفريق الاستقلالى فى السودان، وانها كانت تصلهم عبر التجار اليهود[٢].ويمكن أن نستشف هذا الأمر أيضا من التداعيات التى حدثت لفكرة الاتحاد، لدرجة أن تقارير الادارة المصرية فى سبتمبر ١٩٥٥ طرحت بأنه لو أجرى استفتاء وأسفر عن فوز عدد ضئيل من النواب الاتحاديين فلن يصاب الشعب المصرى بخيبة أمل[٣].ومن ثم يمكننا القول بأن الدور الخفى والمعلن الذى لعبه يهود السودان فى تصعيد تيار الاستقلال قد ساعد القوى الغربية فى ايجاد قوى محلية ممثلة فى يهود السودان لاستغلالها فى تصعيد الاتجاه الاستقلالى.

ويمكن القول بأن تقارير المخابرات الصحفى عن الصحافة السودانية قد كان لها الدور الأهم فى متابعة أمر الاستقلال وارتباطها بقضية الحزام الافريقى، حيث قدمت لنا خيوطاً أخرى ترتبط بأصحاب المصالح فى عرض المشروع، فقالت بأن بريطانيا لم تكن ببعيدة عنه، الا أن رؤيتها تختلف عن الرؤية الامريكية، فى كونها جاءت فى اطار الترتيبات الدفاعية التى اتخذتها عبر مستعمراتها. فقد أرادت أن تعود لمشروعها القديم فى ضم جنوب السودان الى وسط وشرق افريقيا. وفى هذا الاطار أشارت جريدة الامة فى ١٩٥٥/٩/١ بأن غرض بريطانيا من استقطاب اسماعيل الازهرى ما هو الا محاولة لاستخدام نفوذها فى حل المشاكل

---

(١) محفظة ١٢٧٣، ملف٣/٢/٢ج٢ اقتراحات لعام ١٩٥٥، ارشيف سرى جديد خارجية.

(٢) الملخص رقم ٥٩ عن السودان للفترة من ١٣ نوفمبر الى ٢٤ نوفمبر ١٩٥٦ فى ١٩٥٦/١٢/٤ مرسل من رئاسة القوات الجوية الى مدير ادارة الشئون الافريقية، محفظة٩٢٧ (كود ٧٣٢)، ملف٣ رقم ٤١ سرى جدا لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٥ ملخصات لتقارير المخابرات الجوية، ارشيف سرى جديد، خارجية، ص٢٠٢٢.

(٣) محفظة ٣٠٠ ملف ٢/١ س ج١ تقارير السيد نائب الوزير (فرع مذكرات سياسية عن السودان واللجنة الدولية) بعد ٢٦ /١٩٥٥/٩، ارشيف سرى جديد، خارجية.

التى تنشأ فى الدول المجاورة للسودان [١]. وانه طبقا لما اشارت له جريدة الميدان السودانية فى ١٩٥٥/٩/٨ قامت بإشعال أحداث الجنوب وتمرده حتى ترغم الحكومة السودانية على الارتباط معها بحلف بعد انتهاء الفترة الانتقالية، وذلك باظهارها عاجزة عن السيطرة على الأحداث دون معونتها [٢].

ومع ذلك كان التنسيق واضحا بين بريطانيا والولايات المتحدة فى هذا المشروع. فقد أشارت جريدة الميدان فى ١٩٥٥/٩/٨ بأن أحداث الجنوب هى التى أجبرت رئيس وزراء السودان للاستعانة بالجيش البريطانى وبالحبشة زعيمة الحلف الافريقى المقترح لحل أزمة الاغتيالات التى دبرتها فى الجنوب. وأشارت أنها بهذا تقترب من ذلك الحلف الذى تتزعمه بريطانيا وتشترك فيه الحبشة وأوغندا وكينيا لابعاد السودان عن دول الشرق الاوسط المناهضة للأحلاف وعلى رأسها مصر. وأشارت نفس الجريدة فى ١٩٥٥/٩/١٣ الى أن المعونة المقدمة للأحزاب السودانية هدفها الموافقة على الاحلاف العسكرية. وأن جريدة الصراحة أشارت فى نفس اليوم الى عرض اثيوبيا ايواء الأورطة العسكرية البريطانية التى ستجلو من السودان، ناهيك عن ايوائها ثلاث أورط امريكية وقوات وبعثات عسكرية أخرى، معظمها يرابض فى ارتيريا التابعة للحبشة [٣]. وبالتالى لعبت تلك التقارير دورا مهما

---

[١] وهى مصر والحبشة والسودان الغربى واوغندا وكينيا والكونغو البلجيكى , انظر، تقرير المخابرات الصحفى عن الصحافة السودانية من ٩/٩/ الى ١٩٥٥/٩/١٠ مرسل فى ١٩٥٥/٩/١٣ من ادارة المخابرات الحربية لادارة المخابرات العامة، ملف ٤ الصحافة السودانية ١٩٥٥، فيلم ٧ السودان، محفظة ١٠، ارشيف البلدان، خارجية، ص ٢.

[٢] تقرير المخابرات الصحفى عن الصحافة السودانية من ٩/٤/ الى ١٩٥٥/٩/٨ مرسل فى ١٩٥٥/٩/١٥ من ادارة المخابرات الحربية لادارة المخابرات العامة، ملف ٤ الصحافة السودانية ١٩٥٥، فيلم ٧ السودان، محفظة ١٠، ارشيف البلدان، خارجية، ص ص٨، ٩.

[٣] تقرير المخابرات الصحفى عن الصحافة السودانية من ٩/١٤/ الى ١٩٥٥/٩/١٦ مرسل فى ١٩٥٥/٩/١٩ من ادارة المخابرات الحربية لادارة المخابرات العامة، ملف ٤ الصحافة السودانية ١٩٥٥، فيلم ٧ السودان، محفظة ١٠، ارشيف البلدان، خارجية.

فى الادراك بأن السودان كان البوابة الرئيسية التى بدونها لا يتم تنفيذ المشروع، وأن المشروع الامريكى هدفه اقامة حلف بين الحبشة والسودان، فى حين كان الهدف البريطانى هو اقامة تحالف بين السودان وكينيا واوغندا والحبشة.

ومن ثم فإن الوجود المصرى فى السودان قد لعب دورا فى التصدى لقبول مشروعات الاحلاف بصفة عامة ومشروع الحزام بصفة خاصة، وبالنظر لحملة الصحافة السودانية ضد المشروع يتضح مدى التأثير المصرى فيها، بل يمكن التمييز من خلالها بين الاتجاهات السودانية المعارضة للمشروع وتلك التى تروج له. فقد أشارت جريدة الميدان فى ١٥/٩/١٩٥٥ الى أن مؤامرة الجنوب أظهرت بأن اتصالا جرى بين مسئول بريطانى (المستر لوسى مستشار الحاكم العام للشئون الخارجية) وحزب الامة للانسحاب من الحكومة القائمة - لأنها تقاوم الاحلاف - وتنصيب حكومة تدعو للأحلاف، وأنه بقدر ما استغلت مشكلة كشمير بين الهند وباكستان لجر باكستان للدخول فى حلف عسكرى، سيجرى الان خلق مشكلة الاتحاد والمياة مع مصر لتعظيم النزاع لقبول السودان فى النهاية الدخول فى حلف عسكرى " ودعت فى النهاية الى رفض دخول الاحلاف[1]. ويمكن قرءاة التأثير المصرى أيضا فيما أشارت اليه جريدة الصراحة فى ٧/١٠/١٩٥٥ الى اعلان الحزب الوطنى الاتحادى بأنهم ضد الاحلاف العسكرية وأنهم متقيدون بمقررات مؤتمر الدول الاسيوية - الافريقية (باندونج) [2]. وأيضا فى وقوف الجبهة المعادية للاستعمار ضد مشروع الحزام الافريقى الذى كان يلقى رعاية حزب الامة

---

[1] تقرير المخابرات الصحفى عن الصحافة السودانية من ١١/٩/ الى ١٣/٩/١٩٥٥ مرسل فى ١٩/٩/١٩٥٥ من ادارة المخابرات الحربية لادارة المخابرات العامة، ملف ٤ الصحافة السودانية ١٩٥٥، فيلم ٧ السودان، محفظة ١٠، ارشيف البلدان، خارجية.

[2] تقرير المخابرات الصحفى عن الصحافة السودانية من ٥/١٠/ الى ٩/١٠/١٩٥٥ مرسل فى ١٧/١٠/١٩٥٥ من ادارة المخابرات الحربية لادارة المخابرات العامة، ملف ٤ الصحافة السودانية ١٩٥٥، فيلم ٧ السودان، محفظة ١٠، ارشيف البلدان، خارجية.

والحبشة، فأحد تقارير المخابرات الحربية يتحدث عن الدور الخطير الذى تلعبه الحبشة فى هذا المشروع، وبأنها تعتبر نفسها حلقة الاتصال بين السودانيين والمستعمرين لافريقيا، وأن الادراك المصرى لميزة الموقع الجغرافى للسودان الجنوبى لكل من الحبشة وكينيا وأوغندا والكونغو الفرنسى جعلها تركز سياستها على انقاذ السودان من المؤامرات الاستعمارية [١]. إذاً لعبت التقارير الصحفية الدور الاهم فى الكشف عن ملامح المشروع، ومن ثم يمكن القول بأن الاتجاه نحو الاستقلال بدأت تزداد وتيرته منذ مؤتمر باندونج، وأن المشروع لعب دوراً مهماً فى محاولة الانتصار لهذا الاتجاه. وبالتالى فإن مسألة الاستقلال ليس لها علاقة بعزل نجيب او بالأخطاء التى ارتكبها صلاح سالم. ففى تقديرى أن رفض الادارة المصرية لسياسة الاحلاف قد لعب دوراً مهماً فى اصرار الولايات المتحدة وبريطانيا بضرورة سحب السودان عن مصر، وأن قبول مصر لاستقلال السودان كان تحديا بأن يقوم السودان المستقل بتعزيز هذا الموقف الرافض للاحلاف.

وعلى هذا يمكن القول بأنه حيما انحاز البرلمان السودانى فى ١٦ اغسطس نحو الاستقلال، ودفع اسماعيل الازهرى نحو اتخاذ قرار الاستقلال من البرلمان فى نهاية ديسمبر ١٩٥٥ خشية من تحول السودان الى العنف، اقتنع عبدالناصر بانه لا مفر من الاعتراف بهذا الاستقلال، خاصة وانه اقر منذ ٢٥ اغسطس ١٩٥٥ بالفشل المصرى فى السودان فى احد اجتماعات مجلس قيادة الثورة، وقبل استقالة صلاح سالم[٢]. حيث بدأ مجلس قيادة الثورة يحاصر صلاح سالم، وانتقد عبدالناصر

---

(١) ملخص عن الفترة من ١/١٧ الى ١/١٤ /١٩٥٦ مرسل من قائد جناح عصام الدين محمود خليل مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية الى السيد اليوزباشى محمد ابونار مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان، ملف٢ رقم ٤١ سرى جدا لعام ١٩٥٧/٥٦ ج١ ملخصات تقارير المخابرات الجوية،، محفظة ٩٢٦ (كود ارشيفى ٧٣١) سرى جديد، خارجية، ص ص ٦٣، ٨٥.

(٢) امانى محمد كمال الدين احمد الطويل المرجع السابق، ص ص الفصل الرابع متفرقات.

سياسة سالم في التعامل مع الزعماء السياسيين السودانيين بأسلوب غلبت عليه روح المنفعة الذاتية، وتقدم صلاح سالم باستقالته للمرة الثانية في سبتمبر ١٩٥٥، وقبلها المجلس فوراً. وتولى زكريا محيي الدين مسئولية السودان، وسحبت مصر وبريطانيا جيوشها من السودان[١].

على العموم حسمت مسألة تحديد مصير السودان باعلان الاستقلال من داخل البرلمان فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ وبعثت الحكومة المصرية قبولها الرسمى بهذا القرار. حيث بعثت فى الاول من يناير ١٩٥٦ وثيقة رسمية تعلن اعترافها باستقلال السودان، املة فى ان ترعى حكومة السودان الاتفاقيات التى عقدتها دولتا الحكم الثنائى. وانضمت الى جامعة الدول العربية فى ١٩ يناير ١٩٥٦. وسقطت حكومة الحزب الوطنى الاتحادى بقيادة اسماعيل الازهرى فى يونيو من نفس العام، اعقبها تولى حكومة ائتلافية من حزب الامة وحزب الشعب الديمقراطى بقيادة عبدالله خليل[٢]. وكان لتأكيد هذا القبول المصرى باستقلال السودان، أن أرسل جمال عبدالناصر خطابا فى الأول من يناير ١٩٥٦ خلال جلسة مجلس الشيوخ والنواب، يعلن فيه بأن الحكومة المصرية، وعملا بنواياها التى جاهرت بها، وبمسعاها الذى جاهدت من أجله لتحقيق الحرية للشعب السودانى، تعلن فورا الاعتراف باستقلال السودان دولة مستقلة ذات سيادة. اما الاعلان الذى أصدرته الحكومة المصرية، والذى تلاه اسماعيل الازهرى، فقال بأنه استجابة للقرار الذى اتخذه البرلمان السودانى فى التاسع عشر والثانى والعشرين من ديسمبر ١٩٥٥، والذى اعلن فيه أن السودان سيصبح دولة مستقلة كاملة السيادة، وطلب فيه من دولتى الحكم الثنائى ان تعترفا بهذا الاستقلال، فإن حكومة مصر تعترف بأن السودان دولة مستقلة ذات سيادة اعتبارا من تاريخ أول يناير ١٩٥٦، مطالبة

---

(١) محمد عبدالرحمن عريف: خطايا يوليو وصلاح سالم في حق السودان، ١٧ اغسطس ٢٠٢٠،
https://www.raialyoum.com/index.

(٢) حنان الشيخ محمد على:- العلاقات السودانية - المرجع السابق، ص ص ٣٤، ٣٧.

برعاية الاتفاقيات السابقة، وان تتعاون حكومة السودان معها فى تصفية الادارة الثنائية فى السودان. واعقب ذلك قدم سيف اليزل فى ٤ يناير ١٩٥٦ اوراق اعتماده كأول سفير مصرى فى السودان، وكأول سفيرا يخدم فى السودان عموما، وبذا اصبح عميدا للسلك الدبلوماسى هناك[١].

الخامس– أثر القبول المصرى باستقلال السودان على علاقات مصر والسودان بعد عام ١٩٥٦:

يمكن القول بان القبول المصرى باستقلال السودان وفر لمصر مناخا جيدا فى الداخل السودانى فى عدم الوقوع فى شرك الاحلاف العسكرية. حيث أشارت التقارير بأن استقلال السودان قد وفر لأطراف عديدة فرصة الاتصال بالسودانيين لتصبح هناك امكانية لتنفيذ مشروع الحزام الافريقى على أرض الواقع، حيث قالت بوجود تنسيق بين بريطانيا وأمريكا، كطرف خارجى، واثيوبيا كطرف اقليمى. وإحدى الوثائق تتحدث عن سياسة الترهيب والترغيب التى استخدمها السفير الامريكى لتحذير شخصيات سودانية فى يوليو ١٩٥٦ من تغلغل الشيوعية فى بلادهم عن طريق مصر، ونصحهم، ضماناً لتلقى المساعدات الامريكية، بضرورة التعاون مع اثيوبيا فى حلف الحزام الافريقى. ووعد بضمان وقوف الازهرى بجانبهم فى موضوع الحزام، إلا أنهم لم يقطعوا معه برأى صريح فى هذه المسألة[٢]. أما الطرف الخارجى الثانى الذى رصدته تلك التقارير فهو بريطانيا. فقد دعت السودان، خلال تسليمها وثيقة الاعتراف بالاستقلال فى يناير ١٩٥٦، على لسان المستر باركر

---

(١) عثمان عبدالحليم عثمان:– فصول من العلاقات السودانية المصرية ١٨٢١–١٩٩٩، رسالة ماجستير، كلية الدراسات الاقتصادية، جامعة الخرطوم، ٢٠٠٦، ص ص ٣٤، ٣٧.

(٢) وفى هذا الاطار هددهم بأن سياسة مصر الخارجية هى السبب فى سحب الولايات المتحدة لتمويل السد العالى، ومن ثم عليهم الوقوف ضد مشروع السد، للمزيد انظر، خطاب من سفارة جمهورية مصر بالخرطوم الى السيد وكيل الخارجية فى ١٩٥٦/٧/٢٩، ملف ٢ رقم ١ سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٢ تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم، محفظة ٩٢١ (كود ارشيفى ٧٢٧) سرى جديد، خارجية، ص ١.

(الوكيل البرلمانى بوزارة الخارجية البريطانية) لدخول حلف بغداد والتعاون صراحة فى مشروع الحزام الافريقى [1].ورصدت الدور الذى لعبته السفارة البريطانية فى مايو ١٩٥٦ فى توجيه حملة صحفية بقيادة أحمد يوسف هاشم وبشير محمد سعيد لتنفير السودان من الانضمام لمعاهدة الضمان الجماعى العربى (مصر وسوريا والسعودية) باظهار عبدالناصر بمظهر المحب للسيطره، وتحويل الاثر الايجابى بين افراد الجيش السودانى بهدية الاسلحة المصرية الى اثر سلبى[2]. ومن ثم فإن الشهور الاولى لاستقلال السودان لم تشهد أقصى أساليب الاستقطاب لمشروع الحزام فحسب، بل شهدت اشتداد عملية التنفير ضد مصر وعبدالناصر أيضا. وفى هذا الاطار رصدت التقارير دخول اسرائيل - كطرف ثالث - فى الموضوع، ومحاولتها الاستفادة من توظيف اثيوبيا لتقوم بدور فى سحب السودان واستخدامه كورقة للضغط على مصر[3]. وقدمت تقارير المخابرات تفاصيل مهمة عن أهم شخصيتين - السفير الامريكى والبريطانى - لعبا دوراً مهماً فى عرض المشروع وتنفيذه، فقد ربطت

---

(١) التقرير رقم ١ بتاريخ ١٩٥٦/١/٥ مرسل من قائد جناح عصام الدين محمود خليل مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية الى السيد اليوزباشى محمد ابونار مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان، فى ١٩٥٦ /١/٧، ملف١ رقم ٤٠ سرى جدا لعام ١٩٥٧/٥٦ ج١ ملخصات تقارير المخابرات الجوية،، محفظة ٩٢٣ (كود ارشيفى ٧٢٨) سرى جديد، خارجية، ص ٥٥.

(٢) الملخص ٤٥ عن الفترة من ٣٠ ابريل الى ٩ مايو ١٩٥٦ مرسل من قائد جناح عصام الدين محمود خليل مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية الى السيد اليوزباشى محمد ابونار مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان، فى ١٩٥٦ /١/٣٠، ملف١ رقم ٤١ سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٣ ملخصات تقارير المخابرات الجوية،، محفظة ٩٢٧ (كود ارشيفى ٧٣٢) سرى جديد، خارجية، ص ص ٣٢، ٤١، ٤٧.

(٣) ملخص عن الفترة من ١/١٥ الى ١/٢٣ /١٩٥٦ مرسل من قائد جناح عصام الدين محمود خليل مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية الى السيد اليوزباشى محمد ابونار مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان، فى ١٩٥٦ /١/٣٠، ملف٢ رقم ٤١ سرى جدا لعام ١٩٥٧/٥٦ ج١ ملخصات تقارير المخابرات الجوية،، محفظة ٩٢٦ (كود ارشيفى ٧٣١) سرى جديد، خارجية، ١٢٦.

التقارير بين تعيين تشابهان اندروز(*) سفيرا لبريطانيا، وبين اهتمام امريكا بتعيين سفير لها فى السودان بعد مرور شهر من الاستقلال، وبين عملهما على توحيد السياسة الحبشية – السودانية للتمهيد فى تنفيذ الحزام [١]. ناهيك عن الدور الذى لعبه التجار اليهود فى تمويل الاحزاب السودانية المؤيدة للابتعاد عن مصر [٢].

أما الاطراف الداخلية فقد أشارت تقارير المخابرات الحربية الى أن اثيوبيا والسودان هما ركيزتا المشروع، ومن ثم ركزت على دورهما والشخصيات التى تم توظيفها لتحريك المشروع. فبالنسبة لاثيوبيا اعتبرتها إحدى الوثائق بأنها العميل الاستعمارى الوسيط بين السودان والمستعمرين لافريقيا لربط السودان بالحزام الافريقى. وخلصت فى النهاية الى القول بأن قوة اثيوبيا فى السودان نابعة لأن لديها عملاء من السودانيين، ولها مركز قوى فى السودان، وأن سياستها قد تكون مرتكزة على فصل السودان الجنوبى [٣]. ومن ثم فإن اثارة مسألة الجنوب كانت مطلوبة

(*) بحكم انه كان مستشارا للامبراطور خلال فترة اقامته فى السودان (قضى الامبراطور سبعة اشهر للاشراف على العودة مرة ثانية لاثيوبيا بعد هروبه سنه ١٩٣٦ الى انجلترا وظل هناك حتى سنة ١٩٤٠) الامر الذى مكنه من التعرف على مختلف الشخصيات السودانية ناهيك عن ادراج اسماء ٢٠٠ شخص للعمل فى السفارة سبق لهم العمل فى السودان.

(١) ملخص عن الفترة من ٢/٣ الى ١٩٥٦/٢/١٥ مرسل من قائد جناح عصام الدين محمود خليل مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية الى السيد اليوزباشى محمد ابونار مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان، فى ١٦ فبراير١٩٥٦، ملف٢ رقم ٤١ سرى جدا لعام ١٩٥٧/٥٦ ج١ ملخصات تقارير المخابرات الجوية،، محفظة ٩٢٦ (كود ارشيفى ٧٣١) سرى جديد، خارجية، ص ص ١٥٠، ١٧٣، ١٧٥.

(٢) الملخص ٥٩ عن الفترة من ١١/١٣ الى ١٩٥٦/١١/٢٤ مرفوع من ادارة المخابرات الحربية الى مدير ادارة الشئون الافريقية، ملف ٣رقم ٤١سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٥، محفظة ٩٢٧ (كود ارشيفى ٧٣٢)، سرى جديد، خارجية، ص ١٦٥.

(٣) التقرير رقم ٧ بتاريخ ١٩٥٦/١/٤ مرسل من قائد جناح عصام الدين محمود خليل مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية الى السيد اليوزباشى محمد ابونار مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان، فى٩/١/ ١٩٥٦، ملف١رقم ٤٠ سرى جدا لعام ١٩٥٧/٥٦ ج١ ملخصات تقارير المخابرات الجوية،، محفظة ٩٢٣ (كود ارشيفى ٧٢٨) سرى جديد، خارجية، ص ٥٥.

للضغط لإجبار السودان على قبول المشروع. وفى هذا الاطار أشار أحد التقارير – فى يناير ١٩٥٦ – الى الدور المهم الذى لعبته اثيوبيا فى محاولة استقطاب السودانيين – مستقلين أكانوا أم اتحاديين – للموافقة على المشروع [١]. وتمدنا الوثائق المصرية بمعلومات غاية فى الأهمية عن الشخصية الأثيوبية الرئيسية التى ارتبط اسمها بمشروع الحزام، إلا وهى شخصية ملس عندوم(*). فلم يمر أكثر من ثلاثة أسابيع على الاستقلال الا ونجد إحدى التقارير تتحدث عن محاولته التأثير على الفريق المؤيد لمصر، بتقديمه للأموال والرشاوى ليس فقط لاعضاء حزب الامة – كما كان يحدث من قبل – بل لأعضاء الحزب الوطنى الاتحادى [٢]. بل ربطت التقارير بين تعيين السيد ميخائيل بخيت (*) سفيرا للسودان فى اثيوبيا سنة ١٩٥٦، وبين الدور الذى لعبه ملس عندوم فى هذا التعيين، بحيث تتاح له الفرصة – على حد قولها – لأن يلعب دوراً فى سياسة السودان الخارجية وربطه بالحزام الافريقى والأحلاف

---

(١) ملخص عن الفترة من ١/١٥ الى ١/٢٣ /١٩٥٦:- الملخص السابق، ١٢٦.

(*) ملس عندوم هو ضابط الاتصال الاثيوبى فى السودان، وهو ابن ميكائيل عندوم احد الاسر الاثيوبية العريقة التى عاشت فى السوادان، وهو اول سفير لاثيوبيا فى السودان (١٩٥٤-١٩٦١) ثم اصبح سفيرا بمصر حتى نهاية حكم هيلاسلاسى ١٩٧٤، للمزيد انظر: صالح محمد على عمر:- الدور السودانى فى تحرير اثيوبيا وارجاع الامبراطور هيلاسلاسى الى عرشه ١٩٣٥ – ١٩٤١، اصدلرة رقم ٥٣، مركز البحوث والدراسات الافريقية، جامعة افريقيا العالمية، السودان، ٢٠٠٥، ص ص ١٩، ١٧٩.

(٢) ولم تقتصر تسميته على انه ضابط الاتصال الاثيوبى، بل اطلق عليه مسمى القائم بأعمال سفارة اثيوبيا فى الخرطوم، للمزيد انظر ملخص عن الفترة من ١/١٥ الى ١/٢٣ /١٩٥٦:- الملخص السابق، ١٢٦.

(*) سودانى من أصل اثيوبى تجنس بالجنسية السودانية وعاش بالسودان، وكان من الموظفين المرموقين بقسم الترجمة بالادارة البريطانية بالسودان وعمل لفترة طويلة بوزارة الدفاع (قسم السجلات والمصروفات) وعمل احيانا مترجما للامبراطور لاجادته اللغة العربية والامهرية والانجليزية، وعمل بمكتب السكرتير الادارى للسودان فى عقد الاربعينيات، للمزيد انظر: صالح محمد على عمر:- المرجع السابق، ص ص ١٢٣، ١٧٩.

العسكرية. وفى هذا الاطار وجه لوما للسودان لإسراعه بدخول الجامعة العربية، وبذل جهداً كبيراً لإبعاد سياسة السودان عن سياسة مصر الخارجية لاحداث جفاء بين البلدين [(١)]. وبالتالى فإن فصل السودان عن الهوية الثقافية العربية كانت أحد أهم ملامح المشروع، بل إن تسميته باسم " الحزام الافريقى" تحمل توجها صريحا نحو الهوية الافريقية، ومن ثم فإن المشروع فى أحد أركانه كان يعمل على تكريس الحد الفاصل بين افريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء.

ويبدو أن الادارة المصرية قد اخذت بالنصيحة بضرورة تحجيم نشاط ملس عندوم، ويتضح هذا فى تعبيره عن غضب اثيوبيا لمحاولة التقارب المصرى السودانى، فقد صرح فى اغسطس ١٩٥٦ بأن حكومة عبدالله خليل[*] بتصريحاتها التى تصب فى صالح مصر تستفز الحبشة، وأنها يجب أن تراعى أن للحبشة مصالح هى الأخرى فى السودان وأنها لن تقف مكتوفة الايدى [(٢)]. ويتضح أيضا فى لجوءه لتقديم الرشاوى، حيث ترددت الأنباء أنه جلب من الحبشة فى احدى المرات (فى نوفمبر ١٩٥٦) مبلغ ٥٠ الف دولار أمريكى صرفها بواسطة بعض التجار اليهود،

---

(١) الملخص ٤٠ للفترة من ١٢ مارس الى ١٩ مارس /١٩٥٦ مرسل من قائد جناح عصام الدين محمود خليل مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية الى السيد اليوزباشى محمد ابونار مديبر مكتب وزير الدولة لشئون السودان، فى ٤/٢/ ١٩٥٦، ملف٣ رقم ٤١ سرى جدا لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٢ ملخصات تقارير المخابرات الجوية،، محفظة ٩٢٦ (كود ارشيفى ٧٣١) سرى جديد، خارجية، ص ٩٥.

(*) عبد الله خليل لد سنة ١٨٨٨ وخدم بالجيش المصرى ١٩١٠ – ١٩٢٤ والجيش السودانى حتى ١٩٤٤، وهو احد مؤسسى حزب الامة سنة ١٩٤٥، وعين رئيسا للوزارة الائتلافية التى اعقبت وزارة الازهرى فى نهاية سنة ١٩٥٦، وهو كما تشير الوثائق لا يميل الى التعاون مع مصر ويميل مع الغرب، انظر، عبدالحميد عبدالجليل شلبى:- المرجع السابق، ص ص ٢١٦، ٢٤٣.

(٢) الملخص ٥١ عن الفترة من ٧/٩ الى ١٩٥٦/٧/٢٩ مرفوع من ادارة المخابرات الحربية الى مدير ادارة الشئون الافريقية فى ١٩٥٦/٨/٩، ملف ٢رقم ٤١سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٤، محفظة ٩٢٧ (كود ارشيفى ٧٣٢)، سرى جديد، خارجية، ص ٣٢.

حيث كان صرف النقد الاجنبى لايتم الا من خلالهم، لتمويل أحد الاحزاب السياسية السودانية [١]. وهذا يدلل على أن الادارة المصرية كانت واعية تماما بكل الأطراف والشخصيات المحركة للمشروع.

وبالنسبة للسودان، فيبدوا أن تركيز الأطراف الخارجية على حزب الامة سهل من مهمة الادارة المصرية فى متابعة المشروع بتحديد اتجاهات الرأى عنه، ثم القيام برصد الشخصيات المروجة له وتلك المدافعة عنه. فأحد تقارير المخابرات الحربية يشير الى انقسام الصحفيين السودانيين فى الرأى الى فريقين: فريق يؤيد مصر فى اتجاهها للوقوف ضد التيار الاستعمارى فى السودان، وفريق آخر يخشى مطامعها فى السودان. وانتهى الفريقان - فى احدى نقاشاتهم - الى ان امريكا وانجلترا والدول الموالية لها سيتتصرون على مصر فى ربط السودان فى حزام افريقى، وابعادها عن كتلة مصر داخل الجامعة العربية كما فعلوا بالعراق والاردن [٢].

وفيما يتعلق بالشخصيات السودانية التى ارتبط اسمها بالمشروع، تأتى شخصية مبارك زروق (وزير الخارجية) على رأس هذه الشخصيات، حيث قامت ادارة المخابرات الحربية بمتابعة تحركاته فى هذا الاتجاه. ففى أحد التقارير - فى مايو ١٩٥٦ - تشير الى تردده على السفارة الاثيوبية، بل الاغرب من ذلك انها رصدت تردده اليومى على ملس عندوم خلال زيارة أحد الموظفين الامريكيين (المستر بيتس)، وذكرت بأن العلاقات كانت قد فترت بين الرجلين بعد زيارة مبارك زروق ليوغسلافيا فى ابريل ١٩٥٦، وأضافت بأن خطة المعسكر الغربى قد تركزت على ضم السودان لحلف بغداد وعقد تحالف مع الحبشة، وأنهم سخروه لتبنى هذه

---

(١) الملخص ٥٩ عن الفترة من ١١/١٣ الى ١٩٥٦/١١/٢٤ مرفوع من ادارة المخابرات الحربية الى مدير ادارة الشئون الافريقية، ملف ٣رقم ٤١سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٥، محفظة ٩٢٧ (كود ارشيفى ٧٣٢)، سرى جديد، خارجية، ص ١٦٥.

(٢) ملخص عن الفترة من ١/١٥ الى ١/٢٣ /١٩٥٦:- الملخص السابق، ١٠٩.

الخطة واقناع الازهرى بها[١]. وهذا ما يفسر ذلك الموقف المتذبذب لعبدالله خليل ومبارك زروق من حلف بغداد[٢].وهذا ما يفسر تسليط الأضواء على ابراز رفض مبارك زروق لهدية الاسلحة التى عزمت مصر تقديمها بعد أربعة اسابيع من الاستقلال، وترويج الامريكان بأن مصر هدفها السيطرة على السودان[٣]. واجتماعاته المستمرة مع سفير الحبشة بهدف الترتيب لابعاد السودان عن مصر[٤]. غير أن الحضور المصرى فى السودان قد أحبط الاقتراب الأثيوبى السودانى حول المشروع، وأفشل خطة الأطراف الخارجية فى امكانية تنفيذه.

ويتضح مما سبق بأن المشروع كان فى امكانه أن يحقق نجاحاً، إلا أن الموقف المصرى منه كان له القول الفصل فى تعطيل هذا النجاح، ويمكن استيضاح هذا الامر فى ثلاثة مسائل: المسألة الاولى، اعلان الادارة المصرية - رغم تصريح الرئيس عبدالناصر لإسماعيل الأزهري عند زيارته لمصر فى أبريل ١٩٥٦ بأن مصر تلتزم الحياد تجاه الاحزاب السياسية السودانية ما داموا يسيرون فى طريق

---

(١) الملخص ٤٦ عن الفترة من٢٣ اغسطس الى ٢٠ سبتمبر ١٩٥٦ مرسل من قائد جناح عصام الدين محمود خليل مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية الى السيد اليوزباشى محمد ابونار مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان، فى ٣١/٥/ ١٩٥٦، ملف٢ رقم ٤١ سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج ٣ملخصات تقارير المخابرات الجوية،، محفظة ٩٢٧ (كود ارشيفى ٧٣٢) سرى جديد، خارجية، ص ص ٥٩، ٦٧.

(٢) عبدالحميد عبدالجليل شلبى:- المرجع السابق، ص ص ٢١٢، ٢١٣.

(٣) الملخص ٤٥ عن الفترة من ٣٠ ابريل الى ٩ مايو ١٩٥٦ مرسل من قائد جناح عصام الدين محمود خليل مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية الى السيد اليوزباشى محمد ابونار مدير مكتب وزير الدولة لشئون السودان، فى ٣٠/١/ ١٩٥٦، ملف١ رقم ٤١ سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٣ ملخصات تقارير المخابرات الجوية،، محفظة ٩٢٧ (كود ارشيفى ٧٣٢) سرى جديد، خارجية، ص ٤٧.

(٤) الملخص ٥٦ عن الفترة من ٢١ سبتمبر الى ١٠ اكتوبر ١٩٥٦، مرفوع من ادارة المخابرات الحربية الى مدير ادارة الشئون الافريقية فى ٣٠ / ١٠ /١٩٥٦، ملف ٣رقم ٤١سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٥، محفظة ٩٢٧ (كود ارشيفى ٧٣٢)، سرى جديد، خارجية، ص ٣٠.

الاستقلال، بأنها لن تقف مكتوفة الأيدى إذا رأت فريقاً من السودانيين يعمل على التمكين للنفوذ الاجنبى، بل راحت من خلال البعثات السورية والسعودية تحذر السودانيين بضرورة الوقوف بعيداً عن الأحلاف والتزام الحياد الايجابى (١).المسألة الثانية، تركيز الاستراتيجية المصرية فى تقوية جبهه الممانعة لمشروع الحزام الافريقى بأن يدخل السودان فى المنظومة الدفاعية المصرية، حفاظاً على الأمن القومى المصرى وخشية أستخدامه طريقاً لعودة الاستعمار الاوروبى(٢). وفى هذا الاطار ركزت على التحريض ضد سياسة الأحلاف بصفة عامة وضد مشروع الحزام بصفة خاصة، وهذا ما يفسر قيام الحزب الوطنى الاتحادى برفض محاولة الحبشة بناء مطار قرب الروصيرص، بعد معرفتهم بأن هذا المطار يأتى تنفيذاً لمشروع الحزام (٣).المسألة الثالثة، التوجه نحو افريقيا وتقديم الدعم لحركات التحرر الافريقى فى منطقة الحزام، ويمكن تلمس هذا بوضوح فى خطاب محمود سيف اليزل خليفة - سفير مصر فى الخرطوم - بمناسبة احتفال السفارة بعيد الجلاء، بأن مصر انتهت من جلاء الانجليز وستبدأ فى زيادة دعايتها ونشاطها ضدهم فى افريقيا، وبأن بريطانيا تعمل الأن على كسب السودان فى اطار تكتيل الجهود فى المستعمرات البريطانية مع المستعمرات البلجيكية والفرنسية والايطالية ضد هذا النشاط (٤). وعلى هذا فإن القبول المصرى باستقلال السودان اوجد لها قبولا فى الشارع السودانى يعارض سياسة الاحلاف العسكرية، واوجد لها عيون تراقب

---

(١) خطاب من عثمان توفيق سفير مصر باديس ابابا الى السيد السفير وكيل الخارجية الدائم عن ايفاد بعثة صداقة اثيوبية الى السودان، ملف٢ رقم ١/٧/٢٢٥ التقارير السياسية للسفارة المصرية باديس ابابا عن اثيوبيا ١٩٥٦، محفظة ٧٩، فيلم ٥٠، ارشيف البلدان خارجية.

(٢) ISMAEL TAREQ Y: "The United Arab Republic in Africa", *Canadian Journal of African Studies* , Vol.2,No.2, (Autumn ,1968),P.176.

(٣) الملخص ٤٩ عن الفترة من ١٣ يونيو الى ٢٧ يونيو ١٩٥٦ مرسل من قائد جناح عصام الدين محمود خليل مساعد مدير المخابرات الحربية للقوات الجوية الى مدير ادارة الشئؤن الافريقية، فى ١٩٥٦/٧/٩، ملف٢ رقم ٤١ سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٤ ملخصات تقارير المخابرات الجوية،، محفظة ٩٢٧ (كود ارشيفى ٧٣٢) سرى جديد، خارجية، ص ١٤٦.

(٤) نفسه.

هذه التحركات وتعمل على احباط المخططات الاجنبية.

ورغم الخلافات التى نشأت بين حكومة عبدالله خليل ومصر الا انها ايدت الادارة المصرية ايضا فى تأميم قناة السويس، ووقفت مع مصر ضد العدوان الثلاثى، وارسلت تضامنها رسميا مع مصر فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٦ (١).موقف اخر حينما قام به عبدالله خليل بعد الاستقلال باستئذان جمال عبدالناصر فى قبول صلاح سالم كتاجر بمال سعودى رفض عبدالناصر سنة ١٩٥٧ قائلا له ان صلاح سالم سياسى وليس تاجر وانه سيسخر كل ماله لخدمة اهدافه السياسية وسيخسر ويخسرنا معه.

ويأتى خطاب الملحق العسكرى المصرى بالخرطوم ليكشف هذا التنسيق الكامل بين تيار حزب الامة والجانب الاثيوبى فى مشروع الكتلة الافريقية، فيشير بأن المهدى قبل سفره لعرض المشروع على مصر تلقى رسالة من الامبراطور تتضمن بأنه مشروع لارتباط البلاد الافريقية المتشابهه فى المصالح والظروف، وبأن نجاحه يعتمد على شخصية السيد عبدالرحمن، وانه رشح السودان لزعامة هذه الكتلة (٢).وهذا ما يفسر التغطية التى قام بها المهدى خلال زيارته لمصر اول سبتمبر ١٩٥٦ حينما أرسل نجله الصديق المهدى الى اثيوبيا بحجة العمل على محو الجفاء بين مصر واثيوبيا، فى حين استخدم نفس الحجة وفى طيها عرض مشروع الكتلة بين البلدان الثلاث، على ان تنضم لها الدول الافريقية مستقبلا (٣). والموقف المصرى كان واضحاً فى رفضه لمضمون الرسالة التى حملها المهدى من الامبراطور

---

(١) حنان الشيخ محمد على:- المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) خطاب من الملحق العسكرى الصاغ جمال شقير الى السيد وكيل الخارجية، فى ١٩٥٦/٩/٨، ملف ٢رقم ١ سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٢ تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم، محفظة ٩٢١ (كود ارشيفى ٧٢٧)، سرى جديد، خارجية.

(٣) تقرير عام من سفارة جمهورية مصر بالخرطوم الى السيد وكيل الخارجية (ادارة الشئون الافريقية)، فى ١٩٥٦/١٠/١، ملف ٢رقم ١ سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٢ تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم، محفظة ٩٢١ (كود ارشيفى ٧٢٧)، سرى جديد، خارجية.

لعبدالناصر. فمذكرة ادارة الشئون الافريقية تشير بوضوح الى صعوبة تصور اشتراك اثيوبيا فى الكتلة الافريقية التى تضم الشعوب الأفريقية المتحررة وعلى رأسها مصر؛ زعيمة العالم الاسلامى والعربى والعدو الاول للاستعمار، والكتلة الغربية التى تقع اثيوبيا تحت نفوذها، وأن مصر التى تدافع عن حق تحرير شعوب الصومال وارتيريا لا يمكن أن تلتقى سياستها مع اثيوبيا [١].ولما كان الرفض المصرى – كما تظهره الوثائق – واضحاً لمشروع الكتلة، فإن الاستناد على ما نشرته مجلة آخر ساعة فى ١٠ اكتوبر ١٩٥٦ على أن محور افريقى يتم بين مصر والسودان والحبشة بعد أن تم التمهيد له الشهر الماضى فى عواصم الدول الثلاث [٢]. لا يعتد به بل هو الذى تسبب فى هذا الالتباس. فمذكرة الادارة الافريقية فى ١٩٥٦/١٠/٢٤ تقول بأن انضمام مصر للكتلة الافريقية، مع علمها بمطامع اثيوبيا فى ضم ارتيريا والصومال، سوف يفقدها الكثير مما لها بين الشعوب المكافحة من أجل الحرية خاصة فى هاتين الدولتين، حتى وان استفادت مصر اقتصادياً ووقفت اثيوبيا بجانبها فى الامم المتحدة فى الحالات الدولية. لذا استبعدت انضمام مصر للكتلة إلا فى حالة اخراج اثيوبيا من دائرة النفوذ الامريكية الأمر الذى يستبعد احتماله. وانه اذا تم انشائها ستعمل على تدعيم نفوذ الامريكان فى السودان وسترتمى الاحزاب السودانية فى أحضان اثيوبيا مما يساعدها فى تحقيق مشروعها التوسعى. لذا ليس من صالح مصر الدخول مع اثيوبيا فى مثل هذا الحلف[٣].

---

[١] تقرير ادارة الشئون الافريقية سنة ١٩٥٧ عن اثيوبيا " سياستها الخارجية وعلاقة مصر بها "، ملف ٣ ج١ رقم ٣٠/٤٠/٤٦، محفظة ٢٧٨ (كود ارشيفى ٢٧٧) سرى جديد، خارجية، ص ص ١٧، ٢٠.

[٢] سر سياسى، اخر ساعة تذيع اول تفصيلات عن محور افريقيا، مجلة اخر ساعة، العدد ١١٤٦، ١٠ اكتوبر ١٩٥٦، ص ١١.

[٣] مذكرة طه فتح الدين مدير ادارة الشئون الافريقية الى السيد وكيل وزارة الخارجية المساعد للشئون السياسية فى ١٩٥٦/١٠/٢٤، ملف٤ رقم ٧/٢٢٥ /١ج٣ التقارير السياسية للسفارة المصرية باديس ابابا "مختلف " ١٩٥٦، فيلم ٥٠ اديس ابابا، محفظة ٧٩، ارشيف البلدان، خارجية، ص ص ١، ٢.

وما ذهب اليه أحد تقارير المخابرات عن قيام بريطانيا بتمويل وكالة الاخبار الافريقية – التى ستفتتح فى ٥ يونيو ١٩٥٧ – لمنافسة وكالة الانباء السودانية التى تمولها مصر، ولمقاومة نفوذها فى افريقيا، ولنشر الاخبار والتعليقات المؤيدة للكتلة الغربية، ومهاجمة مصر بدس الاخبار الكاذبة عليها [١] يؤكد نجاح الدعاية المصرية المضادة ضد الحزام الافريقى وأنها قد أتت بثمارها. بل ان تفضيل الادارة المصرية لزيادة التبادل التجارى بين البلدين [٢]. كان أحد الوسائل لضمان عدم استقطاب السودان لاى أحلاف. فحينما لم يحدث تقدم فى مسألة الحزام الافريقى بالفشل فى جر السودان اليه، وتنامى التعاون المصرى السوفيتى [٣] وقيام السوفيت بتحريض مصر والدول العربية ضد اقامة كتلة عسكرية فى افريقيا سنة ١٩٥٧؛ بالترويج بأنها ضد مصالح الدول العربية وانها اداة الاستعمار لاستغلال الشعوب[٤].بحيث لم يعد بمقدور الاطراف الغربية السكوت علية، من ثم لجأت

---

(١) التقرير رقم ١ فى ١٩٥٧/٦/٦، تقارير المجموعة الاولى رقم (١٠٧) الخاصة بالسودان مرسل من ادارة المخابرات الحربية الى السيد مدير ادارة الشئون الافريقية، ملف١ رقم ٤٠ سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٩ ملخصات تقارير المخابرات الجوية،، محفظة ٩٢٦ (كود ارشيفى ٧٣١) سرى جديد، خارجية، ص ٥.

(٢) مذكرة المستشار التجارى بسفارة جمهورية مصر بالخرطوم فى ١٧ مارس ١٩٥٧ بشان بذرة القطن السودانى المطلوب شرائها لوزارة التموين، ملف٨ رقم ١/٧/١٣١ مؤقت، محفظة ٤٥١ سرى جديد، خارجية.

(٣) فقد بلغ التلاقى بين مصر والسوفيت منذ صفقة الاسلحة (سنة ١٩٥٥) مرورا بحرب السويس ثم بهجوم الروس على مبدأ ايزنهاور و تقديم السلاح وبرامج مساعدات فنية وتقنية لكل من مصر وسوريا واليمن، للمزيد انظر، -:SMOLANSKY M. OLES. "Moscow- Cairo Crisis, 1959", *Slavic Review* ,Vol. 22, No. 4, (Dec.1963) PP. 713, 714.

(٤) خطاب من السكرتير الثالث بسفارة مصر بموسكو نبيل الدسوقى الى السيد وكيل الخارجية بخصوص تداعيات اقامة كتلة عسكرية فى افريقيا، فى ١٩٥٧/٩/٢٧، ملف ٢، فيلم ٣٨، محفظة ٨٠، سرى جديد، خارجية.

الولايات المتحدة الى وسيلتين: الوسيلة الاولى، البدء فى اثارة ملف الحدود المصرية السودانية، بعرض امريكى فى مارس ١٩٥٧ للحكومة السودانية بانشاء قواعد عسكرية بمنطقة مهد قول المتعارف عليها باسم حلايب ضمن استراتيجية امريكية بتدشين عدة قواعد عسكرية فى شرق افريقيا على البحر الاحمر، ووجود اتصالات بين عبدالله خليل والولايات المتحدة واثيوبيا لاثارة هذا الملف [١].

ويشير خطاب سفارة مصر بالخرطوم فى ١٠ مارس ١٩٥٨ الى أن الدعوة لحلف البحر الاحمر هى دعوة سودانية. فرغم أن السفارة سمعت بأخبارها لأول مرة من الشيخ عبدالرحمن الحليسى سفير السعودية فى السودان إلا أن الخطاب أشار الى أن تصريح عبدالله خليل لمندوب رويتر عن أمله فى عقد معاهدة دفاعية اقتصادية مع السعودية واثيوبيا، على أن تنضم لها العراق وليبيا كبلاد تشاطره وجهة النظر فى تفضيل المعسكر الغربى مستقبلا، كان مقدمة لتكوين هذا الحلف[٢].وتأكد هذا فيما بعد عندما نشرت جريدة الرأى العام السودانية فى عددها الصادر فى ٣ مايو ١٩٥٨ ترجمة لمقال نشرته مجلة نيوزويك الامريكية فحواه " أن وزارة الخارجية البريطانية تدرس اقتراحاً تقدم به رئيس وزراء السودان لعقد حلف يضم السودان واثيوبيا والسعودية، وذلك لأن احساس هذه الدول الثلاث بالتوسع السوفيتى والمصرى نحو البحر الاحمر والصومال قد قرب بينها "[٣]. ومن ثم يعد هذا تطوراً جديداً فى الموقف السودانى، فاذا كانت لم تستطع فى مسألة الحزام أن تجهر بها من قبل، فإنها فى هذا المشروع الجديد هى التى نادت به. ورغم ما أشار اليه الملحق العسكرى المصرى بالسودان فى ٢٩ مارس ١٩٥٨ بأن عملية

---

(١) أمانى محمد كمال الدين أحمد:-المرجع السابق، ص ١٧٤.

(٢)أمانى محمد كمال الدين أحمد:-المرجع السابق، ص ١٧٤..

(٣) عبدالحميد عبدالجليل شلبى:- مصر فى العلاقات العراقية السودانية ١٩٥٦-١٩٥٨.. دراسة وثائقية، مصر الحديثة، العدد الاول، مركز تاريخ مصر المعاصر، دارالكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٢٠.

دخول السودان الى الحلف الافريقى أو حلف البحر الاحمر قد هبطت بعد الاحداث التى جرت فى السعودية [(١)]. إلا أن الحكومة السودانية استمرت فى طرحه، ومن ثم راحت التقارير المصرية ترصد الميول غير العربية لحزب الامة، وانه لو اتيح لها الامر لانسحبت من الجامعة العربية واتجهت لافريقيا. وقالت بأن مؤتمر أكرا (ابريل ١٩٥٨) لعله فرصة طيبة ليصول فيها الحزب ليؤكد اتجاهه الافريقى وذلك بدعم من الولايات المتحدة الامريكية [(٢)].واستنكرت مصر هذا الحلف، وبدا هذا الاستنكار واضحا فيما ذكره عبدالله خليل للملحق العسكرى بالسفارة المصرية بالخرطوم، بأنه لم يقصد بتصريحه عن حلف البحر الاحمر كلمة حلف، لأن سياسته ضد الاحلاف ولكن ما يعنيه هو الدخول فى اتفاقيات ومعاهدات مه الدول المجاورة [(٣)].

وبالتالى فشلت عملية احياء مشروع الحزام الافريقى من جديد، حيث لعبت المعونة الامريكية الدور الاساسى فى محاولة احياءه سنة ١٩٥٨. فما أثير

(١) خطاب مكتب الملحق العسكرى بالسودان الى السيد السفير المصرى بالخرطوم، فى ٢٩ مارس ١٩٥٨، محفظة ١٥، ملف ٢ رقم ٢/٨١/٧٤٤ ج٦، سرى جديد، خارجية.

(٢) خطاب سفارة الجمهمرية العربية المتحدة بالسودان الى السيد السفير وكيل الخارجية بشان اتجاهات السياسة المصرية، فى ١٤ ابريل ١٩٥٨، محفظة ١٥، ملف ٢ رقم ٢/٨١/٧٤٤ ج٧، سرى جديد، خارجية.

(٣) وكذلك فى البيان الذى نشرته الصحف فى ٤ مايو ١٩٥٨ يرد فيه على ما نشرته مجلة نيوزويك الامريكية، بأن الصحيفة التى ترجمت الخبر (يقصد صحيفة الرأى العام) قد أخطأت فى كلمة حلف التى يفهم منها على انه حلف عسكرى مقابل Coalition التى لا تعنى أكثر من ائتلاف أو تآلف. وأن سياسة السودان تبتعد عن الاحلاف والمحافظة على الحياد، وأن العلاقات بين الدول الثلاث (السعودية واثيوبيا والسودان) تقوم على اساس التفاهم الودى وحسن الجوار تقتضيها مصلحة البلاد. وكذلك فى البيان الذى أصدره وزير الخارجية السودانية ينفى ما جاء بالمجلة الامريكية، للمزيد انظر، عبدالحميد عبدالجليل شلبى:- المرجع السابق، ص ص ٢٢٠، ٢٢١.

خلال القراءة الثالثة لاتفاقية المعونة الامريكية للسودان فى البرلمان فى يوليو ١٩٥٨ بشأن رغبة امريكا فى انشاء مطار ذرى فى حلايب على ساحل البحر الاحمر، طرح من جديد مسألة الحزام الافريقى، ذلك الحلم الذى ساور رجال الحرب فى الكتلة الافريقية. الا أنه لقى معارضة كبيرة داخل البرلمان، لعل أشهرها ما أثاره البكباشى أحمد مختار بقوله " بأن الحزام تم بالفعل ولم يبق منه الا الجزء الذى يربط طرفيه، وأن السودان هو هذا الجزء " وذكره " بأنه إن رضينا لانفسنا أن نكون جزءا من هذا الحزام نكون قد جعلنا سوداننا جزءا من أرض المعركة المرتقبة،حيث تصبح خط المؤن الحربية الرئيسى " [(١)]. واذا كان هذا الرجل العسكرى يعترف صراحة بأن المشروع قد نفذ على أرض الواقع، فإن نجاح مصر فى افشاله داخل السودان قد قضى تماما على امكانية تنفيذه، ومن ثم كان اسقاط حكومة عبدالله خليل بمثابة رصاصة الرحمة الاخيرة فى جسد المشروع. ومع أن تشديد مؤتمر الامن القومى فى واشنطن – عقد فى نوفمبر ١٩٥٨ – وتأكيده على ضرورة ابعاد السودان عن سيطرة مصر، ودفعها بضرورة توثيق علاقاتها بالدول الافريقية وخاصة اثيوبيا [(٢)]، يصب فى الاصرار الامريكى على احياء مشروع الحزام، الا أن المشروع لم تكتمل أطرافه، ولهذا راح البعض يقول بوجود اصابع مصرية فى الانقلاب العسكرى الذى تم فى السودان فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ . فشكوك الادارة المصرية فى توجهات حكومة عبدالله خليل طرح بقوة امكانية ان يكون لها يد فى انقلاب عبود، للقضاء نهائيا على احتمالية عودة

---

(١) خطاب من سفارة جمهورية مصر بالخرطوم الى السيد وكيل الخارجية عن المعونة الامريكية فى ١٠/يوليو ١٩٥٨، ملف ٣رقم ١ سرى لعام ١٩٥٧/٥٦ ج٧ تقارير سياسية للسفارة المصرية بالخرطوم، محفظة ٩٢٣ (كود ارشيفى ٧٢٨) سرى جديد، خارجية، ص ص ٢،٣.

(٢) عبدالحميد عبدالجليل شلبى:- المرجع السابق، ص ص ٢٢٢، ٢٤١.

التفكير من جديد فى مسألة الحزام الافريقى.

واعتقد أن أهم ما نتج عن القبول المصرى بخيار السوانيين فى الاستقلال هو معاهدة مياه النيل سنة ١٩٥٩. فالترحيب المصرى بانقلاب عبود ورغبة العسكريين السودانين جعلهم يعملون على تقوية العلاقات المصرية السودانية، ويبحثون فى مسالة المياه فى اطار مستقل بعيدا عن توجيها بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية.حيث وقعت اتفاقية المياه بين الطرفين فى نوفمبر ١٩٥٩، حفظت حقوق الدولتين فى مياه النيل بما يوازى ١٨ مليار متر مكعب ونصف للسودان و٥٥ مليار متر مكعب ونصف لمصر[١]. وهى المعاهدة التى لازالت تحفظ مع غيرها حقوق مصر التاريخية فى مياه النيل.

---

[١] أمانى الطويل:- العلاقات المصرية السودانية.. جذور المشكلات وتحديات المصالح قراءة وثائقية، المركز العربى للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٢، ص ص ٤٥، ٤٧، ٤٨.

خاتمة:

خلصت الدراسة الى عدة نتائج:

- بينت الدراسة بأن مطالب السودانيين فى الاستقلال بدأت مع طرح مؤتمر الخريجين السودانى لمسالة تقرير المصير فى ابريل ١٩٤٢. وان الادارة المصرية فى الفترة الملكية كانت متمسكة بمسالة السيادة على السودان وتهيئة مناخ الاتحاد بين الدولتين، وأنها دخلت فى مفاوضات طويلة الامد مع بريطانيا تحطمت جميعها على صخرة السودان.
- قالت الدراسة بأن القبول بفكرة تقرير المصير من الادارة المصرية فى بداية الخمسينيات جاءت قسرا من قبل الادارة البريطانية عبر الدستور الذى اقره البرلمان السودانى، وتم طرحه على دولتى الحكم الثنائى فى مايو ١٩٥٢، اى ما قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، دون أن تنتظر رأى الادارة المصرية فيه أو ترى ملاحظاتها حوله.
- خلصت الدراسة بأن قيادات الثورة المصرية لم تكن مستعدة لملف السودان كما يقتضى الموقف، حيث اقتصر الموقف على تكليف احد الشخصيات بالملف، مما جعل خيارات الثورة تتمثل فى التماهى مع تقرير المصرى المطروحة على مصر منذ فترة ما قبل الثورة، ثم التعرف على الملف من خلال التعامل معه على أرض الواقع.
- بينت الدراسة بأن الادارة المصرية فعلت الكثير من أجل قبول السودانيين بالوحدة الطوعية بين مصر والسودان. وأن المناكفة البريطانية والقوى المحرضة للاستقلال كانت أكبر من ان تقاوم أو ترضى بإبقاء السودان فى فلك الدولة المصرية. لذا فإن مراهنة السياسة المصرية على السودانيين كان خيارا جيدا لكن الظرف الاقليمى والدولى كسب الخيار للاستقلال.
- أوضحت الدراسة بأن قبول مصر برغبة السودانيين بقرار البرلمان السودانى

بالاستقلال دون مناكفة مكن الادارة المصرية من كسب السودان فى معركة الاحلاف العسكرية ودعم لها فى معركة تامين قناة السويس والعدوان الثلاثى وغيرها من المعارك التى قالت بأن قبول مصر بهذا الاستقلال قد خدم العلاقات كثيرا، وكان اقواها فى ملف مياه النيل وعقد اتفاق سنة ١٩٥٩.

❊ ❊ ❊

المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ٤٧٩ - ٥٠٦

مَشْروعُ المَمْلَكَةِ العَرَبيَّةِ المُتَّحِدَةِ وَمَوْقِفُ حَرَكَةِ فَتْحٍ مِنْهُ
«دِراسَةٌ فِي مَصادِرِ فَتْحٍ»

The project of the United Arabia Kingdom and the position of the Fatah movement towards it «Study in Fatah's sources»

عصام محمد علي عبد الحفيظ عدوان(*)

ملخص

تناول البحث مشروع المملكة العربية المتحدة الذي طرحه الملك حسين ابن طلال ملك الأردن في ١٤ مارس ١٩٧٢ وموقف حركة فتح تجاهه، بالاستناد إلى مصادر حركة فتح. وقد هدف البحث لبيان المشروع وملابساته، وموقف فتح منه. وقد استند البحث إلى مصادر حركة فتح بشكل رئيس، ومن أهمها: نشرة فتح اليومية التي غطت شهر فبراير ومارس وإبريل من عام ١٩٧٢، وعبَّرت بشكل واضح عن رؤية فتح تجاه المشروع. وقد اتبع البحث منهج البحث التاريخي، وجاء في محورين، تناول الأول المشروع وملابساته، وتناول الثاني موقف فتح منه.

استعرض المحور الأول مضمون مشروع المملكة العربية المتحدة، وخلفيته، والموقف الإسرائيلي والسلوك الأردني والموقف الأمريكي منه،

(*) أستاذ مشارك في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة القدس المفتوحة - فرع غزة.

وخلفية العلاقة بين فتح والنظام الأردني. واستعرض المحور الثاني موقف حركة فتح، فتناول الإطار النظري: البيانات والندوات، وتناول الإطار العملي: العمل الدبلوماسي، والمظاهرات، والتهديد، وطرح البدائل، والعمل العسكري. وتوصل البحث إلى أسباب طرح المشروع وأسباب رفضه.

كلمات مفتاحية: مشروع المملكة العربية المتحدة – الملك حسين – فتح – الحلول السلمية – فلسطين.

Abstract

The research addressed The United Arabia Kingdom (UAK) project put forward by King Hussein bin Talal of Jordan on March 14, 1972, and The Fatah movement's position towards it, based on Fatah sources.

The research aimed to explain the project and its circumstances, and Fatah's position on it. The research is based mainly on the sources of the Fatah movement, the most important of which are: Fatah's daily bulletin that covered the months of February, March and April, of 1972 and clearly expressed its vision towards the project. The research followed the historical research method, and came in two sections: The First addressed the project and its circumstances. The second addressed Fatah's position. The first section reviewed the content of the UAK project, its background, the Israeli position, the Jordanian behavior and the American position, and the background of the relationship between Fatah and the Jordanian regime. The second section reviewed the position of the Fatah movement, dealing with the theoretical framework: statements and seminars. While practical framework: diplomatic work, demonstrations, threats, proposing alternatives, and military action. The research found the reasons for the proposal and its rejection.

Kay words: United Arabia Kingdom Project, King Hussein, Fatah, Peaceful Solutions, Palestine:

مقدمة:

يعتبر مشروع المملكة العربية المتحدة الذي طرحه الملك حسين بن طلال ملك الأردن في مارس عام ١٩٧٢ أحد أهم المشاريع السياسية التي واجهتها الثورة الفلسطينية في تلك الفترة، لما اتسمت به تلك الفترة من عداء صريح ومفتوح بين فصائل المقاومة الفلسطينية والنظام الأردني إثر الصراع بينهما في عامي ١٩٧٠، ١٩٧١م والذي أدى إلى خروج منظمة التحرير وفصائلها من الأردن.

أهمية البحث:

يُعتبر مشروع المملكة العربية المتحدة الأول من نوعه في تاريخ القضية الفلسطينية،

استدعى المشروع جهودًا غير مسبوقة لمواجهته من قِبَل حركة فتح،

وهو يعتمد على مصادر حركة فتح للتعرف على رؤيتها تجاه المشروع.

مثَّل طرح المشروع في حينه ذروة الصراع بين النظام الأردني ومنظمة التحرير الفلسطينية التي تقودها حركة فتح.

هدف البحث:

التعريف بمشروع المملكة العربية المتحدة وملابساته، وموقف فتح منه.

وقد تركَّز البحث على وثائق حركة فتح ومن أهمها "نشرة فتح اليومية" التي واكبت الحدث أولًا بأول بطريقة موجَّهة وغير محايدة. وقد اتبع الباحث منهج البحث التاريخي في تتبّع الأحداث وتحليلها والربط فيما بينها.

وجاء البحث في محورين، تناول الأول المشروع وملابساته، وتناول الثاني موقف فتح منه في إطارين: نظري وعملي. وركّزت الخاتمة أهم النتائج.

المحور الأول: مشروع المملكة العربية المتحدة وملابساته

المشروع:

أرسل الملك حسين رسالة إلى الرئيس المصري أنور السادات في ١٩٧٢/٣/١٣ (١)، عرض فيها مشروعًا للوحدة بين الضفتين الشرقية والغربية لنهر الأردن، ثم أعلنه في خطابه بتاريخ ١٩٧٢/٣/١٥م بشكل رسمي، وتضمّن ما يلي:

١. تصبح المملكة الأردنية الهاشمية "مملكة عربية متحدة" وتسمي بهذا الاسم.

٢. تتكون المملكة العربية المتحدة من قطرين:

أ. قطر فلسطين: ويتكون من الضفة الغربية وأية أراضي فلسطينية أخرى يتم تحريرها ويرغب أهلها في الانضمام إليها.

ب. قطر الأردن: ويتكون من الضفة الشرقية.

٣. تكون عمان العاصمة المركزية للمملكة وفي الوقت نفسه تكون عاصمة لقطر الأردن.

٤. تكون القدس عاصمة لقطر فلسطين.

٥. رئيس الدولة هو الملك ويتولى السلطة التنفيذية المركزية ومعه مجلس وزراء مركزي. أما السلطة التشريعية المركزية فتناط بالملك وبمجلس يعرف باسم "مجلس الامة". ويجري انتخاب اعضاء هذا المجلس بطريق الاقتراع السري المباشر وبعدد متساو من الأعضاء لكل من القطرين.

---

(١) أنظر النص الكامل للرسالة وصورة عن البرقية السرية التي حملت الرسالة في: هيكل، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، -سلام الأوهام، (القاهرة: دار الشروق، ط٦، يناير ٢٠٠٠) ج٢، ص ٣٢- ٣٥، ووثيقة رقم (٤) في ملاحقه.

٦. تكون السلطة القضائية المركزية منوطة "بمحكمة عليا مركزية".

٧. للمملكة "قوات مسلحة" واحدة قائدها الأعلى الملك.

٨. تنحصر مسؤوليات السلطة التنفيذية المركزية في الشؤون ذات العلاقة بالمملكة كشخصية دولية واحدة وبما يكفل سلامة المملكة واستقرارها وازدهارها.

٩. يتولى السلطة التنفيذية في كل قطر، حاكم عام من أبنائه ومجلس وزراء قطري من أبنائه أيضًا.

١٠. يتولى السلطة التشريعية في كل قطر مجلس يعرف باسم "مجلس الشعب" يتم انتخابه بطريق الاقتراع السري المباشر. وهذا المجلس هو الذي ينتخب الحاكم العام للقطر.

١١. السلطة القضائية في القطر لمحاكم القطر ولا سلطان لأحد عليها.

١٢. تتولى السلطة التنفيذية في كل قطر جميع شؤون القطر باستثناء ما يحدده الدستور للسلطة التنفيذية المركزية.(١)(٢)

وقرر الملك حسين أن هذا المشروع ليس مطروحًا للمناقشة، وأنه سيشرع في التنفيذ فورًا، وأوضح أنه سيتم إنشاء قنصلية دولية في القدس، وسيرفع علم الدولة

---

(١) الوثائق الأردنية لعام ١٩٧٢، عمان: دائرة المطبوعات والنشر، تشرين أول ١٩٨٤، ص ١٥-١٦.

(٢) منير الهور وطارق الموسى، مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧- ١٩٨٥، (عمان: دار الجليل للنشر ط٢ ١٩٨٦) ص١٢٩ . وانظر تفاصيل المشروع كما وردت في رسالة الملك حسين إلى الرئيس السادات في: هيكل، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، ج٣، ص ٣٣-٣٥.

الجديد على الأماكن الإسلامية المقدسة، بينما يرفع علم الفاتيكان على الأماكن المسيحية المقدسة، (١) ولم يذكر ما إذا كان سيرفع علم إسرائيل على الأماكن اليهودية المزعومة في القدس أم لا.

وأشارت مصادر حركة فتح أن الملك حسين قد دعا عددًا من الشخصيات الفلسطينية لحضور مؤتمره الذي أعلن فيه عن مشروعه يوم الأربعاء ١٤ مارس ١٩٧٢م، وأعلن أمامهم أن معظم الدول العربية، والدول الكبرى وافقوا على المشروع الذي نصَّ على:

١- دولة اتحادية تضم دولتين؛ فلسطينية وأردنية.

٢- يحق لكل دولة أن تصدر جوازات سفر. (٢)

٣- تشكيل حكومة فدرالية مركزية في الضفتين.

٤- تشكيل لجان برلمانية لإعادة صياغة دستور الاتحاد. (٣)

٥- وفي مؤتمر صحفي في ٢٣ مارس ١٩٧٢م تحدّث فيه الملك عن وضع القدس، أكد أنه لا عودة لوضع القدس السابق، بل يمكن أن تكون عاصمة لإسرائيل وإقليم فلسطين معًا، كما يمكن التعاون بين إسرائيل والأردن في إدارة القدس لتبقى مفتوحة أمام الجميع. (٤)

---

(١) بلال الحسن، "المقاومة الفلسطينية والرد على مشروع الملك حسين"، شئون فلسطينية، عدد٩، مايو ١٩٧٢، ص ٢٤٧- ٢٤٨.

(٢) نشرة فتح اليومية، عدد٢١، في ١٩٧٢/٣/١٥، ص ٥.

(٣) المصدر نفسه، عدد٢٢، في ١٩٧٢/٣/١٦، ص ٦.

(٤) المصدر نفسه، عدد٣٦، في ١٩٧٢/٣/٣٠، ص ١.

٦- وأبدى الملك حسين موافقته على شرط إسرائيلي بعدم السماح بأي عمل "إرهابي" من أراضيه ضد إسرائيل، في مقابل موافقتها على استعادته للضفة الغربية.(١)

٧- وصرَّح وزير خارجية الأردن بأن حكومة فلسطينية في المنفى سيكون مقرّها عمّان(٢).

خلفية:

وكان للملك حسين توجهات نحو السلام مع إسرائيل فقد دعاها بعد حرب عام ١٩٦٧ لأن تتخلى عن غربيتها وتصبح شرقية تندمج في المجتمع الشرقي كمواطنة حرة متخلية عن صهيونيتها(٣)، وأعلن موافقته من حيث المبدأ على تسوية سياسية، من أجل "الوصول إلى سلم دائم في العالم العربي، سلم فيما بيننا، وسلم مع جميع جيراننا" في إشارة إلى إسرائيل، وهي رغبة تعود إلى ما بعد عام ١٩٤٨م، حيث جرى توقيع بروتوكول لوزان في عام ١٩٤٩م(٤).

وقد اعتبرت فتح أن المشروع إنما هو صيغة جديدة لمشروع مملكة الأردن وفلسطين الذي تقدّم به مَن أسمتهم "الرجعيون الأردنيون" في عام ١٩٧١م، واعتبرته كذلك نسخة من مشروع يغال آلون نائب رئيس وزراء إسرائيل لعام ١٩٦٧م (٥)، الذي تحدَّث عن حكم ذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة

---

(١) نشرة فتح اليومية ، عدد ٧٩، في ١٤/٥/١٩٧٢، ص ٢-٣.

(٢) المصدر نفسه، عدد ٢٤، في ١٨/٣/١٩٧٢، ص ١.

(٣) من خطابه في نادي الصحافة الوطني بواشنطن، الوثائق الأردنية لعام ١٩٦٧، ص٣٠٩-٣١٠.

(٤) عصام عدوان، فلسطين في خطابات الملك حسين بن طلال ١٩٦٤-١٩٦٧، مجلة التاريخية الفلسطينية، العدد الرابع، أغسطس ٢٠١٥م، غزة – فلسطين، ص ٥١.

(٥) نشرة فتح اليومية، عدد ٢٤، في ١٨/٣/١٩٧٢، ص ٦.

ملحق بالإدارة الأردنية، ودعا إلى إقامة حزام من المستوطنات في الأغوار الفلسطينية، مع ربط الضفة الغربية بالأردن بواسطة ممر[١].

الموقف الإسرائيلي:

قرر الكنيست الإسرائيلي إدراج مشروع الملك حسين ضمن المشروعات المستعجلة. وفي خطوة رمزية ذات دلالة، قام موشي دايان وزير الدفاع الإسرائيلي بزيارة تفقدية للعلم الأردني الذي تم رفعه فوق المسجد الأقصى قبل يومين من إعلان المشروع، وأظهر الإعلام الإسرائيلي اهتمامه بالأمر عندما تحدَّث عبر الإذاعة عن أن الملك حسين لم يحدِّد موعدًا للتنفيذ [٢] في إشارة إلى رغبة ضمنية لدى إسرائيل لقيام الملك بهذه الخطوات.

وفي خطوة يمكن فهمها كدعم ومؤازرة لمشروع الملك حسين، أعلن وزير خارجية إسرائيل أن جولدا مائير رئيسة الوزراء تحدثت عن إمكانية وضع ميناء غزة في خدمة النظام الأردني [٣]. كما أشارت عدة صحف إسرائيلية إلى اتفاق مسبق بين الحكومة الإسرائيلية وبين الملك حسين بشأن المشروع، بحيث تُظهِر إسرائيل معارضتها كي لا يزداد معارضوه [٤].

ورصدت نشرة فتح [٥] تصريح لإيغال آلون والذي تحدث به إلى صحيفة معاريف الإسرائيلية، حيث دعا حكومته لعدم معارضة مشروع الملك حسين؛ الذي يوفر حلًا للقضية الفلسطينية بهذا الاتحاد، داعيًا لأن تقيم إسرائيل خمس قرى جديدة (استيطانية) في غور الأردن "لخلق أسس واقعية لمقابلة مشروع الملك" ،

---

[١] نشرة فتح اليومية ، عدد ٢٤، في ١٨/٣/١٩٧٢، ص ٢.
[٢] المصدر نفسه، عدد ٢١، في ١٥/٣/١٩٧٢، ص ٨.
[٣] المصدر نفسه، عدد ٧٢، في ٧/٥/١٩٧٢، ص ٤ .
[٤] المصدر نفسه، عدد ٢٢، في ١٦/٣/١٩٧٢، ص ٦.
[٥] المصدر نفسه، عدد ٣٠، في ٢٤/٣/١٩٧٢، ص ٢.

وتساءل آلون لماذا لم يُشر الملك إلى وجوب تنفيذ خطته في سياق سلام مع إسرائيل؟ كما لم يمانع آلون من قيام اتحاد كونفدرالي بين الأردن والضفة الغربية وإسرائيل[١]، وصرَّح أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل بأن حديث يغال آلون نائب رئيسة الوزراء حول عدم معارضة إسرائيل للمشروع، يؤيده معظم أعضاء الحكومة الإسرائيلية [٢]. ومع تعذُّر الخطوات التنفيذية للمشروع، أعلن موشي دايان أن الضفة الغربية جزء من "الوطن الإسرائيلي"، وأن أي اتفاق مع العرب يجب أن يتضمن حق الإسرائيليين في الإقامة فيها وإنشاء المستوطنات [٣]. وبالقدر الذي يتضمنه هذا التصريح من تشدُّد، فإنه يحمل في طياته محاولة لإحياء النقاش حول المشروع، والمراهنة على حاجة الملك لتحقيق نجاحات.

السلوك الأردني:

وافقت السلطات الأردنية على عمل عدد من الأطباء الأردنيين في القدس بناء على طلب من صندوق المرضى الإسرائيليين [٤]. كما هنأت الحكومة الأردنية رؤساء البلديات الذين نجحوا في انتخابات البلدية في مدن وقرى الضفة [٥]، وأرسل وزير الإعلام الأردني رسائل إلى صحفيين من الضفة الغربية يخبرهم بأن الوزارة ستتكفل بدفع مرتبات لهم [٦]. وأرسل الملك حسين عدة وفود إلى الدول العربية لتمرير مشروعه، وأغلقت الحكومة الأردنية مكتب منظمة التحرير

---

(١) مقابلة أجرتها جريدة معاريف الإسرائيلية مع ييغال آلون، انظر: جريدة معاريف، العدد ٨٤٢٤ بتاريخ ٢٤/٣/١٩٧٢، ص ١، ٩.

https://www.nli.org.il/ar/newspapers/mar/1972/03/24/01/article/5/?e=-------ar-20--1--img-txIN%7ctxTI-----------1

(٢) نشرة فتح اليومية، عدد ٣٢، في ٢٦/٣/١٩٧٢، ص ٤.

(٣) المصدر نفسه، عدد ٨٢، في ١٧/٥/١٩٧٢، ص ١.

(٤) المصدر نفسه، عدد ٣٣، في ٢٧/٣/١٩٧٢، ص ٤.

(٥) المصدر نفسه، عدد ٧٣، في ٨/٥/١٩٧٢، ص ٣.

(٦) المصدر نفسه، عدد ٨٦، في ٢١/٥/١٩٧٢، ص ٣.

الفلسطينية، في محاولة لإسكات صوت المعارضين [١].

وفي المقابل، قامت عدة قوى أردنية بالتعبير عن رفضها للمشروع، وجميعها تربطها صلات بمنظمة التحرير الفلسطينية وحركة فتح، ولذلك اهتمت فتح بإبراز معارضتهم، فقد أصدرت اللجنة التنفيذية للاتحاد العام لعمال الأردن بيانًا شجب فيه "المؤامرة" ودعا لإحباطها، كما دعا الاتحاد العام لطلبة الأردن إلى مظاهرات جماهيرية والقيام بإحباط "المؤامرة"[٢].

وأدانت اللجنة التحضيرية للجبهة الوطنية الأردنية المشروع، ودعت لاتخاذ خطوات لإحباطه، ومن ذلك:

١. العمل لإقامة حكم وطني ديمقراطي في الأردن بديلًا عن الحكم الهاشمي.
٢. إقامة الجبهة الوطنية الأردنية الفلسطينية الموحدة.
٣. تعزيز الروابط النضالية بين الشعبين بطرح برنامج وطني لوحدة الضفتين بعيدًا عن الإقليمية البغيضة[٣].

وبينما أعلنت فتح رفضها لمشروع المملكة العربية المتحدة، نجدها لم تعلّق سلبًا على الخطة الأخيرة السابقة، بل وردت في نشرة فتح اليومية في سياق إبراز قوى الرفض لمشروع الملك، على الرغم من التشابه الكبير بين الطرحين، باختلاف نوعية الحكم، الأمر الذي يبين البعد الشخصي الذي استهدف بالرفض كل ما يصدر عن الملك.

الموقف الأمريكي:

سبق إعلان مشروع الملك بيومين تصريح من سفير إسرائيل في واشنطن؛

---

[١] نشرة فتح اليومية ، عدد ٢١، في ١٥/٣/١٩٧٢، ص ٦.
[٢] المصدر نفسه، عدد ٢١، في ١٥/٣/١٩٧٢، ص ٦.
[٣] المصدر نفسه، عدد ٢٥، في ١٩/٣/١٩٧٢، ص ٣-٤.

إسحاق رابين، بأن الولايات المتحدة على استعداد لتشجيع التوصل إلى تسوية بين إسرائيل والأردن [١]، وبعد إعلان المشروع أعرب رسميون أمريكيون عن ارتياحهم له، ورأى فيه وليم روجرز وزير الخارجية محاولةً للخروج من المأزق الراهن، كما أفادت صحف أمريكية أن الملك حسين سيجتمع بالرئيس الأمريكي نيكسون في أواخر شهر مارس ١٩٧٢م لبحث مشروعه [٢]، كما وصفته لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي بأنه "اقتراح عظيم"[٣].

خلفية العلاقة بين فتح والنظام الأردني

منذ إعلان الوحدة بين الضفتين الشرقية والغربية لنهر الأردن في عام ١٩٥٠، والأردن متخوف باستمرار من دعوات الكيانية والاستقلالية والثورية التي تتبناها حركة فتح [٤]، والتي حمّلته مسئولية ضياع الضفة الغربية، واتهمته بتسليمها كما سلّم بعض مناطق في أطرف الجليل، واللد والرملة في حرب عام ١٩٤٨ ومنطقة المثلث لاحقًا [٥]، واعتبرت أنه يجب إطلاق يد الفلسطينيين في الأردن للعمل لصالح قضيتهم، ورأت أنه "لا يمكن القبول بالنظام الأردني الذي وصفته بأنه يخنق الحرية ويقتل الروح الثورية لدى الشعب [٦]، واعتبرت رفض الأردن لتسليح الفلسطينيين هو تدخلٌ في شئونهم، وأعلنت أنه لا يمكن الاستغناء عن الأردن كقاعدة للثورة [٧]، وحرضت الجيش الأردني والشرطة على عصيان

---

[١] نشرة فتح اليومية، عدد ١٧، في ١٩٧٢/٣/١٢، ص ٣.

[٢] المصدر نفسه، عدد ٢٢، في ١٩٧٢/٣/١٦، ص ٦.

[٣] المصدر نفسه، عدد ٣٦، في ١٩٧٢/٣/٣٠، ص ٣.

[٤] فتح، الجلسات الحركية – الجلسة السابعة (لماذا أنا فتح – البرنامج الثاني – الطلائع الثورية)، ص ٦٢.

[٥] الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٧ (وثيقة رقم ٥٤٩)، ص ٧٨١.

[٦] المصدر نفسه، (وثيقة رقم ٧٠٠)، ص ٩٩٣.

[٧] الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٦ (وثيقة رقم ٢٥١)، ص ٥٦٣-٤.

الأوامر الموجهة إليهم، ودعتهم للانخراط في الثورة الشعبية [١]. وهكذا، فإن حركة فتح، وقبل صدامها مع النظام الأردني عام ١٩٧٠، وهي ترى أن الشأن الأردني هو شأن فلسطيني، نظرًا لأن الشعب في الأردن (بضفتيه) هو فلسطيني على الأغلب، وبالتالي، فإن موقف فتح من مشروع الملك حسين سينطلق من موقفها المبدئي الرافض للوصاية الأردنية.

وأظهر الملك حسين تخوفًا ملموسًا من تمدد الثورة الفلسطينية في الأراضي الأردنية، وأجرى اتصالات سرية بالقيادة الإسرائيلية والأمريكية، حيث ضغط الرئيس الأمريكي نيكسون على إسرائيل كي تتعاون مع الملك وتساهم في الحفاظ على نظامه، وقد تعهد الملك بحفظ الأمن على طول الحدود مع إسرائيل [٢]. وفي منتصف نوفمبر ١٩٧٠م، اجتمع الملك حسين مع ييغال آلون وشكر إسرائيل على دعمها العسكري له أثناء الأزمة، وأعربا عن أملهما في تسوية سياسية [٣].

وفي يوليو ١٩٧١م، تم إخراج المقاومة الفلسطينية نهائيًا من الأردن، وخسرت أهم موقع يمكن الانطلاق منه لتنفيذ هجمات ضد إسرائيل. وافتُتح فصل آخر من العلاقات بين فتح والنظام الأردني، اتسم حتى عام ١٩٧٧م بالعداء الصريح، فشكّلت فتح جهاز الأردن (مكتب شئون الأردن) لمتابعة كل ما يجري داخل الأراضي الأردنية [٤]، ولم يمنع ذلك من الشروع في محادثات بين الطرفين

---

[١] الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٧ (وثيقة رقم ٥٥٩)، ص ٧٩٩.

[٢] יוסי מלמן: שתפות עוינ ת הקשרים הסוד"ס בין ישראל לירדן (ידיעות אחרונות, תל אביב، ישראל, 1987). وترجمته إلى العربية: يوسي ميلمان: الشراكة العدائية – العلاقات السرية بين إسرائيل والأردن، (تل أبيب: يديعوت أحرونوت، ١٩٨٧م) ص٧٨-٧٩.

[٣] المرجع نفسه، ص٨٢.

[٤] عصام عدوان، حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" ١٩٦٩-١٩٨٣، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠١٠م، ص ٤٣٥.

برعاية عربية وإسلامية، كما في محادثات جدة قبيل إعلان مشروع الملك[1].

ورصدت نشرة فتح اجتماعات الملك حسين مع القيادة الإسرائيلية والأمريكية قبل وبعد الإعلان عن مشروعه، وعزمه زيارة الولايات المتحدة الأمريكية [2]، التي زارها بالفعل في ١٩٧٢/٣/٢٨، والتقى رئيسها ووزير دفاعه وخارجيته ومستشاريه، حيث تناول مشروع المملكة المتحدة [3]، وأشارت النشرة إلى حديث لمجلة فرنسية تفيد بملكيتها وثائق أردنية منذ عام ١٩٦٧ تثبت توصل الأردن وإسرائيل إلى اتفاق سري، وأن الأردن يمارس سياسة مزدوجة منذ الحرب[4].

كما جرت اتصالات بين مبعوثي الملك حسين والقادة الإسرائيليين[5]، فقد زار الضفة الغربية ضابط مخابرات أردني كبير هو كمال الكيلاني، وأنور نسيبة حيث أجريا لقاءات مع القيادة الإسرائيلية باسم الملك، وحاول نسيبة ترتيب فوز الموالين للملك في انتخابات البلدية في الضفة الغربية[6]، كما قام ياسين إرشيد وهو عضو مجلس الأعيان الأردني من سكان جنين في الضفة الغربية بعقد عدة اجتماعات مع الملك ورئيس وزرائه، ثم اجتمع مع نائب رئيسة وزراء إسرائيل يغال آلون، وحمل أموالًا من عمّان لتوزيعها على الأنصار في الضفة الغربية للتهيئة للصلح[7]. وقبل الإعلان عن مشروع الملك، اتهمت فتح الأردن بالسعي للحصول على تسوية منفردة وتكريس صلح واقعي غير معلن، والسعي لقياد اتحاد فيدرالي مع الأردن في

---

(١) نشرة فتح اليومية، عدد ٩، في ١٩٧٢/٣/٤، ص ٣.
(٢) المصدر نفسه، عدد ٣٧، ١٩٧٢/٣/٣١م، ص٣.
(٣) المصدر نفسه، عدد ٣٤، ١٩٧٢/٣/٢٨م، ص٤.
(٤) المصدر نفسه، عدد ٣٢، ١٩٧٢/٣/٢٦م، ص٤.
(٥) المصدر نفسه، عدد ١١، ١٩٧٢/٣/٦م، ص٤.
(٦) المصدر نفسه، عدد ١٥، ١٩٧٢/٣/١٠م، ص٣.
(٧) المصدر نفسه، عدد ١٩، ١٩٧٢/٣/١٤م، ص٢.

حال التوصل إلى تسوية[١].

ورصدت نشرة فتح تحركات مبعوثي الملك، فقد نزل وفدهم في فندق الملك داوود في القدس، وقابل أنور نسيبة رئيسة رئيسة وزراء إسرائيل ونائبها وقائد شرطتها، وبحث معهم تقديم بعض التسهيلات التي من شأنها زيادة ربط الضفة الغربية بالأردن، مثل: حرية التنقل بين الضفتين، والسماح للسيارات ذات الأرقام الإسرائيلية بعبور الجسر إلى نقطة الجمارك الأردنية، والسماح لدوريات الجيش الإسرائيلي بدخول الأراضي الأردنية لتفقُّد الحدود، وتسهيل عبور ألوف العمال العرب للعمل في بناء المستوطنات[٢]، وقد منحتهم إسرائيل تصاريح لمدة سنة[٣]، وقد وصفت فتح هذه المساعي ب "تنمية سياسة التعايش بين النظام العميل وسلطات العدو"[٤].

يتضح من هذه الملابسات أن مشروع الملك حسين قد جاء تتويجًا لتوجهات الملك نحو التسوية مع إسرائيل منذ حرب عام ١٩٦٧، وهي توجهات لها ما يعضدها في الجانب الإسرائيلي ممثلة في مشروع آلون، وأن مباحثات كثيرة أجراها الملك وأعوانه مع القادة الإسرائيليين والأمريكان، انتهت بطرح هذا المشروع، الذي لم يتم طرحه إلا بعد تخلّص الملك من قوى الثورة الفلسطينية بطردها من الأراضي الأردنية أواخر عام ١٩٧١، فأصبح الطريق مفتوحًا أمام توجهات الملك لترى النور، ومهدت له إسرائيل بالعمل على إجراء انتخابات بلدية في الضفة الغربية لتلتف على تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية للشعب الفلسطيني.

---

(١) نشرة فتح اليومية، عدد ١٦، ١١/٣/١٩٧٢م، ص٥، ٦.
(٢) المصدر نفسه، عدد ١٩، ١٤/٣/١٩٧٢م، ص٣.
(٣) المصدر نفسه، عدد ٢١، ١٦/٣/١٩٧٢م، ص٤.
(٤) المصدر نفسه، عدد ١٢، ٧/٣/١٩٧٢م، ص٣.

المحور الثاني: موقف فتح من مشروع المملكة العربية المتحدة

عبَّرت نشرة فتح عن الموقف الرسمي لحركة فتح، بالإضافة إلى بعض المصادر الأخرى، ويمكن تناول موقف فتح من مشروع المملكة العربية المتحدة في إطارين: الإطار النظري، والإطار العلمي.

أولًا: الإطار النظري:

جاء أول موقف رسمي من حركة فتح على إعلان مشروع الملك حسين، في نشرة فتح اليومية في ١٩٧٢/٣/١٥ وهو اليوم التالي للإعلان، تحت عنوان: "العملاء لا يمثلون شعبنا"، حيث رأت فتح أن الشعب الفلسطيني وحده هو مَن يقرِّر مصيره، وأن مشروع الملك ما هو إلا "مؤامرة" تم ترتيبها مع العدو الصهيوني بهدف تصفية القضية الفلسطينية، واعتبرت أنه ليس من حق الملك حسين أو غيره التحدث باسم أي طرف من الشعب الفلسطيني، وأنه لا تملك أي مجموعة فلسطينية الانفراد بتقرير مصير الشعب وخاصة إذا كانت تحت الاحتلال أو تحت حكم إرهابي، وأكدت فتح أن الخلاف ليس بين الشعبين الأردني والفلسطيني، وإنما مع الملك نفسه [1].

وجاء بيان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في اليوم الثالث بعبارات مشابهة تمامًا لموقف فتح، واعتبرت أن المشروع سيخرج إسرائيل من عزلتها العربية[2]، وأصدرت فتح بيانًا في ١٩٧٢/٣/١٧م أعلنت فيه، أن "إسقاط النظام الملكي في الأردن أصبح الآن يفرض نفسه على أنه الهدف المرحلي الذي سيعيد الأمور إلى وضعها الطبيعي، ويضع العلاقات بين الشعبين الفلسطيني والأردني في إطارها الصحيح"، فكانت هذه المرة الأولى التي تعلن فيها فتح تبنيها

---

(١) نشرة فتح اليومية، عدد ٢١، في ١٩٧٢/٣/١٥، ص ١، ٢.
(٢) المصدر نفسه، عدد ٢٢، في ١٩٧٢/٣/١٦، ص ١.

لإسقاط النظام الأردني، بعد أن عارضت ذلك طويلًا، حتى بعد معركة أيلول ١٩٧٠م، مكتفية آنذاك بصيغة "حكم وطني ديمقراطي"، ومؤكدة على أن ما عدا ذلك هو من مهام القوى الوطنية الأردنية (١).

وركزت فتح واللجنة التنفيذية للمنظمة على مسألة تمثيل الشعب الفلسطيني وهي تحدد موقفها من المشروع، فأعلنت أنها لن تفرِّط بحقها في تمثيل الشعب وقيادة نضاله (٢).

وقد عقدت اللجنة المركزية لفتح سلسلة اجتماعات طيلة يومين أعقبتها سلسلة اجتماعات للمجلس الثوري للحركة، بلورت خلالها موقفها، فقد اعتبرت أن المشروع بحاجة لأداة فلسطينية محلية (داخل فلسطين) سيتم تسخيرها لتوقع على الصلح مع العدو وتعترف بدولته، ليصرف بذلك الملك حسين الأنظار عن خيانته إلى تلك الفئة، واعتبرت أن المشروع يهدف إلى ضرب وحدة الشعب الفلسطيني، وأن الثورة الفلسطينية، ممثلة لإرادة الشعب الفلسطيني، ستمنع أي فلسطيني من التورط في المخطط، وحددت فتح هدف المرحلة بالقول: "مهمتنا المرحلية تهدف لإسقاط نظام الملك لمواصلة الكفاح لتحرير أرضنا الفلسطينية".(٣)

وفي نظرة تحليلية، رأت فتح أن مشروع المملكة العربية المتحدة يحقق للعدو شروطه؛ فعسكريًا، لن تكون هناك قوات لهذه المملكة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وسياسيًا، يحقِّق الاعتراف بالكيان الصهيوني ويقمع كل عمل مضاد، وثقافيًا، لن يُسمح بطرح ما يسيء إلى الكيان الصهيوني في المناهج وغيرها. ورأت فتح أن المشروع قد خلا من أية التزامات على العدو الصهيوني في الضفة الغربية، لتتوصل

---

(١) الحسن، "المقاومة الفلسطينية والرد على مشروع الملك حسين"، ص٢٥٠.

(٢) نشرة فتح اليومية، عدد ٢٣، في ١٩٧١٢/٣/٧، ص ١.

(٣) حول اجتماعات الهيئات القيادية لفتح انظر: نشرة فتح اليومية، عدد ٢١، في ١٩٧٢/٣/١٥، ص ٦؛ عدد٢٢، في ١٩٧٢/٣/١٦، ص ١؛ وحول الموقف الرسمي لفتح انظر: نشرة فتح اليومية، عدد ٢٤، في ١٩٧٢/٣/١٨، ص ١.

إلى نتيجة مفادها: أن المشروع هو جسر للنفوذ الصهيوني للمنطقة العربية، وأداة لضرب الثورة الفلسطينية والعربية. (١).

وقد أوضح خالد الحسن أسباب رفض المشروع في ثماني نقاط:

١. أن الملك لم يكن ملكًا على الفلسطينيين وإنما هو حاكم بالأمر الواقع.

٢. وأنه ضلل ١٣ شخصية فلسطينية بأنه أخذ موافقة العرب حتى أخذ موافقتهم.

٣. أنه ضلل العرب بأنه أخذ موافقة الفلسطينيين.

٤. وأن المشروع يفرغ قضية الشرق الأوسط من جوهرها وهو القضية الفلسطينية.

٥. ويربك الموقف العربي ليتحول إلى مشاكل إقليمية ثنائية بين مصر وإسرائيل وسوريا وإسرائيل.

٦. وأنه سيؤدي إلى تعايش رأسمالي وإنتاجي وبشري بين المملكة وإسرائيل.

٧. وينهي علاقة فلسطينيي الخارج بهويتهم الفلسطينية فيصبحوا مواطنين في الدول العربية.

٨. كما سيمزق الفلسطينيين داخل الدولة الواحدة باعتبار فلسطينيي الأردن، أردنيون (٢).

بيانات:

لم تكتفِ حركة فتح بإصدار بياناتها، بل شجعت صدور بيانات رافضة عن الاتحادات الشعبية وفصائل المقاومة، فقد أعلنت الاتحادات العمالية والطلابية

---

(١) نشرة فتح اليومية، عدد ٢١، في ١٥/٣/١٩٧٢، ص ٣.

(٢) الوثائق الفلسطينية العربية لعم ١٩٧٢، وثيقة رقم (١٢٣)، ص ١٣٦.

الفلسطينية واتحاد المعلمين الفلسطينيين في لبنان موقفها من المشروع، حيث اعتبرت المشروع خيانة قومية، السكوت عنها خيانة، ووصفت النظام الأردني بأنه أداة بيد الإمبريالية والصهيونية، ودعت لعدم استقبال مبعوثيه، وطرده من الجامعة العربية [١]. وبصورة مماثلة صدرت بيانات في صيدا وصور باسم الاتحادات الشعبية[٢]، وبيانات باسم فصائل المقاومة رافضة للمشروع، في سورية [٣]، وفي معسكر شاتيلا وبعلبك في لبنان، ودعت لإضراب عام ومهرجان رفض [٤].

ندوات:

فقد ألقى نبيل شعث عضو اللجنة المركزية لحركة فتح ندوة سياسية في بيروت بمناسبة الذكرى الرابعة لمعركة الكرامة، أكد فيها على رفض المشروع [٥]. وأقامت جمعية أنصار فتح ندوة سياسية في روالبندي في باكستان وشجبت المشروع[٦].

ثانيًا: الإطار العملي:

اتخذ المجلس الثوري لحركة فتح جملة من القرارات التي وصفها بـ "التنفيذية":

١- تكليف اللجنة المركزية لفتح بإبلاغ الدول العربية موقف الحركة من "المؤامرة".

٢- تكليف اللجنة المركزية بتوجيه دعوة لعقد مؤتمر قمة عربي لتحديد المواقف.

---

(١) نشرة فتح اليومية، عدد ٢٣، في ١٧/٣/١٩٧٢، ص ٤-٥.
(٢) المصدر نفسه، عدد ٢٤، في ١٨/٣/١٩٧٢، ص ٣.
(٣) المصدر نفسه، عدد ٢٤، في ١٨/٣/١٩٧٢، ص ٣.
(٤) المصدر نفسه، عدد ٢٤، في ١٨/٣/١٩٧٢، ص ٤-٥.
(٥) المصدر نفسه، عدد ٢٧، في ٢٢/٣/١٩٧٢، ص ٨.
(٦) المصدر نفسه، عدد ٦٥، في ٣٠/٤/١٩٧٢، ص ٥.

٣- إجراء اتصالات واسعة مع القوى والدول الصديقة والتشاور معها [(١)].

العمل الدبلوماسي

تندرج قرارات المجلس الثوري ضمن العمل الدبلوماسي لمناهضة مشروع الملك، قام خلالها أبو عمار بجولة خارجية، زار فيها العراق والكويت والسعودية ومصر ويوغسلافيا [(٢)].

فقد توجه ياسر عرفات بالفعل لزيارة بغداد، حيث أجرى عدة لقاءات مع القيادة العراقية وقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق، ترتب على ذلك إبداء الحزب استعداده بإمداد الثورة الفلسطينية بالمساعدات المادية والمعنوية، وإقامة جبهة تقدمية، وتشكيل لجنة مشتركة [(٣)]. كما أيد أبو عمار الاقتراح الذي قدمه العراق بإقامة اتحاد فوري بين مصر وسوريا والعراق [(٤)]، وعقد أبو عمار لقاءً جماهيريًا في الجامعة المستنصرية ببغداد هاجم فيه مشروع الملك [(٥)].

كما اجتمع عضو من اللجنة المركزية لفتح بالسفير السوفياتي في بيروت، وسفير الصين في دمشق، ووضعهما في صورة الموقف من المشروع [(٦)]، وزار وفد من منظمة التحرير الكويت لتحديد المواقف المترتبة على المشروع [(٧)]، وأخبر أبو عمار وزير خارجية الكويت بأن المؤتمر الشعبي الفلسطيني الذي سينعقد في القاهرة في ٦ إبريل ١٩٧٢م سيتناول مشروعًا بديلًا لمشروع الملك حسين [(٨)].

---

(١) نشرة فتح اليومية، عدد ٢٣، في ١٧/٣/١٩٧٢، ص ٢.
(٢) المصدر نفسه، عدد ٢٨ في ٢٢/٣/١٩٧٢، ص ٣؛ عدد ٢٩، في ٢٣/٣/١٩٧٢، ص ٢.
(٣) المصدر نفسه، عدد ٢٦، في ٢٠/٣/١٩٧٢، ص ٢.
(٤) المصدر نفسه، عدد ٢٣، في ١٧/٣/١٩٧٢، ص ٢.
(٥) المصدر نفسه، عدد ٢٥، في ١٩/٣/١٩٧٢، ص ١-٢.
(٦) المصدر نفسه، عدد ٢٣، في ١٧/٣/١٩٧٢، ص ٢.
(٧) المصدر نفسه، عدد ٢٤، في ١٨/٣/١٩٧٢، ص ٢.
(٨) المصدر نفسه، عدد ٢٧ في ٢١/٣/١٩٧٢، ص ٤.

وسعت حركة فتح وقيادة منظمة التحرير للحصول على تأييد الدول الصديقة، فقد استنكرت الصين المشروع واعتبرته مؤامرة إمبريالية تهدف لشق الصف الفلسطيني [١]، وأعلنت الكويت واليمن الديمقراطي والحكومة التونسية رفضهم للمشروع [٢]، ودعا الرئيس السوداني جعفر النميري لعقد مؤتمر قمة عربي عربي لدراسة المشروع، الأمر الذي استنكرته فتح وطالبت السودان بعدم مقايضة موقف الملك حسين وتأييده لخطة النميري بمنح الحكم الذاتي لجنوب السودان [٣].
[٣].

وقام ياسر عرفات بزيارة ليوغسلافيا، من أجل إحاطتها بمخاطر المشروع، لكن البيان المشترك الصادر عن منظمة التحرير وحكومة يوغسلافيا لم يتطرق إلى مشروع الملك حسين [٤]، وهو ما يشير إلى فشل مسعاه.

المظاهرات:

خرجت عدة مظاهرات رافضة لمشروع الملك حسين، ففي بيروت خطب في الجماهير محمد النجار أبو يوسف عضو اللجنة المركزية لفتح ورئيس اللجنة السياسية العليا لشئون الفلسطينيين في لبنان حيث تعهّد بمواجهة المشروع [٥]، وقال: أن المشروع "عملية إجهاض لحركة الثورة الفلسطينية .. وضربة لتطلعات الشعب الفلسطيني الذي يرى أن استعادة كامل حقوقه لا تتم إلا من خلال عودته

---

(١) نشرة فتح اليومية ، عدد ٣١ في ١٩٧٢/٣/٢٥، ص ٤.
(٢) المصدر نفسه، عدد ٢٨ في ١٩٧٢/٣/٢٢، ص ٣؛ عدد ٣٠ في ١٩٧٢/٣/٢٤، ص ٤؛ عدد عدد ٣١ في ١٩٧٢/٣/٢٥، ص ٥.
(٣) المصدر نفسه، عدد ٣٣ في ١٩٧٢/٣/٢٧، ص ١.
(٤) المصدر نفسه، عدد ٣٧ في ١٩٧٢/٣/٣١، ص ٢-٣.
(٥) المصدر نفسه، عدد ٢٧، في ١٩٧٢/٣/٢١، ص ٢.

إلى أرضه، وإقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية"[١]. وخرجت مظاهرات أخرى في صيدا وصور والشياح، وفي سورية والمغرب وبنغازي والخرطوم[٢]، وفي نابلس والقدس [٣]. ومظاهرات نفّذها فرع الاتحاد العام لطلبة فلسطين في بيشاور في باكستان احتجاجًا ورفضًا للمشروع[٤].

التهديد:

لكن فتح لم تكتف بالرفض السلبي، بل شرعت في استخدام لغة التهديد لكل من يتعاون مع هذا المخطط، فخلال اجتماعه مع الملك فيصل في ٢١ مارس ١٩٧٢م في الرياض، أعلن أبو عمار عن رفض واستنكار الثورة الفلسطينية لمشروع الملك حسين، "وحذر أولئك الذين سيتعاونون مع مشروع الملك حسين بأنهم سيُقتلون"[٥].

ووزّعت فتح منشورات في مخيم الوحدات في عمّان ليلة ١٩ مارس ١٩٧٢م، هاجمت فيها مشروع الملك، وحذّرت من التعاون مع السلطات الأردنية[٦]، وكررت ذلك بتوزيع منشورات تحريضية في الجامعة الأردنية، ومخيم الحسين، ومخيم الوحدات، والشوارع الرئيسة من عمّان، وهددت بأن "الأيدي التي صرعت العميل وصفي التل [رئيس الوزراء الأردني الذي اغتالته فتح في القاهرة في عام ١٩٧١] ستمتد لتوجيه ضربتها القاضية للعميل حسين" [٧].

كما دعا عضو اللجنة المركزية لفتح فاروق القدومي أبو اللطف في ندوة

---

[١] بلال الحسن، "المقاومة الفلسطينية والرد على مشروع الملك حسين"، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

[٢] نشرة فتح اليومية، عدد ٢٥، في ١٩/٣/١٩٧٢، ص ٦، ٧.

[٣] المصدر نفسه، عدد ٢٦، في ٢٠/٣/١٩٧٢، ص ١.

[٤] المصدر نفسه، عدد ٦٥، في ٣٠/٤/١٩٧٢، ص ٥.

[٥] المصدر نفسه، عدد ٢٧ في ٢١/٣/١٩٧٢، ص ٤.

[٦] المصدر نفسه، عدد ٢٦، في ٢٠/٣/١٩٧٢، ص ٤.

[٧] المصدر نفسه، عدد ٣٥، في ٢٩/٣/١٩٧٢، ص ٣.

سياسية في دمشق إلى "استخدام أساليب العنف لتصفية كل عميل يتعاون مع الملك" [حسين] [١]. وأوضحت فتح أن "إسقاط العرش الهاشمي هو الهدف المرحلي الذي يلتقي عليه النضال الفلسطيني الأردني المشترك" [٢]، فكانت هذه المرة الأولى التي تتبنى فيها فتح علنًا موقفًا يطالب بإسقاط النظام الأردني منذ أحداث أيلول ١٩٧٠. [٣]

طرح البدائل:

وفي إطار البحث عن بدائل لإجهاض مشروع الملك، درس المجلس الثوري في اجتماع آخر اقتراحات من بينها إقامة حكومة ثورية مؤقتة [٤]، بينما طرح طرح عضو اللجنة المركزية لفتح وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير خالد الحسن "المساواة [بين الثورة الفلسطينية والنظام الحاكم في الأردن] على أساس حكم وطني ديمقراطي دستوري"[٥]. لكن فتح تنصلت مع أفكار خالد الحسن باعتبار "أن مواقف حركة فتح الرسمية يجري إعلانها عبر الناطق الرسمي وإذاعة فتح ونشرتها اليومية فقط"[٦]، ثم قدّمت إلى المؤتمر الشعبي –الذي عقد في القاهرة في ١٩٧٢/٤/٦– خطة عمل، قررت "دمج نضال الشعبين في جبهة وطنية أردنية – فلسطينية" وجعلت من أهدافها الاستراتيجية، "إقامة دولة ديمقراطية على أرض فلسطين والأردن" [٧]، وهو بالضبط ما أنكرته فتح على خالد الحسن وأعلنت تبرؤها منه، ومن الواضح أنه تهرب تكتيكي بهدف استيعاب الرفض الفلسطيني

---

[١] نشرة فتح اليومية ، عدد٢٨، ١٩٧٢/٣/٢٢، ص٣.

[٢] المصدر نفسه، عدد ٣٠ ١٩٧٢/٣/٢٤، ص ٣.

[٣] الحسن، "المقاومة الفلسطينية والرد على مشروع الملك حسين"، ص ٢٥٠.

[٤] نشرة فتح اليومية، عدد ٢٦، في ١٩٧٢/٣/٢٠، ص ٣.

[٥] الحسن، "المقاومة الفلسطينية والرد على مشروع الملك حسين"، ص ٢٥٠.

[٦] نشرة فتح اليومية، عدد ٣٠، ١٩٧٢/٣/٢٤، ص ٣؛ وعدد٣٤، ١٩٧٢/٣/٢٨، ص ٣. وكانت جريدة الأهرام القاهرية قد نشرت في عددها ٧٢/٣/٢٣ حديث خالد الحسن المشار إليه، أنظره في الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٢ وثيقة رقم (١٣٨) ص ١٥١.

[٧] ملحق نشرة فتح اليومية، عدد ٤٧، ١٩٧٢/٤/١٠، ص ٧.

العربي لمشروع الملك حسين بعدم الاقتراب منه.

العمل العسكري:

قامت قوات العاصفة بعدة عمليات مسلحة ضد النظام الملكي وقواته، لم تعلن إلا عن قسم منها لظروف تحفظت عليها [١]. ووُزعت في عمان بعض المنشورات بخط اليد، تعلن عن مجموعة عمليات ضد أركان النظام الحاكم في الأردن بتواريخ ٨، ١٠، ١٣/٤/١٩٧٢م [٢]. والعبرة هنا، بالإعلان عن هذه العمليات، وليس بحجم الخسائر التي ألحقتها بالنظام الأردني.

وقد نشطت العمليات العسكرية الخارجية لفتح خلال عام ١٩٧٢ من بعد إعلان مشروع الملك، فنفّذت ثماني عمليات نوعية، تلاها في عام ١٩٧٣ سبع عمليات نوعية [٣]، إحدى هذه العمليات استهدفت النظام الأردني بشكل مباشر بعد عام من مشروع الملك، فقد كلف صلاح خلف أبو إياد عضو اللجنة المركزية لفتح، محمد عودة (أبو داود)، ومعه عدد من الفدائيين في فبراير ١٩٧٣ للقيام بالسيطرة على مجلس الوزراء الأردني والسفارة الأمريكية في عمان، من أجل المطالبة بإطلاق سراح ألفي معتقل فلسطيني في السجون الأردنية. وتم كشف العملية، وحُكم على أبي داود بالإعدام الذي لم يُنفَّذ [٤].

كما لوحظ أن عدد العمليات العسكرية لفتح في عام ١٩٧٢ قد بلغ ٢٩٢ عملية، زاد في العام التالي إلى ٤٢٨ عملية [٥]، وهو ما يشير إلى رغبة فتح في إثبات قدرتها على الفعل، وهي رسالة أيضًا لكل الأطراف، ومنها أن الثورة الفلسطينية

---

(١) نشرة فتح اليومية، عدد ١٨، ١٣/٣/١٩٧٢م، ص ٢؛ عدد ٣٧، في ٣١/٣/١٩٧٢، ص ٣.
(٢) المصدر نفسه، عدد ٥٤، ١٧/٤/١٩٧٢م، ص٣.
(٣) عدوان، "فتح" ١٩٦٩-١٩٨٣، ص ٢٠٥-٦.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.
(٥) المرجع نفسه، ص ١٨٦.

التي تضرب العدو الصهيوني بيد من حديد لن تسمح بتمرير مشروع سياسي يتناغم مع رغبات الاحتلال وفق رؤية فتح، فضلًا عن الرغبة في الانتقام من نظام الملك الذي لم يكتفِ بإخراج منظمة التحرير من الأردن، بل وسعى لشطبها سياسيًا عبر مشروع المملكة العربية المتحدة.

رؤية فتح تجاه انتخابات البلديات في الضفة الغربية:

تابعت نشرة فتح اليومية باهتمام ما أسمته "مؤامرة" الانتخابات في الضفة الغربية، وهي انتخابات بلدية أشرف عليها الاحتلال الصهيوني، فقد رصدت تحركات الاتحادات الشعبية الفلسطينية، والتي تهيمن عليها حركة فتح، ومنها الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين الذي استنكر هذه الانتخابات واعتبر أن مَن يقف وراءها هو السلطات الصهيونية والأردنية، كما استنكرها الاتحاد العام لطلبة فلسطين ووصفها ب "المؤامرة" [1]، ووصفت فتح الموقف الجماهيري بأنه نضال لإحباط مؤامرة الانتخابات [2]. ولاحظت فتح الارتباط الوثيق بين انتخابات البلدية وبين مشروع المملكة المتحدة، ووجهت اتهامًا لأغنياء الضفة الغربية وأصحاب النفوذ المالي والمصالح التجارية بأنهم متعاونين مع كل سيِّد وحاكم بدءًا من الملك حسين وانتهاءً بجولدا مائير [3]، واعتبرت انسحاب عشرة من المرشحين لانتخابات البلدية في نابلس ضربةً قوية لمشروع حسين – آلون، وأن إسرائيل قد عجزت عن صنع ركائز لها في الضفة الغربية [4].

وقد لمست فتح العلاقة الوطيدة بين انتخابات البلدية التي دعا إليها الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية وبين مشروع الملك حسين، حيث للأردن رغبة خفية حقيقية بتشجيع انتخابات البلدية في الضفة الغربية ليتمكن بواسطة

---

(١) نشرة فتح اليومية، عدد ١ في ١٩٧٢/٢/٢٥، ص ٥؛ العدد ٣ في ١٩٧٢/٢/٢٧، ص ٧
(٢) المصدر نفسه، العدد ٦ في ١٩٧٢/٣/١، ص ٧.
(٣) المصدر نفسه، العدد ٣٥ في ١٩٧٢/٣/٢٩، ص ٢.
(٤) المصدر نفسه، العدد ٣٢ في ١٩٧٢/٣/٢٦، ص ١.

الفائزين الموالين له من تأييد المشروع الأردني [١]، وهو ما قرأته إسرائيل من مصلحة للملك في تلك الانتخابات[٢]، ويتيح الاحتلال للملك إنجاح مشروعه عبر دعمه في هذه الانتخابات، ولذلك هددت فتح بممارسة " العنف الثوري " ضد من يصر على المضي في مؤامرة الانتخابات، قائله: " وحتماً ستدفع بعض الرؤوس الخائنة ثمن خيانتها " [٣].

ومهما يكن من أمر، فإن فتح قد أعلنت رفضها لمشروع الملك حسين، واتخذت لرفضه جملة من الوسائل النظرية والعملية، ساهمت بدرجة ما في صرف الأنظار عن المشروع وإعاقته، علماً بأن المحرِّك الأساس في هذا الرفض هو العداء لشخص الملك حسين.

(١) الوثائق الفلسطينية العربية لعم ١٩٧٢، وثيقة رقم (١٢٣)، ص ١٣٦.
(٢) جريدة معاريف، العدد ٨٤٢٤ بتاريخ ٢٤/٣/١٩٧٢، ص ٩.
(٣) نشرة فتح اليومية، عدد ٢٧ في ٢١/٣/١٩٧٢، ص ١.

خاتمة:

تناول البحث موقف حركة فتح من مشروع المملكة العربية المتحدة الذي طرحه الملك حسين بن طلال في ١٤ مارس ١٩٧٢، وتوصل البحث إلى النتائج التالية:

١- كانت للملك حسين بن طلال توجهات سلمية نحو إسرائيل من بعد حرب عام ١٩٦٧، حال دون مضيِّه فيها، المدّ الثوري الذ قادته فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية انطلاقًا من الأردن، وبعد تخلص الملك من الثورة الفلسطينية شرع في تنفيذ توجهاته السلمية.

٢- أجرى الملك حسين اتصالات عديدة بالقادة الإسرائيليين خلال السنوات الأربع التي سبقت إعلان مشروع المملكة العربية المتحدة، الأمر الذي يؤشِّر لوجود تفاهمات قادت لإطلاق مشروعه دون أي اعتراض من القيادة الإسرائيلية.

٣- حملت حركة فتح والفصائل الفلسطينية الضغائن تجاه الملك حسين جراء صدامه مع الثورة الفلسطينية وإخراجه لها من الأردن، فأطلقت العنان لخطوات انتقامية جعلتها في ظروف موضوعية غير متفهمة لمشروعه القاضي بوحدة بين الضفتين، وكان تقييمها أن الملك يريد الإجهاز على منظمة التحرير سياسيًا بعد أن أنهى وجودها عسكريًا داخل الأردن، وذلك بسحب تمثيلها للفلسطينيين، ولذلك اعتبرت مشروعه مؤامرة للإجهاز على القضية الفلسطينية.

٤- خرجت دعوات من بعض القوى الشعبية الأردنية المناوئة للملك، ومن خالد الحسن عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، تنادي بوحدة الشعبين، لم تهاجمها فتح، الأمر الذي يشير إلى أن رفض المشروع نابع من رفضها للملك وليس لمضمونه.

٥- اتخذ رفض فتح لمشروع المملكة العربية المتحدة أشكالًا متعددة، منها النظري كالبيانات والندوات، ومنها ما هو عملي كالعمل الدبلوماسي، والتظاهرات، والتهديد، وطرح المشاريع البديلة، والعمل المسلح، سواء ضد القوات الأردنية، أو ضد إسرائيل.

٦- توقفت دعوات الملك لمشروعه، ولم يتخذ خطوات تنفيذية مما كان يلوِّح به عند إطلاق مشروعه، الأمر الذي يعني أن رد الفعل الفلسطيني والذي قادته حركة فتح قد أثنى الملك عن المضي في مشروعه، وأوجد ظروفًا شعبية وإقليمية رافضة له، وانتهى الأمر باعتراف الملك بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلًا شرعيًا ووحيدًا للفلسطينيين في مؤتمر القمة العربي الثامن في الرباط في عام ١٩٧٤م.

***

المصادر والمراجع

- حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح"، نشرة فتح اليومية، الأعداد ١ - ٩٩ للفترة ٢/٢٥ - ١٩٧٢/٦/٣م.
- : الجلسات الحركية (نشرات داخلية): (د.م.: فتح مكتب الشؤون الفكرية والدراسات، ١٩٦٧). الجلسة السابعة: لماذا أنا فتح-البرنامج الثاني: الطلائع الثورية.
- الحسن، بلال: "المقاومة الفلسطينية والرد على مشروع الملك حسين"، شئون فلسطينية، عدد٩، مايو ١٩٧٢.
- عدوان، عصام: حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" ١٩٦٩-١٩٨٣، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠١٠م
- عدوان، عصام: فلسطين في خطابات الملك حسين بن طلال ١٩٦٤-١٩٦٧، مجلة التاريخية الفلسطينية، العدد الرابع، أغسطس ٢٠١٥م، غزة – فلسطين.
- الهور والموسى، منير وطارق: مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧- ١٩٨٥، (عمان: دار الجليل للنشر ط٢ ١٩٨٦).
- هيكل، محمد حسنين: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل-سلام الأوهام، (القاهرة: دار الشروق، ط٦، يناير ٢٠٠٠).
- الوثائق الأردنية لعام ١٩٦٧: (عمان: دائرة المطبوعات والنشر –وزارة الثقافة والإعداد، ١٩٧٣).
- الوثائق الأردنية لعام ١٩٧٢، (عمان: دائرة المطبوعات والنشر، تشرين أول ١٩٨٤).
- الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٦، جمع وتحرير د. منذر فائق عنبتاوي، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٧).
- الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٦٧، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الخرطوم: جامعة الخرطوم، ١٩٦٨).
- الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٢، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية والجامعة اللبنانية، ١٩٧٣).
- יוסי מלמן: שתפות עוינ ת הקשרים הסוד"ס בין ישראל לירדן (ידיעות אחרונות, תל אביב, ישראל, 1987). وترجمته إلى العربية: يوسي ميلمان: الشراكة العدائية – العلاقات السرية بين إسرائيل والأردن، (تل أبيب: يديعوت أحرونوت، ١٩٨٧م).
- جريدة معاريف (מעריב)، العدد ٨٤٢٤ بتاريخ ١٩٧٢/٣/٢٤.

https://www.nli.org.il/ar/newspapers/mar/1972/03/24/01/article/5/?e=-------ar-20--1--img-txIN%7ctxTI----------1

المجلة التاريخية المصرية ٥٦ (٢٠٢٢) ٥٠٧ - ٥٢٦

بَيْنَ صَلاحِ الدِّينِ وَجَمالِ عَبْدِ النَّاصِرِ: أَزْمَةُ الكِتابَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الخَمْسِينِيَّاتِ والسِّتِّينِيَّاتِ

حسن حافظ(*)

ملخص

تدور فكرة البحث حول تأثير مد القومية العربية في ظل تبني نظام جمال عبد الناصر لها كجزء من مشروعه السياسي على الكتابة التاريخية في مصر في فترة الخمسينيات والسيتينات. ونطرح أسئلة حول مدى التأثير الحاصل على عدد من المؤرخين المصريين في تناولهم لشخصية صلاح الدين الأيوبي، الذي نظر إليه في أدبيات القومية العربية باعتباره البطل العروبي الأول، والذي جاء عبد الناصر ليستكمل مشروعه في العصر الحديث.

Abstract

The idea of research revolves around the impact of the extension of Arab nationalism as the Jamal Abdel Nasser regime adopts it as part of its political project on the historical writing in Egypt in the 1950s and 1950s. We ask questions about the extent to which a number of Egyptian historians have influenced their approach to the character of Salah al-Din al-Ayoubi, who was

(*) باحث دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة القاهرة.

viewed in the literature of Arab nationalism as the first Arab hero, and who Abdel nasser came to complement his project in the modern era.

أثناء زيارة الزعيم جمال عبد الناصر إلى دمشق، مارس ١٩٥٨، بعد إتمام الوحدة بين مصر وسورية (فبراير ١٩٥٨)، كان لافتا زيارته بصحبة الرئيس السوري شكري القوتلي لقبر السلطان الأيوبي الناصر صلاح الدين الأيوبي (حكم ٥٦٩-٥٨٩هـ/ ١١٧٤-١١٩٣م)، وتستطيع سماع صوت المذيع الشهير أحمد سعيد، وهو يقول -خلال قراءة عبد الناصر ومن معه الفاتحة أمام قبر السلطان الأيوبي: "وقف الجميع لحظات أمام مثوى البطل، يذكرون جهاد رجل آمن بأمته فقاد العرب إلى المجد، وفي تلك اللحظات الخاشعة قال الرئيس القوتلي: يا سيادة الرئيس باسم هذا الشعب أجدد لك البيعة"(١).

بهذا المشهد الذي استعيدت فيه رمزية صلاح الدين الأيوبي الذي قاد وحدة مصر وبلاد الشام، وحقق الانتصار على الصليبيين وحرر بيت المقدس، يمكن لنا فهم كيف جاء الحديث عن هذا السلطان الأيوبي في نهاية الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، عندما وصل المد القومي العروبي إلى ذروته في مصر عبد الناصر، وتم تنصيب عبد الناصر كخليفة لصلاح الدين -الذي تم التغاضي عن كونه كرديًا- في قيادة الأمة العربية. نفترض أن استدعاء صلاح الدين الأيوبي في فترة الخمسينيات والستينيات لم يكن بريئًا بل كان الهدف منه هو الاستخدام الأيديولوجي نصرة لصورة عبد الناصر كبطل القومية العربية الجديد، فقد ظهرت الكثير من الأعمال التاريخية التي حاولت توظيف الشخصية التاريخية من أجل خلق صورة ذهنية بطولية لعبد الناصر كوريث جديد أو تجلي واقعي لبطولات الناصر الأيوبي، وهو ما ظهر بوضوح في فيلم "الناصر صلاح الدين" من إخراج يوسف شاهين العام ١٩٦٣.

---

(١) مقطع فيديو على موقع "يوتيوب" بعنوان "زيارة جمال عبد الناصر لقبر صلاح الدين الأيوبي بدمشق"؛ https://www.youtube.com/watch?v=sP10kYwFX6Q

تبنى نظام عبد الناصر فكر القومية العربية ودعا إلى الوحدة العربية، حتى أنه تم تغيير مسمى الجمهورية المصرية إلى الجمهورية العربية المتحدة، إثر الوحدة مع سورية في فبراير ١٩٥٨، ولم تستعيد المسمى القديم إلا في العام ١٩٧١م[١]. وتجلى الاهتمام بالفكر العروبي في "الميثاق" الذي قدمه جمال عبد الناصر إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية في ٢١ مايو ١٩٦٢، وتضمن صياغة الخطوط العريضة لفلسفة الحكم للنظام المصري، ومن ضمنها الوحدة العربية، إذ يقول الميثاق: "إن مسؤولية الجمهورية العربية المتحدة في صنع التقدم، وفي دعمه وحمايته تمتد لتشمل الأمة العربية كلها. إن الأمة العربية لم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها... يكفي أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل. ويكفي أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان"[٢].

الحديث عن "وحدة التاريخ" في "الميثاق" عكست رغبة في التأصيل التاريخي للمشروع القومي العروبي في مواجهة أي مشروع آخر خصوصًا المشروع الوطني للدولة القطرية، والمشروع الإسلاموي لجماعة "الإخوان" ومن لف لفها، فوقع الاختيار على السلطان الأيوبي صلاح الدين يوسف بن أيوب، باعتباره النموذج الذي يمكن عليه إسناد الأصول التاريخية لخلق فكرة "الأمة العربية"، باعتبارها صورة متخيلة[٣]. فصلاح الدين بالتغاضي عن أصله الكردي استطاع

---

(١) انظر عن مناقشة الوحدة المصرية السورية ومقدماتها وظروف تشكلها، كتاب "أربعون عامًا على الوحدة المصرية السورية"؛ وهو كتاب جماعي صادر عن مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية؛ القاهرة (١٩٩٩م).

(٢) جمال عبد الناصر: "الميثاق"؛ قدمه إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية في مصر ٢١ مايو ١٩٦٢؛ وفي الأغلب صاغ الصحافي محمد حسنين هيكل "الميثاق" الذي يحمل الأفكار الرئيسية لعبد الناصر.

(٣) انظر عن مفهوم القوميات والهويات المتخيلة الدراسة العميقة لبندكت أندرسن: "الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها"؛ ترجمة ثائر ديب؛ الدوحة- المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (٢٠١٤).

الانقلاب على "النظام البائد" ممثلا في الخلافة الفاطمية، وأعاد توحيد مصر والشام ليحقق الانتصار على الصليبيين ويحرر القدس، وهنا يمكن مقارنة ما فعله صلاح الدين باعتباره النموذج، بما هو مأمول من جمال عبد الناصر الذي يسير على خطى البطل الأيوبي، فعبد الناصر هو فارس العروبة الحديثة، والرجل الساعي لإنجاز الوحدة بين مصر والشام (سورية)، وهو أيضا المحارب الأول للصهيونية (وريثة الحركة الصليبية في مضمونها)، والذي تبشر الأيام بأنه سيحقق النصر ويحرر القدس. هذه الحمولة الأيديولوجية نرى أنها انعكست بوضوح في العديد من الأعمال التاريخية التي سعت لاستدعاء صلاح الدين الأيوبي، والكتابة عنه في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، من أجل ترويج نموذج البطل العروبي الذي يمثله عبد الناصر، باعتبار الأخير إعادة إحياء لتراث صلاح الدين بطل العروبة القديم.

وجاء فيلم "الناصر صلاح الدين" إخراج يوسف شاهين، كتوظيف للتاريخي لخدمة السياسي المعاصر، فقد ظهر صلاح الدين في الفيلم الملحمي بطلًا للقومية الاشتراكية العربية[1]، ما عبر عنه ماك خوري قائلًا: "السياق الذي أنتج وعرض فيه الفيلم عزز صيغته باعتباره فيلمًا سياسيًا صريحًا، وأنشد الجمهور العربي المتحمس بصوت عال: ناصر!، وهو يتعرف على الربط بين معارك القرن الثاني عشر، وكفاح عبد الناصر لتوحيد الشعب العربي وتحرير فلسطين، والحق أنه كان من المستحيل تقريبا بالنسبة لجمهور عام ١٩٦٣، ألا يرى الرابطة بين قصة الفيلم والصراع العربي الإسرائيلي"[2]. ومن أجل توصيل رسالته لا يلتزم شاهين بالوقائع التاريخية بقدر قدرة الظرف التاريخي على توصيل الرسالة التي تفيد الحاضر الذي

---

(١) عبد الرحمن عزام: "صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني"؛ ترجمة قاسم عبده قاسم؛ الدوحة- مؤسسة قطر للنشر؛ ط٢ (٢٠١٣)؛ ص ١٦.

(٢) ماك خوري: "المشروع القومي العربي في سينما يوسف شاهين"؛ ترجمة حسين بيومي؛ القاهرة- المركز القومي للترجمة (٢٠١٣)؛ ص ١١٢.

صاحب ظهور الفيلم، في إطار التزامه بالقومية العربية، لذا هدف شاهين من استدعاء تاريخ صلاح الدين "تأكيد قوة المقاومة القومية الجماعية المعادية للاستعمار في الثقافة الشعبية العربية"[1].

انعكست هذه الأجواء الصاخبة سياسيا بوضوح على الكتابات التاريخية التي ظهرت في مصر خلال الخمسينيات والستينيات، والتي نرى أنها تشبعت بالفكر القومي العروبي، في أعمال من نوعية: "الناصر صلاح الدين" لسعيد عبد الفتاح عاشور ١٩٦٥، و"البطل الخالد صلاح الدين والدولة الأيوبية" لفتحي الأبياري ١٩٦٢، كذلك قدم محمد صبيح في كتابه "مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية" والصادر في ١٩٦٣، رؤية صريحة تربط صلاح الدين في صف القومية العربية، كما حقق جمال الدين الشيال كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" لبهاء الدين ابن شداد (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م)، والذي صدر العام ١٩٦٤[2]، وهي سيرة كاملة لصلاح الدين على يد أحد معاصريه، غير العديد من الأبحاث المنشورة في هذه الفترة عن صلاح الدين.

وهنا يطرح السؤال نفسه، هل كان الاهتمام بالكتابة عن صلاح الدين يقتصر على الاهتمام البحثي أم أنه يعكس محاولة استخدام التاريخ لتثبيت زعامة عبد الناصر السياسية في العالم العربي؟ هل هناك شبهة استخدام سياسي للمعرفة التاريخية ما أدى بتلك الأعمال إلى محاولة رسم شخصية صلاح الدين في قالب يتناسب مع شخص عبد الناصر؟ هل تمت محاولة أسطرة لصلاح الدين الكردي كبطل عربي لكي يمكن إعادة استخدامه في إطار التأصيل للقومية العربية والزج به في أتون الصراع العربي الإسرائيلي؟ إن قراءة دقيقة لتلك الأعمال ومحاولة الكشف عن خطابها المستتر وراء استدعاء شخصية صلاح الدين الأيوبي هو الكفيل بالرد

---

(١) نفس المرجع؛ ص ١١٢.

(٢) بهاء الدين بن شداد: "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"؛ تحقيق جمال الدين الشيال؛ القاهرة- وزارة الثقافة والإرشاد (١٩٦٤)؛ ويعترف الشيال أن تحقيق الكتاب جاء بطلب من لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في إطار مناقشة بعض المقترحات المقدمة "لإحياء ذكرى البطل صلاح الدين يوسف بن أيوب"، مقدمة التحقيق ص ١٠.

على تلك الأسئلة سواء بالنفي أو الإيجاب.

ويرى الدكتور محمد مؤنس عوض بعد حصره للكتابات التاريخية عن صلاح الدين في القرن العشرين، أن التأليف عن صلاح الدين الأيوبي ينشط مع الثورات الوطنية ضد الاستعمار الأوروبي، وكذلك مع ظهور حركات للوحدة السياسية بين بعض الدول العربية، وكذلك في أعقاب الهزائم العسكرية التي أصيب بها العرب في صراعهم مع إسرائيل، والمعنى أن شخصية صلاح الدين الكاريزماتية تبعث دومًا الأمل والثقة في النفس لدى الشعوب العربية والإسلامية في رغبتها القوية للتخلص من الاستعمار الغربي والتوجه نحو الوحدة(١).

لكن الأهم أن هذه الجاذبية لشخصية صلاح الدين على المستوى الشعبي باعتباره رمزًا للجهاد ضد الصليبيين والغرب، جعلت عملية الاستدعاء التاريخي له من قبل الأنظمة السياسية في العالم العربي خلال القرن العشرين عملية مثمرة، عبر إعادة التوظيف التاريخي له من أجل استخدامه في تلميع الزعيم السياسي، سواء كان وريثًا حقيقيًا لصلاح الدين، أو مجرد ظاهرة صوتية تختفي خلف الدعاية السياسية بلا أي مضمون تحرري على مستوى الممارسة ضد العدو الجديد الممثل في الكيان الصهيوني المحتل للأراضي العربية في فلسطين(٢).

بداية علينا الاعتراف أن إرهاصات الكتابة عن صلاح الدين واستخدامه أيديولوجيًا سبقت فترة الجمهورية المصرية، فمحمد فريد أبو حديد ألف كتابه "صلاح الدين الأيوبي وعصره"، العام ١٩٢٧، ويقول عن سبب تأليفه للكتاب

(١) "الحروب الصليبية دراسات تاريخية وببيلوغرافية"؛ القاهرة- دار الآفاق العربية (٢٠١٣)؛ ص ٢٢٠-٢٢١.

(٢) استحدث النظام البعثي في العراق محافظة صلاح الدين سنة ١٩٧٦، والتي تضم مدينة تكريت التي ولد فيها السلطان الأيوبي، كما ولد فيها صدام حسين، والذي رأى في نفسه صلاح الدين الجديد. كذلك نجد نظام حافظ الأسد البعثي في سورية يستدعي صورة صلاح الدين، باعتبار الأسد هو البطل الجديد وخليفة صلاح الدين، وهو ما تذهب إليه ليزا وادين في كتابها "السيطرة الغامضة.. السياسة؛ الخطاب؛ والرموز في سورية المعاصرة"؛ ترجمة نجيب الغضبان؛ بيروت- دار رياض الريس للنشر (٢٠١٠م).

والحديث عن صلاح الدين الأيوبي تحديدًا، "لأنه مؤسس دولة مصرية عظيمة يمكننا أن نعدها أولى الدول المصرية العظمى التي لا شبهة في مصريتها. فإن الدول التي سبقتها لم تكن دولًا مصرية بحتة، وذلك أن دولة الطولونيين والإخشيديين لم تكن دولة بالمعنى الصحيح، بل كانت محاولات أولية، ولم تكن الدولة الفاطمية بمصر دولة وطنية بالمعنى التام، إذ جاء الفاطميون فاتحين بعد أن تأسست دولتهم في شمال إفريقيا، وحتى بعد أن أصبحت مصر مركزًا لدولتهم كان المذهب الشيعي حائلًا بينها وبين المصريين من أن يندمج بعضهم في بعض كل الاندماج ويكونوا حكومة وطنية صحيحة، فكانت دولة صلاح الدين بمصر أول الدول الوطنية العظمى التي جعلت لمصر مكانها العالي بين دول العالم في القرون الوسطى"(١).

أبو حديد هنا يستخدم دولة صلاح الدين والأيوبيين في سياق الدولة الوطنية المصرية في إطار المد الوطني المصري الذي خلفته ثورة ١٩١٩ في النفوس وشكلت الهوية المصرية، واستخدامه ربما في شحذ الهمم لمقاومة الاحتلال البريطاني من مصر، لذا لم يكن غريبًا أن يرى أبو حديد في صلاح الدين بطلًا مصريًا، فيقول: "وإذا كان لرأي الشعب في تلك العصور قيمة فقد أدرك الشعب المصري أن فوقه رجلا ولا كالرجال بل هو القائد الفذ والمصلح الذي لم يعهد مثله"(٢).

استخدام صلاح الدين في إطار القومية المصرية في الحقبة الليبرالية سرعان ما انقلب إلى استخدام لدعم فكرة القومية العربية، فلدينا العديد من الكتب والرسائل التي أنجزت في فترة جمال عبد الناصر (١٩٥٤-١٩٧٠)، ويلاحظ

(١) محمد فريد أبو حديد: "صلاح الدين الأيوبي"؛ القاهرة- لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ ١٩٢٧؛ مقدمة المؤلف. اللافت أنه عن إعادة طبع الكتاب مرة أخرى في عصر عبد الناصر، وتحديدًا في سنة ١٩٥٨، صدر بعنوان واضح المغزى وهو "صلاح الدين الأيوبي البطل الذي انتصر على الغرب".

(٢) المرجع نفسه؛ ص٩٠.

فيها المزج بين التأريخ وعملية الدعاية الأيديولوجية للقومية العربية، والربط بين مصير صلاح الدين الأيوبي البطل المنتصر على الصليبيين، وجمال عبد الناصر زعيم العروبة في العصر الحديث، والتبشير بانتصاره باعتباره وريث البطل الأيوبي. نذكر من هذه الدراسات: "جيش مصر في أيام صلاح الدين" لنظير حسان سعداوي(١)، و"مصر في عصر الأيوبيين" للسيد الباز العريني(٢)، و"صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه" لأحمد أحمد بدوي(٣)، و"صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية زمن الصليبيين" لفوزي بخيت حسين(٤)، و"الناصر صلاح الدين الأيوبي" لمحمد سامي الدهان(٥)، و"البطل الخالد صلاح الدين الأيوبي والدولة الأيوبية" لإبراهيم الأبياري(٦)، و"الناصر صلاح الدين" لسعيد عبد الفتاح عاشور(٧)، و"الناصر صلاح الدين وتحرير القدس" لإبراهيم علي طرخان(٨). وهذه هي أهم المؤلفات التي صدرت عن صلاح الدين في فترة نهاية الخمسينيات وعقد الستينيات، والتي شهدت ازدهارًا واضحًا للكتابة عن

(١) نظير حسان سعداوي: "جيش مصر في أيام صلاح الدين"؛ القاهرة- مكتبة النهضة المصرية؛ ١٩٥٦. وهو في الأصل رسالة أكاديمية.

(٢) السيد الباز العريني: "مصر في عصر الأيوبيين"؛ القاهرة- وزارة التربية والتعليم (سلسلة الألف كتاب ١٦٩) ١٩٦٠.

(٣) أحمد أحمد البدوي: "صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه"؛ القاهرة- وزارة الثقافة والإرشاد القومي (المكتبة الثقافية ٢٣)؛ ١٩٦٠.

(٤) فوزي بخيت حسين: "صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية زمن الصليبيين"؛ الإسكندرية- دار الدعوة؛ ١٩٦٠. وهو في الأصل رسالة أكاديمية.

(٥) محمد سامي الدهان: "الناصر صلاح الدين الأيوبي"؛ القاهرة- دار المعارف ١٩٦٠.

(٦) إبراهيم الأبياري: "البطل الخالد صلاح الدين والدولة الأيوبية"؛ القاهرة- دار النهضة العربية (١٩٦٢).

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور: "الناصر صلاح الدين"؛ القاهرة- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر (١٩٦٥).

(٨) إبراهيم علي طرخان: "الناصر صلاح الدين وتحرير القدس"؛ القاهرة- وزارة الثقافة (المكتبة الثقافية ١٨٩)؛ ١٩٦٨.

صلاح الدين؛ إذ يقول الدكتور محمد مؤنس عوض إن الكتابة التاريخية عن صلاح الدين ازدهرت "خلال مرحلة الوحدة المصرية- السورية الرائدة والقصيرة بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦١، وذلك من خلال حركة المد القومي العربي، وإعجاب الرئيس الخالد/ جمال عبد الناصر شخصيًا بصلاح الدين الأيوبي، خاصة أنه درس معاركه في مادة التاريخ الحربي بالكلية الحربية بالقاهرة"(١).

بل أن عباس محمود العقاد شارك في هذه الأجواء بكتابة مقالة عن "صلاح الدين"(٢)، ويرجح المؤرخ محمد مؤنس أحمد عوض، سبب كتابة العقاد لهذه المقالة إلى المد القومي مع الوحدة بين مصر وسورية، قائلا: "من المحتمل في هذا الصدد، أن ملابسات الوحدة بين مصر وسورية وما صاحب ذلك من مد قومي كاسح، خاصة بعد ١٠ أعوام من قيام الكيان الصهيوني في فلسطين؛ قد شجع العقاد على الكتابة عن ذلك القائد البارز في عصر الحروب الصليبية"(٣). ويبدو هذا واضحا من كلام العقاد نفسه الذي يقول في ختام مقالته: "صلاح الدين أحرى بالذكرى في هذه الأيام، صلاح الدين بطل الإسلام حائط الشرق، حامي فلسطين. ما أحرانا أن نذكره في هذا الزمن، بل في هذه السنة [أي سنة الوحدة بين مصر وسورية]، كلما ذكرنا مكيدة الكائدين للإسلام وخديعة الطامعين في الشرق، وجريمة الواغلين على فلسطين. وما أحرانا أن نستعد لهم اليوم كما استعد لهم بالأمس"(٤).

كانت هذه هي الروح القومية العروبية المحركة للكتابة التاريخية في

---

(١) محمد مؤنس عوض: "الحروب الصليبية دراسات تاريخية وبيبلوغرافية"؛ ص٢١٩.

(٢) عباس محمود العقاد: "صلاح الدين"؛ الكويت- مجلة العربي، العدد الأول، ديسمبر ١٩٥٨، ص ٥٨.

(٣) محمد مؤنس عوض: "رؤية عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤م) لصلاح الدين الأيوبي (١١٣٨-١١٩٣م)"؛ جامعة عين شمس- مجلة بحوث الشرق الأوسط (العدد ٦١)؛ ٢٠٢١؛ ص ١١.

(٤) عباس العقاد: "صلاح الدين"؛ ص ٥٩.

الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وهو ما يتجلى بوضوح في تحليل يوسف الشويري في كتابه "علم التاريخ العربي الحديث.. الخطاب التاريخي والدولة والأمة"[١]، للتحولات في خطاب المؤرخ المصري الرائد شفيق غربال (١٨٩٤-١٩٦١)، الذي عاش في فترة الاحتلال البريطاني لمصر والملكية وثورة ١٩١٩، ثم عاش في عصر الجمهورية وصعود شعبية جمال عبد الناصر، وهي فترة مليئة بالتحولات السياسية والفكرية التي أثرت في فكر شفيق غربال كما يرصد الشويري، والذي أثبت أن التحولات في خطاب شفيق غربال عن فترة حكم محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨م)، تماشت مع المتغيرات السياسية قبل يوليو ١٩٥٢ وبعدها، إذ غير رؤيته السابقة حول أهداف محمد علي باشا، لتتماشى مع صعود القومية العربية ليؤكد ذلك في كتابه "منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم" والصادر عام ١٩٦١، إذ اعتبر أن هدف الباشا هو استقلال مصر وتوحيد معظم العالم العربي، وقد اكتسب غربال هذه الرؤية على وقع أزمة السويس عام ١٩٥٦ وصعود عبد الناصر، هكذا استقرت هوية مصر "أو هذا ما بدا للمؤرخ في آخر مرحلة من مسيرته"[٢].

كما نجد هذه الروح واضحة في كتاب محمد قنديل البقلي "وحدة العادات والتقاليد بين مصر والشام"[٣]، فالكتاب يخرج من رحم أفكار الوحدة العربية، بما في ذلك الوحدة بين مصر وسورية، بل أن البقلي يعترف صراحة بأنه ينهل من خطاب الرئيس المصري كدافع لتأليف الكتاب والتأصيل التاريخي على مستوى الفولكلور، إذ يرى أن الوحدة العربية ليست وليدة اللحظة "بل هي كما عبر السيد الرئيس جمال عبد الناصر أن الوحدة العربية هي وحدة طبيعية لا يستطيع أن

(١) يوسف الشويري: "علم التاريخ العربي.. الخطاب التاريخي والدولة والأمة"؛ ترجمة فكتور سحاب؛ بيروت- مركز دراسات الوحدة العربية؛ ٢٠١٩.

(٢) المرجع نفسه؛ ص ١٤٤.

(٣) محمد قنديل البقلي: "وحدة العادات والتقاليد بين مصر والشام"؛ القاهرة- مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٦٣).

ينقضها مخلوق، وأنها منذ عهد بعيد"(١). هكذا تحول عبد الناصر وصلاح الدين إلى جزء من حركة تاريخية حتمية ستتحقق لا محالة، وهي مسؤولية عبد الناصر باعتباره التجسيد الحي لهذه الرؤية الحتمية في الخمسينيات والستينيات.

يعبر الدكتور نظير حسان سعداوي عن النزعة العروبية بشكل واضح وصريح في كتابه "جيش مصر في أيام صلاح الدين"، وهو في الأصل أطروحة علمية نوقشت بجامعة القاهرة في الخمسينيات، فيبدو أن هزيمة جيوش العرب في نكبة ١٩٤٨، دفعت سعداوي إلى التأكيد على أن قوة الجيوش العربية هي السبيل الوحيد للانتصار على العدو الصهيوني، وهو في تصديره لكتابه لا يجعل هناك مجالًا للقارئ ليستشف رسالته بل يصرح بها واضحة صريحة، إذ يقول بعد أن يستعرض أسباب فشل الدول العربية في حرب النكبة إن "الثورة المصرية المباركة في فجر الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢... برهنت على سعة الإمكانيات المصرية... كما برهنت الحوادث نفسها للثورة المصرية، أن الأوضاع السياسية والحربية والاجتماعية في دول الشرق الأوسط كله، لا تستطيع أن تستقر إلا بإجلاء ذلك الوليد الغريب عن أرض فلسطين. لذلك سعت مصر إلى نشر الوعي القومي العربي بين المصريين، فمن جيوش تدرب، ومصانع حربية تقام هنا وهناك، ومدارس عسكرية تنشأ، وفتيان وفتيات يجرى تدريبهم على فنون الدفاع العسكري... ومحالفات بين مصر وشقيقاتها العربية النابضة بالروح الجديدة..."(٢).

ويكشف سعداوي عن استخدام التاريخ في خدمة الحاضر، إذ يرى أن "التاريخ خير ما تهتدي به الشعوب الناهضة"، لذا يقارن بين لحظة صلاح الدين الصليبيين ولحظة عبد الناصر والصهيونية وإن كان لا يصرح باسم الرئيس

---

(١) محمد قنديل البقلي: "وحدة العادات والتقاليد بين مصر والشام"؛ القاهرة- مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٦٣)؛ ص ٧.

(٢) نظير سعداوي: "جيش مصر"؛ تصدير المؤلف.

المصري، لكن السياق واضح في المقارنة الضمنية بين مشروع صلاح الدين الذي كان نقطة تحول في تاريخ مصر، "إذ آمن صلاح الدين بالجبهة الإسلامية، كما آمن بالقوة، والقوة لا تكون إلا في أرض مصر وتحت سمائها"(١).

تبدو روح اللحظة مسيطرة على أحمد أحمد بدوي وهو يكتب قائلا: "وليس بعجيب أن يعقد الناس آمالهم على من يحكم مصر، أن يفتح بيت المقدس، ويسترد السواحل؛ فإن عنده من الإمكانيات ما يمهد له السبيل إلى تحقيق هذه الآمال"(٢). بل الحديث عن أعداء "الوحدة" التي يقودها صلاح الدين يحيل إلى صراع جمال عبد الناصر لتوحيد الأمة في مواجهة قوى الرجعية، نرى أحمد بدوي متأثرا بوضوح بروح عصره عند صياغة الفقرة الخاصة بأعداء الوحدة "أولئك الذين لا هم لهم إلا الاحتفاظ بالسلطان ومظاهر الإمارة وحياة الترف التي يعيشون فيها، ولا يعنون أنفسهم مشقة الجهاد، بل لا يرضون أن يقفوا موقفا سلبيا فحسب، فظاهروا أعداء الإسلام وأعانوهم"(٣). فهل هذه الفقرة تنطبق على تاريخ صلاح الدين أم أن أحداث عصر عبد الناصر هي من أملت صياغتها بهذه الطريقة التي يمكن ببساطة استبدال اسم عبد الناصر باسم صلاح الدين، ولن يشعر القارئ بأي اختلال.

أما الدكتور إبراهيم علي طرخان فهو يهدي عمله "الناصر صلاح الدين وتحرير القدس" إلى "قائد العروبة البطل المظفر المخلص الرئيس جمال عبد الناصر.. إلى الأمة العربية"(٤)، وهو في كتابه يتحدث عن مشروع صلاح الدين لتحرير بيت المقدس، ويبدو الأمر اللافت هنا هو أن الكتيب الصغير صدر بعد عدة أشهر من هزيمة يونيو ١٩٦٧، فكأن طرخان يطرح برنامج عمل عبر

---

(١) نظير سعداوي: "جيش مصر"؛ تصدير المؤلف.

(٢) أحمد أحمد بدوي: "صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه"؛ ص ٨٣.

(٣) المرجع نفسه؛ ص ١٥٧.

(٤) إبراهيم علي طرخان: "الناصر صلاح الدين"؛ ص ٥

استخدام سيرة صلاح الدين الأيوبي، من أجل تكوين الوحدة العربية مفتاح النصر واستعادة القدس المحتلة مجددًا، وهو يقيم مضاهاة بين عصري صلاح الدين وجمال عبد الناصر، ليجعل القارئ يصل إلى قناعة بأن التاريخ يعيد نفسه وكما جرت الأحداث التاريخية لكتابة الانتصار على يد صلاح الدين فإن الوضع سيتكرر مع عبد الناصر لا محالة.

وفي نص طويل يعقد طرخان مقارنة بين العصرين تحت عنوان "ما أقرب اليوم إلى الأمس" قائلًا[١]: "في عام ١٠٩٩م أشبع الغرب مطامعه الاستعمارية تحت ستار الدين باسم الحروب الصليبية أو الحرب المقدسة، واستولى على نفس البقعة التي قامت بها إسرائيل... وفي عام ١٩٤٨ وما يليه، طرد الإسرائيليون العرب من فلسطين وانتزعوا أملاكهم وانتهكوا حرماتهم وشردوهم في شتى البلاد العربية"، ثم يقارن بين وصول صلاح الدين إلى سدة الحكم في مصر بإسقاط الخلافة الفاطمية وبداية مشروعه لطرد المستعمر الصليبي من الشرق الأوسط "وإعادة البلاد إلى أصحابها العرب، وبدأ في بناء القوة والقضاء على أذناب العهد البائد"، وبين قيام "الثورة المصرية العربية" ١٩٥٢، والتي قوضت "أركان العهد البائد وأذنابه، وأعوانه في الداخل والخارج... ثم بدأت تخطط للهدف الأقصى الذي يهم العروبة كلها، وهو استعادة فلسطين"، وإذا كانت سنة ١١٧٦ هي السنة التي تمت فيها الوحدة بين القاهرة ودمشق تحت راية صلاح الدين، فقد تمت الوحدة بين القاهرة ودمشق مجددا في العام ١٩٥٨ على يد جمال عبد الناصر. يترك إبراهيم طرخان النهاية مفتوحة إذ يتحدث عن كيف "أجمعت الأمة العربية والإسلامية على كلمة واحدة، دون استثناء" لتحرير القدس الذي تم في سنة ١١٨٧م، بقيادة الناصر صلاح الدين، ورغم أنه يتوقف بحديثه عند هذه النقطة لكنه بطبيعة الحال يترك للقارئ الفطن تخيل بقية المقارنة التي ينقصها فقط المشهد الأخير وهو انتصار عبد

---

[١] المرجع نفسه؛ ص ٨-١٠.

الناصر وتحرير القدس، وهو مشهد لم يحدث فظلت المقارنة ناقصة.

نجد مثل هذه الروح موجودة في خطاب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، فهو يقول في مقدمة عمله عن "الناصر صلاح الدين"[١]: "التاريخ مليء بسير الأبطال والأعلام، فلكل دولة أبطالها ولكل أمة أعلامها الذين تعتز بهم وتفتخر بانتسابهم إليها وتحرص على ترديد سيرهم والتغني بأخلاقهم وأعمالهم، لأن أبناء الأمة يجدون في ذلك كله نوعًا من الاعتزاز بالماضي والفخر بسير الآباء والأجداد، فضلا عن الأمل في المستقبل لأن الأمة التي تنجب بطلًا قادرة على أن تنجب أبطالًا مهما تطل بها الأيام وتتقلب بها الأحداث". هذا النص الافتتاحي لكتاب عاشور لا يمكن قراءته بعيدا عن ذهنية الوقت الذي خرج فيه الكتاب للناس، أي العام ١٩٦٥، فالمتلقي هنا لا يمكن أن يقيم المقارنة بين "الآباء والأجداد" في صورة البطل صلاح الدين، وبين بطل الأحفاد جمال عبد الناصر، فالأخير هو البطل الجديد الذي أنجبته الأمة العربية لمواجهة الخطر الصهيوني.

ولما كان استدعاء صلاح الدين كأحد أبطال "العرب" بهدف أن تعتز الأمة "بهم وتفتخر بانتسابهم إليها وتحرص على ترديد سيرهم والتغني بأخلاقهم وأعمالهم"، فهنا نحن نتحدث عن تقديم سيرة تحرص على تقديم البطل في صورة بلا شوائب والبعد عن مناقشة أي تصرف قد يسيء إلى صورة هذا البطل، بل والاهتمام بتقديمه في صورة "البطل المعبود" الذي هو أقرب إلى صورة الملائكة، وهذا كله من أجل التمكن من إتمام عملية الاستدعاء التاريخي الجارية بتدعيم صورة عبد الناصر من خلال المماثلة بينه وبين صلاح الدين الأيوبي، لذا لم يكن غريبا أن تأتي الكتابات التاريخية الموجهة في هذه الحقبة مدافعة عن قرارات صلاح الدين الأيوبي التي أظهر فيها رغبة في السيطرة على السلطة من أبناء سيده السابق السلطان نور الدين محمود بن زنكي، فهنا تلتزم الكتب التي صدرت في هذه الفترة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: "الناصر صلاح الدين"؛ ص ٣.

بالدفاع عن سياسات صلاح الدين، إذ يقول سعيد عاشور دفاعًا عن اتهامات بالطمع غير المشروع والاعتداء الصارخ على أبناء البيت الزنكي: "إذا وقفنا أمام الحقائق لنتدبرها تدبر المؤرخ المنصف وجدنا أن صلاح الدين هو آخر من يمكن اتهامه بالطمع فيما للغير"(١). فهذه القراءة تزعم أن البطل التاريخي يسير في طريق مرسومة بشكل هندسي لا تعرف أي انحرافات أو تعاطي مع المتغيرات التاريخية، فصلاح الدين هنا يمضي في طريق صناعة بطولاته وأمجاده المكتوبة له من قبل القدر، وكأن الأمر ابن مشروع مرسوم ينفذ صلاح الدين خطواته بمهارة وليس عملية متطورة بنت عصرها وتحدياتها، ومشكلة هذه القراءة للتاريخ هي أنها تعطي البطل تصورا خارقا وفوق عصره وأزماته، وكأنه مبعوث العناية الإلهية لتحقيق مشيئتها، وليس الابن لظروف العصر وأزمته ونتيجة لتفاعل مختلف المتفاعلين في تلك اللحظة التاريخية(٢).

ويشترك إبراهيم طرخان في رسم هذه الصورة الحتمية لصلاح الدين قائلا(٣): "لكي يصل الناصر صلاح الدين إلى هدفه، كان عليه أن يوحد جبهة المسلمين ضد العدو المغتصب، وربما كان هذا الجانب من الجهاد أشق جوانب مشروعه الكبير، لأنه قد يضطر إلى محاربة المعاندين والمنشقين والخونة والمتآمرين من أبناء الشرق العربي، غير أن المصلحة الإسلامية العامة ضد أعداء الإسلام والمسلمين وضد الوطن العربي عامة تقضي حتمًا بتوحيد الكلمة، ولو كان عسيرًا

---

(١) سعيد عاشور: "الناصر صلاح الدين"؛ ص ٦.

(٢) راجع الفصل الذي عقده عاشور تحت عنوان "تدعيم الوحدة"؛ وهو مصاغ بطريقة عكسية تعيد ترتيب الوقائع التاريخية على النتيجة النهائية لتحركات صلاح الدين بانتصاره على الصليبيين، لإظهار جميع منافسيه بمظهر الخونة وأعداء قضية الوحدة العربية، وهي قراءة يمكن أن تثير تشابهات لا يمكن للقارئ في ستينيات القرن العشرين إلا أن تدفعه دفعا للمقارنة بخطاب الدولة المصرية الذي يروج لدور مشابه لعبد الناصر ضد عملاء الاستعمار من بعض الأنظمة العربية المعادية لنظام القاهرة.

(٣) إبراهيم طرخان: "الناصر صلاح الدين"؛ ص ١٥.

على ضعاف النفوس". هذا النص يكتسب أهمية خاصة إذا ما حذفنا "الناصر صلاح الدين" ووضعنا مكانه اسم جمال عبد الناصر، فأننا سنفاجئ بأن السياق لا يختل في ضوء ما يروجه نظام عبد الناصر عن نفسه باعتباره المدافع الأول عن العروبة والداعي الأكبر لوحدة العرب تحت قيادته، في وقت كانت مصر عبد الناصر تواجه ذروة صراعها مع الكيان الإسرائيلي، بالتوازي مع التنافس الحاد مع النظام البعثي في سورية والعراق، فضلا عن الصراع مع النظم "الرجعية" التي تقودها المملكة السعودية، بحسب تصنيفات النظام المصري وقتذاك.

ونصل إلى قمة الوضوح في الاستدعاء التاريخي عند محمد سامي الدهان في كتابه عن صلاح الدين، فالرجل يهدي الكتابة ابتداء "إلى من يحمل رسالة صلاح الدين في جمع شمل العرب وإنقاذ فلسطين"، بل يكشف عن دواعي تأليف الكتاب بكل صراحة قائلًا: "نحن لا نؤلف هذه الصفحات لعرض النظريات ومناقشة الآراء" بل لهدف "أن نتخذ من العصر والرجل [أي صلاح الدين] سبيلًا إلى فهم عصرنا وحياتنا ومحلنا من العالم الأوروبي اليوم، وقد عاد الأوروبيون بتفكيرهم في القرن العشرين إلى ما كان عليه أجدادهم في القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، يحاولون من جديد أن ينشئوا في بلادنا ولايات متقطعة لهم، تحت أسماء جديدة، ليست باسم الدين هذه المرة، وإنما هي باسم حق إسرائيل في ربوعنا... ونحن نؤمن أشد الإيمان بأن التاريخ يتكرر أبدًا"[١]، بل يصل إلى النتيجة الحتمية وهي المضاهاة الكاملة بين العصرين قائلا: "ويشهد الله أننا وقفنا غير مرة عند تسيطر هذه الصفحات وقفة الدهشة والذهول، لتقارب الأحداث بين عصر صلاح الدين وعصرنا وأحوال زمانه وزماننا"[٢].

ويعبر سامي الدهان بوضوح عن حمولة الاستدعاء التاريخي لصلاح الدين باعتباره رمزًا للجهاد ضد الغرب، وبطلًا للوحدة العربية في الخطاب الناصري، إذ

---

(١) سامي الدهان: "الناصر صلا الدين الأيوبي؛ ص ١٠.

(٢) سامي الدهان: "الناصر صلا الدين الأيوبي؛ ص ١٣.

يقول بلغة توظف التاريخ بوضوح وتستدعي خطابة الستينيات الزاعقة: "هذه الوحدة الكبرى التي نهض لها صلاح الدين فحققها، وكاد يبلغ ذروة أمانيه فيها لولا موته، هي الوحدة التي ينهض لها قادتنا وشعبنا وتصبو إليها عيوننا وأفئدتنا، فنزيل الحصون اليهودية... ونعيد فلسطين قطعة من أرضنا... إن العرب لينتظرون ذكرى صلاح الدين اليوم أكثر من أي يوم مضى، فإن أيام صلاح الدين عادت تنتظر الناصر الجديد لحطين جديدة"، مذكرًا بمشهد مبايعة الرئيس جمال عبد الناصر أمام قبر صلاح الدين، "ليقود العرب إلى وحدة كبرى... ليكتبوا من جديد صفحات الفخار والأمجاد كما كتبها صلاح الدين في عصره"[١].

ومع ارتفاع المد العروبي في صياغة الكتب التاريخية عن صلاح الدين في تلك الفترة، نجد في الكتب التاريخية التي خرجت عن صلاح الدين في فترة حكم عبد الناصر، غياب أي محاولة لمعالجة تعتمد على دراسة التغيرات العميقة التي عاشتها المنطقة وقت صلاح الدين، وكيف أثرت فيه وكيف أثر فيها، ليتم التركيز على تصدير صورة لصلاح الدين وكأنه أعلى من صراعات عصره، وأنه صاحب مشروع واضح ومتكامل فرضه على العصر ورجاله فرضًا، وأنه رمز للبطولة العربية في أعلى وأنقى صورها، في ترسيخ لنظرية البطل المنقذ كما وضعها توماس كارليل[٢]، فنحن هنا نواجه البطل الوحيد صلاح الدين يواجه الأعداء من "الزنكيين والباطنية والصليبيين، وهي القوى الثلاث التي تحالفت ضده لتحول دون تحقيق الوحدة الإسلامية بين العراق والشام ومصر"[٣]. وهنا يتم إنكار واقع أن هذا العصر تميز بسرعة تبدل التحالفات بين مختلف القوى الإسلامية والصليبية، فلم يكن استهداف صلاح الدين خروجا عن روح العصر، وإنما هي قراءة تريد

---

(١) المرجع نفسه؛ ص ١٤٤.

(٢) توماس كارليل: "الأبطال"؛ ترجمة محمد السباعي؛ القاهرة- المطبعة المصرية (١٩٣٠م)؛ وخاصة المحاضرة السادسة الخاصة بـ "البطل في صورة ملك".

(٣) سعيد عاشور: "الناصر صلاح الدين"؛ ص ١٢٢.

الإيحاء بأن صلاح الدين هو مبعوث العناية الإلهية، وبالتالي انتصاره حتمي، كما أنه يُفهم من بين السطور أن جمال عبد الناصر وريث صورة صلاح الدين، سيكون انتصاره حتمي هو الآخر. وهنا تبدو خيانة المؤرخ في صياغة أطروحته التاريخية التي تأتي في سياق خدمة المشروع السياسية وإعادة كتابة التاريخ من أجل صياغة أطروحة لصلاح الدين شبه أسطورية من أجل التماهي مع المشروع الناصري، "ولكن يبقى واجب المؤرخ أن يؤكد أن صلاح الدين كان ابن عصره، وتأثر بأحداثه، كما أثر فيها إلى حد ما. كانت الحروب الصليبية ظاهرة خاصة، في وقت خاص من التاريخ، وتطلبت ردًا خاصًا من جانب المسلمين"(١).

هنا تظهر أزمة الكتابة التاريخية عن صلاح الدين في عصر جمال عبد الناصر، فالنماذج التي استعرضها البحث، لم تستطع الخروج من عباءة عبد الناصر في نظرتها إلى صلاح الدين، فحولت الأخير إن تصريحا أو تلميحا إلى مجرد عباءة تتناسب مع حجم عبد الناصر وأهداف مشروعه القومي العروبي، ومن أجل إنجاز هذه المهمة تم صياغة سيرة صلاح الدين بشكل مثالي وحذف كل ما قد يصيب هذه الصورة بالتشويه، والدفاع المستميت عن سياساته، لأنه ضمنيا دفاعا عن جمال عبد الناصر، بطل العروبة في العصر الحديث، خاصة أن وجود إسرائيل واحتلالها لأراضي فلسطين والقدس، تجعل استعادة نموذج صلاح الدين ذات جاذبية لا تقاوم، كبطل للمقاومة والانتصار على الغرب المحتل، خصوصا عندما أسس عبد الناصر خطابه على معاداة إسرائيل وتحرير فلسطين، ومن هنا كان الإغراء الذي سقط فيه معظم المؤرخين وقتذاك فلم يستطيعوا أن ينزعوا نظارة عبد الناصر عند سرد تاريخ صلاح الدين، لكن السؤال المهم هو: هل الكتابة التاريخية في مصر طوال فترة عبد الناصر لم تستطع أن تخرج من عباءة المشروع الناصري فظلت حبيسة الرؤية الناصرية للأمور أم أنها كانت متحررة من سطوة النظام المعروف بقبضته الأمنية؟

---

(١) عبد الرحمن عزام: "صلاح الدين"؛ ص ٢٠.

يبدو الأمر فيما يتعلق بصلاح الدين أن الإجابة هي أن الكتابة التاريخية كانت تعبيرا عن عصرها بأكثر مما تكون تعبيرا عن دراسة أكاديمية لصلاح الدين وعصره، فصورة البطل الذي يتم استخدامه من أجل الترويج للبطل عبد الناصر ومشروعه السياسي كانت الأساس الذي أنطلق منه معظم المؤرخين الذين درسنا أعمالهم في هذه الفترة، سواء كان الأمر بصورة واعية أو غير واعية، عن إقتناع أو مجرد مسايرة للسائد والرائج. أما إطلاق حكم على مجمل الكتابة التاريخية في مصر في الخمسينيات والستينيات فيحتاج إلى دراسة أكبر وأوسع.

❋ ❋ ❋

مراجع البحث

- أحمد أحمد البدوي: "صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه"؛ القاهرة- وزارة الثقافة والإرشاد القومي (المكتبة الثقافية ٢٣)؛ ١٩٦٠.
- إبراهيم الأبياري: "البطل الخالد صلاح الدين والدولة الأيوبية"؛ القاهرة- دار النهضة العربية؛ ١٩٦٢.
- إبراهيم علي طرخان: "الناصر صلاح الدين وتحرير القدس"؛ القاهرة- وزارة الثقافة (المكتبة الثقافية ١٨٩)؛ ١٩٦٨.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: "الناصر صلاح الدين"؛ القاهرة- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر؛ ١٩٦٥.
- السيد الباز العريني: "مصر في عصر الأيوبيين"؛ القاهرة- وزارة التربية والتعليم (سلسلة الألف كتاب ١٦٩) ١٩٦٠.
- عباس محمود العقاد: "صلاح الدين"؛ الكويت- مجلة العربي، العدد الأول، ديسمبر ١٩٥٨.
- عبد الرحمن عزام: "صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني"؛ ترجمة قاسم عبده قاسم؛ الدوحة- مؤسسة قطر للنشر؛ ط٢ (٢٠١٣).
- فوزي بخيت حسين: "صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية زمن الصليبيين"؛ الإسكندرية- دار الدعوة؛ ١٩٦٠.
- ماك خوري: "المشروع القومي العربي في سينما يوسف شاهين"؛ ترجمة حسين بيومي؛ القاهرة- المركز القومي للترجمة؛ ٢٠١٣.
- محمد سامي الدهان: "الناصر صلاح الدين الأيوبي"؛ القاهرة- دار المعارف (١٩٦٠).
- محمد مؤنس عوض: "الحروب الصليبية دراسات تاريخية وببيلوغرافية"؛ القاهرة- دار الآفاق العربية (٢٠١٣م).
- محمد مؤنس عوض: "رؤية عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤م) لصلاح الدين الأيوبي (١١٣٨-١١٩٣م)"؛ جامعة عين شمس- مجلة بحوث الشرق الأوسط (العدد ٦١)؛ ٢٠٢١.
- محمد فريد أبو حديد: "صلاح الدين الأيوبي"؛ القاهرة- لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ ١٩٢٧.
- محمد قنديل البقلي: "وحدة العادات والتقاليد بين مصر والشام"؛ القاهرة- مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٦٣).
- نظير حسان سعداوي: "جيش مصر في أيام صلاح الدين"؛ القاهرة- مكتبة النهضة المصرية؛ ١٩٥٦.
- يوسف الشويري: "علم التاريخ العربي.. الخطاب التاريخي والدولة والأمة"؛ ترجمة فكتور سحاب؛ بيروت- مركز دراسات الوحدة العربية؛ ٢٠١٩.